

نفس الطير

من كتابه

جامع البيان عن تأويل آي القرآن

هَذْبُهُ وَحَقَّقَهُ وَصَبَّطَ نَصَّهُ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ

الدكتور نبشاعواد معروف عصام فارس الحرساني

المجلد الخامس

الإشراء إلى التملك

مؤسسة الرسالة



نفس الطي

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ
الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ
هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾

يعني تعالى ذكّره بقوله: «سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا» تنزيهاً للذي
أسرى عبده وتبرئته له مما يقول فيه المشركون من أن له من خلقه شريكاً، وأن
له صاحبةً وولداً، وعلواً له وتعظيماً عما أضافوه إليه، ونسبوه من جهالاتهم وخطأ
أقوالهم.

ويعني بقوله: «لَيْلًا» من الليل.

وأما قوله: «مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ» فإنه اختلف فيه وفي معناه.

فقال بعضهم: يعني من الحرم، وقال: الحرم كله مسجد.

وقال آخرون: بل أسري به من المسجد، وفيه كان حين أسري به.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، أن يقال: إن الله عز وجل أخبر أنه
أسرى بعبده من المسجد الحرام، والمسجد الحرام هو الذي يتعارفه الناس
بينهم إذا ذكروه.

الإسراء: ١

وقوله: «إلى المسجد الأقصى» يعني: مسجد بيت المقدس، وقيل له: الأقصى، لأنه أبعد المساجد التي تُزار، ويبتغى في زيارته الفضل بعد المسجد الحرام.

فتأويل الكلام: تنزيهاً لله، وتبرئة له مما نَحَلَّه المشركون من الإشراك والأنداد والصاحبة، وما يُجَلُّ عنه جَلُّ جلاله، الذي سار بعبد له ليلاً من بيته الحرام إلى بيته الأقصى.

ثم اختلف أهل العلم في صفة إسراء الله تبارك وتعالى بنبيه ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى.

فقال بعضهم: أسرى الله بجسده، فسار به ليلاً على البراق من بيته الحرام إلى بيته الأقصى حتى أتاه، فأراه ما شاء أن يريه من عجائب أمره وعبره وعظيم سلطانه، فجمعت له به الأنبياء، فصلّى بهم هنالك، وعرج به إلى السماء حتى صعد به فوق السموات السبع، وأوحى إليه هنالك ما شاء أن يوحى، ثم رجع إلى المسجد الحرام من ليلته، فصلّى به صلاة الصبح.

وقال آخرون ممن قال أسري بالنبى ﷺ إلى المسجد الأقصى بنفسه وجسمه: أُسْرِيَ به عليه السلام، غير أنه لم يدخل بيت المقدس، ولم يُصَلِّ فيه، ولم ينزل عن البراق حتى رجع إلى مكة.

وقال آخرون: بل أُسْرِيَ بروحه، ولم يُسَرَّ بجسده.

والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله أسرى بعبد محمد ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، كما أخبر الله عباده، وكما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ، أن الله حمّله على البراق حين أتاه به، وصلى هنالك بمن صلى من الأنبياء والرسل، فأراه ما أراه من الآيات؛ ولا معنى لقول من قال: أسرى بروحه دون جسده، لأن ذلك لو كان كذلك لم يكن

في ذلك ما يُوجِبُ أَنْ يكون ذلك دليلاً على نبوته، ولا حجة له على رسالته، ولا كَانَ الذين أنكروا حقيقة ذلك من أهل الشرك، وكانوا يدفعون به عن صدقه فيه، إذ لم يكن منكراً عندهم، ولا عند أحدٍ من ذوي الفطرة الصحيحة من بني آدم أَنْ يرى الرائي منهم في المنام ما على مسيرة سنة، فكيف ماهو على مسيرة شهرٍ أو أقل؟ وبعد، فإن الله إنما أخبر في كتابه أنه أسرى بعبده، ولم يخبرنا أنه أسرى بروح عبده، وليس جائزاً لأحد أن يتعدى ما قَالَ الله إلى غيره. فإن ظَنَ ظانٌّ أَنْ ذلك جائزٌ، إذ كانت العربُ تفعلُ ذلك في كلامها، كما قال قائلهم:

حَسِبْتُ بُغَامَ رَاحِلَتِي عَنَاقاً وَمَا هِيَ وَيَبَ غَيْرِكِ بِالْعَنَاقِ!

يعني: حسبتُ بُغَامَ راحلتي صوت عناق، فحذف الصوتَ واكتفى منه بالعناق، فإنَّ العرب تفعل ذلك فيما كان مفهوماً مراد المتكلم منهم به من الكلام. فأما فيما لا دلالة عليه إلا بظهوره، ولا يُوصَلُ إلى معرفة مراد المتكلم إلا ببيانه، فإنها لا تحذف ذلك، ولا دلالة تدلُّ على أَنَّ مراد الله من قوله: «أَسْرَى بِعَبْدِهِ» أسرى بروح عبده، بل الأدلة الواضحة، والأخبار المتتابعة عن رسول الله ﷺ أَنَّ الله أسرى به على دابة: يُقال لها البراق؛ ولو كان الإسراء بروحه لم تكن الروحُ محمولةً على البراق، إذ كانت الدوابُّ لا تحملُ إلا الأجسام. إلا أن يقول قائل: إنَّ معنى قولنا: أسرى بروحه: رأى في المنام أنه أسرى بجسده على البراق، فيكذب حينئذٍ بمعنى الأخبار التي رويت عن رسول الله ﷺ، أَنَّ جبرئيلَ حمله على البراق، لأنَّ ذلك إذا كان مناماً على قول قائل هذا القول، ولم تكن الروحُ عنده مما تركبُ الدوابُّ، ولم يحمل على البراق جسم النبي ﷺ، لم يكن النبي ﷺ على قوله حُمِلَ على البراق لا جسمه، ولا شيء منه، وصار الأمرُ عنده كبعض أحلام النائمين، وذلك دَفْعٌ لظاهر التنزيل، وما تتابعَتْ به الأخبارُ عن رسول الله ﷺ، وجاءتْ به الآثارُ

عن الأئمة من الصحابة والتابعين^(١).

وقوله: «الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ» يقول تعالى ذِكْرُهُ: الذي جعلنا حوله البركة لسكانه في معاشهم وأقواتهم وحُرُوبهم وغروبهم.

وقوله: «لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: كي نُري عبدنا محمداً من آياتنا، يقول: من عَبَرْنَا وأدَلَّتْنَا وَحُجَّجْنَا.

وقوله: «إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إن الذي أسرى بعبده هو السميع لما يقول هؤلاء المشركون من أهل مكة في مسرى محمد ﷺ من مكة إلى بيت المقدس، ولغير ذلك من قولهم وقول غيرهم، البصير بما يعملون من الأعمال، لا يخفى عليه شيء من ذلك، ولا يعزبُ عنه علم شيء منه، بل هو محيط بجميعه علماً، ومُخصِّيه عدداً، وهو لهم بالمرصاد، ليجزي جميعهم بما هم أهلُه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا ﴿١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: سبحانه الذي أسرى بعبدِه ليلاً وأتى موسى الكتاب، وردَّ الكلام إلى: «وَأَتَيْنَا»، وقد ابتداء بقوله أسرى لِمَا قَدْ ذكرنا قَبْلُ فيما مضى من فعل العرب في نظائر ذلك من ابتداء الخبر بالخبر عن الغائب، ثم الرجوع إلى الخطاب وأشباهه. وعَنَى بالكتاب الذي أُوتِيَ موسى: التوراة «وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ»، يقول: وجعلنا الكتاب الذي هو التوراة بياناً للحق، ودليلاً لهم على محجة الصواب فيما افترض عليهم، وأمرهم به، ونهاهم عنه.

(١) وهو مستفيض في الأحاديث الصحيحة مما لا يحتاج إلى إغراق.

وقوله: «أَلَا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا» معناه: ألا تتخذوا حفيظاً لكم سواي.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾

يقول تعالى ذكره: سبحانه الذي أسرى بعبد له ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وآتيناه موسى الكتاب وجعلناه هُدىً لبني إسرائيل ذريةً مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ. وَعَنَى بِالذَّرِيَّةِ: جَمِيعٌ مِنْ أَحْتَجَّ عَلَيْهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ بِهَذَا الْقُرْآنِ مِنْ أَجْنَاسِ الْأُمَمِ، عَرَبِهِمْ وَعَجَمِهِمْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَغَيْرِهِمْ، وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ مَنْ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ بَنِي آدَمَ، فَهُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ مَنْ حَمَلَهُ اللَّهُ مَعَ نُوحٍ فِي السَّفِينَةِ.

وقوله: «إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا»، يعني بقوله تعالى ذكره: «إِنَّهُ» إِنَّ نُوحًا، والهَاءُ مِنْ ذِكْرِ نُوحٍ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا اللَّهُ عَلَى نِعَمِهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لُتُقْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَنَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴿٥﴾

وقد بينا فيما مضى قَبْلُ أَنَّ مَعْنَى الْقَضَاءِ: الْفَرَاغُ مِنَ الشَّيْءِ، ثُمَّ يَسْتَعْمَلُ فِي كُلِّ مَفْرُوعٍ مِنْهُ.

فتأويل الكلام في هذا الموضع: وَفَرَّغَ رَبُّكَ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِيمَا أُنْزِلَ

من كتابه على موسى صلوات الله وسلامه عليه بإعلامه إياهم، وإخباره لهم «لَتَقْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ»، يقول: لَتَغْصُنَّ اللَّهُ يامعشر بني إسرائيل ولتخالفنَّ أمره في بلاده مرتين «وَلَتَعْلُنَّ عُلُوقًا كَبِيرًا»، يقول: وَلَتَسْتَكْبِرُنَّ عَلَى اللَّهِ باجترائكم عليه استكباراً شديداً.

وأما قوله: «وَلَتَعْلُنَّ عُلُوقًا كَبِيرًا» فقد ذكرنا قول مَنْ قال: يعني به: استكبارهم على الله بالجرأة عليه، وخلافهم أمره.

وأما قوله: «فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا»، يعني: فإذا جاء وَعْدُ أُولَى المَرَّتَيْنِ اللتين يفسدون بهما في الأرض.

وقوله: «بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ، وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا»، يعني تعالى ذِكْرَهُ بقوله: «بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ» وَجَّهْنَا إِلَيْكُمْ، وأرسلنا عليكم «عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ»، يقول: ذوي بطشٍ في الحروب شديدة.

وقوله: «فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ، وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا»، يقول: فترددوا بين الدورِ والمساكن، وذهبوا وجاءوا، يقال فيه: جاسَ القومُ بين الديار وحاسوا بمعنى واحد، وجست أنا أجوس جوساً وجوساناً.

ويعني بقوله: «وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا» وكان جوسُ القومِ الذين نبعث عليهم خلال ديارهم وعداً من الله لهم مفعولاً ذلك لا مَجَالَة، لأنه لا يُخْلَفُ الميعاد.

ثم اختلف أهل التأويل في الذين عنى الله بقوله: «أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ» فيما كان من فعلهم في المرة الأولى في بني إسرائيل حين بعثوا عليهم، ومن الذين بعث عليهم في المرة الآخرة، وما كان من صنعهم بهم.

فقال بعضهم: كان الذي بعث الله عليهم في المرة الأولى جالوت، وهو

من أهل الجزيرة^(١).

وقال آخرون: بل بعث عليهم في المرة الأولى سنحاريب^(٢).

وقال آخرون: يعني بذلك قوماً من أهل فارس، قالوا: ولم يكن في المرة الأولى قتال.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ
وَأَمَدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٥﴾

يقول تعالى ذكره: ثم أدلناكم يابني إسرائيل على هؤلاء القوم الذين وصفهم جل ثناؤه أنه يبعثهم عليهم، وكانت تلك الإدالة والكرّة لهم عليهم، فيما ذكر السدي في خبره أن بني إسرائيل غزوه، وأصابوا منهم، واستنقذوا ما في أيديهم منهم. وفي قول آخرين: إطلاق الملك الذي غزاهم ما في يديه من أسراهم، ورد ما كان أصاب من أموالهم عليهم من غير قتال. وفي قول ابن عباس الذي رواه عطية عنه: هي إدالة الله إياهم من عدوهم جالوت حتى قتلوه. «وأمددناكم بأموال وبنيين»، يقول: وزدنا فيما أعطيناكم من الأموال والبنين.

وقوله: «وجعلناكم أكثر نفيراً»، يقول: وصيرناكم أكثر عدداً نافر منهم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوُوا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرُوا مَا عَلَوُا تَتْبِيرًا ﴿٦﴾

(١) يعني: الجزيرة بين دجلة والفرات، وهي المعروفة بجزيرة ابن عمر.

(٢) أحد ملوك العراق الأشداء المعروفين.

يقول تعالى ذِكْرُهُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فِيمَا قَضَىٰ إِلَيْهِمْ فِي التَّوْرَةِ: «إِنْ أَحْسَنْتُمْ»
يا بني إسرائيل، فأطعتم الله وأصلحتم أمركم، ولزمتم أمره ونهيه «أَحْسَنْتُمْ»
وفعلتم ما فعلتم من ذلك «لَأَنْفُسِكُمْ» لأنكم إنما تفعلون بِفِعْلَتِكُمْ ما تفعلون من
ذلك أَنْفُسَكُمْ في الدنيا والآخرة. أما في الدنيا فَإِنَّ الله يدفع عنكم من بَعَاكُم
سوءاً، وينمي لكم أموالكم، ويزيدكم إلى قُوَّتِكُمْ قُوَّةً. وأما في الآخرة فَإِنَّ الله
تعالى يُثَبِّتُكُمْ به جنانه. «وإِنْ أَسَأْتُمْ»، يقول: وَإِنْ عَصَيْتُمْ الله وركبتم ما نهاكم
عنه حينئذٍ، فإلى أَنْفُسِكُمْ تسيئون، لأنكم تُسَخِّطُونَ بذلك على أَنْفُسِكُمْ رَبَّكُمْ،
فيسلط عليكم في الدنيا عِدُوَّكُمْ، ويمكِّن منكم مَنْ بَعَاكُمْ سوءاً، ويخلدكم في
الآخرة في العذاب المهين. وقال جل ثناؤه: «وإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا» والمعنى: فإليها
كما قال: «بَأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا» والمعنى: أوحى إليها.

وقوله: «فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ»، يقول: فإذا جاء وَعْدُ الْمَرَّةِ الْآخِرَةِ من
مَرَّتِي إفسادكم يا بني إسرائيل في الأرض «لِيَسُوءُوا وَجُوهَكُمْ»، يقول: لِيَسُوءَ
مَجِيءُ الْوَعْدِ لِلْمَرَّةِ الْآخِرَةِ وَجُوهَكُمْ فيقْبَحُهَا.

وقوله: «وَلْيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ»، يقول: وليدخل
عِدُوَّكُمْ الذي أبغضه عليكم مسجدَ بَيْتِ الْمَقْدَسِ قهراً منهم لكم وَغَلَبَةً، كما
دخلوه أَوَّلَ مَرَّةٍ حين أفسدتم الفسادَ الْأَوَّلَ في الأرض.

وأما قوله: «وَلْيَتَّبِعُوا مَا عَلَّمُوا تَتَّبِعُوا»، فإنه يقول: وليدبروا ما عَلَّمُوا عليه من
بِلَادِكُمْ تدميراً، يقال منه: دَمَرْتُ الْبَلَدَ: إِذَا خَرَّبْتُهُ وَأَهْلَكْتُ أَهْلَهُ، وَتَبَرَّ تَبَرَّأً
وتباراً، وَتَبَرَّتْ أَبْتَرُهُ تَتَبِيرًا. ومنه قول الله تعالى ذكره: «وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا»
يعني: هلاكاً.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عَدُنَا

وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿١٢﴾

يقول تعالى ذكره: لعل ربكم يا بني إسرائيل أن يرحمكم بعد انتقامه منكم بالقوم الذين يبعثهم الله عليكم ليسوء مبعثه عليكم وجوهكم، وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة، فيستنقذكم من أيديهم، ويتشلكم من الذل الذي يحل بهكم، ويرفعكم من الخمول التي تصيرون إليها؛ فيعزكم بعد ذلك، وعسى من الله: واجب، وفعل الله ذلك بهم، فكثرت عددهم بعد ذلك، ورفع حساستهم، وجعل منهم الملوك والأنبياء، فقال جل ثناؤه لهم: وإن عذتكم يا معشر بني إسرائيل لمعصيتي وخلاف أمري، وقتل رسلي، عذنا عليكم بالقتل والسب، وإحلال الذل والصغار بكم، فعادوا فعاد الله عليهم بعقابه وإحلال سخطه بهم.

وقوله: «وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا»، يعني: فراشاً ومهاداً.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٨﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعدَّنا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٩﴾

يقول تعالى ذكره: إن هذا القرآن الذي أنزلناه على نبينا محمد ﷺ يرشد ويسد من اهتدى به «للتي هي أقوم»، يقول: للسبيل التي هي أقوم من غيرها من السبل، وذلك دين الله الذي بعث به أنبياءه وهو الإسلام، يقول جل ثناؤه: فهذا القرآن يهدي عباد الله المهتدين به إلى قصد السبيل التي ضل عنها سائر أهل الملل المكذبين به.

وقوله: «وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ»، يقول: ويبشر أيضاً مع هدايته من اهتدى به للسبيل الأqvص الذين يؤمنون بالله ورسوله، ويعملون في دنياهم بما أمرهم الله به، وينتهون عما نهاهم عنه بأن «لهم أجراً» من الله على إيمانهم وعملهم

الصالحات «كَبِيرًا»، يعني: ثواباً عظيماً، وجزاء جزيلاً، وذلك هو الجنة التي أعدّها الله تعالى لمن رَضِيَ عمله.

وقوله: «وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأن الذين لا يُصَدِّقُونَ بالمعادِ إلى الله، ولا يُقَرُّونَ بالثواب والعقاب في الدنيا، فهم لذلك لا يتحاشون من ركوبِ معاصي الله «أَعْتَدْنَا لَهُمْ»، يقول: أعددنا لهم، لقدومهم على رَبِّهِمْ يومَ القيامة «عَذَاباً أَلِيماً»، يعني: موجعاً، وذلك عذابُ جهنم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا

يقول تعالى ذِكْرُه مُذَكِّراً عباده أياديه عندهم، ويدعو الإنسان على نفسه وولده وماله بالشرِّ، فيقول: اللَّهُمَّ أَهْلِكْهُ وَالْعَنَّهُ عند ضَجَرِه وغضبه، كدعائه بالخير: يقول: كدعائه رَبَّهُ بِأَنْ يَهَبَ لَهُ العافية، ويرزقه السلامة في نفسه وماله وولده، يقول: فلو اسْتَجِيبَ له في دعائه على نفسه وماله وولده بالشرِّ كما يُسْتَجَابُ له في الخير هَلَكَ، ولكن الله بفضله لا يستجيبُ له في ذلك.

واختلف في تأويل قوله: «وكان الإنسان عَجُولًا».

فقال بعضهم: معناه: وكان الإنسان عَجُولًا، بالدعاء على مايكره، أن يُسْتَجَابَ له فيه.

وقال آخرون: عَنِ بذلك آدم أنه عجل حين نفخ فيه الروح قبل أن تجري في جميع جَسَدِه، فرام النهوض، فوصف ولَدُه بالاستعجال، لما كان من استعجال أبيهم آدم القيام، قبل أن يتم خلقه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَحَوَّنَا آيَةً

الَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلُنَا تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ومن نعمته عليكم أيها الناس، مخالفته بين علامة الليل وعلامة النهار، باظلامه علامة الليل، وإضاءته علامة النهار، لتسكنوا في هذا، وتتصرفوا في ابتغاء رزق الله الذي قَدَرَهُ لكم بفضله في هذا، ولتعلموا باختلافهما عدد السنين وانقضاءها، وابتداء دخولها، وحساب ساعات النهار والليل وأوقاتها. «وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلُنَا تَفْصِيلًا»، يقول: وكل شيء بيناه بياناً شافياً لكم أيها الناس لتشكروا الله على ما أنعم به عليكم من نعمه، وتخلصوا له العبادة، دون الآلهة والأوثان.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وكل إنسان ألزمناه ما قضى له أنه عامله، وهو صائر إليه من شقاء أو سعادة بعمله في عُنُقِهِ لا يفارقه، وإنما قوله: «أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ» مَثَلٌ لِّمَا كَانَتْ الْعَرَبُ تَتَفَاءَلُ بِهِ أَوْ تَتَشَاءَمُ مِنْ سَوَانِحِ الطَّيْرِ وَبَوَارِحِهَا^(١)، فأعلمهم جل ثناؤه أن كل إنسان منهم قد ألزمه ربُّه طائرُهُ في عنقه نحساً كان ذلك الذي ألزمه من الطائر، وشقاء يُورِدُهُ سعيراً، أو كان سعداً يورده جنات عدن.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا



(١) سوانح الطير: مباركها، وبوارح الطير: أشاتمها، يقال طائر أشام جاء بالشؤم.

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا»، فيقال له: «اقرأ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا»، فَتَرَكَ ذِكْرَ قَوْلِهِ (فَنَقُولُ لَهُ) اكتفاءً بدلالة الكلام عليه.

وَعَنَى بقوله: «اقرأ كِتَابَكَ»: اقرأ كتابَ عملك الذي عملته في الدنيا، الذي كان كَاتِبَانَا يَكْتَبَانِهِ، وَنُحْصِيهِ عَلَيْكَ. «كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا»، يقول: حَسِبَكَ الْيَوْمَ نَفْسَكَ عَلَيْكَ حَاسِبًا يَحْسِبُ عَلَيْكَ أَعْمَالَكَ، فيحصىها عَلَيْكَ، لا نبتغي عَلَيْكَ شَاهِدًا غَيْرَهَا، ولا نَطْلُبُ عَلَيْكَ مُحْصِيًا سِوَاهَا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: مَن أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا



يقول تعالى ذِكْرُهُ: مَن اسْتَقَامَ عَلَىٰ طَرِيقِ الْحَقِّ فَاتَّبِعْهُ، وَذَلِكَ دِينُ اللَّهِ الَّذِي ابْتَعَثَ بِهِ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ «فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ»، يقول: فليس ينفعُ بِلِزُومِهِ الاستقامة، وإيمانه بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ غَيْرَ نَفْسِهِ. «وَمَن ضَلَّ»، يقول: وَمَن جَارَ عَنِ قَصْدِ السَّبِيلِ، فَأَخَذَ عَلَىٰ غَيْرِ هُدًى، وَكَفَرَ بِاللَّهِ وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ وَبِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مِنَ الْحَقِّ، فليس يضرُّ بِضَلَالِهِ وَجَوْرِهِ عَنِ الْهُدَىٰ غَيْرَ نَفْسِهِ، لِأَنَّهُ يُوجِبُ لَهَا بِذَلِكَ غَضَبَ اللَّهِ وَأَلِيمَ عَذَابِهِ. . وَإِنَّمَا عَنَى بقوله: «فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا» فَإِنَّمَا يَكْسِبُ إِثْمَ ضَلَالِهِ عَلَيْهَا لا عَلَىٰ غَيْرِهَا.

وقوله: «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ»، يعني تعالى ذِكْرُهُ: ولا تحملُ حَامِلَةٌ حَمْلَ أُخْرَىٰ غَيْرِهَا مِنَ الْأَثَامِ. وقال: «وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ» لِأَنَّ مَعْنَاهَا: ولا تَزِرُ نَفْسٌ وَازِرَةً وَزِرَ نَفْسٍ أُخْرَىٰ يَقَالُ مِنْهُ: وَزَرْتُ كَذَا أَزْرَهُ وَزَرًا، والوزر: هو الْإِثْمُ، يُجْمَعُ أَوْزَارًا، كما قال تعالى: «وَلَكِنَّا حُمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ» وَكَأَنَّ

معنى الكلام: ولا تأثم آثمة إثم أخرى، ولكن على كُلِّ نفسٍ إثمها دونَ إثمٍ غيرها من الأنفس.

وقوله: «وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا»، يقول تعالى ذِكْرَهُ: وما كنا مُهْلِكِي قومٍ إلا بعد الإعذارِ إليهم بالرسْلِ، وإقامةِ الحجةِ عليهم بالآياتِ التي تقطعُ عُذْرَهُمْ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا. فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾

يعني جل ثناؤه: أَمَرْنَا أَهْلَهَا بِالطَّاعَةِ فَعَصَوْا وَفَسَقُوا فِيهَا، فَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ، لَأَن الْأَغْلَبَ مِنْ مَعْنَى: أَمَرْنَا: الْأَمْرُ، الَّذِي هُوَ خِلَافُ النَّهْيِ دُونَ غَيْرِهِ، وَتَوْجِيهِ مَعَانِي كَلَامِ اللَّهِ جَلَّ ثَنَاهُ إِلَى الْأَشْهَرِ الْأَعْرَفِ مِنْ مَعَانِيهِ، أُولَى، مَا وَجَدَ إِلَيْهِ سَبِيلًا، مِنْ غَيْرِهِ.

ومعنى قوله: «فَفَسَقُوا فِيهَا»: فَخَالَفُوا أَمْرَ اللَّهِ فِيهَا، وَخَرَجُوا عَنْ طَاعَتِهِ. «فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ»، يَقُولُ: فَوَجَبَ عَلَيْهِمْ بِمَعْصِيَتِهِمُ اللَّهَ وَفُسُقِهِمْ فِيهَا، وَعِيدَ اللَّهُ الَّذِي أَوْعَدَ مَنْ كَفَرَ بِهِ، وَخَالَفَ رُسُلَهُ، مِنَ الْهَلَاكِ بَعْدَ الْإِعْذَارِ وَالْإِنْذَارِ بِالرَّسْلِ وَالْحُجَجِ «فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا»، يَقُولُ: فَخَرَّبْنَاهَا عِنْدَ ذَلِكَ تَخْرِيْبًا، وَأَهْلَكْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنْ أَهْلِهَا إِهْلَاكًا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾

وهذا وعيدٌ من الله تعالى ذِكْرَهُ مُكَذِّبِي رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ مُشْرِكِي

قريش، وتهديدٌ لهم بالعقاب، وإعلامٌ منه لهم، أنهم إن لم ينتهوا عما هم عليه مُقيمون من تكذيبهم رسوله عليه الصلاة والسلام أنه مُجلٌ بهم سخطه، ومنزلٌ بهم من عقابه ما أنزل بمن قبلهم من الأمم الذين سلكوا في الكفر بالله، وتكذيب رُسُلِهِ سبيلهم، يقول الله تعالى ذِكرُه: وقد أهلكنا أيها القوم من قبلكم من بعد نوحٍ إلى زمانكم قروناً كثيرة كانوا من جحود آياتِ الله والكفر به، وتكذيب رسله، على مثل الذي أنتم عليه، ولستم بأكرم على الله تعالى منهم، لأنه لا مناسبة بين أحدٍ وبين الله جل ثناؤه، فيعذب قوماً بما لا يعذب به آخريين، أو يعفو عن ذنوبِ ناسٍ فيعاقب عليها آخريين، يقول جل ثناؤه: فأنبيوا إلى طاعةِ الله ربِّكم، فقد بعثنا إليكم رسولاً يُنبهكم على حججنا عليكم، ويوقظكم من غفلتكم، ولم نكن لنعذب قوماً حتى نبعث إليهم رسولاً منبهاً لهم على حججِ الله، وأنتم على فسوقكم مقيمون، وكفى بربك يا محمدُ بذنوبِ عباده خبيراً: يقول: وحسبك يا محمدُ بالله خابراً بذنوبِ خلقه عالماً، فإنه لا يخفى عليه شيءٌ من أفعالِ مشركي قومك هؤلاء، ولا أفعالِ غيرهم من خلقه، هو بجميعِ ذلك عالمٌ خابرٌ بصير، يقول: يبصرُ ذلك كله فلا يغيبُ عنه منه شيءٌ، ولا يعزُبُ عنه مثقالُ ذرةٍ في الأرض ولا في السماء، ولا أصغرُ من ذلك ولا أكبر.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُوماً مَدْحُورًا ﴿١٨﴾

يقول تعالى ذِكرُه: مَنْ كَانَ طَلِبُهُ الدُّنْيَا الْعَاجِلَةَ وَلَهَا يَعْمَلُ وَيَسْعَى، وَإِيَّاهَا يَبْتَغِي، لَا يَوْقِنُ بِمَعَادٍ، وَلَا يَرْجُو ثَوَاباً وَلَا عِقَاباً مِنْ رَبِّهِ عَلَى عَمَلِهِ «عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ»، يقول: يعجل الله له في الدنيا ما يشاء من بسطِ الدنيا عليه، أو تَقْتِيرِهَا لِمَنْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ بِهِ، أَوْ إِهْلَاكَه بِمَا يَشَاءُ مِنْ

عقوباته. «ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاَهَا»، يقول: ثم أصليناه عند مقدّمه علينا في الآخرة جهنم، «مَذْمُومًا» على قِلَّةِ شُكْرِهِ إيانا، وسوء صنيعه فيما سلف من أيادينا عنده في الدنيا، «مَذْخُورًا»، يقول: مُبْعَدًا: مُقْصَى في النار.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾

يقول تعالى ذكره: مَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَإِيَّاهَا طَلَبَ، ولها عَمِلَ عملها، الذي هو طاعة الله وما يرضيه عنه، وأضاف السعي إلى الهاء والألف، وهي كناية عن الآخرة، فقال: وسعى للآخرة سعي الآخرة، ومعناه: وعمل لها عملها لمعرفة السامعين بمعنى ذلك، وأن معناه: وسعى لها سعيها لها وهو مؤمن، يقول: هو مؤمن مصدق بثواب الله، وعظيم جزائه على سعيه لها، غير مكذب به تكذيب مَنْ أَرَادَ الْعَاجِلَةَ، يقول الله جل ثناؤه: «فَأُولَئِكَ»، يعني: فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ «كَانَ سَعْيُهُمْ»، يعني عملهم بطاعة الله «مَشْكُورًا»، وشكر الله إياهم على سعيهم ذلك حُسْنُ جزائه لهم على أعمالهم الصالحة، وتجاوزته لهم عن سيئها برحمته.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: كَلَّا نُمَدِّدُهُمْ هَهُؤُلَاءِ وَهَهُؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢١﴾

يقول تعالى ذكره: يُمَدِّدُ رَبُّكَ يَا مُحَمَّدُ كَلَا الْفَرِيقَيْنِ مِنْ مُرِيدِي الْعَاجِلَةِ، ومريدي الآخرة، الساعي لها سعيها وهو مؤمن في هذه الدنيا من عطائه، فيرزقهما جميعاً من رزقه إلى بلوغهما الأمد، واستيفائهما الأجل ما كتب لهما، ثم تختلف بهما الأحوال بعد الممات، وتفرق بهما بعد الورد المصادر، ففريق مريدي العاجلة إلى جهنم مَصْدَرُهُمْ، وفريق مريدي الآخرة إلى الجنة

مآبهم، «وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا»، يقول: وما كان عطاء ربك الذي يؤتيه مَنْ يشاء من خلقه في الدنيا ممنوعاً عَمَّنْ بَسَطَهُ عَلَيْهِ لا يقدر أحدٌ من خلقه منعه من ذلك، وقد آتاه الله إياه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ لِنبيه محمد ﷺ: انظر يا محمد بعين قلبك إلى هذين الفريقين اللذين هم أحدهما: الدار العاجلة، وإياها يطلب، ولها يعمل؛ والآخر: الذي يريد الدار الآخرة، ولها يسعى مُوقِناً بثواب الله على سعيه، كيف فضلنا أحد الفريقين على الآخر، بأن بَصَرْنَا هذا رُشْدَهُ، وهديناه للسبيل التي هي أقوم، وَبَسَرْنَاهُ للذي هو أهدي وأرشد، وَخَذَلْنَا هذا الآخر، فأضللناه عن طريق الحق، وأغشيناه بَصَرَهُ عن سبيل الرُّشد. «وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ»، يقول: وفريق مُريد الآخرة أَكْبَرُ في الدار الآخرة درجاتٍ بعضهم على بعض، لتفاوت منازلهم بأعمالهم في الجنة، وَأَكْبَرُ تفضيلاً بتفضيل الله بعضهم على بعضٍ من هؤلاء الفريقين الآخرين في الدنيا فيما بَسَطْنَا لهم فيها.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُومًا ﴿٢٢﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: لا تجعل مع الله شريكاً في لوهته وعبادته، ولكن أخلص له العبادة، وأفرِّد له الألوهة، فإنه لا إله غيره، فإنك إن جعل مع إلهاً غيره، وتعبد معه سواه، تقعد مذموماً: يقول: تصير مَلُومًا على ما ضَيَّعْتَ من شكر الله على ما أنعم به عليك من نعمه، وتصير كَـ

الشكرَ لغير مَنْ أَوْلَاكَ المعروفَ، وفي إشراكك في الحمدِ مَنْ لم يشركه في النعمة عليك غيره، مخذولاً قد أسلمك ربُّك لمن بَغَاكَ سوءاً، وإذا أسلمك ربُّك الذي هو ناصرٌ أوليائه لم يكنْ لك من دونه وليٌ ينصركَ ويدفعُ عنك.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا نَهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾

يعني بذلك تعالى ذِكْرَهُ حُكْمَ رَبِّكَ يا محمدُ بأمرِهِ إياكم ألا تعبدوا إلا الله، فإنه لا ينبغي أن يُعْبَدَ غيره.

وقوله: «وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا»، يقول: وأمركم بالوالدين إحساناً أن تُحْسِنُوا إليهما وتَبَرُّوهما. ومعنى الكلام: وأمركم أن تُحْسِنُوا إلى الوالدين.

وقوله: «فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ»، يقول: فلا تُؤَفِّفْ من شيءٍ تَرَاهُ من أحدهما أو منهما مما يتأذى به الناسُ، ولكن اصبرْ على ذلك منهما، واحتسبْ في الأجرِ صبركَ عليه منهما، كما صبرا عليك في صبرك.

وقوله: «وَلَا تَنْهَرُهُمَا»، يقول جلّ ثناؤه: ولا تَنْزُجِرُهُمَا.

وأما قوله: «وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا»، فإنه يقول جلّ ثناؤه: وقُلْ لهما قولاً جميلاً حسناً.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾

يقول تعالى ذكره: وكُنْ لهما ذليلاً رحمةً منك بهما تُطِيعُهُمَا فيما أمراك

به مما لم يكن لله معصية، ولا تخالفهما فيما أحبا.

وأما قوله: «وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا»، فإنه يقول: ادْعُ الله لوالديك بالرحمة، وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا، وَتَعَطَّفَ عليهما بمغفرتك ورحمتك، كما تعطفًا عليَّ في صغري، فرحمني وربياني صغيراً، حتى استقلتُ بنفسي، واستغنيتُ عنهما.

وقال جماعة من أهل العلم: إِنَّ قَوْلَ اللَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا» منسوخ بقوله: «مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ». القول في تأويل قوله تعالى: رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «رَبُّكُمْ» أيها الناس «أَعْلَمُ» منكم «بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ» من تعظيمكم أمر آبائكم وأمهاتكم وتكرمتهم، والبر بهم، وما فيها من اعتقاد الاستخفاف بحقوقهم، والعقوق لهم، وغير ذلك من ضمائر صدوركم، لا يخفى عليه شيء من ذلك، وهو مُجَازِيكُمْ على حَسَنِ ذلك وسيئِهِ، فاحذَرُوا أَنْ تُضْمِرُوا لَهُمْ سُوءًا، وَتَعَقِدُوا لَهُمْ عَقُوقًا.

وقوله: «إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ»، يقول: إِنْ أَنْتُمْ أَصْلَحْتُمْ نِيَّاتِكُمْ فِيهِمْ، وَأَطَعْتُمْ اللَّهَ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ مِنَ الْبِرِّ بِهِمْ، وَالْقِيَامِ بِحَقُوقِهِمْ عَلَيْكُمْ، بَعْدَ هَفْوَةٍ كَانَتْ مِنْكُمْ، أَوْ زَلَّةٍ فِي وَاجِبٍ لَهُمْ عَلَيْكُمْ مَعَ الْقِيَامِ بِمَا أَلْزَمَكُمْ فِي غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ فَرَائِضِهِ، فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ بَعْدَ الزَّلَّةِ، وَالتَّائِبِينَ بَعْدَ الْهَفْوَةِ غَفُورًا لَهُمْ.

والأَوَّابُ: هو التائب من الذنب، الراجع من معصية الله إلى طاعته، ومما يكرهه إلى ما يرضاه، لَأَنَّ الْأَوَّابَ إِنَّمَا هُوَ فَعَالٌ، مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ: آبَ فُلَانٌ مِنْ كَذَا إِمَّا مِنْ سَفَرِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ، أَوْ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ.

الْقَوْلِ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَآتَ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ
السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ
لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾

اختلف أهل التأويل في المعنى بقوله: «وآت ذَا الْقُرْبَى».

فقال بعضهم: عني به: قرابة الميت من قبل أبيه وأمه، أمر الله جل ثناؤه
عباده بصلتها.

وقال آخرون: بل عني به قرابة رسول الله ﷺ.

وأولى التأويلين عندي بالصواب، تأويل من تأول ذلك أنها بمعنى وصية
الله عباده بصلة قرابات أنفسهم وأرحامهم من قبل آبائهم وأمهاتهم، وذلك أن
الله عز وجل عقب ذلك عقيب حظه عباده على بر الآباء والأمهات، فالواجب
أن يكون ذلك حضا على صلة أنسابهم دون أنساب غيرهم التي لم يجز لها
ذكر.

وإذا كان ذلك كذلك، فتأويل الكلام: وأعط يا محمد ذا قرابتك حقه من
صلتك إياه، وبرك به، والعطف عليه، وخرج ذلك مخرج الخطاب لنبي الله
ﷺ، والمراد بحكمه جميع من لزمته فرائض الله، يدل على ذلك ابتدأه الوصية
بقوله جل ثناؤه: «وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا، إِمَّا يَبْلُغَنَّ
عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا» فوجّه الخطاب بقوله: «وَقَضَى رَبُّكَ» إلى نبي الله ﷺ،
ثم قال: «أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ» فرجع بالخطاب به إلى الجميع، ثم صرف
الخطاب بقوله: «إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ» إلى إفراده به. والمعنى بكل ذلك جميع من
لزمته فرائض الله عز وجل، أفرد بالخطاب رسول الله ﷺ وحده، أو عم به هو
وجميع أمته.

وقوله: «وَالْمَسْكِينِ» وهو الذلّة من أهل الحاجة. وقد دَلَّلْنَا فيما مضى على معنى المسكين بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

وقوله: «وَابْنَ السَّبِيلِ»، يعني: المسافر المنقطع به، يقول تعالى: وَصِلْ قَرَابَتَكَ، فَأَعْطِهِ حَقَّهُ مِنْ صِلَتِكَ إِيَّاهُ، والمسكين ذا الحاجة، والمجتاز بك المنقطع به، فَأَعِنُّهُ، وَقَوِّهِ عَلَى قَطْعِ سَفَرِهِ.

وقوله: «وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا»، يقول: وَلَا تُفَرِّقْ يَا مُحَمَّدُ مَا أَعْطَاكَ اللَّهُ مِنْ مَالٍ فِي مَعْصِيَتِهِ تَفْرِيقًا. وَأَصْلُ التَّبْذِيرِ: التَّفْرِيقُ فِي السَّرْفِ.

وأما قوله: «إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ»، فإنه يعني: إِنَّ الْمَفْرُقِينَ أَمْوَالَهُمْ فِي مَعَاصِي اللَّهِ الْمُنْفِقِيهَا فِي غَيْرِ طَاعَتِهِ أَوْلِيَاءُ الشَّيَاطِينِ، وكذلك تقول العرب لكلِّ ملازمٍ سُنَّةٌ قَوْمٍ وَتَابِعٌ أَثَرِهِمْ: هو أخوهم. «وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا»، يقول: وكان الشيطانُ لنعمة ربه التي أنعمها عليه جَحُودًا لَا يَشْكُرُهُ عَلَيْهَا، ولكنه يكفرها بترك طاعة الله، وركوبه مَعْصِيَتَهُ، فكذلك إخوانه من بني آدَمَ الْمُبَذِّرُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي مَعَاصِي اللَّهِ، لَا يَشْكُرُونَ اللَّهَ عَلَى نِعْمِهِ عَلَيْهِمْ، ولكنهم يَخَالِفُونَ أَمْرَهُ وَيَعْصُونَهُ، وَيَسْتَنْتُونَ - فيما أنعم الله عليهم به من الأموال - التي خَوَّلَهُمْوَهَا عِزَّ وَجَلٍّ - سُنَّتَهُ مِنْ تَرْكِ الشُّكْرِ عَلَيْهَا، وَتَلْقِيهَا بِالْكَفْرِانِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِمَّا تَعْرِضْ عَنْهُمْ أِبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا

فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا ﴿٢٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وَإِنْ تُعْرِضْ يَا مُحَمَّدُ عَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَمَرْتُكَ أَنْ تُؤْتِيَهُمْ حَقُّوْقَهُمْ إِذَا وَجَدْتَ إِلَيْهَا السَّبِيلَ بِوَجْهِكَ عِنْدَ مَسْأَلَتِهِمْ إِيَّاكَ مَا لَا تَجِدُ إِلَيْهِ سَبِيلًا، حَيَاءً مِنْهُمْ وَرَحْمَةً لَهُمْ «أِبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ»، يقول: انتظر رِزْقِي تَنْتَظِرُهُ مِنْ عِنْدِ رَبِّكَ، وَتَرْجُو تَسِيرَ اللَّهِ إِيَّاهُ لَكَ، فَلَا تُؤَيِّسُهُمْ، وَلَكِنْ قُلْ لَهُمْ

قولاً ميسوراً: يقول: ولكن عذهم وعداً جميلاً، بأن تقول: سيرزق الله فأعطيك، وما أشبه ذلك من القول اللين غير الغليظ، كما قال جل ثناؤه: «وأمّا السائل فلا تنهر».

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٨﴾

وهذا مثل ضربه الله تبارك وتعالى للممتنع من الإنفاق في الحقوق التي أوجبها في أموال ذوي الأموال، فجعله كالمشدودة يده إلى عنقه، الذي لا يقدر على الأخذ بها والإعطاء.

وإنما معنى الكلام: ولا تمسك يا محمد يدك بخلاً عن النفقة في حقوق الله، فلا تنفق فيها شيئاً إمساك المغلولة يده إلى عنقه، الذي لا يستطيع بسطها، «ولا تبسطها كل البسط»، يقول: ولا تبسطها بالعطية كل البسط، فتبقى لا شيء عندك، ولا تجد إذا سئلت شيئاً تعطيه سائلك «فتقعد ملوماً محسوراً»، يقول: فتقعد يلومك سائلوك إذا لم تعطهم حين سألوك، وتلومك نفسك على الإسراع في مالك وذهابه، محسوراً: يقول: معيياً، قد انقطع بك، لا شيء عندك تنفقه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٢٩﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: إن ربك يا محمد يبسط رزقه لمن يشاء من عباده، فيوسع عليه، ويقدر على من يشاء، يقول: ويقتدر على من يشاء منهم، فيضيّق عليه. «إنه كان بعباده خبيراً»، يقول: إن ربك ذو خبرة بعباده،

وَمَنْ الَّذِي تُصْلِحُهُ السَّعَةُ فِي الرِّزْقِ وَتُفْسِدُهُ؛ وَمَنْ الَّذِي يُصْلِحُهُ الْإِقْتَارُ وَالضِّيقُ وَيُهْلِكُهُ. «بصيراً»، يقول: هو ذُو بَصِيرٍ بِتَدْبِيرِهِمْ وَسِيَاسَتِهِمْ، يَقُولُ: فَانْتَه يَا مُحَمَّدُ إِلَى أَمْرِنَا فِيمَا أَمْرُنَاكَ وَنَهْيُنَاكَ مِنْ بَسْطِ يَدِكَ فِيمَا تَبْسُطُهَا فِيهِ، وَفِي مَنْ تَبْسُطُهَا لَهُ، وَمِنْ كَفُّهَا عَمَّنْ تَكْفُفُهَا عَنْهُ، وَتَكْفُفُهَا فِيهِ، فَنَحْنُ أَعْلَمُ بِمُصَالِحِ الْعِبَادِ مِنْكَ، وَمِنْ جَمِيعِ الْخَلْقِ وَأَبْصُرُ بِتَدْبِيرِهِمْ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ مَنَ نَّزَرْنَاهُمْ وَإِن كَفَرْنَا إِنْ قَتَلْتَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: «وَقَضَى رَبُّكَ» يَا مُحَمَّدُ «أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا»، «وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ» فَمَوْضِعُ تَقْتُلُوا نُصَبَ عَطْفًا عَلَى أَلَّا تَعْبُدُوا.

ويعني بقوله: «خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ» خَوْفَ إِقْتَارٍ وَفَقْرٍ. وَإِنَّمَا قَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ ذَلِكَ لِلْعَرَبِ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَقْتُلُونَ الْإِنَاثَ مِنْ أَوْلَادِهِمْ خَوْفَ الْعَيْلَةِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْإِنْفَاقِ عَلَيْهِنَّ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: «إِنْ قَتَلْتَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا»، فَإِنْ مَعْنَى ذَلِكَ: كَانَ إِثْمًا وَخَطِيئَةً، لَا خِطَاءَ مِنَ الْفِعْلِ، لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا كَانُوا يَقْتُلُونَهُمْ عَمْدًا لَا خِطَاءً، وَعَلَى عَمْدِهِمْ ذَلِكَ عَاتِبُهُمْ رَبُّهُمْ، وَتَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ بِالنَّهْيِ عَنْهُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا تَقْرَبُوا الرِّزْقَ إِنَّمَا كَانَ فَاخِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: وَقَضَى أَيْضًا أَنْ «لَا تَقْرَبُوا» أَيُّهَا النَّاسُ «الرِّزْنَ إِنَّهُ كَانَ فَاخِشَةً»، يَقُولُ: إِنَّ الرِّزْنَ كَانَ فَاخِشَةً «وَسَاءَ سَبِيلًا»، يَقُولُ: وَسَاءَ طَرِيقُ الرِّزْنِ

طريقاً، لأنه طريق أهل معصية الله، والمخالفين أمره، فأسوي به طريقاً يورد صاحبه نار جهنم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴿٣٣﴾

يقول جل ثناؤه: وقضى أيضاً أن «لا تقتلوا» أيها الناس «النفس التي حرم الله» قتلها «إلا بالحق» وحققها أن لا تقتل إلا بكفر بعد إسلام، أو زنا بعد إحصان، أو قود بنفس، وإن كانت كافرة لم يتقدم كفرها إسلام، فإن لا يكون تقدم قتلها لها عهد وأمان.

وقوله: «وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا»، يقول: وَمَنْ قُتِلَ بغير المعاني التي ذكرنا أنه إذا قُتِلَ بها كان قتلاً بحقٍ «فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا»، يقول: فقد جعلنا لوليِّ المقتول ظلماً سلطاناً على قاتل ولِيهِ، فإن شاء استقاد منه فقتله بوليهِ، وإن شاء عفا عنه، وإن شاء أخذ الدية.

وقوله: «فلا يسرف في القتل»، يقول: فلا تقتل بالمقتول ظلماً غير قاتله، وذلك أن أهل الجاهلية كانوا يفعلون ذلك إذا قتل رجل رجلاً عمداً وليُّ القتل إلى الشريف من قبيلة القاتل، فقتله بوليهِ، وترك القاتل، فنهى الله عز وجل عن ذلك عباده، وقال لرسوله عليه الصلاة والسلام: قتل غير القاتل بالمقتول معصية وسرف، فلا تقتل به غير قاتله، وإن قتلت القاتل بالمقتول فلا تمثل به.

وأما قوله: «إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا» فَإِنَّ أَهْلَ التَّأْوِيلِ اخْتَلَفُوا فِيمَنْ غُنِيَ بِالْهَاءِ الَّتِي فِي قَوْلِهِ: «إِنَّهُ» وَعَلَى مَا هِيَ عَائِدَةٌ.

فقال بعضهم: هي عائدة على وليّ المقتول، وهو المعنيّ بها، وهو المنصورُ على القاتل.

وقال آخرون: بل عُني بها المقتول، فعلى هذا القول هي عائدة على «مَنْ» في قوله: «وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً».

وقال آخرون: عُني بها دَمُ المقتول، وقالوا: معنى الكلام: إن دَمَ القتيلِ كان منصوراً على القاتل.

وأشبه ذلك بالصوابِ عندي، قولُ مَنْ قال: عُني بها الوليُّ، وعليه عادت، لأنه هو المظلومُ، ووليه المقتول، وهي إلى ذِكْرِه أقربُ من ذكرِ المقتولِ، وهو المنصورُ أيضاً، لأنَّ الله جلَّ ثناؤه قضى في كتابه المنزل، أنَّ سلَّطه على قاتلِ وليه، وحكَّمه فيه، بأنَّ جعل إليه قتله إن شاء، واستبقاه على الدية إن أحبَّ، والعفو عنه إن رأى، وكفى بذلك نُصرةً له من الله جلَّ ثناؤه، فلذلك قلنا: هو المعنيُّ بالهاء التي في قوله: «إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً».

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴿٣٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقضى أيضاً أن لا تقربوا مالَ اليتيم بأكلٍ، إسرافاً وبداراً أن يكبروا، ولكن اقربوه بالفعلِ التي هي أحسنُ، والخَلَّةِ التي هي أجملُ، وذلك أن تتصرفوا فيه له بالثُميرِ والإصلاحِ والحيطةِ.

وقوله: «حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ»، يقول: حتى يبلغ وقت اشتداده في العقلِ، وتدبيرِ ماله، وصلاح حاله في دينه. «وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ»، يقول: وأوفوا بالعقدِ الذي تعاقدون الناس في الصلحِ بين أهل الحرب والإسلام، وفيما بينكم أيضاً، والبيوعِ والأشربةِ والإجازاتِ، وغير ذلك من العقود. «إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً»،

الإسراء: ٣٤ - ٣٦

يقول: إن الله جل ثناؤه سائل ناقض العهد عن نقضه إياه، يقول: فلا تنقضوا العهودَ الجائزةَ بينكم، وبين من عاهدتموه أيها الناس فتخفروهم، وتغدروا بمن أعطيتموه ذلك، وإنما عنى بذلك أن العهد كان مطلوباً؛ يقال في الكلام: ليسألن فلان عهد فلان.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾

يقول تعالى ذكره: «وَ» قضى أن «أَوْفُوا الْكَيْلَ» للناس «إِذَا كِلْتُمْ» لهم حقوقهم قبلكم، ولا تبخسوه، «وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ»، يقول: وقضى أن زنوا أيضاً إذا وزنتم لهم بالميزان المستقيم، وهو العدل الذي لا اعوجاج فيه، ولا دغل، ولا خديعة.

وقوله: «ذَلِكَ خَيْرٌ»، يقول: إيفاؤكم أيها الناس من تكيلون له الكيل، ووزنكم بالعدل لمن توفون له، «خَيْرٌ لَكُمْ» من بخسكم إياهم ذلك، وظلمكموه فيهِ، وقوله: «وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا»، يقول: وأحسن مردوداً عليكم وأولى إليه فيه فعلكم ذلك، لأن الله تبارك وتعالى يرضى بذلك عليكم، فيحسن لكم عليه الجزاء.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾

اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: «وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ». فقال بعضهم: معناه: ولا تقل ما ليس لك به علم.

وقال آخرون: بل معناه: ولا ترم.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول مَنْ قال: معنى ذلك: لا تُقْل للناس، وفيهم مالا عِلْمَ لَكَ به، فترميهم بالباطل، وتشهد عليهم بغير الحق، فذلك هو القفو.

وإنما قلنا ذلك أولى الأقوال فيه بالصواب، لأن ذلك هو الغالب من استعمال العرب القفو فيه.

وأما قوله: «إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا»، فإن معناه: إن الله سائل هذه الأعضاء عما قال صاحبها، من أنه سمع أو أبصر أو علم، تشهد عليه جوارحه عند ذلك بالحق.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا



يقول تعالى ذكره: ولا تمش في الأرض مختلاً مستكبراً. «إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ»، يقول: إِنَّكَ لَن تَقْطَعَ الْأَرْضَ باختيارك.

وقوله: «كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا»، فإن القراءة اختلفت فيه، فقرأه بعض قراءة المدينة وعامة قراءة الكوفة «كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا» على الإضافة بمعنى: كل هذا الذي ذكرنا من هذه الأمور التي عدنا من مبتدأ قولنا: «وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ»... إلى قولنا: «وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا» «كَانَ سَيِّئُهُ»، يقول: سىء ما عَدَدْنَا عَلَيْكَ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا. وقال قارئو هذه القراءة: إنما قيل: «كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ» بالإضافة، لأنَّ فيما عدنا من قوله: «وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ» أموراً، هي أمر

بالجميل، كقوله: «وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا»، وقوله: «وَأَتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ» وما أشبه ذلك، قالوا: فليس كل ما فيه نهياً عن سيئة، بل فيه نهى عن سيئة، و أمر بحسنات، فلذلك قرأنا «سَيِّئُهُ»، وقرأ عامة قَرَأَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ والبصرة وبعض قَرَأَ الكوفة «كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ»، وقالوا: إنما عَنَى بذلك: كل ما عددنا من قولنا: «وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ» ولم يدخل فيه ما قبل ذلك. قالوا: وكل ما عددنا من ذلك الموضوع إلى هذا الموضوع سيئة لا حسنة فيه، فالصواب قراءة بالتثنية. ومن قرأ هذه القراءة، فإنه ينبغي أن يكون من نيته أن يكون المكروه مقدماً على السيئة، وأن يكون معنى الكلام عنده: كل ذلك كان مكروهاً سيئاً؛ لأنه إن جعل قوله: «مكروهاً» من نعت السيئة، لزمه أن تكون القراءة: كل ذلك كان سيئة عند ربك مكروهة، وذلك خلاف ما في مصاحف المسلمين.

وأولى القراءتين عندي في ذلك بالصواب قراءة مَنْ قرأ «كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ» على إضافة السیء إلى الهاء، بمعنى: كل ذلك الذي عددنا من «وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ... كَانَ سَيِّئُهُ» لأن في ذلك أموراً منهيّاً عنها، وأموراً مأموراً بها، وابتداءً الوصية والعهد من ذلك الموضوع دون قوله: «وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ» إنما هو عطف على ما تقدّم من قوله: «وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ» فإذا كان ذلك كذلك، فقراءته بإضافة السیء إلى الهاء أولى وأحق من قراءته سيئة بالتثنية، بمعنى السيئة الواحدة. معناه: كل هذا الذي ذكرنا لك من الأمور التي عددناها عليك كان سَيِّئُهُ مكروهاً عند ربك يا محمد، يكرهه وينهى عنه ولا يرضاه، فاتقِ مواقعتَه والعملَ به.

القول في تأويل قوله تعالى: ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ
وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ۚ آخَرَ فَتُنْقَلَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: هذا الذي بَيْنَا لَكَ يَا مُحَمَّدُ مِنَ الْأَخْلَاقِ الْجَمِيلَةِ الَّتِي أَمْرُنَاكَ بِجَمِيلِهَا، وَنَهْيُنَاكَ عَنْ قَبِيحِهَا «مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ»، يقول: مِنَ الْحِكْمَةِ الَّتِي أَوْحَيْنَاهَا إِلَيْكَ فِي كِتَابِنَا هَذَا.

«وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَذْهُورًا»، يقول: وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ شَرِيكًا فِي عِبَادَتِكَ، فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا تَلُومَكَ نَفْسُكَ وَعَارِفُوكَ مِنَ النَّاسِ «مَذْهُورًا»، يقول: مُبْعَدًا مَقْصِيًّا فِي النَّارِ، وَلَكِنْ أَخْلَصَ الْعِبَادَةَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ، فَتَنْجُو مِنْ عَذَابِهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْتًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤١﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ لِلَّذِينَ قَالُوا مِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ: الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ «أَفَأَصْفَاكُمْ» أَيُّهَا النَّاسُ «رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ»، يقول: أَفَحَصَّكُمْ رَبُّكُمْ بِالذَّكُورِ مِنَ الْأَوْلَادِ «وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْتًا» وَأَنْتُمْ لَا تَرْضَوْنَهُنَّ لِأَنْفُسِكُمْ، بَلْ تَتَذَوَّنَهُنَّ، وَتَقْتُلُونَهُنَّ، فَجَعَلْتُمْ لِلَّهِ مَا لَا تَرْضَوْنَهُ لِأَنْفُسِكُمْ. «إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا»، يقول تعالى ذِكْرَهُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ قَالُوا مِنَ الْفَرِيَةِ عَلَى اللَّهِ مَا ذَكَرْنَا: إِنَّكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ لَتَقُولُونَ بِقِيلِكُمْ: الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ، قَوْلًا عَظِيمًا، وَتَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ فَرِيَةً مِنْكُمْ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: «وَلَقَدْ صَرَّفْنَا» لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الْمَفْتَرِينَ عَلَى اللَّهِ «فِي هَذَا الْقُرْآنِ» الْعِبَرَ وَالْآيَاتِ وَالْحُجَجِ، وَضَرَبْنَا لَهُمْ فِيهِ الْأَمْثَالَ، وَحَذَّرْنَاَهُمْ

فيه وأنذرناهم «لِيَذْكُرُوا»، يقول: ليتذكروا تلك الحجج عليهم، فيعقلوا خطأ ما هم عليه مُقِيمُونَ، ويعتبروا بالعبر، فَيَتَّعِظُوا بها، وَيُنَبِّئُوا من جهالتهم فما يعتبرون بها، ولا يتذكرون بما يَرُدُّ عليهم من الآيات والنذر، وما يَزِيدُهُمْ تذكيرنا إياهم «إِلَّا نُفُورًا»، يقول: إلا ذهاباً عن الحق، وبعداً منه وهرباً. والنفور في هذا الموضع مصدرٌ من قولهم: نَفَرَ فلانٌ من هذا الأمر يَنْفِرُ منه نَفْراً ونفوراً.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَأَبْنَعُوا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ لِنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لهؤلاء المشركين الذين جعلوا مع الله إلهاً آخر لو كان الأمرُ كما تقولون، من أن معه آلهة، وليس ذلك كما تقولون، إذَنْ لا بتغت تلك الآلهة القربة من الله ذي العرش العظيم، والتمست الزلفة إليه، والمرتبة منه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾

وهذا تنزيه من الله تعالى ذِكْرَهُ نَفْسَهُ عَمَّا وصفه به المشركون، الجاعلون معه آلهة غيره، الْمُضَيِّفُونَ إليه البنات، فقال: تنزيهاً لله وعلواً له عما تقولون أيها القوم، من الفرية والكذب، فَإِنَّ مَا تُضَيِّفُونَ إليه من هذه الأمور ليس من صفته، ولا ينبغي أن يكون له صفة.

وقوله: «تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ»، يقول: تُنَزِّهُ الله أيها المشركون عما وصفتموه به إعظاماً له وإجلالاً، السموات السبع والأرض،

وَمَنْ فِيهِنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْإِنْسِ وَالْجِنِّ، وَأَنْتُمْ مَعَ إِنْعَامِهِ عَلَيْكُمْ، وَجَمِيلِ أَيْدِيهِ عِنْدَكُمْ، تَقْتَرُونَ عَلَيْهِ بِمَا تَقْتَرُونَ.

وقوله: «وَأَنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ»، يقول جل ثناؤه: وما من شيء من خلقه إلا يسبح بحمده.

وقوله: «وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ»، يقول تعالى ذكره: ولكن لا تفقهون تسبيح ما عدا تسبيح مَنْ كَانَ يُسَبِّحُ بِمِثْلِ أَلْسِنَتِكُمْ. «إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا»، يقول: إن الله كان حلِيمًا لَا يَعْجَلُ عَلَى خَلْقِهِ، الَّذِينَ يَخَالِفُونَ أَمْرَهُ، وَيَكْفُرُونَ بِهِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَعَاجَلَ هَؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مَعَهُ الْآلِهَةَ وَالْأَنْدَادَ بِالْعُقُوبَةِ. «غَفُورًا»، يقول: سَاطِرًا عَلَيْهِمْ ذُنُوبَهُمْ، إِذَا هُمْ تَابُوا مِنْهَا بِالْعَفْوِ مِنْهُ لَهُمْ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴿٤٥﴾

يقول تعالى ذكره: وَإِذَا قَرَأْتَ يَا مُحَمَّدُ الْقُرْآنَ عَلَى هَؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُصَدِّقُونَ بِالْبَعْثِ، وَلَا يُقِرُّونَ بِالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ حِجَابًا، يَحْجُبُ قُلُوبَهُمْ عَنْ أَنْ يَفْهَمُوا مَا تَقْرَأُهُ عَلَيْهِمْ، فَيَنْتَفِعُوا بِهِ، عِقُوبَةً مَنَا لَهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ. وَالْحِجَابُ هَهُنَا: هُوَ السَّاتِرُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِّرْتُ بِرَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾

يقول تعالى ذكره: وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عِنْدَ

قراءتك عليهم القرآن أكنةً، وهي جمع كنان، وذلك ما يتغشاها من خذلان الله إياهم عن فهم ما يُتلى عليهم. «وفي آذانهم وقرًا»، يقول: وجعلنا في آذانهم قرأً عن سماعه، وصممًا. والوقر بالفتح في الأذن: الثقل. والوقر بالكسر: الحمل.

وقوله: «وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده»، يقول: وإذا قلت: لا إله إلا الله في القرآن وأنت تتلوه «ولوا على أذبارهم نفورًا»، يقول: انفضوا، فذهبوا عنك نفوراً من قولك استكباراً له واستعظاماً من أن يوحد الله تعالى.

القول في تأويل قوله تعالى: **نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا** ﴿٤٧﴾

يقول تعالى ذكره: نحن أعلم بما يستمع به هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة من مشركي قومك، إذ يستمعون إليك وأنت تقرأ كتاب الله «وإذ هم نجوى». وكان بعض أهل العربية من أهل البصرة يقول: النجوى: فعلهم، فجعلهم هم النجوى، كما يقول: هم قوم رضا، وإنما رضا: فعلهم.

وقوله: «إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً»، يقول: حين يقول المشركون بالله: ما تتبعون إلا رجلاً مسحوراً، وعنى فيما ذكر بالنجوى: الذين تشاوروا في أمر رسول الله ﷺ في دار الندوة.

القول في تأويل قوله تعالى: **أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا** ﴿٤٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: انْظُرْ يَا مُحَمَّدُ بَعِينَ قَلْبِكَ فاعْتَبِرْ كَيْفَ مَثَلُوا لَكَ
الأمثال، وَشَبَّهُوا لَكَ الْأَشْيَاءَ، بقولهم: هو مسحورٌ، وهو شاعرٌ، وهو مجنونٌ.
«فَضَّلُوا»، يقول: فجاروا عن قصدِ السبيلِ بَقِيلِهِمْ ما قالوا «فَلَا يَسْتَطِيعُونَ
سَبِيلًا»، يقول: فلا يهتدون لطريقِ الحقِّ لضلالهم عنه وَيُعْذِرُهُمْ منه، وَأَنَّ اللَّهَ
قد خذلهم عَنْ إصَابَتِهِ، فهم لا يقدرون عَلَى الْمَخْرَجِ مما هُمْ فِيهِ مِنْ كُفْرِهِمْ
بتوفيقهم إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفَاتًا أَلَمْ
نَمُبْعُوْثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ مخبراً عن قِيلِ هؤلاء الذين لا يؤمنون بِالْآخِرَةِ مِنْ
مُشْرِكِي قَرِيشٍ، وقالوا بَعْتَهُمْ: «أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا» لَمْ نَتَّحِطْمْ وَلَمْ نَتَكَسَّرْ بَعْدَ
مَمَاتِنَا وَبِلَانَا «وَرُفَاتًا»، يَعْنِي تَرَاباً فِي قُبُورِنَا.

وقوله: «أَإِذَا لَمَبْعُوْثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا» قالوا: إنكاراً مِنْهُمْ لِلْبَعْثِ بَعْدَ
الْمَوْتِ، إِنَّا لَمَبْعُوْثُونَ بَعْدَ مَصِيرِنَا فِي الْقُبُورِ عِظْمًا غَيْرَ مَنْحَطَمَةٍ، وَرُفَاتًا
مَنْحَطَمَةً، وَقَدْ بَلَيْنَا فِصْرِنَا فِيهَا تَرَاباً، خَلْقًا مُنْشَأً كَمَا كُنَّا قَبْلَ الْمَمَاتِ جَدِيدًا،
نُعَادُ كَمَا بُدِئْنَا، فَأَجَابَهُمْ جَلُّ جَلَالِهِ يُعَرِّفُهُمْ قُدْرَتَهُ عَلَى بَعْثِهِ إِيَّاهُمْ بَعْدَ مَمَاتِهِمْ،
وإنْشَاءَهُ لَهُمْ كَمَا كَانُوا قَبْلَ بِلَاهُمْ خَلْقًا جَدِيدًا، عَلَى أَيْ حَالٍ كَانُوا مِنَ الْأَحْوَالِ،
عِظْمًا أَوْ رُفَاتًا، أَوْ حَجَارَةً أَوْ حَدِيدًا، أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَعْظُمُ عَنْهُمْ أَنْ يَحْدُثَ
مِثْلُهُ خَلْقًا أَمْثَالَهُمْ أَحْيَاءَ، قُلْ يَا مُحَمَّدُ كُونُوا حَجَارَةً أَوْ حَدِيدًا، أَوْ خَلْقًا مِمَّا
يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ كُونُوا حَجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا

يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ
فَسَيَنْغُضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لِنبيه محمد ﷺ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِلْمَكْذِبِينَ بِالْبَعْثِ بعد المماتِ من قومك القائلين «أَنَذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا» كونوا إن عجبتم من إنشاءِ الله إياكم، وإعادته أجسامكم، خلقاً جديداً بعد بلاككم في التراب، ومصيركم رُفَاتًا، وأنكرتم ذلك من قُدرته حجارة أو حديدًا، أو خلقاً مما يكبرُ في صدوركم إن قدرتم على ذلك، فإني أُحْيِيكُمْ وأبعثكم خلقاً جديداً بعد مصيركم كذلك كما بدأتكم أَوَّلَ مَرَّةٍ.

واختلف أهل التأويل في المعنيِّ بقوله: «أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ» فقال بعضهم: عُنِيَ به الموت، وأريد به: أو كونوا الموت، فإنكم إن كُتِّمُوهُ أَمْتُكُمْ ثم بعثتكم بعد ذلك يوم البعث.

وقال آخرون: عَنِ بِذَلِكَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ.

وقال آخرون: بَلْ أُرِيدَ بِذَلِكَ: كُونُوا مَا شِئْتُمْ.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذِكْرُهُ قَالَ: «أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ»، وجائزُ أَنْ يَكُونَ عَنِ بِهِ الْمَوْتِ، لِأَنَّهُ عَظِيمٌ فِي صُدُورِ بَنِي آدَمَ؛ وَجَائِزُ أَنْ يَكُونَ أَرَادَ بِهِ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ؛ وَجَائِزُ أَنْ يَكُونَ أَرَادَ بِهِ غَيْرَ ذَلِكَ، وَلَا بَيَانَ فِي ذَلِكَ أَبِينِ مِمَّا بَيَّنَّ جَلَّ ثَنَاهُ، وَهُوَ كُلُّ مَا كَبُرَ فِي صُدُورِ بَنِي آدَمَ مِنْ خَلْقِهِ، لِأَنَّهُ لَمْ يَخْصُصْ مِنْهُ شَيْئًا دُونَ شَيْءٍ.

وأما قوله: «فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا» فإنه يقول: فسَيَقُولُ لك يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ «مَنْ يُعِيدُنَا» خَلْقًا جَدِيدًا، إِنْ كُنَّا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِنَا، فَقُلْ لَهُمْ: يَعِيدُكُمْ «الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ»،

يقول: يُعِيدُكُمْ كَمَا كُنْتُمْ قَبْلَ أَنْ تُصَيِّرُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً إِنْسَاءً أَحْيَاءَ، الَّذِي خَلَقَكُمْ إِنْسَاءً مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَوَّلَ مَرَّةٍ.

وقوله: «وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ»، يقول جل ثناؤه: ويقولون متى البعث، وفي أيِّ حالٍ ووقتٍ يُعِيدُنَا خَلْقاً جَدِيداً، كما كنا أَوَّلَ مَرَّةٍ، قال الله عزَّ وجلَّ لِنبيه: قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ إِذْ قَالُوا لَكَ: متى هو؟ متى هذا البعث الذي تَعِدُّنَا، عسى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً؟ وإنما معناه: هو قريبٌ، لأنَّ عسى من الله واجبٌ، ولذلك قال النبي ﷺ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ، وَأَشَارَ بِالسَّابَةِ وَالْوُسْطَى^(١)، لَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَانَ قَدْ أَعْلَمَهُ أَنَّهُ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ وَالشَّيْطَانَ كَانَتْ لِلإِنسَنِ عُدُوًّا مُمِينًا ۝٥٢

يقول تعالى ذِكْرَهُ: قُلْ عسى أَنْ يَكُونَ بَعْثُكُمْ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ قَرِيباً، ذَلِكَ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ رَبُّكُمْ بِالْخُرُوجِ مِنْ قُبُورِكُمْ إِلَى مَوْقِفِ الْقِيَامَةِ، فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ، اختلف أهل التأويل في معنى قوله: «فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ» فقال بعضهم: فتستجيبون بأمره.

(١) حديث صحيح في الغاية من الصحة، أخرجه من حديث جابر بن عبد الله الأنصاري: مسلم (٨٦٧)، وأحمد: ٣/٣١٠ و ٣٣٨ و ٣٧١، وابن ماجه (٤٥)، والنسائي: ١٨٨/٣، والبخاري (٤٢٩٥)، وابن حبان (١٠). وأخرجه من حديث أنس: البخاري (٦٥٠٤) ومسلم (٢٩٥١) وغيرهما. وأخرجه من حديث أبي هريرة البخاري: (٦٥٠٥) وابن ماجه (٤٠٤٠)، وابن حبان (٦٦٤١)، ومن حديث سهل بن سعد الساعدي: البخاري (٤٩٣٦) و (٥٣٠١) و (٦٥٠٣)، ومسلم (٢٩٥٠) وغيرهما.

وقال آخرون: معنى ذلك: فتستجيون بمعرفته وطاعته.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: معناه: فتستجيون لله من قبوركم بقدرته، ودعائه إياكم، والله الحمد في كل حال، كما يقول القائل: فعلت ذلك الفعل بحمد الله، يعني: الله الحمد على كل ما فعلته.

وقوله: «وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا»، يقول: وتحسبون عند موافاتكم القيامة من هول ما تعانون فيها ما لبثتم في الأرض إلا قليلاً، كما قال جل ثناؤه: «قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ، قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ».

وقوله: «وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ»، يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لعبادي يقل بعضهم لبعض التي هي أحسن من المحاورة والمخاطبة.

وقوله: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ»، يقول: إن الشيطان يسوء محاورة بعضهم بعضاً «يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ»، يقول: يُفْسِدُ بَيْنَهُمْ، يُهَيِّجُ بَيْنَهُمُ الشَّرَّ. «إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا»، يقول: إن الشيطان كان لآدم وذريته عدواً، قد أبان لهم عداوته بما أظهر لآدم من الحسد، وغروره إياه حتى أخرجه من الجنة.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ إِيَّانَا يَرْحَمُكُمْ أَوْ إِيَّانَا يَعْذِبُكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٣﴾

يقول تعالى ذكره لهؤلاء المشركين من قريش الذين قالوا: «أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا - رَبُّكُمْ» أيها القوم «أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ إِيَّانَا يَرْحَمُكُمْ» فيتوب عليكم برحمته، حتى تُنَبِّئُوا عما أنتم عليه من الكفر به وباليوم

الآخر «وَأِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ» بأن يخذلكم عن الإيمان، فتموتوا على شرككم، فيعذبكم يوم القيامة بكفركم به.

وقوله: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا»، يقول لنبيه محمد ﷺ: وما أَرْسَلْنَاكَ يا محمدُ على مَنْ أَرْسَلْنَاكَ إِلَيْهِ لَتَدْعُوهُ إِلَى طَاعَتِنَا رَبًّا وَلَا رَقِيًّا، إِنَّمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَيْهِمْ لِتُبَلِّغَهُمْ رِسَالَاتِنَا، وبأيدينا صرفهم وتديبرهم، فَإِنْ شِئْنَا رَحِمْنَاهُمْ، وَإِنْ شِئْنَا عَذَّبْنَاهُمْ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ ذُبُورًا ﴿٥٥﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ لنبيه ﷺ: وَرَبُّكَ يا محمدُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا يُصْلِحُهُمْ فَإِنَّهُ هُوَ خَالِقُهُمْ وَرَازِقُهُمْ وَمُدَبِّرُهُمْ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْلٌ لِلتَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ، وَمَنْ هُوَ أَهْلٌ لِلْعَذَابِ، أَهْدِي لِلْحَقِّ مَنْ سَبَقَ لَهُ مَنِي الرَّحْمَةِ وَالسَّعَادَةِ، وَأُضِلْ مَنْ سَبَقَ لَهُ مَنِي الشَّقَاءِ وَالْخِذْلَانِ، يَقُولُ: فَلَا يَكْبُرَنَّ ذَلِكَ عَلَيْكَ، فَإِنْ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِي بِهِمْ لِتَفْضِيلِي بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ، بِإِرْسَالِ بَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضِ الْخَلْقِ، وَبَعْضِهِمْ إِلَى الْجَمِيعِ، وَرَفْعِي بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ دَرَجَاتٍ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ لنبيه محمد ﷺ: قُلْ يا محمدُ لمشركي قومك الذين يعبدون من دُونِ اللَّهِ مَنْ خَلَقَهُ، ادْعُوا أَيُّهَا الْقَوْمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ أَرْبَابُ آلِهَةٍ مِنْ دُونِهِ عِنْدَ ضُرِّ يَنْزِلُ بِكُمْ، فَانظُرُوا هَلْ يَقْدِرُونَ عَلَى دَفْعِ ذَلِكَ عَنْكُمْ، أَوْ

تحويله عنكم إلى غيركم، فتدعوهم آلهة، فإنهم لا يقدرُونَ على ذلك، ولا يملكونَهُ، وإنما يملكُهُ ويقدرُ عليه خالقُكم وخالقُهم. وقيل: إِنَّ الذينَ أَمَرَ النَبِيُّ ﷺ أن يقول لهم هذا القول، كانوا يعبدُونَ الملائكةَ وعزيراً والمسيحَ، وبعضهم كانوا يعبدون نفراً من الجن.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا** ﴿٥٧﴾

يقول تعالى ذكره: هؤلاء الذين يدعوه هؤلاء المشركون أرباباً «يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ»، يقول: يبتغي المدعئون أرباباً إلى ربهم القربة والزلفة، لأنهم أهل إيمان به، والمشركون بالله يعبدونهم من دون الله «أَيُّهُمْ أَقْرَبُ» أيهم بصالح عمله واجتهاده في عبادته أقرب عنده زلفة «وَيَرْجُونَ» بأفعالهم تلك «رَحْمَتَهُ. وَيَخَافُونَ» بخلافهم أمره «عَذَابَهُ، إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ» يا محمد «كَانَ مَحْذُورًا» متقياً.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **وَلَا تَنْفِرْ فِي قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ آلِيقَامِهِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا** ﴿٥٨﴾

يقول تعالى ذكره: وما من قرية من القرى، إلا نحن مهلكوها بالفناء، فمبيدوهم استئصالاً قبل يوم القيامة، أو مُعَذِّبُوهَا، إما ببلاء من قتل بالسيف، أو غير ذلك من صنوف العذاب عذاباً شديداً.

وقوله: «كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا»، يعني في الكتاب الذي كتب فيه كل ما هو كائن، وذلك اللوح المحفوظ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ

يقول تعالى ذكره: وما منعنا يا محمد أن نرسل بالآيات التي سألها قومك، إلا أن كان من قبلهم من الأمم المكذبة، سألوا ذلك مثل سؤالهم؛ فلما أتاهم ما سألوا منه كذبوا رسلهم، فلم يصدقوا مع مجيء الآيات، فعوجلوا فلم نرسل إلى قومك بالآيات، لأننا لو أرسلنا بها إليهم، فكذبوا بها، سلكتنا في تعجيل العذاب لهم مسلك الأمم قبلهم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَءَايِنَّا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾

يقول تعالى ذكره: وقد سأل الآيات يا محمد من قبل قومك ثمود، فاتيناها ما سألت، وجعلنا تلك الآية ناقه مبصرة، جعل الإبصار للناق، كما تقول للشجرة: موضحة، وهذه حجة مبينة. وإنما عني بالمبصرة: المضئنة البينة التي من يراها كانوا أهل بصير بها، أنها لله حجة، كما قيل: «والنهار مبصر».

وقوله: «فَظَلَمُوا بِهَا»، يقول عز وجل: فكان بها ظلمهم، وذلك أنهم قتلوها وعقروها، فكان ظلمهم بعقرها وقتلها، وقد قيل: معنى ذلك: فكفروا بها، ولا وجه لذلك إلا أن يقول قائله أراد: فكفروا بالله بقتلها، فيكون ذلك وجهاً.

وأما قوله: وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا، فإنه يقول: وما نرسل بالعبر والدُّكْر إلا تخويفاً للعباد.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٥٩﴾

وهذا حَصٌّ من الله تعالى ذِكْرُهُ نبيه محمداً ﷺ، على تبليغ رسالته، وإعلام منه أنه قد تقدّم منه إليه القول بأنه سيمنعه من كل مَنْ بَغَاهُ سوءاً وهلاكاً، يقول جلّ ثناؤه: واذكُرْ يَا مُحَمَّدُ إِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ قُدْرَةً، فهم في قبضته لا يقدرُونَ على الخروج من مشيئته، ونحن مانعوك منهم، فلا تتهبّب منهم أحداً، وامض لما أمرك به من تبليغ رسالتنا.

وقوله: «وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ»، اختلف أهل التأويل في ذلك، فقال بعضهم: هي رؤيا عين، وهي ما رأى النبي ﷺ لما أُسْرِيَ به من مكة إلى بيت المقدس.

وقال آخرون: هي رؤياه التي رأى أنه يدخل مكة.

وقال آخرون ممن قال: هي رؤيا منام: إنما كان رسول الله ﷺ رأى في منامه قوماً يَعْلُونَ منبره.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول مَنْ قال: عَنَى بهارُؤْيَا رسول الله ﷺ ما رأى من الآيات والعبر في طريقه إلى بيت المقدس، وبيت المقدس ليلة أُسْرِيَ به، وقد ذكرنا بعض ذلك في أول هذه السورة.

وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب، لإجماع الحجة من أهل التأويل على

أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ إِنَّمَا نَزَلَتْ فِي ذَلِكَ، وَإِيَّاهُ عَنَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، فَتَأْوِيلُ الْكَلَامِ: وَمَا جَعَلْنَا رُؤْيَاكَ الَّتِي أَرَيْنَاكَ لَيْلَةَ أُسْرِينَا بِكَ مِنْ مَكَّةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدَسِ، إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ: يَقُولُ: إِلَّا بَلَاءٌ لِلنَّاسِ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَنِ الْإِسْلَامِ، لَمَّا أُخْبِرُوا بِالرُّؤْيَا الَّتِي رَأَاهَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَلِلْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ الَّذِينَ أَزْدَادُوا بِسَمَاعِهِمْ ذَلِكَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَمَادِيًا فِي غِيَّهِمْ، وَكُفْرًا إِلَى كُفْرِهِمْ.

وَقَالَ آخَرُونَ: هِيَ الْكُشُوثُ^(١).

وَأَوَّلَى الْقَوْلِينَ فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ عِنْدَنَا قَوْلُ مَنْ قَالَ: عَنَى بِهَا شَجَرَةَ الزُّقُومِ، لِإِجْمَاعِ الْحُجَّةِ مِنْ أَهْلِ التَّأْوِيلِ عَلَى ذَلِكَ، وَنُصِبَتْ الشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ عَطْفًا بِهَا عَلَى الرُّؤْيَا. فَتَأْوِيلُ الْكَلَامِ إِذَنْ: وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ، وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ، فَكَانَتْ فَتْنَتُهُمْ فِي الرُّؤْيَا مَا ذَكَرْتَ مِنْ ارْتِدَادِ مَنْ ارْتَدَّ، وَتَمَادِي أَهْلِ الشَّرْكِ فِي شُرْكِهِمْ، حِينَ أَخْبَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَا أَرَاهُ اللَّهُ فِي مَسِيرِهِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدَسِ لَيْلَةَ أُسْرِي بِهِ، وَكَانَتْ فَتْنَتُهُمْ فِي الشَّجَرَةِ الْمَلْعُونَةِ مَا ذَكَرْنَا مِنْ قَوْلِ أَبِي جَهْلٍ وَالْمُشْرِكِينَ مَعَهُ: يَخْبِرُنَا مُحَمَّدٌ أَنَّ فِي النَّارِ شَجَرَةً نَابِتَةً، وَالنَّارُ تَأْكُلُ الشَّجَرَ فَكَيْفَ تَنْبُتُ فِيهَا؟

وَقَوْلُهُ: «وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا»، يَقُولُ: وَنُخَوِّفُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِمَا تَتَوَعَّدُهُمْ مِنَ الْعُقُوبَاتِ وَالنَّكَالِ، فَمَا يَزِيدُهُمْ تَخَوُّفَنَا إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا، يَقُولُ: إِلَّا تَمَادِيًا وَغِيًّا كَبِيرًا فِي كُفْرِهِمْ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمَّا خُوفُوا بِالنَّارِ الَّتِي طَعَامُهُمْ فِيهَا الزُّقُومُ دَعَاوُا بِالتَّمْرِ وَالزَّبَدِ، وَقَالُوا: تَزَقَّمُوا مِنْ هَذَا.

(١) الكُشُوثُ، والكُشُوثَا، والكُشُوثَاءُ: نَبْتُ يَتَعَلَّقُ بِالْأَغْصَانِ، وَلَا عِرْقَ لَهُ فِي الْأَرْضِ.

وهي لفظة سوادية (انظر اللسان والتاج).

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ ؕ أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ نَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ : واذكُرْ يا محمدُ تماذي هؤلاء المشركين في غيِّهم وارتدادهم عُتُوًّا على رَبِّهم بتخويفه إياهم تحقيقهم قول عدوِّهم وعدوِّ والدهم، حين أمره رَبُّهُ بالسجود له فعصاه وأبى السجودَ له، حَسَدًا واستكباراً «لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا» وكيف صَدَّقُوا ظَنَّهُ فيهم، وخالفوا أمرَ رَبِّهم وطاعته، واتبعوا أمرَ عدوِّهم وعدوِّ والدهم.

ويعني بقوله : «وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ» : واذكُرْ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ «اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا، إِلَّا إِبْلِيسَ» فإنه استكبر وقال : «أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا»، يقول : لِمَنْ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ؛ فلما حذفت «مِنْ» تعلقَ به قوله «خَلَقْتَ» فنصب، يفتخرُ عليه الجاهلُ بأنه خُلِقَ مِنْ نَارٍ، وخلقَ آدمُ مِنْ طِينٍ.

وقوله : «أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ» يقول تعالى ذِكْرُهُ : أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتُهُ عَلَيَّ . فأمرتني بالسجود له، ويعني بذلك آدمَ «لَئِنْ أَخَّرْتَنِ أَقْسَمَ عَدُوُّ اللَّهِ، فقال لربه : لَئِنْ أَخَّرْتَ إِهْلَاكِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ «لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا»، يقول : لأستولينَّ عليهم، ولأستأصلنَّهم، ولأستميلنَّهم. يقال منه : احْتَنَكَ فُلَانٌ مَا عِنْدَ فُلَانٍ مِنْ مَالٍ أَوْ عِلْمٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ مَا كَفَرَ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿٦٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ : قَالَ اللَّهُ لِإِبْلِيسَ إِذْ قَالَ لَهُ : «لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ

الْقِيَامَةِ لَأَخْتَنِكُنْ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا» اذهب فقد أَخْرُتُكَ، فمن تبعَكَ منهم، يعني من ذُرِّيَةِ آدَمَ عليه السلام فاطاعَكَ، فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكَ وَجَزَاؤُهُمْ، يقول: ثَوَابُكَ عَلَى دَعَائِكَ إِيَّاهُمْ عَلَى مَعْصِيَتِي، وَثَوَابُهُمْ عَلَى اتِّبَاعِهِمْ إِيَّاكَ وَخِلَافَهُمْ أَمْرِي «جَزَاءً مُوفُورًا»، يقول: ثَوَاباً مُكَثِراً مُكَمَّلًا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَأَسْتَفْزِرُ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمُ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكِهِمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا»

يعني تعالى ذِكْرَهُ بقوله: «وَأَسْتَفْزِرُ» واستخِفَّف واستجَهَل، من قولهم: استَفْزَرَ فلاناً كذا وكذا فهو يستَفْزِرُهُ. «مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ»، اختلف أهل التأويل في الصوت الذي عناءه جَلُّ ثَنَائِهِ بقوله: «وَأَسْتَفْزِرُ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ» فقال بعضهم: عَنَى به: صوت الغناء واللعب.

وقال آخرون: عَنَى به «وَأَسْتَفْزِرُ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ» بدعائك إِيَّاهُ إِلَى طَاعَتِكَ ومَعْصِيَةِ اللَّهِ.

وأولى الأقوال في ذلك بالصحة أَنْ يُقَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَالَ لِإِبْلِيسَ: واستَفْزِرْ من ذُرِّيَةِ آدَمَ مَنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَسْتَفْزِرَهُ بِصَوْتِكَ، ولم يخصص من ذلك صوتاً دون صوت، فكل صوت كان دعاء إليه وإلى عمله وطاعته، وخلافاً للدعاء إلى طاعة الله، فهو داخل في معنى صوته الذي قال الله تبارك وتعالى اسمه له: «وَأَسْتَفْزِرُ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ».

وقوله: «وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمُ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ» يقول: وأَجْمَعْ عليهم من رُكبانِ جُنْدِكَ وَمُشَاتِهِمْ من يجلب عليها بالدعاء إلى طاعتك، والصرف عن طاعتي، يقال منه: أَجْلَبَ فلانٌ على فلانٍ إجلاباً: إذا صاحَ عليه. والجلبة: الصوت،

وربما قيل: ما هذا الجَلَب، كما يقال: الغَلَبَة والغَلَب، والشَّفَقَة والشَّفَق.

وأما قوله: «وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ»، فإنَّ أهل التَّأْوِيلِ اختلفوا في المشاركة التي عُيِّنَتْ بقوله: «وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ» فقال بعضهم: هو أمره إياهم بإنفاق أموالهم في غير طاعة الله واكْتِسَابِهِمْوَهَا من غير حِلِّهَا.

وقال آخرون: بل عُيِّنَ بذلك كُلُّ ما كَانَ من تحريم المشركين ما كانوا يُحَرِّمُونَ من الأنعام كالبحائر والسواائب ونحو ذلك.

وقال آخرون: بل عُيِّنَ به ما كان المشركون يَذْبَحُونَهُ لآلهتهم.

وأوَّلَى الأقوال في ذلك بالصواب قول مَنْ قال: عُيِّنَ بذلك كُلُّ مالٍ عُصِيَّ اللهُ فِيهِ بِإِنْفَاقٍ فِي حَرَامٍ أَوْ اكْتِسَابٍ مِنْ حَرَامٍ، أَوْ ذَبْحٍ لِلْأَلِهَةِ، أَوْ تَسْيِيبٍ، أَوْ بَحْرِ لِلشَّيْطَانِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا كَانَ مَعْصِيًا بِهِ أَوْ فِيهِ، وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ قَالَ: «وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ» فَكُلُّ مَا أَطِيعَ الشَّيْطَانُ فِيهِ مِنْ مَالٍ وَعُصِيَّ اللهُ فِيهِ، فَقَدْ شَارَكَ فاعِلُ ذَلِكَ فِيهِ إِبْلِيسُ، فَلَا وَجْهَ لخصوصِ بعضِ ذَلِكَ دُونَ بعض.

وقوله: «وَالْأَوْلَادِ»، اختلف أهل التَّأْوِيلِ في صفة شَرِكَتِهِ بني آدَمَ فِي أَوْلَادِهِمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: شَرِكَتُهُ إِيَّاهُمْ فِيهِمْ بَزَنَاهُمْ بِأَمْهَاتِهِمْ.

وقال آخرون: عَنِى بذلك: وَأَدَهُمْ أَوْلَادَهُمْ وَقَتْلَهُمُوهُمْ.

وقال آخرون: بَلْ عَنِى بذلك: صَبَغَهُمْ إِيَّاهُمْ فِي الْكُفْرِ.

وقال آخرون: بَلْ عَنِى بذلك تَسْمِيَتُهُمْ أَوْلَادَهُمْ عَبْدَ الْحَرِّ وَعَبْدَ شَمْسٍ.

وأوَّلَى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: كُلُّ وَلَدٍ وَلَدَتْهُ أُنْثَى عَصَى اللهُ بِتَسْمِيَتِهِ مَا يَكْرَهُهُ اللهُ، أَوْ بِإِدْخَالِهِ فِي غَيْرِ الدِّينِ الَّذِي ارْتَضَاهُ اللهُ، أَوْ بِالزَّنا

بأَمه، أو قَتَلَه ووَادِه، أو غير ذلك من الأمور التي يَعَصِي الله بها بفعله به أو فيه، فقد دخل في مشاركة إبليس فيه من وَلَدَ ذلك المولود له أو منه، لأنَّ الله لم يخصص بقوله: «وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ» معنى الشراكة فيه بمعنى دون معنى، فكلُّ ما عَصِيَ الله فيه أو به، وأُطِيع به الشيطان أو فيه، فهو مشاركة مَنْ عَصَى الله فيه أو به إبليس فيه.

وقوله: «وَعِدُّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا»، يقول تعالى ذِكْرُه لإبليس: وعد أتباعك من ذرية آدم، النصرة على مَنْ أرادهم بسوء، يقول الله: «وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا» لأنه لا يغني عنهم من عقاب الله إذا نزل بهم شيئاً، فهم من عِدَاتِهِ في باطلٍ وخديعة، كما قال لهم عدو الله حين خَصَّصَ الحق: «إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ، وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ، وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ».

القول في تأويل قوله تعالى: إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ
وَكَفَىٰ بَرَبِكْ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لإبليس: إنَّ عبادي الذين أطاعوني، فاتبعوا أمري وعصوك يا إبليس، ليس لك عليهم حجة.

وقوله: «وَكَفَىٰ بَرَبِكْ وَكِيلًا»، يقول جَلُّ ثَنائِه لنبيه محمد ﷺ: وكفاك يا محمد ربك حفيظاً، وقِيماً بأمرك، فانقذ لأمره، وبلغ رسالاته هؤلاء المشركين، ولا تخف أحداً، فإنه قد توكل بحفظك ونصرتك.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ للمشرّكين به: ربكم أيها القوم هو الذي يُسِيرُ لَكُمْ السفنَ في البحر، فيحملكم فيها «لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ» لتوصلوا بالركوب فيها إلى أماكن تجاراتكم ومطالبكم ومعاشكم، وتلتمسونَ من رزقه «إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا»، يقول: إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا حين أجرى لكم الفلكَ في البحر، تسهيلًا منه بذلك عليكم التصرّف في طلب فضله في البلاد النائية التي لولا تسهيله ذلك لكم لصعب عليكم الوصول إليها.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا آيَاتُهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: وإذا نالتكم الشدة والجهد في البحر ضلَّ مَنْ تَدْعُونَ: يقول: فَقَدْ تُمُّ مَنْ تَدْعُونَ من دونِ الله من الأندادِ والآلهة، وجارَ عن طريقكم فلم يُعِثْكُمْ، ولم تجدوا غيرَ الله مغيثًا يغيثكم دَعْوَتُمُوهُ، فلما دَعَوْتُمُوهُ وَأَغَاثَكُمْ، وأجاب دُعَاءَكُمْ وَنَجَّاكُمْ من هولِ ما كنتم فيه في البحر، أعرضتم عما دعاكم إليه رَبُّكُمْ من خلع الأنداد، والبراءة من الآلهة، وإفراذه بالآلوهة كفرًا منكم بنعمته «و كَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا»، يقول: و كان الإنسان ذا جحْدٍ لنعم رَبِّهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخَسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾

يقول تعالى ذكره: «أَفَأَمِنْتُمْ» أيها الناس من ربكم، وقد كفرتم نعمته بتنجيته إياكم من هول ما كنتم فيه في البحر، وعظيم ما كنتم قد أشرفتم عليه من الهلاك، فلما نجاكم وصرتم إلى البر كفرتم، وأشركتم في عبادته غيره «أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ»، يعني ناحية البر، «أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا»، يقول: أَوْ يُمَطِّرَكُم حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ تَقْتُلُكُمْ، كما فعل بقوم لوطٍ «ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا»، يقول: ثم لا تجدوا لكم ما يقوم بالمدافعة عنكم من عذابه وما يمنعكم منه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَمَأَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا

❖ ٦٩ ❖

يقول تعالى ذكره: أم أمنتم أيها القوم من ربكم، وقد كفرتم به بعد إنعامه عليكم، النعمة التي قد علمتم أن يعيدكم في البحر تارة أخرى: يقول: مرة أخرى، والهاء التي في قوله: «فيه» من ذكر البحر.

أما قوله: «فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ» وهي التي تقصف ما مرت به فتحطمه، وتدقّه، من قولهم: قصف فلان ظهر فلان: إذا كسره. «فَيَغْرِقُكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ»، يقول: فيغرقكم الله بهذه الريح القاصف بما كفرتم، يقول: بكفركم به، «ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا»، يقول: ثم لا تجدوا لكم علينا تابعاً يتبعنا بما فعلنا بكم، ولا ثائراً يثأرنا بإهلاكنا إياكم. وقيل: تبيعاً في موضع التابع، كما قيل: علم في موضع عالم، والعرب تقول لكل طالب بدمٍ أو دينٍ أو غيره: تبيع.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا



يقول تعالى ذكره: «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ» بتسليطنا إياهم على غيرهم من الخلق، وتسخيرنا سائر الخلق لهم «وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ» على ظهور الدواب والمراكب وفي «الْبَحْرِ» في الفلك التي سخرناها لهم «وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ»، يقول: من طيبات المطاعم والمشارب، وهي حلالها ولذياتها «وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا» ذكر لنا أَنَّ ذلك تمكنهم من العمل بأيديهم، وأخذ الأطعمة والأشربة بها ورفعها بها إلى أفواههم، وذلك غير مُتَسِّرٍ لغيرهم من الخلق.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ فَمَنْ أُوِّيَ كِتَابُهُ يَمِيزُهُ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يَظْلُمُونَ فِتْيَلًا ٧١

اختلف أهل التأويل في معنى الإمام الذي ذكر الله جل ثناؤه أنه يدعو كُلَّ أَنَاسٍ به، فقال بعضهم: هو نبيُّه، وَمَنْ يَقْتَدِي به في الدنيا ويأتم به. وقال آخرون: بل معنى ذلك أنه يدعوهم بكتب أعمالهم التي عملوها في الدنيا.

وقال آخرون: بل معناه: يوم ندعو كُلَّ أَنَاسٍ بكتبهم الذي أنزلت عليهم فيه أمري ونهيي.

وأولى هذه الأقوال عندنا بالصواب، قول من قال: معنى ذلك: يوم ندعو كُلَّ أَنَاسٍ بإمامهم الذي كانوا يقتدون به، ويأتمون به في الدنيا، لأنَّ الأغلب

من استعمال العرب الإمام فيما ائتم واقتدي به، وتوجيه معاني كلام الله إلى الأشهر أولى ما لم تثبت حجة بخلافه يجب التسليم لها.

وقوله: «فَمَنْ أَوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ»، يقول: فمن أعطي كتاب عمله بيمينه «فَأُولَئِكَ يَقرءُونَ كِتَابَهُمْ» ذلك حتى يعرفوا جميع ما فيه «وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا»، يقول تعالى ذكره: ولا يظلمهم الله من جزاء أعمالهم فتيلًا، وهو المنفصل الذي في شق بطن النواة.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي
الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾

اختلف أهل التأويل في المعنى الذي أشير إليه بقوله: «هذه»، فقال بعضهم: أشير بذلك إلى النعم التي عُدَّدها تعالى ذكره بقوله: «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ، وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا» فقال: «وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا».

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا أَعْمَى عَنْ قُدْرَةِ اللَّهِ فِيهَا وَحُجْجِهِ، فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى.

وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب، قول مَنْ قَالَ: معنى ذلك: وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا أَعْمَى عَنْ حُجْجِ اللَّهِ عَلَى أَنَّهُ الْمُنْفَرِدُ بِخَلْقِهَا وَتَدْبِيرِهَا، وَتَصْرِيفِ مَا فِيهَا، فَهُوَ فِي أَمْرِ الْآخِرَةِ الَّتِي لَمْ يَرَهَا وَلَمْ يُعَايِنَهَا، وَفِيمَا هُوَ كَائِنٌ فِيهَا أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا: يقول: وأضلُّ طريقاً منه في أمر الدنيا التي قد عاينها ورآها.

وإنما قلنا: ذلك أولى تأويلاته بالصواب، لأنَّ الله تعالى ذَكَرَهُ لَمْ

يخصص في قوله: «وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ» الدنيا «أَعْمَى» عمى الكافر به عن بعض حججه عليه فيها دون بعض، فيوجه ذلك إلى عماءه عن نعمه بما أنعم به عليه من تكريمه بني آدم، وحمله إياهم في البر والبحر، وما عدّد في الآية التي ذكر فيها نعمه عليهم، بل عم بالخبر عن عماءه في الدنيا، فهم كما عمّ تعالى ذكره.

واختلفت القراءة في قراءة قوله: «فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى» فكسرت القراءة جميعاً أعني الحرف الأول قوله: «وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى». وأما قوله: «فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى» فإن عامة قراء الكوفيين أمالت أيضاً قوله: «فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى». وأما بعض قراء البصرة فإنه فتحه، وتأولّه بمعنى: فهو في الآخرة أشدّ عمى. واستشهد لصحة قراءته بقوله: «وَأَضَلُّ سَبِيلًا».

وهذه القراءة هي أولى القراءتين في ذلك بالصواب للشاهد الذي ذكرنا عن قارئه كذلك، وإنما كره من كره قراءته كذلك ظناً منه أن ذلك مقصود به قصد عمى العينين الذي لا يوصف أحد بأنه أعمى من آخر أعمى، إذ كان عمى البصر لا يتفاوت، فيكون أحدهما أزيد عمى من الآخر، إلا بإدخال أشدّ أو أبين، فليس الأمر في ذلك كذلك.

وإنما قلنا: ذلك من عمى القلب الذي يقع فيه التفاوت، وإنما عني به عمى قلوب الكفار، عن حجج الله التي قد عاينتها أبصارهم، فلذلك جاز ذلك وحسن.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي
أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلًا

اختلف أهل التأويل في الفتنة التي كاد المشركون أن يفتنوا رسول الله

الإسراء: ٧٣ - ٧٤

ﷺ بها عن الذي أوحى الله إليه إلى غيره؛ فقال بعضهم: ذلك الإلمام بالآلهة، لأن المشركين دَعَوْه إلى ذلك، فَهَمَّ به رسول الله ﷺ.

وقال آخرون: إنما كان ذلك أن رسول الله ﷺ هَمَّ أن يُنْظَرَ قوماً بإسلامهم إلى مدةٍ سألوه الانظارَ إليها.

والصوابُ من القولِ في ذلك أن يقال: إنَّ الله تعالى ذِكرُهُ أخبر عن نبيه ﷺ. أنَّ المشركينَ كادوا أن يفتنوه عما أوحاهُ الله إليه ليعملَ بغيره، وذلك هو الافتراءُ على الله؛ وجائزُ أن يكونَ ذلك كان ماذكر عنهم من ذكر أنهم دَعَوْهُ أن يَمَسَّ آلَهِتهم، ويُلِمَّ بها، وجائزُ أن يكونَ غير ذلك، ولا بيانَ في الكتابِ ولا في خبرٍ يقطعُ العُدْرَ أي ذلك كان، والاختلافُ فيه موجودٌ على ما ذكرنا، فلا شيءَ فيه أصوب من الإيمانِ بظاهره، حتى يأتي خبرٌ يجبُ التسليمُ له ببيان ما عني بذلك منه.

وقوله: «وَإِذَا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا»، يقول تعالى ذِكرُهُ: ولو فعلتَ ما دَعَوَكَ إليه من الفتنةِ عن الذي أوحينا إليك لاتَّخَذُوكَ إِذَا لَأَنفُسَهُمْ خَلِيلًا، وكنتَ لهم و كانوا لك أولياء.

القولُ في تأويلِ قولِهِ تعالى: وَلَوْلَا أَن تُبَنِّنَاكَ لَفَدَكْتَ تَرَكَّنُ

إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾

يقول تعالى ذِكرُهُ: ولولا أن تُبَنِّنَاكَ يا محمدُ بعِصْمَتِنَا إِيَّاكَ عما دعاكَ إليه هؤلاء المشركون من الفتنة. «لَقَدْ كِدْتَ تَرَكَّنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا»، يقول: لقد كدت تميلُ إليهم وتطمئنُ شيئاً قليلاً، وذلك ما كان ﷺ هَمَّ به من أن يفعلَ بعضَ الذي كانوا سألوه فِعْلَهُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: لو ركنت إلى هؤلاء المشركين يا محمد شيئاً قليلاً فيما سألوكَ إِذْنٌ لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ عَذَابِ الْحَيَاةِ، وَضِعْفَ عَذَابِ الْمَمَاتِ.

وقوله: «ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا»، يقول: ثم لا تجدُ لَكَ يا محمد - إِنْ نحن أذَقْنَاكَ لِرُكُونِكَ إِلَى هؤلاء المشركين لو ركنت إليهم - عَذَابَ الْحَيَاةِ وَعَذَابَ الْمَمَاتِ «علينا نصيراً»: ينصرك علينا، ويمنعك من عذابك، وينقذك مما نالك منا من عقوبة.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِنْ كَادُوا لَيْسَتَفَزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾

يقول عزَّ وجلَّ: وَإِنْ كَادَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَيَسْتَفْزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ: يقول: ليستخفونك من الأرض التي أنت بها لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا. «وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا»، يقول: ولو أخرجوك منها لم يلبثوا بعدك فيها إِلَّا قَلِيلًا، حتى أَهْلِكَهُمْ بعذابٍ عاجل.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: سَنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: لو أخرجوك لم يلبثوا خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا، ولأهلكناهم بعذابٍ من عندنا، سُنَّتًا فِيمَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا، فَإِنَّا كَذَلِكَ كُنَّا نَفْعَلُ بِالْأُمَمِ إِذَا أَخْرَجْتُ رُسُلَهَا مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ، وَنَصَبْتُ السَّنَةَ عَلَى الْخُرُوجِ مِنْ

معنى قوله: «لا يَلْبُثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا» لأنَّ معنى ذلك: لعذبناهم بعد قليلٍ كَسُتُّنَا في أُمَمٍ مِّنْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رَّسُلِنَا، ولا تجدُ لسنَّتِنَا تحويلاً عما جرت به .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ لِنبيه محمدٍ ﷺ: «أَقِمِ الصَّلَاةَ» يا محمدُ «لِذُلُوكِ الشَّمْسِ».

واختلف أهل التأويل في الوقت الذي عناهُ الله بدلوكِ الشمس، فقال بعضهم: هو وقتُ غروبها، والصلاة التي أمر بإقامتها حينئذٍ: صلاة المغرب. وقال آخرون: دلوكِ الشمس: مِيلُهَا لِلزَّوَالِ، والصلاةُ التي أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بإقامتها عند دلوكها: الظهر.

وأولى القولين في ذلك بالصواب قولُ مَنْ قال: عنى بقوله: «أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ»: صلاةَ الظهر، وذلك أَنَّ الدلوكَ في كلامِ العرب: الميلُ، يقال منه: ذلك فلان إلى كذا: إذا مالَ إليه.

فإذا كان صحيحاً ما قلنا بالذي به استشهدنا، فَبَيَّنْ إِذْنُ أَنْ معنى قوله جَلَّ ثَنَاهُ: «أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ» أَنَّ صلاةَ الظهرِ والعصرِ بحدودهما مما أوجبَ اللهُ عليكَ فيهما لأنهما الصلاتانِ اللتانِ فرضهما اللهُ على نبيه من وقتِ دلوكِ الشمسِ إلى غَسَقِ اللَّيْلِ؛ وَغَسَقُ اللَّيْلِ: هو إقبالُهُ وَدُنُوهُ بظلامِهِ.

وينحو الذي قلنا في ذلك، قال أهل التأويلِ على اختلافٍ منهم في الصلاة التي أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بإقامتها عنده.

فقال بعضهم: الصلاة التي أُمِرَ بإقامتها عنده صلاة المغرب.

وقال آخرون: هي صلاة العصر.

وأولى القولين في ذلك بالصواب، قول مَنْ قال: الصلاة التي أُمِرَ النبي ﷺ بإقامتها عند غَسَقِ الليل، هي صلاة المغرب دون غيرها، لأنَّ غَسَقَ الليل هو ما وصفنا من إقبالِ الليل وظلامه، وذلك لا يكون إلا بعد مغيبِ الشمس. فأما صلاةُ العصر، فإنها مما تُقَامُ بين ابتداءِ دُلُوكِ الشمس إلى غَسَقِ الليل، لا عند غَسَقِ الليل.

وأما قوله: «وَقُرْآنَ الْفَجْرِ» فإنَّ معناه: وأَقِمْ قرآنَ الفجر: أي ما تقرأ به صلاةَ الفجر من القرآن، والقرآن معطوف على الصلاة في قوله: «أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ».

وكان بعضُ نحويي البصرة يقول: نصب قوله: «وَقُرْآنَ الْفَجْرِ» على الإغراء، كأنه قال: وعليك قرآن الفجر. «إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا»، يقول: إِنَّ ما تقرأ به في صلاةِ الفجر من القرآن كان مشهوداً، يشهده فيما ذُكِرَ ملائكةُ الليل وملائكةُ النهار.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى

أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ لِنبيه محمدٍ ﷺ: ومن الليل فاسهر بعد نومةٍ يا محمدُ بالقرآن، نافلةً لك خالصةً دون أمتك. والتهجدُ: التيقُّظُ والسهرُ بعد نومةٍ من الليل. وأما الهجودُ نفسه: فالنومُ.

وأما قوله: «نَافِلَةً لَكَ» فإنه يقول: نفلاً لك عن فرائضك التي فرضتها

عليك.

واختلف في المعنى الذي من أجله خُصَّ بذلك رسول الله ﷺ، مع كون صلاة كلِّ مصلٍّ بعد هجوده، إذا كان قبل هجوده قد كان أدى فرائضه نافلة نفلاً، إذ كانت غير واجبة عليه.

فقال بعضهم: معنى خصوصه بذلك: هو أنها كانت فريضة عليه، وهي لغيره تطوع، وقيل له: أقمها نافلةً لك: أي فضلاً لك من الفرائض التي فرضتها عليك عما فرضت على غيرك. وهو قول ابن عباس.

وقال آخرون: بل قيل ذلك له عليه الصلاة والسلام لأنه لم يكن فعله ذلك يكفر عنه شيئاً من الذنوب، لأن الله تعالى كان قد غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر، فكان له نافلةً فضّل، فأما غيره فهو له كفارة، وليس هو له نافلة، وهو قول مجاهد.

وأولى القولين بالصواب في ذلك، القول الذي ذكرنا عن ابن عباس، وذلك أن رسول الله ﷺ كان الله تعالى قد خصّه بما فرض عليه من قيام الليل، دون سائر أمته: فأما ما ذكر عن مجاهد في ذلك، فقوله لا معنى له، لأن رسول الله ﷺ فيما ذكر عنه أكثر ما كان استغفاراً لذنوبه بعد نزول قول الله عز وجل عليه: «لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ» وذلك أن هذه السورة أنزلت عليه بعد مُنْصَرَفِهِ من الحديبية، وأنزل عليه «إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ» عام قُبُض. وقيل له فيها: «فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً» فكان يُعَدُّ له ﷺ في المجلس الواحد استغفار مئة مرة، ومعلوم أن الله لم يأمره أن يستغفر إلا لما يغفر له باستغفاره ذلك، فبيّن إذن وجه فساد ما قاله مجاهد.

وقوله: «عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً» وعسى من الله واجبة، وإنما وجه قول أهل العلم: عسى من الله واجبة، لعلم المؤمنين أن الله لا يدع أن يفعل بعباده ما أطمعهم فيه من الجزاء على أعمالهم والعوض على طاعتهم إياه ليس من صفته الغرور، ولا شك أنه قد أطمع من قال ذلك له في نفعه،

إذا هو تعاهده ولزمه، فإن لزم المقول له ذلك وتعاهده ثم لم ينفعه، ولا سبب يحول بينه وبين نفعه إياه مع الأطماع الذي تقدم منه لصاحبه على تعاهده إياه ولزومه، فإنه لصاحبه غار بما كان من إخلافه إياه فيما كان أطمعه فيه بقوله الذي قال له. وإذا كان ذلك كذلك، وكان غير جائز أن يكون جل ثناؤه من صفتِهِ الغرور لعباده صَحَّ ووجب أن كُلَّ ما أطمعهم فيه من طمع على طاعته، أو على فعل من الأفعال، أو أمر أو نهى أمرهم به، أو نهاهم عنه، فإنه مُوفٍ لهم به، وإنه منه كالعِدَّةِ التي لا يُخلفُ الوفاء بها، قالوا: عسى ولعل من الله واجبة.

وتأويل الكلام: أقم الصلاة المفروضة يا محمد في هذه الأوقات التي أمرتك بإقامتها فيها، ومن الليل فتهجد فريضة فرضته عليك، لعل ربك أن يبعثك يوم القيامة مقاماً تقوم فيه محموداً تحمده، وتغبط فيه.

ومعنى ذلك المقام المحمود: هو المقام الذي هو يقومه ﷺ يوم القيامة للشفاعة للناس ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم.

القول في تأويل قوله تعالى: وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا ﴿٨٠﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه: وَقُلْ يا محمد يا رب أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ.

واختلف أهل التأويل في معنى مُدْخَلَ الصِدْقِ الذي أمر الله نبيه ﷺ أن يرغب إليه في أن يُدْخِلَهُ إياه، وفي مخرج الصِدْقِ الذي أمره أن يرغب إليه في أن يخرج به إياه، وأشبهُ الأقوال بالصواب أنه عنى بِمُدْخَلَ الصِدْقِ: مُدْخَلَ رسول الله ﷺ المدينة، حين هاجر إليها، ومُخْرَجَ الصِدْقِ: مُخْرَجَهُ من مكة، حين خرج منها مهاجراً إلى المدينة.

وإنما قلنا ذلك أولى بتأويل الآية، لأن ذلك عقيب قوله: «وإن كادوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا، وَإِذَا لَا يَلْبُثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا». وقد دَلَّلْنَا فيما مضى، على أنه عَنَى بذلك أهل مكة؛ فإذا كان ذلك عقيب خبر الله عَمَّا كان المشركون أرادوا من استفزازهم رسول الله ﷺ، ليخرجوه عن مكة، كان بَيِّنًا، إذ كان الله قد أَخْرَجَهُ مِنْهَا، أَنَّ قوله: «وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ، وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ» أمرٌ منه له بالرغبة إليه في أَنْ يُخْرِجَهُ مِنَ الْبَلَدَةِ الَّتِي هُمْ الْمَشْرِكُونَ بِإِخْرَاجِهِ مِنْهَا مُخْرَجَ صِدْقٍ، وَأَنْ يُدْخِلَهُ الْبَلَدَةَ الَّتِي نَقَلَهُ اللَّهُ إِلَيْهَا مُدْخَلَ صِدْقٍ.

وقوله: «وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا» اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك: واجعلْ لِي مُلْكًا نَاصِرًا يَنْصُرُنِي عَلَى مَنْ نَاوَأَنِي، وَعِزًّا أَقِيمُ بِهِ دِينَكَ، وَأُدْفَعْ بِهِ عَنْهُ مَنْ أَرَادَهُ بِسُوءٍ.

وقال آخرون: بل عُنِيَ بِذَلِكَ حُجَّةٌ بَيِّنَةٌ.

وأولى الأقوالِ في ذلك بالصواب قول مَنْ قال: ذلك أمرٌ من الله تعالى نَبِيَّهُ بِالرَّغْبَةِ إِلَيْهِ فِي أَنْ يُؤْتِيَهُ سُلْطَانًا نَصِيرًا لَهُ عَلَى مَنْ بَغَاهُ وَكَادَهُ، وَحَاوَلَ مَنَعَهُ مِنْ إِقَامَتِهِ فَرَائِضَ اللَّهِ فِي نَفْسِهِ وَعِبَادِهِ.

وإنما قُلْتُ ذَلِكَ أَوْلَى بِالصَّوَابِ، لِأَنَّ ذَلِكَ عَقِيبَ خَبَرِ اللَّهِ عَمَّا كَانَ الْمَشْرِكُونَ هَمُّوا بِهِ مِنْ إِخْرَاجِهِ مِنْ مَكَّةَ، فَأَعْلَمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُمْ لَوْ فَعَلُوا ذَلِكَ عَوِجَلُوا بِالْعَذَابِ عَنْ قَرِيبٍ، ثُمَّ أَمَرَهُ بِالرَّغْبَةِ إِلَيْهِ فِي إِخْرَاجِهِ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ إِخْرَاجَ صِدْقٍ يَحَاوِلُهُ عَلَيْهِمْ، وَيُدْخِلُهُ بِلَدَةٍ غَيْرِهَا، بِمُدْخَلِ صِدْقٍ يَحَاوِلُهُ عَلَيْهِمْ وَلَأَهْلِهَا فِي دُخُولِهِ إِلَيْهَا، وَأَنْ يَجْعَلَ لَهُ سُلْطَانًا نَصِيرًا عَلَى أَهْلِ الْبَلَدَةِ الَّتِي أَخْرَجَهُ أَهْلُهَا مِنْهَا، وَعَلَى كُلِّ مَنْ كَانَ لَهُمْ شَبِيهَاً، وَإِذَا أُوتِيَ ذَلِكَ، فَقَدْ أُوتِيَ لَا شَكَّ حُجَّةٌ بَيِّنَةٌ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ
كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ
الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ : وَقُلْ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ الَّذِينَ كَادُوا أَنْ
يَسْتَفْزُوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا «جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ» .
واختلف أهل التأويل في معنى الحق الذي أمر الله نبيه ﷺ أَنْ يُعْلِمَ
المشركين أنه قد جاء، والباطل الذي أمره أَنْ يَعْلَمَهُمْ أَنَّهُ قَدْ زَهَقَ .
فقال بعضهم : الحق : هو القرآن في هذا الموضع، والباطل : هو
الشیطان .

وقال آخرون : بل عَنِي بِالْحَقِّ جِهَادُ الْمَشْرِكِينَ وَبِالْبَاطِلِ الشَّرْكَ .
وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أَنْ يَقَالَ : أَمَرَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَبِيَّهُ عَلَيْهِ
الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْ يُخَبِّرَ الْمَشْرِكِينَ أَنَّ الْحَقَّ قَدْ جَاءَ ، وَهُوَ كُلُّ مَا كَانَ لِلَّهِ فِيهِ
رِضًا وَطَاعَةً ، وَأَنَّ الْبَاطِلَ قَدْ زَهَقَ : يَقُولُ : وَذَهَبَ كُلُّ مَا كَانَ لَا رِضًا لِلَّهِ فِيهِ
وَلَا طَاعَةً مِمَّا هُوَ لَهُ مَعْصِيَةٌ وَلِلشَّيْطَانِ طَاعَةٌ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْحَقَّ هُوَ كُلُّ مَا خَالَفَ
طَاعَةَ إِبْلِيسَ ، وَأَنَّ الْبَاطِلَ : هُوَ كُلُّ مَا وَافَقَ طَاعَتَهُ ، وَلَمْ يَخْصُصْ اللَّهُ عَزَّ ذِكْرَهُ
بِالْخَبَرِ عَنْ بَعْضِ طَاعَاتِهِ ، وَلَا ذَهَابَ بَعْضُ مَعَاصِيهِ ، بَلْ عَمَّ الْخَبَرُ عَنْ مَجِيءِ
جَمِيعِ الْحَقِّ ، وَذَهَابِ جَمِيعِ الْبَاطِلِ ، وَبِذَلِكَ جَاءَ الْقُرْآنُ وَالتَّنْزِيلُ ، وَعَلَى ذَلِكَ
قَاتَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَهْلَ الشَّرْكَ بِاللَّهِ ، أَعْنِي عَلَى إِقَامَةِ جَمِيعِ الْحَقِّ ، وَإِبْطَالِ
جَمِيعِ الْبَاطِلِ .

وأما قوله عَزَّ وَجَلَّ : «وَزَهَقَ الْبَاطِلُ» فَإِنَّ مَعْنَاهُ : ذَهَبَ الْبَاطِلُ ، مِنْ
قَوْلِهِمْ : زَهَقَتْ نَفْسُهُ : إِذَا خَرَجَتْ وَأَزْهَقْتُهَا أَنَا ؛ وَمِنْ قَوْلِهِمْ : أَزْهَقَ السَّهْمُ : إِذَا

جاوَزَ الغَرْصَ فاستمرَّ على جهته، يقال منه: زهق الباطل، يزْهَقُ زُهوقاً، وأزهقه الله: أي أذهبه.

وقوله عز وجل: «وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وننزِّلُ عليك يا محمدُ من القرآنِ ما هو شفاءٌ يُستشفَى به من الجهلِ من الضلالة، ويُبصِّرُ به من العمى للمؤمنين ورحمة لهم دونَ الكافرين به، لأنَّ المؤمنينَ يعملون بما فيه من فرائضِ الله، ويُحلُّون حلالَهُ، ويحرِّمون حرامه فيدخلهم بذلك الجنة، ويُنجيهم من عذابه، فهو لهم رحمةٌ ونعمةٌ من الله، أنعم بها عليهم. «وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا»، يقول: ولا يَزِيدُ هذا الذي نزلَ عليك من القرآنِ الكافرينَ به إلا خساراً، يقول: إهلاكاً، لأنهم كلما نزلَ فيه أمرٌ من الله بشيءٍ أو نهْيٌ عن شيءٍ كفروا به، فلم يأتَمروا لأمره، ولم ينتهوا عمَّا نهاهم عنه، فزادهم ذلك خساراً إلى ما كانوا فيه قبل ذلك من الخسارِ، ورجساً إلى رِجسهم قبل.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسِ بِجَانِبِهِ

وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴿٨٢﴾

يقول تبارك وتعالى: وإذا أنعمنا على الإنسان، فنَجَّيْنَاهُ من كَرْبِ ما هو فيه في البحر، وهو ما قد أشرفَ فيه عليه من الهلاكِ بعصوفِ الريحِ عليه إلى البرِّ، وغير ذلك من نِعَمِنَا، أعرضَ عن ذِكْرِنَا، وقد كان بنا مُستغيثاً دونَ كُلِّ أحدٍ سوانا في حال الشدةِ التي كان فيها. «ونأى بجانبيه»، يقول: وبَعُدَ منا بجانبيه، يعني بنفسه، «كَأَنَّ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضَرْ مَسَّهُ» قبل ذلك.

وقوله عز وجل: «وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا»، يقول: وإذا مَسَّهُ الشرُّ والشدةُ كان قنوطاً من الفرجِ والروح.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا** ﴿٨٤﴾

يقول عز وجل لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد للناس: كلكم يعمل على شاكلته: على ناحيته وطريقته «فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ» هو منكم «أَهْدَى سَبِيلًا»، يقول: ربكم أعلم بمن هو منكم أهدى طريقاً إلى الحق من غيره.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا** ﴿٨٥﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ويسألك الكفار بالله من أهل الكتاب عن الروح ماهي؟ قل لهم: الروح من أمر ربي، وما أوتيتم أنتم وجميع الناس من العلم إلا قليلاً، وذكر أن الذين سألوا رسول الله ﷺ عن الروح، فنزلت هذه الآية بمسألتهم إياه عنها، كانوا قوماً من اليهود.

وأما قوله: «مَنْ أَمْرُ رَبِّي» فإنه يعني: أنه من الأمر الذي يعلمه الله عز وجل دونكم، فلا تعلمونه ويعلم ما هو.

وأما قوله: «وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا»، فإن أهل التأويل اختلفوا في المعنى بقوله: «وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا»، فقال بعضهم: غنى بذلك: الذين سألوا رسول الله ﷺ عن الروح وجميع الناس غيرهم، ولكن لما ضم غير المخاطب إلى المخاطب، خرج الكلام على المخاطبة، لأن العرب كذلك تفعل إذا اجتمع في الكلام مخبر عنه غائب ومخاطب، أخرجوا الكلام خطاباً للجمع.

وقال آخرون: بل عَنَى بذلك: الذين سألوا رسولَ الله ﷺ عن الروحِ خاصةً دونَ غيرهم.

وأولى الأقوالِ في ذلك بالصواب: أن يقال: خرجَ الكلامُ خطاباً لمن خُوطِبَ به، والمرادُ به جميعُ الخلقِ، لأنَّ عِلْمَ كُلِّ أَحَدٍ سِوَى اللهِ، وإنْ كَثُرَ في عِلْمِ اللهِ قليلٌ. وإنما معنى الكلام: وما أُوتيتُم أيها الناسُ من العلمِ إلا قليلاً من كثيرٍ مما يعلمُ الله.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا

إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عِلْمًا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: ولئن شئنا لنذهبنَّ بالذي آتيناك من العلمِ الذي أوحينا إليك من هذا القرآنِ لنذهبنَّ به، فلا تعلمه، ثم لا تجدُ لنفسك بما نفعلُ بك من ذلك وكيلاً، يعني: قِيماً يقومُ لك، فيمنعنا من فعلِ ذلك بك، ولا ناصراً ينصرك، فيحول بيننا وبين ما نريدُ بك، قال: و كان عبد الله بن مسعود يتأول معنى ذهابِ الله عزَّ وجلَّ به رَفْعُهُ من صدورِ قارئيه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ

كَبِيرًا ﴿٨٧﴾

يقول عزَّ وجلَّ: «ولئن شِئْنَا لنذهبنَّ» يا محمدُ «بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ» ولكنه لا يشاء ذلك، رحمةً من ربك وتفضلاً منه عليك، «إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا» باصطفائه إياك لرسالته، وإنزاله عليك كتابه، وسائر نعمه عليك التي لا تُحصى.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴿٨٨﴾

يقول جل ثناؤه: قُلْ يا محمد للذين قالوا لك: إنا نأتي بمثل هذا القرآن: لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله، لا يأتون أبداً بمثله، ولو كان بعضهم لبعض عوناً وظهيراً. وذكر أن هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ بسبب قوم من اليهود جادلوه في القرآن، وسألوه أن يأتيهم بآية غيره شاهدة له على نبوته، لأن مثل هذا القرآن بهم قدرة على أن يأتوا به.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَقَدْ صَرَفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً ﴿٨٩﴾

يقول تعالى ذكره: ولقد بينا للناس في هذا القرآن من كل مثل، احتجاجاً بذلك كله عليهم، وتذكيراً لهم، وتنبيهاً على الحق ليتبعوه ويعملوا به «فأبى أكثر الناس إلا كفوراً»، يقول: فأبى أكثر الناس إلا جحوداً للحق، وإنكاراً لحجج الله وأدلته.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً ﴿٩٠﴾

يقول تعالى ذكره: وقال يا محمد، المشركون بالله من قومك لك: لن نصدقك، حتى تفجر لنا من أرضنا هذه عيناً تنبع لنا بالماء.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَوْ تَكُونُ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ
فَتُفَجَّرُ لَهَا نَجْرٌ خَالِلٌهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ لِنبيه محمد ﷺ: وقال لك يا محمدُ مشركو قومك: لن
نصدِّقَكَ حتى تستنبطَ لنا عيناً من أرضنا، تدقُّ بالماء أو تفور، أو يكونَ لك
بستانٌ، وهو الجنة، من نخيلٍ وعنب، فتفجَّرُ الأنهارَ خلالها تفجيراً بأرضنا هذه
التي نحنُ بها خلالها، يعني: خلال النخيل والكروم، ويعني بقوله: «خاللها
تفجيراً» بينها في أصولها تفجيراً بسببِ أبنيتها.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَوْ تَسْقُطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمَتَ عَلَيْنَا كَيْسَفًا
أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَكِ قَيْلًا ﴿٩٢﴾

اختلفت القراءةُ في قراءة قوله: «كَيْسَفًا» فقرأته عامَّةُ قراءةِ الكوفة والبصرة
بسكون السين، بمعنى: أو تسقط السماء كما زعمت علينا كَيْسَفًا، وذلك أن
الكَيْسَفَ في كلام العرب: جمع كَيْسَفَةٍ، وهو جمع الكثير من العدد للجنس،
كما تجمع السُّدْرَةُ بِسُدْرٍ، والتمرَّة بتمر، فحكى عن العرب سماعاً: أعطني
كَيْسَفَةً من هذا الثوب: أي قطعةً منه، يقال منه: جاءنا بثريد كَيْسَفٍ: أي قطع
خبز، وقد يحتمل إذا قرئ كذلك «كَيْسَفًا» بسكون السين أن يكون مراداً به
المصدر من كسف. فأما الكَيْسَفُ بفتح السين، فإنه جمع ما بين الثلاث إلى
العشر، يقال: كَيْسَفَةٌ واحدة، وثلاث كَيْسَفٍ، وكذلك إلى العشر، وقرأ ذلك عامة
قراءة أهل المدينة وبعض الكوفيين «كَيْسَفًا» بفتح السين بمعنى: جمع الكَيْسَفَةِ
الواحدة من الثلاث إلى العشر، يعني بذلك قطعاً: ما بين الثلاث إلى العشر.

وأولى القراءتين في ذلك بالصواب عندي قراءة من قرأه بسكون السين،
لأنَّ الذين سألوا رسولَ الله ﷺ ذلك، لم يقصدوا في مسألتهم إياه ذلك أن

يكون بحدّ معلوم من القطع، إنما سألوا أن يُسقط عليهم السماء قطعاً، وبذلك جاء التأويل أيضاً عن أهل التأويل.

وقوله، تعالى: «أَوْ تَأْتِيَّ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا»: يقول تعالى ذكره عن قِبل المشركين لنبي الله ﷺ: أو تأتي بالله يا محمد والملائكة قبيلًا.

واختلف أهل التأويل في معنى القبيل في هذا الموضع.

فقال بعضهم: معناه: حتى يأتي الله والملائكة كل قبيلة منا قبيلةً، فيُعَايِنُونَهُمْ.

وقال آخرون: معنى ذلك: أو تأتي بالله والملائكة عياناً نقابلهم مقابلةً، فنعاينهم معاينةً.

وأشبه الأقوال في ذلك بالصواب، القول الذي قيل: إنه بمعنى المعاينة، من قولهم: قابلت فلاناً مقابلةً، وفلان قبيل فلان، بمعنى قبائله.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: «أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقَيْكَ حَتَّىٰ تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿١٢﴾»

يقول تعالى ذكره مخبراً عن المشركين الذين ذكرنا أمرهم في هذه الآيات: أو يكون لك يا محمد بيت من ذهب؟ وهو الزخرف.

وقوله: «أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ»، يعني: أو تصعد في درج إلى السماء، وإنما قيل في السماء، وإنما يرقى إليها لا فيها، لأنَّ القوم قالوا: أو ترقى في سلم إلى السماء، فأدخلت «في» في الكلام ليدل على معنى الكلام.

وقوله: «وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقَيْكَ»، يقول: ولن نُصَدِّقَكَ من أجل رُقَيْكَ إلى

السماء «حتى تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا» منشوراً نَقْرُوهُ فِيهِ أَمْرُنَا بِاتِّبَاعِكَ وَالْإِيمَانِ بِكَ .

وقوله: «قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي» يقول تعالى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَهُؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ مِنْ قَوْمِكَ، الْقَائِلِينَ لَكَ هَذِهِ الْأَقْوَالُ، تَنْزِيهَاً لِلَّهِ عَمَّا يَصِفُونَهُ بِهِ، وَتَعْظِيماً لَهُ مِنْ أَنْ يُؤْتَى بِهِ وَمِلَاتُكَتِهِ، أَوْ يَكُونَ لِي سَبِيلٌ إِلَى شَيْءٍ مِمَّا تَسْأَلُونِيهِ. «هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا»، يقول: هَلْ أَنَا عَبْدٌ مِنْ عِبِيدِهِ مِنْ بَنِي آدَمَ، فَكَيْفَ أَقْدَرُ أَنْ أَفْعَلَ مَا سَأَلْتُمُونِي مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ، وَإِنَّمَا يَقْدَرُ عَلَيْهَا خَالِقِي وَخَالِقُكُمْ، وَإِنَّمَا أَنَا رَسُولٌ أُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ، وَالَّذِي سَأَلْتُمُونِي أَنْ أَفْعَلَهُ بِيَدِ اللَّهِ الَّذِي أَنَا وَأَنْتُمْ عِبِيدُ لَهُ، لَا يَقْدَرُ عَلَى ذَلِكَ غَيْرُهُ.

وهذا الكلامُ الَّذِي أَخْبَرَ اللَّهُ أَنَّهُ كَلَّمَ بِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِيمَا ذَكَرَ كَانَ مِنْ مَلَأَ مِنْ قَرِيشٍ اجْتَمَعُوا لِمَنْظَرَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَحَاجَّتِهِ، فَكَلَّمُوهُ بِمَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٤﴾

يقول تعالى ذكره: وَمَا مَنَعَ قَوْمَكَ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ، وَبِمَا جِئْتَهُمْ بِهِ مِنَ الْحَقِّ «إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى»، يقول: إِذْ جَاءَهُمُ الْبَيَانُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ بِحَقِيقَةِ مَا تَدْعُوهُمْ وَصَحَّةِ مَا جِئْتَهُمْ بِهِ، إِلَّا قَوْلُهُمْ جَهْلًا مِنْهُمْ «أَبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا» فَإِنَّ الْأَوَّلَى فِي مَوْضِعٍ نَصَبَ بِوُقُوعِ مَنْعِ عَلَيْهَا، وَالثَّانِيَةِ فِي مَوْضِعٍ رَفَعَ، لِأَنَّ الْفِعْلَ لَهَا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مُلْكٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿٩٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَهُؤَلَاءَ الَّذِينَ أَبَوَا الْإِيمَانَ بِكَ وَتَصْدِيقَكَ فِيمَا جِئْتَهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِي، اسْتَنْكَاراً لِأَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ رَسُولاً مِنَ الْبَشَرِ: لَوْ كَانَ أَيُّهَا النَّاسُ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ، لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً، لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ إِنَّمَا تَرَاهُمْ أَمْثَالَهُمْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَمَنْ خَصَّهُ اللَّهُ مِنْ بَنِي آدَمَ بِرُؤْيَتِهَا؛ فَأَمَّا غَيْرُهُمْ فَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى رُؤْيَتِهَا فَكَيْفَ يَبْعَثُ إِلَيْهِمْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الرُّسُلَ، وَهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى رُؤْيَتِهِمْ وَهُمْ بِهَيَاتِهِمْ الَّتِي خَلَقَهُمُ اللَّهُ بِهَا، وَإِنَّمَا يَرْسِلُ إِلَى الْبَشَرِ الرُّسُولَ مِنْهُمْ، كَمَا لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ، ثُمَّ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولاً أَرْسَلْنَاهُ مِنْهُمْ مَلَكاً مِثْلَهُمْ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي

وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً ﴿٩٦﴾

يقول تعالى ذكره لِنَبِيِّهِ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِلْقَائِلِينَ لَكَ: «أَبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا» «كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ» فَإِنَّهُ نِعَمَ الْكَافِي وَالْحَاكِمُ «إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً»، يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ ذُو خَبْرَةٍ وَعِلْمٍ بِأُمُورِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ، وَالْمَحَقُّ مِنْهُمْ وَالْمُبْطَلُ، وَالْمَهْدِيُّ وَالضَّالُّ «بَصِيراً» بِتَدْبِيرِهِمْ وَسِيَاسَتِهِمْ وَتَصْرِيفِهِمْ فِيمَا شَاءَ، وَكَيْفَ شَاءَ وَأَحَبُّ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أُمُورِهِمْ، وَهُوَ مُجَازٍ جَمِيعَهُمْ بِمَا قَدَّمَ عِنْدَ وَرُودِهِمْ عَلَيْهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ

فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمِيَائِبُكُمْ وَأَنْتُمْ كَمَا وَصَّيْتُمْ أَنْتُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ يَأْمُرْ بِالْإِيمَانِ بِهِ، وَلِتَصْصِدِّقَ وَتَصْصِدِّقَ مَا جِئْتَ بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّكَ، فَوْقَهُ لَذِكْ، فَهُوَ الْمَهْتَدِي الرُّشِيدُ الْمَصِيبُ الْحَقُّ، لَا مَنْ هَدَاهُ غَيْرُهُ، فَإِنَّ الْهَدَايَةَ بِيَدِهِ. وَمَنْ يُضِلَّ: يَقُولُ وَمَنْ يُضِلَّهُ اللَّهُ عَنِ الْحَقِّ، فَيُخْذِلْهُ عَنْ إِصَابَتِهِ، وَلَمْ يُوَفِّقْهُ لِلْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَتَصْصِدِّقِ رَسُولِهِ، فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ يَأْمُرُ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ، إِذَا أَرَادَ اللَّهُ عِقَابَهُمْ وَالْإِسْتِنْقَازَ مِنْهُمْ، «وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ»، يَقُولُ: وَنَجْمَعُهُمْ بِمَوْقِفِ الْقِيَامَةِ مِنْ بَعْدِ تَفْرِقِهِمْ فِي الْقُبُورِ عِنْدَ قِيَامِ السَّاعَةِ «عَلَى وَجُوهِهِمْ عُمْيَاءً وَبُكْمًا» وَهُوَ جَمْعُ أَبْكُمْ، وَيَعْنِي بِالْبُكْمِ: الْخُرْسُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: وَكَيْفَ وَصَفَ اللَّهُ هَؤُلَاءِ بِأَنَّهُمْ يَحْشُرُونَ عُمِيَاءً وَبُكْمًا وَصَمًّا، وَقَدْ قَالَ: «وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاعِقُوهَا» فَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ يَرُونَ، وَقَالَ: «إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْطًا وَزَفِيرًا. وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّبِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا» فَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ يَسْمَعُونَ وَيَنْطِقُونَ. قِيلَ: جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ مَا وَصَفَهُمُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْعَمَى وَالْبُكْمِ وَالصَّمِّ يَكُونُ صِفَتَهُمْ فِي حَالِ حَشْرِهِمْ إِلَى مَوْقِفِ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يُجْعَلُ لَهُمْ أَسْمَاعٌ وَأَبْصَارٌ وَمَنْطِقٌ فِي أَحْوَالٍ أُخْرَى غَيْرِ حَالِ الْحَشْرِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ.

وقوله: «مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ»، يَقُولُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: وَمَصِيرُهُمْ إِلَى جَهَنَّمَ، وَفِيهَا مَسَاكِنُهُمْ، وَهُمْ وَقُودُهَا.

وقوله: «كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا»، يَعْنِي بِقَوْلِهِ: خَبَتْ: لَأَنْتَ وَسَكَنْتَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ذَلِكَ جَزَاءُ هُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِعَايِنِنَا وَقَالُوا: إِنْ كُنَّا عِظَمًا وَرُفْتَاءً نَالِ الْمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿١٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: هَذَا الَّذِي وَصَفْنَا مِنْ فَعَلْنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِهِؤُلَاءِ

المشركين، ما ذكرتُ أنا نفعلُ بهم من حشرهم على وجوههم عُميةً وبكماً وصماً، وإصلاًئنا إياهم النارَ على ما بيّنا من حالتهم فيها ثوابهم بكفرهم في الدنيا بآياتنا، يعني بأدلتِهِ وحججه، وهم رُسُلُهُ الذين دعوهم إلى عبادته، وإفرادهم إياه بالألوهة دون الأوثان والأصنام، ويقولهم إذا أمروا بالإيمان بالميعاد، وبثواب الله وعقابه في الآخرة «أئذا كُنَّا عِظَاماً» باليةً «ورُفَاتاً» قد صرنا تراباً «أئنا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً»، يقول: نُبعثُ بعد ذلك خلقاً جديداً. كما ابتدأناه أوّلَ مرّةٍ في الدنيا استنكاراً منهم لذلك، واستعظاماً وتعجباً من أن يكون ذلك.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لِنبيه محمدٍ ﷺ: أَو لَمْ يَنْظُرْ هَؤُلَاءِ الْقَائِلُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ «أئذا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أئنا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً» بعيونِ قلوبهم، فيعلمون أن الله الذي خلق السموات والأرض، فابتدعها من غير شيء، وأقامها بقدرته، قادر بتلك القدرة على أن يخلقَ مثلهم أشكالهم، وأمثالهم من الخلق بعد فنائهم، وقبل ذلك، وأنَّ مَنْ قَدَرَ على ذلك فلا يمتنعُ عليه إعادتهم خلقاً جديداً، بعد أن يصيروا عظاماً ورُفَاتاً.

وقوله: «وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لَا رَيْبَ فِيهِ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وجعلَ الله لهؤلاء المشركين أجلاً لهلاكهم، ووقتاً لعذابهم لا ريبَ فيه: يقول: لا شكَّ فيه أنه آتِيهم ذلك الأجلُ «فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا»، يقول: فأبى الكافرون إلا جحوداً بحقيقة وعيده الذي أوعدهم، وتكذيباً به.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ لَّوْأَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَهُؤَلَاءَ الْمَشْرِكِينَ: لو أنتم أيها الناس تملكون خزائن أملاكِ ربي من الأموال، وعَنَى بِالرَّحْمَةِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ: الْمَالَ «إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ»، يقول: إِذَنْ لَبَخِلْتُمْ بِهِ، فَلَمْ تَجُودُوا بِهَا عَلَى غَيْرِكُمْ، خَشْيَةً مِنَ الْإِنْفَاقِ وَالْإِقْتَارِ.

وقوله: «وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا»، يقول: وَكَانَ الْإِنْسَانُ بَخِيلًا مُمَسِكًا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ، فَسَلَّ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾



يقول تعالى ذِكْرُهُ: وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ تَبَيَّنَ لِمَنْ رَأَاهَا أَنَّهَا حُجُجٌ لِمُوسَى شَاهِدَةٌ عَلَى صِدْقِهِ وَحَقِيقَةِ نَبُوَّتِهِ.

وأما قوله: «فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ»، فَإِنْ عَامَّةَ قِرَاءَةِ الْإِسْلَامِ عَلَى قِرَاءَتِهِ عَلَى وَجْهِ الْأَمْرِ بِمَعْنَى: فَاسْأَلْ يَا مُحَمَّدُ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ مُوسَى.

وقوله: «فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورًا»، يقول: فَقَالَ لِمُوسَى فِرْعَوْنُ: إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى تَتَعَاطَى عِلْمَ السَّحَرِ، فَهَذِهِ الْعَجَائِبُ الَّتِي تَفْعَلُهَا مِنْ سِحْرِكَ، وَقَدْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُرَادًا بِهِ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى سَاحِرًا، فَوْضِعَ مَفْعُولٍ مَوْضِعَ فَاعِلٍ، كَمَا قِيلَ: إِنَّكَ مَشْتَوْمٌ عَلَيْنَا وَمِيمُونٌ، وَإِنَّمَا هُوَ شَائِمٌ وَيَامِنٌ. وَقَدْ تَأَوَّلَ بَعْضُهُمْ حُجَابًا مُسْتَوْرًا، بِمَعْنَى: حُجَابًا سَاتِرًا، وَالْعَرَبُ قَدْ تَخْرَجَ فَاعِلًا بِلَفْظِ مَفْعُولٍ كَثِيرًا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَافِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَنْفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَهُ قَدْ أَخْبَرَ عَنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ أَنَّهُمْ جَحَدُوا مَا جَاءَهُمْ بِهِ مُوسَى مِنَ آيَاتِ التَّسْعِ، مَعَ عِلْمِهِمْ بِأَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ بِقَوْلِهِ: «وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ». فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا: هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ، وَجَحَدُوا بِهَا، وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَأَخْبَرَ جُلَّ ثَنَائِهِ أَنَّهُمْ قَالُوا: هِيَ سِحْرٌ، مَعَ عِلْمِهِمْ وَاسْتِقْنَانِ أَنْفُسِهِمْ بِأَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: «لَقَدْ عَلِمْتُمْ» إِنَّمَا هُوَ خَبَرٌ مِنْ مُوسَى لِفِرْعَوْنَ بِأَنَّهُ عَالِمٌ بِأَنَّهَا آيَاتٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ.

وقوله: «وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا»، يقول: إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنَ مَلْعُونًا مَمْنُوعًا مِنَ الْخَيْرِ. وَالْعَرَبُ تَقُولُ: مَا ثَبَرَكَ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ: أَيِ مَا مَنَعَكَ مِنْهُ، وَمَا صَدَّكَ عَنْهُ؟ وَثَبَرَهُ اللَّهُ فَهُوَ يُثْبِرُهُ وَيُثْبِرُهُ لُغْتَانِ، وَرَجُلٌ مَثْبُورٌ: مَحْبُوسٌ عَنِ الْخَيْرَاتِ هَالِكٌ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مَنْ بَعْدَهُ لِبَنِيِّ إِسْرَءِيلَ أَسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾

يقول تَعَالَى ذَكَرَهُ: فَأَرَادَ فِرْعَوْنَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُ مُوسَى وَبَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْأَرْضِ، «فَأَغْرَقْنَاهُ» فِي الْبَحْرِ، «وَمَنْ مَعَهُ» مِنْ جُنْدِهِ «جَمِيعًا»، وَنَجَّيْنَا مُوسَى وَبَنِي إِسْرَءِيلَ، وَقُلْنَا لَهُمْ «مَنْ بَعْدَ» هَلَاكِ فِرْعَوْنَ «أَسْكُنُوا الْأَرْضَ» أَرْضَ الشَّامِ «فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا»، يَقُولُ: فَإِذَا جَاءَتِ السَّاعَةُ، وَهِيَ وَعْدُ

الآخرة، جئنا بكم ليفياً: يقول: حشرناكم من قبوركم إلى موقف القيامة ليفياً: أي مختلطين قد التفت بعضهم على بعض، لا تتعارفون، ولا ينحاز أحد منكم إلى قبيلته وحيه، من قولك: لفتت الجيوش: إذا ضربت بعضها ببعض، فاختلط الجميع، وكذلك كل شيء خلط بشيء فقد لفت به.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴿١٠٦﴾

يقول تعالى ذكره: وبالحق أنزلنا هذا القرآن: يقول: أنزلناه نأمر فيه بالعدل والإنصاف والأخلاق الجميلة، والأمور المستحسنة الحميدة، وننهى فيه عن الظلم والأمور القبيحة، والأخلاق الرديئة، والأفعال الذميمة «وبالحق نزل»، يقول: وبذلك نزل من عند الله على نبيه محمد ﷺ.

وقوله: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا»، يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وما أرسلناك يا محمد إلى مَنْ أَرْسَلْنَاكَ إِلَيْهِ مِنْ عِبَادِنَا، إِلَّا مُبَشِّرًا بِالْجَنَّةِ مَنْ أَطَاعَنَا، فانتَهى إلى أَمْرِنَا وَنَهَيْنَا، وَمَنْذَرًا لِمَنْ عَصَانَا وَخَالَفَ أَمْرَنَا وَنَهَيْنَا. «وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ»، يعني: أَحْكَمْنَاهُ وَفَضَّلْنَاهُ وَبَيَّنَّاهُ.

فتأويل الكلام: وما أرسلناك إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، وَفَضَّلْنَاهُ قُرْءَانًا، وَبَيَّنَّاهُ وَأَحْكَمْنَاهُ، لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ.

وقوله: «وَنَزَلْنَاهُ تَنْزِيلًا» يقول تعالى ذكره: قَرَقْنَا تَنْزِيلَهُ، وَأَنْزَلْنَاهُ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا

أَلْعَلَمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا
إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا مَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء القائلين لك: «لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا»: آمنوا بهذا القرآن الذي لو اجتمعت الإنس والجن على أَنْ يأتوا بمثله، لم يأتوا به ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، أو لا تؤمنوا به، فإن إيمانكم به لن يزيد في خزائن رحمة الله ولا ترككم الإيمان به ينقص ذلك، وإن تكفروا به، فإن الذين أوتوا العلم بالله وآياته من قبل نزوله من مؤمني أهل الكتابين، إذا يُتلى عليهم هذا القرآن يَخْرُونَ تعظيماً له وتكريماً، وعلماً منهم بأنه من عند الله لأذقانهم سُجَّدًا بالأرض.

وقوله: «سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا مَفْعُولًا»، يقول جل ثناؤه: ويقول هؤلاء الذين أوتوا العلم من قبل نزول هذا القرآن، إِذْ خَرُّوا لِلْأَذْقَانِ سُجُودًا عند سماعهم القرآن يُتلى عليهم، تنزيهاً لربنا وتبرئةً له مما يضيف إليه المشركون به، ما كان وَعْدُ رَبِّنَا من ثواب وعقاب، إلا مفعولاً حقاً يقيناً. إيمان بالقرآن وتصديق به.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَيَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ

خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾

يقول تعالى ذكره: ويخر هؤلاء الذين أوتوا العلم من مؤمني أهل الكتابين من قبل نزول الفرقان، إِذَا يُتلى عليهم القرآن لأذقانهم يبكون، ويزيدهم ما في القرآن من المواعظ والعبر خشوعاً، يعني خضوعاً لأمر الله وطاعته، واستكانة له.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَدْعَاؤَهُ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ

الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تَخَافَتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه: قل يا محمد لمشركي قومك المُنْكَرِينَ دُعَاءَ الرَّحْمَنِ: «ادْعُوا اللَّهَ» أيها القوم «أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ، أَيَا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى» بأيُّ أَسْمَائِهِ جَلَّ جَلَالُهُ تدعون ربكم، فإنما تدعون واحداً، وله الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى. وإنما قِيلَ ذَلِكَ لَهُ ﷺ، لِأَنَّ الْمَشْرِكِينَ فِيمَا ذُكِرَ سَمِعُوا النَّبِيَّ ﷺ يَدْعُو رَبَّهُ: يَا رَبَّنَا اللَّهُ، وَيَا رَبَّنَا الرَّحْمَنَ، فَظَنُوا أَنَّهُ يَدْعُو إِلَهَيْنِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هَذِهِ الْآيَةَ احتجاجاً لنبيه عليهم.

(ثم قال): وَلَا تَجْهَرْ يَا مُحَمَّدُ بِقِرَاءَتِكَ فِي صَلَاتِكَ وَدُعَائِكَ فِيهَا رَبَّكَ وَمَسْأَلَتِكَ إِيَّاهُ، وَذِكْرَكَ فِيهَا، فَيُؤْذِكَ بِجَهْرِكَ بِذَلِكَ الْمَشْرُكُونَ، وَلَا تَخَافَتْ بِهَا فَلَا يَسْمَعُهَا أَصْحَابُكَ «وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا» وَلَكِنْ التَّمَسُّ بَيْنَ الْجَهْرِ وَالْمَخَافَةِ طَرِيقاً إِلَى أَنْ تَسْمَعَ أَصْحَابُكَ، وَلَا يَسْمَعَهُ الْمَشْرُكُونَ فَيُؤْذُوكَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلِداً وَلَمْ يَكُنْ

لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبْرُهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه مُحَمَّدٍ ﷺ: «وَقُلِ» يَا مُحَمَّدُ «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلِداً» فَيَكُونُ مَرْبُوباً لَا رَبّاً، لِأَنَّ رَبَّ الْأَرْبَابِ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ. «وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ» فَيَكُونُ عَاجِزاً ذَا حَاجَةٍ إِلَى مَعُونَةٍ غَيْرِهِ ضَعِيفاً، وَلَا يَكُونُ إِلَهاً مَنْ يَكُونُ مُحْتَاجاً إِلَى مَعِينٍ عَلَى مَا حَاولَ، وَلَمْ يَكُنْ مُنْفَرِداً بِالْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ. «وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ»، يَقُولُ: وَلَمْ يَكُنْ لَهُ حَلِيفٌ حَالِفُهُ مِنَ الذَّلِيلِ الَّذِي بِهِ، لِأَنَّ مَنْ كَانَ ذَا حَاجَةٍ إِلَى نُصْرَةٍ غَيْرِهِ، فَذَلِيلٌ مَهِينٌ، وَلَا يَكُونُ مَنْ كَانَ ذَلِيلًا مَهِينًا يَحْتَاجُ إِلَى نَاصِرٍ إِلَهاً يُطَاعَ «وَكَبْرُهُ تَكْبِيرًا»، يَقُولُ: وَعَظَّمُ رَبُّكَ يَا مُحَمَّدُ بِمَا أَمْرُنَا أَنْ تَعْظُمَ بِهِ مِنْ قَوْلٍ وَفِعْلٍ، وَأَطِعُهُ فِيمَا أَمَرَكَ وَنَهَاكَ.

سُورَةُ الْكَهْفِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ »
وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۖ قِيَمًا

يقول تعالى ذكره: الحمد لله الذي خَصَّ برسالته محمداً وانتخبه لبلاغها عنه، فابتعثه إلى خلقه نبياً مرسلًا، وأنزل عليه كتابه قِيَمًا، ولم يجعل له عِوَجًا. وعُني بقوله عزَّ ذِكْرُه «قِيَمًا»: معتدلاً مستقيماً.

وقيل: إنما افتتح جُلُّ ثناؤه هذه السورة بذكر نفسه بما هو له أهل، وبالخبر عن إنزال كتابه على رسوله إخباراً منه للمشرِكِينَ من أهل مكة، بأنَّ محمداً رسولُه ﷺ، وذلك أنَّ المشرِكِينَ كانوا سألوا رسولَ الله ﷺ عن أشياء عَلَّمَهُمُوهَا الْيَهُودُ من قَرِيطَةِ والنضير، وأمروهم بمسألتِهِمُوهُ عنها، وقالوا: إنَّ أخبركم بها فهو نبيٌّ، وإنَّ لم يخبركم بها فهو متقولٌ، فوعدهم رسولُ الله ﷺ للجوابِ عنها موعداً، فأبطأ الوحيُّ عنه بعضَ الإبطاء، وتأخَّرَ مجيئُ جبرائيلَ عليه السلام عنه عن ميعاده القوم، فتحدَّثَ المشرِكُونَ بأنه أخلفهم موعدَهُ، وأنه متقولٌ، فأنزلَ اللهُ هذه السورة جواباً عن مسائلهم، وافتتحَ أولَها بذكره، وتكذيبِ المشرِكِينَ في أُحدوثِهِم التي تحدَّثُوا بها بينهم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَكِيثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أنزل على عبده القرآن معتدلاً مستقيماً لا عِوَجَ فيه لينذركم أيها الناس بأساً من الله شديداً، وعنَى بالبأسِ العذابَ العاجلَ، والنكالَ الحاضرَ والسطوةَ.

وقوله: «مِّنْ لَّدُنْهُ»، يعني: من عند الله.

وقوله: «وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ»، يقول: ويبشر المصدقين الله ورسوله «الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ» وهو العمل بما أمر الله بالعمل به، والانتهاه عما نهى الله عنه «أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا»، يقول: ثواباً جزيلاً لهم من الله على إيمانهم بالله ورسوله، وعملهم في الدنيا الصالحات من الأعمال، وذلك الثواب: هو الجنة التي وعدها المتقون.

وقوله: «مَكِيثِينَ فِيهِ أَبَدًا» خالدين، لا يتقلون عنه، ولا يُنْقَلُونَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ويحذر أيضاً محمدُ القومَ «الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا» من مشركي قومه وغيرهم، بأس الله وعاجلَ نقمته. وأجلَ عذابه، على قِيلِهِمْ ذلك.

وقوله: «مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ»، يقول: ما لِقائِلِي هذا القول، يعني قولهم: «اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا» «بِهِ»: يعني بالله من علمٍ، والهاء في قوله: «بِهِ» من ذكر الله،

وإنما معنى الكلام: ما لهؤلاء القائلين هذا القول بالله، إنه لا يجوز أن يكون له ولد من علم، فلجهلهم بالله وعظمته قالوا ذلك.

وقوله: «وَلَا لِأَبَائِهِمْ»، يقول: ولا لأسلافهم الذين مضوا قبلهم على مثل الذي هم عليه اليوم، كان لهم بالله وعظمته علم.

وقوله: «كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ»، يقول: عَظُمَتْ الكلمة كلمة تخرج من أفواه هؤلاء القوم الذين قالوا: اتخذ الله ولداً، والملائكة بنات الله.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَلَعَلَّكَ بِخُغِّ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾

يقول تعالى ذكره بذلك: فلعلك يا محمد قاتل نفسك ومهلكها على آثار قومك الذين قالوا لك: «لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا» تمرداً منهم على ربهم، إن هم لم يؤمنوا بهذا الكتاب الذي أنزلته عليك فيصدقوا بأنه من عند الله حزناً وتلهفاً ووجداً، بإدبارهم عنك، وإعراضهم عما أتيتهم به وتركهم الإيمان بك، يقال منه: بخع فلان نفسه يبيعها بخعاً وبخوعاً.

وهذه معاتبه من الله عز ذكره على وجده بمباعدة قومه إياه فيما دعاهم إليه من الإيمان بالله، والبراءة من الآلهة والأنداد، وكان بهم رحيماً.

وقوله: «إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا»، يقول عز ذكره: إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِلْأَرْضِ. «لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا»، يقول: لنختبر عبادنا أيهم أترك لها وأتبع لأمرنا ونهينا وأعمل فيها بطاعتنا.

وقوله: «وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا»، يقول عز ذكره: وَإِنَّا

الكهف: ٨ - ٩

لمخربوها بعد عَمَارَتِنَاهَا بما جعلنا عليها من الزينة، فَمُصَيِّرُوهَا صَعِيداً جُرْزاً لا نباتَ عليها ولا زرعَ ولا غرسَ. وقد قيل: إنه أُريدَ بالصعيدِ في هذا الموضع: المستوي بوجه الأرض، وذلك هو شبيهٌ بمعنى قولنا في ذلك.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ
وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبیه محمد ﷺ: أَمْ حَسِبْتَ يَا مُحَمَّدُ أَنَّ أَصْحَابَ الكهف والرقیم كانوا من آیاتنا عَجَبًا، فَإِنَّ مَا خَلَقْتَ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمَا فِيهِنَّ مِنَ الْعَجَائِبِ أَعْجَبَ مِنْ أَمْرِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ، وَحِجَّتِي بِكُلِّ ذَلِكَ ثَابِتَةً عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ قَوْمِكَ، وَغَيْرِهِمْ مِنْ سَائِرِ عِبَادِي.

وَأَمَّا الْكَهْفُ، فَإِنَّهُ كَهْفُ الْجَبَلِ الَّذِي أَوَى إِلَيْهِ الْقَوْمُ الَّذِينَ قَصَّ اللَّهُ شَأْنَهُمْ فِي هَذِهِ السُّورَةِ.

وَأَمَّا الرَّقِيمُ، فَإِنَّ أَهْلَ التَّأْوِيلِ اخْتَلَفُوا فِي الْمَعْنَى بِهِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ اسْمُ قَرْيَةٍ، أَوْ وَادٍ عَلَى اخْتِلَافٍ بَيْنَهُمْ فِي ذَلِكَ.

وَقَالَ آخَرُونَ: الرَّقِيمُ: الْكِتَابُ.

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ هُوَ اسْمُ جَبَلِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ.

وَأَوَّلَى هَذِهِ الْأَقْوَالِ بِالصَّوَابِ فِي الرَّقِيمِ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ: لَوْحٌ، أَوْ حَجَرٌ، أَوْ شَيْءٌ كُتِبَ فِيهِ كِتَابٌ وَقَدْ قَالَ أَهْلُ الْأَخْبَارِ: إِنَّ ذَلِكَ لَوْحٌ كُتِبَ فِيهِ أَسْمَاءُ أَصْحَابِ الْكَهْفِ وَخَبَرُهُمْ حِينَ أَوْوَا إِلَى الْكَهْفِ، ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ: رُفِعَ ذَلِكَ اللَّوْحُ فِي خَزَانَةِ الْمَلِكِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ جُعِلَ عَلَى بَابِ كَهْفِهِمْ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ كَانَ ذَلِكَ مُحْفُوظًا عِنْدَ بَعْضِ أَهْلِ بِلَدِهِمْ، وَإِنَّمَا الرَّقِيمُ: فَعِيلٌ،

الكهف: ٩ - ١٠

أصله: مرقوم، ثم صُرف إلى فعيل، كما قيل للمجروح: جريح، وللمقتول: قتيل:، يقال منه: رقت كذا وكذا: إذا كتبتَه، ومنه قيل للرَّقمِ في الثوب رقم، لأنه الخطُّ الذي يعرف به ثمنه. ومن ذلك قيل للحَيَّة: أرقم، لما فيه من الآثار؛ والعربُ تقولُ: عليك بالرقمة، ودَعِ الضِّفَّةَ: بمعنى عليك برقمة الوادي حيث الماء، ودع الضفة الجانبية. والضفتان: جانبا الوادي. وأحسبُ أنَّ الذي قال الرقيم: الوادي، ذهبَ به إلى هذا، أعني به إلى رقمة الوادي.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِذَا أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا
ءَاِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿٩﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ لِنبيه محمدٍ ﷺ: «أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا» حين أوى الفتية أصحاب الكهف إلى كهف الجبل، هرباً بدينهم إلى الله، فقالوا إذْ أَوْوْهُ: «رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً» رغبةً منهم إلى رَبِّهِمْ، في أن يرزقهم من عنده رحمةً.

وقوله: «وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا»، يقول: وقالوا: يَسِّرْ لَنَا بِمَا نَبْتَغِي وما نَلْتَمِس من رضاكَ والهرب من الكُفْرِ بك، ومن عبادةِ الأوثان التي يَدْعُونَا إِلَيْهَا قَوْمُنَا، رَشَدًا: يقول: سَدَادًا إِلَى الْعَمَلِ بِالَّذِي تُحِبُّ.

وقد اختلف أهل العلم في سبب مصير هؤلاء الفِتْيَةِ إلى الكهف الذي ذكره الله في كتابه، فقال بعضهم: كان سبب ذلك، أنهم كانوا مسلمين على دين عيسى، وكان لهم ملكٌ عابدٌ وَثَن، دعاهم إلى عبادةِ الأصنامِ فهربوا بدينهم منه خشيةً أن يفتنهم عن دينهم، أو يقتلهم، فاستَحَفُّوا منه في الكهف.

وقال آخرون: بل كان مصيرهم إلى الكهف هرباً من طلب سلطانٍ كان طلبهم بسببِ دَعْوَى جَنَايَةِ ادَّعَى عَلَى صَاحِبٍ لَهُمْ أَنَّهُ جَنَّاها.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾

يعني جل ثناؤه بقوله: «فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ»، فضربنا على آذانهم بالنوم في الكهف: أي ألقينا عليهم النوم، كما يقول القائل لآخر: ضربك الله بالفالج، بمعنى ابتلاه الله به، وأرسله عليه.

وقوله: «سِنِينَ عَدَدًا»، يعني: سِنِينَ معدودة، ونصب العدد بقوله: «فَضَرَبْنَا».

وقوله: «ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى»، يقول: ثم بعثنا هؤلاء الفتية الذين أَوُوا إلى الكهف بعد ما ضربنا على آذانهم فيه سنين عدداً من رَقَدَتِهِمْ، لينظر عبادي فيعلموا بالبحث، أي الطائفتين اللتين اختلفتا في قَدْرِ مبلغ مُكْثِ الْفِتْيَةِ في كهفهم رقوداً. «أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا»، يقول: أصوبُ لِقَدْرِ لَبِثِهِمْ فِيهِ أَمَدًا؛ ويعني بالأمد: الغاية.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لِنَبِيهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: نَحْنُ يَا مُحَمَّدُ نَقُصُّ عَلَيْكَ خَبَرَ هَؤُلَاءِ الْفِتْيَةِ الَّذِينَ أَوُوا إِلَى الْكَهْفِ بِالْحَقِّ، يعني: بالصدق واليقين الذي لا شك فيه. «إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ»، يقول: إِنَّ الْفِتْيَةَ الَّذِينَ أَوُوا إِلَى الْكَهْفِ الَّذِينَ

سَأَلَكَ عَنْ نَبْتِهِمُ الْمَلَأَ مِنْ مُشْرِكِي قَوْمِكَ، فَنِيَّةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ، «وَزِدْنَاهُمْ هُدًى»، يقول: وزدناهم إلى إيمانهم برَبِّهم إيماناً، وبصيرةً بدينهم، حتى صبروا على هجران دارِ قومِهِم، والهَرَبِ من بين أظهرهم بدينهم إلى الله، وفراقِ ما كانوا فيه من خفضِ العيشِ ولِينِهِ، إلى خشونةِ المُكْثِ في كهفِ الجبلِ.

وقوله: «وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ»، يقول عَزَّ ذِكْرُهُ: وألهمناهم الصبرَ، وشَدَدْنَا قُلُوبَهُمْ بنورِ الإيمانِ حتى عَزَزَتْ أَنْفُسُهُمْ عما كانوا عليه من خفضِ العيشِ.

وقوله: «إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»، يقول: حين قاموا بين يدي الجبارِ دَقِينُوسَ، فقالوا له إذ عاتبهم على تركهم عبادةَ آلهته: «رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»، يقول: قالوا رَبُّنَا مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وما فيهما من شيء، وآلهتك مَرَبُوبَةٌ، وغيرُ جائزٍ لنا أن نترك عبادةَ الربِّ ونعبدَ المَرَبُوبَ. «لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا»، يقول: لن نَدْعُو من دُونِ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَهًا، لأنه لا إلهَ غيرُهُ، وإنَّ كُلَّ ما دُونُهُ فهو خَلْقُهُ. «لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا»، يقول جَلَّ ثَنَاؤُهُ: لئن دعونا إِلَهًا غيرَ إلهِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، لقد قلنا إذن بدعائنا غيرَهُ إِلَهًا، شَطَطًا من القولِ: يعني غالباً من الكذبِ، مجاوزاً مقداره في البُطُولِ والغُلُوِّ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ

يقول عَزَّ ذِكْرُهُ مخبراً عن قِيلِ الفَتِيَةِ من أصحابِ الكهف: هؤلاءِ قومُنَا اتَّخَذُوا من دُونِ الله آلِهَةً يعبدونها من دونه. «لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ»، يقول: هَلَّا يَأْتُونَ على عبادتهم إياها بحجةٍ بَيِّنَةٍ.

وفي الكلام محذوفٌ اجْتَرَى بما ظهر عما حذف، وذلك في قوله: «لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ» فالهاء والميم في عليهم من ذَكَرِ الآلهة، والآلهة لا

يُوتَىٰ عَلَيْهَا بِسُلْطَانٍ، وَلَا يُسْأَلُ السُّلْطَانُ عَلَيْهَا، وَإِنَّمَا يُسْأَلُ عَابِدُوهَا السُّلْطَانُ عَلَىٰ عِبَادَتِهِمْوَهَا، فَمَعْلُومٌ إِذْ كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، أَنَّ مَعْنَى الْكَلَامِ: لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَىٰ عِبَادَتِهِمْوَهَا، وَاتَّخَذَهُمْوَهَا آلِهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذْ اعْتَرَلْتُمْوَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ﴿١٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ مخبراً عن قِيلٍ بعضِ الفتية لبعض: وإذ اعتزلتم أيها الفتية قومكم الذين اتخذوا من دون الله آلهة «وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ»، يقول: وإذ اعتزلتم قومكم الذين يعبدون من الآلهة سوى الله، إِذْ كَانَ ذَلِكَ مَعْنَاهُ فِي مَوْضِعٍ نَصَبَ عِطْفَاءً لَهَا عَلَى الْهَاءِ، وَالْمِيمِ الَّتِي فِي قَوْلِهِ: «وَإِذْ اعْتَرَلْتُمْوَهُمْ».

وأما قوله: «فَأَوُوا إِلَى الْكَهْفِ» فإنه يعني به: فَصَيِّرُوا إِلَى غَارِ الْجَبَلِ الَّذِي يُسَمَّى بِنَجْلُوسٍ، «يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ»، يقول: يَسْطِ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ بَتَيْسِيرِهِ لَكُمْ الْمَخْرَجَ مِنَ الْأَمْرِ الَّذِي قَدْ رُمِيتُمْ بِهِ مِنَ الْكَافِرِ دَقِينُوسٍ وَطَلَبِهِ إِيَّاكُمْ لِعَرْضِكُمْ عَلَى الْفِتْنَةِ.

وقوله: «فَأَوُوا إِلَى الْكَهْفِ» جوابٌ لِإِذْ، كَأَنَّ مَعْنَى الْكَلَامِ: وَإِذْ اعْتَرَلْتُمْ أَيُّهَا الْقَوْمُ قَوْمَكُمْ، فَأَوُوا إِلَى الْكَهْفِ؛ كَمَا يُقَالُ: إِذْ أذْنَبْتَ فَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ وَتُبْ إِلَيْهِ.

وقوله: «وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا»، يقول: وَيَسِّرْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمُ الَّذِي أَنْتُمْ فِيهِ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ خَوْفًا مِنْكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَدِينِكُمْ مَرْفَقًا، وَيَعْنِي بِالْمَرْفَقِ: مَا تَرْفُقُونَ بِهِ مِنْ شَيْءٍ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرِّضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْسِدًا



يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وَتَرَى الشَّمْسَ» يا محمد «إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ»، يعني بقوله: «تَزَاوَرُ»: تَعَدُّلُ وَتَمِيلُ، من الزَّوَرِ: وهو العِوَجُ والمِيلُ؛ يقال منه: في هذه الأرض زَوَرٌ: إذا كان فيها اعوجاج، وفي فلان عن فلان اِزْوَارًا، إذا كان فيه عنه إعراضٌ.

وقوله: «وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرِّضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وإذا غربت الشمسُ تتركهم من ذاتِ شمالهم. وإنما معنى الكلام: وترى الشمسُ إذا طلعت تعدلُ عن كهفهم، فتطلعُ عليه من ذاتِ اليمينِ، لئلا تُصِيبَ الفتيةَ، لأنها لو طلعت عليهم قبالهم لأحرقتهم وثيابهم، أو أشحبتهم، وإذا غربت تتركهم بذاتِ الشمالِ، فلا تصيبهم؛ يقال منه: قرضتُ موضعَ كذا: إذا قطعتَه فجاوزته.

وقوله: «وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ»، يقول: والفتية الذين أَوُوا إليه في مُتَسَعٍ مِنْهُ.

وقوله: «ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ»، يقول عَزَّ ذِكْرُهُ: فَعَلْنَا هَذَا الَّذِي فَعَلْنَا بِهِؤَلاءِ الْفَتِيَّةِ - الَّذِينَ قَصَصْنَا عَلَيْكُمْ أَمْرَهُمْ مِنْ تَصْيِيرِنَاهُمْ، إِذْ أَرَدْنَا أَنْ نَضْرِبَ عَلَى آذَانِهِمْ بَحِثَ تَزَاوَرُ الشَّمْسُ عَنْ مَضَاجِعِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ إِذَا هِيَ طَلَعَتْ، وَتَقَرِّضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ إِذَا هِيَ غَرَبَتْ، مَعَ كَوْنِهِمْ فِي الْمَتَسَعِ مِنَ الْمَكَانِ، بَحِثَ لَا تُحْرِقُهُمُ الشَّمْسُ فَتُشْحِبُهُمْ، وَلَا تُبْلِي عَلَى طَوْلِ رَقْدَتِهِمْ ثِيَابَهُمْ، فَتَعْفَنَ عَلَى إِبْجَادِهِمْ، - مِنْ حُجْجِ اللَّهِ وَأَدْلَتِهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَالْأَدْلَةُ الَّتِي يَسْتَدِلُّ

بها أولو الأبواب على عظيم قُدرته وسلطانه، وأنه لا يُعجزه شيءٌ أرادَه.

وقوله: «مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ»، يقول عز وجل: مَنْ يُوَفِّقَهُ اللَّهُ لِلْهُدَاةِ بآياته وحججه إلى الحق التي جعلها أدلةً عليه، فهو المهتدي: يقول: فهو الذي قد أصاب سبيل الحق. «وَمَنْ يَضِلْ»، يقول: وَمَنْ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَنْ آيَاتِهِ وأدلته، فلم يوفقه للاستدلال بها على سبيل الرشاد، «فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا»، يقول: فلن تجد له يا محمد خليلاً وحليفاً يرشده لإصابته، لأنَّ التوفيق والخِذلان بيد الله، يوفق مَنْ يشاء من عباده، ويخذل مَنْ أراد؛ يقول: فلا يَحْزَنُكَ إِدْبَارُ مَنْ أَدْبَرَ عَنْكَ مِنْ قَوْمِكَ وتكذيبهم إياك، فإني لو شئتُ هَدَيْتُهُمْ فآمنوا، وييدي الهداية والضلال.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعَتْ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُغْبًا ﴿١٨﴾

يقول تعالى ذكره لنبية محمد ﷺ: وتَحْسَبُ يا محمد هؤلاء الفتية الذين قَصَصْنَا عَلَيْكَ قصتهم، لو رأيتهم في حال ضَرْبِنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي كَهْفِهِمُ الَّذِي أَوَّأُوا إِلَيْهِ أَيْقَاظًا. والأَيْقَاظُ: جمع يَقِظ. جمع يَقِظُ.

وقوله: «وَهُمْ رُقُودٌ»، يقول: وهم نيامٌ. والرقودُ: جمع راقِدٍ، كالجلوس: جمع جالس، والقعود: جمع قاعد.

وقوله: «وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ»، يقول جل ثناؤه: ونُقَلِّبُ هؤلاء الفتية في رقدتهم مرّةً للجنب الأيمن، ومرّةً للجنب الأيسر.

وقوله: «وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد»، الوصيد: الباب، أو فناء الباب حيث يغلق الباب، وذلك أن الباب يوصدُ، وإِصَادُهُ: إطباقه وإغلاقه من قول

الله عز وجل: «إِنهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ»، وفيه لغتان: الأصيد، وهي لغة أهل نجد، والوصيد: وهي لغة أهل تهامة، وذكر عن أبي عمرو بن العلاء، قال: إنها لغة أهل اليمن، وذلك نظير قولهم ورّخت الكتاب وأرّخته، ووكّدت الأمر وأكّدت، فمن قال الوصيد، قال: أوصدت الباب فأنا أوصيده، وهو مُّوَصَّد؛ ومن قال الأصيد، قال: آصدت الباب فهو مُّوَصَّد، فكان معنى الكلام: وكلّهم باسط ذراعيه بفناء كهفهم عند الباب، يحفظ عليهم بابه.

وقوله: «لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا»، يقول: لو اطلعت عليهم في رقدتهم التي رقدوها في كهفهم، لأدبرت عنهم هارباً منهم فاراً، «وَلَمَلِئْتُ مِنْهُمْ رُغْبًا»، يقول: ولملئت نفسك من اطلاعك عليهم فرغاً، لما كان الله البسهام من الهيبة، كي لا يصل إليهم واصل، ولا تلمسهم يد لاسم حتى يبلغ الكتاب فيهم أجله، وتوقظهم من رقدتهم فذرته وسلطانه في الوقت الذي أراد أن يجعلهم عبرة لمن شاء من خلقه، وآية لمن أراد الاحتجاج بهم عليه من عباده، ليعلموا أن وعد الله حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴿١٩﴾

يقول تعالى ذكره: كما أرقدنا هؤلاء الفتية في الكهف، فحفظناهم من وصول واصل إليهم، وعين ناظر أن ينظر إليهم، وحفظنا أجسامهم من البلاء

الكهف: ٢٠

على طول الزمان، وثيَابَهُم من العفن على مَرِّ الأيام بقدرتنا؛ فكَذَلِكَ بعثناهم من رقدتهم، وأيقظناهم من نومهم، لَنَعْرِفَهُمْ عَظِيمَ سُلْطَانِنَا، وَعَجِيبَ فِعْلِنَا فِي خَلْقِنَا، وَلِيَزِدَادُوا بَصِيرَةً فِي أَمْرِهِمُ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ مِنْ بَرَاءَتِهِمْ مِنْ عِبَادَةِ الْآلِهَةِ، وَإِخْلَاصِهِمْ لِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، إِذَا تَبَيَّنُوا طَوْلَ الزَّمَانِ عَلَيْهِمْ، وَهُمْ بِهِيَّتِهِمْ حِينَ رَقَدُوا.

وقوله: «لَيَسْأَلُنَا رَبُّهُمْ»، يقول: ليسأل بعضهم بعضاً. «قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ»، يقول عز ذكره: فتساءلوا فقال قائل منهم لأصحابه: «كَمْ لَبِثْتُمْ» وذلك أنهم استنكروا من أنفسهم طول رقدتهم. «قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ»، يقول: فأجابه الآخرون فقالوا: لبثنا يوماً أو بعض يوم، ظناً منهم أن ذلك كذلك كان، فقال الآخرون: «رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ» فسلموا العلم إلى الله.

وقوله: «فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ» يعني مدينتهم التي خرجوا منها هرباً، التي تسمى أفسوس. «فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ» ذكر أنهم هبوا من رقدتهم جوعاً، فلذلك طلبوا الطعام.

وأما قوله: «فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً»، فإن أهل التأويل اختلفوا في تأويله؛ فقال بعضهم: معناه فلينظر أي أهل المدينة أكثر طعاماً.

وقال آخرون: بل معناه أيها أحل طعاماً.

وقال آخرون: بل معناه: أيها خير طعاماً.

وأولى الأقوال عندي في ذلك بالصواب: قول من قال: معنى ذلك: أحل وأطهر، وذلك أنه لا معنى في اختيار الأكثر طعاماً للشراء منه إلا بمعنى إذا كان أكثرهم طعاماً، كان خليفاً أن يكون الأفضل منه عنده أوجد، وإذا شرط على المأمور الشراء من صاحب الأفضل، فقد أمر بشراء الجيد، كان ما عند المشتري ذلك منه قليلاً الجيد أو كثيراً.

وقوله: «فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ»، يقول: فليأتكم بقوتٍ منه تَقْتَاتُونَهُ، وطعام تأكلونه.

وقوله: «وَلْيَتَلَطَّفْ»، يقول: وليترفق في شرائه ما يشتري، وفي طريقه ودخوله المدينة. «وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا»، يقول: ولا يُعْلِمَنَّ بكم أحداً من الناس.

وقوله: «إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ»، يعنون بذلك: دقینوس وأصحابه؛ قالوا: إن دقینوس وأصحابه إِنْ يَظْهَرُوا عليكم، فيعلموا مكانكم، يرجمكم شتماً بالقول.

وقوله: «أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ»، يقول: أو يردوكم في دينهم، فتصيروا كفاراً بعبادة الأوثان. «وَلَنْ تَقْلِحُوا وَإِذَا أَبَدًا»، يقول: ولن تُدْرِكُوا الفلاح، وهو البقاء الدائم والخلود في الجنان، إذن: أي إن أنتم عُدْتُمْ في ملتهم أبداً: أيام حياتكم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَن وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُيُوتًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمُ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴿٢١﴾

يقول تعالى ذكره: وكما بعثناهم بعد طول رَقَدَتِهِمْ كهيئتهم ساعة رَقَدُوا، ليتساءلوا بينهم، فيزدادوا بعظيم سلطان الله بصيرةً، وبحسن دفاع الله عن أوليائه معرفةً. «كَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ»، يقول: كذلك أطلعنا عليهم الفريق الآخر الذين كانوا في شكٍ من قُدْرَةِ الله على إحياء الموتى، وفي مَرِيَّةٍ من إنشاء أجسام خَلَقَهُ، كهيئتهم يوم قبضهم بعد البلى، فيعلموا أَنَّ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا،

وَيُوقِنُوا أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا.

وقوله: «إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ»، يعني: الذين أعثروا على الفتية يقول تعالى: وكذلك أعثرنا هؤلاء المختلفين في قيام الساعة، وإحياء الله الموتى بعد مماتهم من قوم تيدوسيس، حين يتنازعون بينهم أمرهم فيما الله فاعل بمن أنفاه من عباده، فأبلاه في قبره بعد مماته، أُمْنِشْتُهُمْ هو أم غير منشئهم.

وقوله: «فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُيُوتًا»، يقول: فقال الذين أعثرناهم على أصحاب الكهف: ابنوا عليهم بيوتاً. «رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ»، يقول: رب الفتية أعلم بالفتية وشأنهم.

وقوله: «قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ»، يقول جل ثناؤه: قال القوم الذين غلبوا على أمر أصحاب الكهف: «لَتَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا».

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾

يقول تعالى ذكره: سيقول بعض الخائضين في أمر الفتية من أصحاب الكهف، هم ثلاثة رابعهم كلبهم، ويقول بعضهم: هم خمسة سادسهم كلبهم. «رَجْمًا بِالْغَيْبِ»، يقول: قذفاً بالظن غير يقين علم.

وقوله: «وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ»، يقول: ويقول بعضهم: هم سبعة وثامنهم كلبهم. «قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ»، يقول عز ذكره لنبه محمد ﷺ: قل يا محمد لقائلي هذه الأقوال في عدد الفتية من أصحاب الكهف رجماً

منهم بالغيب: «رَبِّي أَعْلَمُ بَعْدَتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ»، يقول: ما يعلم عَدَدَهُمْ «إِلَّا قَلِيلٌ» من خَلْقِهِ.

وقوله: «فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا»، يقول عَزَّ ذِكْرُهُ لِنبيه محمد ﷺ: فلا تُمَارِ يا محمد: يقول: لا تجادل أهل الكتاب فيهم، يعني في عِدَّةِ أهل الكهف، وحذفت العِدَّةُ اكتفاءً بذكرهم فيها لمعرفة السامعين بالمراد.

وقوله: «إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا»، اختلف أهل التأويل في معنى المِرَاءِ الظاهر الذي استثناه الله، ورخص فيه لنبيه ﷺ، فقال بعضهم: هو ما قصَّ الله في كتابه أُبيح له أن يتلوه عليهم، ولا يماريهم بغير ذلك.

وقال آخرون: المِرَاءِ الظاهر: هو أن يقول: ليس كما تقولون، ونحو هذا من القول.

وقوله: «وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولا تستفت في عِدَّةِ الفتية من أصحاب الكهف منهم، يعني من أهل الكتاب أحدًا، لأنهم لا يعلمون عدتهم، وإنما يقولون فيهم رجماً بالغيب، لا يقيناً من القول.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا نَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾

وهذا تأديب من الله عَزَّ ذِكْرُهُ لنبيه ﷺ عهد إليه أن لا يجزم على ما يحدث من الأمور أنه كائن لا محالة، إلا أن يصلَّه بمشيئة الله، لأنه لا يكون شيء إلا بمشيئة الله.

وإنما قيل له ذلك فيما بلغنا من أجل أنه وعد سائله عن المسائل

الكهف: ٢٤

الثلاث اللواتي قد ذكرناها فيما مضى اللواتي، إحداهنَّ المسألة عن أمرِ الفتية من أصحابِ الكهف أن يجيئهم عنهنَّ غَدَ يومهم، ولم يستثن، فاحتبس الوحي عنه فيما قيل من أجل ذلك خمس عشرة، حتى حَزَنَهُ إبطاؤه، ثم أنزل الله عليه الجوابَ عنهنَّ، وعَرَفَ نَبِيَّهُ سببَ احتباسِ الوحي عنه، وعَلَّمَهُ ما الذي ينبغي أن يستعملَ في عِدَاتِهِ وخبره عما يحدثُ من الأمور التي لم يأتِهِ من الله بها تنزيلاً، فقال: «وَلَا تَقُولَنَّ» يا محمدُ «لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا» كما قلتَ لهؤلاء الذين سألوكَ عن أمرِ أصحابِ الكهف، والمسائل التي سألوكَ عنها، سأخبركم عنها غداً. «إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ». ومعنى الكلام: إلا أن تقولَ معه: إن شاء الله، فترك ذكرَ تقولِ اكتفاءً بما ذكر منه.

وقوله: «وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ»، اختلف أهل التأويل في معناه، فقال بعضهم: واستثن في يمينك إذا ذكرت أنك نسيت ذلك في حالِ اليمين. وقال آخرون: معناه: وأذكرُ رَبَّكَ إذا عصيت.

وأولى القولين في ذلك بالصواب، قول مَنْ قال: معناه: وأذكرُ ربك إذا تركتَ ذِكْرَهُ، لأنَّ أحدَ معاني النسيانِ في كلام العرب الترك، وقد بينا ذلك فيما مضى قبل.

فإن قال قائل: أفجائزُ للرجل أن يستثني في يمينه إذ كان معنى الكلام ما ذكرت بعد مدةٍ من حالِ حَلْفِهِ؟ قيل: بل الصوابُ أن يستثني ولو بعد حنثه في يمينه، فيقول: إن شاء الله ليخرجَ بَقِيلِهِ ذلك مما ألزمه الله في ذلك بهذه الآية، فيسقط عنه الحرج بتركه ما أمره بَقِيلِهِ من ذلك، فأما الكفارة فلا تسقط عنه بحال، إلا أن يكون استثناءؤه موصولاً بيمينه.

فإن قال: فما وجهُ قولِ مَنْ قال له: تُنْيَاهُ ولو بعد سنة، ومن قال له ذلك ولو بعد شهر، وقول من قال: مادام في مجلسه؟ قيل: إن معنَاهُم في ذلك

الكهف: ٢٤ - ٢٦

نحو معناها في أن ذلك له، ولو بعد عشر سنين، وأنه باستثنائه وقيله إن شاء الله بعد حين من حال حلفه، يسقط عنه الحرج الذي لو لم يقله كان له لازماً؛ فاما الكفارة فله لازمة بالحنث بكل حال، إلا أن يكون استثناءه كان موصولاً بالحلف، وذلك أنا لا نعلم قائلًا قال ممن قال له الثنيا بعد حين يزعم أن ذلك يضع عنه الكفارة إذا حنث، ففي ذلك أوضح الدليل على صحة ما قلنا في ذلك، وأن معنى القول فيه، كان نحو معناها فيه.

وقوله: «وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا»، يقول عز ذكره لنبيه ﷺ: قل ولعل الله أن يهديني فيسددني لأسد مما وعدتكم وأخبرتكم أنه سيكون، إن هو شاء.

وقد قيل: إن ذلك مما أمر النبي ﷺ أن يقوله إذا نسي الاستثناء في كلامه، الذي هو عنده في أمر مستقبل مع قوله: إن شاء الله، إذا ذكر.

القول في تأويل قوله تعالى: وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصَرَ بِهِ وَأَسْمَعَ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾

اختلف أهل التأويل في معنى قوله: «وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا»، فقال بعضهم: ذلك خبر من الله تعالى ذكره عن أهل الكتاب أنهم يقولون ذلك كذلك، واستشهدوا على صحة قولهم ذلك بقوله: «قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا»، وقالوا: لو كان ذلك خبراً من الله عن قدر لبثهم في الكهف، لم يكن لقوله: «قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا» وجه مفهوم، وقد أعلم الله خلقه مبلغ لبثهم فيه وقدره.

وقال آخرون: بل ذلك خبر من الله عن مبلغ ما لبثوا في كهفهم.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال كما قال الله عز ذكره: ولَبِثَ أصحابُ الكهف في كهفهم رقوداً إلى أن بعثهم الله، ليتساءلوا بينهم، وإلى أن أعثر عليهم مَنْ أعثر، ثلاث مئة سنين وتسع سنين، وذلك أن الله بذلك أخبر في كتابه. وأما الذي ذَكَرَ عن ابن مسعود أنه قرأ: «وَقَالُوا: وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ» وقول مَنْ قال ذلك من قولِ أهلِ الكتاب، وقد رَدَّ الله ذلك عليهم، فإنَّ معناه في ذلك: إن شاء الله كان أن أهل الكتاب قالوا فيما ذَكَرَ على عهدِ رسولِ الله ﷺ أن للفتية من لَدُنْ دَخَلُوا الكهفَ إلى يومنا ثلاث مئة سنين وتسع سنين، فَرَدَّ اللهُ ذلك عليهم، وأخبر نَبِيُّهُ أن ذلك قدر لبثهم في الكهف من لدن أووَأَ إليه إلى أن بعثهم ليتساءلوا بينهم؛ ثم قال جل ثناؤه لنبيه ﷺ: قل يا محمد: اللهُ أعلم بما لبثوا بعد أن قبضَ أرواحهم، من بعد أن بعثهم من رقدتهم إلى يومهم هذا، لا يعلمُ بذلك غيرُ الله، وغير مَنْ أعلمه الله ذلك.

فإن قال قائل: وما يدلُّ على أن ذلك كذلك؟ قيل: الدالُّ على ذلك أنه جلَّ ثناؤه ابتدأ الخبرَ عن قدر لبثهم في كهفهم ابتداءً، فقال: «وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةِ سَنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا»، ولم يضع دليلاً على أن ذلك خبر منه عن قول قومٍ قالوه، وغير جائز أن يُضَافَ خبره عن شيءٍ إلى أنه خبرٌ عن غيره بغير برهانٍ، لأنَّ ذلك لو جازَ جازَ في كلِّ أخباره، وإذا جاز ذلك في أخباره جاز في أخبارٍ غيره أن يُضَافَ إليه أنها أخباره، وذلك قلبُ أعيانِ الحقائق وما لا يخيلُ فساده^(١).

فإن ظنَّ ظانٌّ أن قوله: «قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا» دليل على أن قوله: «وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ» خبرٌ منه عن قومٍ قالوه، فإنَّ ذلك كان يجب أن يكون كذلك لو كان لا يحتملُ من التأويلِ غيره؛ فأما وهو محتملٌ ما قلنا من أن يكون معناه: قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا إلى يومِ أنزلنا هذه السورة، وما أشبه ذلك من

(١) أي: مالا يخفى فساده.

المعاني فغير واجب أن يكون ذلك دليلاً على أن قوله: «وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ» خبر من الله عن قوم قالوه، وإذا لم يكن دليلاً على ذلك، ولم يأت خبر بأن قوله: «وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ» خبر من الله عن قوم قالوه، ولا قامت بصحة ذلك حجة يجب التسليم لها، صح ما قلنا، وفسد ما خالفه.

وقوله: «لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»، يقول تعالى ذكره: «لَهُ عِلْمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»، لا يعزبُ عنه علم شيء منه، ولا يخفى عليه شيء، يقول: فَسَلِّمُوا لَهُ عِلْمَ مَبْلَغِ مَا لَبِثَ الْفَتْيَةُ فِي الْكَهْفِ إِلَى يَوْمِكُمْ هَذَا، فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَعْلَمُهُ سِوَى الَّذِي يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وليس ذلك إلا الله الواحد القهار.

وقوله: «أَبْصُرْ بِهِ وَأَسْمَعْ»، يقول: أَبْصُرْ بِاللَّهِ وَأَسْمَعْ، وذلك بمعنى المبالغة في المدح، كأنه قيل: ما أبصره وأسمعه.

وتأويل الكلام: ما أَبْصَرَ اللَّهُ لِكُلِّ مَوْجُودٍ، وَأَسْمَعَهُ لِكُلِّ مَسْمُوعٍ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ.

وقوله: «مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ»، يقول جل ثناؤه: ما لخلقهم دون ربهم الذي خلقهم ولي، يلي أمرهم وتدبيرهم، وصرفهم فيما هم فيه مصرفون، «وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا»، يقول: وَلَا يَجْعَلِ اللَّهُ فِي قَضَائِهِ، وَحُكْمِهِ فِي خَلْقِهِ أَحَدًا سِوَاهُ شَرِيكًا، بل هو المنفرد بالحكم والقضاء فيهم، وتدبيرهم وتصريفهم فيما شاء وأحب.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَتْلُ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ
لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ يَجْعَلَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وَاتَّبِعْ يَا مُحَمَّدُ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ

ربك هذا، ولا تتركَنَّ تلاوته، واتباع ما فيه من أمر الله ونهيه، والعمل بحلاله وحرامه، فتكون من الهالكين، وذلك أنَّ مصير مَنْ خالفه، وترك اتباعه، يوم القيامة إلى جهنم. «لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ»، يقول: لا مُغَيِّرَ لما أوعَدَ بكلماته التي أنزلها عليك أهل معاصيه، والعاملين بخلاف هذا الكتاب الذي أوحيناه إليك.

وقوله: «وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا»، يقول: وإنَّ أنتَ يا محمدُ لم تتلَّ ما أوحى إليك من كتاب ربك فتتبعه وتأتَّم به، فذاك وعيدُ الله الذي أوعَدَ فيه المخالفين حدوده، لن تجدَ من دونِ الله موئلاً تتلَّ إليه ومعدلاً تعدلُ عنه إليه، لأنَّ قدرةَ الله محيطَةٌ بك وبجميع خلقه، لا يقدر أحدٌ منهم على الهرب من أمرٍ أراد به.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾

يقول تعالى ذِكرُهُ لِنبيه محمدٍ ﷺ: «وَأَصْبِرْ» يا محمدُ «نَفْسَكَ مَعَ» أصحابك «الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ» بذكرهم إياه بالتسبيح والتحميد والتهليل والدعاء والأعمال الصالحة من الصلوات المفروضة وغيرها «يُرِيدُونَ» بفعلهم ذلك «وَجْهَهُ» لا يريدون عَرَضاً من عرض الدنيا.

وقوله: «وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ»، يقول جلَّ ثناؤه لِنبيه ﷺ: ولا تصرفَ عيناك عن هؤلاء الذين أمرتُك يا محمدُ أنْ تصبرَ نفسك معهم إلى غيرهم من الكفار، ولا تُجاوزَهم إليه، وأصله من قولهم: عدوتُ ذلك، فأنا أعدؤه: إذا جاوزته.

وقوله: «تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا»، يقول تعالى ذكره لِنبيه ﷺ: لا تَعْدُ

عيناك عن هؤلاء المؤمنين الذين يدعون ربهم إلى أشرف المشركين، تبغي بمجالستهم الشرف والفخر، وذلك أن رسول الله ﷺ أتاه فيما ذكر قوم من عظماء أهل الشرك، وقال بعضهم: بل من عظماء قبائل العرب ممن لا بصيرة لهم بالإسلام، فأروه جالسا مع خباب وصهيب وبلال، فسألوه أن يُقيمهم عنه إذا حضروا، قالوا: فهم رسول الله ﷺ، فأنزل الله عليه: «وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ»، ثم كان يقوم إذا أراد القيام، ويتركهم قعودا، فأنزل الله عليه: «وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ . . . الْآيَةَ» «وَلَا تَعُدَّ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا»، يريد زينة الحياة الدنيا: مجالسة أولئك العظماء الأشراف.

وقوله: «وَلَا تُطْع مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ»، يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ: ولا تطع يا محمد من شغلنا قلبه من الكفار الذين سألوك طرد الرهط الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي عنك، عن ذكرنا، بالكفر وغلبة الشقاء عليه، واتبع هواه، وترك اتباع أمر الله ونهيه، وأثر هوى نفسه على طاعة ربه، وهم فيما ذكر: عيينة بن حصن، والأقرع بن حابس وذوهم.

وقوله: «وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا»، معناه: وكان أمر هذا الذي أغفلنا قلبه عن ذكرنا في الرياء والكبر، واحتقار أهل الإيمان، سرفا قد تجاوز حده، فضيع بذلك الحق وهلك.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٨﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء الذين أغفلنا

الكهف: ٢٩

قلوبهم عن ذكرنا، واتبعوا أهواءهم، الحقُّ أيها الناس من عند ربِّكم، وإليه التوفيقُ والخذلان، وبيده الهدى والضلالُ يهدي مَنْ يشاء منكم للرشاد، فيؤمن، ويضلُّ مَنْ يشاء عن الهدى فيكفر، ليس إليَّ من ذلك شيءٌ، ولستُ بطاردٍ لهواكم مَنْ كان للحقِّ متبعاً، وبالله وبما أنزلَ عليَّ مؤمناً، فإن شئتم فآمنوا، وإن شئتم فاكفروا، فانكم إن كفرتم فقد أعدُّ لكم ربُّكم على كُفركُمْ به ناراً أحاطَ بكم سرادقها، وإن آمنتُمْ به وعملتُمْ بطاعته، فإن لكم ما وصفَ الله لأهل طاعته.

وقوله: «أحاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا»، يقول: أحاطَ سرادقُ النارِ التي أعدَّها الله للكافرين بربهم، وذلك فيما قيل: حائطٌ من نارٍ يطيفُ بهم كسرادقِ الفسطاط، وهي الحجرةُ التي تطيفُ بالفسطاط.

وقوله: «وإن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ»، يقول تعالى ذكره: وإن يَسْتَغِيثَ هؤلاء الظالمونَ يومَ القيامةِ في النارِ من شدَّةِ ما بهم من العطشِ، فيطلبونَ الماءَ يُغَاثُوا بِمَاءٍ الْمُهْلِ.

واختلف أهل التأويل في المهل، فقال بعضهم: هو كلُّ شيءٍ أُذِيبَ وانماع.

وقال آخرون: هو القيحُ والدمُ الأسود.

وقال آخرون: هو الشيء الذي قد انتهى حرُّه.

وهذه الأقوال وإن اختلفت بها ألفاظٌ قائلها، فمقارباتُ المعنى، وذلك أنَّ كلَّ ما أُذِيبَ من رصاص أو ذهب أو فضة فقد انتهى حرُّه، وأنَّ ما أُوقِدَتْ عليه من ذلك النارُ حتى صار كدرديِّ الزيت، فقد انتهى أيضاً حرُّه.

وقوله: «يَشْوِي الوجوه بِشَسِّ الشَّرَابِ»، يقول: جلَّ ثناؤه: يشوي ذلك الماء الذي يُغَاثُونَ به وجوههم.

وقوله: «بِئْسَ الشَّرَابُ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: بِئْسَ الشَّرَابُ، هذا الماء الذي يغاث به هؤلاء الظالمون في جهنم الذي صفته ما وصف في هذه الآية.

وقوله: «وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا»، يقول تعالى ذكره: وساءت هذه النار التي أعتدناها لهؤلاء الظالمين مرتفقًا، والمرتفق في كلام العرب: المُنْتَكأ، يقال منه: ارتفعت إذا اتَّكَأَتْ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: إِنَّ الَّذِينَ صَدَّقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وعملوا بطاعة الله، وانتهوا إلى أمره ونهيه، إنا لا نُضِيعُ ثَوَابَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا، فأطاع الله، واتبع أمره ونهيه، بل نُجَازِيهِ بِطَاعَتِهِ وَعَمَلِهِ الْحَسَنِ جَنَاتٍ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَشَكِّينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: لهؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناتُ عَدْنٍ، يعني بساتين إقامة في الآخرة، «تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ»، يقول: تجري من دونهم ومن بين أيديهم الأنهار، وقال جل ثناؤه: «من تحتهم»، ومعناه: من دونهم وبين أيديهم، «يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ»، يقول: يلبسون فيها من الحلِيِّ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ، والأَسَاوِرُ: جمع إسوار.

وقوله: «يَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِنْ سُندُسٍ» والسندسُ: جمع واحدٍها سندسة، وهي مَارَقٌ من الديباج. والإستبرق: ما غُلِظَ منه وَثَخُنَ؛ وقيل: إنَّ الإستبرق: هو الحرير.

وقوله: «مُتَكِّثِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ»، يقول: متكئين في جناتٍ عَدَنِ على الأرائك، وهي السُّرُرُ في الحِجَال، واحدها: أريكة.

وقوله: «نِعْمَ الثُّوَابُ»، يقول: نعم الثوابُ جناتُ عَدَنِ، وما وصفَ جَلَّ ثَناءُؤه أنه جعلَ لهؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات. «وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا»، يقول: وَحَسُنَتْ هذه الأرائكُ في هذه الجنانِ التي وصفَ تعالى ذِكْرَهُ في هذه الآية متكا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾

يقول تعالى ذكره لنبية محمد ﷺ: واضربْ يا محمدُ لهؤلاء المشركين بالله، الذين سألوك أن تطردَ الذين يدْعُونَ رَبَّهُم بالغداة والعشيَّ يريدون وجهه، «مَثَلًا» مثل «رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ» أي جعلنا له بساتين من كروم. «وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ»، يقول: وأطفْنَا هَذَيْنِ البُستانين بنخلٍ.

وقوله: «وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا»، يقول: وجعلنا وسط هذين البستانين زرعًا.

وقوله: «كِلتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا»، يقول: كِلَا البُستانين أطعمَ ثمرُهُ وما فيه من الغروسِ من النخلِ والكرمِ وصنوفِ الزرع.

وقوله: «وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً»، يقول: ولم تنقص من الأكل شيئاً، بل آتت ذلك تاماً كاملاً ومنه قولهم: ظلم فلان فلاناً حقاً: إذا بخسه ونقصه.

وقوله: «وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهراً»، يقول تعالى ذكره: وسيلنا خلال هذين البستانين نهراً، يعني بينهما وبين أشجارهما نهراً. وقيل: «وَفَجَّرْنَا» فَتَقَلَّ الجيم منه، لأن التفجير في النهر كله، وذلك أنه يميد ماء فيسيل بعضه بعضاً.

ومعنى الكلام «وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهراً وَكَانَ لَهُ» منهما «ثمر» بمعنى من جَنَّتِيهِ أنواع من الثمار وقد بين ذلك لمن وُقِّفَ لفهمه، قوله: «جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَخَفَفْنَاهُمَا بَنَخلٍ، وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً»، ثم قال: وكان له من هذه الكروم والنخل والزرع ثمر.

وقوله: «فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ»، يقول عز وجل: فقال هذا الذي جعلنا له جنتين من أعناب، لصاحبه الذي لا مال له وهو يخاطبه: «أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفْراً»، يقول: واعزُّ عشيرةً ورَهْطاً، كما قال عيينة والأقرع لرسول الله ﷺ: نحنُ ساداتُ العرب، وأربابُ الأموال، فَنَحْ عَنَا سَلَمَانَ وَخَبَاباً وَصُهَيْباً احتقاراً لهم، وتكبراً عليهم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ۖ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ۚ

يقول تعالى ذكره: هذا الذي جعلنا له جنتين من أعناب «دَخَلَ جَنَّتَهُ» وهي بستانه «وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ» وظلمه نفسه: كُفِّرَهُ بالبعث، وشكَّه في قيام الساعة، ونسيانهُ المعادَ إلى الله تعالى، فأوجب لها بذلك سخطَ الله وأليم عقابه.

وقوله: «قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا»، يقول جلّ ثناؤه: قال لما عاين جنته، ورآها وما فيها من الأشجار والثمار والزروع والأنهار المطردة شكاً في المعاد إلى الله: ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ الْجَنَّةُ أَبَدًا، وَلَا تَفْنَى وَلَا تَخْرُبَ، وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ الَّتِي وَعَدَ اللَّهُ خَلْقَهُ الْحَشَرَ فِيهَا تَقُومُ فَتَحْدُثَ، ثُمَّ تَمْنَى أَمْنِيَةً أُخْرَى عَلَى شَيْءٍ مِنْهُ، فَقَالَ: «وَلَيْتَنِي رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي» فرجعتُ إليه، وهو غير موقن أنه راجعُ إليه: «لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا»، يقول: لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِي هَذِهِ عِنْدَ اللَّهِ إِنْ رُدِدْتُ إِلَيْهِ مَرْجِعًا وَمَرَدًّا، يَقُولُ: لَمْ يُعْطِنِي هَذِهِ الْجَنَّةُ فِي الدُّنْيَا إِلَّا وَلِي عِنْدَهُ أَفْضَلَ مِنْهَا فِي الْمَعَادِ إِنْ رُدِدْتُ إِلَيْهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قَالَ لِصَاحِبِ الْجَنَّتَيْنِ صَاحِبُهُ الَّذِي هُوَ أَقَلُّ مِنْهُ مَالًا وَوَلَدًا، «وَهُوَ يُحَاوِرُهُ»: يَقُولُ: وَهُوَ يَخَاطِبُهُ وَيَكْلِمُهُ: «أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ»، يَعْنِي خَلَقَ أَبَاكَ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ «ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ»، يَقُولُ: ثُمَّ أَنْشَأَكَ مِنْ نُطْفَةِ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ، «ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا»، يَقُولُ: ثُمَّ عَدَّلَكَ بَشَرًا سَوِيًّا رَجُلًا، ذَكَرًا لَا أُنْثَى. يَقُولُ: أَكَفَرْتَ بِمَنْ فَعَلَ بِكَ هَذَا أَنْ يُعِيدَكَ خَلْقًا جَدِيدًا بَعْدَ مَا تَصِيرُ رِفَاتًا. «لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي»، يَقُولُ: أَمَا أَنَا فَلَا أَكْفُرُ بِرَبِّي، وَلَكِنْ أَنَا^(١)، هُوَ اللَّهُ رَبِّي، مَعْنَاهُ أَنَّهُ يَقُولُ: وَلَكِنْ أَنَا أَقُولُ: هُوَ اللَّهُ رَبِّي «وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا».

(١) هذا أصل: «لَكِنَّا».

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ

لَأَقُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرَنِّيًا أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَا لَا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾

يقول عزَّ ذِكْرُهُ: وهَلَّا إِذْ دَخَلْتَ بستانَكَ، فأعجبَكَ ما رَأَيْتَ مِنْهُ، قُلْتَ ما شاء الله كان، وفي الكلامٍ محذوفٌ استغني بدلالة ما ظهرَ عليه مِنْهُ، وهو جوابُ الجزاء، وذلك كان.

وقوله: «إِنَّ تَرَنِّيًا أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَا لَا وَوَلَدًا» وهو قولُ المؤمن الذي لا مالَ له، ولا عَشِيرَةٍ، مثل صاحبِ الجنةِ وعشيرته، وهو مثل سَلَمَانَ وَصُهَيْبٍ وَخَبَابٍ، يقول: قال المؤمنُ للكافر: إِنَّ تَرَنِّيًا أَيُّهَا الرَّجُلُ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَا لَا وَوَلَدًا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ مخبراً عن قِيلِ المؤمنِ الموقِنِ للمعادِ إلى الله للكافر المرتابِ في قيامِ الساعة: إِنَّ تَرَنِّيًا أَيُّهَا الرَّجُلُ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَا لَا وَوَلَدًا فِي الدُّنْيَا، فَعَسَى رَبِّي أَنْ يَرْزُقَنِي خَيْرًا مِنْ بستانِكَ هذا «وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا»، يعني على جَنَّةِ الكافر التي قالَ لها: ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذه أَبَدًا، «حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ»، يقول: عذاباً مِنَ السَّمَاءِ تُرْمَى بِهِ رَمِيًّا، وتَقْدَفُ. وَالْحُسْبَانُ: جمعُ حُسْبَانَةٍ، وهي المرامي.

وقوله: «فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا»، يقول عزَّ ذِكْرُهُ: فتصبح جنتك هذه أَيُّهَا الرَّجُلُ أرضاً ملساء لا شيءَ فيها قد ذهب كُلُّ ما فيها من عَرَسٍ وَنَبْتٍ، وعادت

خراباً بلاقع، زَلَقاً، لا يَثْبُتُ فِي أَرْضِهَا قَدَمٌ لَامِلِسَاسِهَا، ودروسٍ ما كَانَ نَابِتاً فِيهَا.

وقوله: «أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا»، يقول: أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَائِراً.
وقوله: «فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلْبًا»، يقول: فَلَنْ تُطِيقَ أَنْ تَدْرِكَ الْمَاءَ الَّذِي كَانَ فِي جَنَّتِكَ بَعْدَ غَوْرِهِ، بِطَلْبِكَ إِيَّاهُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَحِيطَ بِشَمْرِهِ، فَأَصْبَحَ يَقْلُبُ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَلِينَنِي لِمَ أَشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وَأَحِيطَ الْهَلَاكُ وَالْجَوَائِحُ بِشَمْرِهِ، وَهِيَ صِنُوفُ ثَمَارِ جَنَّتِهِ الَّتِي كَانَ يَقُولُ لَهَا: «مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا» فَأَصْبَحَ هَذَا الْكَافِرُ صَاحِبُ هَاتَيْنِ الْجَنَّتَيْنِ، يَقْلُبُ كَفَيْهِ ظَهراً لِبَطْنِ، تَلَهْفاً وَأَسْفَافاً عَلَى ذَهَابِ نَفَقَتِهِ الَّتِي أَنْفَقَ فِي جَنَّتِهِ «وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا»، يَقُولُ: وَهِيَ خَالِيَةٌ عَلَى نَبَاتِهَا وَبُيُوتِهَا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِراً ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً ﴿٤٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وَلَمْ يَكُنْ لَصَاحِبِ هَاتَيْنِ الْجَنَّتَيْنِ فِئَةٌ، وَهُمْ الْجَمَاعَةُ.
وقوله: «يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ»، يقول: يَمْنَعُونَهُ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ وَعَذَابِ اللَّهِ إِذَا عَاقَبَهُ وَعَذَّبَهُ.

وقوله: «وَمَا كَانَ مُنتَصِراً»، يقول: وَلَمْ يَكُنْ مَمْتَنِعاً مِنْ عَذَابِ اللَّهِ إِذَا عَذَّبَهُ.

وقوله: «هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ»، يقول عزّ ذِكْرُه: ثمّ ذلك حين حلّ عذابُ الله بصاحب الجنّتين في القيامة.

واختلفت القراءة في قراءة قوله: الولاية، فقرأ بعض أهل المدينة والبصرة والكوفة: «هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ» بفتح الواو من الولاية، يعنون بذلك هنالك المُوَالاةُ لله، كقول الله: «اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا»، وكقوله: «ذَلِكَ بَأْنُ اللَّهِ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا» يذهبون بها إلى الولاية في الدين.

وقرأ ذلك عامّة قراء الكوفة «هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ» بكسر الواو: من المُلْك والسلطان، من قول القائل: وَلَيْتُ عملَ كذا، أو بلدة كذا إليه ولاية.

وأولى القراءتين في ذلك بالصواب، قراءة من قرأ بكسر الواو، وذلك أنّ الله عَقَبَ ذلك خبره عن مُلْكِهِ وسلطانه، وأنّ مَنْ أَحَلَّ به نِقْمَتَهُ يومَ القيامة فلا ناصرَ له يومئذٍ، فإِتْبَاعُ ذلك الخبر عن انفراده بالمملكة والسلطان أولى من الخبر عن المُوَالاةِ التي لم يجر لها ذِكْرٌ ولا معنى، لقول من قال: لا يُسَمَّى سلطاناً الله ولاية، وإنما يُسَمَّى ذلك سلطاناً البشر، لأنّ الولاية معناها أنه يلي أمرَ خلقه منفرداً به دون جميع خلقه، لا أنه يكون أميراً عليهم.

وقوله: «هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً»، يقول عزّ ذكره: خير للمنيبين في العاجل والآجل ثواباً. «وَحَيْرٌ عُقْباً»، يقول: وخيرهم عاقبةً في الآجل إذا صار إليه المطيْع له، العامل بما أمره الله، والمنتهي عما نهاه الله عنه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْدِرًا ﴿٤٥﴾

يقول عزّ ذكره لنبيه محمد ﷺ: «واضربْ لحياة هؤلاء المستكبرين»^(١) - الذين قالوا لك: اطرّد عنك هؤلاء الذين يَدْعُونَ ربهم بالغداة والعشي، إذا نحن جنّناك - الدنيا منهم «مثلاً»، يقول: شبهاً. «كماء أنزلناه من السماء»، يقول: كمطر أنزلناه من السماء. «فاختلط به نبات الأرض»، يقول: فاختلط بالماء نبات الأرض. «فأصبح هشيماً»، يقول: فأصبح نبات الأرض يابساً متفتّلاً. «تذروه الرياح»، يقول: تطيره الرياح وتُفَرِّقُه.

وقوله: «وكان الله على كل شيء مُقْتَدِراً»، يقول: وكان الله على تخريب جنة هذا القائل حين دخل جنته: «ما أظن أن تبيد هذه أبداً، وما أظن الساعة قائمة»، وإهلاك أموال ذي الأموال الباخلين بها عن حقوقها، وإزالة دنيا الكافرين به عنهم، وغير ذلك مما يشاء قادر، لا يعجزه شيء أراد. ولا يعييه أمر أراد. يقول: فلا يفخر ذو الأموال بكثرة أمواله، ولا يستكبر على غيره بها، ولا يغتر أهل الدنيا بديناهم، فإنما مثلها مثل هذا النبات الذي حسن استواؤه بالمطر، فلم يكن إلا ريث أن انقطع عنه الماء، فتناهى نهايته، عاد يابساً تذروه الرياح، فاسداً، تنبؤ عنه أعين الناظرين، ولكن ليعمل للباقي الذي لا يفنى، والدائم الذي لا يبيد ولا يتغير.

القول في تأويل قوله تعالى: الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

وَالْبَقِيَّةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً ﴿٤٦﴾

يقول تعالى ذكره: المال والبَنون أيها الناس، التي يفخر بها عينية والأقرع، ويتكبران بها على سلمان وخباب وصهيب، مما يُتَزَيَّنُ به في الحياة

(١) سياق العبارة: اضرب لحياة هؤلاء المستكبرين مثلاً: الدنيا، يعني حال الدنيا.

الدنيا، وليساً من عِدَادِ الآخرة. «والباقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا»، يقول: وما يعملُ سلمان وخباب وصهيب من طاعة الله، ودعائهم رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ والعشيِّ يريدون وجهه، الباقي لهم من الأعمالِ الصالحة بعد فناء الحياة الدنيا، خيرٌ يا محمدُ عند ربك ثواباً من المالِ والبنين التي يفتخر هؤلاء المشركون بها، التي تنفى، فلا تبقى لأهلها. «وَحَيْرٌ أَمَلًا»، يقول: وما يؤمِّلُ من ذلك سلمان وصهيب وخباب، خيرٌ مما يؤمِّلُ عبيته والأقرع من أموالهما وأولادهما. وهذه الآياتُ من لَدُنْ قوله: «وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ» إلى هذا الموضع، ذَكَرَ أنها نزلت في عبيته والأقرع.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَيَوْمَ نُسِيرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ۖ وَعَرَضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ۚ

يقول تعالى ذكره: «وَيَوْمَ نُسِيرُ الْجِبَالَ» عن الأرض، فَنُفِثَهَا بَسًا، ونجعلها هباءً مُنْبَثًّا. «وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً» ظاهرة، وظهورها لرأي أعين الناظرين من غير شيءٍ يسترها من جبلٍ ولا شجرٍ هو بُرُوزُهَا.

وقوله: «وَحَشَرْنَاهُمْ»، يقول: جمعناهم إلى موقف الحساب. «فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا»، يقول: فلم نترك، ولم نُبْقِ مِنْهُمْ تحت الأرضِ أحداً.

وقوله: «وَعَرَضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا»، يقول عَزَّ ذِكْرُهُ: وَعَرَضَ الْخَلْقُ عَلَىٰ رَبِّكَ يَا مُحَمَّدُ صَفًّا. «لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ»، يقول عَزَّ ذِكْرُهُ: يقال لهم إذ عَرَضُوا عَلَى اللَّهِ: لقد جِئْتُمُونَا أَيُّهَا النَّاسُ أَحْيَاءُ كَهَيْئَتِكُمْ حِينَ خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ، وحذف (يقال) من الكلام لمعرفة السامعين بأنه مُرَادٌ فِي الكلام.

وقوله: «بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا»، وهذا الكلام خرج مخرج الخبر عن خطاب الله به الجميع، والمراد منه الخصوص، وذلك أنه قد يرد القيامة خلق من الأنبياء والرسل، والمؤمنين بالله ورسله وبالبعث. ومعلوم أنه لا يُقال يومئذ لمن وردها من أهل التصديق بوعد الله في الدنيا، وأهل اليقين فيها بقيام الساعة، بل زعتم أن لن نجعل لكم البعث بعد الممات، والحشر إلى القيامة موعداً، وأن ذلك إنما يُقال لمن كان في الدنيا مُكذِّباً بالبعث وقيام الساعة.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَفَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوَلِّتُنَا مَا لِهذا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾

يقول عز ذكره: ووضع الله يومئذ كتاب أعمال عباده في أيديهم، فأخذ واحد بيمينه وأخذ واحد بشماله. «فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ»، يقول عز ذكره: فتري المجرمين المشركين بالله مشفقين: يقول: خائفين وجلين مما فيه مكتوب من أعمالهم السيئة التي عملوها في الدنيا أن يؤاخذوا بها. «وَيَقُولُونَ يَؤُولِتُنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا»، يعني أنهم يقولون إذا قرءوا كتابهم، ورأوا ما قد كتب عليهم فيه من صفائر ذنوبهم وكبائرهما، نادوا بالويل حين أيقنوا بعذاب الله، وضجوا مما قد عرفوا من أفعالهم الخبيثة التي قد أحصاها كتابهم، ولم يقدروا أن ينكروا صحتها.

ويعني بقوله: «ما لِهَذَا الْكِتَابِ»، ما شأن هذا الكتاب «لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً»، يقول: لا ييقي صغيرة من ذنوبنا وأعمالنا ولا كبيرة منها. «إِلَّا أَحْصَاهَا»، يقول: إلا حفظها، «وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا» في الدنيا من عملٍ

«حاضراً» في كتابهم ذلك مكتوباً مثبتاً، فَجُوزُوا بالسيئة مثلها، والحسنة ما الله جازيهم بها. «وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا»، يقول: ولا يجازي ربك أحداً يا محمد بغير ما هو أهله، لا يجازي بالإحسان إلا أهل الإحسان، ولا بالسيئة إلا أهل السيئة، وذلك هو العدل.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٤٩﴾

يقول تعالى ذكره مُذَكِّراً هؤلاء المشركين حَسَدَ إِبْلِيسَ أباهم ومُعَلِّمَهُمْ مَا كَانَ مِنْهُ مِنْ كِبَرِهِ واستكباره عليه حين أمره بالسجود له، وأنه من العداوة والحسد لهم على مثل الذي كان عليه لأبيهم: «وَاذْكُرْ يَا مُحَمَّدُ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ» الذي يطيعه هؤلاء المشركون، ويتبعون أمره، ويخالفون أمر الله، فإنه لم يسجد له استكباراً على الله، وحَسَداً لآدم «كَانَ مِنَ الْجِنِّ».

واختلف أهل التأويل في معنى قوله: «كَانَ مِنَ الْجِنِّ»، فقال بعضهم: إنه كان من قبيلة يقال لهم الجن.

وقال آخرون: بل كان من خُرَّانِ الجنة، فنُسب إلى الجنة.

وقال آخرون: بل قيل من الجن، لأنه من الجن الذين استجنوا عن أعين بني آدم.

وقال آخرون: هم سبط من الملائكة قبيلة، وكان اسم قبيلته الجن.

وقال آخرون: كان اسم قبيلة إبليس الجن.

وقوله: «ففسق عن أمرِ رَبِّهِ»، يقول: فخرج عن أمرِ ربه، وعَدَلَ عنه ومال.

وقوله: «أَفَتُخَذُونَهُ وَذَرْيَتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ»، يقول تعالى ذكره: أَفَتُؤَالُونَ يَا بَنِي آدَمَ مَنْ اسْتَكْبَرَ عَلَى أَبِيكُمْ وحسده، وكَفَرَ نعمتي عليه، وَغَرَّهُ حتى أخرجته من الجنةِ ونعيمِ عَيْشِهِ فيها إلى الأرضِ وضيقِ العيشِ فيها، وتطيعونه وَذَرْيَتَهُ من دونِ الله مع عداوتهِ لَكُمْ قديماً وحديثاً، وتتركون طاعةَ ربكم الذي أنعم عليكم وأكرمكم، بَأَنْ أَسْجَدَ لوالدكم ملائكتُهُ، وأَسْكَنَهُ جناته، وآتاكم من فواضلِ نعمِهِ ما لا يُحصى عَدَدُهُ، وَذَرْيَةَ إبليس: الشياطينُ الذين يغرون بني آدم.

وقوله: «بُئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا»، يقول عَزَّ ذِكْرُهُ: بُئْسَ البَدَلُ للكافرين باللهِ اتخاذِ إبليس وَذَرْيَتِهِ أَوْلِيَاءَ من دونِ الله، وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ من تركهم اتخاذَ الله ولياً باتباعهم أمره ونهيه، وهو المنعمُ عليهم وعلى أبيهم آدم من قبلهم، المتفضلُ عليهم من الفواضلِ ما لا يُحصى بَدَلًا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مَخْذُومًا مَضِلِّينَ عَصِدًا

يقول عَزَّ ذِكْرُهُ: ما أَشْهَدْتُ إبليسَ وَذَرْيَتَهُ «خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»، يقول: ما أَحْضَرْتَهُمْ ذَلِكَ فَاسْتَعِينَ بِهِمْ عَلَى خَلْقِهَا. «وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ»، يقول: وَلَا أَشْهَدْتُ بَعْضَهُمْ أَيْضًا خَلْقَ بَعْضِ مِنْهُمْ، فَاسْتَعِينَ بِهِ عَلَى خَلْقِهِ، بَلْ تَفَرَّدْتُ بِخَلْقِ جَمِيعِ ذَلِكَ بِغَيْرِ مُعِينٍ وَلَا ظَهِيرٍ، يقول: فَكَيْفَ اتَّخَذُوا عَدُوَّهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي، وَهُمْ خَلَقْتُ مِنْ خَلْقِ أَمْثَالِهِمْ، وَتَرَكُوا عِبَادَتِي وَأَنَا الْمُنْعَمُ عَلَيْهِمْ وَعَلَى أَسْلَافِهِمْ، وَخَالَقَهُمْ وَخَالَقْتُ مَنْ يُؤَالُونَهُ مِنْ دُونِي مُنْفَرِدًا بِذَلِكَ مِنْ غَيْرِ مُعِينٍ وَلَا ظَهِيرٍ.

وقوله: «وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصُدًا»، يقول: وما كنتُ مُتَّخِذَ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ، وَلَكِنَّهُ يُضِلُّ، فَمَنْ تَبِعَهُ يَجُورُ بِهِ عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ أَعْوَانًا وَأَنْصَارًا، وَهُوَ مِنْ قَوْلِهِمْ: فَلَانٌ يَعْصُدُ فَلَانًا إِذَا كَانَ يَقْوِيهِ وَيَعِينُهُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَأَى الْمَجْرُمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾

يقول عز ذكره: «وَيَوْمَ يَقُولُ» الله عز ذكره للمشركين به الآلهة والأندَادُ «نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ»، يقول لهم: ادعوا الذين كنتم تزعمون أنهم شركائي في العبادة لينصروكم ويمنعوكم مني. «فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ»، يقول: فاستغاثوا بهم فلم يغيثوهم.

«وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا»؛ فاختلف أهل التأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم: معناه: وجعلنا بين هؤلاء المشركين وما كانوا يدعون من دون الله شركاء في الدنيا يومئذ عداوةً.

وقال آخرون: معناه: وجعلنا فعلهم ذلك لهم مهلكاً.

وقال آخرون: هو اسم وادٍ في جهنم.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، القول الذي قيل في تأويل الموبق: أنه المهلك، وذلك أن العرب تقول في كلامها: قد أوبقت فلاناً: إذا أهلكته. ومنه قول الله عز وجل: «أَوْ يُوبِقْهُمْ بِمَا كَسَبُوا»، بمعنى: يُهْلِكُهُمْ. ويقال للمهلك نفسه: قد وبق فلان فهو يوبق وبقاً.

وقوله: «وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ»، يقول: وعاینَ المشركون النارَ يومئذٍ

«فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا»، يقول: فعلموا أنهم داخلوها.

وقوله: «وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا»، يقول: ولم يجدوا عن النار التي رأوا معدلاً يعدلون عنها إليه، يقول: لم يجدوا من مُواقِعَتِها بُدْأً، لأنَّ الله قد حتم عليهم ذلك.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾

يقول عزّ ذكره: ولقد مثّلنا في هذا القرآن للناس من كلّ مَثَلٍ، ووعظناهم فيه من كلّ عِظَةٍ، واحتججنا عليهم فيه بكلّ حجةٍ ليتذكّروا فينبهوا، ويعتبروا فيتّعظّوا، وينزجروا عما هم عليه مُقيمون من الشرك بالله وعبادة الأوثان. «وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا»، يقول: وكان الإنسان أكثر شيءٍ مرآء وخُصومةً، لا ينيب لحقٍّ، ولا ينزجر لموعظة.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾

يقول عزّ ذكره: وما مَنَعَ هؤلاء المشركين يا محمد الإيمان بالله إذ جاءهم الهدى بيان الله، وعلموا صحة ما تدعوهم إليه وحقيقته، والاستغفار مما هم عليه مقيمون من شركهم، إلا مجيئهم سُنَّتِنا في أمثالهم من الأمم المكذبة رُسُلَها قبلهم، أو إتيانهم العذاب قُبُلًا.

واختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معناه: أو يأتِيهم العذاب فجأة.

وقال آخرون: معناه: أو يأتيهم العذاب عياناً.

وقد اختلف القراءة في قراءة ذلك، فقرأته جماعة ذات عدد: أو يأتيهم العذاب قبلاً، بضم القاف والباء، بمعنى أنه يأتيهم من العذاب ألواناً وضروباً، ووجهوا القبل إلى جمع قبيل، كما يجمع القتل القتل، والجديد الجدد. وقرأته جماعة أخرى: أو يأتيهم العذاب قبلاً بكسر القاف وفتح الباء، بمعنى: أو يأتيهم العذاب عياناً من قولهم: كلمته قبلاً، وقد بينت القول في ذلك في سورة الأنعام بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيَجِدُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ۚ

يقول عز ذكره: وما نرسل رُسُلَنَا إِلَّا لِيُبَشِّرُوا أَهْلَ الْإِيمَانِ وَالتَّصْدِيقِ بِاللَّهِ بِجَزِيلِ ثَوَابِهِ فِي الْآخِرَةِ، وَلِيُنْذِرُوا أَهْلَ الْكُفْرِ بِهِ وَالتَّكْذِيبِ، عَظِيمَ عِقَابِهِ، وَأَلِيمَ عَذَابِهِ، فَيَنْتَهَوْا عَنِ الشَّرِكِ بِاللَّهِ، وَيَنْزَجِرُوا عَنِ الْكُفْرِ بِهِ وَمَعَاصِيهِ. «وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ»، يقول: ويخاصم الذين كَذَّبُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ بِالْبَاطِلِ، ذَلِكَ كَقَوْلِهِمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَخْبِرْنَا عَنْ حَدِيثِ فَتِيَّةٍ ذَهَبُوا فِي أَوَّلِ الدَّهْرِ لَمْ يَدْرَ مَا شَأْنُهُمْ، وَعَنِ الرَّجُلِ الَّذِي بَلَغَ مِشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، وَعَنِ الرُّوحِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِمَّا كَانُوا يَخَاصُمُونَهُ بِهِ، يَتَغَوَّنَ إِسْقَاطَهُ، تَعْنِيَةً لَهُ ﷺ، فَقَالَ اللَّهُ لَهُمْ: إِنَّا لَسْنَا نَبْعَثُ إِلَيْكُمْ رُسُلَنَا لِلْجِدَالِ وَالْخُصُومَاتِ، وَإِنَّمَا نَبْعَثُهُمْ مُبَشِّرِينَ أَهْلَ الْإِيمَانِ بِالْجَنَّةِ، وَمُنْذِرِينَ أَهْلَ الْكُفْرِ بِالنَّارِ، وَأَنْتُمْ تَجَادِلُونَهُمْ بِالْبَاطِلِ طُلُباً مِنْكُمْ بِذَلِكَ أَنْ تُبْطِلُوا الْحَقَّ الَّذِي جَاءَكُمْ بِهِ رَسُولِي، وَعَنَى بِقَوْلِهِ: «لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ» لِيَبْطِلُوا بِهِ الْحَقَّ وَيُزِيلُوهُ وَيَذْهَبُوا بِهِ، يُقَالُ

منه: دحض الشيء: إذا زال وذهب، ويقال: هذا مكان دحض: أي مُزِل مُزْلَق لا يثبت فيه خف ولا حافر ولا قدم.

القول في تأويل قوله تعالى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾

وقوله: (وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوعًا) يقول: واتخذ الكافرون بالله حججه التي احتج بها عليهم، وكتابه الذي أنزله إليهم. والنذر التي أنذرهم بها سخرى يسخرون بها، يقولون: «إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا، فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا» وَلَوْ شِئْنَا لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا.

القول في تأويل قوله تعالى: ونسي ما قدمت يدها إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبداً (٥٧) يقول عز ذكره: وأي الناس أوضع للإعراض والصد في غير موضعهما ممن ذكره بآياته وحججه، فدل به على سبيل الرشاد، وهداه بها إلى طريق النجاة، فأعرض عن آياته وأدلتها التي في استدلاله بها الوصول إلى الخلاص من الهلاك «وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ». يقول: ونسي ما أسلف من الذنوب المهلكة فلم يتب، ولم ينب.

وقوله: «إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ، وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا» يقول تعالى ذكره: إنا جعلنا على قلوب هؤلاء الذين يعرضون عن آيات الله إذا ذكروا بها أغطية لئلا يفقهوه: لأن المعنى أن يفقهوا ما ذكروا به. وقوله: «وفي آذانهم وقراً» يقول: في آذانهم ثقلاً لئلا يسمعه (وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى) يقول عز

ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: وَإِنْ تَدْعُ يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ الْمَعْرُضِينَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ عِنْدَ التَّذْكِيرِ بِهَا إِلَى الْإِسْتِقَامَةِ عَلَى مُحِجَّةِ الْحَقِّ وَالْإِيمَانِ بِاللَّهِ، وَمَا جِئْتَهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّكَ «فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذَا أَبَدًا» يَقُولُ: فَلَنْ يَسْتَقِيمُوا إِذَا أَبَدًا عَلَى الْحَقِّ، وَلَنْ يُؤْمِنُوا بِمَا دَعَوْتَهُمْ إِلَيْهِ، لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ طَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ، وَسَمِعَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ط لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً ﴿٥٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: وَرَبُّكَ السَّاتِرُ يَا مُحَمَّدُ عَلَى ذُنُوبِ عِبَادِهِ بَعْفُوهُ عَنْهُمْ إِذَا تَابُوا مِنْهُمْ. «ذُو الرَّحْمَةِ» بِهِمْ، «لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا» هَؤُلَاءِ الْمَعْرُضِينَ عَنْ آيَاتِهِ إِذَا ذَكَرُوا بِهَا بِمَا كَسَبُوا مِنَ الذُّنُوبِ وَالْآثَامِ، «لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ»، وَلَكِنَّهُ لِرَحْمَتِهِ بِخَلْقِهِ غَيْرِ فَاعِلٍ ذَلِكَ بِهِمْ إِلَى مِيقَاتِهِمْ وَأَجَالِهِمْ، «بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ»، يَقُولُ: لَكِنْ لَهُمْ مَوْعِدٌ، وَذَلِكَ مِيقَاتُ مَحَلِّ عَذَابِهِمْ، وَهُوَ يَوْمَ بَدْرٍ. «لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً»، يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرَهُ: لَنْ يَجِدَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ، وَإِنْ لَمْ يُعَجَّلْ لَهُمُ الْعَذَابُ فِي الدُّنْيَا مِنْ دُونِ الْمَوْعِدِ الَّذِي جَعَلْتَهُ مِيقَاتًا لِعَذَابِهِمْ، مُلْجَأً يُلْجِثُونَ إِلَيْهِ، وَمَنْجَى يَنْجُونَ مَعَهُ، يَعْنِي أَنَّهُمْ لَا يَجِدُونَ مَعْقِلًا يَعْتَقِلُونَ بِهِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴿٥٩﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: وَتِلْكَ الْقُرَى مِنْ عَادٍ وَثَمُودَ وَأَصْحَابِ الْأَيْكَةِ أَهْلَكْنَا

أهلها لما ظَلَمُوا، فكفروا بالله وآياته، «وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا»، يعني ميقاتاً وأجلاً، حين بلغوه جاءهم عذاب فأهلكناهم به، يقول: فكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ قَوْمِكَ يَا مُحَمَّدُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِكَ أَبَدًا مَوْعِدًا، إِذَا جَاءَهُمْ ذَلِكَ الْمَوْعِدُ أَهْلَكْنَاهُمْ سُنَّتَنَا فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ ضُرْبَائِهِمْ.

واختلفت الْقَرَأَةُ فِي قِرَاءَةِ قَوْلِهِ: «لِمَهْلِكِهِمْ» فَقَرَأَ ذَلِكَ عَامَّةُ قَرَأَةِ الْحِجَازِ وَالْعِرَاقِ: «لِمَهْلِكِهِمْ» بِضَمِّ الْمِيمِ وَفَتْحِ اللَّامِ عَلَى تَوْجِيهِ ذَلِكَ إِلَى أَنَّهُ مُصَدِّرٌ مِنْ أَهْلَكُوا إِهْلَاكًا. وَقَرَأَهُ عَاصِمٌ: «لِمَهْلِكِهِمْ» بِفَتْحِ الْمِيمِ وَاللَّامِ عَلَى تَوْجِيهِهِ إِلَى الْمَصْدَرِ مِنْ هَلَكُوا هَلَاكًا وَمَهْلَكًا.

وَأَوَّلَى الْقِرَاءَتَيْنِ بِالصَّوَابِ عِنْدِي فِي ذَلِكَ قِرَاءَةُ مَنْ قَرَأَهُ «لِمَهْلِكِهِمْ» بِضَمِّ الْمِيمِ وَفَتْحِ اللَّامِ لِإِجْمَاعِ الْحُجَّةِ مِنَ الْقِرَاءَةِ عَلَيْهِ، وَاسْتِدْلَالًا بِقَوْلِهِ: «وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ» فَإِنَّ يَكُونُ الْمَصْدَرُ مِنْ أَهْلَكْنَا، إِذْ كَانَ قَدْ تَقَدَّمَ قَبْلَهُ أَوَّلَى. وَقِيلَ: أَهْلَكْنَاهُمْ، وَقَدْ قَالَ قَبْلَ: «وَتِلْكَ الْقُرَى»، لِأَنَّ الْهَلَاكَ إِنَّمَا حَلَّ بِأَهْلِ الْقُرَى، فَعَادَ إِلَى الْمَعْنَى، وَأَجْرَى الْكَلَامَ عَلَيْهِ دُونَ اللَّفْظِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقْبًا ﴿٥٩﴾

يقول عز ذكره لنبه عليه ﷺ: واذكر يا محمد إِذْ قَالَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ لِفَتَاهُ يَوْشَعَ: «لَا أَبْرَحُ» يَقُولُ: لَا أَزَالُ أُسِيرُ «حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ».

وقيل: عَنَى بِقَوْلِهِ: «مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ» اجْتِمَاعَ بَحْرِ فَارَسٍ وَالرُّومِ، وَالْمَجْمَعُ: مُصْدَرٌ مِنْ قَوْلِهِمْ: جَمَعَ يَجْمَعُ.

وقوله: «أَوْ أَمْضِيَ حُقْبًا»، يَقُولُ: أَوْ أُسِيرُ زَمَانًا وَدَهْرًا وَهُوَ وَاحِدٌ، وَيَجْمَعُ كَثِيرُهُ وَقَلِيلُهُ: أَحْقَابٌ، وَقَدْ تَقُولُ الْعَرَبُ: كُنْتُ عِنْدَهُ حُقْبَةً مِنَ الدَّهْرِ،

ويجمعونها حُقباً.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نِسْيَا حُوتَهُمَا
فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾

يعني تعالى ذكره: فلما بلغ موسى وفتاه مجمع البحرين.

وقوله: «نَسْيَا حُوتَهُمَا» يعني بقوله: نسيا: تركا.

وأما قوله: «يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْلُوُ وَالْمَرْجَانُ»، فَإِنَّ الْقَوْلَ فِي ذَلِكَ عِنْدَنَا
بِخِلَافِ مَا قَالَ فِيهِ، وَسَنَبِّينُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى إِذَا انْتَهَيْنَا إِلَيْهِ.

وأما قوله: «فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا»، فَإِنَّهُ يَعْنِي أَنَّ الْحَوْتَ اتَّخَذَ
طَرِيقَهُ الَّذِي سَلَكَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا. وَيَعْنِي بِالسَّرْبِ: الْمَسْلَكَ وَالْمَذْهَبَ،
يَسْرَبُ فِيهِ: يَذْهَبُ فِيهِ وَيَسْلُكُهُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ إِنَّا غَدَاءٌ نَا لَقَدْ
لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾

يقول تعالى ذكره: «فلما جاوز» موسى وفتاه مجمع البحرين، «قال»
موسى «لفتاه» يوشع «آتِنَا غَدَاءَنَا»، يقول: جئنا بغدائنا وأعطِنَاهُ، وقال: آتِنَا
غَدَاءَنَا، كَمَا يَقَالُ: أَتَى الْغَدَاءَ وَأَتَيْتَهُ، مِثْلُ ذَهَبٍ وَأَذْهَبْتَهُ، «لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا
هَذَا نَصَبًا»، يقول: لقد لقينا من سفرنا هذا عناءً وتعباً، وقال ذلك موسى، فيما
ذُكِرَ، بَعْدَ مَا جَاوَزَ الصَّخْرَةَ، حِينَ أَلْقَى عَلَيْهِ الْجُوعَ لِيَتَذَكَّرَ الْحَوْتَ، وَيَرْجِعَ
إِلَى مَوْضِعِ مَطْلَبِهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي

نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنْسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ

عَجَبًا ٦٣

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال فتى موسى لموسى حين قال له: آتنا غداءنا لنطعم: أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ هُنَاكَ. «وَمَا أَنْسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ»، يقول: وما أنساني الحوت إلا الشيطان «أَنْ أَذْكُرَهُ» فَأَنْ فِي مَوْضِعٍ نَصَبَ رَدًّا عَلَى الْحَوْتَ، لِأَن مَعْنَى الْكَلَامِ: وما أنساني أَنْ أَذْكُرَ الْحَوْتَ إِلَّا الشَّيْطَانُ سَبَقَ الْحَوْتَ إِلَى الْفِعْلِ، وَرَدَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: «أَنْ أَذْكُرَهُ»، وَقَدْ ذَكَرَ أَنْ ذَلِكَ فِي مَصْحَفِ عَبْدِ اللَّهِ: وما أنسانيه أَنْ أَذْكُرَهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ.

وقوله: «وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا»، يعني: كَانَ سَرَبُ الْحَوْتَ فِي الْبَحْرِ لِمُوسَى عَجَبًا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَأَرْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ٦٤
فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ٦٥

يقول تعالى ذكره: ف «قال» موسى لفتاه «ذلك» يعني بذلك: نسيانك الحوت «ما كُنَّا نَبِغُ»، يقول: الذي كنا نلتمس ونطلب، لِأَنَّ مُوسَى كَانَ قِيلَ لَهُ: صَاحِبُكَ الَّذِي تَرِيدُهُ حَيْثُ تَنْسَى الْحَوْتَ.

وقوله: «فَأَرْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا»، يقول: فرجعا في الطريق الذي كانا قطعاه ناكسين على أديارهما يقصان آثارهما التي كانا سلكاها.

وقوله: «فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا»، يقول: وهبنا له رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا. «وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا»، يقول: وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ عِنْدِنَا أَيْضًا

علماً.

وكان سببُ سفر موسى ﷺ وفتاه، ولقائه هذا العالم الذي ذكّره الله في هذا الموضع فيما ذُكر، أنَّ موسى سُئِلَ، هل في الأرض أحدٌ أعلمُ منك؟ فقال: لا، أو حدّثته نفسه بذلك، فكره ذلك له، فأراد الله تعريّفه أنَّ من عباده في الأرض مَنْ هو أعلمُ منه، وأنه لم يكن له أن يحتم على مالا عِلْمَ له به، ولكن كان ينبغي له أن يَكِلَ ذلك إلى عالمه.

وقال آخرون: بل كان سبب ذلك أنه سأل الله جلّ ثناؤه أن يدلّه على عالمٍ يزدادُ من عِلْمِهِ إلى علمِ نفسه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَني مَعَا عِلْمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾

يقول تعالى ذكره: قال موسى للعالم: «هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَني» من العلم الذي علمك الله ما هو رشادٌ إلى الحقِّ، ودليلٌ على هدى؟ «قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا»، يقول تعالى ذكره: قال العالم: إنك لن تطيق الصبر معي، وذلك أني أعملُ بباطنٍ علمٍ عِلْمَنيهِ الله، ولا عِلْمَ لك إلا بالظاهر من الأمور، فلا تصبر على ماترى من الأفعال.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾

يقول عزّ ذكّره مخبراً عن قولِ العالمِ لموسى: وكيف تصبر يا موسى على ما تَرَى مني من الأفعال التي لا علمَ لك بوجوه صوابها، وتقيم معي عليها، وأنت إنما تحكمُ على صوابِ المصيب وخطأِ المخطيء بالظاهر الذي عندك،

وَيَمْبَلِغُ عِلْمَكَ وَأَفْعَالِي تَقَعُ بِغَيْرِ دَلِيلٍ ظَاهِرٍ لِرَأْيِ عَيْنِكَ عَلَى صَوَابِهَا، لَأَنْهَا تُبْتَدَأُ لِأَسْبَابِ تَحْدِثِ آجَلَةٍ غَيْرِ عَاجِلَةٍ، لَا عِلْمَ لَكَ بِالْحَادِثِ عَنْهَا، لَأَنْهَا غَيْبٌ، وَلَا تَحِيطُ بِعِلْمِ الْغَيْبِ خَبِراً يَقُولُ عِلْماً، قَالَ: «سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِراً» عَلَى مَا أَرَى مِنْكَ وَإِنْ كَانَ خِلَافاً لِمَا هُوَ عِنْدِي صَوَابٌ. «وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْراً»، يَقُولُ: وَأَنْتَهِيَ إِلَى مَا تَأْمُرُنِي، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُوَافِقاً هَوَايَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ فَإِنْ أَتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً ﴿٧٦﴾

يقول تبارك وتعالى: قال العالم لموسى: فإن اتبعتنى الآن فلا تسألني عن شيءٍ أعمله مما تستنكره، فإنني قد أعلمتك أنني أعملُ العملَ على الغيبِ الذي لا تحيطُ به علماً. «حتى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً»، يقول: حتى أحدث أنا لك مما ترى من الأفعال التي أفعُلها التي تستنكرها أذكرها لك وأبين لك شأنها، وأبتدئك الخبر عنها.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْنَاهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْرًا ﴿٧٧﴾

يقول تعالى ذكره: فانطلق موسى والعالم يسيران يطلبان سفينةً يركبانها، حتى إذا أصابها ركبا في السفينة، فلما ركبها، خرق العالم السفينة، قال له موسى: أخرقتها بعد ما لججنا في البحر. «لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْرًا»، يقول: لقد جئت شيئاً عظيماً، وفعلت فعلاً منكراً.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٨﴾

قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾

يقول عزّ ذكره: «قَالَ» العالم لموسى إذ قَالَ له ما قَالَ: «أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا» على ماترى من أفعالي، لأنك ترى ما لم تُحِطْ به خبراً، قال له موسى: «لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ»، فاختلف أهل التأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم: كان هذا الكلام من موسى عليه السلام للعالم معارضةً، لا أنه كان نسي عهده، وما كان تقدّم فيه حين استصحبه بقوله: «فإِنْ أَتْبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا».

وقال آخرون: بل معنى ذلك: لا تؤاخذني بتركي عهدك، ووجه أن معنى النسيان: الترك.

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن موسى سأل صاحبه أن لا يؤاخذَه بما نسيَ فيه عَهْدَه من سؤاله إياه على وجه ما فعل وسببه لا بما سألَه عنه، وهو لعهد ذاك، للصحيح عن رسول الله ﷺ، بأن ذلك معناه من الخبر، عن أبي بن كعب، عن رسول الله ﷺ: «لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ» قال: كَانَتْ الْأُولَى مِنْ مُوسَى نِسْيَانًا.

وقوله: «وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا» يقول: لا تُغْشِنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا، يقول: لَا تُضَيِّقْ عَلَيَّ أَمْرِي مَعَكَ، وصحبتني إياك.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ

أَقْتَلْتُ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٤﴾

يقول تعالى ذكره: «فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ» العالم، فـ«قال» له موسى: «أَقْتَلْتُ نَفْسًا زَكِيَّةً».

واختلفت القُرْآنَ في قراءة ذلك، فقرأته عامة قُرْآنَ الحجاز والبصرة: «أَقْتَلْتُ نَفْسًا زَاكِيَةً» وقالوا معنى ذلك: المطهرة التي لا ذنبَ لها، ولم تَذْنِبْ قَطُّ لصغرهما. وقرأ ذلك عامة قُرْآنَ أهلِ الكوفة «نَفْسًا زَكِيَّةً» بمعنى: الثابتة المغفور لها ذنوبها.

وكان بعضُ أهل العلم بكلامِ العربِ من أهلِ الكوفة يقول: معنى الزكية والزاكية واحدٌ، كالقاسية والقسية: ويقول: هي التي لم تجن شيئاً وذلك هو الصواب عندي لأنني لم أجِدُ فرقاً بينهما في شيء من كلام العرب.

فإذا كان ذلك كذلك، فبأيِّ القراءتين قرأ ذلك القارئُ فمصيبٌ، لأنهما قراءتان مستفيضتان في قراءة الأمصار بمعنى واحد.

وقوله: «بَغَيْرِ نَفْسٍ»، يقول: بغير قصاص بنفس قتلت، فلزمها القتل قوداً بها.

وقوله: «لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا»، يقول: لقد جئت بشيء منكراً، وفعلت فعلاً غير معروف.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: قال العالم لموسى: «أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا» على ما ترى من أفعالي التي لم تُحِطْ بها خبراً، قال موسى له: «إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا»، يقول: بعد هذه المَرَّةِ «فَلَا تُصَاحِبْنِي»، يقول: ففارقني، فلا تكن لي مُصَاحِبًا. «قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا»، يقول: قد بلغت العذر في شأني.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : فَأَنْطَلَقَ حَتَّى إِذَا أَتَى أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَ أَهْلَهَا فَأَبْوَأَ أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَ فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَأَقَامَهُ. قَالَ ، لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً ﴿٧٧﴾

يقول تعالى ذكره : فانطلق موسى والعالم «حَتَّى إِذَا أَتَى أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَ أَهْلَهَا» من الطعام فلم يطعموهم واستضافاهم ، «فَأَبْوَأَ أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا» فَوَجَدَ فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ» ، يقول : وجدا في القرية حائطاً يريد أن يسقط ويقع ؛ يقال منه : انقضت الدار : إذا انهدمت وسقطت .

وقوله : «فَأَقَامَهُ» ذكر عن ابن عباس أنه قال : هدمه ثم قعد بينه .

وقال آخرون : رفع الجدار بيده فاستقام .

والصواب من القول في ذلك أن يُقال : إِنَّ اللَّهَ عَزَّ ذَكَرَهُ أَخْبَرَ أَنَّ صَاحِبَ مُوسَى وَمُوسَى وَجَدَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَأَقَامَهُ صَاحِبُ مُوسَى ، بمعنى : عَدَلَ مِثْلَهُ حَتَّى عَادَ مُسْتَوِياً . وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ كَانَ ذَلِكَ بِإِصْلَاحٍ بَعْدَ هَدْمٍ . وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ كَانَ بَرْفَعٍ مِنْهُ لَهُ بِيَدِهِ ، فَاسْتَوَى بِقُدْرَةِ اللَّهِ ، وَزَالَ عَنْهُ مِثْلُهُ بِلُطْفِهِ ، وَلَا دَلَالَةَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَلَا خَبَرَ لِلْعَذْرِ قَاطِعٍ بِأَيِّ ذَلِكَ كَانَ مِنْ أَيِّ .

وقوله : «قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً» ، يقول : قال موسى لصاحبه :

لَوْ شِئْتَ لَمْ تَقُمْ لَهُؤْلَاءِ الْقَوْمِ جِدَارَهُمْ حَتَّى يُعْطُوكَ عَلَى إِقَامَتِكَ أَجْراً ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّمَا عَنَى مُوسَى بِالْأَجْرِ الَّذِي قَالَ لَهُ : «لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً» الْقَرَى : أَيِ حَتَّى يَقْرُونَا ، فَإِنَّهُمْ قَدْ أَبَوَا أَنْ يُضَيِّقُونَا .

وقال آخرون : بَلْ عَنَى بِذَلِكَ الْعَوَضَ وَالْجَزَاءَ عَلَى إِقَامَتِهِ الْحَائِطَ الْمَائِلَ .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ

مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال صاحبُ موسى لموسى: هذا الذي قُلْتَهُ وهو قوله: «لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا». «فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ»، يقول: فرقة ما بيني وبينك: أي مفرق بيني وبينك. «سَأُنَبِّئُكَ»، يقول: سأخبرك. «بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا»، يقول: بما يثول إليه عاقبة أفعالي التي فعلتها، فلم تستطع على ترك المسألة عنها، وعن النكير عليَّ فيها صبرًا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾

يقول: أما فعلي ما فعلتُ بالسفينة، فلأنها كانت لقومٍ مساكينٍ «يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا» بالخرق الذي خرقتها. وقوله: «وكان وراءهم ملكٌ يأخذُ كلَّ سفينةٍ غصبًا» وكان أمامهم وقُدَّامهم ملك.

وقوله: «يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا»، فيقول القائل: فما أغنى خَرَقُ هذا العالمِ السفينةَ التي ركبها عن أهلها، إذ كان من أجلِ خرقها يأخذُ السفن كلها، مَعِيبَهَا وغير معيها، وما كان وجه اعتلاله في خرقها بأنه خرقها، لأنَّ وراءهم ملكٌ يأخذُ كلَّ سفينةٍ غَصْبًا؟ قيل: إنَّ معنى ذلك، أنه يأخذُ كل سفينةٍ صحيحةٍ غصبًا، وَيَدْعُ منها كلَّ معيبة، لا أنه كان يأخذُ صِحَاحَهَا وغير صِحَاحَهَا. فإن قال: وما الدليلُ على أن ذلك كذلك؟ قيل: قوله: «فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا» فأبانَ بذلك أنه إنما عابها، لأنَّ المعيبة منها لا يعرض لها، فاكتمى بذلك من أن يقال: وكان وراءهم ملكٌ يأخذُ كلَّ سفينةٍ صحيحةٍ غصبًا، على

أن ذلك في بعض القراءات كذلك.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۖ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ۖ**

يقول تعالى ذكره: وأما الغلام، فإنه كان كافراً، وكان أبواه مؤمنين، فعلمنا أنه يرهقهما: يقول يغشيهما طغياناً، وهو الاستكبار على الله، وكفراً به.

وقوله: «فأردنا أن يُبدلَهُمَا رَبُّهُمَا» اختلفت القراءة في قراءة ذلك، فقرأه جماعة من قراء المكيين والمدنيين والبصريين: «فأردنا أن يُبدلَهُمَا رَبُّهُمَا». وكان بعضهم يعتل لصحة ذلك بأنه وجد ذلك مشدداً في عامة القرآن، كقول الله عز وجل: «فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا»، وقوله: «وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ»، فالحق قوله: «فأردنا أن يُبدلَهُمَا بِهِ». وقرأ ذلك عامة قراء الكوفة: «فأردنا أن يُبدلَهُمَا» بتخفيف الدال. وكان بعض من قرأ ذلك كذلك من أهل العربية يقول: أبدل يُبدل بالتخفيف وبَدَّل يُبدل بالتشديد بمعنى واحد.

والصواب من القول في ذلك عندي أنهما قراءتان متقاربتا المعنى، قد قرأ بكل واحدة منهما جماعة من القراء، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب. وقوله: «خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً» يقول: خيراً من الغلام الذي قتله صلاحاً وديناً. وقوله: «وَأَقْرَبَ رُحْمًا»، يعني بذلك: وأقرب رحمة بوالديه وأبرَّ بهما من المقتول.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي**

الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ مخبراً عن قولِ صاحبِ موسى: وأما الحائطُ الذي أقمته، فإنه كان لغلامين يتيمين في المدينة، وكان تحته كنزٌ لهما.

وقوله: «أَبُوهُمَا صَالِحًا، فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا»، يقول: فأراد ربك أن يُدْرِكَا ويبلغا قُوَّتَهُمَا وشِدَّتَهُمَا، ويستخرجا حينئذٍ كنزهما المكنوز تحت الجدار الذي أقمته رحمةً من ربك بهما، يقول: فعلت فعل هذا بالجدار رحمةً من ربك لليتين.

وقوله: «وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي»، يقول: وما فعلت يا موسى جميع الذي رأيتني فعلته عن رأيي ومن تلقاء نفسي، وإنما فعلته عن أمر الله إياي به.

وقوله: «ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا»، يقول: هذا الذي ذكرت لك من الأسباب التي من أجلها فعلت الأفعال التي استنكرتها مني، تأويل: يقول: ما تثول إليه وترجع، الأفعال التي لم تسطع على ترك مسألتك إياي عنها، وإنكارك لها صبراً.

وهذه القصص التي أخبر الله عزَّ وجلَّ نبيه محمداً ﷺ بها عن موسى وصاحبه، تأديبٌ منه له، وتقْدُومٌ إليه بترك الاستعجال بعقوبة المشركين الذين كَذَّبُوهُ واستهزؤا به وبكتابه، وإعلامٌ منه له أن أفعاله بهم وإن جَرَتْ فيما ترى الأعين بما قد يجري مثله أحياناً لأوليائه، فإن تأويله صائرٌ بهم إلى أحوال أعدائه فيها، كما كانت أفعال صاحب موسى واقعة بخلاف الصحة في الظاهر عند موسى إذ لم يكن عالماً بعواقبها، وهي ماضية على الصحة في الحقيقة

وَأَثَلَةٌ إِلَى الصَّوَابِ فِي الْعَاقِبَةِ، يَنْبِئُ عَنْ صِحَّةِ ذَلِكَ قَوْلُهُ: «وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ، بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْثِقًا». ثُمَّ عَقَّبَ ذَلِكَ بِقِصَّةِ مُوسَى وَصَاحِبِهِ، يُعَلِّمُ نَبِيَّهُ أَنْ تَرْكُهُ جَلَّ جَلَالُهُ تَعْجِيلَ الْعَذَابِ لَهُؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ بِغَيْرِ نَظَرٍ مِنْهُمْ لَهُمْ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ فِيمَا يَحْسِبُ مَنْ لَا عِلْمَ لَهُ بِمَا اللَّهُ مُدَبِّرٌ فِيهِمْ نَظَرًا مِنْهُمْ لَهُمْ، لِأَنَّ تَأْوِيلَ ذَلِكَ صَائِرٌ إِلَى هَلَاكِهِمْ وَبُورِهِمْ بِالسَّيْفِ فِي الدُّنْيَا وَاسْتِحْقَاقِهِمْ مِنَ اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ الْخِزْيَ الدَّائِمَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَتَسْأَلُونَكَ عَنِ الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٢﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٣﴾ فَاتَّبَعَ سَبَبًا ﴿٨٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: وَيَسْأَلُكَ يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ الْمَشْرِكُونَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ مَا كَانَ شَأْنُهُ، وَمَا كَانَتْ قِصَّتُهُ، فَقُلْ لَهُمْ: سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْ خَبَرِهِ ذِكْرًا: يَقُولُ: سَأَقْصُصُ عَلَيْكُمْ مِنْهُ خَبْرًا.

وقوله: «إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا»، يَقُولُ: إِنَّا وَطَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ. «وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا»، يَقُولُ: وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، يَعْنِي مَا يَتَسَبَّبُ إِلَيْهِ وَهُوَ الْعِلْمُ بِهِ.

وقوله: «فَاتَّبَعَ سَبَبًا» اخْتَلَفَتْ الْقِرَاءَةُ فِي قِرَاءَةِ ذَلِكَ، فَقَرَأَتْهُ عَامَةً قِرَاءَةً الْمَدِينَةِ وَالْبَصْرَةِ، فَاتَّبَعَ بِوَصْلِ الْأَلْفِ وَتَشْدِيدِ التَّاءِ بِمَعْنَى: سَلَكَ وَسَارَ مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ: اتَّبَعْتَ أَثَرَ فُلَانٍ: إِذَا قَفَوْتَهُ؛ وَسَرْتَ وَرَاءَهُ. وَقَرَأَ ذَلِكَ عَامَةً قِرَاءَةً الْكُوفَةِ «فَاتَّبَعَ» بِهَمْزِ الْأَلْفِ وَتَخْفِيفِ التَّاءِ، بِمَعْنَى لَحَقَ.

وَأُولَى الْقِرَاءَتَيْنِ فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ، قِرَاءَةُ مَنْ قَرَأَهُ «فَاتَّبَعَ» بِوَصْلِ الْأَلْفِ

وتشديد التاء، لأنَّ ذلك خبر من الله تعالى ذِكرُه عن مسيرِ ذي القرنين في الأرض التي مكن له فيها، لا عن لحاقه السبب، وبذلك جاء تأويلُ أهل التأويل.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَذَّكَّرُ لِلْأَقْرَبَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾

يقول تعالى ذِكرُه: «حتى إذا بلغ» ذو القرنين «مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة»، فاختلفت القراءة في قراءة ذلك، فقرأه بعض قراءة المدينة والبصرة: «فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ» بمعنى: أنها تغرب في عين ماء ذات حمأة، وقرأته جماعة من قراءة المدينة، وعامة قراءة الكوفة: «فِي عَيْنٍ حَامِيَةٍ» يعني أنها تغرب في عين ماء حارة.

والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إنهما قراءتان مستفيضتان في قراءة الأمصار، ولكل واحدة منهما وجهٌ صحيح ومعنى مفهوم، وكلا وجهيه غير مفسدٍ أحدهما صاحبه، وذلك أنه جائز أن تكون الشمس تغرب في عين حارة ذات حمأة وطين، فيكون القارئ في عين حامية بصفقتها التي هي لها، وهي الحرارة، ويكون القارئ في عين حمئة واصفها بصفقتها التي هي بها وهي أنها ذات حمأة وطين.

وقوله: «وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا» ذكر أن أولئك القوم يقال لهم: ناسك. وقوله: «قُلْنَا يَذَّكَّرُ لِلْأَقْرَبَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ»، يقول: إما أن تقتلهم إن هم لم يدخلوا في الإقرار بتوحيد الله، ويذعنوا لك بما تدعوهم إليه من طاعة ربهم. «وإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا»، يقول: وإما أن تأسرهم فتعلمهم الهدى وتبصرهم

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ
فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَّكَرًا ﴿٨٧﴾

يقول جل ثناؤه: «قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ»، يقول: أَمَّا مَنْ كَفَرَ
فسوف نقتله.

وقوله: «ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَّكَرًا»، يقول: ثم يرجع إلى الله
تعالى بعد قتله، فيُعَذِّبُهُ عَذَابًا عَظِيمًا، وهو النكر، وذلك عذاب جهنم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحَسَنَىٰ
وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾

يقول: وَأَمَّا مَنْ صَدَّقَ اللَّهَ مِنْهُمْ وَوَحَّده، وعمل بطاعته، فله عند الله
الحسنى، وهي الجنة، جزاء يعني ثواباً على إيمانه، وطاعته ربه.

وقوله: «وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا»، يقول: وسنعلمه نحن في الدنيا
ماتيسر لنا تعليمه مما يُقَرِّبُهُ إِلَى اللَّهِ وَيَلِينُ لَهُ مِنَ الْقَوْلِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ
الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا
بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: ثُمَّ سَارَ وَسَلَكَ ذُو الْقَرْنَيْنِ طَرَقًا وَمَنَازِلَ. «حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ
مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا» يقول

الكهف: ٩١ - ٩٤

تعالى ذِكْرُهُ: ووجد ذو القرنين الشمس تطلع على قوم لم تجعل لهم من دونها سترًا، وذلك أن أرضهم لا جبل فيها ولا شجرًا، ولا تحتمل بناء فيسكنوا البيوت، وإنما يغورون في المياه، أو يسربون في الأسراب.

وأما قوله: «كَذَلِكَ» فإن معناه: ثم أتبع سبباً كذلك حتى إذا بلغ مطلع الشمس؛ وكذلك من صلة أتبع. وإنما معنى الكلام: ثم أتبع سبباً حتى بلغ مطلع الشمس، كما أتبع سبباً حتى بلغ مغربها.

وقوله: «وَقَدْ أَحْطَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا»، يقول: وقد أحطنا بما عند مطلع الشمس علماً لا يخفى علينا مما هنالك من الخلق وأحوالهم وأسبابهم، ولا من غيرهم شيء.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩١﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٢﴾ قَالُوا يَنْذِ الْأَقْرَبِينَ إِنْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ثم سار طرقاً ومنازل، وسلك سبلاً «حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ».

واختلفت القراء في قراءة ذلك، فقرأته عامة قراءة المدينة وبعض الكوفيين: «حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ»، بضم السين وكذلك جميع ما في القرآن من ذلك بضم السين. وكان بعض قراءة المكيين يقرؤه بفتح ذلك كله. وكان أبو عمرو ابن العلاء يفتح السين في هذه السورة، ويضم السين في يس، ويقول: السد بالفتح: هو الحاجز بينك وبين الشيء؛ والسد بالضم: ما كان من غشاوة في العين. وأما الكوفيون فإن قراءة عامتهم في جميع القرآن بفتح السين غير قوله: «حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ» فإنهم ضموا السين في ذلك خاصة.

ورُوي عن عكرمة في ذلك، أنه قال: ما كان من صنعة بني آدم فهو السَّد، يعني بالفتح، وما كان من صنع الله فهو السَّد. وكان الكسائي يقول: هما لغتان بمعنى واحد.

والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إنهما قراءتان مستفيضتان في قراءة الأمصار، ولغتان متفقتا المعنى غير مختلفة، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيبٌ، ولا معنى للفرق الذي ذكر عن أبي عمرو بن العلاء، وعكرمة بين السَّد والسَّد، لأننا لم نجد لذلك شاهداً يبين عن فرقانٍ ما بين ذلك على ماحكي عنهما. ومما يبين ذلك أن جميع أهل التأويل الذي رُوي لنا عنهم في ذلك قولٌ، لم يُحك لنا عن أحدٍ منهم تفصيل بين فتح ذلك وضمه، ولو كانا مختلفي المعنى لنقل الفصل مع التأويل إن شاء الله، ولكن معنى ذلك كان عندهم غير مفترق، فيفسر الحرف بغير تفصيل منهم بين ذلك. وأما ما ذكر عن عكرمة في ذلك. (فلا يثبت عنه). والسَّد والسَّد جميعاً: الحاجز بين الشيتين، وهما ههنا فيما ذكر جبران سُد ما بينهما، فردم ذو القرنين حاجزاً بين يأجوج ومأجوج ومن وراءهم، ليقطع ما ذ غوائلهم وعيْتهم عنهم.

وقوله: «وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا»، يقول عز ذكره: وجد من دون السدين قوماً لا يكادون يفقهون قول قائلٍ سوى كلامهم.

وقوله: «إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ» اختلفت القراءة قوله: «إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ»، فقرأت القراءة من أهل الحجاز والعراق وغيرهم: «إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ» بغير همز على فاعول من يَججت ومَججت، وجعلوا الألفين فيهما زائدتين، غير عاصم بن أبي النجود والأعرج، فإنه ذكر أنهما قرآ ذلك بالهمز فيهما جميعاً، وجعلا الهمز فيهما من أصل الكلام، وكأنهما جعلاً يأجوج: يفعل من أججت، ومأجوج: مفعول.

والقراءة التي هي القراءةُ الصحيحةُ عندنا، أن «يأجوجَ ومأجوجَ» بألفٍ بغيرِ همزٍ لإجماعِ الحجةِ من القراءِ عليه، وأنه الكلامُ المعروفُ على اللسانِ العربِ.

وقوله: «مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ»، يعني بذلك: إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ سَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ، لَا أَنَّهُمْ كَانُوا يَوْمئِذٍ يَفْسِدُونَ.

وقوله: «فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا»، اختلفتِ القَرَأَةُ فِي قِرَاءَةِ ذَلِكَ، فَقَرَأَتْهُ عَامَّةُ قَرَاءَةِ الْمَدِينَةِ وَالْبَصْرَةِ وَبَعْضُ أَهْلِ الْكُوفَةِ: «فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا» كَأَنَّهُمْ نَحَوًّا بِهِ نَحْوَ الْمَصْدَرِ مِنْ خَرَجَ الرَّأْسُ، وَذَلِكَ جَعَلَهُ. وَقَرَأَتْهُ عَامَّةُ قَرَاءَةِ الْكُوفِيِّينَ: «فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا» بِالْأَلْفِ، وَكَأَنَّهُمْ نَحَوًّا بِهِ نَحْوَ الْأَسْمِ، وَعَنَوْا بِهِ أَجْرَةً عَلَى بَنَائِكَ لَنَا سَدًّا بَيْنَنَا وَبَيْنَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ.

وَأَوَّلَى الْقِرَاءَتَيْنِ فِي ذَلِكَ عِنْدَنَا بِالصَّوَابِ قِرَاءَةُ مَنْ قَرَأَهُ: «فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا» بِالْأَلْفِ، لِأَنَّ الْقَوْمَ فِيمَا ذُكِرَ عَنْهُمْ، إِنَّمَا عَرَضُوا عَلَى ذِي الْقَرْنَيْنِ أَنْ يُعْطَوْهُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ مَا يَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى بِنَاءِ السِّدِّ، وَقَدْ بَيَّنَّ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: «فَأَعِيزُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا»، وَلَمْ يَعْضُوا عَلَيْهِ جَزِيَّةَ رُؤُوسِهِمْ. وَالْخَرَجُ عِنْدَ الْعَرَبِ: هُوَ الْغَلَّةُ.

وقوله: «عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا» يقول: قالوا له: هل نجعل لك خراجاً على أن تجعلَ بيننا وبين يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ حاجزاً يحجزُ بيننا وبينهم، ويمنعهم من الخروجِ إلينا، وهو السدُّ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِيزُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ٩٥

يقول تعالى ذكره: قال ذو القرنين: الذي مكنتني في عمل ما سألتُموني

من السدّ بينكم وبين هؤلاء القوم ربي، ووطأه لي، وقوّاني عليه، خيرٌ من جُعَلِكُمْ، والأجرة التي تعرضونها عليّ لبناء ذلك، وأكثر وأطيب، ولكن أعينوني منكم بقوة، أعينوني بفَعْلَةٍ وصناع يُحسنون البناء والعمل.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: «آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾»

يقول عزّ ذكره: قال ذو القرنين للذين سألوه أن يجعل بينهم وبين ياجوج ومأجوج سدّاً «آتوني»: أي جيئوني بزُبر الحديد، وهي جمع زُبرة، والزُبرة: القطعة من الحديد.

وقوله: «حتى إذا ساوى بين الصدفين»، يقول عزّ ذكره: فاتّوّه زُبر الحديد، فجعلها بين الصدفين حتى إذا ساوى بين الجبلين بما جعل بينهما من زُبر الحديد، ويقال: سَوَى. والصدفان: ما بين ناحيتي الجبلين ورؤوسهما.

وقوله: «قَالَ انْفُخُوا»، يقول عزّ ذكره. قال للفعلة: انفخوا النار على هذه الزُبر من الحديد.

وقوله: «حتى إذا جعله ناراً» وفي الكلام متروكٌ، وهو: فنفخوا حتى إذا جعل ما بين الصدفين من الحديد ناراً.

وقوله: «أَفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا» يقول: أصبّ عليه قِطْرًا، والقِطر: النحاس.

وقوله: «فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ»، يقول عزّ ذكره: فما استطاع ياجوج ومأجوج أن يعلّوا الردم الذي جعله ذو القرنين حاجزاً بينهم، وبين من دونهم

من الناس، فيصيروا فوقه وينزلوا منه إلى الناس، يقال منه: ظهر فلان فوق البيت: إذا علاه؛ ومنه قول الناس: ظهر فلان على فلان: إذا قهره وعلاه. «وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا» يقول: ولم يستطيعوا أن ينقبوه من أسفله.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾

يقول عزّ ذكره: فلما رأى ذو القرنين أن يأجوج ومأجوج لا يستطيعون أن يظهروا ما بنى من الردم، ولا يقدرّون على نقبه، قال: هذا الذي بنيته وسوّيته حاجزاً بين هذه الأمة، ومن دون الردم رحمة من ربي رحم بها من دون الردم من الناس، فأعانني برحمته لهم حتى بنيته وسوّيته ليكفّ بذلك غائلة هذه الأمة عنهم.

وقوله: «إِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ» يقول: فإذا جاء وعد ربي الذي جعله ميقاتاً لظهور هذه الأمة وخروجها من وراء هذا الردم لهم، جعله دكاء، يقول: سَوَّاهُ بِالْأَرْضِ، فألزقه بها من قولهم: ناقة دكاء: مستوية الظهر لا سنام لها. وإنما معنى الكلام: جعله مذكوكاً، فقليل: دكاء.

«وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا»، يقول: وكان وعد ربي الذي وعد خلقه في دكّ هذا الردم، وخروج هؤلاء القوم على الناس، وعيْثهم فيه، وغير ذلك من وعده حقاً، لأنه لا يخلف الميعاد فلا يقع غير ما وعد أنه كائن.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَفُتِحَ

فِي الصُّورِ فَمَجَّعْتَهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾

يقول تعالى ذكره: وتركنا عبادنا يوم يأتيهم وعدنا الذي وعدناهم، بأننا

الكهف: ١٠٠-١٠٢

نَذُّكَ الْجِبَالِ وَتَنْسِفُهَا عَنِ الْأَرْضِ نَسْفًا، فَنَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا، بعضهم يَمُوجُ في بعض، يقول: يَخْتَلِطُ جَنُّهُمْ بِإِنْسِهِمْ.

وقوله: «فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا»، يقول: فجمعنا جميعَ الخَلْقِ حينئذٍ لموقفِ الحسابِ جميعاً.

وقوله: «وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا»، يقول: وأبرزنا جهنمَ يومَ يُنْفَخُ في الصور، فأظهرناها للكافرين بالله، حتى يروها ويعاينوها كهيئةِ السراب.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾

يقول تعالى: وعرضنا جهنمَ يومئذٍ للكافرين الذين كانوا لا ينظرون في آياتِ الله، فيتفكرون فيها ولا يتأملون حججه، فيعتبرون بها، فيتذكرون ويُنبِئُونَ إلى توحيدِ الله، وينقادون لأمره ونهيه، وكانوا لا يستطيعون سماعاً، يقول: وكانوا لا يُطِيقُونَ أَنْ يَسْمَعُوا ذِكْرَ اللَّهِ الَّذِي ذَكَّرَهُمْ بِهِ، وبيانه الذي بيَّنه لهم في آيِ كتابه، بخذلانِ الله إياهم، وَغَلَبَةِ الشَّقَاءِ عَلَيْهِمْ، وَشُغْلِهِمْ بِالْكَفْرِ بِاللَّهِ وَطَاعَةِ الشَّيْطَانِ، فيتعظون به، ويتدبرونه، فيعرفون الهدى من الضلالة، والكفر من الإيمان.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾

يقول عز ذكره: أظنُّ الذين كفروا بالله من عبدةِ الملائكةِ والمسيح، أن يتخذوا عبادي الذين عبدوهم من دونِ الله أولياء، يقول: كلا بَلْ هُمْ لَهُمْ

أعداء.

وقوله: «إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزْلاً»، يقول: أعددنا لمن كفر بالله جهنم منزلاً.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٢﴾
الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٣﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: «قُلْ» يا محمد لهؤلاء الذين ييغون عتتك ويجادلونك بالباطل، ويحاورونك بالمسائل من أهل الكتابين: اليهود، والنصارى. «هَلْ نُنَبِّئُكُمْ» أيها القوم «بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا» يعني بالذين أتعبوا أنفسهم في عمل ييغون به ربحاً وفضلاً، فنالوا به عطباً وهلاكاً ولم يدركوا طلباً، كالمشتري سلعةً يرجو بها فضلاً وربحاً، فخاب رجاءه، وخسر بيعه، ووكس في الذي رجا فضله.

وقوله: «الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا»، يقول: هم الذين لم يكن عملهم الذي عملوه في حياتهم الدنيا على هدى واستقامة، بل كان على جورٍ وضلالة، وذلك أنهم عملوا بغير ما أمرهم الله به بل على كفرٍ منهم به، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً: يقول: وهم يظنون أنهم بفعلهم ذلك لله مطيعون، وفيما ندب عبادةً إليه مجتهدون، وهذا من أدلِّ الدلائل على خطأ قول مَنْ زعم أنه لا يكفر بالله أحدٌ إلا من حيث يقصد إلى الكفر بعد العلم بوحدانيته، وذلك أن الله تعالى ذكره أخبر عن هؤلاء الذين وصف صفتهم في هذه الآية، أن سعيهم الذي سعوا في الدنيا ذهب ضلالاً، وقد كانوا يحسبون أنهم محسنون في صنعهم ذلك، وأخبر عنهم أنهم هم الذين كفروا بآيات ربهم، ولو كان القول كما قال الذين زعموا أنه لا يكفر بالله أحدٌ إلا من حيث

يعلم، لَوْجَبَ أَنْ يَكُونَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ فِي عَمَلِهِمُ الَّذِي أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَحْسِبُونَ فِيهِ أَنَّهُمْ يَحْسِنُونَ صَنْعَهُ، كَانُوا مَثَابِينَ مَاجُورِينَ عَلَيْهَا، وَلَكِنَّ الْقَوْلَ بِخِلَافِ مَا قَالُوا، فَأَخْبِرْ جَلَّ ثَنَاؤُهُ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ بِاللَّهِ كَفَرُوا، وَأَنَّ أَعْمَالَهُمْ حَابِطَةٌ. وَعَنِ بَقُولِهِ: «أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا» عَمَلًا، وَالصُّنْعُ: وَالصَّنْعَةُ وَالصَّنِيعُ وَاحِدٌ، يُقَالُ: فَرَسٌ صَنِيعٌ بِمَعْنَى مُصْنُوعٍ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا** ﴿١٠٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ وَصَفْنَا صِفَتَهُمْ، الْأَخْسَرُونَ أَعْمَالًا، الَّذِينَ كَفَرُوا بِحُجَجِ رَبِّهِمْ وَأَدْلَتِهِ، وَأَنْكَرُوا لِقَاءَهُ. «فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ»، يَقُولُ: فَبَطَلَتْ أَعْمَالُهُمْ، فَلَمْ يَكُنْ لَهَا ثَوَابٌ يَنْفَعُ أَصْحَابَهَا فِي الْآخِرَةِ، بَلْ لَهُمْ مِنْهَا عَذَابٌ وَخِزْيٌ طَوِيلٌ. «فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا»، يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: فَلَا نَجْعَلُ لَهُمْ ثَقَلًا. وَإِنَّمَا عَنِ ذَلِكَ: أَنَّهُمْ لَا تَثْقُلُ بِهِمْ مَوَازِينُهُمْ، لِأَنَّ الْمَوَازِينَ إِنَّمَا تَثْقُلُ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَلَيْسَ لَهُؤُلَاءِ شَيْءٌ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، فَتَثْقُلُ بِهِ مَوَازِينُهُمْ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا** ﴿١٠٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: أُولَئِكَ ثَوَابُهُمْ جَهَنَّمُ بِكَفَرِهِمْ بِاللَّهِ، وَاتَّخَذُوا آيَاتِ كِتَابِهِ، وَحُجَجَ رُسُلِهِ سُخْرِيًّا، وَاسْتَهْزَأُوا بِرُسُلِهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ**

جَنَّتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: إِنَّ الَّذِينَ صَدَقُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَأَقْرَأُوا بِتَوْحِيدِ اللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ كِتَابِهِ وَعَمِلُوا بِطَاعَتِهِ، كَانَتْ لَهُمْ بَسَاتِينُ الْفِرْدَوْسِ، وَالْفِرْدَوْسُ: معظم الجنة.

وقوله: «نُزُلًا»، يقول: منازل ومساكن، والمنزل: من النزول، وهو من نزول بعض الناس على بعض، وأما النزول: فهو الريع، يقال: ما لطعامكم هذا نَزْلٌ يُرَادُّ به الريع وما وجدنا عندكم نَزْلًا: أي نزولاً.

وقوله: «خَالِدِينَ»، يقول: لا بشين. «فِيهَا أَبَدًا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا»، يقول: لا يريدون عنها تحوُّلاً، وهو مصدر تحوَّلت أخرج إلى أصله، كما يقال: -- صغر يصغر صغراً، وعاج يعوج عوجاً.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾

يقول عزَّ ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: «قُلْ» يا محمد: «لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا» للقلم الذي يُكْتَبُ بِهِ «كَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ» ماء «الْبَحْرِ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا»، يقول: ولو مددنا البحرَ بمثل ما فيه من الماء مدداً، من قول القائل: جئتكَ مدداً لك، وذلك من معنى الزيادة. وقد ذُكِرَ عَنْ بَعْضِهِمْ: ولو جئنا بمِثْلِهِ مَدَدًا، كَانَ قَارِئُ ذَلِكَ كَذَلِكَ أَرَادَ: لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَاتُ رَبِّي، ولو زدنا بمثل ما فيه من المداد الذي يكتب به مدداً.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَنَازِعُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قُلْ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ يَا مُحَمَّدُ: إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلَكُمْ مِنْ بَنِي آدَمَ لَا عِلْمَ لِي إِلَّا مَا عَلَّمَنِي اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ يُوحِي إِلَيَّ أَنَّ مَعْبُودَكُمْ الَّذِي يَجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، مَعْبُودٌ وَاحِدٌ لَا ثَانِي لَهُ، وَلَا شَرِيكَ. «فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ»، يقول: فَمَنْ يَخَافُ رَبَّهُ يَوْمَ لِقَائِهِ، وَيَرِاقِبُهُ عَلَى مَعَاصِيهِ، وَيَرْجُو ثَوَابَهُ عَلَى طَاعَتِهِ «فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا»، يقول: فَلْيُخْلِصْ لَهُ الْعِبَادَةَ، وَلْيَفِرْ لَهُ الرِّبْوَیَّةَ.

وقوله: «وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا»، يقول: وَلَا يَجْعَلْ لَهُ شَرِيكًَا فِي عِبَادَتِهِ إِيَّاهُ، وَإِنَّمَا يَكُونُ جَاعِلًا لَهُ شَرِيكًَا بِعِبَادَتِهِ إِذَا رَأَى بِعَمَلِهِ الَّذِي ظَاهِرُهُ أَنَّهُ اللَّهُ وَهُوَ مَرِيدٌ بِهِ غَيْرُهُ.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: كَهَيْعَصَ ﴿١﴾

اختلف أهل التأويل في تأويل قوله تعالى ذِكْرُهُ: كاف من «كهيعص» فقال بعضهم: تأويل ذلك أنها حرف من اسمه الذي هو كبير، دلّ به عليه، واستغنى بذكره عن ذكر باقي الاسم.

وقال آخرون: بل الكاف من ذلك حرف من حروف اسمه الذي هو كاف.

وقال آخرون: بل هو حرف من حروف اسمه الذي هو كريم.

وقال الذين فسّروا ذلك هذا التفسير الهاء من كهيعص: حرف من حروف اسمه الذي هو هاد.

واختلفوا في تأويل الياء من ذلك، فقال بعضهم: هو حرف من حروف اسمه الذي هو يمين.

وقال آخرون: بل هو حرف من حروف اسمه الذي هو حكيم.

وقال آخرون: بل هي حرف من قول القائل: يا من يجير.

واختلف متأوّلوا ذلك كذلك في معنى العين، فقال بعضهم: هي حرف من حروف اسمه الذي هو عالم.

وقال آخرون: بل هي حرف من حروف اسمه الذي هو عزيز.

وقال آخرون: بل هي حرف من حروف اسمه الذي هو عدل.

وقال الذين تأولوا ذلك هذا التأويل: الصاد من قوله: «كهيعص»: حرف من حروف اسمه الذي هو صادق.

وقال آخرون: بل هذه الكلمة كلها اسم من أسماء الله تعالى.

وقال آخرون: كل حرف من ذلك اسم من أسماء الله عز وجل.

وقال آخرون: هذه الكلمة اسم من أسماء القرآن.

قال أبو جعفر:

والقول في ذلك عندنا نظير القول في «الم» وسائر فواتح سور القرآن التي افتتحت أوائلها بحروف المعجم، وقد ذكرنا ذلك فيما مضى قبل، فأغنى عن إعادته في هذا الموضع^(١).

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ۖ
إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ۖ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ
شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۖ

فتأويل الكلام: هذا ذكرك رحمة ربك عبده زكريا.

وقوله: «إذ نادى ربه نداء خفياً»، يقول حين دعا ربه، وسأله بنداء خفي،

يعني: وهو مستسر بدعائه ومسألته إياه ما سأل كراهته منه للرياء.

وقوله: «قال ربّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي»، يقول تعالى ذكره، فكان نداؤه

(١) انظر أول تفسير سورة البقرة.

الخفي الذي نادى به ربه أن قال: «رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي»، يعني بقوله: «وَهَنَ» ضَعُفَ وَرَقٌ مِنَ الْكِبَرِ.

وقوله: «وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا» يقول: ولم أَشَقَّ يَا رَبِّ بِدُعَائِكَ، لأنك لم تُخَيِّبْ دعائي قبل إذ كنت أدعوك في حاجتي إليك، بل كنت تجيبُ وتقضي حاجتي قبلك.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴿١٦﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ أَمَلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿١٧﴾

يقول: وإني خفت بني عمي وعصبتي من ورائي: يقول: من بعدي أن يرثوني، وقيل: عنى بقوله «مِنْ وَرَائِي» من قُدَّامي ومن بين يدي؛ وقد بَيَّنْتُ جَوَازَ ذَلِكَ فِيمَا مَضَى قَبْلُ.

وقوله: «وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا»، يقول: وكانت زوجتي لا تَلِدُ، يقال منه: رَجُلٌ عَاقِرٌ، وامرأة عاقرة بلفظ واحد.

وقوله: «فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا»، يقول: فارزقني من عندك ولداً وإراثاً ومعيناً.

وقوله: «يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ»، يقول: يرثني من بعد وفاتي مالي، ويرث من آل يعقوب النبوة، وذلك أن زكريا كان من ولد يعقوب.

وقوله: «وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا» يقول: واجعل يارب الولي الذي تهبه لي مَرْضِيًّا تَرْضَاهُ أَنْتَ ويرضاه عبادك ديناً وَخُلُقاً وَخُلُقاً. والرضي: فَعِيلٌ صَرَفَ مِنْ مَفْعُولٍ إِلَيْهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : يَزَكِّرْنا اِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ
يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ : فاستجاب له ربه ، فقال له : يا زكريا انا نبشرك بهبتنا
لك غلاماً اسمه يحيى ، لم يُسم باسمه أحد قبلاً .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : قَالَ رَبِّ اَنِّى يَكُونُ لِىْ غُلَامٌ
وَكَانَتْ اِمْرَاتِىْ عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ : قال زكريا لما بشره الله بيحى : «رب أنى يكون لى غلام»، ومن أى وجه يكون لى ذلك ، وامراتى عاقر لا تحبل ، وقد ضَعُفْتُ من
الكبر عن مباذعة النساء أبان تقوينى على ماضعفت عنه من ذلك ، وتجعل
زوجتى ولوداً ، فإنك القادر على ذلك وعلى ما تشاء ، أم بأن أنكح زوجة غير
زوجتى العاقر ، يستثبت ربُّه الخبر ، عن الوجه الذى يكون من قبله له الولد ،
الذى بشره الله به ، لا إنكاراً منه ﷺ حقيقة كون ما وعده الله من الولد ، وكيف
يكون ذلك منه إنكاراً لأن يرزقه الولد الذى بشره به ، وهو المبتدىء مسألة ربه
ذلك بقوله : «فَهَبْ لى مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا . يَرِثْنِىْ وَيرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ» بعد قوله :
«إِنِّىْ وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّىْ واشتعل الرأس شيباً» .

وقوله : «وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا» ، يقول : وقد عتوتُ من الكبر فصرتُ
نحلَّ العظامِ يابسها ، يقال منه للعود اليابس : عودُ عاتٍ وعاسٍ ، وقد عتا يعتو
عِتِيًّا وعُتُوًّا ، وعسى يعسو عِسِيًّا وعسوّاً ، وكلُّ مُتَنَاهٍ إلى غايته فى كبرٍ أو فساد ،
أو كفرٍ ، فهو عاتٍ وعاسٍ .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ

خَلَقْتِكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ
آيَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾

يقول تعالى ذكره: قال الله لزكريا مجيباً له: «قَالَ كَذَلِكَ»، يقول: هكذا الأمر كما تقول من أَنَّ امرأتك عاقرة، وأنت قد بلغت من الكبر العتي، ولكنَّ ربَّك يقول: خَلِّقْ ما بَشَّرْتُكَ به من الغلام الذي ذكرت لك أَنَّ اسمه يحيى عليَّ هَيْنَ، فهو إذن من قوله: «قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيْنَ» كناية عن الخلق.

وقوله: «وَقَدْ خَلَقْتِكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا»، يقول تعالى ذكره: وليس خَلِّقْ ما وعدتُكَ أَنَّ أَهْبَهُ لَكَ من الغلام الذي ذكرتُ لَكَ أمره منك مع كبر سنِّكَ، وعُقم زوجتِكَ بأعجب من خَلْقِكَ، فإني قد خلقتكَ، فأنشأتكَ بشراً سوياً من قبل خلقي ما بشرتك بأني واهبه لَكَ من الولد، ولم تَكُ شَيْئاً، فكذلك أَخْلَقُ لَكَ الولد الذي بشرتك به من زوجتِكَ العاقرة، مع عِتْيِكَ وَوَهْنِ عظامِكَ، واشتعالِ شَيْبِ رَأْسِكَ.

وقوله: «قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً»، يقول تعالى ذكره: قال زكريا: ياربِّ اجْعَلْ لِي علماً ودليلاً على ما بَشَّرْتَنِي به ملائكتُكَ من هذا الغلام عن أَمْرِكَ ورسالتِكَ، ليطمئنَّ إلى ذلك قلبي.

«قال» الله: «آيَتُكَ» لذلك «إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا»، يقول جلُّ ثَنَائِهِ: علامتُكَ لذلك، ودليلُكَ عليه أَنَّ لا تكلم الناسَ ثلاثَ لَيَالٍ وَأَنْتَ سَوِيٌّ صحيح، لا عِلَّةَ بَكَ من خرسٍ ولا مرضٍ يَمْنَعُكَ من الكلام.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: فخرج زكريا على قومه من مُصَلَّاهُ حين حُبَسَ لسانُهُ عن كلامِ الناس، آيَةً من الله له على حقيقة وَعْدِهِ إِيَّاهُ ما وَعَدَ.

وقوله: «فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ»، يقول: أشار إليهم، وقد تكون تلك الإشارة باليد وبالكتاب وبغير ذلك مما يُفْهَمُ به عنه ما يريد.

وقوله: «أَنْ سَبَّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا»، قد بَيَّنْتُ فيما مضى الوجوه التي ينصرف فيها التسبيح، وقد يجوز في هذا الموضع أَنْ يكون عَنَى به التسبيح الذي هو ذِكْرُ الله، فيكون أمرهم بالفراغ لذكر الله في طرفي النهار بالتسبيح، ويجوز أَنْ يكون عَنَى به الصلاة، فيكون أمرهم بالصلاة في هذين الوقتين.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَذْكُرُ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: فولد لزكريا يحيى، فلما ولد، قَالَ اللهُ لَهُ يَا يَحْيَى: خُذْ هَذَا الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ، يعني كتابَ الله الذي أنزله على موسى، وهو التوراة بقُوَّةٍ، يقول: بجِدِّ.

وقوله: «وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا»، يقول تعالى ذِكْرَهُ: وَأَعْطَيْنَاهُ الْفَهْمَ لِكِتَابِ اللهِ فِي حَالِ صَبَاهٍ قَبْلَ بُلُوغِهِ أَسْنَانَ الرِّجَالِ.

وقوله: «وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا»، يقول تعالى ذِكْرَهُ: وَرَحْمَةً مِنَّا وَمَحَبَّةً لَهُ أَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا.

وقوله: «وَزَكَاةً»، يقول تعالى ذكره: وَأَتَيْنَاهُ يَحْيَى الْحُكْمَ صَبِيًّا، وَزَكَاةً: وهو الطهارة من الذنوب، واستعمال بدنه في طاعة ربه، فالزكاة عطف على الحكم من قوله: «وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ».

وقوله: «وَكَانَ تَقِيًّا»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وكان لله خائفاً مؤدياً فرائضه، مجتنباً محارمه مسارعاً في طاعته.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وكان بَرًّا بوالديه، مسارعاً في طاعتهما ومحبتهما، غير عاقٍ بهما. «وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا»، يقول جلُّ ثناؤه: ولم يكن مستكبراً عن طاعة ربه وطاعة والديه، ولكنه كان لله ولوالديه متواضعاً متذللاً ياتمر لما أمر به، ويتنهي عما نُهي عنه، لا يَعْصِي رَبَّهُ ولا والديه.

وقوله: «سَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا»، يقول: وأمانٌ من الله يوم وُلِدَ من أن يناله الشيطان من السوء، بما ينال به بني آدم، وذلك أنه رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كُلُّ بَنِي آدَمَ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَهُ ذَنْبٌ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ يَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا»^(١).

وقوله: «وَيَوْمَ يَمُوتُ»، يقول: وأمانٌ من الله تعالى ذكره له من فتاني القبر، ومن هَوْلِ المَطْلَعِ. «وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا»، يقول: وأمانٌ له من عذابِ الله يوم القيامة، يوم الفرع الأكبر من أن يروعه شيء، أو أن يفزعه ما يفزعُ الخلق.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَأَخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمد ﷺ: واذكر يا محمد في كتاب الله الذي

أنزله عليك بالحق مريم ابنة عمران حين اعتزلت من أهلها، وانفردت عنهم، وهو افتعل من النبذ، والنبذ: الطرح.

وقوله: «مَكَانًا شَرْقِيًّا»، يقول: فَتَنَحَّتْ واعتزلت من أهلها في موضعٍ قَبْلَ مَشْرِقِ الشمسِ دُونَ مَغْرِبِهَا.

وقوله: «فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا»، يقول: فاتخذت من دُونِ أهلها سِتْرًا يسترها عنهم وعن الناس.

وقوله: «فَارْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: فَارْسَلْنَا إِلَيْهَا حين انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً واتخذت من دونهم حجاباً: جبريل.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ نَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فخافت مريم رسولنا، إذ تمثل لها بشراً سوياً، وظنته رجلاً يريد لها على نفسها، فلما رآته فزعَتْ منه وقالت: «إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ نَقِيًّا»، فقالت: إِنِّي أَعُوذُ أَيُّهَا الرَّجُلُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ، تقول: أَسْتَجِيرُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ أَنْ تَنَالَ مِنِّي مَا حَرَّمَهُ عَلَيْكَ إِنْ كُنْتُ ذَا تَقْوَى لَهُ تَتَّقِي مُحَارَمَهُ، وتجتنب معاصيه؛ لِأَنَّ مَنْ كَانَ لِلَّهِ تَقِيًّا، فَإِنَّهُ يَجْتَنِبُ ذَلِكَ. ولو وجه ذلك إلى أَنَّهَا عَنَت: إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ تَتَّقِي اللَّهَ فِي اسْتِجَارَتِي وَاسْتِعَاذَتِي بِهِ مِنْكَ كَانَ وَجْهًا.

وقوله: «قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: فقال لها روحنا: إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ يَا مَرْيَمُ أَرْسَلْنِي إِلَيْكِ: «لَأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا»، يعني: غلاماً طاهراً من الذنوب.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي
بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً
لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: قالت مريمُ لجبريلَ «أَنَّى يَكُونُ لي غُلَامٌ» من أيِّ وجهٍ
يَكُونُ لي غلامٌ؟ أَمِن قِبَلِ زَوْجٍ أَتَزَوَّجُ، فَأَرْزُقُهُ مِنْهُ، أَمْ يَبْتَدِئُ اللهُ فِي خَلْقِهِ
ابْتِدَاءً «وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ» من وَلَدِ آدَمَ بِنِكَاحٍ حَلَالٍ «وَلَمْ أَكُ» إِذْ لَمْ يَمَسِّنِي
مِنْهُمْ أَحَدٌ عَلَى وَجهِ الْحَلَالِ «بَغِيًّا» بَغِيْتُ فَفَعَلْتُ ذَلِكَ مِنَ الْوَجْهِ الْحَرَامِ،
فَحَمَلْتُهُ مِنْ زَنَا.

«قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ» يقول تعالى ذِكْرَهُ: قَالَ لَهَا جَبْرِيلُ:
هَكَذَا الْأَمْرُ كَمَا تَصِفِينَ، مِنْ أَنَّكَ لَمْ يَمَسْسِكَ بَشَرٌ وَلَمْ تَكُونِي بَغِيًّا، وَلَكِنْ رَبُّكَ
قَالَ: هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ: أَيِ خَلْقِ الْغُلَامِ الَّذِي قُلْتَ أَنْ أَهْبَهُ لَكَ عَلَيَّ هَيِّنٌ لَا
يَتَعَذَّرُ عَلَيَّ خَلْقُهُ وَهَبْتَهُ لَكَ مِنْ غَيْرِ فَحْلٍ يَفْتَحُكَ.

«وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ»، يقول: وَكَيْ نَجْعَلَ الْغُلَامَ الَّذِي نَهَبَهُ لَكَ عِلَامَةً
وَحِجَةً عَلَى خَلْقِي أَهْبَهُ لَكَ.

«وَرَحْمَةً مِنَّا»، يقول: وَرَحْمَةً مِنَّا لَكَ، وَلَمَنْ آمَنَ بِهِ وَصَدَّقَهُ أَخْلَقَهُ مِنْكَ.
«وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا»، يقول: وَكَانَ خَلْقُهُ مِنْكَ أَمْرًا قَدْ قَضَاهُ اللهُ، وَمَضَى فِي
حُكْمِهِ وَسَابِقِ عِلْمِهِ أَنَّهُ كَائِنٌ مِنْكَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا
﴿٢٢﴾ فَاجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ
نَسِيًّا مَّنْسِيًّا ﴿٢٣﴾

وفي هذا الكلام متروك ترك ذكره استغناءً بدلالة ما ذكر منه عنه . «فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا» بـغلام «فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا» .

وقوله : «فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا» ، يقول : فاعتزلت بالذي حملته ، وهو عيسى ، وَتَنَحَّتْ به عن الناس مكاناً قصياً : يقول : مكاناً نائياً قاصياً عن الناس ، يقال : هو بمكانٍ قاص ، وقصيّ بمعنى واحد .

وقوله : «فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ» ، يقول تعالى ذكره : فجاء بها المخاض إلى جذع النخلة ، ثم قيل : لما أسقطت الباء منه أجاءها ، كما يقال : أتيتك بزيد ، فإذا حذف الباء قيل آتيتك زيداً كما قال جل ثناؤه : «آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ» والمعنى : اثثوني بزبر الحديد ، ولكن الألف مُدَّتْ لما حذف الباء ، وكما قالوا : خرجت به وأخرجته ، وذهبت به وأذهبت ، وإنما هو أفعل من المجيء ، كما يقال : جاء هو ، وأجأته أنا : أي جئت به ، ومثل من أمثال العرب : «شراً ما أجأني إلى مُخَّةِ عرقوب» ، وأشاء ويقال : شراً ما يُجِيتُك ويُشِيتُك إلى ذلك .

وقوله : «يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا» ذكر أنها قالت ذلك في حال الطلق استحياءً من الناس .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِينَ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ٢٤ وَهَزَمْنَا إِلَيْكَ الْجَذْعَ النَّخْلَةَ تَسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ٢٥

اختلفت القراءة في قراءة ذلك ، فقرأته عامة قرأة الحجاز والعراق : «فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا» بمعنى : فنادها جبرائيل من بين يديها على اختلافٍ منهم في تأويله ؛ فمن متأولٍ منهم إذا قرأه «مِنْ تَحْتِهَا» كذلك ؛ ومن متأولٍ منهم أنه

عيسى ، وأنه ناداها من تحتها بعد ما وَلَدَتْهُ . وقرأ ذلك بعض قَرَأَة أهل الكوفة والبصرة «فَنَادَاهَا مَنْ تَحْتَهَا» بفتح التاءين من تحت ، بمعنى : فنادها الذي تحتها ، على أن الذي تحتها عيسى ، وأنه الذي نادى أمه .

وأولى القولين في ذلك عندنا قول مَنْ قال : الذي ناداها ابنها عيسى ، وذلك أنه من كناية ذكره أقرب منه من ذكر جبرائيل ، فردّه على الذي هو أقرب إليه أولى من ردّه على الذي هو أبعد منه . ألا ترى في سياق قوله : «فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا» ، يعني به : فحملت عيسى فانبتت به ، ثم قيل : فنادها نَسَقًا على ذلك من ذَكَرَ عيسى والخبر عنه . ولعلّه أخرى ، وهي قوله : «فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ» ، ولم تشر إليه إِنْ شاء الله إلا وقد علمت أنه ناطقٌ في حاله تلك ، وللذي كانت قد عرفت ووثقت به منه بمخاطبته إياها بقوله لها : «أَنْ لَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا» ، وما أخبر الله عنه أنه قال لها أشيري للقوم إليه ، ولو كان ذلك قولاً من جبرائيل ، لكان خليقاً أن يكون في ظاهر الخبر ، مبيناً أن عيسى سينطق ، ويحتجّ عنها للقوم ، وأمر منه لها بأن تشير إليه للقوم إذا سألوها عن حالها وحاله .

فإذا كان ذلك هو الصواب من التأويل الذي بينا ، فَبَيَّنْ أَنْ كِلْتَا القراءتين ، أعني «مِنْ تَحْتَهَا» بالكسر ، و«مَنْ تَحْتَهَا» بالفتح صواب . وذلك أنه إذا قرئ بالكسر كان في قوله : «فَنَادَاهَا» ذكر من عيسى . وإذا قرئ «مَنْ تَحْتَهَا» بالفتح كان الفعل لمن وهو عيسى . فتأويل الكلام إذن : فنادها المولود من تحتها أن لا تحزني يا أمه : «قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا» .

واختلف أهل التأويل في المعنى بالسري في هذا الموضع ، فقال بعضهم : عني به : النهر الصغير .

وقال آخرون : عني به عيسى .

وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب قيل من قال: عَنَى به الجدول، وذلك أنه أعلمها ما قد أعطاها الله من الماء الذي جعله عندها، وقال لها: «وَهْزِي إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا فَكُلِي» من هذا الرطب «وَأَشْرَبِي» من هذا الماء «وَقَرِّي عَيْنًا» بولدك، والسريُّ معروفٌ من كلام العرب أنه النهر الصغير.

وقوله: «وَهْزِي إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ» ذكر أن الجذع كان جذعاً يابساً، وأمرها أن تهزّه، وذلك في أيام الشتاء، وهزه إياه كان تحريكه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَكُلِي وَأَشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٢٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فَكُلِي من الرطب الذي يتساقط عليك، واشربي من ماء السري الذي جعله ربك تحتك ولا تخشي جوعاً ولا عطشاً. «وَقَرِّي عَيْنًا»، يقول: وطيب نفسي وافرحي بولدتك إياي ولا تحزني.

وقوله: «فَإِمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا»، يقول: فَإِنْ رَأَيْتَ من بني آدم أحداً يكلمك أو يسألك عن شيء من أمرك وأمر ولدك وسبب ولادتك «فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا»، يقول: فَقُولِي: إِنِّي أَوْجَبْتُ عَلَى نَفْسِي لَهِ صَمْتاً أَلَّا أُكَلِّمَ أَحَدًا من بني آدم اليوم. «فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا».

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ، قَالُوا يَمْرَأَتُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا ﴿٢٧﴾

مريم : ٢٧ - ٢٩

يقول تعالى ذِكْرَهُ : فلما قَالَ ذَلِكَ عِيسَى لَأُمِّهِ أَطْمَأْنَنْتِ نَفْسُهَا ، وَسَلَّمَتْ لِأَمْرِ اللَّهِ ، وَحَمَلْتَهُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا .

وقوله : «قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا» ، يقول تعالى ذِكْرَهُ : فلما رَأَوْا مَرْيَمَ ، وَرَأَوْا مَعَهَا الْوَلَدَ الَّذِي وَلَدَتْهُ ، قَالُوا لَهَا : يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ بِأَمْرٍ عَجِيبٍ ، وَأَحْدَثْتَ حَدَثًا عَظِيمًا ، وَكُلَّ عَامِلٍ عَمَلًا أَجَادَهُ وَأَحْسَنَهُ فَقَدْ فَرَأَهُ .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : يَتَّخِذَ هَارُونُ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾

اختلف أهل التأويل في السبب الذي من أجله قيلَ لها : يا أُخْتُ هَارُونُ ، وَمَنْ كَانَ هَارُونُ هَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ ، وَأُخْبِرَ أَنَّهُمْ نَسَبُوا مَرْيَمَ إِلَى أَنَّهَا أُخْتُهُ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : قِيلَ لَهَا : «يَا أُخْتُ هَارُونُ» نسبةً مِنْهُمْ لَهَا إِلَى الصَّلَاحِ ، لِأَنَّ أَهْلَ الصَّلَاحِ فِيهِمْ كَانُوا يَسْمُونَ هَارُونُ ، وَلَيْسَ بِهَارُونِ أَخِي مُوسَى .

وقال بعضهم : عُنِيَ بِهِ هَارُونُ أَخُو مُوسَى ، وَنُسِبَتْ مَرْيَمُ إِلَى أَنَّهَا أُخْتُهُ لِأَنَّهَا مِنْ وَلَدِهِ ، يُقَالُ لِلتَّمِيمِيِّ : يَا أَخَا تَمِيمٍ ، وَلِلْمُضَرِّيِّ : يَا أَخَا مُضَرَ .

والصوابُ من القول في ذلك ما جاء به الخبرُ عن رسولِ اللَّهِ ﷺ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ ، وَأَنَّهَا نُسِبَتْ إِلَى رَجُلٍ مِنْ قَوْمِهَا .

وقوله : «مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوِيًّا» ، يقول : مَا كَانَ أَبُوكَ رَجُلًا سَوِيًّا يَأْتِي الْفَوَاحِشَ . «وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا» ، يقول : وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ زَانِيَةً .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْعِدَافِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾

يقول تعالى ذكره: فلما قال قومها ذلك لها قالت لهم ما أمرها عيسى بقبيله لهم، ثم أشارت لهم إلى عيسى أن كلّموه.

وقوله: «قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا»، يقول تعالى ذكره، قال قومها لها: كيف نُكَلِّمُ مَنْ وُجِدَ فِي الْمَهْدِ؟ وكان في قوله: «مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا» معناها التمام، لا التي تقتضي الخبر، وذلك شبيه المعنى بكان التي في قوله: «هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا»، وإنما معنى ذلك: هل أنا إلا بشرٌ رسول؟ وهل وجدت أو بعثت وقيل: إنه عنى بالمهد في هذا الموضع: حجر أمه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ؕ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۖ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالْصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾

يقول تعالى ذكره: فلما قال قوم مريم لها: «كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا»، وظنوا أن ذلك منها استهزاء بهم، قال عيسى لهم متكلماً عن أمه: «إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ» وكانوا حين أشارت لهم إلى عيسى فيما ذكر عنهم غَضِبُوا.

وقوله: «وَجَعَلَنِي نَبِيًّا»، وقد بَيَّنَّتْ معنى النبيِّ واختلاف المختلفين فيه، والصحيح من القول فيه عندنا فيما مضى بما أغنى عن إعادته.

وقوله: «وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا»، اختلف أهل التأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم: معناه: وجعلني نفاعاً.

وقال آخرون: كانت بركته الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقال آخرون: معنى ذلك: جعلني مُعَلِّمَ الخيرِ.

وقوله: «وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ»، يقول: وقضى أن يوصيني بالصلاة والزكاة، يعني المحافظة على حدود الصلاة وإقامتها على ما فرضها عليّ. وفي الزكاة معنيان: أحدهما: زكاة الأموال أن يؤدّيها. والآخر: تطهير الجسد من دنس الذنوب؛ فيكون معناه: وأوصاني بترك الذنوب واجتناب المعاصي.

وقوله: «مَادُمْتُ حَيًّا»، يقول: ما كنتُ حيًّا في الدنيا موجوداً، وهذا يبين عن أن معنى الزكاة في هذا الموضع: تطهير البدن من الذنوب، لأن الذي يوصف به عيسى صلوات الله وسلامه عليه أنه كان لا يدخر شيئاً لغد، فتجب عليه زكاة المال، إلا أن تكون الزكاة التي كانت فرضت عليه الصدقة بكل ما فضل عن قوته، فيكون ذلك وجهاً صحيحاً.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا

﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾

يقول تعالى ذكره: مخبراً عن قيل عيسى للقوم: وجعلني مباركاً وبرّاً: أي جعلني برّاً بوالدي. والبرُّ هو البارُّ، يقال: هو برٌّ بوالده، وبارٌّ به.

وقوله: «وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا»، يقول: ولم يجعلني مستكبراً على الله فيما أمرني به، ونهاني عنه شقيّاً، ولكن ذلّلني لطاعته، وجعلني متواضعاً.

وقوله: «وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا»، يقول: والأمنّة من الله عليّ من الشيطان وجنّده يوم وُلِدْتُ أن ينالوا مني ما ينالون ممن يولد عند الولادة من الطعن فيه، ويوم أَمُوتُ من هول المطلق، ويوم أُبْعَثُ حَيًّا يوم القيامة أن ينالني الفرع الذي ينال الناس بمعاينتهم أهوال ذلك اليوم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾

يقول تعالى ذكره: هذا الذي بَيَّنْتُ لَكُمْ صِفَتَهُ، وأخبرتكم خبره من أمر الغلام الذي حملته مريم، هو عيسى ابن مريم، وهذه الصفة صِفَتُهُ، وهذا الخبر خبره، وهو «قَوْلُ الْحَقِّ» يعني أَنَّ هذا الخبر الذي قَصَصْتُهُ عَلَيْكُمْ قَوْلَ الْحَقِّ^(١)، والكلام الذي تلوته عليكم قول الله وخبره، لا خبر غيره الذي يَقَعُ فِيهِ الْوَهْمُ وَالشُّكُّ وَالزِّيَادَةُ وَالنَّقْصَانُ عَلَى مَا كَانَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى ذَكَرَهُ: فَقُولُوا فِي عِيسَى أَيُّهَا النَّاسُ، هذا القول الذي أَخْبَرَكُمْ اللَّهُ بِهِ عَنْهُ لَا مَا قَالَتْهُ الْيَهُودُ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُ لَغَيْرِ رِشْدَةٍ، وَأَنَّهُ كَانَ سَاحِرًا كَذَّابًا، وَلَا مَا قَالَتْهُ النَّصَارَى، مِنْ أَنَّهُ كَانَ لِلَّهِ وَلَدًا، وَأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا، وَلَا يَنْبَغِي ذَلِكَ لَهُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾

يقول تعالى ذكره: لقد كفر الذين قالوا: إِنَّ عِيسَى ابْنَ اللَّهِ، وَأَعْظَمُوا الْفِرْيَةَ عَلَيْهِ، فَمَا يَنْبَغِي لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا، وَلَا يَصْلَحَ ذَلِكَ لَهُ وَلَا يَكُونَ، بَلْ كُلُّ شَيْءٍ دُونَهُ فَخَلَقَهُ.

وقوله: «سُبْحَانَهُ» يقول: تَنْزِيهًا لِلَّهِ وَتَبَرُّتًا لَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ مَا أَضَافَ إِلَيْهِ الْكَافِرُونَ الْقَائِلُونَ: عِيسَى ابْنُ اللَّهِ.

(١) إنما قال المؤلف ذلك لأن القراءة التي اختارها: «قَوْلُ الْحَقِّ» بالرفع، وهو مرفوع عنده بمضمر، وهو: هذا قَوْلُ الْحَقِّ، على الابتداء.

وقوله: «إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ»، يقول جل ثناؤه: إنما ابتداء الله خَلَقَ عيسى ابتداءً، وأنشأه إنشاءً، من غير فعلٍ افتحلَ أمَّهُ، ولكنه قال له: «كُنْ فَيَكُونُ»، لأنه كذلك يبتدعُ الأشياءَ ويخترعها، إنما يقول: إذا قضى خَلَقَ شيءٍ أو إنشاءً: كُنْ فيكونُ موجوداً حادثاً، لا يَعْظُمُ عليه خَلْقُهُ، لأنه لا يخلقه بمعاناةٍ وكلفةٍ، ولا ينشئه بمعالجةٍ وشدةٍ.

وقوله: «وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ»، يقول: وإني وأنتم أيها القومُ جميعاً لله عبيدٌ، فإياه فاعبدوا دونَ غيره.

وقوله: «هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ»، يقول: هذا الذي أوصيتُكم به، وأخبرتكم أن الله أمرني به هو الطريقُ المستقيم، الذي مَنْ سلكه نجا، وَمَنْ ركبهُ اهتدى، لأنه دينُ الله الذي أمرَ به أنبياءه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فاختلف المختلفون في عيسى، فصاروا أحزاباً متفرقين من بين قومه.

وقوله: «فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ»، يقول: فوادي جهنم الذي يُدْعَى ويلاً للذين كفروا بالله، من الزاعمين أن عيسى لله ولدٌ، وغيرهم من أهل الكفر به من شهودهم يوماً عظيماً شأنه، وذلك يوم القيامة.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ مخبراً عن حال الكافرين به، الجاعلين له أنداداً، والزاعمين أن له ولداً يومَ وُرُودِهِم عليه في الآخرة، لئن كانوا في الدنيا عمياً عن إِبصارِ الحقِّ، والنظرِ إلى حججِ الله التي تدلُّ على وحدانيته صُماً عن سماعِ أيِّ كتابه، وما دعوتهم إليه رسلُ الله فيها من الإقرارِ بتوحيده، وما بعث به أنبياءه، فما أَسْمَعَهُمْ يومَ قدومهم على رَبِّهم في الآخرة، وأَبْصَرَهُمْ يومئذٍ حين لا ينفعهمُ الإِبصارُ والسماعُ.

وقوله: «لَكِنَّ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ» يقول تعالى ذِكْرُهُ: لكن الكافرون الذين أضافوا إليه ما ليس من صفته، وافتروا عليه الكذب اليوم في الدنيا في ضلالٍ مبين: يقول: في ذهابٍ عن سبيلِ الحقِّ، وأخذٍ على غيرِ استقامة، مبين أنه جائر عن طريقِ الرشِدِ والهدى لمن تأمله وفكَّر فيه فهدي لرشده.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبیه محمد ﷺ: وَأَنْذِرْ يا محمد هؤلاء المشركين بالله يوم حسرتهم وندمهم، على ما فرطوا في جنبِ الله، وأورثت مساكنهم من الجنة أهلَ الإيمانِ بالله والطاعةِ له، وأدخلوا هم مساكن أهل الإيمان بالله من النار^(١)،

(١) هذا التأويل مستند الى رواية عن عبدالله بن مسعود في قصة ذكرها يقول: ما من نفس إلا وهي تنظر إلى بيت في الجنة وبيت في النار، وهو يوم الحسرة، فيرى أهل النار البيت الذي كان قد أعدّه الله لهم لو آمنوا، فيقال لهم: لو آمنتم وعملتُم صالحاً كان لكم هذا الذي ترونه في الجنة، فتأخذهم الحسرة، ويرى أهل الجنة البيت الذي في النار، فيقال: لولا أن منَّ الله عليكم.

وَأَيُّقِنِ الْفَرِيقَانِ بِالْخُلُودِ الدَّائِمِ ، وَالْحَيَاةِ الَّتِي لَا مَوْتَ بَعْدَهَا ، فَيَالِهَا حَسْرَةً وَنَدَامَةً .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا

يَرْجِعُونَ ﴿٤٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ : لَا يَحْزُنُكَ تَكْذِيبُ هَؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ لَكَ يَا مُحَمَّدُ فِيمَا أُتَيْتَهُمْ بِهِ مِنَ الْحَقِّ ، فَإِنَّ إِلَيْنَا مَرْجِعَهُمْ وَمَصِيرَهُمْ وَمَصِيرَ جَمِيعِ الْخَلْقِ غَيْرِهِمْ ، وَنَحْنُ وَارِثُو الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا مِنَ النَّاسِ بِفَنَائِهِمْ مِنْهَا ، وَبِقَائِهَا لَا مَالِكَ لَهَا غَيْرِنَا ، ثُمَّ عَلَيْنَا جَزَاءُ كُلِّ عَامِلٍ مِنْهُمْ بِعَمَلِهِ ، عِنْدَ مَرْجِعِهِ إِلَيْنَا ، الْمَحْسَنُ مِنْهُمْ بِإِحْسَانِهِ ، وَالْمُسِيءُ بِإِسَاءَتِهِ .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا

نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَابَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ : «وَاذْكُرْ» يَا مُحَمَّدُ فِي كِتَابِ اللَّهِ «إِبْرَاهِيمَ» خَلِيلَ الرَّحْمَنِ ، فَاقْصُصْ عَلَى هَؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ قِصَصَهُ وَقِصَصَ أَبِيهِ . «إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا» ، يَقُولُ : كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّدْقِ فِي حَدِيثِهِ وَأَخْبَارِهِ وَمَوَاعِيدِهِ لَا يَكْذِبُ . «نَبِيًّا» ، يَقُولُ : كَانَ اللَّهُ قَدْ نَبَّأَهُ وَأَوْحَى إِلَيْهِ .

وقوله : «إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ» ، يَقُولُ : اذْكُرْهُ حِينَ قَالَ لِأَبِيهِ : «يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ» ، يَقُولُ : مَا تَصْنَعُ بِعِبَادَةِ الْوَتَنِ الَّذِي لَا يَسْمَعُ «وَلَا يُبْصِرُ» شَيْئًا «وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا» ، يَقُولُ : وَلَا يَدْفَعُ عَنْكَ ضَرًّا شَيْئًا ، إِنَّمَا هُوَ صُورَةٌ مَصُورَةٌ لَا

تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ. يقول: ما تصنعُ بعبادةِ ماهذه صِفَتُهُ، اعبُدِ الذي إذا دَعَوْتُهُ سَمِعَ دعاءَكَ، وإذا أَحِيطَ بِكَ أَبْصَرَكَ فَنَصَرَكَ، وإذا نَزَلَ بِكَ ضُرٌّ دَفَعَ عَنْكَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَتَأَبَّتْ إِنْ قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال إبراهيمُ لأبيه: يا أَبَتِ إني قد آتاني اللهُ مِنَ الْعِلْمِ ما لم يَأْتِكَ فاتَّبِعْنِي: يقول: فاقبلْ مِنِّي نصيحتي. «أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا»، يقول: أَبْصَرَكَ هدى الطريقِ المستوي الذي لا تضلُّ فيه إِنْ لَزِمْتَهُ، وهو دينُ الله الذي لا اعوجاجَ فيه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَتَأَبَّتْ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: يا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلَّهِ عَاصِيًّا، والعصِيُّ هو ذُو العصيان.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَتَأَبَّتْ إِنْ أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾

يقول: يا أَبَتِ إني أعلمُ أَنَّكَ إِنْ مِتُّ على عبادةِ الشَّيْطَانِ أَنَّهُ يَمَسُّكَ عَذَابٌ مِنَ عَذَابِ اللَّهِ «فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا»، يقول: تكونُ لَهُ وَلِيًّا دُونَ اللَّهِ، ويتبرأ اللهُ مِنْكَ، فتَهْلِكُ، والخوفُ في هذا الموضعِ بمعنى العلم، كما الخَشْيَةُ بمعنى العلم، في قوله: «فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا».

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنِ الْهَيْتِ
يَتَابِرْهِيمُ لَنْ لَمْ تَنْتَه لَأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾

يقول تعالى ذكره: «قال» أبو إبراهيم لإبراهيم حين دعاه إبراهيم إلى عبادة الله وترك عبادة الشيطان، والبراءة من الأوثان والأصنام «أَرَأَيْتَ أَنْتَ» يا إبراهيم «عن» عبادة «آلهتي - لَنْ» أَنْتَ «لَمْ تَنْتَه» عن ذكركها بسوءٍ «لَأَرْجُمَنَّكَ»، يقول: لأَرْجُمَنَّكَ بالكلام وذلك السب، والقول القبيح.

وأما قوله: «وَأَهْجُرْنِي مَلِيًّا»، فَإِنَّ أَهْلَ التَّأْوِيلِ اخْتَلَفُوا فِي تَأْوِيلِهِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَى ذَلِكَ: وَأَهْجُرْنِي حِينَ طَوِيلًا وَدَهْرًا. وَوَجَّهُوا مَعْنَى الْمَلِيٍّ إِلَى الْمَلَاوَةِ مِنَ الزَّمَانِ، وَهُوَ الطَّوِيلُ مِنْهُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي
إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾

يقول تعالى ذكره: قال إبراهيم لأبيه حين تَوَعَّدَهُ عَلَى نَصِيحَتِهِ إِيَّاهُ وَدَعَاةِهِ إِلَى اللَّهِ بِالْقَوْلِ السَّيِّئِ وَالْعُقُوبَةِ: سَلَامٌ عَلَيْكَ يَا أَبَتِ، يقول: أَمْنَةٌ مِنِّي لَكَ أَنْ أَعَاوِدَكَ فِيمَا كَرِهْتَ، وَلِدَعَائِكَ إِلَيَّ مَا تَوَعَّدْتَنِي عَلَيْهِ بِالْعُقُوبَةِ، وَلَكِنِّي «سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي»، يقول: وَلَكِنِّي سَأَسْأَلُ رَبِّي أَنْ يَسْتَرَّ عَلَيْكَ ذُنُوبَكَ بِعَفْوِهِ إِيَّاكَ عَنْ عِقَابِكَ عَلَيْهَا. «إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا»، يقول: إِنَّ رَبِّي عَهِدْتُهُ بِي لَطِيفًا يَجِيبُ دَعَائِي إِذَا دَعَوْتُهُ.

وقوله: «وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ»، يقول: وَأَجْتَنِبُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنَ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ «وَأَدْعُوا رَبِّي»، يقول: وَأَدْعُوا رَبِّي بِإِخْلَاصٍ

العبادة له، وإفراجه بالربوبية «عَسَى أَنْ لَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا»، يقول: عسى أن لا أشقى بدعاء ربي، ولكن يجب دعائي ويعطيني ما أسأله.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَلَمَّا اعْتَرَاهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾

يقول تعالى ذكره: فلما اعتزل إبراهيم قومه وعبادة ما كانوا يعبدون من دون الله من الأوثان أنسنا وحشته من فراقهم، وأبدلناه منهم بمن هو خير منهم وأكرم على الله منهم، فوهبنا له ابنه إسحاق، وابن ابنه يعقوب بن إسحاق. «وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا» يقول: وجعلناهم كلهم، يعني بالكل إبراهيم وإسحاق ويعقوب أنبياء، وقال تعالى ذكره: «وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا» فَوَحَّدَ ولم يقل أنبياء لتوحيد لفظ كل. «وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا»، يقول جل ثناؤه: ورزقنا جميعهم، يعني إبراهيم وإسحاق ويعقوب من رحمتنا، وكان الذي وهب لهم من رحمته، ما بسط لهم في عاجل الدنيا من سعة رزقه، وأغناهم بفضله.

وقوله: «وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا»، يقول تعالى ذكره: ورزقناهم الشئاء الحسن، والذكر الجميل من الناس.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥١﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ: وادكر يا محمد في كتابنا الذي أنزلناه إليك موسى بن عمران واقصص على قومك أنه كان مخلصاً.

«وَكَانَ رَسُولًا»، يقول: وكان لله رسولاً إلى قومه بني إسرائيل، ومن أرسله إليه نبياً.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ۖ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٢﴾

يقول تعالى ذكره: وناديناه موسى من ناحية الجبل، ويعني بالأيمن: يمين موسى، لأنَّ الجبل لا يمين له ولا شمال، وإنما ذلك كما يقال: قامَ عن يمين القبلة وعن شمالها.

وقوله: «وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا»، يقول تعالى ذكره: وأدنيناه مناجياً، كما يقال: فلانٌ نديمٌ فلان ومناذمُهُ وجليسٌ فلان ومجالسه، وذكر أنَّ الله جلَّ ثناؤه أدناه حتى سمعَ صريخَ القلم.

وقوله: «وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ»، يقول: ووهبنا لموسى رحمةً منا أخاه هارون «نبيًّا»، يقول: أئدناه بنبوته، وأعناهُ بها.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٣﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وادكرُ يا محمدُ في هذا الكتاب إسماعيلَ بنَ إبراهيم، فاقصص خبره إنه كان لا يكذبُ وعده ولا يخلف، ولكنه كان إذا وعدَ ربه، أو عبداً من عباده وعداً وفَّى به.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ

عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِـ» إقامة «الصَّلَاةِ وَ» إيتاء «الزَّكَاةِ»
وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا» عَمَلُهُ، محموداً فيما كَلَّفَهُ رَبُّهُ غَيْرَ مَقْصِرٍ فِي طَاعَتِهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ» إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا

﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وَأَذْكُرُ يَا مُحَمَّدُ فِي كِتَابِنَا هَذَا إِدْرِيسَ» «إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا»
لَا يَقُولُ الْكَذِبَ، «نَبِيًّا» نُوحِي إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِنَا مَا نَشَاءُ «وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا» ذَكَرَ
أَنَّ اللَّهَ رَفَعَهُ وَهُوَ حَيٌّ إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ، فَذَلِكَ مَعْنَى قَوْلِهِ: «وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا
عَلِيًّا» يَعْنِي بِهِ إِلَى مَكَانٍ ذِي عُلُوٍّ وَارْتِفَاعٍ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: «أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ

مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا

وَأَجْنِبْنَاهُمْ إِذَا نَتَلَى عَلَيْهِمْ ءَايَتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾ ﴿٥٩﴾ ﴿٦٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ: «هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اقْتَصَصْتُ عَلَيْكَ أَنْبَاءَهُمْ فِي
هَذِهِ السُّورَةِ يَا مُحَمَّدُ، الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِتَوْفِيقِهِ، فَهَدَاهُمْ لَطَرِيقِ الرُّشْدِ مِنْ
الْأَنْبِيَاءِ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ، وَمِنْ ذُرِّيَةِ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ فِي الْفُلِّ، وَمِنْ ذُرِّيَةِ
إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ، وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِسْرَءِيلَ، وَمِمَّنْ هَدَيْنَا لِلْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْعَمَلِ
بِطَاعَتِهِ وَاجْتِنَابِهَا: يَقُولُ: وَمِمَّنْ اصْطَفَيْنَا وَاخْتَرْنَا لِرِسَالَتِنَا وَوَحْيِنَا، فَالَّذِي عَنَى بِهِ
مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ إِدْرِيسَ، وَالَّذِي عَنَى بِهِ مِنْ ذُرِّيَةِ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِبْرَاهِيمَ،

والذي عنى به من ذرية إبراهيم إسحاق ويعقوب وإسماعيل ، والذي عنى به من ذرية إسرائيل : موسى وهارون وزكريا وعيسى وأمه مريم ، ولذلك فرق تعالى ذكره أنسابهم وإن كان يجمع جميعهم آدم لأن فيهم من ليس من ولد من كان مع نوح في السفينة ، وهو إدريس ، وإدريس جد نوح .

وقوله تعالى ذكره : «إِذَا تَتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ» ، يقول : إذا تلتلى على هؤلاء الذين أنعم الله عليهم من النبيين أدلة الله وحججه التي أنزلها عليهم في كتبه ، خروا لله سجداً ، استكانة له وتذلاً وخضوعاً لأمره وانقياداً ، «وَبُكِيّاً» ، يقول : خروا سجداً وهم باكون ، والبكي : جمع بك .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : **خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيَاً** ﴿٥٩﴾

يقول تعالى ذكره : فحدث من بعد هؤلاء الذين ذكرت من الأنبياء الذين أنعمت عليهم ، ووصفت صفتهم في هذه السورة ، خلف سوء خلفهم في الأرض أضاعوا الصلاة .

ثم اختلف أهل التأويل في صفة إضاعتهم الصلاة ، فقال بعضهم : كانت إضاعتهموها تأخيرهم إياها عن مواقيتها ، وتضييعهم أوقاتها .

وقال آخرون : بل كانت إضاعتهموها : تركها .

وأولى التأويلين في ذلك عندي بتأويل الآية ، قول من قال : إضاعتهموها تركهم إياها لدلالة قول الله تعالى ذكره بعده على أن ذلك كذلك ، وذلك قوله جل ثناؤه : «إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً» فلو كان الذين وصفهم بأنهم ضيعوها مؤمنين لم يستثن منهم من آمن ، وهم مؤمنون ولكنهم كانوا كفاراً لا يصلون لله ، ولا يؤدّون له فريضة ، فسقة قد أثروا شهوات أنفسهم على طاعة

الله ، وقد قيل : إِنَّ الَّذِينَ وَصَفَهُمُ اللَّهُ بِهَذِهِ الصِّفَةِ قَوْمٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَكُونُونَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ .

وأما قوله : «فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا» ، فإنه يعني أَنَّ هؤلاء الخلفَ الذين خلفوا بعد أولئك الذين أنعمَ اللهُ عليهم من النبيين سيدخلون غيًّا ، وهم اسمٌ وإِدٍ من أودية جهنم ، أو اسمٌ بئرٍ من آبارها .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : **إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا** ﴿٦١﴾

يقول تعالى ذكره : فسوف يلقى هؤلاء الخلفُ السوءُ الذين وَصَفَ صفتهم غيًّا ، إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا فراجعوا أمرَ الله ، والإيمانَ به وبرسوله . «وَعَمِلَ صَالِحًا» ، يقول : وأطاعَ الله فيما أمره ونهاه عنه ، وأدى فرائضه ، واجتنب محارمه «فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ» ، يقول : فَإِنَّ أولئك منهم خاصةً يدخلون الجنةَ دونَ مَنْ هلكَ منهم على كفره ، وإضاعته الصلاةَ واتباعه الشهوات .

وقوله : «وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا» ، يقول : وَلَا يُيَخْسُونَ مِنْ جَزَاءِ أَعْمَالِهِمْ شَيْئًا ، وَلَا يَجْمَعُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ هَلَكُوا مِنَ الْخَلْفِ السَّوِّءِ مِنْهُمْ قَبْلَ تَوْبَتِهِمْ مِنْ ضَلَالِهِمْ ، وَقَبْلَ إِنْابَتِهِمْ إِلَى طَاعَةِ رَبِّهِمْ فِي جَهَنَّمَ ، وَلَكِنْهُمْ يَدْخُلُونَ مَدْخَلَ أَهْلِ الْإِيمَانِ .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : **جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا** ﴿٦٢﴾

يقول تعالى ذكره : فأولئك يدخلون الجنةَ «جَنَّاتٍ عَدْنٍ» .

وقوله : «جَنَّاتٍ عَدْنٍ» نصب ترجمة عن الجنة . ويعني بقوله : «جَنَّاتٍ

عَدْنِ: بساتين إقامة.

وقوله: «التي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ»، يقول: هذه الجنات هي الجنات التي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَدْخُلُوهَا بِالْغَيْبِ، لأنهم لم يَرَوْهَا ولم يعاينوها، فهي غيبٌ لهم.

وقوله: «إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا»، يقول تعالى ذكره: إِنَّ اللَّهَ كَانَ وَعْدُهُ، وَوَعْدُهُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ مَوْعُودُهُ، وهو الجنة مأتياً يأتيه أولياؤه وأهل طاعته الذين يُدْخِلُهُمُوهَا اللَّهُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ

فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾

يقول تعالى ذكره: لا يسمع هؤلاء الذين يدخلون الجنة فيها لغواً، وهو الهذلي والباطل من القول والكلام «إِلَّا سَلَامًا» وهذا من الاستثناء المنقطع، ومعناه: ولكن يسمعون سلاماً، وهو تحية الملائكة إياهم.

وقوله: «وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا»، يقول: ولهم طعامهم وما يستهون من المطاعم والمشارب في قدر وقت البكرة ووقت العشي من نهار أيام الدنيا، وإنما يعني أَنَّ الذي بين غدائهم وعشائهم في الجنة قدر ما بين غداء أحدنا في الدنيا وعشائه، وكذلك ما بين العشاء والغداء وذلك لأنه لا ليل في الجنة ولا نهار، وذلك كقوله: «خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ»، يعني به: من أيام الدنيا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَلَكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ

تَقِيًّا ﴿٦٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: هذه الجنة التي وصفت لكم أيها الناس صِفَتَهَا، هي الجنة التي نورثها، يقول: نورث مساكن أهل النار فيها «مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا»، يقول: مَنْ كَانَ ذا اتقاء عذابِ الله بأداءِ فرائضِهِ، واجتنابِ معاصيهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا نُنَزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾

ذكر أن هذه الآية نزلت من أجل استبطاء رسول الله ﷺ جبرائيل بالوحي.

ثم اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: «لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ»، فقال بعضهم: يعني بقوله: «ما بين أَيْدِينَا» من الدنيا، وبقوله: «وَمَا خَلْفَنَا» الآخرة «وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ» النفختين.

وقال آخرون: «ما بين أَيْدِينَا» الآخرة «وَمَا خَلْفَنَا» الدنيا «وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ» ما بين الدنيا والآخرة.

وقال آخرون: «ما بين أَيْدِينَا» ما مضى أمامنا من الدنيا «وَمَا خَلْفَنَا» ما يكون بعدنا من الدنيا والآخرة «وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ» قال: ما بين ما مَضَى أمامهم، وبين ما يكون بعدهم.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول مَنْ قَالَ: معناه: له ما بين أَيْدِينَا من أمر الآخرة، لأنَّ ذلك لم يَجِئْ وهو جاء، فهو بين أَيْدِيهِمْ، فَإِنَّ الْأَغْلَبَ فِي اسْتِعْمَالِ النَّاسِ إِذَا قَالُوا هَذَا الْأَمْرُ بَيْنَ يَدَيْكَ، أَنَّهُمْ يَعْنُونَ بِهِ مَا لَمْ يَجِئْ وَأَنَّهُ جَاءَ، فَلِذَلِكَ قُلْنَا: ذلك أولى بالصواب: وما خَلْفَنَا من أمر الدنيا، وذلك ما قد خلفوه فمضى، فصار خلفهم بتخليفهم إياه، وكذلك تقول العربُ لما قد

جاوزه المرء وخلفه هو خلفه، ووراءه وما بين ذلك : ما بين مالم يمضٍ من أمر الدنيا إلى الآخرة، لأنَّ ذلك هو الذي بين ذينك الوقتين .

وإنما قلنا: ذلك أولى التأويلات به، لأنَّ ذلك هو الظاهر الأغلب، وإنما يُحْمَلُ تأويل القرآن على الأغلب معانيه، مالم يمنع من ذلك ما يجب التسليم له . فتأويل الكلام إذن : فلا تَسْتَبِطُنَا يا محمدُ في تَخْلُفِنَا عَنْكَ، فإنَّا لا نَنْتَزِلُ من السماء إلى الأرض إلا بأمر ربك لنا بالنزول إليها، لله ما هو حادثٌ من أمور الآخرة التي لم تأتِ وهي آتيةٌ، وما قد مضى فخلفناه من أمر الدنيا، وما بين وقتنا هذا إلى قيام الساعة، بيده ذلك كُلُّه، وهو مالكُه ومصرفُه، لا يملك ذلك غيره، فليس لنا أن نحدث في سلطانه أمراً إلا بأمره إيانا به .

«وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا»، يقول: ولم يكن ربُّكَ ذا نسيانٍ، فيتأخر نزولي إليك بنسيانه إياك بل هو الذي لا يعزُبُ عنه شيءٌ في السماء ولا في الأرض تبارك وتعالى، ولكنه أعلم بما يُدَبَّرُ ويقضي في خلقه . جل ثناؤه .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ

وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ يَا مُحَمَّدُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا نَسِيًّا، لأنه لو كان نسياً لم يستقم ذلك، ولهلك لولا حفظه إياه .

وقوله: «فَاعْبُدْهُ»، يقول: فالزِمْ طَاعَتَهُ، وَذَلِّ لِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ: «وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ»، يقول: واصْبِرْ نَفْسَكَ عَلَى النُّفُوزِ لِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَالْعَمَلِ بِطَاعَتِهِ، تَقَرُّ بِرِضَا عَنْكَ، فَإِنَّهُ الْإِلَهُ الَّذِي لَا مِثْلَ لَهُ وَلَا عَدْلَ وَلَا شَبِيهَ فِي جُودِهِ وَكِرَمِهِ وَفَضْلِهِ . «هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا»، يقول: هل تعلم يا محمدُ لربك هذا الذي أمرناكَ

بعبادته، والصبر على طاعته مثلاً في كرمه وجوده، فتعبده رجاءً فضله وطوله دونه
كلًا، ما ذلك بموجود.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَذَامِمْتُ لَسَوْفَ أَخْرَجُ
حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾

يقول تعالى ذكره: «ويقول الإنسان» الكافر الذي لا يصدق بالبعث بعد
الموت أخرج حياً، فأبعث بعد الممات وبعد البلاء والفناء إنكاراً منه ذلك،
يقول الله تعالى ذكره: «أولا يذكر الإنسان» المتعجب من ذلك المنكر قدرة
الله على إحيائه بعد فناءه، وإيجاده بعد عدمه في خلق نفسه، أن الله خلقه
من قبل مماته، فأنشأه بشراً سوياً من غير شيء «ولم يك» من قبل إنشائه إياه
«شيئاً» فيعتبر بذلك ويعلم أن من أنشأه من غير شيء لا يعجز عن إحيائه بعد
مماته، وإيجاده بعد فناءه.

وقد اختلفت القراءة في قراءة قوله: «أولا يذكر الإنسان» فقرأه بعض قراءة
المدينة والكوفة: «أولا يذكر» بتخفيف الذال، وقد قرأ ذلك عامة قراءة الكوفة
والبصرة والحجاز «أولا يذكر» بتشديد الذال والكاف، بمعنى: أولا يتذكر،
والتشديد أعجب إليّ، وإن كانت الأخرى جائزة، لأن معنى ذلك: أولا يتفكر
فيعتبر.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ
لَنَحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًا ﴿٦٨﴾

يقول تعالى ذكره لنبه محمد ﷺ: فَوَرَبِّكَ يا محمد لنحشرن هؤلاء

القائلین : ائِذَا مِتْنَا لَسَوْفَ نُخْرَجُ أَحْيَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ قُبُورِهِمْ ، مَقْرِنِينَ بِأُولَائِهِمْ مِنَ الشَّيَاطِينِ . «ثُمَّ لَنُخْصِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا» والجثي : جمع الجاثي^(١) .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى

الرَّحْمَنِ عِثًّا ﴿٦٨﴾

يقول تعالى ذكره، ثم لناخذن من كل جماعة منهم أشدهم على الله عتوًّا، وتمردًا فلنبداً بهم .

والشيعه هم الجماعة المتعاونون على الأمر من الأمور، يقال من ذلك : تشايع القوم : إذا تعاونوا؛ ومنه قولهم للرجل الشجاع : إنه لمشيّع : أي مُعانٍ، فمعنى الكلام : ثم لننزعن من كل جماعة تشايعت على الكفر بالله، أشدهم على الله عتوًّا، فلنبداً بإصلائيه جهنم، والتشايع في غير هذا الموضع : التفرق؛ ومنه قول الله عزَّ ذكره : «وكانوا شيعاً»، يعني : فرقاً؛ ومنه قول ابن مسعود أو سعد؛ إني أكره أن آتي رسول الله ﷺ، فيقول : شيعت بين أمتي، بمعنى : فرقت .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٦٩﴾

يقول تعالى ذكره : ثم لنحن أعلم من هؤلاء الذين ننزعهم من كل شيعه أولاهم بشدة العذاب، وأحقهم بعظيم العقوبة .

(١) يعني : القعود، وهو مثل قوله : «وترى كل أمة جائية»، أي : قاعدة .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَإِنْ مِنْكُمْ أَیُّهَا النَّاسُ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ

حَتْمًا مَقْضِيًّا» ٧١

يقول تعالى ذكره: وإن منكم أيها الناس إلا وارد جهم، كان على ربك يا محمد إيرادهموها قضاءً مقضياً، قد قضى ذلك وأوجه في أم الكتاب. واختلف أهل العلم في معنى الورد الذي ذكره الله في هذا الموضع، فقال بعضهم: الدخول.

وقال آخرون: بل هو المر عليها.

وقال آخرون: بل الورد: هو الدخول، ولكنه عن الكفار دون المؤمنين.

وقال آخرون: بل الورد عام لكل مؤمن وكافر، غير أن ورود المؤمن المور، وورود الكافر الدخول.

وقال آخرون: ورود المؤمن ما يصيبه في الدنيا من حُمى ومرض.

وقال آخرون: يردها الجميع، ثم يصدر عنها المؤمنون بأعمالهم.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: يردها الجميع ثم يصدر عنها المؤمنون، فينجيهم الله، ويهوي فيها الكفار. وورودهموها هو ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ من مرورهم على الصراط المنصوب على متن جهم، فنادى مُسَلِّمٌ ومُكَدِّسٌ فيها^(١).

(١) حديث أبي سعيد الخدري عند أحمد: ٢٦/٣، وابن حبان (٧٣٧٩) وإسناده

صحيح. وحديث عائشة عند مسلم (٢٧٩١)، والترمذي (٣١٢١)، وابن ماجه

(٤٢٧٩)، وابن حبان (٧٣٨٠)، وغيرها.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ

فِيهَا جِثْيَا ٧٢

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «ثُمَّ نُنَجِّي» من النار بعد ورود جميعهم إليها «الَّذِينَ اتَّقَوْا» فخافوه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه «وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثْيَا»، يقول جل ثناؤه: وَنَدَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَعَبَدُوا غَيْرَ اللَّهِ وَعَصَوْا رَبَّهُمْ، وَخَالَفُوا أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ فِي النَّارِ جِثْيَا، يقول: بُرُوكاً عَلَى رُكْبِهِمْ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيَّنَّتْ قَالِ الَّذِينَ

كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ٧٣

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وَإِذَا تُلِيَتْ» على الناس «آيَاتُنَا» التي أنزلناها على رسولنا محمد «بَيَّنَّتْ» يعني واضحات لمن تأملها وفكر فيها أنها أدلة على ما جعلها الله أدلة عليه لعباده «قال الذين كفروا» بالله وبكتابه وآياته وهم قریش «لِلَّذِينَ آمَنُوا» فصَدَّقُوا به وهم أصحاب محمد «أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا» يَعْنِي بِالْمَقَامِ: موضع إقامتهم، وهي مساكنهم ومنازلهم «وَأَحْسَنُ نَدِيًّا» وهو المجلس، يقال منه: ندوت القوم أُنْدُوهُمْ ندوا: إذا جمعتهم في مجلس، ويقال: هو في ندي قومه وفي ناديهم بمعنى واحد.

وتأويل الكلام: وإذا تُلِيَتْ عليهم آياتنا بَيَّنَّتْ، قال الذين كفروا للذين

آمنوا: أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ مِنَّا وَمِنْكُمْ أَوْسَعُ عِيشًا، وَأَنْعَمُ بِالًا، وَأَفْضَلُ مَسْكَنًا وَأَحْسَنُ مَجْلَسًا وَأَجْمَعُ عِدَدًا، وَغَاشِيَةً فِي الْمَجْلَسِ، نَحْنُ أَمْ أَنْتُمْ؟

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ
أَتَشَاوِرُ يَا ٧٤

يقول تعالى ذِكْرُهُ : وكم أهلكنا يا محمد قبل هؤلاء القائلين من أهل
الكفر للمؤمنين ، إذا تُتلى عليهم آيات الرحمن ، أي الفريقين خير مقاماً ،
وأحسن ندياً ، مجالس من قَرْنٍ هُمْ أكثر متاع منازل من هؤلاء ، وأحسن منهم
منظراً وأجمل صوراً ، فأهلكنا أموالهم ، وَغَيَّرْنَا صُورَهُمْ .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ
مَدًّا حَقًّا إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ
مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ٧٥

يقول تعالى ذِكْرُهُ لِنبيه محمد ﷺ : قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَهُؤْلَاءِ الْمَشْرِكِينَ بِرَبِّهِمْ ،
القائلين : إذا تُتلى عليهم آياتنا ، أي الفريقين منا ومنكم خير مقاماً وأحسن ندياً ،
مَنْ كَانَ منا ومنكم في الضلالة جائراً عن طريق الحق ، سالكاً غير سبيل
الهدى ، فلیمدّد له الرحمن مَدًّا : يقول : فليطوّل له الله في ضلالته ، وليمله فيها
إملاء .

وقوله : «حتى إذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ» ، يقول تعالى
ذِكْرُهُ : قُلْ لَهُمْ : مَنْ كَانَ منا ومنكم في الضلالة ، فلیمدّد له الرحمن في ضلالته
إلى أَنْ يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ ، إما عذاب عاجل ، أو يلحقوا ربهم عند قيام الساعة التي
وعد الله خَلْقَهُ أَنْ يَجْمَعَهُمْ لَهَا ، فإنهم إذا أتاهم وَعْدُ اللَّهِ بِأَحَدِ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ
«فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا» ومسكناً منكم ومنهم «وَأَضْعَفُ جُنْدًا» أَهْمُ أَمْ
أَنْتُمْ؟ وَيتبينون حينئذٍ أَيُّ الفريقين خير مقاماً ، وأحسن ندياً .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى
وَالْبَقِيَّةُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴿٧٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ : وَيَزِيدُ اللَّهُ مَنْ سَلَكَ قَصْدَ الْمَحْجَةِ ، وَاهْتَدَى لِسَبِيلِ
الرُّشْدِ ، فَأَمَّنْ بِرَبِّهِ ، وَصَدَّقَ بِآيَاتِهِ ، فَعَمِلَ بِمَا أَمَرَهُ بِهِ ، وَانْتَهَى عَمَّا نَهَاهُ عَنْهُ
هُدًى بِمَا يَتَجَدَّدُ لَهُ مِنَ الْإِيمَانِ بِالْفَرَائِضِ الَّتِي يَفْرُضُهَا عَلَيْهِ ، وَيَقَرُّ بِلِزُومِ
فَرَضِهَا إِيَّاهُ ، وَيَعْمَلُ بِهَا ، فَذَلِكَ زِيَادَةٌ مِنَ اللَّهِ فِي اهْتِدَائِهِ بِآيَاتِهِ هُدًى عَلَى
هُدَاهُ ، وَذَلِكَ نَظِيرُ قَوْلِهِ : «وَإِذَا أَنْزَلْتُ سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَتُكْمُ زَادَتْهُ هَذِهِ
إِيمَانًا ، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ» .

«وَالْبَاقِيَّاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا» يقول تعالى ذِكْرُهُ : وَالْأَعْمَالُ
الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا عِبَادَهُ وَرَضِيَهَا مِنْهُمْ ، الْبَاقِيَّاتُ لَهُمْ غَيْرُ الْفَانِيَّاتِ الصَّالِحَاتِ ،
خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ جِزَاءً لِأَهْلِهَا «وَخَيْرٌ مَرَدًّا» عَلَيْهِمْ مِنْ مَقَامَاتِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ
بِاللَّهِ ، وَأُنْدِيَتِهِمْ الَّتِي يَفْتَخِرُونَ بِهَا عَلَى أَهْلِ الْإِيمَانِ فِي الدُّنْيَا .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ
لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ «أَفَرَأَيْتَ» يَا مُحَمَّدُ «الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا»
حُجَجِنَا فَلَمْ يَصَدِّقْ بِهَا ، وَأَنْكَرَ وَعِيدَنَا مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ «وَقَالَ» وَهُوَ بِاللَّهِ كَافِرٌ
وَبِرَسُولِهِ «لَأُوتِيَنَّ» فِي الْآخِرَةِ «مَالًا وَوَلَدًا» ، وَذَكَرَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتُ أَنْزَلَتْ فِي
الْعَاصِ بْنِ وَائِلِ السَّهْمِيِّ أَبِي عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ .

وقوله : «أَطَّلَعَ الْغَيْبَ» ، يَقُولُ عَزَّ ذِكْرُهُ : أَعْلِمَ هَذَا الْقَائِلُ هَذَا الْقَوْلَ عِلْمَ
الْغَيْبِ ، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مَالًا وَوَلَدًا بِاطْلَاعِهِ عَلَى عِلْمِ مَا غَابَ عَنْهُ .

«أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا»، يقول: أم آمن بالله وعمل بما أمر به، وانتهى عما نهاه عنه، فكان له بذلك عند الله عهداً أن يؤتیه ما يقول من المال والولد.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنْ الْعَذَابِ مَدًّا ۖ وَنَزِّنُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ۝٧٩**

يعني تعالى ذكره بقوله: كلا ليس الأمر كذلك، ما اطلع الغيب، فعلم صدق ما يقول، وحقيقة ما يذكر، ولا اتَّخَذَ عند الرحمن عهداً بالإيمان بالله ورسوله، والعمل بطاعته، بل كَذَّب وكفر، ثم قال تعالى ذكره: «سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ»: أي سنكتب ما يقول هذا الكافر بربه، القائل: «لَأُوتِينَ» في الآخرة «مَالًا وَوَلَدًا وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا»، يقول: ونزيده من العذاب في جهنم بقليله الكذب والباطل في الدنيا، زيادةً على عذابه بكفره بالله.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۖ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۝٨٢**

يقول تعالى ذكره: واتَّخَذُوا، يا محمد، هؤلاء المشركون من قومك آلهةً يعبدونها من دُونِ الله لتكون هؤلاء الآلهة لهم عِزًّا، يمنعونهم من عذاب الله، ويتخذون عبادتهموها عند الله زُلْفَى.

وقوله: «كَلَّا»، يقول عز ذكره: ليس الأمر كما ظَنُّوا وأَمَلُوا من هذه الآلهة التي يعبدونها من دُونِ الله في أنها تنقذهم من عذاب الله، وتُنَجِّيهم منه، ومن سوءٍ إن أراد بهم رَبُّهُمْ.

وقوله: «سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ»، يقول عز ذكره: ولكن سيكفُرُ الآلهة في الآخرة بعبادة هؤلاء المشركين يوم القيامة إِيَّاهَا، وكفرهم بها قيلهم لربهم:

تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ، فَجَحَدُوا أَنْ يَكُونُوا عَبْدُوهُمْ أَوْ أَمْرُوهُمْ بِذَلِكَ، وَتَبَرَّأُوا مِنْهُمْ، وَذَلِكَ كَفَرَهُمْ بِعبادتهم.

وأما قوله: «وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا» فَإِنَّ أَهْلَ التَّأْوِيلِ اخْتَلَفُوا فِي تَأْوِيلِهِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَى ذَلِكَ: وَتَكُونُ آلَهُتُهُمْ عَلَيْهِمْ عَوْنًا، وَقَالُوا: الضَّدُّ: الْعَوْنُ.

وقال آخرون: بل عَنَى بِالضَّدِّ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ: الْقَرْنَاءُ.

وقال آخرون: مَعْنَى الضَّدِّ هَهُنَا: الْعَدُوُّ.

وقال آخرون: مَعْنَى الضَّدِّ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ: الْبَلَاءُ.

وَالضَّدُّ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: هُوَ الْخِلَافُ، يُقَالُ: فَلَانٌ يَضَادُّ فَلَانًا فِي كَذَا، إِذَا كَانَ يَخَالِفُهُ فِي صَنِيعِهِ، يَفْسُدُ مَا أَصْلَحَهُ، وَيُصْلِحُ مَا أَفْسَدَهُ، وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ مَعْنَاهُ، وَكَانَتْ آلِهَةٌ هَؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ يَتَبَرَّأُونَ مِنْهُمْ، وَيَنْتَفُونَ يَوْمئِذٍ، صَارُوا لَهُمْ أَضْدَادًا، فَوُصِفُوا بِذَلِكَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ

تَوَزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذًّا ﴿٨٤﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: أَلَمْ تَرَ يَا مُحَمَّدُ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى أَهْلِ الْكُفْرِ بِاللَّهِ «تَوَزُّهُمْ»، يَقُولُ: تُحَرِّكُهُمْ بِالْإِغْوَاءِ وَالْإِضْلَالِ، فَتَزْعَجُهُمْ إِلَى مَعَاصِي اللَّهِ، وَتُغْرِبُهُمْ بِهَا حَتَّى يَوَاقِعُوهَا «أَزًّا» إِزْعَاجًا وَإِغْوَاءً.

وقوله: «فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذًّا»، يَقُولُ عَزَّ ذِكْرُهُ: فَلَا تَعْجَلْ عَلَى هَؤُلَاءِ الْكَافِرِينَ بِطَلَبِ الْعَذَابِ لَهُمْ وَالْهَلَاكِ، يَا مُحَمَّدُ «إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذًّا»، يَقُولُ: فَإِنَّمَا نُؤَخِّرُ إِهْلَاكَهُمْ لِيَزِدَادُوا إِثْمًا، وَنَحْنُ نَعُدُّ أَعْمَالَهُمْ كُلَّهَا وَنَحْصِيهَا حَتَّى أَنْفَاسَهُمْ لِنَجَازِيَهُمْ عَلَى جَمِيعِهَا، وَلَمْ نَتْرِكْ تَعْجِيلَ هَلَاكِهِمْ لَخَيْرٍ

أَرَدْنَاهُ بِهِمْ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾
وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا ﴿٨٦﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ : يَوْمَ نَجْمَعُ الَّذِينَ اتَّقَوْا فِي الدُّنْيَا فَخَافُوا عِقَابَهُ ، فَاجْتَنَبُوا
لِذَلِكَ مَعَاصِيَهُ ، وَأَدُّوا فَرَائِضَهُ إِلَى رَبِّهِمْ «وَفْدًا» ، يَعْنِي بِالْوَفْدِ : الرُّكْبَانُ ، يُقَالُ :
وَفَدْتُ عَلَى فُلَانٍ : إِذَا قَدِمْتَ عَلَيْهِ ، وَأَوْفَدَ الْقَوْمُ وَفْدًا عَلَى أَمِيرِهِمْ ، إِذَا بَعَثُوا
مَنْ قَبْلَهُمْ بَعْثًا . وَالْوَفْدُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ بِمَعْنَى الْجَمْعِ ، وَلَكِنَّهُ وَحْدٌ ، لِأَنَّهُ مُصَدَّرٌ
وَاحِدُهُمْ وَافِدٌ ، وَقَدْ يَجْمَعُ الْوَفْدُ : الْوُفُودُ .

وقوله : «وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا» ، يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرَهُ : وَنَسُوقُ
الْكَافِرِينَ بِاللَّهِ الَّذِينَ أَجْرَمُوا إِلَى جَهَنَّمَ عِطَاشًا . وَالْوَرْدُ : مُصَدَّرٌ مِنْ قَوْلِ
الْقَائِلِ : وَرَدْتُ كَذَا أَرَدَهُ وَرْدًا ، وَلِذَلِكَ لَمْ يَجْمَعْ ، وَقَدْ وَصَفَ بِهِ الْجَمْعَ .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ
الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ : لَا يَمْلِكُ هَؤُلَاءِ الْكَافِرُونَ بَرَبَهُمْ يَا مُحَمَّدُ ، يَوْمَ يَحْشُرُ
اللَّهُ الْمُتَّقِينَ إِلَيْهِ وَفْدًا ، الشَّفَاعَةُ حِينَ يَشْفَعُ أَهْلُ الْإِيمَانِ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عِنْدَ
اللَّهِ ، فَيَشْفَعُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ «إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ مِنْهُمْ» «عِنْدَ الرَّحْمَنِ» فِي الدُّنْيَا
«عَهْدًا» بِالْإِيمَانِ بِهِ ، وَتَصْدِيقِ رَسُولِهِ ، وَالْإِقْرَارِ بِمَا جَاءَ بِهِ ، وَالْعَمَلِ بِمَا أَمَرَ بِهِ .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ
جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ
وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وقال هؤلاء الكافرون بالله: «اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا. لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا» يقول تعالى ذِكْرُهُ للقائلين ذلك من خَلْقِهِ: لقد جِئْتُمْ أَيُّهَا النَّاسُ شَيْئًا عَظِيمًا مِنَ الْقَوْلِ مُنْكَرًا.

وقوله: «تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَشَقَّقْنَ قِطْعًا مِنْ قِيلِهِمْ: «اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا»، ومنه قيل: فَطَرَ نَابَهُ: إِذَا انشَقَّ.

وقوله: «وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ»، يقول: وتكَادُ الْأَرْضُ تَنشَقُّ، فتصدعُ من ذلك: «وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا»، يقول: وتكَادُ الْجِبَالُ يَسْقُطُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ سَقُوطًا، والهُدُّ: السَّقُوطُ، وهو مصدر هَدَدْتُ، فَأَنَا أَهْدُ هَذَا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩٠﴾ وَمَا يُبْغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩١﴾ إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِيَ الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وتكَادُ الْجِبَالُ أَنْ تَخِرَّ انْقِضَاضًا، لِأَنَّ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا.

وقوله: «وَمَا يُبْغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا»، يقول: وما يَصْلَحُ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا، لِأَنَّهُ لَيْسَ كَالْخَلْقِ الَّذِينَ تَغْلِبُهُمُ الشَّهَوَاتُ، وَتَضْطَرُّهُمْ اللَّذَاتُ إِلَى جَمَاعِ الْإِنَاثِ، وَلَا وَلَدٌ يَحْدُثُ إِلَّا مِنْ أُنْثَى، وَاللَّهُ يَتَعَالَى عَنْ أَنْ يَكُونَ كَخَلْقِهِ.

«إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِيَ الرَّحْمَنِ عَبْدًا»، يقول: مَا جَمِيعٌ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَفِي الْأَرْضِ مِنَ الْبَشَرِ وَالْإِنْسِ وَالْجِنِّ «إِلَّا آتِيَ الرَّحْمَنِ عَبْدًا»، يقول: إِلَّا يَأْتِي رَبُّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَبْدًا لَهُ، ذَلِيلًا خَاضِعًا، مُقِرًّا لَهُ بِالْعُبُودِيَّةِ، لَا نَسَبَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾
وَكُلُّهُمْ عِندَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ : لقد أحصى الرحمن خلقَهُ كلهم ، وعدَّهُم عَدًّا ، فلا يَخْفَى عليه مبلغُ جميعِهِم ، وعرف عددهم ، فلا يعزُبُ عنه منهم أحد «وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا» ، يقول : وجميع خلقه سوف يَرُدُّ عليه يومَ تقومُ الساعةُ وحيداً لا ناصرَ له من الله ، ولا دافعَ عنه ، فيقضي الله فيه ما هو قاضٍ ، ويصنعُ به ما هو صانع .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴿٩٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَصَدَّقُوا بما جاءهم من عند رَبِّهِمْ ، فَعَمِلُوا به ، فَأَحَلُّوا حلاله ، وَحَرَّمُوا حرامه «سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا» في الدنيا ، في صدور عباده المؤمنين .

وقوله : «إِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ» ، يقول تعالى ذكره : فإنما يسرنا يا محمدُ هذا القرآنَ بلسانك ، تَقْرُؤُهُ لِتُبَشِّرَ به المتقين الذين اتقوا عقابَ الله بأداءِ فرائضه ، واجتنابِ معاصيه بالجنة . «وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا» ، يقول : ولتنذر بهذا القرآنِ عذابَ الله قومك من قريش ، فإنهم أهلُ لَدٍ وَجَدَلٍ بالباطل ، لا يقبلون الحق ، واللذ : شِدَّةُ الخصومة .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هَلْ يُحِشُّ

مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وكثيراً أهلكنا يا محمدُ قبلَ قومِكَ من مشركي قريش من قَرْنٍ، يعني من جماعةٍ من الناسِ، إذ سلكوا في خلافي وركوب معاصي مَسْلَكِهِمْ، «هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ»، يقول: فهل تحسُّ أَنْتَ مِنْهُمْ أَحَدًا يا محمد، فتراه وتعاينه «أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا»، يقول: أو تسمع لهم صوتاً، بل بادوا وهلكوا، وَخَلَّتْ مِنْهُمْ دُورُهُمْ وأوحشتْ منهم منازلهم، وصاروا إلى دارٍ لا ينفعهم فيها إلا صالحٌ من عملٍ قَدَّمُوهُ، فكذلك قومُكَ هؤلاء، صائرونَ إلى ما صار إليه أولئك، إِنَّ لَمْ يُعَاجِلُوا التَّوْبَةَ قبلَ الهلاكِ.

سُورَةُ طه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ
لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا تَذَكُّرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴿٣﴾

اختلف أهل التأويل في تأويل قوله : «طه» فقال بعضهم : معناه يارجل .
وقال آخرون : هو اسمٌ من أسماء الله ، وقَسَمَ أقسَمَ الله به .
وقال آخرون : هو حروف هجاء .

وقال آخرون : هو حروف مقطعة يدلُّ كُلُّ حرفٍ منها على معنى ،
واختلفوا في ذلك اختلافهم في الهم ، وقد ذكرنا ذلك في مواضعه .

والذي هو أولى بالصواب عندي من الأقوال فيه قول مَنْ قال : معناه :
يارجل ، لأنها كلمةٌ معروفةٌ في عكَّ^(١) فيما بلغني ، وأنَّ معناها فيهم : يارجل .

فتأويلُ الكلام إذن : يارجل ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، ما أنزلناه
فنكلفك ما لا طاقة لك به من العمل ، وذكر أنه قيل له ذلك بسبب ما
من النَّصَب والعناء والسهر في قيام الليل .

لَا تَذَكُّرَةً لِّمَن يَخْشَى ، يقول تعالى ذِكْرُه : ما أنزلنا عليك هذا

القرآن إلا تذكرةً لمن يخشى عقابَ الله، فيتقيه بأداءِ فرائضِ ربِّه واجتنابِ محارمه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾
الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٥﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ لِنبيه محمدٍ ﷺ: هذا القرآنُ تنزيلٌ من الربِّ الذي خلق الأرضَ والسمواتِ العُلَى. والعُلَى: جمعُ عليا.

وقوله: «الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى»، يقول تعالى ذِكْرَهُ: الرحمنُ على عرشه ارتفعَ وعَلَا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٦﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: لله ما في السمواتِ وما في الأرضِ وما بينهما، وما تحتَ الثرى، ملكاً له، وهو مُدَبِّرُ ذلك كله، ومَصْرُفُ جميعه. ويعني بالثرى: الندى، يقالُ للترابِ الرطبِ المبتلُّ: ثرى منقوص، يقال منه: ثريت الأرض ثرى، ثرى منقوص، والثرى: مصدر.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾
اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿٨﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: وإن تجهرَ يا محمدُ بالقولِ، أو تخفِ به، فسواءٌ عند ربك الذي له ما في السمواتِ وما في الأرض. «فإنَّه يَعْلَمُ السِّرَّ»، يقول: فإنه

لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مَا اسْتَسْرَرْتَهُ فِي نَفْسِكَ ، فَلَمْ تُبْدِهِ بِجَوَارِحِكَ وَلَمْ تَتَكَلَّمْ بِلِسَانِكَ ، وَلَمْ تَنْطِقْ بِهِ «وَأَخْفَى» .

ثم اختلف أهل التأويل في المعنى بقوله : «وَأَخْفَى» فقال بعضهم : معناه : وَأَخْفَى مِنَ السِّرِّ ، قال : والذي هو أَخْفَى مِنَ السِّرِّ مَا حَدَّثَ بِهِ الْمَرْءُ نَفْسَهُ وَلَمْ يَعْمَلْهُ .

وقال آخرون : بل معناه : وَأَخْفَى مِنَ السِّرِّ مَا لَمْ تُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَكَ .

وقال آخرون : بل معنى ذلك : إِنَّهُ يَعْلَمُ سِرَّ الْعِبَادِ ، وَأَخْفَى سِرَّ نَفْسِهِ ، فَلَمْ يَطْلُعْ عَلَيْهِ أَحَدًا .

والصوابُ من القول في معنى أَخْفَى مِنَ السِّرِّ أَنْ يَقَالَ : هُوَ مَا عَلِمَ اللَّهُ مِمَّا أَخْفَى عَنِ الْعِبَادِ ، وَلَمْ يَعْلَمُوهُ مِمَّا هُوَ كَاثِنٌ وَلَمَّا يَكُنْ ، لِأَنَّ مَا ظَهَرَ وَكَانَ فَغَيْرُ سِرٍّ ، وَأَنَّ مَا لَمْ يَكُنْ وَهُوَ غَيْرُ كَاثِنٍ فَلَا شَيْءَ ، وَأَنَّ مَا لَمْ يَكُنْ وَهُوَ كَاثِنٌ فَهُوَ أَخْفَى مِنَ السِّرِّ ، لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ ، ثُمَّ مَنْ أَعْلَمَهُ ذَلِكَ مِنْ عِبَادِهِ .

وأما قوله تعالى ذِكْرُهُ : «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» فإنه يعني به : المعبود الذي لَا تَصْلُحُ الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ ، يَقُولُ : فَإِيَاهُ فَاعْبُدُوا أَيُّهَا النَّاسُ دُونَ مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَلِهَةِ وَالْأَوْثَانِ . «لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى» ، يَقُولُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ : لِمَعْبُودِكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ، فَقَالَ : الْحُسْنَى ، فَوَحَّدَ ، وَهُوَ نَعَتْ لِلْأَسْمَاءِ ، وَلَمْ يَقُلْ الْأَحَاسِنَ ، لِأَنَّ الْأَسْمَاءَ تَقَعُ عَلَيْهَا هَذِهِ ، فَيَقَالُ : هَذِهِ أَسْمَاءُ ، وَهَذِهِ فِي لَفْظَةٍ وَاحِدَةٍ .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿١٠﴾ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا أَلْعَلَّيْهَا إِلَيْكُمْ مِّنْهَا يَقْبِصُونَ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لَنَبِيٍّ مِّنْهُ مُحَمَّدٍ ﷺ مُّسَلِّيهُ عَمَّا يَلْقَى مِنَ الشَّدَةِ مِنْ مُّشْرِكِي قَوْمِهِ، وَمُعَرِّفُهُ مَا إِلَيْهِ صَائِرُ أَمْرِهِ وَأَمْرِهِمْ، وَأَنَّهُ مُعَلِّيهُ عَلَيْهِمْ، وَمُوَهِّنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ، وَيُحِثُّهُ عَلَى الْجَدِّ فِي أَمْرِهِ، وَالصَّبْرِ عَلَى عِبَادَتِهِ، وَأَنْ يَتَذَكَّرَ فِيمَا يَنْبُوهُ فِيهِ مِنْ أَعْدَائِهِ مِنْ مُّشْرِكِي قَوْمِهِ وَغَيْرِهِمْ، وَفِيمَا يَزَاوِلُ مِنَ الْجَهْدِ فِي طَاعَتِهِ مَا نَابَ أَخَاهُ مُوسَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ مِنْ عَدُوِّهِ، ثُمَّ مِنْ قَوْمِهِ، وَمِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَمَا لَقِيَ فِيهِ مِنَ الْبَلَاءِ وَالشَّدَةِ طِفْلاً صَغِيراً، ثُمَّ يَافِعاً مُّتَرَعِراً، ثُمَّ رَجُلًا كَامِلاً. «وَهَلْ أَتَاكَ» يَا مُحَمَّدُ «حَدِيثُ مُوسَى» ابْنِ عِمْرَانَ «إِذْ رَأَى نَارًا» ذَكَرَ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي الشِّتَاءِ لَيْلًا، وَأَنَّ مُوسَى كَانَ أَضَلَّ الطَّرِيقَ؛ فَلَمَّا رَأَى ضَوْءَ النَّارِ «قَالَ لِأَهْلِهِ» مَا قَالَ.

وقوله: «لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ» يقول: لَعَلِّي أَجِئُكُمْ مِنَ النَّارِ الَّتِي أَنْسَتْ بِشُعْلَةٍ. وَالْقَبَسُ: هُوَ النَّارُ فِي طَرَفِ الْعُودِ أَوْ الْقَصْبَةِ، يَقُولُ الْقَاتِلُ لِصَاحِبِهِ: أَقْبَسَنِي نَارًا، فَيُعْطِيهِ إِيَّاهَا فِي طَرَفِ عُودٍ أَوْ قَصْبَةٍ. وَإِنَّمَا أَرَادَ مُوسَى بِقَوْلِهِ لِأَهْلِهِ «لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ» لَعَلِّي آتِيكُمْ بِذَلِكَ لِتَصْطَلُّوا بِهِ.

وقوله: «أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى» دَلَالَةٌ تَدُلُّ عَلَى الطَّرِيقِ الَّذِي أَضَلَّ لَنَا، إِمَّا مِنْ خَبَرٍ هَادٍ يَهْدِينَا إِلَيْهِ، وَإِمَّا مِنْ بَيَانٍ وَعِلْمٍ نَبِّئُهُ بِهِ وَنَعْرِفُهُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَلَمَّا أَنَّنَّهَا نُودِيَ بِمُوسَى ﴿١١﴾ إِنْ أُنَارُ رَبِّكَ فَآخَلَغَ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فَلَمَّا أَتَى النَّارَ مُوسَى نَادَاهُ رَبُّهُ: «يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَآخَلَغَ نَعْلَيْكَ».

واختلف أهل العلم في السبب الذي من أجله أمر الله موسى بخلع نعليه، فقال بعضهم: أمره بذلك، لأنهما كانتا من جلدٍ حمارٍ ميت، فكره أن

يَطَّأُ بهما الوادي المقدَّس، وأرادَ أن يمسّه من بركةِ الوادي.

وقال آخرون: كاننا من جلدِ بقرٍ، ولكن الله أراد أن يطأ موسى الأرضَ بقدميه، ليصلَ إليه بركتها.

وأولى القولين في ذلك بالصواب قولُ من قال: أمره الله تعالى ذكره بخلع نعليه ليباشر بقدميه بركة الوادي، إذ كان وادياً مقدساً.

وإنما قلنا ذلك أولى التأويلين بالصواب، لأنه لا دلالة في ظاهر التنزيل على أنه أمرٌ بخلعهما من أجل أنهما من جلدِ حمارٍ ولا لنجاستهما، ولا خبرٌ بذلك عَمَّنْ يلزمُ بقوله الحجة، وإن في قوله: «إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ» بعقبه دليلاً واضحاً، على أنه إنما أمره بخلعهما لما ذكرنا.

و«طوى»، هو عندي اسمُ الوادي.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿١٣﴾ إِنَّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾

اختلفت القِرَاءَةُ في قراءة ذلك، فقرأته عامة القِرَاءَةِ الذين قرءوا «وأنا» بتشديد النون، و«أنا» بفتح الألف من «أنا» ردّاً على: نودي يا موسى، كأن معنى الكلام عندهم: نودي يا موسى إني أنا ربك، وأنا اخترتك، وبهذه القراءة قرأ ذلك عائمةُ قِرَاءَةُ الكوفة. وأما عامة قِرَاءَةُ المدينة والبصرة وبعض أهل الكوفة فقرءوه: «وأنا اخْتَرْتُكَ» بتخفيفِ النون على وجه الخبرِ من الله عن نفسه أنه اختاره.

والصوابُ من القول في ذلك عندي أن يقال: إنهما قراءتان قد قرأ بكل واحدةٍ منهما قِرَاءَةُ أهل العلم بالقرآن، مع اتفاق معنيهما، فبأيهما قرأ القارئُ

فمصيب الصواب فيه . وتأويل الكلام : نودي أنا اخترناك ، فاجتبتناك لرسالتنا إلى مَنْ نرسلك إليه . « فاستمع إلى ما يُوحى » ، يقول : فاستمع لوحينا الذي نوحيه إليك وعيه ^(١) ، واعمل به « إني أنا الله » يقول تعالى ذكره : إني أنا المعبود الذي لا تصلح العبادة إلا له ، لا إله إلا أنا فلا تعبد غيري ، فإنه لا معبود تجوز أو تصلح له العبادة سواي . « فاعبُدني » يقول : فأخلص العبادة لي دون كل ما عُبِد من دوني .

« وأقم الصلاة لِذِكْرِي » . واختلف أهل التأويل في تأويل ذلك فقال بعضهم : معنى ذلك : أقم الصلاة لي فإنك إذا أقمتها ذكرتني . وقال آخرون : بل معنى ذلك : وأقم الصلاة حين تذكرها .

وأولى التأويلين في ذلك بالصواب تأويل مَنْ قال : معناه : أقم الصلاة لتذكرني فيها ، لأن ذلك أظهر معنيته ؛ ولو كان معناه : حين تذكرها ، لكان التنزيل : أقم الصلاة لِذِكْرِكها .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴿١٦﴾

يقول تعالى ذكره : إِنَّ السَّاعَةَ التي يبعث الله فيها الخلائق من قبورهم لموقف القيامة جائية . « أَكَادُ أُخْفِيهَا » فعلى ضمّ الألف من أخفيها قراءة جميع قراء أمصار الإسلام ، بمعنى : أَكَادُ أُخْفِيهَا من نفسي ، لثلا يطلع عليها أحد ، وبذلك جاء تأويل أكثر أهل العلم .

فإن قال قائل: ولم وجهت تأويل قوله: «أَكَادُ أُخْفِيهَا» بضم الألف إلى معنى: أَكَادُ أُخْفِيهَا من نفسي، دون توجيهه إلى معنى: أَكَادُ أَظْهَرُهَا، وقد علمت أن للإخفاء في كلام العرب وجهين: أحدهما الإظهار، والآخر الكتمان؛ وأن الإظهار في هذا الموضع أشبه بمعنى الكلام، إذ كان الإخفاء من نفسه يكاد عند السامعين أن يستحيل معناه، إذ كان محالاً أن يخفي أحد عن نفسه شيئاً هو به عالم، والله تعالى ذكره لا يخفي عليه خافية؟ قيل: الأمر في ذلك بخلاف ما ظننت، وإنما وجهنا معنى «أُخْفِيهَا» بضم الألف إلى معنى: أسترها من نفسي، لأن المعروف من معنى الإخفاء في كلام العرب: الستر، يقال: قد أخفيت الشيء: إذا سترته.

وأما وجه صحة القول في ذلك، فهو أن الله تعالى ذكره خاطب بالقرآن العرب على ما يعرفونه من كلامهم وجرى به خطابهم بينهم؛ فلما كان معروفاً في كلامهم أن يقول أحدهم إذا أراد المبالغة في الخبر عن إخفائه شيئاً هو له مُسرٌّ: قد كدت أن أخفي هذا الأمر عن نفسي من شدة استسراي به، ولو قدرت أخفيه عن نفسي أخفيته، خاطبهم على حسب ما قد جرى به استعمالهم في ذلك من الكلام بينهم، وما قد عرفوه في منطقهم، وقد قيل في ذلك أقوال غير ما قلنا. وإنما اخترنا هذا القول على غيره من الأقوال لموافقة أقوال أهل العلم من الصحابة والتابعين، إذ كنا لا نستجيز الخلاف عليهم، فيما استفاض القول به منهم، وجاء عنهم مجيئاً يقطع العذر.

وقوله: «لَتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى»، يقول تعالى ذكره: إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ: يقول: لتتاب كل نفس امتحنها ربها بالعبادة في الدنيا بما تسعى: يقول: بما تعمل من خير وشر، وطاعة ومعصية.

وقوله: «فَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْهَا»، يقول تعالى ذكره: فلا يرُدُّنَّكَ يا موسى عن التأهب للساعة، مَنْ لا يؤمن بها، يعني: مَنْ لا يقرُّ بقيام الساعة، ولا يصدق

بالبعث بعد الممات ، ولا يرجو ثواباً ، ولا يخاف عقاباً .

وقوله : «وَاتَّبَعَ هَوَاهُ» ، يقول : اتبع هوى نفسه ، وخالف أمر الله ونهيه .
«فَتَرَدَّى» ، يقول : فتهلك إن أنت انصددت عن التأهب للساعة ، وعن الإيمان بها ، وبأن الله باعث الخلق لقيامها من قبورهم بعد فنائهم بصد من كفر بها .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمْوَسَى ﴿١٧﴾

يقول تعالى ذكره : وما هذه التي في يمينك يا موسى ؟

ولعل قائلًا أن يقول : وما وجه استخبار الله موسى عما في يده ؟ ألم يكن عالماً بأن الذي في يده عصا ؟ قيل له : إن ذلك على غير الذي ذهبت إليه ، وإنما قال ذلك عز ذكره له إذا أراد أن يحولها حية تسعى ، وهي خشبة ، فنبهه عليها ، وقرره بأنها خشبة يتوكأ عليها ، ويهش بها على غنمه ، ليعرفه قدرته على ما يشاء ، وعظم سلطانه ، ونفاذ أمره فيما أحب بتحويله إياها حية تسعى ، إذا أراد ذلك به ليجعل ذلك لموسى آية مع سائر آياته إلى فرعون وقومه .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا

وَأَهْشُ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَارِبٌ أُخْرَى ﴿١٨﴾

يقول تعالى ذكره مخبراً عن موسى : قال موسى مجيباً لربه : «هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهْشُ بِهَا عَلَى غَنَمِي» ، يقول أضرب بها الشجر اليابس فيسقط ورقها وترعاه غنمي . يقال منه : هَشَّ فلان الشجر يهش هشاً : إذا اختبط ورق أغصانها فسقط ورقها .

وقوله : «ولي ، فيها مارب أخرى» ، يقول : ولي في عصاي هذه حوائج

أخرى، وهي جمع مأربة، وفيها للعرب لغات ثلاث: مأربة بضم الراء، ومأربة بفتحها، ومأربة بكسرهما، وهي مفعلة من قولهم: لا أرب لي في هذا الأمر: أي لا حاجة لي فيه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ أَلْقَهَا يَمُوسَى ﴿١٨﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴿١٩﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴿٢٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال الله لموسى: ألقِ عصاك التي يمينك يا موسى، يقولُ الله جل جلاله: فألقاها موسى، فجعلها اللهُ حيةً تسعى، وكانت قبل ذلك خشبةً يابسة، وعصاً يتوكأ عليها ويهشُّ بها على غنمه، فصارت حيةً بأمر الله.

وقوله: «قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ قال الله لموسى: خذِ الحيةَ، والهَاءُ والألفُ من ذكر الحية. «وَلَا تَخَفْ»، يقول: ولا تخف من هذه الحية. «سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى»، يقول: فإننا سنعيدُها لهيئتها الأولى التي كانت عليها قبل أن نُصَيِّرَهَا حية، ونردّها عصاً كما كانت. يقال لكل مَنْ كان على أمرٍ فتركه، وتحوَّلَ عنه ثم راجعه: عاد فلانٌ سيرته الأولى، وعاد لسيرته الأولى، وعاد إلى سيرته الأولى.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَضْمُمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى ﴿٢١﴾ لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿٢٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: واضمُمُ يَدَكَ، فضعها تحتَ عَضْدِكَ، والجناحانِ هما اليدانِ.

وقوله: «تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ» ذكر أنَّ موسى عليه السلام كان رجلاً آدم، فأدخل يده في جيبه، ثم أخرجها بيضاء من غير سوء، من غير برص، مثل الثلج، ثم ردها، فخرجت كما كانت على لونه.

وقوله: «آيَةٌ أُخْرَى» يقول: وهذه علامة ودلالة أخرى غير الآية التي أريناك قبلها من تحويل العصا حية تسعى على حقيقة ما بعثناك به من الرسالة لمن بعثناك إليه.

وقوله: «لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى»، يقول تعالى ذكره: واضمم يدك يا موسى إلى جناحك، تخرج بيضاء من غير سوء، كي نريك من أدلتنا الكبرى على عظيم سلطاننا وقدرتنا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَأَحْلِلْ عُقْدَةَ مِنِّ لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَقْفَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه موسى صلوات الله عليه: «أَذْهَبَ» يا موسى «إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى»، يقول: إنه تجاوز قدره، وتمرد على ربه: وقد بينا معنى الطغيان فيما مضى بما أغنى عن إعادته، في هذا الموضع، وفي الكلام محذوف استغنى بفهم السامع بما ذكر منه، وهو قوله: «أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى» فادعُهُ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ، وَإِرْسَالِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَعَكَ. «قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي»، يقول: رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي، لِأَعْيِي عَنْكَ مَا تُودِعُهُ مِنْ وَحْيِكَ، وَأَجْتَرِيءَ بِهِ عَلَى خُطَابِ فِرْعَوْنَ. «وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي»، يقول: وَسَهِّلْ عَلَيَّ الْقِيَامَ بِمَا تَكْلِفُنِي مِنَ الرِّسَالَةِ، وَتَحْمِلْنِي مِنَ الطَّاعَةِ.

وقوله: «وَأَحْلَلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي»، يقول: وأطلق لساني بالمنطق، وكانت فيه فيما ذكر عَجْمَةٌ عن الكلام الذي كان من إلقائه الجمرة إلى فيه يومَ هَمَّ فرعونُ بقتله.

وقوله: «يَفْقَهُوا قَوْلِي»، يقول: يفقهوا عني ما أخاطبهم وأراجعهم به من الكلام. «وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي»، يقول: واجعل لي عوناً من أهل بيتي «هَارُونَ أَخِي».

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَشَدُّ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾
كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ مخبراً عن موسى أنه سأل رَبَّهُ أَنْ يَشْدُدَّ أزره بأخيه هارون، وإنما يعني بقوله: «أَشْدُدْ بِهِ أَزْرِي» قُوَّ ظهري، وأعني به، يقال منه: قد أزر فلان فلاناً: إذا أعانه وشدَّ ظهره.

وقوله: «وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي»، يقول: واجعله نبياً مثلي ما جعلتني نبياً، وأرسله معي إلى فرعون. «كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا»، يقول: كي نُعَظِّمَكَ بالتسبيح لك كثيراً. «وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا» فنحمدك. «إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا» يقول: إنك كنت ذا بَصَرٍ بنا لا يخفى عليك من أفعالنا شيء.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَّاعَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴿٣٧﴾ إِذَا وَحَيْنَا إِلَيْكَ مَا يُوحَى ﴿٣٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال الله لموسى ﷺ: قد أعطيتَ ما سألتَ يا موسى

رَبَّكَ مِنْ شَرْحِهِ صَدْرَكَ وَتَيْسِيرِهِ لَكَ أَمْرَكَ، وَحَلَّ عَقْدَةَ لِسَانِكَ، وَتَصْيِيرَ أَخِيكَ هَارُونَ وَزِيْرًا لَكَ، وَشَدَّ أَرْكَ بِهِ، وَإِشْرَاكَهُ فِي الرِّسَالَةِ مَعَكَ. «وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى»، يَقُولُ تَعَالَى ذَكَرَهُ: وَلَقَدْ تَطَوَّلْنَا عَلَيْكَ يَا مُوسَى قَبْلَ هَذِهِ الْمَرَّةِ مَرَّةً أُخْرَى، وَذَلِكَ حِينَ أَوْحَيْنَا إِلَى أَمِّكَ، إِذْ وَلَدْتِكَ فِي الْعَامِ الَّذِي كَانَ فِرْعَوْنُ يَقْتُلُ كُلَّ مَوْلُودٍ ذَكَرٍ مِنْ قَوْمِكَ مَا أَوْحَيْنَا إِلَيْهَا؛ ثُمَّ فَسَّرَ تَعَالَى ذِكْرُهُ مَا أَوْحَى إِلَى أُمِّهِ، فَقَالَ: هُوَ أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْذِفِهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوِّي وَعَدُوْلُهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي

يَقُولُ تَعَالَى ذَكَرَهُ: وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ يَا مُوسَى مَرَّةً أُخْرَى حِينَ أَوْحَيْنَا إِلَى أَمِّكَ، أَنْ أَقْذِفِي ابْنِكَ مُوسَى حِينَ وَلَدْتِكَ فِي التَّابُوتِ. «فَأَقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ» يَعْنِي بِالْيَمِّ: النَّيْلُ. «فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ»، يَقُولُ: فَأَقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ، يُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ، وَهُوَ جِزَاءُ أُخْرِجَ مُخْرِجَ الْأَمْرِ، كَأَنَّ الْيَمَّ هُوَ الْمَأْمُورُ، كَمَا قَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا، وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ»، يَعْنِي: اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا نَحْمِلْ عَنْكُمْ خَطَايَاكُمْ، فَفَعَلْتَ ذَلِكَ أُمُّهُ بِهِ فَأَلْقَاهُ الْيَمِّ بِمَشْرَعَةِ آلِ فِرْعَوْنَ.

وَعَنَى جَلَّ ثَنَاؤُهُ بِقَوْلِهِ: «يَأْخُذْهُ عَدُوِّي وَعَدُوْلُهُ» فِرْعَوْنُ هُوَ الْعَدُوُّ، كَانَ اللَّهُ وَلِمْيُوسَى.

وَإِخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي مَعْنَى الْمَحَبَّةِ الَّتِي قَالَ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي»، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: عَنَى بِذَلِكَ أَنَّهُ حَبَبَهُ إِلَى عِبَادِهِ.

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ مَعْنَى ذَلِكَ: أَيِ حَسَنَتِ خَلْقِكَ.

وَالَّذِي هُوَ أَوْلَى بِالصَّوَابِ مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ أَنْ يَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ أَلْقَى مُحَبَّتَهُ

على موسى ، كما قال جل ثناؤه : «وَالْقَيْتَ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي» فحبيه إلى آسية امرأة فرعون ، حتى تَبَيَّنَتْ وَعَدَتُهُ وَرَبُّهُ ، وإلى فرعون ، حتى كَفَّ عنه عاديته وشره .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَنَّكَ فَتُونَا فَلَبِثْتَ سِتِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْوَسَىٰ ﴿٤٠﴾

وقوله : «وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي» ، معناه : ولتغذى وتربى على محبتي وإرادتي .

وقوله : «إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ» ، يقول تعالى ذكره : حين تمشي أختك تتبعك حتى وجدتك ، ثم تأتي من يطلب المراضع لك ، فتقول : هل أدلكم على من يكفله ؟

«فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ» ، يقول تعالى ذكره : فرددناك إلى أمك بعد ما صرت في أيدي آل فرعون ، كيما تقر عينها بسلامتك ونجاتك من القتل والغرق في اليم ، وكيلا تحزن عليك من الخوف من فرعون عليك أن يقتلك .

وقوله : «وَقَتَلْتَ نَفْسًا» ، يعني جل ثناؤه بذلك : قتله القبطي الذي قتله حين استغاثه عليه الإسرائيلي ، فوكزه موسى .

وقوله : «فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ» ، يقول تعالى ذكره : فنجيناك من غمك بقتلك النفس التي قتلت ، إذ أرادوا أن يقتلوك بها فخلصناك منهم ، حتى هربت إلى أهل مدين ، فلم يصلوا إلى قتلك وقودك . وكان قتله إياه فيما ذكر خطأ .

طه: ٤٠ - ٤٥

وقوله: «وفتناك فتوناً»، يعني: ابتليناك ابتلاءً واختبرناك اختباراً.

وقوله: «فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ»، وهذا الكلام قد حذف منه بعض ما به تمامه اكتفاءً بدلالة ما ذكر عما حذف. ومعنى الكلام: وفتناك فتوناً، فخرجت خائفاً إلى أهل مدين، فلبثت سنين فيهم.

وقوله: «ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى»، يقول جل ثناؤه: ثم جئت للوقت الذي أردنا إرسالك إلى فرعون رسولاً ولمقداره.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَصْطَفَيْنَاكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأُخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٤٣﴾

يقول تعالى ذكره: «وَأَصْطَفَيْنَاكَ لِنَفْسِي» أنعمت عليك يا موسى هذه النعم، وَمَنْنْتُ عَلَيْكَ هَذِهِ الْمَنِّ، اجْتِبَاءً مِنِّي لَكَ، واختياراً لرسالتي والبلاغ عني، والقيام بأمري ونهيي. «أَذْهَبَ أَنْتَ وَأُخُوكَ» هَارُونَ «بِآيَاتِي»، يقول: بأدلتي وحججي، اذهبا إلى فرعون بها إنه تمرّد في ضلاله وغيه، فأبلغاه رسالتي «وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي» يقول: وَلَا تَضَعُفَا فِي أَنْ تَذْكُرَانِي فِيمَا أَمَرْتُكُمَا وَنَهَيْتُكُمَا، فَإِنَّ ذِكْرُكُمَا إِيَّايَ يَقْوِي عِزَّائِكُمَا، وَيُثَبِّتُ أَقْدَامَكُمَا، لِأَنَّكُمَا إِذَا ذَكَّرْتُمَانِي، ذَكَّرْتُمَا مَنِّي عَلَيْكُمَا نِعْمًا جَمَّةً، وَمِنْنًا لَا تُحْصَى كَثْرَةً.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴿٤٤﴾ قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ﴿٤٥﴾

يقول تعالى ذكره لموسى وهارون: فَقُولَا لِفِرْعَوْنَ قَوْلًا لَّيِّنًا، ذَكِّرْ أَنْ الْقَوْلَ اللَّيِّنَ الَّذِي أَمْرُهُمَا اللَّهُ أَنْ يَقُولَاهُ لَهُ، هُوَ أَنْ يَكْنِيَاهُ.

وقوله: «لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى»، اختلف في معنى قوله: «لَعَلَّهُ» في هذا الموضع، فقال بعضهم: معناها ههنا الاستفهام، كأنهم وَجَّهُوا معنى الكلام إلى: فقولا له قولاً لينا، فانظروا هل يتذكر ويراجع أو يخشى الله فيرتدع عن طغيانه.

وقال آخرون: معنى لعل ههنا كي. ووجهوا معنى الكلام إلى «اذهباً إلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى» فادعوا وعِظَاهُ ليتذكر أو يخشى، كما يقول القائل: اعملْ عملك لعلك تأخذ أجرك، بمعنى: لتأخذ أجرك، وافرغ من عملك لعلنا نتغدى، بمعنى: لتغدى، أو حتى نتغدى، ولكلا هذين القولين وجهٌ حسنٌ، ومذهبٌ صحيح.

وقوله: «قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا»، يقول تعالى ذكره: قال موسى وهارون: ربنا إنا نخافُ فرعونَ إِنْ نحنُ دَعَوْنَاهُ إلى ما أَمَرْتَنَا أَنْ ندعوه إليه، أن يعجلَ علينا بالعقوبة.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعْذِِبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِشَايَةٍ مِّنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴿٤٧﴾

يقول الله تعالى ذكره: قال الله لموسى وهارون «لا تخافا» فرعون «إِنِّي مَعَكُمَا» أَعِينُكُمَا عليه، وأبصر كما «أَسْمَعُ» ما يجري بينكما وبينه، فأفهمكما ما تُحاورانه به «وَأَرَى» ما تفعلاَنِ ويفعل، لا يخفى عليَّ من ذلك شيء «فَأْتِيَاهُ فَقُولَا» له «إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ».

وقوله: «فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ» أرسلنا إليك يأمرُكَ أَنْ ترسلَ معنا بني إسرائيل، فأرسلهم معنا ولا تعذبهم بما تكلفهم من الأعمالِ الرديئة. «قَدْ جِئْنَاكَ

بَآيَةٍ مَّعْجَزَةٍ مِّنَ رَبِّكَ عَلَى أَنَّهُ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ بِذَلِكَ، إِنَّ أَنْتَ لَمْ تَصَدَّقْنَا فِيمَا نَقُولُ لَكَ أُرَيْنَاكَهَا، «وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى»، يقول: والسلامة لمن اتبع هدى الله، وهو بيانه، يقال: السلام على من اتبع الهدى، ولمن اتبع بمعنى واحد.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمْوَسَى ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴿٥٠﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ لِرَسُولِهِ موسى وهارون: قولاً لفرعونَ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا رَبُّكَ أَنَّ عَذَابَهُ الَّذِي لَا نَفَادَ لَهُ، وَلَا انْقِطَاعَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ بِمَا نَدْعُوهُ إِلَيْهِ مِنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ، وَإِجَابَةِ رِسْلِهِ. «وَتَوَلَّى»، يقول: وأدبر مُعْرِضاً عما جِئْنَاهُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ.

وقوله: «قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى» فِي هَذَا الْكَلَامِ مَتْرُوكٌ، تَرِكَ ذِكْرَهُ اسْتِغْنَاءً بِدَلَالَةِ مَا ذَكَرَ عَلَيْهِ عَنْهُ، وَهُوَ قَوْلُهُ: «فَأْتِيَاهُ» فَقَالَا لَهُ مَا أَمْرُهُمَا بِهِ رَبُّهُمَا وَأَبْلَغَاهُ رِسَالَتَهُ، فَقَالَ فَرْعَوْنُ لهُمَا: «فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى» فَخَاطَبَ مُوسَى وَحْدَهُ بِقَوْلِهِ: «يَا مُوسَى»، وَقَدْ وَجَّهَ الْكَلَامَ قَبْلَ ذَلِكَ إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ. وَإِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، لِأَنَّ الْمَجَابَةَ إِنَّمَا تَكُونُ مِنَ الْوَاحِدِ وَإِنْ كَانَ الْخَطَابُ بِالْجَمَاعَةِ لَا مِنَ الْجَمِيعِ، وَذَلِكَ نَظِيرُ قَوْلِهِ: «نَسِيَا حُوتَهُمَا»، وَكَانَ الَّذِي يَحْمِلُ الْحُوتَ وَاحِدًا، وَهُوَ فَتَى مُوسَى، يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ: «إِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ».

وقوله: «قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى»، يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرَهُ: قَالَ مُوسَى لَهُ مُجِيبًا: رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ، يَعْنِي: نَظِيرُ

خَلَقَهُ فِي الصُّورَةِ وَالْهَيْئَةِ كَالذَّكُورِ مِنْ بَنِي آدَمَ، أَعْطَاهُمْ نَظِيرَ خَلْقِهِمْ مِنَ الْإِنَاثِ أَزْوَاجًا، وَكَالذَّكُورِ مِنَ الْبَهَائِمِ، أَعْطَاهَا نَظِيرَ خَلْقِهَا، وَفِي صُورَتِهَا وَهَيْئَتِهَا مِنَ الْإِنَاثِ أَزْوَاجًا، فَلَمْ يَعْطِ الْإِنْسَانَ خِلَافَ خَلْقِهِ، فَيُزَوِّجُهُ بِالْإِنَاثِ مِنَ الْبَهَائِمِ، وَلَا الْبَهَائِمَ بِالْإِنَاثِ مِنَ الْإِنْسِ، ثُمَّ هَدَاهُمْ لِلْمَاتَى الَّذِي مِنْهُ النُّسْلُ وَالنَّمَاءُ كَيْفَ يَأْتِيهِ، وَلَسَائِرِ مَنَافِعِهِ مِنَ الْمَطَاعِمِ وَالْمَشَارِبِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴿٥٠﴾ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴿٥١﴾

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرَهُ: قَالَ فَرَعُونَ لِمُوسَى، إِذْ وَصَفَ مُوسَى رَبَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ بِمَا وَصَفَهُ بِهِ مِنْ عَظِيمِ السُّلْطَانِ، وَكَثْرَةِ الْإِنْعَامِ عَلَى خَلْقِهِ وَالْإِفْضَالِ، فَمَا شَأْنُ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ مِنْ قَبْلِنَا لَمْ تَقَرَّ بِمَا تَقُولُ، وَلَمْ تَصَدَّقْ بِمَا تَدْعُو إِلَيْهِ، وَلَمْ تَخْلُصْ لَهُ الْعِبَادَةَ، وَلَكِنَّا عَبَدْنَا الْأَلْهَةَ وَالْأَوْثَانَ مِنْ دُونِهِ، إِنْ كَانَ الْأَمْرُ عَلَى مَا تَصِفُ مِنْ أَنَّ الْأَشْيَاءَ كُلَّهَا خَلَقَهُ، وَأَنَّهَا فِي نِعْمَةٍ تَتَقَلَّبُ، وَفِي مَنَّةٍ تَتَصَرَّفُ، فَأُجَابَهُ مُوسَى فَقَالَ: عَلِمْتُ هَذِهِ الْأُمَمِ الَّتِي مَضَتْ مِنْ قَبْلِنَا فِيمَا فَعَلْتَ مِنْ ذَلِكَ، عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ: يَعْنِي فِي أَمِّ الْكِتَابِ، لَا عَلِمْتُ لِي بِأَمْرِهَا، وَمَا كَانَ سَبَبَ ضَلَالِ مَنْ ضَلَّ مِنْهُمْ فَذَهَبَ عَنْ دِينِ اللَّهِ «لَا يَضِلُّ رَبِّي»، يَقُولُ: لَا يَخْطِئُ رَبِّي فِي تَدْبِيرِهِ وَأَفْعَالِهِ، فَإِنْ كَانَ عَذَّبَ تِلْكَ الْقُرُونِ فِي عَاجِلٍ، وَعَجَّلَ هَلَاكَهَا، فَالْصَّوَابُ مَا فَعَلَ، وَإِنْ كَانَ أَخَّرَ عِقَابَهَا إِلَى الْقِيَامَةِ، فَالْحَقُّ مَا فَعَلَ، هُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُ، لَا يَخْطِئُ رَبِّي «وَلَا يَنْسَى» فَيَتْرَكُ فِعْلَ مَا فَعَلَهُ حِكْمَةً وَصَوَابًا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ

لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ﴿٥٢﴾

اختلف أهل التأويل في قراءة قوله : «مَهْدًا» فقرأته عامة قُرأة المدينة والبصرة : «الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مِهَادًا» بكسر الميم من المهاد وإلحاق ألف فيه بعد الهاء، وكذلك عملهم ذلك في كلِّ القرآن. وزعم بعضُ مَنْ اختار قراءة ذلك كذلك، إنه إنما اختاره من أجل أنَّ المهاد: اسم الموضع، وأنَّ المهد الفعل؛ قال: وهو مثل الفرش والفراش. وقرأ ذلك عامة قُرأة الكوفيين : «مَهْدًا» بمعنى: الذي مهد لكم الأرض مهذاً.

والصوابُ من القولِ في ذلك أن يقال: إنهما قراءتان مستفيضتان في قراءة الأمصار مشهورتان، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيبُ الصوابِ فيها.

وقوله: «وَسَلَّكَ لَكُمُ فِيهَا سُبُلًا»، يقول: وأنهج لكم في الأرض طرقاً.

وقوله: «وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً»، يقول: وأنزل من السماء مطراً. «فأخرجنا به أزواجاً من نَبَاتٍ شَتَّى».

وهذا خبرٌ من الله تعالى ذكره عن إنعامه على خلقه بما يحدث لهم من الغيث الذي ينزله من سمائه إلى أرضه، بعد تناهي خبره عن جواب موسى فرعون عما سألَه عنه وثناؤه على ربه بما هو أهله، يقولُ جلُّ ثناؤه فأخرجنا نحن أيها الناسُ بما ننزل من السماء من ماء أزواجاً، يعني ألواناً من نباتٍ شتَّى، يعني مختلفة الطعومِ، والأرايحِ والمنظر.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ**
لِأُولِي الْأَلْبَابِ

يقول تعالى ذكره: كلوا أيها الناسُ من طيبِ ما أخرجنا لكم بالغيث الذي أنزلناه من السماء إلى الأرض من ثمارِ ذلك وطعامه، وما هو من أقواتكم وغذائكم، وارعوا فيما هو أرزاقُ بهائمكم منه، وأقواتها أنعامكم. «إِنَّ فِي ذَلِكَ

لآياتٍ»، يقول: إنَّ فيما وصفتُ في هذه الآية من قدرة ربكم، وعظيم سلطانه لآياتٍ: يعني لدلالات وعلامات تدلُّ على وحدانية ربكم، وأن لا إله لكم غيره. «أُولِي النُّهْيِ»، يعني: أهل الحجى والعقول. والنُّهْيُ: جمع نُهْيَةٍ وخصَّ تعالى ذِكْرَهُ بأن ذلك آيات لأولي النُّهْيِ، لأنهم أهل التفكير والاعتبار، وأهل التدبّر والانتعاظ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿٥٥﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: من الأرضِ خلقناكم أيها الناس، فأنشأناكم أجساماً ناطقة. «وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ»، يقول: وفي الأرض نعيدكم بعد مماتكم، فنصيركم تراباً، كما كنتم قبل إنشائناكم بشراً سوياً. «وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ»، يقول: ومن الأرض نخرجكم كما كنتم قبل مماتكم أحياء، فننشئكم منها، كما أنشأناكم أوَّلَ مرَّة.

وقوله: «تَارَةً أُخْرَى» يقول: مرَّة أخرى.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴿٥٦﴾

يقول تعالى ذكره: ولقد أَرَيْنَا فرعون آياتنا، يعني أدلّنا وحججنا على حقيقة ما أرسلنا به رسولنا، موسى وهارون إليه كلها. «فَكَذَّبَ وَأَبَى» أن يقبل من موسى وهارون ما جاء به من عند رَبِّهِما من الحقِّ استكباراً وعتوّاً.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا

بِسِحْرِكَ يَمْوَسَى ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرِ مِثْلِهِ، فَأَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلَفُهُ وَنَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾

يقول تعالى ذكره: قال فرعونُ لما أريناهُ آياتنا كُلَّها لرسولنا موسى، أجبنا يا موسى لتخرجنا من منازلنا ودُورنا بسحرك هذا الذي جئنا به. «فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرِ مِثْلِهِ، فَأَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا» لا نتعدَّاهُ، لنجئ بسحرٍ مثل الذي جئت به، فننظر أيُّنا يغلبُ صاحبه، لا نخلفُ ذلك الموعد. «نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى»، يقول: بمكانٍ عدلٍ بيننا وبينك ونَصِف.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴿٦٠﴾

يقول تعالى ذكره: قال موسى لفرعون حين سأله أن يجعلَ بينه وبينه موعداً للاجتماع «مَوْعِدُكُمْ» للاجتماع «يَوْمَ الزَّيْنَةِ»، يعني يوم عيد كان لهم أو سوق كانوا يترزنون فيه. «وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ»، يقول: وأن يُسَاقَ الناسُ من كلِّ فجٍّ وناحية «ضُحًى» فذلك موعد ما بيني وبينك للاجتماع.

وقوله: «فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ»، يقول تعالى ذكره: فادبر فرعون معرضاً عما أتاهُ به من الحقِّ. «فَجَمَعَ كَيْدَهُ»، يقول: فجمع مكره، وذلك جمعه سحرته بعد أخذه إياهم بتعلمه «ثُمَّ أَتَى» يقول، ثم جاء للموعد الذي وعده موسى، وجاء بسحرته.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ لَهُمُ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَيَّ اللَّهُ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى ﴿٦١﴾

يقول تعالى ذكره: قال موسى للسحرة لما جاء بهم فرعون: «وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا» يقول: لا تخلقوا على الله كذباً، ولا تتقولوه. «فَيُسْحِتْكُمْ بِعَذَابٍ» فيستأصلكم بهلاكٍ فيبيدكم.

وقوله: «وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى»، يقول: ولم يظفر من يخلق كذباً، ويقول به بكذبه ذلك بحاجته التي طلبها به، ورَجَا إدراكها به.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَتَنَّا زَعْوَاهُمْ أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرَوْا
النَّجْوَى ﴿٦١﴾ قَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا لَسِحْرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ
بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى ﴿٦٢﴾

يقول تعالى ذكره: فتنازع السحرة أمرهم بينهم.

وكان تنازعهم أمرهم بينهم فيما ذُكِرَ أَنْ قَالَ بعضهم لبعض: إِنْ كَانَ هَذَا
ساحراً فَإِنَّا سَنُغْلِبُهُ، وَإِنْ كَانَ مِنَ السَّمَاءِ فَلَهُ أَمْرٌ.

وقال آخرون: بل هو أَنْ بَعْضُهُمْ قَالَ لِبَعْضٍ: مَا هَذَا الْقَوْلُ بِقَوْلِ سَاحِرٍ.

وقوله: «وَأَسْرَوْا النَّجْوَى»، يقول تعالى ذكره: وأسروا - السحرة - المناجاة
بينهم.

وقد اختلفت القراءَةُ فِي قِرَاءَةِ قَوْلِهِ: «إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ»، فقراءته عامة قِرَاءَةُ
الْأَمْصَارِ. «إِنَّ هَذَانِ» بتشديد إِنْ وبِالْأَلْفِ فِي هَذَانِ، وَقَالُوا: قَرَأْنَا ذَلِكَ كَذَلِكَ.
وَكَانَ بَعْضُ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ يَقُولُ: «إِنْ» خَفِيفَةٌ فِي مَعْنَى ثَقِيلَةٍ،
وَهِيَ لُغَةٌ لِقَوْمٍ يَرْفَعُونَ بِهَا، وَيَدْخُلُونَ اللَّامَ لِيَفْرُقُوا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الَّتِي تَكُونُ فِي
مَعْنَى مَا.

وَالصَّوَابُ مِنَ الْقِرَاءَةِ فِي ذَلِكَ عِنْدَنَا «إِنَّ» بِتَشْدِيدِ نُونِهَا، وَهَذَانِ بِالْأَلْفِ

لإجماع الحجة من القراءة عليه، وأنه كذلك هو في خط المصحف.

وقوله: «وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى»، يقول: ويغلبا على ساداتكم وأشرافكم، يقال: هو طريقة قوم ونظرة قوم، ونظيرتهم، إذا كان سيدهم وشريفهم والمنظور إليه، يقال ذلك للواحد والجمع، وربما جمعوا، فقالوا: هؤلاء طرائق قومهم؛ ومنه قول الله تبارك وتعالى: «كُنَّا طَرَائِقَ قِدَادًا» وهؤلاء نظائر قومهم.

وأما قوله: «الْمُثْلَى» فإنها تأنيث الأمثل، يقال للمؤنث: خذ المثلَى منهما. وفي المذكر: خذ الأمثلَ منهما، ووحدت المثلَى، وهي صفة ونعت للجماعة، كما قيل: «لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى»، وقد يحتمل أن يكون المثلَى أنثى لتأنيث الطريقة.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى ﴿٦٤﴾

قوله: «فاجمعوا كيدكم»، يقول: فأحكموا كيدكم واعزموا عليه.

وقوله: «ثُمَّ أَتُوا صَفًّا»، يقول: احضروا وجيئوا صفًّا؛ والصفُّ ههنا مصدر، ولذلك وحد، ومعناه: ثم اتوا صفوفًا، وللصفِّ في كلام العرب موضع آخر، وهو قول العرب: أتيت الصفَّ اليوم يعني به المصلى الذي يصلى فيه.

وقوله: «وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى»، يقول: قد ظفر بحاجته اليوم مَنْ عَلَا على صاحبه فقهره.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالُوا يَمْوَسَّىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَ إِمَّا أَنْ تَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقَوُا إِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيهِمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُ تَسْعَىٰ ٢٠٤

يقول تعالى ذِكْرَهُ: فأجمعت السحرة كيدهم، ثم أتوا صفاً فقالوا لموسى: «يا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ، وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى»، وترك ذكر ذلك من الكلام اكتفاء بدلالة الكلام عليه.

ومعنى الكلام: اختر يا موسى أحد هذين الأمرين: إما أَنْ تُلْقِيَ قَبْلَنَا، وإما أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى.

وقوله: «قَالَ بَلْ أَلْقُوا» يقول تعالى ذكره: قال موسى للسحرة: بل ألقوا أنتم ما معكم قبلي.

وقوله: «فَإِذَا جِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى»، وفي هذا الكلام متروك، وهو: فآلقوا ما معهم من الحبال والعصي، فإذا جبالهم، ترك ذكره استغناء بدلالة الكلام الذي ذكر عليه عنه. وذكر أَنَّ السحرة سحروا عين موسى وأعين الناس قبل أَنْ يُلْقُوا جبالهم وعصيتهم، فَخُيِّلَ حينئذٍ إلى موسى أَنَّهَا تَسْعَى.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴿٦٩﴾

يعني تعالى ذِكْرَهُ بقوله: فأوجس في نفسه خوفاً موسى فوجده.

وقوله: «قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى»، يقول تعالى ذكره: قلنا لموسى إِذْ أَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً: «لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى» على هؤلاء السحرة، وعلى فرعون وجنوده، والظاهر لهم. «وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا»،

يقول: وألق عصاك تبتلع حبالهم وعصيتهم التي سحروها حتى خيل إليك أنها تسعى .

وقوله: «إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٍ»، اختلفت القراءة في قراءة قوله، فقرأته عامة قراءة المدينة والبصرة وبعض قراءة الكوفة: «إِنَّ مَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٍ» برفع كيد وبالألف في ساحر بمعنى: إن الذي صنعه هؤلاء السحرة كيدٌ من ساحر. وقراء ذلك عامة قراءة الكوفة: «إِنَّ مَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٍ» برفع الكيد وبغير الألف في السحر بمعنى: إن الذي صنعه كيدٌ سحر.

والقول في ذلك عندي أنهما قراءتان مشهورتان متقاربتا المعنى، وذلك أن الكيد هو المكر والخدعة، فالساحر مكره وخدعته من سحر يسحر، ومكر السحر وخدعته: تخيله إلى المسحور، على خلاف ما هو به في حقيقته، فالساحر كائد بالسحر، والسحر كائد بالتخييل، فإلى أيهما أضفت الكيد فهو صواب.

وقوله: «وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى»، يقول: ولا يظفر الساحر بسحره بما طلب أين كان.

القول في تأويل قوله تعالى: فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴿٧٠﴾ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا تُقِطَعُونَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صَلْبَتُكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَنْتَعْلَمَنَّ آيُنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴿٧١﴾

وفي هذا الكلام متروك قد استغني بدلالة ما ترك عليه وهو: فألقى موسى عصاه، فتلقفت ما صنعوا «فألقى السحرة سجداً، قالوا آمنا برب هارون وموسى»، وذكر أن موسى لما ألقى ما في يده تحول ثعباناً، فالتقم كل ما كانت

السحرة ألقته من الحبال والعصي.

وقوله: «قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ»، يقول جل ثناؤه: وقال فرعون للسحرة: أصدقتهم وأقررتهم لموسى بما دعاكم إليه من قبل أن أطلق ذلك لكم. «إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ»، يقول: إن موسى لعظيمكم «الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحَرَ».

وقوله: «فَلَا قُطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خِلَافٍ»، يقول: فلا قطعن أيديكم وأرجلكم مخالفاً بين قطع ذلك وذلك أن يقطع يميني اليدين ويسرى الرجلين، أو يسرى اليدين، ويمنى الرجلين، فيكون ذلك قطعاً من خلاف، وكان فيما ذكر أول مَنْ فعل ذلك فرعون.

وقوله: «وَلَا صَلْبَبْتُكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ»، يقول: ولا أصلبكم على جدوع النخل.

وقوله: «وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى»، يقول: ولتعلمن أيها السحرة أيُّنا أشدُّ عذاباً لكم، وأدوم، أنا أو موسى.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِئَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿٧٣﴾

يقول تعالى ذكره: قالت السحرة لفرعون لما توعدهم بما توعدهم به «لَنْ نُؤْثِرَكَ» فتبعك ونكذب من أجلك موسى «عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ» يعني من الحجج والأدلة على حقيقة مادعاهم إليه موسى. «وَالَّذِي فَطَرَنَا»، يقول: قالوا لن نؤثر على الذي جاءنا من البينات، وعلى الذي فطرنا، ويعني بقوله: «فَطَرَنَا» خلقنا، فالذي من قوله: «وَالَّذِي فَطَرَنَا» خفض على قوله «ما جاءنا»،

وقد يحتمل أن يكون قوله: «وَالَّذِي فَطَرَنَا» خفضاً على القسم، فيكون معنى الكلام: لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والله.

وقوله: «فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ»، يقول: فاصنع ما أنت صانع، واعمل بنا مابدا لك. «إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا»، يقول: إنما تقدر أن تُعَذِّبَنَا فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الَّتِي تَفْنَى، وَنَصَبَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْوَقْتِ وَجَعَلْتَ إِنَّمَا حَرْفًا وَاحِدًا.

وقوله: «إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا»، يقول تعالى ذكره: إنا أقررنا بتوحيد ربنا، وَصَدَّقْنَا بِوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ، وَأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ مُوسَى حَقٌّ. «لِنَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا»، يقول: ليعفو لنا عن ذنوبنا فيسترها علينا. «وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ»، يقول: ليغفر لنا ذنوبنا، وَتَعَلَّمْنَا مَا تَعَلَّمْنَاهُ مِنَ السِّحْرِ، وَعَمَلْنَا بِهِ الَّذِي أَكْرَهْتَنَا عَلَى تَعَلُّمِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ، وَذَكَرَ أَنَّ فِرْعَوْنَ كَانَ أَخَذَهُمْ بِتَعْلِيمِ السِّحْرِ.

وقوله: «وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى»، يقول: والله خير منك يا فِرْعَوْنَ جزاء لمن أطاعه، وَأَبْقَى عَذَابًا لِمَنْ عَصَاهُ وَخَالَفَ أَمْرَهُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴿٧٥﴾

يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيل السحرة لفرعون: «إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ» مِنْ خَلْقِهِ «مُجْرِمًا»، يقول: مكتسباً الكفر به. «فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ»، يقول: فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ مَا أَوْى وَمَسْكَنًا، جزاء له على كفره. «لَا يَمُوتُ فِيهَا» فَتَخْرَجَ نَفْسُهُ. «وَلَا يَحْيَا» فَتَسْتَقِرُّ نَفْسُهُ فِي مَقَرِّهَا فَتَطْمَئِنُّ، وَلَكِنهَا تَتَعَلَّقُ بِالْحَنَاجِرِ مِنْهُمْ. «وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا» مُوَحِّدًا لَا يُشْرِكُ بِهِ «قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ»، يقول: قد عمل ما أمره به ربه،

وانتهى عما نهاه عنه. «فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى»، يقول: فأولئك الذين لهم درجات الجنة العلى.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴿٧٦﴾

يقول تعالى ذكره: وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمَلَ الصَّالِحَاتِ، فأولئك لهم الدرجات العلى. ثم يَبَيِّنُ تلك الدرجات العلى ماهي، فقال: هُنَّ «جَنَّاتُ عَدْنٍ» يعني: جنات إقامة لا ظعن عنها ولا نفاد لها ولا فناء. «تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ»، يقول: تجري من تحت أشجارها الأنهار «خَالِدِينَ فِيهَا»، يقول: ماكثين فيها إلى غير غاية محدودة.

وقوله: «وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى»، يقول: وهذه الدرجات العلى التي هي جنات عدن على ما وصف جلّ جلاله ثواب مَنْ تَزَكَّى، يعني: مَنْ تَطَهَّرَ مِنَ الذُّنُوبِ، فأطاع الله فيما أمره، ولم يدنس نفسه بمعصيته فيما نهاه عنه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ﴿٧٧﴾

يقول تعالى ذكره: «وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى نَبِينَا «مُوسَى» إِذْ تَابَعْنَا لَهُ الْحُجُجَ عَلَى فِرْعَوْنَ، فَأَبَى أَنْ يَسْتَجِيبَ لِأَمْرِ رَبِّهِ، وَطَغَى وَتَمَادَى فِي طُغْيَانِهِ «أَنْ أَسْرِ» لَيْلًا «بِعِبَادِي» يعني بعبادي من بني إسرائيل. «فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا»، يقول: فاتخذ لهم في البحر طريقاً يابساً.

وأما قوله : « لَا تَخَافُ دَرْكًا وَلَا تَخْشَى » فإنه يعني : لا تخاف من فرعون وجنوده أن يدركوك من ورائك ، ولا تخشى غرقاً من بين يديك ووحلاً .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ۖ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٨﴾

يقول تعالى ذكره : فَسَرَىٰ مُوسَىٰ بِنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ أَسْرِ بِهُمْ ، فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ حِينَ قَطَعُوا الْبَحْرَ ، فَغَشِيَ فِرْعَوْنُ وَجُنْدُهُ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ، فَغَرَقُوا جَمِيعًا . « وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ » ، يقول جل ثناؤه : وجاوزَ فِرْعَوْنُ بِقَوْمِهِ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ، وَأَخَذَ بِهِمْ عَلَىٰ غَيْرِ اسْتِقَامَةٍ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ سَلَكَ بِهِمْ طَرِيقَ أَهْلِ النَّارِ ، بِأَمْرِهِم بِالْكَفْرِ بِاللَّهِ ، وَتَكْذِيبِ رِسَالِهِ . « وَمَا هَدَىٰ » ، يقول : وَمَا سَلَكَ بِهِمْ الطَّرِيقَ الْمُسْتَقِيمَ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ نَهَاَهُمْ عَنْ اتِّبَاعِ رَسُولِ اللَّهِ مُوسَىٰ ، وَالتَّصَدِيقِ بِهِ ، فَأَطَاعُوهُ ، فَلَمْ يَهْدِهِمْ بِأَمْرِهِ إِيَّاهُمْ بِذَلِكَ ، وَلَمْ يَهْتَدُوا بِاتِّبَاعِهِمْ إِيَّاهُ .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : يَنْبِئُ إِسْرَءِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكَ مِنَ عَدُوِّكَ ۖ وَوَعَدْنَاكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ ﴿٧٩﴾ كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ۖ

يقول تعالى ذكره : فلما نجا موسى بقومه من البحر ، وَغَشِيَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمَهُ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ، قلنا لقوم موسى : « يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكَ مِنْ عَدُوِّكَ » فِرْعَوْنُ « وَوَعَدْنَاكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ ، وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ » ، وقد ذكرنا كيف كانت مواعدة الله موسى وقومه جانب الطور الأيمن . وقد بينا المَنَّاءَ

والسلوى باختلافِ المختلفين فيهما، وذكرنا الصواب من القول في ذلك فيما مضى قَبْلُ، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

وقوله: «كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُهْ لَهُمْ: كلوا يا بني إسرائيل من شهياتِ رزقنا الذي رزقناكم، وحلاله الذي طَيَّبْنَاهُ لَكُمْ. «وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ»، يقول: ولا تعتدوا فيه، ولا يظلم فيه بعضكم بعضاً.

وقوله: «فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي» يقول: فينزل عليكم عقوبتي.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾

يقول تعالى ذكره: وَمَنْ يَجِبُ عَلَيْهِ غَضَبِي فينزلُ به، فقد هوى، يقول فقد تَرَدَّى فَشَقِيَ.

وقوله: «وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ»، يقول: وإني لذو غفر لمن تاب من شِرْكِهِ فرجع منه إلى الإيمانِ لي. «وَأَمَنَ»، يقول: وأخلص لي الألوهة ولم يشرك في عبادته إياي غيري «وَعَمِلَ صَالِحًا»، يقول: وأدَّى فرائضي التي افترضتها عليه، واجتنب معاصي. «ثُمَّ اهْتَدَى»، يقول: ثم لزم ذلك فاستقام ولم يضيع شيئاً منه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمْؤِسِي ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾

يقول تعالى ذكره: «وَمَا أَعْجَلَكَ وَأَيُّ شَيْءٍ أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ

يَا مُوسَى فَقَدْ مَتَّعْتُهُمْ وَخَلَفْتَهُمْ وَرَأَاكَ وَلَمْ تَكُنْ مَعَهُمْ قَالَ: هُمْ أَوْلَاءِ عَلَيَّ أَثْرِي، يقول: قومي على أَثْرِي يلحقون بي «وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى»، يقول: وعجلتُ أنا فسبقتهم رَبِّ كيما ترضى عني.

وإنما قال الله تعالى ذكره لموسى: ما أعجلَكَ عن قومِكَ، لأنه جَلَّ ثَنَاؤُهُ فيما بلغنا حين نَجَّاهُ وبني إِسْرَائِيلَ من فرعونَ وقومه وقطع بهم البحرَ وَعَدَهُمْ جانبَ الطَّوْرِ الْأَيْمَنِ، فتعَجَّلَ موسى إلى ربه.

وأقام هارون في بني إِسْرَائِيلَ يَسِيرُ بِهِمْ على أَثْرِ موسى

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٤﴾ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبُ رَبِّكُمْ قَدْ خَلَقْتُمْ مَوْعِدِي ﴿٨٥﴾

يقول الله تعالى ذكره قال الله لموسى: فَإِنَّا يَا موسى قد ابتَلينا قومَكَ من بعدكَ بعبادةِ العجل، وذلك كان فتنَتَهُم من بعد موسى. ويعني بقوله: «مِنْ بَعْدِكَ»: من بعد فراقِكَ إياهم. يقول الله تبارك وتعالى: «وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ»، وكان إضلال السامريِّ إياهم دعاءه إياهم إلى عبادةِ العجل.

وقوله: «فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ» يقول: فانصرف موسى إلى قومه من بني إِسْرَائِيلَ بعد انقضاء الأربعين ليلة. «غَضْبَانَ أَسِفًا» متغيظاً على قومه، حزيناً لما أحدثوه بعده من الكفر بالله.

وقوله: «قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا»، يقول: أَلَمْ يَعِدْكُمْ ربكم أنه غفارٌ لمن تابَ وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى، ويعدكم جانبَ الطَّوْرِ

الأيمن، وينزل عليكم المن والسلوى، فذلك وعد الله الحسن بني إسرائيل الذين قال لهم موسى: ألم يعدكموه ربكم.

وقوله: «أَفْطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ، أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ»، يقول: أَفْطَالَ عليكم العهد بي، وبجميل نعم الله عندكم، وأيديه لديكم، أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عليكم غضب من ربكم: أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَجِبَ عليكم غضب من ربكم فتستحقوه بعبادتكم العجل، وكفركم بالله، فأخلفتم موعدى. وكان إخلافهم موعدَهُ، عكوفهم على العجل، وتركهم السير على أثر موسى للموعد الذي كان الله وعدهم، وقولهم لهارون إذ نهاهم عن عبادة العجل، ودعاهم إلى السير معه في أثر موسى: «لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى».

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا وَلَكِنَّا حُمَلْنَا أَوْ زَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَدْ فَتَنَّا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ۖ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا آلَهُ خُورًا فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ۝

يقول تعالى ذكره: قال قوم موسى لموسى: ما أخلفنا موعدك يعنون بموعده عهدَهُ الذي كان عهدُهُ إليهم.

وقوله: «بِمَلَكِنَا» يخبر جل ذكره عنهم أنهم أقروا على أنفسهم بالخطأ، وقالوا: إنا لم نطق بحمل أنفسنا على الصواب، ولم نملك أمرنا حتى وقعنا في الذي وقعنا فيه من الفتنة.

وقوله: «وَلَكِنَّا حُمَلْنَا أَوْ زَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ»، يقول: ولكننا حُمَلْنَا أُنْقَالًا وأحمالاً من زينة القوم يعنون من حلي آل فرعون، وذلك أن بني إسرائيل لما

أراد موسى أن يسير بهم ليلاً من مصر بأمرِ الله إياه بذلك، أمرهم أن يستعبروا من أمتة آل فرعون وحليهم، وقال: إن الله مُغنمكم ذلك، ففعلوا، واستعاروا من حليّ نسائهم وأمتعتهم، فذلك قولهم لموسى حين قال لهم: «أَفْطَالٌ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ، أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمُ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي. قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا، وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ».

وقوله: «فَقَذَفْنَاهَا»، يقول: فألقينا تلك الأوزار من زينة القوم في الحفرة «فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ»، يقول: فكما قذفنا نحن تلك الأثقال، فكذلك ألقى السامريّ ما كان معه من تربة حافرِ فرسِ جبريل.

وقوله: «فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُورٌ»، يقول: فأخرج لهم السامريّ مما قذفوه ومما ألقاه عجلاً جسداً له خوار، ويعني بالخوار: الصوت، وهو صوت البقر.

وقوله: «فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى»، يقول: فقال قومُ موسى الذين عبدوا العجل: هذا معبودكم ومعبود موسى.

وقوله: «فَنَسِيَ» يقول: فَضَلَّ وترك.

ثم اختلف أهل التأويل في قوله: «فَنَسِيَ» مَنْ قائله وَمَنْ الذي وصف به وما معناه، فقال بعضهم: هذا من الله خبرٌ عن السامريّ والسامريّ هو الموصوفُ به، وقالوا: معناه: أنه ترك الدين الذي بعث الله به موسى وهو الإسلام.

وقال آخرون: بل هذا خبرٌ من الله عن السامريّ، أنه قال لبني إسرائيل، وأنه وصف موسى بأنه ذهب يطلب ربه، فأضلَّ موضِعَهُ، وهو هذا العجل.

والذي هو أولى بتأويل ذلك قولُ من قال: إن ذلك خبرٌ من الله عزَّ ذكره عن السامريّ أنه وصف موسى بأنه نسي ربه، وأنَّ رَبَّهُ الذي ذهبَ يريده هو العجل الذي أخرجه السامريّ لإجماع الحجة من أهل التأويل عليه، وأنه

عقيب ذكر موسى ، وهو أن يكون خبراً من السامري عنه بذلك أشبه من غيره .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : أَفَلَا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴿٩٠﴾

يقول تعالى ذكره موبخاً عبدة العجل والقائلين له : « هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ » وعابهم بذلك ، وسفّه أحلامهم بما فعلوا ونالوا منه ، أفلا يرون أن العجل الذي زعموا أنه إلههم وإله موسى لا يكلمهم ، وإن كلموه لم يرد عليهم جواباً ، ولا يقدر على ضرٍ ولا نفع ، فكيف يكون ما كانت هذه صِفته إلهاً ؟

وقوله : « وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ » ، يقول : ولقد قال لعبدة العجل من بني إسرائيل هارون من قبل رجوع موسى إليهم ، وقيله لهم ما قال مما أخبر الله عنه . « إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ » ، يقول : إنما اختبر الله إيمانكم ومحافظةكم على دينكم بهذا العجل الذي أحدث فيه الخوار ليعلم به الصحيح الإيمان منكم من المريض القلب ، الشاك في دينه .

وقوله : « وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي » ، يقول : وإن ربكم الرحمن الذي يعم جميع الخلق نعمه فاتَّبِعُونِي على ما أمركم به من عبادة الله وترك عبادة العجل وأطيعوا أَمْرِي فيما أمركم به من طاعة الله ، وإخلاص العباد له .

وقوله : « قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ » ، يقول : قال عبدة العجل من قوم موسى : لن نزال على العجل مقيمين نعبد ، حتى يرجع إلينا موسى .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ يَهْرُونُ مَامْنَعُكَ إِذْ رَأَيْنَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾
 أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَومُ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي
 خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾

يقول تعالى ذكره: قال موسى لأخيه هارون لما فرغ من خطاب قومه ومراجعته إياهم على ما كان من خطأ فعلهم: يا هارون أي شيء منعك إذ رأيتهم ضلوا عن دينهم، فكفروا بالله وعبدوا العجل ألا تتبعني.

وقوله: «قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي»، وفي هذا الكلام متروك، ترك ذكره استغناء بدلالة الكلام عليه، وهو: ثم أخذ موسى بلحية أخيه هارون ورأسه يجره إليه، فقال هارون: «يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي».

وقوله: «إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي»، فاختلف أهل العلم في صفة التفريق بينهم، الذي خشي هارون، فقال بعضهم: كان هارون خاف أن يسير بمن أطاعه، وأقام على دينه في أثر موسى، ويخلف عبدة العجل، وقد «قالوا» له: «لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى» فيقول له موسى: «فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي» بسيرك بطائفة، وتركك منهم طائفة وراءك.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: خشيت أن تقتل فيقتل بعضنا بعضاً.

وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: إن موسى عدل أخاه هارون على تركه اتباع أمره بمن اتبعه من أهل الإيمان، فقال له هارون: إني خشيت أن تقول، فرقت بين جماعتهم، فتركت بعضهم وراءك، وحث بعضهم، وذلك بين في قول هارون للقوم: «يا قوم إنما فُتِنْتُمْ بِهِ، وَإِنْ رَبُّكُمُ

الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي»، وفي جواب القوم له، وقيلهم: «لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى».

وقوله: «وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي»، يقول: ولم تنظر قولي وتحفظه. من مراقبة الرجل الشيء، وهي مناظرته بحفظه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسْمَرِي ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ، فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ» قال موسى للسامري: فما شأنك يا سامري، وما الذي دعاك إلى ما فعلته.

وقوله: «بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ»، يقول: قال السامري: علمت ما لم يعلموه، وهو فعلت من البصيرة: أي صرت بما عملت بصيراً عالمًا.

وقوله: «فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ»، يقول: قبضت قبضة من أثر حافر فرس جبرئيل.

وقوله: «فَنَبَذْتُهَا»، يقول: فألقيتها «وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي»، يقول: وكما فعلت من إلقائي القبضة التي قبضت من أثر الفرس على الحلية التي أوقد عليها حتى انسبكت فصارت عجلًا جسدًا له خوار. «سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي»، يقول: زينت لي نفسي أنه يكون ذلك كذلك.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسٌ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ يُخْلَفَهُ، وَانْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ

عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ
الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾

يقول تعالى ذكره: قال موسى للسامري: فاذهب فإن لك في أيام حياتك
أن تقول: لا مساس: أي لا أمس، ولا أمس. وذكر أن موسى أمر بني
إسرائيل أن لا يؤاكلوه، ولا يخالطوه، ولا يبائعوه، فلذلك قال له: إن لك في
الحياة أن تقول لا مساس، فبقي ذلك فيما ذكر في قبيلته.

وقوله: «وإن لك موعداً لن تخلفه»، اختلفت القراءة في قراءته، فقرأته
عامة قراءة أهل المدينة والكوفة «لن تخلفه» بضم التاء وفتح اللام بمعنى:
وإن لك موعداً لعذابك وعقوبتك على ما فعلت من إضلالك قومي حتى عبدوا
العجل من دون الله، لن يخلفك الله، ولكن يذيقك. وقرأ ذلك آخرون: «وإن
لك موعداً لن تخلفه» بضم التاء وكسر اللام، بمعنى: وإن لك موعداً لن تخلفه
أنت يا سامري، وتأولوه بمعنى: لن تغيب عنه.

والقول في ذلك عندي أنهما قراءتان مشهورتان متقاربتا المعنى، لأنه لا
شك أن الله موفٍ وعده لخلقه بحشرهم لموقف الحساب، وأن الخلق موافون
ذلك اليوم، فلا الله مخلفهم ذلك، ولا هم مخلفوه بالتخلف عنه، فبأيتهما قرأ
القارئ فمصيب الصواب في ذلك.

وقوله: «وانظروا إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً»، يقول: وانظر إلى
معبودك الذي ظلت عليه مقيماً تعبد.

وقوله: «لنحرقنه»، يقول: لنحرقنه بالنار قطعة قطعة.

وقوله: «ثم لننسفه في اليم نسفاً»، يقول: ثم لنذريته في البحر تدريةً،
يقال منه: نسف فلان الطعام بالمنسف: إذا ذراه فطير عنه قشوره وترا به باليد
أو الريح.

وقوله: «إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ»، يقول: ما لكم أيها القوم معبود، إلا الذي له عبادة جميع الخلق لا تصلح العبادة لغيره، ولا تنبغي أن تكون إلا له. «وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا»، يقول: أحاط بكل شيء علماً فعلمه، فلا يخفى عليه منه شيء ولا يضيق عليه علم جميع ذلك، يقال منه: فلان يسع لهذا الأمر: إذا أطاقه وقوي عليه، ولا يسع له: إذا عجز عنه فلم يطقه ولم يقو عليه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا



يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: كما قَصَصْنَا عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ نَبَأَ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ وَأَخْبَارَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَعَ مُوسَى «كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ»، يقول: كذلك نخبرك بأنباء الأشياء التي قد سبقت من قبلك، فلم تشاهدها ولم تعاینها.

وقوله: «وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا»، يقول تعالى ذكره لمحمد ﷺ: وقد آتيناك يا محمد من عندنا ذكراً يتذكر به، ويتعظ به أهل العقل والفهم، وهو هذا القرآن الذي أنزله الله عليه، فجعله ذكرى للعالمين.

وقوله: «مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ»، يقول تعالى ذكره: من ولي عنه فأدبر فلم يصدق به ولم يقر، «فإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا»، يقول: فإنه يأتي ربه يوم القيامة يحمل حملاً ثقيلاً، وذلك الإثم العظيم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا
 ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَخْفَتُونَ يَنَّهُمْ إِنْ
 لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾

يقول تعالى ذكره: خالدين في وزرهم، فأخرج الخبر جل ثناؤه عن هؤلاء
 المعرضين عن ذكره في الدنيا أنهم خالدون في أوزارهم، والمعنى: أنهم
 خالدون في النار بأوزارهم، ولكن لما كان معلوماً المراد من الكلام اكتفى بما
 ذكر عما لم يذكر.

وقوله: «وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا»، يقول تعالى ذكره: وساء ذلك
 الحمل والثقل من الإثم يوم القيامة حملاً، وحق لهم أن يسوءهم ذلك، وقد
 أوردهم مهلكة لا منجى منها.

وقوله: «يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ»، يقول تعالى ذكره: وساء لهم يوم القيامة،
 يوم ينفخ في الصور، فقوله: «يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ» رد على يوم القيامة. وقد
 بينا معنى النفخ في الصور، وذكرنا اختلاف المختلفين في معنى الصور،
 والصحيح في ذلك من القول عندي.

وقوله: «وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا»، يقول تعالى ذكره: ونسوق أهل
 الكفر بالله يومئذ إلى موقف القيامة زرقاً، ف قيل: عنى بالزرق في هذا الموضع:
 ما يظهر في أعينهم من شدة العطش الذي يكون بهم عند الحشر لرأي العين
 من الزرق. وقيل: أريد بذلك أنهم يحشرون عمياً، كالذي قال الله:
 «وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمياً».

وقوله: «يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا»، يقول تعالى ذكره: يتهامون
 بينهم، ويسر بعضهم إلى بعض: إن لبثتم في الدنيا، يعني أنهم يقول بعضهم
 لبعض: ما لبثتم في الدنيا إلا عَشْرًا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾

يقول تعالى ذكره : نحن أعلم منهم عند إسرارهم وتخافتهم بينهم بقليلهم : «إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا» بما يقولون لا يخفى علينا مما يتساررونه بينهم شيء. «إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا»، يقول تعالى ذكره حين يقول أوفاهم عقلاً، وأعلمهم فيهم : إِنْ لَبِثْتُمْ فِي الدُّنْيَا إِلَّا يَوْمًا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَسَأَلْنَاكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَا تَبْقَى فِيهَا غِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾

يقول تعالى ذكره : ويسألك يا محمد قومك عن الجبال ، فقل لهم : يُذَرُّهَا رَبِّي تَذْرِئَةً ، ويطيرها بقلعها واستئصالها من أصولها ، ودك بعضها على بعض ، وتصويره إياها هباءً منبثاً «فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا» ، يقول تعالى ذكره : فيدع أماكنها من الأرض إذا نسفها نسفًا ، قاعًا : يعني : أرضاً ملساء ، صفصفاً : يعني مستوياً لا نبات فيه ، ولا نشز ، ولا ارتفاع .

وقوله : «لَا تَبْقَى فِيهَا غِوَجًا وَلَا أَمْتًا» يقول : لا ترى في الأرض عوجاً ولا أمتاً .

واختلف أهل التأويل في العوج والأمت ، فقال بعضهم : عنى بالعوج في هذا الموضع : الأودية ، وبالأمت : الروابي والنشوز .

وقال آخرون : بل عنى بالعوج في هذا الموضع : الصدوع ، وبالأمت : الارتفاع من الأكام وأشباهها .

طه: ١٠٧-١٠٨

وقال آخرون: عنى بالعوج: الميل، وبالأمت: الأثر.

وقال آخرون: الأمت: المحاني والأحدا ب.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول مَنْ قال: عنى بالعوج: الميل، وذلك أن ذلك هو المعروف في كلام العرب.

فإن قال قائل: وهل في الأرض اليوم من عوج، فيقال: لا ترى فيها يومئذ عوجاً. قيل: إن معنى ذلك: ليس فيها أودية وموانع تمنع الناظر أو السائر فيها عن الأخذ على الاستقامة، كما يحتاج اليوم من أخذ في بعض سبلها إلى الأخذ أحياناً يميناً، وأحياناً شمالاً، لما فيها من الجبال والأودية والبحار. وأما الأمت فإنه عند العرب: الانثناء والضعف، مسموع منهم، مدّ حبله حتى ما ترك فيه أمتاً: أي انثناء؛ وملاً سقاه حتى ما ترك فيه أمتاً؛ فالواجب إذا كان ذلك معنى الأمت عندهم أن يكون أصوب الأقوال في تأويله ولا ارتفاع ولا انخفاض، لأن الانخفاض لم يكن إلا عن ارتفاع. فإذا كان ذلك كذلك، فتأويل الكلام: لا ترى فيها ميلاً عن الاستواء، ولا ارتفاعاً، ولا انخفاضاً، ولكنها مستوية ملساء، كما قال جلّ ثناؤه: «قاعاً صَفْصَفاً».

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَعِوَجَ لَهُ

وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا

يقول تعالى ذكره: يومئذ يتبع الناس صوت داعي الله الذي يدعوهم إلى موقف القيامة، فيحشرهم إليه. «لا عِوَجَ لَهُ»، يقول: لا عوج لهم عنه ولا انحراف، ولكنهم سراعاً إليه ينحشرون. وقيل: لا عوج له. والمعنى: لا عوج لهم عنه، لأن معنى الكلام ما ذكرنا من أنه لا يعوجون له ولا عنه، ولكنهم

يُؤْمِنُهُ وَيَأْتُونَهُ، كما يقال في الكلام: دعاني فلان دعوة لا عوج لي عنها: أي لا اعوجاج عنها.

وقوله: «وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ»، يقول تعالى ذكره: وسكنت أصوات الخلائق للرحمن فوصف الأصوات بالخشوع، والمعنى لأهلها إنهم خضع جميعهم لربهم، فلا تسمع لناطقي منهم منطقاً إلا من أذن له الرحمن.

وقوله: «فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا»، يقول: إنه وطء الأقدام إلى المحشر، وأصله: الصوت الخفي، يقال: همس فلان إلى فلان بحدينه إذا أسرّه إليه وأخفاه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ ۖ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ﴿١٠٩﴾

يقول تعالى ذكره: «يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا» شفاعاة «مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ» أن يشفع «وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا» وأدخل في الكلام له دليلاً على إضافة القول إلى كناية «مَنْ» وذلك كقول القائل الآخر: رضيت لك عملك، ورضيته منك، وموضع من من قوله: «إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ» نصب لأنه خلاف الشفاعاة.

وقوله: «يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ»، يقول تعالى ذكره: يعلم ربك يا محمد ما بين أيدي هؤلاء الذين يتبعون الداعي من أمر القيامة، وما الذي يصيرون إليه من الثواب والعقاب. «وَمَا خَلْفَهُمْ»، يقول: ويعلم أمر ما خلفوه وراءهم من أمر الدنيا.

وقوله: «وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا»، يقول تعالى ذكره: ولا يحيط خلقه به عِلْمًا. ومعنى الكلام: أنه محيط بعباده عِلْمًا، ولا يحيط عباده به عِلْمًا. وقد

زعم بعضهم أن قوله ذلك : أن الله يعلم ما بين أيدي ملائكته وما خلفهم ، وأن ملائكته لا يحيطون علماً بما بين أيدي أنفسهم وما خلفهم ، وقال : إنما أعلم بذلك الذين كانوا يعبدون الملائكة ، أن الملائكة كذلك لا تعلم ما بين أيديها وما خلفها ، مؤبّخهم بذلك ومقرّعهم بأن من كان كذلك ، فكيف يُعبد ، وأن العبادة إنما تصلح لمن لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١٠﴾

يقول تعالى ذكره : استسرت وجوه الخلق ، واستسلمت للحَيِّ الذي لا يموت ، القيوم على خلقه بتدبيره إياهم ، وتصريفهم لما شاءوا . وأصل العنوّ الذلّ يقال منه : عَنَّا وَجْهُهُ لربه يَعْنُو عَنَّا ، يعني خضع له وذللّ ، وكذلك قيل للأسير : عَانٍ لذلّة الأسر .

وقوله : «وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا» ، يقول تعالى ذكره : ولم يظفر بحاجته وطلبته مَنْ حَمَلَ إِلَى مَوْقِفِ الْقِيَامَةِ شُرْكَاءَ بِاللّهِ ، وكفراً به ، وعملاً بمعصيته .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١١﴾

يقول تعالى ذكره وتقدّست أسماؤه : وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ صَالِحَاتِ الْأَعْمَالِ ، وذلك فيما قيل أداء فرائض الله التي فرضها على عباده . «وَهُوَ مُؤْمِنٌ» ، يقول : وهو مُصَدِّقٌ بِاللّهِ ، وأنه مجازٍ أَهْلَ طَاعَتِهِ وَأَهْلَ مَعَاصِيهِ عَلَى مَعَاصِيهِمْ . «فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا» ، يقول : فلا يخاف من الله أن يظلمه ، فيحمل عليه سيئات غيره ،

فيعاقبه عليها. «وَلَا هَضْمًا»، يقول: لا يخاف أن يهضمه حسناته، فينقصه ثوابها.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾

يقول تعالى ذكره: كما رَغَبْنَا أَهْلَ الْإِيمَانِ فِي صَالِحَاتِ الْأَعْمَالِ بِوَعْدِنَاهُمْ مَا وَعَدْنَاهُمْ، كذلك حذرنا بالوعيدِ أَهْلَ الْكُفْرِ بِالْمَقَامِ عَلَى مَعَاصِينَا، وكفرهم بآياتنا فأنزلنا هذا القرآنَ عَرَبِيًّا، إِذْ كَانُوا عَرَبًا. «وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ»، فبيناه: يقول: وَخَوَّفْنَاهُمْ فِيهِ بِضُرُوبٍ مِنَ الْوَعِيدِ. «لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ»، يقول: كَيْ يَتَّقُونَا بِتَصْرِيفِنَا مَا صَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ «أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا»، يقول: أَوْ يَحْدِثُ لَهُمْ هَذَا الْقُرْآنَ تَذْكَرَةً فَيَعْتَبِرُونَ وَيَتَعَذَّبُونَ بِفَعْلِنَا بِالْأَمْرِ الَّتِي كَذَّبَتِ الرِّسْلَ قَبْلَهَا، وَيَنْزَجِرُونَ عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مُقِيمُونَ مِنَ الْكُفْرِ بِاللَّهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾

يقول تعالى ذكره: فارتفع الذي له العبادة من جميع خلقه، الملك - الذي قهر سلطانه كل ملكٍ وجبار، - الْحَقُّ عَمَّا يَصِفُهُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ مِنْ خَلْقِهِ. «وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ»، يقول جَلَّ ثَنَاهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: وَلَا تَعْجَلْ يَا مُحَمَّدُ بِالْقُرْآنِ فَتُقْرَأَ أَصْحَابُكَ، أَوْ تَقْرَأَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُوحَى إِلَيْهِ بَيَانُ مَعَانِيهِ، فَعُوتِبَ عَلَى إِكْتَابِهِ وَإِمْلَائِهِ مَا كَانَ اللَّهُ يَنْزِلُهُ عَلَيْهِ مِنْ كِتَابِهِ مَنْ كَانَ يَكْتُبُهُ ذَلِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَبِينَ لَهُ مَعَانِيهِ، وَقِيلَ: لَا تَتْلُهُ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا تُمْلِئْهُ عَلَيْهِ حَتَّى نُبَيِّنَهُ لَكَ.

وقوله: «وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا»، يقول تعالى ذكره: وَقُلْ يَا مُحَمَّد: رَبِّ زِدْنِي علماً إلى ما علمتني أمره بمسأله من فوائد العلم ما لا يعلم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسَىٰ وَلَمْ
نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾

يقول تعالى ذكره: وَإِنْ يَضِيعُ يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ نُصَرِّفُ لَهُمْ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنَ الْوَعِيدِ عَهْدِي، وَيَخَالِفُوا أَمْرِي، وَيَتْرَكُوا طَاعَتِي، وَيَتَّبِعُوا أَمْرَ عَدُوِّهِمْ إِبْلِيسَ، وَيَطِيعُونَ فِي خِلَافِ أَمْرِي، فَقَدِيمًا مَا فَعَلَ ذَلِكَ أَبُوهُمْ آدَمَ. «وَلَقَدْ عَهِدْنَا»، إِلَيْهِ يَقُولُ: وَلَقَدْ وَصَّيْنَا آدَمَ وَقُلْنَا لَهُ: «إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ»، وَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ فَاطَاعَهُ، وَخَالَفَ أَمْرِي، فَحَلَّ بِهِ مِنْ عَقُوبَتِي مَا حَلَّ.

وعنى جلّ ثناؤه بقوله: «مِن قَبْلُ» هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَخْبَرَ أَنَّهُ صَرَّفَ لَهُمُ الْوَعِيدَ فِي هَذَا الْقُرْآنِ.

وقوله: «فَنَسَى»، يَقُولُ: فَتَرَكَ عَهْدِي.

وقوله: «وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا»، اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي مَعْنَى الْعَزْمِ هَهُنَا، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَاهُ الصَّبْرُ.

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ مَعْنَاهُ: الْحِفْظُ، قَالُوا: وَمَعْنَاهُ: وَلَمْ نَجِدْ لَهُ حِفْظًا لَمَّا عَهِدْنَا إِلَيْهِ.

وَأَصْلُ الْعَزْمِ: اعْتِقَادُ الْقَلْبِ عَلَى الشَّيْءِ، يُقَالُ مِنْهُ: عَزَمَ فُلَانٌ عَلَى كَذَا: إِذَا اعْتَقَدَ عَلَيْهِ وَنَوَاهُ؛ وَمِنْ اعْتِقَادِ الْقَلْبِ: حِفْظُ الشَّيْءِ، وَمِنْهُ الصَّبْرُ عَلَى الشَّيْءِ، لِأَنَّهُ لَا يَجْزَعُ جَاذِعٌ إِلَّا مِنْ خَوَرِ قَلْبِهِ وَضَعْفِهِ. فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، فَلَا مَعْنَى لِذَلِكَ أُبْلَغَ مِمَّا بَيْنَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَهُوَ قَوْلُهُ: «وَلَمْ نَجِدْ لَهُ

فيكون تأويله: ولم نجد له عزم قلبٍ على الوفاء لله بعهده، ولا على حفظ ما عهد إليه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا تَخْرُجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴿١١٧﴾

يقول تعالى ذكره معلماً نبيه محمداً ﷺ، ما كان من تضييع آدم عهده، ومُعرفته بذلك أن ولده لن يعدوا أن يكونوا في ذلك على منهاجه، إلا من عصمه الله منهم «و» اذكر يا محمد «إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى» أن يسجد له «فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ» ولذلك من شأنه لم يسجد لك، وخالف أمري في ذلك وعصاني، فلا تطيعاه فيما يأمركما به فيخرجكما بمعصيتكما ربكما، وطاعتكما له: «مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى»، يقول: فيكون عيشك من كد يدك، فذلك شقاؤه الذي حذرهُ ربه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴿١١٩﴾ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّخِذُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى ﴿١٢٠﴾

يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيله لآدم حين أسكنه الجنة «إِنَّ لَكَ» يا آدم «أَنَّ لَا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى». و«أَنَّ» في قوله «أَنَّ لَا تَجُوعَ فِيهَا» في موضع نصب بيان التي في قوله: «إِنَّ لَكَ».

وقوله: «وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا» اختلفت القراءة في قراءتها، فقرأ ذلك بعض قراءة المدينة والكوفة بالكسر، وإنك على العطف على قوله «إِنَّ لَكَ». وقرأ ذلك بعض قراءة المدينة وعامة قراءة الكوفة والبصرة وأنت بفتح ألفها عطفاً بها على «أَنْ» التي في قوله: «أَنْ لَا تَجُوعَ فِيهَا». وَجَّهُوا تَأْوِيلَ ذَلِكَ إِلَى أَنْ لَكَ هَذَا وَهَذَا، فهذه القراءة أعجب القراءتين إِلَيَّ، لِأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذِكْرُهُ وَعَدَ ذَلِكَ آدَمَ حِينَ أَسْكَنَهُ الْجَنَّةَ، فَكَوْنَ ذَلِكَ بِأَنْ يَكُونُ عَطْفًا عَلَى أَنْ لَا تَجُوعَ أَوْلَى مِنْ أَنْ يَكُونُ خَبَرٌ مُبْتَدَأً، وَإِنْ كَانَ الْآخِرُ غَيْرَ بَعِيدٍ مِنَ الصَّوَابِ.

وعنى بقوله: «لَا تَظْمَأُ فِيهَا»، لَا تَعْطَشُ فِي الْجَنَّةِ مَا دُمْتَ فِيهَا. «وَلَا تَضْحَى»، يَقُولُ: لَا تَظْهَرُ لِلشَّمْسِ فَيُؤْذِيكَ حَرُّهَا.

وقوله: «فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ»، يَقُولُ: فَالْقَى إِلَى آدَمَ الشَّيْطَانُ وَحَدَّثَهُ «فَقَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةٍ الْخُلْدِ»، يَقُولُ: قَالَ لَهُ: هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةٍ إِنْ أَكَلْتَ مِنْهَا خُلِدْتَ فَلَمْ تَمُتْ، وَمَلَكَتْ مَلَكَاً لَا يَنْقُضِي فَبِيلِي.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٢١﴾ ثُمَّ أَجْبَنَهُ رَبُّهُ فَغَابَ عَنْهُ وَهَدَى ﴿١٢٢﴾

يقول تعالى ذكره: فَأَكَلَ آدَمُ وَحَوَّاءُ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي نُهِيا عَنْ الْأَكْلِ مِنْهَا، وَأَطَاعَا أَمْرَ إِبْلِيسَ، وَخَالَفَا أَمْرَ رَبِّهِمَا «فَبَدَتْ لَهُمَا سَوَاتُهُمَا»، يَقُولُ: فَانْكَشَفَتْ لَهُمَا عَوْرَاتُهُمَا، وَكَانَتْ مُسْتَوْرَةً عَنْ أَعْيُنِهِمَا.

وقوله: «وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ»، يَقُولُ: أَقْبَلَا يَشْدَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ.

وقوله : «وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى»، يقول : وخالف أمرَ ربه فتعدى إلى ما لم يكن له أن يتعدى إليه من الأكلِ من الشجرة التي نهاه عن الأكلِ منها .

وقوله : «ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى»، يقول : اصطفاه ربه من بعد معصيته إياه فرزقه الرجوعَ إلى ما يرضى عنه ، والعمل بطاعته ، وذلك هو كانت توبته التي تابها عليه .

وقوله : «وَهَدَى»، يقول : وهداهُ للتوبة ، فوفقه لها .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٣﴾

يقول تعالى ذكره : قال الله تعالى لآدم وحواء : «اهبطا منها جميعاً إلى الأرض . «بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ»، يقول : أنتما عدوُّ إبليس وذريته ، وإبليس عدوُّكما وعدوُّ ذريتهما .

وقوله : «إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى»، يقول : فإن يأتكم يا آدم وحواء وإبليس مني هدى : يقول : بيان لسبيلي ، وما أختاره لخلقى من دين «فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ»، يقول : فمن اتبع بياني ذلك وعمل به ، ولم يزغ عنه . «فَلَا يَضِلُّ»، يقول : فلا يزول عن مَحَجَّةِ الْحَقِّ ، ولكنه يرشد في الدنيا ويهتدي . «وَلَا يَشْقَى» في الآخرة بعقاب الله ، لأنَّ الله يدخله الجنة ، وينجيه من عذابه .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾

يقول تعالى ذكره: «وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي»، الذي أذكره به فتولّى عنه ولم يقبله ولم يستجب له، ولم يتعظ به فينزجر عَمَّا عليه مقيمٌ من خلافه أمرَ رَبِّه. «فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً»، يقول: فإن له معيشة ضيقة. والضنك من المنازل والأماكن والمعاش: الشديد. يقال: هذا منزلٌ ضنك: إذا كان ضيقاً، وعيشٌ ضنك: الذكر والأنثى والواحد والاثنان والجمع بلفظ واحد.

واختلف أهل التأويل في الموضع الذي جعل الله لهؤلاء المعرضين عن ذِكْرِ العيشة الضنك، والحال التي جعلهم فيها، فقال بعضهم: جعل ذلك لهم في الآخرة في جهنم، وذلك أنه جعل طعامهم فيها الضريع والزقوم.

وقال آخرون: بل عَنَى بذلك: فَإِنَّ له معيشةً في الدنيا حراماً قال: ووصف الله جلَّ وعزَّ معيشتهم بالضنك، لأنَّ الحرام وإن اتَّسع فهو ضنك.

وقال آخرون ممن قال عنى أن لهؤلاء القوم المعيشة الضنك في الدنيا، إنما قيل لها ضنك وإن كانت واسعة، لأنهم ينفقون ما ينفقون من أموالهم على تكذيبٍ منهم بالخلف من الله، وإيأسٍ من فضلِ الله، وسوء ظنٍّ منهم بربهم، فتشتدَّ لذلك عليهم معيشتهم وتضيق.

وقال آخرون: بل عَنَى بذلك: أن ذلك لهم في البرزخ، وهو عذاب القبر.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قولُ مَنْ قال: هو عذابُ القبر، فَإِنَّ الله تبارك وتعالى أتبع ذلك بقوله: «وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى» فكان معلوماً بذلك أن المعيشة الضنك التي جعلها الله لهم قبل عذاب الآخرة، لأن ذلك لو كان في الآخرة لم يكن لقوله: «وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى» معنى مفهوم، لأن ذلك إن لم يكن تقدّمه عذابٌ لهم قبل الآخرة، حتى يكون الذي في الآخرة أشدَّ منه، بطل معنى قوله: «وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى»، فإذا كان ذلك كذلك، فلا

تخلو تلك المعيشة الضنك التي جعلها الله لهم من أن تكون لهم في حياتهم الدنيا، أو في قبورهم قبل البعث، إذ كان لا وجه لأن تكون في الآخرة لما قد بينا، فإن كانت لهم في حياتهم الدنيا، فقد يجب أن يكون كل من أعرض عن ذكر الله من الكفار، فإن معيشته فيها ضنك، وفي وجودنا كثيراً منهم أوسع معيشة من كثير من المقبلين على ذكر الله تبارك وتعالى، القابلين له المؤمنين في ذلك، ما يدل على أن ذلك ليس كذلك، وإذ خلا القول في ذلك من هذين الوجهين صحَّ الوجه الثالث، وهو أن ذلك في البرزخ.

وقوله: «وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى»، اختلف أهل التأويل في صفة العمى الذي ذكر الله في هذه الآية، أنه يبعث هؤلاء الكفار يوم القيامة به، فقال بعضهم: ذلك عمى عن الحجة، لا عمى عن البصر. وقيل: يُحْشَرُ أَعْمَى البصر.

والصواب من القول في ذلك ما قال الله تعالى ذكره، وهو أنه يحشر أعمى عن الحجة ورؤية الشيء كما أخبر جل ثناؤه، فَعَمَّ ولم يخصص.

وقوله: «قَالَ: رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا»، يقول: رب لم حشرتني أعمى عن حجتي ورؤية الأشياء، وقد كنت في الدنيا ذا بصرٍ بذلك كله.

فإن قال قائل: وكيف قال هذا لربه: «لَمْ حَشَرْتَنِي أَعْمَى» مع معانيته عظيم سلطانه، أجهل في ذلك الموقف أن يكون لله أن يفعل به ما شاء، أم ما رجه ذلك؟ قيل: إن ذلك منه مسألة لربه يُعَرِّفُهُ الجرم الذي استحقَّ به ذلك، إذ كان قد جهله، وظنَّ أن لا جرم له، استحق ذلك به منه، فقال: رب لأني ذنب ولأني جرم حشرتني أعمى، وقد كنت من قبل في الدنيا بصيراً وأنت لا تعاقب أحداً إلا بدون ما يستحق منك من العقاب.

وقوله: «قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا»، يقول تعالى ذكره، قال الله حينئذٍ للقائل له: «لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا» فعلت ذلك بك، فحشرتك أعمى كما أتتك آياتي وهي حججه وأدلته وبيانه الذي بيّنه في كتابه، فنسيتهَا: يقول: فتركها وأعرضت عنها، ولم تؤمن بها، ولم تعمل. وعنّى بقوله: «كَذَلِكَ أَتَتْكَ» هكذا أتتك.

وقوله: «وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى»، يقول: فكما نسيت آياتنا في الدنيا، فتركها وأعرضت عنها، فكذلك اليوم ننسأك، فتركك في النار.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴿١٢٧﴾

يقول تعالى ذكره: وهكذا نجزي: أي نثيب مَنْ أَسْرَفَ فعصى ربه، ولم يؤمن برسله وكتبه، فنجعل له معيشةً ضنكاً في البرزخ كما قد بينّا قبل. «وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى»، يقول جلّ ثناؤه: ولعذاب في الآخرة أشدُّ لهم مما وعدتهم في القبر من المعيشة الضنك وأبقى: يقول: وأدوم منها، لأنه إلى غير أمدٍ ولا نهاية.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكَانِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى ﴿١٢٨﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: أفلم يَهْدِ لقومك المشركين بالله، ومعنى يَهْدِ: يبين. يقول: أفلم يبين لهم كثرة ما أهلكنا قبلهم من الأمم التي سلكت قبلها التي يمشون في مساكنهم ودورهم، ويرون آثارَ عقوباتنا التي أحللناها بهم سوء مغبةٍ ما هُمْ عليه مقيمونَ من الكفر بآياتنا، ويتعظوا بهم،

ويعتبروا، وَيُنَبِّئُوا إِلَى الْإِذْعَانِ، وَيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، خَوْفًا أَنْ يَصِيبَهُمْ كُفْرُهُمْ بِاللَّهِ مِثْلَ مَا أَصَابَهُمْ.

وقوله: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى»، يقول تعالى ذكره: إِنَّ فيما يعاين هؤلاء ويرون من آثارِ وقائعنا بالأمم المكذَّبةِ رسلها قبلهم، وحلول مثلاتنا بهم لكفرهم بالله «لآيَاتٍ»، يقول: لدلالات وعبراً وعظات «لأُولِي النُّهَى»، يعني: لأهل الحِجَى والعقول، وَمَنْ ينهَاهُ عقلُهُ وفَهْمُهُ ودينُهُ عن مِواقِعَةٍ ما يضره.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا
وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ
وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾

يقول تعالى ذكره: «وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ» يا محمدُ أَنْ كُلَّ مَنْ قضى له أَجَلًا فإنه لا يحترمه قبل بلوغه أَجَلُهُ «وَأَجَلٌ مُّسَمًّى»، يقول: ووقت مسمى عند ربك سماه لهم في أُمِّ الكتاب وخطه فيه، هم بالغوه ومستوفوه «لَكَانَ لِزَامًا»، يقول: لِلْأَزْمَةِ هَلَاكٌ عاجلاً.

ومعنى الكلام: ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاماً، فاصبر على ما يقولون.

وقوله: «فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ»، يقول جَلَّ ثَنَاؤُهُ لِنَبِيِّهِ: فاصبر يا محمد على ما يقول هؤلاء المكذَّبون بآياتِ الله من قومك لك إنك ساحر، وإنك مجنونٌ وشاعرٌ ونحو ذلك من القول. «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ»، يقول: وصل بثنائك على ربك.

وقوله: «قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ» وذلك صلاة الصبح «وَقَبْلَ غُرُوبِهَا» وهي العصر «وَمِنْ آتَاءِ اللَّيْلِ» وهي ساعات الليل، واحدها: إني.

ويعني بقوله: «وَمِنْ آتَاءِ اللَّيْلِ فَسَبَّحْ» صلاة العشاء الآخرة، لأنها تصلى بعد مضي آتاء من الليل.

وقوله: «وَأَطْرَافَ النَّهَارِ»: يعني صلاة الظهر والمغرب؛ وقيل: أطراف النهار؛ والمراد بذلك الصلاتان اللتان ذكرنا، لأنَّ صلاة الظهر في آخر طرف النهار الأول، وفي أول طرف النهار الآخر، فهي في طرفين منه، والطرف الثالث: غروب الشمس، وعند ذلك تصلى المغرب، فلذلك قيل أطراف.

وقوله: «لَعَلَّكَ تَرْضَى»، يقول: كي ترضى.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْتَهُمْ أَزْوَاجًا
مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٣١﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ولا تنظر إلى ما جعلنا لضرباء هؤلاء المعرضين عن آيات ربهم وأشكالهم، متعة في حياتهم الدنيا، يتمتعون بها من زهرة عاجل الدنيا ونضرتها «لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ»، يقول: لنختبرهم فيما مَتَّعْنَاهُمْ به من ذلك ونبتليهم، فإنَّ ذلك فإن زائل، وَغُرُورٌ وخدعٌ تضحلُ «وَرِزْقُ رَبِّكَ» الذي وعدك أن يرزقك في الآخرة حتى ترضى، وهو ثوابه إياه «خَيْرٌ» لك مما متعناهم به من زهرة الحياة الدنيا. «وَأَبْقَى»، يقول: وأدوم، لأنه لا انقطاع له ولا نفاد، وذكر أن هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ، من أجل أن رسول الله ﷺ بعث إلى يهودي يستسلف منه طعاماً، فأبى أن يسلفه إلا برهن.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَأَمْرَاهُكَ بِالصَّلَاةِ وَأَصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴿١٣٢﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : «وَأْمُرْ يا محمدُ «أَهْلَكَ بالصَّلَاةِ وَأَصْطَبِرْ عَلَيْهَا»، يقول : واصطبر على القيام بها، وأدائها بحدودها أنت : «لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا»، يقول : لا نسألك مالاً، بل نكلفك عملاً ببدنك، نؤتيك عليه أجراً عظيماً وثواباً جزيلاً «نَحْنُ نَرْزُقُكَ»، يقول : نحن نعطيك المال ونكسبكهُ، ولا نسألكهُ.

وقوله : «والعاقبةُ للتقوى»، يقول : والعاقبةُ الصالحة من عمل كل عاملٍ لأهل التقوى والخشية من الله دون من لا يخاف له عقاباً، ولا يرجوه ثواباً.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ؕ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿١٣٣﴾

يقول تعالى ذكره : قال هؤلاء المشركون الذين وصف صفتهم في الآياتِ قَبْلَ هَلَّا يَأْتِينَا مُحَمَّدٌ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ ، كما أتى قومهُ صالحٌ بالناقَةِ وعيسى باحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص ، يقول الله جل ثناؤه : أو لم يأتهم بيان ما في الكتب التي قبل هذا الكتاب من أنباء الأمم من قبلهم التي أهلكناهم لما سألوا الآيات فكفروا بها لما أتتهم كيف عجلنا لهم العذاب ، وأنزلنا بأسنا بكفرهم بها ، يقول : فماذا يؤمنهم إن أتتهم الآية أن يكون حالهم حال أولئك .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نَّذِلَّ وَنَخْزَى ﴿١٣٤﴾

يقول تعالى ذكره: ولو أنا أهلكتنا هؤلاء المشركين الذين يكذبون بهذا القرآن من قبل أن ننزله عليهم، ومن قبل أن نبعث داعياً يدعوهم إلى ما فرضنا عليهم فيه بعذاب ننزله بهم بكفرهم بالله، لقالوا يوم القيامة إذ وردوا علينا، فأردنا عقابهم: رَبَّنَا هَلَّا أُرْسِلَتْ إِلَيْنَا رَسُولًا يدعونا إلى طاعتك، فنتبع آياتك: يقول: فنتبع حُجَّتَكَ وأدلتك وما تنزله عليه من أمرك ونهيك من قبل أن نذل بتعذيبك إيانا ونُخزى به.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبِّصُ** ط
فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ١٣٥

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد كُلُّكُمْ أيها المشركون بالله متربص: يقول: منتظر لمن يكون الفلاح، وإلى ما يؤول أمري وأمركم متوقف ينتظر دوائر الزمان، فَتَرَبِّصُوا: يقول: فترقبوا وانتظروا، فستعلمون مَنْ أَهْلُ الطريق المستقيم المعتدل الذي لا اعوجاج فيه إذا جاء أمرُ الله وقامت القيامة، أَنَحْنُ أم أنتم؟ ومن اهتدى: يقول: وستعلمون حينئذٍ من المهتدي الذي هو على سنن الطريق القاصد غير الجائر عن قصده منا ومنكم.

سُورَةُ الْاِنْبِيَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾

يقول تعالى ذكره: دَنَا حِسَابُ النَّاسِ عَلَى أَعْمَالِهِمُ الَّتِي عَمَلُوهَا فِي دُنْيَاهُمْ وَنِعْمَتِهِمُ الَّتِي أَنْعَمَهَا عَلَيْهِمْ فِيهَا فِي أَبْدَانِهِمْ، وَأَجْسَامِهِمْ، وَمَطَاعِمِهِمْ، وَمَشَارِبِهِمْ، وَمَلَابِسِهِمْ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ نِعْمَةٍ عِنْدَهُمْ، وَمَسْأَلَتِهِ إِيَّاهُمْ مَاذَا عَمَلُوا فِيهَا، وَهَلْ أَطَاعُوهُ فِيهَا، فَانْتَهَوْا إِلَى أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ فِي جَمِيعِهَا، أَمْ عَصَوْهُ فَخَالَفُوا أَمْرَهُ فِيهَا؟. «وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ»، يَقُولُ: وَهُمْ فِي الدُّنْيَا عَمَّا لِلَّهِ فَاعِلٌ بِهِمْ مِنْ ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَعَنْ دُنُوِّ مُحَاسَبَتِهِ إِيَّاهُمْ مِنْهُمْ، وَاقْتِرَابِهِ لَهُمْ فِي سَهْوٍ وَغَفْلَةٍ، وَقَدْ أَعْرَضُوا عَنْ ذَلِكَ، فَتَرَكُوا الْفِكْرَ فِيهِ، وَالِاسْتِعْدَادَ لَهُ، وَالتَّأَهَّبَ جَهْلًا مِنْهُمْ بِمَا هُمْ لَأَقْوَمُ عِنْدَ ذَلِكَ مِنْ عَظِيمِ الْبَلَاءِ، وَشَدِيدِ الْأَهْوَالِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مَنْ رَبِّهِمْ تُحَدِّثُ إِلَّا أَسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾

يقول تعالى ذكره: مَا يَحْدُثُ اللَّهُ مِنْ تَنْزِيلِ شَيْءٍ مِنْ هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ، وَيَذَكِّرُهُمْ بِهِ وَيُعْظِمُهُمْ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ، وَهُمْ يَلْعَبُونَ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَا هِيَ قُلُوبُهُمْ وَأَسْرُوا النُّجُوى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ



يقول تعالى ذكره: «لَا هِيَ قُلُوبُهُمْ» غافلة: يقول: ما يستمع هؤلاء القوم الذين وصف صفتهم هذا القرآن إلا وهم يلعبون غافلة عنه قلوبهم، لا يتدبرون حُكْمَهُ، ولا يتفكروْنَ فيما أودعه اللهُ من الحججِ عليهم.

وقوله: «وَأَسْرُوا النُّجُوى الَّذِينَ ظَلَمُوا»، يقول: وأسروا هؤلاء الناس الذين اقتربت الساعةُ منهم وهم في غفلةٍ معرضون، لاهية قلوبهم، النجوى بينهم، يقول: وأظهروا المناجاةَ بينهم فقالوا: هل هذا الذي يزعمُ أنه رسولٌ من الله أرسله إليكم، إلا بشرٌ مثلكم: يقولون: هل هو إلا إنسانٌ مثلكم في صوركم وخلقتكم، يعنون بذلك محمداً ﷺ، وقال الذين ظلموا فوصفهم بالظلمِ بفعلهم وقيلهم الذي أخبر به عنهم في هذه الآيات إنهم يفعلون ويقولون من الإعراضِ عن ذكرِ الله، والتكذيبِ برسوله.

وقوله: «أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ»، يقول: وأظهروا هذا القول بينهم، وهي النجوى التي أسروها بينهم، فقال بعضهم لبعضٍ: أُنْقَبِلُونَ السحر، وتصدَّقُون به وأنتم تعلمون أنه سحر؟ يعنون بذلك القرآن.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

اختلفت القراءةُ في قراءةِ قوله: «قَالَ رَبِّي»، فقرأ ذلك عامة قُرْاةِ أهل المدينة والبصرة وبعض الكوفيين «قُلْ رَبِّي» على وجه الأمر، وقرأه بعض قُرْاةِ

مكة، وعامة قُرَأة الكوفة: «قَالَ رَبِّي» على وجه الخبر، وكأن الذين قرءوه على وجه الأمر أرادوا من تأويله: قُلْ يا محمد للقائلين «أَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ»، ربي يعلم قول كل قائل في السماء والأرض، لا يخفى عليه منه شيء وهو السميع لذلك كله، ولما يقولون من الكذب العليم بصدقني، وحقيقة ما أدعوكم إليه، وباطل ما تقولون، وغير ذلك من الأشياء كلها. وكأن الذين قرءوا ذلك «قال» على وجه الخبر أرادوا، قال محمد: «ربي يعلم القول» خبراً من الله عن جواب نبيه إياهم.

والقول في ذلك أنهما قراءتان مشهورتان في قُرَأة الأمصار، قد قرأ بكل واحدةٍ منهما علماء من القُرَأة، وجاءت بهما مصاحف المسلمين متفقة المعنى، وذلك أن الله إذا أمر محمداً بقبيل ذلك قاله، وإذا قاله فعن أمر الله قاله، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب الصواب في قراءته.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ بَلِ افْتَرَاهُ
بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾

يقول تعالى ذكره: ما صدقوا بحكمة هذا القرآن، ولا أنه من عند الله، ولا أقرؤا بأنه وحي أوحى الله إلى محمد ﷺ، بل قال بعضهم: هو أهاويل رؤيا رآها في النوم. وقال بعضهم: هو فريئة واختلاق افتراه واختلقه من قبل نفسه. وقال بعضهم: بل محمد شاعر، وهذا الذي جاءكم به شعر «فليأتنا» به يقول: «قالوا فليجئنا محمد إن كان صادقاً في قوله، إن الله بعثه رسولاً إلينا، وإن هذا الذي يتلوه علينا وحي من الله أوحاه إلينا «بآية» يقول: بحجة ودلالة على حقيقة ما يقول ويدعي «كما أرسل الأولون»، يقول: كما جاءت به الرسل الأولون من قبله من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص وكناقة صالح، وما

أشبه ذلك من المعجزات التي لا يقدر عليها إلا الله، ولا يأتي بها إلا الأنبياء والرسول.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: مَاءَ أَمْنَةٍ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥﴾

يقول تعالى ذكره: ما آمن من قبل هؤلاء المكذبين محمداً من مشركي قومه الذين قالوا: فليأتنا محمداً بآية كما جاءت به الرسل قبله من أهل قرية عذبناهم بالهلاك في الدنيا، إذ جاءهم رسولنا إليهم بآية معجزة. «أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ»، يقول: أفهؤلاء المكذبون محمداً السائلوه الآية يؤمنون به إن جاءتهم آية، ولم تؤمن قبلهم أسلافهم من الأمم الخالية التي أهلكناها برسلها مع مجيئها.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه: وما أرسلنا يا محمد قبلك رسولاً إلى أمة من الأمم التي خلت قبل أمتك إلا رجالاً مثلهم نوحى إليهم، ما نريد أن نوحى إليهم من أمرنا ونهينا، لا ملائكة، فماذا أنكروا من إرسالنا لك إليهم، وأنت رجل كسائر الرسل الذين قبلك إلى أممهم.

وقوله: «فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون»، يقول للقائلين لمحمد ﷺ في تناجيهم بينهم: هل هذا إلا بشرٌ مثلكم، فإن أنكرتم وجهتم أمر الرسل الذين كانوا من قبل محمد، فلم تعلموا أيها القوم أمرهم إنساً كانوا أم ملائكة، فاسألوا أهل الكتب من التوراة والإنجيل ما كانوا يخبروكم عنهم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ
الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾

يقول تعالى ذكره: وما جعلنا الرسل الذين أرسلناهم من قبلك يا محمد إلى الأمم الماضية قبل أمتك. «جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ»، يقول: لم نجعلهم ملائكةً لَّا يَأْكُلُونَ الطعام، ولكن جعلناهم أجساداً مثلك يأكلون الطعام.

وقوله: «وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ»، يقول: ولا كانوا أرباباً لَّا يموتون ولا يفنون، ولكنهم كانوا بشراً أجساداً فماتوا، وذلك أنهم قالوا لرسول الله ﷺ، كما قد أخبر الله عنهم: «لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً»... إلى قوله: «أَوْ تَأْتِيَنَا بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً» قال الله تبارك وتعالى لهم: ما فعلنا ذلك بأحدٍ قبلكم فنفعل بكم، وإنما كنا نرسل إليهم رجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ كما أرسلنا إليكم رسولاً نُوحِي إِلَيْهِ أَمْرَنَا وَنَهْيَنَا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ
نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾

يقول تعالى ذكره: ثم صدقنا رُسُلَنَا الَّذِينَ كَذَّبْتَهُمْ أُمَمَهُمْ، وسألتهم الآيات، فأتيناهم ما سألوه من ذلك، ثم أقاموا على تكذيبهم إياها، وأصرُّوا على جُحودهم نبوتها بعد الذي أتتهم به من آيات ربِّها، وَعَدْنَا الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ مِنَ الْهَلَاكِ عَلَى إِقَامَتِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ بِرَبِّهِمْ بعد مجيء الآية التي سألوا، وذلك كقوله جل ثناؤه: «فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ»، وكقوله: «وَلَا تَمْسُوْهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ» ونحو ذلك من المواعيد التي وعد الأمم مع مجيء الآيات.

وقوله: «فَأَنْجَيْنَاهُمْ» يقول تعالى ذكره: فأنجينا الرسل عند إصرار أممها على تكذيبها بعد الآيات «وَمَنْ نَشَاءُ» وهم أتباعها الذين صدّقوها وآمنوا بها.
وقوله: «وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ»، يقول تعالى ذكره: وأهلكنا الذين أسرفوا على أنفسهم بكفرهم بربهم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٩﴾

اختلف أهل التأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم: لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم، فيه حديثكم.

وقال آخرون: بل عني بالذكر في هذا الموضع: الشرف، وقالوا: معنى الكلام: لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه شرفكم.

وهذا القول الثاني أشبه بمعنى الكلمة، وذلك أنه شرف لمن اتبعه وعمل بما فيه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسْنَانَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١١﴾

يقول تعالى ذكره: وكثيراً قصمنا من قرية، والقصم: أصله الكسر، يقال منه: قصمت ظهر فلان إذا كسرته، وانقصمت سنه: إذا انكسرت، وهو ههنا معني به: أهلكتنا.

وقوله: «مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً» أجرى الكلام على القرية، والمراد بها أهلها لمعرفة السامعين بمعناه، وكان ظلمها: كفرها بالله، وتكذيبها رسله.

وقوله: «وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ»، يقول تعالى ذكره: وأحدثنا بعد ما أهلكنا هؤلاء الظلمة من أهل هذه القرية التي قصمناها بظلمها قوماً آخرين سواهم.

وقوله: «فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسْنَا»، يقول: فلما عاينوا عذابنا قد حل بهم، ورأوه قد وجدوا مسه، يقال منه: قد أحسست من فلان ضعفاً، وأحسسته منه. «إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ»، يقول: إذا هم مما أحسوا بأسنا النازل بهم يهربون سراعاً عَجَلَى، يَعُدُّونَ منهزمين، يقال منه: ركض فلان فرسه: إذا كدّه بسياقته.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٢﴾

يقول تعالى ذكره: لا تهربوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه: يقول: إلى ما أنعمتم فيه من عيشتكم ومسكنكم.

واختلف أهل التأويل في معنى قوله: «لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ» فقال بعضهم: معناه: لعلكم تفقهون، وتفهمون بالمسألة.

وقال آخرون: بل معناه لعلكم تسألون من ديناكم شيئاً على وجه السخرية والاستهزاء.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالُوا يَوِيلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿١٥﴾

يقول تعالى ذكره: قال هؤلاء الذين أحل الله بهم بأسه بظلمهم، لما نزل بهم بأس الله: ياولنا إِنَّا كُنَّا ظالمين، بكفرنا بربنا، فما زالت تلك دعواهم؛

يقول: فلم تزل دعواهم، حين أتاهم بأسُ الله، بظلمهم أنفسهم: «ياؤيلنا إنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ» حتى قتلهم الله، فحصدَهُم بالسيفِ كما يُحصدُ الزرعُ ويستأصل قطعاً بالمناجل.

وقوله: «خامدين» يقول: هالكين قد أنطفأت شرارتهم، وسكنت حركتهم، فصاروا هموداً كما تخدم النار فتطفأ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا
لِلْعَيْنِ ١٦

يقول تعالى ذكره: «وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا» إلا حجةً عليكم أيها الناس، ولتعتبروا بذلك كله، فتعلموا أن الذي دَبَّرَهُ وَخَلَقَهُ لا يشبهه شيء، وأنه لا تكونُ الألوهةُ إلا له، ولا تصلحُ العبادةُ لشيءٍ غيره، ولم يخلق ذلك عبثاً ولعباً.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ آلًا تَتَّخِذْنَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ
كُنَّا فَاعِلِينَ ١٧

يقول تعالى ذكره: لو أردنا أن نتخذَ زوجةً وولداً لاتخذنا ذلك من عندنا، ولكننا لا نفعل ذلك، ولا يصلحُ لنا فعله، ولا ينبغي، لأنه لا ينبغي أن يكونَ لله ولدٌ ولا صاحبة.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ
فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ آلُؤَيْلٌ مِمَّا نَصِيفُونَ ١٨

يقول تعالى ذكره: ولكن نزل الحق من عندنا، وهو كتاب الله وتنزيله على الكفر به وأهله، فيدمغه: يقول: فيهلكه كما يدمغ الرجل الرجل بأن يشجّه على رأسه شجة تبلغ الدماغ، وإذا بلغت الشجة ذلك من المشجوج لم يكن له بعدها حياة.

وقوله: «فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ» يقول: فإذا هو هالك مُضْمَحِلٌّ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾

يقول تعالى ذكره: وكيف يجوز أن يتخذ الله لهواً، وله مُلْكٌ جميع مَنْ في السموات والأرض، والذين عنده من خلقه، لا يستكفون عن عبادتهم إياه، ولا يَعْيُونَ من طول خدمتهم له، وقد علمتم أنه لا يستعبد والد ولده ولا صاحبه، وكُلُّ مَنْ في السموات والأرض عبيده، فأني يكون له صاحبة وولد: يقول: أولاً تتفكرون فيما تفترون من الكذب على ربكم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ﴿٢١﴾

يقول تعالى ذكره: يسبح هؤلاء الذين عنده من ملائكة ربهم الليل والنهار لا يفترون من تسبيحهم إياه.

وقوله: «أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ»، يقول تعالى ذكره: اتَّخَذَ هؤلاء المشركون آلهة من الأرض هم ينشرون: يعني بقوله هم: الآلهة، يقول: هذه الآلهة التي اتخذوها تنشر الأموات، يقول: يحيون الأموات، وينشرون الخلق، فإن الله هو الذي يحيي ويميت.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهِةُ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: لو كان في السموات والأرض آلهة تصلح لهم العبادة سوى الله الذي هو خالق الأشياء، وله العبادة والألوهة التي لا تصلح إلا له. «لَفَسَدَتَا»، يقول: لفسد أهل السموات والأرض. «فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ»، يقول جل ثناؤه: فتنزيه الله وتبرئته له مما يفترى به عليه هؤلاء المشركون به من الكذب.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾



يقول تعالى ذكره: لا سائل يسأل ربَّ العرش عن الذي يفعل بخلقه من تصريفهم فيما شاء من حياة وموت وإعزاز وإذلال، وغير ذلك من حكمه فيهم، لأنهم خلقه وعبيده، وجميعهم في ملكه وسلطانه، والحكم حكمه، والقضاء قضاؤه، لا شيء فوقه، يسأله عما يفعل، فيقول له: لِمَ فعلت؟ ولمَ لم تفعل؟ «وَهُمْ يُسْأَلُونَ»، يقول جل ثناؤه: وجميع من في السموات والأرض من عباده مستولون عن أفعالهم، ومحاسبون على أعمالهم، وهو الذي يسألهم عن ذلك، ويحاسبهم عليه، لأنه فوقهم ومالكهم، وهم في سلطانه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلَهِةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾



يقول تعالى ذكره: أَتُخَذَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً تَنْفَعُ وَتَضُرُّ، وَتَخْلُقُ وَتُحْيِي وَتُمِيتُ؟ قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَهُمْ: هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ، يَعْنِي حُجَّتَكُمْ، يَقُولُ: هَاتُوا إِنْ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ أَنْكُمْ مُحِقُّونَ فِي قِيلِكُمْ ذَلِكَ حُجَّةً وَدَلِيلًا عَلَى صِدْقِكُمْ.

وقوله: «هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ» يَقُولُ: هَذَا الَّذِي جِئْتُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مِنَ الْقُرْآنِ وَالتَّنْزِيلِ «ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ»، يَقُولُ: خَبِرْتُ مَنْ مَعِيَ مِمَّا لَهُمْ مِنْ ثَوَابِ اللَّهِ عَلَى إِيْمَانِهِمْ بِهِ، وَطَاعَتِهِمْ إِيَّاهُ، وَمَا عَلَيْهِمْ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ عَلَى مَعْصِيَتِهِمْ إِيَّاهُ وَكَفْرِهِمْ بِهِ. «وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي» يَقُولُ: وَخَبِرْتُ مَنْ قَبْلِي مِنَ الْأُمَمِ الَّتِي سَلَفَتْ قَبْلِي، وَمَا فَعَلَ اللَّهُ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَهُوَ فَاعِلٌ بِهِمْ فِي الْآخِرَةِ.

وقوله: «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ»، يَقُولُ: بَلْ أَكْثَرُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ لَا يَعْلَمُونَ الصَّوَابَ فِيمَا يَقُولُونَ، وَلَا فِيمَا يَأْتُونَ وَيَذَرُونَ، فَهُمْ مُعْرِضُونَ عَنِ الْحَقِّ جَهْلًا مِنْهُمْ بِهِ، وَقَلَّةٌ فَهْمٍ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا

نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾

يقول تعالى ذكره: وَمَا أَرْسَلْنَا يَا مُحَمَّدُ مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَى أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا مَعْبُودَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، تَصْلُحُ الْعِبَادَةُ لَهُ سِوَايَ فَاعْبُدُونِ: يَقُولُ: فَاخْلَصُوا لِي الْعِبَادَةَ، وَأَفْرِدُوا لِي الْأُلُوهَةَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾

يقول تعالى ذكره: وَقَالَ هَؤُلَاءِ الْكَافِرُونَ بِرَبِّهِمْ: اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا مِنْ

ملائكته، فقال جل ثناؤه استعظماً مما قالوا وتبرياً مما وصفوه به سبحانه، يقول تنزيهاً له عن ذلك، ما ذلك من صفته. «بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ»، يقول: ما الملائكة كما وصفهم به هؤلاء الكافرون من بني آدم، ولكنهم عبادٌ مكرمون يقول: أكرمهم الله.

وقوله: «لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ»، يقول جل ثناؤه: لا يتكلمون إلا بما يأمرهم به ربهم، ولا يعملون عملاً إلا به.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾

يقول تعالى ذكره: يعلم ما بين أيدي ملائكته ما لم يبلغوه، ما هو، وما هم فيه قائلون وعاملون، «وما خلفهم»، يقول: وما مضى من قبل اليوم مما خلقوه وراءهم من الأزمان والدهور ما عملوا فيه، قالوا ذلك كله محصى لهم وعليهم، لا يخفى عليه من ذلك شيء.

وقوله: «وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ»، يقول: ولا تشفع الملائكة إلا لمن رضي الله عنه.

وقوله: «وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ»، يقول: وهم من خوف الله وحذار عقابه أن يحل بهم مشفقون: يقول: حذرون أن يعصوه ويخالفوا أمره ونهيه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾

يقول تعالى ذكره: وَمَنْ يَقُلْ مِنْ الملائكة: إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِ اللَّهِ «فَذَلِكَ»

الذي يقول ذلك منهم «نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ»، يقول: نُثَبِّهُهُ عَلَى قِيلِهِ ذَلِكَ جَهَنَّمَ
«كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ»، يقول: كما نجزي مَنْ قَالَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ: إِنِّي إِلَهُ
مِنْ دُونِ اللَّهِ جَهَنَّمَ، كذلك نجزي ذلك كُلِّ مَنْ ظَلَمَ نَفْسَهُ، فَكَفَرَ بِاللَّهِ وَعَبَدَ
غَيْرَهُ. وقيل: عَنِ بِهَذِهِ الْآيَةِ إِبْلِيسَ. وَقَالَ قَائِلُو ذَلِكَ: إِنَّمَا قُلْنَا ذَلِكَ، لِأَنَّهُ لَا
أَحَدَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ قَالَ: إِنِّي إِلَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ سِوَاهُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَوْلَمَ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
كَانَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٩﴾

يقول تعالى ذكره: أو لم ينظر هؤلاء الذين كفروا بالله بأبصار قلوبهم،
فيروا بها، ويعلموا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا: يقول: ليس فيهما ثقبٌ،
بل كَانَتَا مُلتصقتين.

وقوله: «فَفَتَقْنَاهُمَا»، يقول: فصَدَعْنَاهُمَا وَفَرَجْنَاهُمَا.

ثم اختلف أهل التأويل في معنى وصفِ الله السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالرَّتْقِ،
وكيف كان الرتقُ، وبأيِّ معنى فتق؟ فقال بعضهم: عَنِ بَذَلِكَ أَنَّ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ كَانَتَا مُلتصقتين، ففصل الله بينهما بالهواء.

وقال آخرون: بل معنى ذلك أَنَّ السَّمَوَاتِ كَانَتِ مُرتتقةً طَبَقَةً، ففتقها الله
فجعلها سَبْعَ سَمَوَاتٍ، وكذلك الأرض كانت كذلك مُرتتقةً، ففتقها، فجعلها
سَبْعَ أَرْضِينَ.

وقال آخرون: بل عَنِ بَذَلِكَ أَنَّ السَّمَوَاتِ كَانَتِ رَتْقًا لَا تُمَطِّرُ، وَالْأَرْضُ
كَذَلِكَ رَتْقًا لَا تُنْبِتُ، ففتق السماء بالمطر، والأرض بالنبات.

وقال آخرون: إِنَّمَا قِيلَ: «فَفَتَقْنَاهُمَا» لِأَنَّ اللَّيْلَ كَانَ قَبْلَ النَّهَارِ، فَفَتَقَ

النَّهَارَ.

وأُولَى الْأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ قَوْلُ مَنْ قَالَ: مَعْنَى ذَلِكَ: أَوْ لَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا مِنَ الْمَطَرِ وَالنَّبَاتِ، فَفَتَقْنَا السَّمَاءَ بِالْغَيْثِ، وَالْأَرْضَ بِالنَّبَاتِ.

وإنما قلنا ذلك أُولَى بِالصَّوَابِ فِي ذَلِكَ لِدَلَالَةِ قَوْلِهِ: «وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ» عَلَى ذَلِكَ، وَأَنَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ لَمْ يَعْقِبْ ذَلِكَ بِوصفِ الْمَاءِ بِهَذِهِ الصِّفَةِ إِلَّا وَالَّذِي تَقَدَّمَهُ مِنْ ذِكْرِ أَسْبَابِهِ.

وقوله: «أَفَلَا يُؤْمِنُونَ»، يَقُولُ: أَفَلَا يَصَدِّقُونَ بِذَلِكَ، وَيُقِرُّوْنَ بِاللَّوْهَةِ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ وَيَفْرَدُونَهُ بِالْعِبَادَةِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: أَوْ لَمْ يَرِ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ أَيْضًا مِنْ حُجَجِنَا عَلَيْهِمْ وَعَلَى جَمِيعِ خَلْقِنَا، أَنَّا جَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ جِبَالًا رَاسِيَةً، وَالرَّوَاسِيَ: جَمْعُ رَاسِيَةٍ، وَهِيَ الثَّابِتَةُ.

وقوله: «أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ»، يَقُولُ: أَنْ لَا تَتَكَفَّ بِهِمْ، يَقُولُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: فَجَعَلْنَا فِي هَذِهِ الْأَرْضِ هَذِهِ الرَّوَاسِيَ مِنَ الْجِبَالِ، فَثَبَّتْنَاهَا لثَلَا تَتَكَفَّ بِالنَّاسِ، وَلِيَقْدَرُوا بِالثَّبَاتِ عَلَى ظَهَرِهَا.

«وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا»، يَعْنِي: مَسَالِكَ، وَاحِدُهَا فِجٌّ

وقوله: «سُبُلًا» أَي طَرِيقًا، وَهِيَ جَمْعُ السَّبِيلِ.

وقوله: «لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ»، يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: جَعَلْنَا هَذِهِ الْفِجَاجَ فِي الْأَرْضِ لِيَهْتَدُوا إِلَى السَّبِيلِ فِيهَا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾

يقول تعالى ذكره: «وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا» للأرض مسموكاً.

وقوله: «مَحْفُوظًا»، يقول: حفظناها من كلِّ شيطانٍ رجيمٍ.

وقوله: «وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ»، يقول: وهؤلاء المشركون عن آياتِ السماء، ويعني بآياتها: شمسها وقمرها ونجومها. «معرضون»، يقول: يُعْرِضُونَ عن التفكير فيها، وتَدَبُّر ما فيها من حججِ الله عليهم، ودلالاتها على وحدانية خالقها، وأنه لا ينبغي أن تكون العبادة إلا لمن دَبَّرَهَا وسَوَّاهَا، ولا تصلح إلا له.

وقوله: «وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ»، يقول تعالى ذكره: والله الذي خلق لكم أيها الناس الليل والنهار، نعمةً منه عليكم وحجة، ودلالةً على عظيمِ سلطانه، وأنَّ الألوهة له دون كلِّ ما سواه فهما يختلفان عليكم لصلاحِ معاشكم وأمورِ دنياكم وآخرتكم، وخلق الشمس والقمر أيضاً، كلٌّ في فلَكٍ يسبحون، يقول: كلُّ ذلك في فلَكٍ يسبحون.

وأما قوله: «يَسْبَحُونَ» فإن معناه: يَجْرُونَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا جَعَلْنَا لِلْبَشَرِ مِنْ قَبْلِكَ الْخَلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وما خلدنا أحداً من بني آدم يا محمد قبلك في الدنيا فنخلدك فيها، ولابد لك من أن تموت كما مات من قبلك رُسُلنا. «أفإن متَّ فهُمُ الْخَالِدُونَ»، يقول: فهؤلاء المشركون بربهم هم الخالدون في الدنيا بعدك؟ لا، ما ذلك كذلك، بل هم ميتون بكلِّ حالٍ عشتَ أو متَّ.

وقوله: «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ»، يقول تعالى ذكره: كُلُّ نَفْسٍ مِنْفُوسَةٍ مِنْ خَلْقِهِ، معالجةٌ غصص الموت، ومتجرعةٌ كأسها.

وقوله: «وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً»، يقول تعالى ذكره: ونختبركم أيها الناس بالشَّرِّ، وهو الشدَّةُ نبتليكم بها، وبالخير، وهو الرخاء والسعة العافية، فنفتنكم به.

وقوله: «وَاللَّيْنَا تُرْجَعُونَ»، يقول: وإلينا يُرْدُونَ فيجازون بأعمالهم، حسنُها وسيئُها.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَإِذَا رَأَوْاكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ يَذْكُرُ الْرَّحْمَنَ هُمْ كَفَرُوا

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: «وَإِذَا رَأَوْاكَ يَا مُحَمَّدُ «الَّذِينَ كَفَرُوا» بِاللَّهِ «إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا»، يقول: ما يتخذونك إلا سخرياً يقول بعضهم لبعض: «أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ»، يعني بقوله: يذكُرُ آلِهَتكم بسوءٍ وبعيها، تعجباً منهم من ذلك، يقول الله تعالى ذكره: فيعجبون من ذكرك يا محمد آلِهَتُهُمُ الَّتِي لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ بِسُوءِ «وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ» الَّذِي خَلَقَهُمْ وَأَنْعَمَ عَلَيْهِمْ، وَمِنْهُمْ نَفْعُهُمْ، وَبِيَدِهِ ضَرْهُهُمْ، وَإِلَيْهِ مَرْجِعُهُمْ بَمَا هُوَ أَهْلُهُ مِنْهُمْ أَنْ يَذْكُرُوهُ

به كافرون، والعربُ تضعُ الذِّكْرَ موضعَ المدحِ والذمِّ، فيقولون: سمعنا فلانا يذكرُ فلاناً، وهم يريدون سمعناه يذكره بقبیحٍ ويعيبه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾

يقول تعالى ذكره: «خُلِقَ الْإِنْسَانُ»، يعني آدم «مِنْ عَجَلٍ».

واختلف أهل التأويل في تأويله، فقال بعضهم: معناه: من عجلٍ في بَنِيَّتِهِ وَخِلْقَتِهِ، كَانَ مِنَ الْعَجَلَةِ، وعلى العجلة.

وقال آخرون: معناه: خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ: أي من تعجيلٍ في خلقِ الله إِيَّاهُ وَمِنْ سُرْعَةٍ فِيهِ وَعَلَى عَجَلٍ، وقالوا: خَلَقَهُ اللهُ فِي آخِرِ النَّهَارِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ عَلَى عَجَلٍ فِي خَلْقِهِ إِيَّاهُ قَبْلَ مَغِيْبِهَا.

وقال بعضُ أهلِ العربية من أهلِ البصرة ممن قال نحو هذه المقالة: إنما قال: خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ، وهو يعني أنه خلقه من تعجيلٍ من الأمر، لأنه قال: «إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» قال: فهذا العجل.

وقوله: «فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ» إني «سَأُورِيكُمْ آيَاتِي» وعلى قول صاحب هذه المقالة يجب أن يكونَ كُلُّ خُلُقِ اللهِ خُلُقَ عَلَى عَجَلٍ، لِأَنَّ كُلَّ ذَلِكَ خُلُقَ بَأَنٍ قِيلَ لَهُ كُنْ فَكَانَ. فإذا كان ذلك كذلك، فما وجهُ خصوصِ الْإِنْسَانِ إِذَا بَذَرَ أَنَّهُ خُلِقَ مِنْ عَجَلٍ دُونَ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا، وكلها مخلوقٌ من عجلٍ، وفي خصوصِ الله تعالى ذِكْرُهُ الْإِنْسَانُ بِذَلِكَ الدَّلِيلِ الْوَاضِحِ عَلَى أَنَّ الْقَوْلَ فِي ذَلِكَ غَيْرِ الَّذِي قَالَهُ صَاحِبُ هَذِهِ الْمَقَالَةِ.

وقال آخرون: منهم: هذا من المقلوب، وإنما خُلِقَ الْعَجَلُ من الإنسان، وَخُلِقَتِ الْعَجَلَةُ من الإنسان، وقالوا ذلك مثل قوله: «ما إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ» إنما هو لتنوء العصبَةُ بها متشاقلةً، وقالوا: هذا وما أشبهه في كلام العرب كثيرٌ مشهور، قالوا: وإنما كلم القوم بما يعقلون، قالوا: وذلك مثل قولهم: عَرَضْتُ الناقة، وكقولهم إذا طلعت الشعري واستوت العود على الحِرْبَاء: أي استوت الحرباء على العود.

والصوابُ من القولِ في تأويل ذلك عندنا الذي ذكرناه عَمَّنْ قال معناه: خُلِقَ الإنسانُ من عجلٍ في خلقه: أي على عجلٍ وسرعةٍ في ذلك، وإنما قيل ذلك كذلك، لأنه بُودِرَ بخلقهِ مغيبَ الشمسِ في آخرِ ساعةٍ من نهارِ يومِ الجمعة، وفي ذلك الوقت نفخ فيه الروح.

وإنما قلنا أولى الأقوالِ التي ذكرناها في ذلك بالصواب، لدلالةِ قوله تعالى: «سَأْرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ» على ذلك.

فتأويلُ الكلامِ إذا كان الصوابُ في تأويل ذلك ما قلنا: «خُلِقَ الإنسانُ مِنْ عَجَلٍ»، ولذلك يستعجل رَبُّهُ بالعذاب. «سَأْرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ»، أيها المستعجلون رَبَّهُمْ بِالآيَاتِ الْقَائِلُونَ لِنَبِينَا مُحَمَّدٍ ﷺ: بل هو شاعرٌ، فليأتنا بآيةٍ كما أرسل الأولون، آياتي^(١)، كما أريتها من قبلكم من الأمم التي أهلكناها بتكذيبها الرسل، إذ أتتها الآياتُ فلا تستعجلون، يقول: فلا تستعجلوا رَبَّكُمْ، فإننا سنأتيكم بها ونُريكموها.

وقوله: «وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ»، يقول تعالى ذكره: ويقول هؤلاء المستعجلون رَبَّهُمْ بِالآيَاتِ وَالْعَذَابِ لِمُحَمَّدٍ ﷺ: متى هذا

(١) السياق سأريكم آياتي فلا تستعجلون... آياتي.

الوعد: يقول: متى يجيئنا هذا الذي تعدنا من العذاب إن كنتم صادقين فيما تعدوننا به من ذلك.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَوَيْعَلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا هِجْرًا لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٨﴾

يقول تعالى ذكره: لو يعلم هؤلاء الكفار المستعجلون عذاب ربهم ماذا لهم من البلاء حين تُلْفَحُ وجوههم النار، وهم فيها كالحن، فلا يَكْفُرُونَ عَنْ وجوههم النار التي تُلْفَحُهَا، ولا عن ظهورهم فيدفعونها عنها بأنفسهم. «وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ»، يقول: ولا لهم ناصرٌ ينصرهم، فيستنقذهم حينئذٍ من عذاب الله لما أقاموا على ما هم عليه مقيمون من الكفر بالله، ولسارعوا إلى التوبة منه والإيمان بالله، ولما استعجلوا لأنفسهم البلاء.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٣٩﴾

يقول تعالى ذكره: لا تأتي هذه النار التي تُلْفَحُ وجوه هؤلاء الكفار الذين وَصَفَ أمرهم في هذه السورة حين تأتيهم عن علمٍ منهم بوقتها، ولكنها تأتيهم مفاجأة لا يشعرون بمجيئها فتبتهتهم: يقول: فتغشاهم فجأة، وتُلْفَحُ وجوههم معاناة كالرجل يبهت الرجل في وجهه بالشيء، حتى يبقى المبهوت كالحيوان منه، «فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا»، يقول: فلا يُطِيقُونَ حين تَبْغَتْهُمْ، فتبتهتهم دَفْعَهَا عن أنفسهم. «وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ»، يقول: ولا هم وإن لم يُطِيقُوا دَفْعَهَا عن أنفسهم يُؤَخَّرُونَ بالعذاب بها لتوبة يُحْدِثُونَهَا، وإنابة ينيبون، لأنها ليست حين عملٍ وساعة توبة وإنابة، بل هي ساعة مجازاة وإنابة.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ
بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤١﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: إِنْ يَتَّخِذْكَ يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ الْقَائِلُونَ
لَكَ: هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ، أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ، إِذْ رَأَوْكَ هُزُوعًا،
ويقولون: هَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ كَفَرًا مِنْهُمْ بِاللَّهِ، وَاجْتِرَاءً عَلَيْهِ، فَلَقَدْ اسْتَهْزِئَ
بِرُسُلٍ مِّن رَّسَلِنَا الَّذِينَ أَرْسَلْنَاهُمْ مِنْ قَبْلِكَ إِلَى أُمَمِهِمْ، يَقُولُ: فَوَجَبَ وَنَزَلَ
بِالَّذِينَ اسْتَهْزَؤُوا بِهِمْ، وَسَخَرُوا مِنْهُمْ مِنْ أُمَمِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ: يَقُولُ
جَلَّ ثَنَاؤُهُ: حَلَّ بِهِمُ الَّذِي كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ مِنَ الْبَلَاءِ وَالْعَذَابِ الَّذِي كَانَتْ
رُسُلُهُمْ تُخَوِّفُهُمْ نَزْوَلُهُ بِهِمْ، يَسْتَهْزِئُونَ: يَقُولُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ، فَلَنْ يَعْدُو هَؤُلَاءِ
الْمُسْتَهْزِئُونَ بِكَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْكُفَرَةِ أَنْ يَكُونُوا كَأَسْلَافِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمَكْذُوبَةِ
رُسُلُهَا، فَيَنْزِلَ بِهِمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَسَخَطِهِ بِاسْتَهْزَائِهِمْ بِكَ نَظِيرَ الَّذِي نَزَلَ بِهِمْ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ مَن يَكْلَأُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ
الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَهُؤُلَاءِ الْمُسْتَعْجِلِيكَ
بِالْعَذَابِ، الْقَائِلِينَ: مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ: مَنْ يَكْلَأُكُمْ أَيُّهَا الْقَوْمُ:
يَقُولُ: مَنْ يَحْفَظُكُمْ وَيَحْرُسُكُمْ بِاللَّيْلِ إِذَا نِمْتُمْ، وَبِالنَّهَارِ إِذَا تَصَرَّفْتُمْ مِنَ
الرَّحْمَنِ؟ يَقُولُ: مَنْ أَمَرَ الرَّحْمَنَ أَنْ نَزَلَ بِكُمْ، وَمَنْ عَذَابُهُ إِنْ حَلَّ بِكُمْ، وَتَرَكَ
ذِكْرَ الْأَمْرِ، وَقِيلَ مِنَ الرَّحْمَنِ اجْتِرَاءً بِمَعْرِفَةِ السَّامِعِينَ لِمَعْنَاهُ مِنْ ذِكْرِهِ.

قوله: «بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ»، وقوله: «بَلْ» تحقيقٌ لجحدٍ
قد عرفه المخاطبون بهذا الكلام، وإن لم يكن مذكوراً في هذا الموضع ظاهراً،
ومعنى الكلام: وما لهم أن لا يعلموا أنه لا كاليَّ لهم من أمر الله إذا هو حلَّ

بهم ليلاً أو نهاراً، بل هُم عن ذِكْرِ مواعِدِ رَبِّهِمْ وحججه التي احتجَّ بها عليهم معرضون لا يتدبرون ذلك، فلا يعتبرون به، جهلاً منهم وسفهاً.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَمَرَهُمْ آلِهَةُ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنْنَا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾

يقول تعالى ذكره: ألهؤلاء المُسْتَعْجِلِي رَبِّهِمْ بالعذابِ آلهةٌ تمنعُهُم، إن نحنُ أحلَلنا بهم عذابنا، وأنزلنا بهم بأسنا من دوننا، ومعناه: أم لهم آلهةٌ من دوننا تمنعُهُم مِنَّا، ثم وصفَ جُلَّ ثناؤه الآلهةَ بالضعفِ والمهانةِ، وما هي به من صفتها، فقال: وكيف تستطيعُ آلهتهم التي يَدْعُونَهَا من دوننا أن تمنعَهُم مِنَّا وهي لا تستطيعُ نصرَ أنفسها.

وقوله: «وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ»، يقول: ولا هم مِنَّا يُجَارُونَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: بَلْ مَنَعْنَا هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾

يقول تعالى ذكره: ما لهؤلاء المشركين من آلهةٍ تمنعُهُم من دوننا، ولا جارٍ يُجِيرُهُمْ من عذابنا، إذا نحنُ أردنا عذابَهُم، فاتَّكَلُوا على ذلك، وعَصَوْا رُسُلَنَا اتِّكَالاً منهم على ذلك، ولكننا متعناهم بهذه الحياة الدنيا وآباءَهُمْ من قَبْلِهِمْ حتى طَالَ عليهم العُمُرُ، وهُم على كُفْرِهِمْ مقيمون، لا تأتيهم مِنَّا واعظةٌ من عذابٍ، ولا زاجرةٌ من عقابٍ على كفرهم وخلافِهِم أمرنا، وعبادتهم الأوثان والأصنام، فنسوا عَهْدَنَا وجهلوا موقعَ نعمتنا عليهم، ولم يعرفوا موضعَ الشكر.

وقوله: «أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا»، يقول تعالى

ذكره: أفلا يرى هؤلاء المشركون بالله السائلو محمد ﷺ الآيات، المستعجلوه بالعذاب، أنا نأتي الأرض نُخْرِبُهَا من نواحيها بقهرنا أهلها، وَغَلَبَتْنَاهُمْ، وإجلالهم عنها، وَقَتْلِهِم بالسيف، فيعتبروا بذلك وَيَتَعَطَّوْا به، وَيَحْذَرُوا منا أن نُزَلَّ من بأسنا بهم نحو الذي قد أنزلنا بمن فعلنا ذلك به من أهل الأطراف.

وقوله: «أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ»، يقول تبارك وتعالى: أفهؤلاء المشركون المستعجلو محمد بالعذاب الغالبون، وقد رأوا قَهْرَنَا من أحللنا بساحته بأسنا في أطراف الأرضين، ليس ذلك كذلك، بل نحنُ الغالبون، وإنما هذا تفرغ من الله تعالى لهؤلاء المشركين به بجهلهم يقول: أفيظنون أنهم يغلِبون محمداً ويقهرونه، وقد قهر مَنْ نَواه من أهل أطراف الأرض غيرهم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ** ﴿٤٤﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء القائلين فليأتنا بآية كما أرسل الأولون: إنما أُنذِرُكُمْ أيها القوم بتنزيل الله الذي يُوحِيهِ إِلَيَّ من عنده، وأخوِّفُكُمْ به بأسه.

وقوله: «وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ» (يعني): ولا يصغي الكافر بالله بسمع قلبه إلى تَذَكُّرٍ ما في وحي الله من المواعظِ والتذكُّرِ، فيتذكر به ويعتبر، فينزعج عَمَّا هُوَ عليه مقيماً من ضلاله إذا تَلَّى عليه وأريد به، ولكنه يُعْرِضُ عن الاعتبار به والتفكر فيه، فِعْلُ الصُّمِّ الذي لا يسمع ما يُقال له فيعمل به.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **وَلَكِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يُوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ** ﴿٤٥﴾

يقول تعالى ذكره: ولئن مسّت هؤلاء المستعجلين بالعذاب يا محمد نفحة من عذاب ربك، يعني بالنفحة النصيب والحظ، من قولهم: نفح فلان لفلان من عطائه: إذا أعطاه قسماً أو نصيباً من المال.

وقوله: «لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ»، يقول: لئن أصابتهم هذه النفحة من عقوبة ربك يا محمد بتكذيبهم بك وكفرهم، ليعلمنَّ حينئذٍ غبّ تكذيبهم بك، وليعترفنَّ على أنفسهم بنعمة الله وإحسانه إليهم، وكفرانهم أياديه عندهم، وليقولنَّ يا ويلنا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فِي عِبَادَتِنَا الْآلِهَةَ وَالْأَنْدَادَ، وتركنا عبادة الله الذي خلقنا وأنعم علينا، ووضعنا العبادة غير موضعتها.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ
فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا
وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيبِينَ ﴿٤٧﴾

يقول تعالى ذكره: «وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ» العدل، وهو «القِسْطُ». وجعل القِسْط وهو موحد من نعت الموازين، وهو جمع لأنه في مذهب عدل ورضا ونظر.

وقوله: «لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ»، يقول: لأهل يوم القيامة، وَمَنْ وَرَدَ عَلَى اللَّهِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنْ خَلْقِهِ.

وقوله: «فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً»، يقول: فلا يظلم الله نفساً ممن ورد عليه منهم شيئاً بأن يعاقبه بذنب لم يعمله أو يبخسه ثواب عملٍ عَمِلَهُ، وطاعة أطاعه بها، ولكن يجازي المحسن بإحسانه، ولا يعاقب مسيئاً إلا بإساءته.

وقوله: «وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا»، يقول: وإن كان الذي

له من عمل الحسنات، أو عليه من السيئات وَزُنْ حبة من خردلٍ آتينا بها: يقول: جئنا بها فأحضرناها إياه.

وقوله: «وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ»، يقول: وحسب مَنْ شهد ذلك الموقف بنا حاسبين، لأنه لا أحد أعلم بأعمالهم، وما سلف في الدُّنَا من صالحٍ أو سيئٍ، منا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ
وَضِيَاءَ وَذِكْرًا لِّلْمُنْقِيَاتِ ﴿٤٨﴾

يقول تعالى ذكره: ولقد آتينا موسى بن عمران وأخاه هارون الفرقان، يعني به الكتاب الذي يفرق بين الحق والباطل، وذلك هو التوراة في قول بعضهم. وقال ابن زيد: الفرقان هو الحق آتاه الله موسى وهارون، فرق بينهما وبين فرعون، قضى بينهم بالحق.

وهذا القول الذي قاله ابن زيد في ذلك أشبه بظاهر التنزيل، وذلك لدخول الواو في الضياء، ولو كان الفرقان هو التوراة كما قال مَنْ قال ذلك، لكان التنزيل: ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان ضياء، لأنَّ الضياء الذي آتى الله موسى وهارون هو التوراة التي أضاءت لهما ولمن اتبعهما أمر دينهم فبَصَرُهُمُ الحلال والحرام، ولم يقصد بذلك في هذا الموضع ضياء الإبصار، وفي دخول الواو في ذلك دليل على أن الفرقان غير التوراة التي هي ضياء.

فإن قال قائل: وما ينكر أن يكون الضياء من نعت الفرقان، وإن كانت فيه واو فيكون معناه: وضياء آتيناه ذلك، كما قال: «بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ وَحِفْظًا؟» قيل له: إنَّ ذلك وإن كان الكلام يحتمله، فإنَّ الأغلب من معانيه ما قلنا. والواجب أن يوجه معاني كلام الله إلى الأغلب الأشهر من وجوها المعروفة عند

العرب ما لم يكن بخلاف ذلك ما يجب التسليم له من حجة خير أو عقل .

وقوله: «وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ»، يقول: وتذكيراً لمن اتقى الله بطاعته وأداء فرائضه، واجتناب معاصيه، ذكّرهم بما أتى موسى وهارون من التوراة.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنْ

السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾

يقول تعالى ذكّره: آتينا موسى وهارون الفرقان: الذّكر الذي آتيناها للملتقين الذين يخافون ربّهم بالغيب، يعني في الدنيا أن يعاقبهم في الآخرة إذا قدّموا عليه بتضييعهم ما ألزمهم من فرائضه، فهم من خشيته، يحافظون على حدوده وفرائضه، وهم من الساعة التي تقوم فيها القيامة مشفقون، حذّرون أن تقوم عليهم، فيردّوا على ربّهم قد فرطوا في الواجب عليهم لله، فيعاقبهم من العقوبة بما لا قبل لهم به.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ

مُنْكَرُونَ ﴿٥٠﴾

يقول جلّ ثناؤه: وهذا القرآن الذي أنزلناه إلى محمد ﷺ ذكّر لمن تذكّر به، وموعظة لمن اتعظ به. «مبارك، أنزلناه» كما أنزلنا التوراة إلى موسى وهارون ذكراً للمتقين «أفأنتم له منكرُونَ»، يقول تعالى ذكره: أفأنتم أيها القوم لهذا الكتاب الذي أنزلناه إلى محمد منكرُونَ، وتقولون: «هو أضغاث أحلام، بل افتراء، بل هو شاعر، فليأتنا بآية كما أرسل الأولون»، وإنما الذي آتينا من ذلك ذكر للمتقين، كالذي آتينا موسى وهارون ذكراً للمتقين.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ



يقول تعالى ذكره: «وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ» موسى وهارون، ووقفناه للحق، وأنقذناه من بين قومه وأهل بيته من عبادة الأوثان، كما فعلنا ذلك بمحمد ﷺ، وعلى إبراهيم فأنقذناه من قومه وعشيرته من عبادة الأوثان، وهديناه إلى سبيل الرشاد توفيقاً منا له.

وقوله: «وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ»، يقول: وكنا عالمين به أنه ذو يقين وإيمان بالله وتوحيد له، لا يشرك به شيئاً. «إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ»، يعني في وقت قيله وحين قيله لهم: «ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون»، يقول: قال لهم: أي شيء هذه الصور التي أنتم عليها مقيمون، وكانت تلك التماثيل أصنامهم التي كانوا يعبدونها.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٢﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٣﴾ قَالُوا أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴿٥٤﴾

يقول تعالى ذكره: قال أبو إبراهيم وقومه لإبراهيم: وجدنا آباءنا لهذه الأوثان عابدين، فنحن على ملة آبائنا نعبدها كما كانوا يعبدون، «قَالَ» إبراهيم: «لَقَدْ كُنْتُمْ» أيها القوم «أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ». بعبادتكم إياها «فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ»، يقول: في ذهاب عن سبيل الحق، وجور عن قصد السبيل مبين: يقول: بين لمن تأمله بعقل، إنكم كذلك في جور عن الحق. «قَالُوا أَجِئْنَا بِالْحَقِّ؟»، يقول:

قال أبوه وقومه له: أجبتنا بالحق فيما نقول. «أم أنت» هازل لاعب «من اللاعبين».

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾

يقول تعالى ذكره: قال إبراهيم لهم: بل جئتمكم بالحق لا اللعب، ربكم رب السموات والأرض الذي خلقهن، وأنا على ذلكم من أن ربكم هو رب السموات والأرض الذي فطرهن، دون التماثيل التي أنتم لها عاكفون، ودون كل أحد سواه شاهد من الشاهدين، يقول: فيأيه فاعبدوا لا هذه التماثيل التي هي خلقه التي لا تضر ولا تنفع.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مَدِيرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾

ذَكَرَ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ حَلَفَ بِهَذِهِ الْيَمِينِ فِي سِرٍّ مِنْ قَوْمِهِ وَخَفَاءَ، وَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ ذَلِكَ مِنْهُ إِلَّا الَّذِي أَفْشَاهُ عَلَيْهِ حِينَ قَالُوا: مَنْ فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ، فَقَالُوا: سَمِعْنَا فَتَىٰ يَذْكُرُهُمْ يَقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ.

— وقوله: «فَجَعَلَهُمْ جُذَاًا»، يقول: حطاماً.

وقوله: «إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ»، يقول: إِلَّا عَظِيمًا لِلآلِهَةِ، فَإِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَمْ يَكْسِرْهُ، وَلَكِنَّهُ فِيمَا ذَكَرَ عَلَّقَ الْفَأْسَ فِي عُنُقِهِ.

وقوله: «لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ»، يقول: فَعَلَ ذَلِكَ إِبْرَاهِيمُ بِآلِهَتِهِمْ لِيَعْتَبَرُوا وَيَعْلَمُوا أَنَّهُ إِذَا لَمْ تَدْفَعْ عَنْ نَفْسِهَا مَا فَعَلَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ، فَهِيَ مِنْ أَنْ تَدْفَعَ عَنْ

غيرها مَنْ أَرَادَهُ بِسُوءٍ أَبْعَدُ، فِيرْجِعُوا عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مُقِيمُونَ مِنْ عِبَادَتِهَا إِلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ دِينِهِ وَتَوْحِيدِ اللَّهِ، وَالْبِرَاءَةِ مِنَ الْأَوْثَانِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٥٩﴾ قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦٠﴾

يقول تعالى ذكره : قال قوم إبراهيم لما رأوا آلهتهم قد جُذْتُ، إلا الذي رَبط به القَاسَ إبراهيمُ : من فعل هذا بآلهتنا، إنَّ الذي فعلَ هذا بآلهتنا لمن الظالمين : أي لمن الفاعلين بها ما لم يكن له فِعْلُهُ «قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ»، يقول : قال الذين سمعوه يقول : «تَاللَّهِ لَا كِيدَنَّ أَصْنَامُكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ» سمعنا فتًى يذكُرهم بعيب يقال له إبراهيم .

وقوله : «فَأَتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ»، يقول تعالى ذكره : قال قوم إبراهيم بعضهم لبعض : فَأَتُوا بِالَّذِي فَعَلَ هَذَا بآلهتنا الذي سمعتموه يذكُرها بعيبٍ وَيُسَبِّهَا وَيَذْمُهَا عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ، فقيل : معنى ذلك : على رؤوسِ الناس . وقال بعضهم : معناه : بأَعْيُنِ النَّاسِ ومَرَأَى مِنْهُمْ، وقالوا : إنما أريدُ بذلك أَظْهَرُوا الذي فعل ذلك للناسِ كما تقولُ العرب إذا ظهر الأمرُ وشهرَ : كان ذلك على أَعْيُنِ النَّاسِ، يُرَادُ بِهِ كَانَ بِأَيْدِي النَّاسِ .

واختلف أهل التأويل في تأويل قوله : «لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ»، فقال بعضهم : معناه : لعلَّ النَّاسَ يشهدون عليه، أنه الذي فعلَ ذلك، فتكون شهادتهم عليه حجةً لنا عليه، وقالوا : إنما فعلوا ذلك لأنهم كرهوا أَنْ يأخذوه بغيرِ بَيِّنَةٍ .

وقال آخرون : بل معنى ذلك : لعلهم يشهدون ما يعاقبونه به، فيعاقبونه ويرونه .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِإِلَهِنَا
يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا
يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾

يقول تعالى ذكره: فأتوا إبراهيم، فلما أتوا به قالوا له: أنتَ فعلتَ هذا
بإلهتنا من الكسرِ بها يا إبراهيم؟ فأجابهم إبراهيم: بَلْ فعله كبيرهم هذا
وعظيمهم، فاسألوا الآلهةَ مَنْ فعلَ بها ذلك وكسرها إِنْ كانتَ تنطقُ، أو تعبرُ
عن نفسها.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَارْجِعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ
الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ تَكْسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾
يقول تعالى ذكره: فذكروا حين قال لهم إبراهيمُ صلواتُ الله عليه. «بَلْ
فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ» في أنفسهم، ورجعوا إلى
عقولهم، ونظرَ بعضهم إلى بعضٍ، فقالوا: إنكم معشر القوم الظالمون،
هذا الرجل في مسألتكم إياه، وقيلكم له: مَنْ فعلَ هذا بإلهتنا يا إبراهيم، وهذه
آلهتكم التي فعلَ بها ما فعلَ حاضرتكم فاسألوها.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا
لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَفِي لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾

يقول تعالى ذكره: قال إبراهيم لقومه: أفَتَعْبُدُونَ أيها القومُ ما لا ينفعكم
شيئاً ولا يضرُّكم، وأنتم قد علمتم أنها لم تمنع نفسها مِنْ أَرَادَهَا بسوءٍ، ولا

هي تقدّر أن تنطق إن سئلت عمن يأتيها بسوء فتخبر به، أفلا تستحيون من عبادة ما كان هكذا.

وقوله: «أَفْ لَكُمْ»، يقول: قبحاً لكم وللآلهة التي تعبدون من دون الله، أفلا تعقلون قبح ما تفعلون من عبادتكم ما لا يضر ولا ينفع، فتركوا عبادته، وتعبدوا الله الذي فطر السموات والأرض، والذي بيده النفع والضر.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾

يقول تعالى ذكره: قال بعض قوم إبراهيم لبعض: حرقوا إبراهيم بالنار. «وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ»، يقول: إن كنتم ناصريها، ولم تريدوا ترك عبادتها.

وقوله: «قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ» في الكلام متروك اجتزى بدلالة ما ذكر عليه منه، وهو: فأوقدوا له ناراً ليحرقوه ثم ألقوه فيها، فقلنا للنار: يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم.

وقوله: «وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا»، يقول تعالى ذكره: وأرادوا بإبراهيم كيداً «فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ» يعني الهالكين.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾

يقول تعالى ذكره: ونجينا إبراهيم ولوطاً من أعدائهما، نمرود وقومه من

أرض العراق. «إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين» وهي أرض الشام، فارق صلوات الله عليه قومه ودينهم، وهاجر إلى الشام.

وهذه القصة التي قصَّ الله من نبي إبراهيم وقومه تذكير منه بها قوم محمد ﷺ من قريش أنهم قد سلكوا في عبادتهم الأوثان، وأذاهم محمداً على نهيه عن عبادتها، ودعائهم إلى عبادة الله مخلصين له الدين، مسلك أعداء أبيهم إبراهيم، ومخالفتهم دينه، وأن محمداً في براءته من عبادتها، وإخلاصه العبادة لله، وفي دعائهم إلى البراءة من الأصنام، وفي الصبر على ما يلقى منهم في ذلك سالك منهاج أبيه إبراهيم، وأنه مُخْرِجُهُ من بين أظهرهم، كما أخرج إبراهيم من بين أظهر قومه حين تمادوا في غيهم إلى مهاجره من أرض الشام، ومُسَلِّ بذلك نبيه محمداً ﷺ عما يلقى من قومه من المكروه والأذى، ومُعَلِّمُهُ أنه مُنْجِيهِ منهم كما نجى أباه إبراهيم من كفره قومه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ٧١** وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ ٧٢

يقول تعالى ذكره: ووهبنا لإبراهيم إسحاق ولدًا، ويعقوب ولد ولد، نافلةً لك.

واختلف أهل التأويل في المعنى بقوله: «نافلة»، فقال بعضهم: عنى به يعقوب خاصة.

وقال آخرون: بل عنى بذلك إسحاق ويعقوب، قالوا: وإنما معنى النافلة: العطية، وهما جميعاً من عطاء الله أعطاهما إياه.

وقد بينا فيما مضى قبل، أن النافلة: الفضل من الشيء يصير إلى الرجل.

من أي شيء كان ذلك، وكلاً ولديه إسحاق ويعقوب كان فضلاً من الله تفضلاً به على إبراهيم، وهبةً منه له. وجائز أن يكون عني به أنه آتاهما إياه جميعاً نافلةً منه له، وأن يكون عني أنه آتاه نافلةً يعقوب، ولا برهان يدل على أي ذلك المراد من الكلام، فلا شيء أولى أن يقال في ذلك مما قال الله: ووهب الله له لإبراهيم - إسحاق ويعقوب، نافلةً.

وقوله: «وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ»، يعني عاملين بطاعة الله، مجتنبين محارمَهُ، وعني بقوله: «كُلًّا»: إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب.

وقوله: «وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا»، يقول تعالى ذكره: وجعلنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أئمةً يؤتمُّ بهم في الخير في طاعة الله في اتباع أمره ونهيه، ويُقتدى بهم، ويُتبعون عليه.

وقوله: «يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا»، يقول: يهدون الناس بأمر الله إياهم بذلك، ويدعونهم إلى الله وإلى عبادته.

وقوله: «وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ»، يقول تعالى ذكره: وأوحينا فيما أوحينا أن افعلوا الخيرات، وأقيموا الصلاة بأمرنا بذلك. «وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ»، يقول: كانوا لنا خاشعين، لا يستكبرون عن طاعتنا وعبادتنا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَوْ طَآءَ أَيْدِيَهُمْ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبْثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَسَقِينَ ﴿٧٤﴾

يقول تعالى ذكره: وآتيناهم لو طاً حكماً، وهو فصل القضاء بين الخصوم، وعلماً: يقول: وآتيناه أيضاً علماً بأمر دينه، وما يجب عليه الله من فرائضه.

وقوله: «وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبْثَ»، يقول: ونجَّيناه من عذابنا الذي أحللناه بأهل القرية التي كانت تعمل الخبائث، وهي قرية

سَدُومَ التي كان لوطٌ بعثَ إلى أهلها، وكانت الخبائثُ التي يعملونها: إتيان الذَكَرِ في أدبارهم، وخَذْفُهم الناسَ، وتَضَارُطُهُمْ في أنديتهم، مع أشياء أُخَر كانوا يعملونها من المُنكَر، فأخرجه اللهُ حين أرادَ إهلاكَهُمْ إلى الشام.

وقوله: «إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوَاءٍ فَاسِقِينَ» مخالفين أمرَ الله، خارجين عن طاعته وما يرضى من العمل.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: وأدخلنا لوطاً في رحمتنا بانجائنا إياه مما أحللنا بقومه من العذابِ والبلاءِ، وإنقاذناهُ منه. «إنه من الصالحين»، يقول: إِنَّ لوطاً من الذين كانوا يعملون بطاعتنا، ويتتهون إلى أمرنا ونهيها ولا يعصوننا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، فَجَعَلْنَاهُ وَآهْلَهُ مِنْ أَلْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾

يقول تعالى ذكره: واذكر يا محمدُ نوحاً إِذْ نادى رَبَّهُ من قَبْلِكَ، ومن قبل إبراهيمَ وِلوطَ، وسألنا أَنْ نُهْلِكَ قومه الذين كَذَّبُوا اللهَ فيما تَوَعَّدَهُمْ به من وعيده، وكَذَّبُوا نوحاً فيما أتاهم به من الحقِّ من عند ربه، «وَقَالَ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا» فاستجبنا له دعاءهُ، ونَجَّيْنَاهُ وَآهْلَهُ، يعني بأهله: أهل الإيمان من ولده وحلائلهم «مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ» يعني بالكرب العظيم: العذاب الذي أُحِلَّ بالمكذِّبينَ من الطوفانِ والغرق.

والكرب: شدة الغم، يقال منه: قد كربني هذا الأمر فهو يكربني كرباً.

وقوله: «وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيَاتِنَا»، يقول: ونصرنا نوحاً على القوم الذين كذبوا بحجبتنا وأدلتنا، فأنجيناه منهم، فأغرقناهم أجمعين، إنهم كانوا قوم سوء، يقول تعالى ذِكْرُهُ إِنَّ قَوْمَ نوحٍ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيَاتِنَا كانوا قوم سوء، يسيئون الأعمال، فيعصون الله ويخالفون أمره.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحَكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَاهُمْ حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: واذكر داود وسليمان يا محمد إذ يحكمان في الحرث. والحرث: إنما هو حرث الأرض. وجائز أن يكون ذلك كان زرعاً، وجائز أن يكون غرساً، وغير ضائر الجهل بأي ذلك كان.

وقوله: «إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ»، يقول: حين دخلت في هذا الحرث غنم القوم الآخرين من غير أهل الحرث ليلاً، فَرَعَتْهُ أو أَفْسَدَتْهُ. «وَكُنَّا لِحَكْمِهِمْ شَاهِدِينَ»، يقول: وكُنَّا لحكم داود وسليمان والقوم الذين حكموا بينهم فيما أَفْسَدَتْ غَنَمُ أَهْلِ الْغَنَمِ من حرث أهل الحرث، شاهدين لا يخفى علينا منه شيء، ولا يغيبُ عنا عِلْمُهُ.

وقوله: «فَفَهَّمْنَاهَا»، يقول: فَفَهَّمْنَا الْقَضِيَّةَ فِي ذَلِكَ «سُلَيْمَانَ» دُونَ دَاوُدَ، «وَكُلًّا آتَيْنَاهُمْ حُكْمًا وَعِلْمًا»، يقول: وكلهم من داود وسليمان والرسل الذين ذكرهم في أول هذه السورة آتينا حكماً وهو النبوة، وعِلْماً: يعني وعِلْماً بأحكام الله.

وقوله: «وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ»، يقول تعالى ذكره: وَسَخَّرْنَا مع داودَ الجبالِ، والطيرُ يُسَبِّحُنَ معه إذا سَبَّحَ.

وقوله: «وَكُنَّا فَاعِلِينَ»، يقول: وكنا قد قضينا أنا فاعِلُو ذلك، ومُسَخَّرُو الجبالِ والطيرِ في أمِّ الكتابِ مع داودَ عليه الصلاة والسلام.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾

يقول تعالى ذكره: وعلمنا داودَ صنعةَ لبوسٍ لكم، واللبوسُ عند العرب: السلاحُ كله، درعاً كان أو جوشناً أو سيفاً أو رمحاً.

وأما في هذا الموضع فإنَّ أهلَ التأويلِ قالوا: عَنِ الدروع.

واختلفت القراءةُ في قراءة قوله: «لِيُحْصِنَكُمْ» فقرأ ذلك أكثرُ قرأةِ الأمصار: «لِيُحْصِنَكُمْ» بالياء، بمعنى: ليحصنكم اللبوسُ من بَأْسِكُمْ، ذَكَرُوهُ لتذكيرِ اللبوس. وقرأ ذلك أبو جعفر يزيد بن القعقاع «لِيُحْصِنَكُمْ» بالتاء، بمعنى: لتحصنكم الصنعة، فأنت لتأنيثِ الصنعة. وقرأ شيبه بن نصح وعاصم ابن أبي النجود «لِيُحْصِنَكُمْ» بالنون، بمعنى: لنحصنكم نحنُ من بَأْسِكُمْ.

وأولى القراءاتِ في ذلك بالصواب عندي قراءةُ من قرأه بالياء، لأنها القراءةُ التي عليها الحجةُ من قرأةِ الأمصار، وإن كانت القراءاتُ الثلاث التي ذكرناها متقاربات المعاني، وذلك أن الصنعة هي اللبوس، واللبوس هي الصنعة، والله هو الْمُحْصِنُ به من البأسِ، وهو المحصنُ بتصييرِ الله إياه كذلك، ومعنى قوله: «لِيُحْصِنَكُمْ» لِيُحْرَزَكُمْ، وهو من قوله: قد أحصنَ فلانٌ جاريته. وقد بيَّنا معنى ذلك فيما مضى قَبْلُ. والبأسُ: القتال، وعلمنا داودَ صنعةَ سلاحٍ لكم ليحرزكم إذا لبستموه، ولقيتم فيه أعداءكم من القتلِ.

وقوله: «فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ»، يقول: فهل أنتم أيها الناس شاكرُو الله على نعمته عليكم بما علَّمَكُم من صنعة اللبوس المحصن في الحرب وغير ذلك من نعمه عليكم، يقول: فاشكروني على ذلك.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحُ عَاصِفَةٌ تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨١﴾

يقول تعالى ذكره «وَ» سخرنا «لِسُلَيْمَانَ» بن داود «الرِّيحُ عَاصِفَةٌ» وعُصُوفُهَا: شدة هبوبها «تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا»، يقول: تجري الريح بأمر سليمان، إلى الأرض التي باركنا فيها، يعني: إلى الشام، وذلك أنها كانت تجري بسليمان وأصحابه إلى حيث شاء سليمان، ثم تعود به إلى منزله بالشام، فلذلك قيل: «إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا».

وقوله: «وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ»، يقول: وكُنَّا عَالِمِينَ بأن فعلنا ما فعلنا لسليمان من تسخيرنا له، وإعطائنا ما أعطيناه من الملك وصلاح الخلق، فعلى عِلْمٍ منا بموضع ما فعلنا به من ذلك فعلنا، ونحن عَالِمُونَ بِكُلِّ شَيْءٍ لَا يَخْفَى عَلَيْنَا مِنْهُ شَيْءٌ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ ﴿٨٢﴾

يقول تعالى ذكره: وسخرنا أيضاً لسليمان من الشياطين مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ في البحر، ويعملون عملاً دُونَ ذَلِكَ من البنيان والتماثيل والمحاريب «وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ»، يقول: وكنا لأعمالهم ولأعدادهم حافِظِينَ، لَا يَتَوَدَّنَا حِفْظُ ذَلِكَ كُلِّهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : **وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَعَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾**

يقول تعالى ذكّره لنبيه محمد ﷺ : واذكر أيوب يا محمد إذ نادى ربّه وقد مسّه الضرّ والبلاء «رَبِّ إِنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ»، يقول تعالى ذكره : فاستجبنا لأيوب دعاءه إذ نادانا، فكشفنا ما كان به من ضرّ وبلاء وجهد، وكان الضرّ الذي أصابه، والبلاء الذي نزل به امتحاناً من الله له، واختباراً.

واختلف أهل التأويل في الأهل الذي ذكر الله في قوله : «وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ»، أهُم أهله الذين أوتيتهم في الدنيا، أم ذلك وعدّ وعده الله أيوب أن يفعل به في الآخرة؟ فقال بعضهم : إنما أتى الله أيوب في الدنيا مثل أهله الذين هلكوا، فإنهم لم يُردّوا عليه في الدنيا، وإنما وعدّ الله أيوب أن يوتيّه إياهم في الآخرة.

وقال آخرون : بل ردّهم إليه بأعيانهم، وأعطاه مثلهم معهم.

وقال آخرون : بل آتاه المثل من نسل ماله الذي ردّه عليه وأهله، فأما الأهل والمال فإنه ردّهما عليه.

وقوله : «رَحْمَةً» نصبت بمعنى : فعلنا بهم ذلك رحمةً منا له.

وقوله : «وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ»، يقول : وتذكّرةً للعابدين ربّهم، فعلنا ذلك به ليعتبروا به، ويعلموا أن الله قد يبتلي أوليائه ومن أحبّ من عباده في الدنيا بضروب من البلاء في نفسه وأهله وماله، من غير هوانٍ به عليه، ولكن اختباراً منه له ليلبغ بصبره عليه، واحتسابه إياه، وحسن يقينه منزلته التي أعدّها له تبارك وتعالى من الكرامة عنده.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلِإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾

يعني تعالى ذكره بإسماعيل: إسماعيل بن إبراهيم صادق الوعد، وإدريس: أخنوخ، وبذي الكفل: رجلاً تكفل من بعض الناس، إما من نبي وإما من ملك من صالحى الملوك بعمل من الأعمال، فقام به من بعده، فأثنى الله عليه حُسْنَ وفائه بما تكفل به، وجعله من المعدودين في عبادته، مع مَنْ حمد صبره على طاعة الله.

وقوله: «وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ»، يقول تعالى ذكره: وأدخلنا إسماعيل وإدريس وذا الكفل، والهاء والميم عائدتان عليهم. «فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ»، يقول: إنهم ممن صلح، فاطاع الله، وعمل بما أمره.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾

يقول تعالى ذكره: واذكُرْ يا محمدُ ذا النون، يعني صاحب النون، والنون: الحوت. وإنما عني بذي النون: يونس بن متى، وقد ذكرنا قصته في سورة يونس بما أغنى عن ذكره في هذا الموضع.

وقوله: «إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا»، يقول: حين ذهب مغاضباً.

واختلف أهل التأويل في معنى ذهابه مغاضباً، وعمّن كان ذهابه، وعلى مَنْ كان غَضَبُهُ، فقال بعضهم: كان ذهابه عن قومه وإياهم غاضب.

وقال آخرون: ذهب عن قومه مغاضباً لربه، إذ كشف عنهم العذاب بعد ما وَعَدَهُمْوهُ.

وقال آخرون: بل إنما غاضبَ رَبُّهُ من أجل أنه أَمَرَ بالمصيرِ إلى قومٍ لينذرهم بأسَهُ، ويدعوهم إليه، فسأل رَبُّهُ أَنْ يُنْظَرَهُ، ليتأهَّبَ للشخصِ إليهم، ف قيل له: الأمرُ أسرعُ من ذلك، ولم ينظر حتى شاء أن ينظر إلى أن يأخذ نعلًا ليلبسها، ف قيل له نحو القول الأول، وكان رجلاً في خُلُقِهِ ضيقٌ، فقال: أعجلني ربي أن آخذ نعلًا، فذهب مُغاضباً.

وليس في واحدٍ من هذين القولين من وصفِ نبيِّ الله يونس صلوات الله عليه شيءٌ إلا وهو دونَ ما وصفه بما وصفه الذين قالوا: ذهب مغاضباً لقومه، لأنَّ ذهابه عن قومه مغاضباً لهم، وقد أمره الله تعالى بالمقام بين أظهرهم، لِيُبَلِّغَهُمْ رِسَالَتَهُ، ويحذِّرَهُمْ بِأَسْأَهُ، وعقوبته على تركهم الإيمانَ به، والعمل بطاعته لا شك أن فيه ما فيه، ولولا أنه قد كان ﷺ أتى ما قاله الذين وصفوه بإتيان الخطيئة، لم يكن الله تعالى ذكَّره ليعاقبه العقوبة التي ذكرها في كتابه، ويصفه بالصفة التي وصفه بها، فيقول لنبيه ﷺ: «وَلَا تُكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ»، ويقول: «فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ، فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ».

وقوله: «فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ»، اختلف أهل التأويل في تأويله، فقال بعضهم: معناه: فظنَّ أن لن نعاقبه بالتضييقِ عليه من قولهم: قدرت على فلان: إذا ضيقَتْ عليه، كما قال الله جل ثناؤه: «وَمَنْ قَدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ».

وقال آخرون: بل معنى ذلك: فظنَّ أنه يُعْجِزُ رَبُّهُ فلا يقدر عليه...

وقال آخرون: بل ذلك بمعنى الاستفهام، وإنما تأويله: أَفَظَنَّ أَنْ لَنْ

نَقْدَرَ عَلَيْهِ.

وأولى هذه الأقوال في تأويل ذلك عندي بالصواب، قول من قال: عَنَى به: فظَنَ يونس أن لن نحبسَه ونضيقَ عليه، عقوبةً له على مغاضبته رَبَّهُ.

وإنما قلنا ذلك أولى بتأويل الكلمة، لأنه لا يجوز أن يُنسَبَ إلى الكفر، وقد اختاره لنبوته، وَوصَفُهُ بأن ظَنَّ أن ربه يعجزُ عما أرادَ به، ولا يقدرُ عليه، وصفٌ له بأنه جَهْلٌ قدرةَ الله، وذلك وصفٌ له بالكفر، وغيرُ جائزٍ لأحدٍ وصفُهُ بذلك.

وقوله: «فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ»، اختلف أهلُ التأويل في المعنى بهذه الظلمات، فقال بعضهم: عنى بها ظُلُمَةُ الليل، وظُلُمَةُ البحر، وظُلُمَةُ بطنِ الحوت.

وقال آخرون: إنما عَنَى بذلك أنه نادى في ظُلُمَةِ جوفِ حوتٍ في جوفِ حوتٍ آخر في البحر، قالوا: فذلك هو الظلمات.

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله أخبر عن يونس أنه ناداه في الظلمات «أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ»، وَلَا شك أنه قد عَنَى بإحدى الظلمات: بطنِ الحوت، وبالأخرى: ظُلُمَةُ البحر، وفي الثالثة اختلاف، وجائزُ أن تكونَ تلك الثالثة: ظُلُمَةُ الليل، وجائزُ أن تكونَ لحوت في جوفِ حوتٍ آخر، ولا دليلٌ يدلُّ على أيِّ ذلك من أيِّ، فلا قولٌ في ذلك أولى بالحقِّ من التسليمِ لظاهرِ التنزيل.

وقوله: «لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ»، يقول: نادى يونس بهذا القول معترفاً بذنبه، تائباً من خطيئته «إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ» في معصيتي إياك.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَجَّعْنَاهُ مِنْ أَلَمِهِ
وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ

يقول تعالى ذكره: «فَاسْتَجَبْنَا لِيُونُسَ دُعَاءَهُ إِيانَا، إِذْ دَعَانَا فِي بطنِ الحوتِ، وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ الَّذِي كانَ فِيهِ بِحَبْسِنَاهُ فِي بطنِ الحوتِ، وَغَمُّهُ بِخَطِيئَتِهِ وَذَنْبِهِ. «وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ»، يقول جَلَّ ثَنَاهُ: وَكَمَا أَنْجَيْنَا يُونُسَ مِنْ كَرْبِ الحَبْسِ فِي بطنِ الحوتِ فِي الْبَحْرِ إِذْ دَعَانَا، كَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ مِنْ كَرْبِهِمْ إِذَا اسْتَغَاثُوا بِنَا وَدَعَوْنَا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ، إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: وَادْكُرْ يَا مُحَمَّدُ زَكَرِيَّا حِينَ نَادَى رَبَّهُ «رَبِّ لَا تَذَرْنِي وَحِيدًا «فَرْدًا» لَا وَلَدَ لِي وَلَا عَقِبَ. «وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ»، يقول: فَارْزُقْنِي وَارثًا مِنْ آلِ يَعْقُوبَ يَرْتُنِي، ثُمَّ رُدَّ الْأَمْرَ إِلَى اللَّهِ فَقَالَ: وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ، يقول الله جَلَّ ثَنَاهُ: فَاسْتَجَبْنَا لَزَكَرِيَّا دُعَاءَهُ، وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَلَدًا وَوَارِثًا يَرِثُهُ، وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ.

واختلف أهل التأويل في معنى الصلاح الذي عناه الله جَلَّ ثَنَاهُ بقوله: «وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ»، فقال بعضهم: كانت عقيماً فأصلحها، بأن جعلها وَلُوداً. وقال آخرون: كانت سيئة الخلق، فأصلحها الله له بأن رزقها حُسْنَ الخلق.

والصوابُ مِنَ القول في ذلك أن يقال: إِنَّ اللَّهَ أَصْلَحَ لَزَكَرِيَّا زَوْجَهُ، كما أخبر تعالى ذكره بأن جعلها وَلُوداً حَسَنَةً الْخُلُقِ، لِأَنَّ كُلَّ ذَلِكَ مِنْ مَعَانِي إِصْلَاحِ إِيَّاهَا، وَلَمْ يَخْصُصِ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاهُ بِذَلِكَ بَعْضاً دُونَ بَعْضٍ فِي كِتَابِهِ،

ولا على لسانِ رسوله، ولا وضع على خصوص ذلك دلالة، فهو على العموم ما لم يأت ما يجب التسليم له بأن ذلك مرادٌ به بعضٌ دون بعض.

وقوله: «إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ»، يقول الله: إن الذين سميناهم، يعني زكريا وزوجه ويحيى، كانوا يسارعون في الخيرات في طاعتنا، والعمل بما يُقربُهم إلينا.

وقوله: «وَيَدْعُونَنا رَغَبًا وَرَهَبًا»، يقول تعالى ذكره: وكانوا يعبدوننا رَغَبًا وَرَهَبًا، وَعَنَى بالدعاء في هذا الموضع: العبادة، كما قال: «وَأَعْتَرَلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَى أَنْ لَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا»، ويعني بقوله: «رَغَبًا» أنهم كانوا يعبدونه رغبةً منهم فيما يرجون منه من رحمته وفضله. «وَرَهَبًا»، يعني رهبة منهم من عذابه وعقابه، بتركهم عبادته، وركوبهم معصيته.

وقوله: «وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ»، يقول: وكانوا لنا متواضعين متذللين، ولا يستكبرون عن عبادتنا. ودعائنا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ** ﴿٩٠﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: واذكر التي أحصنت فَرْجَهَا، يعني مريمَ بنتَ عمران. ويعني بقوله: «أَحْصَنَتْ»: حفظت، ومنعت فَرْجَهَا مما حُرِّمَ الله عليها إباحته فيه.

وقوله: «وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ»، يقول: وجعلنا مريمَ وابنها عبرةً لعالمي زمانِهِمَا يعتبرونَ بهما، ويتفكرون في أمرهما، فيعلمونَ عظيمَ سلطاننا وَقُدْرَتنا على ما نشاء: وقيل: آية ولم يقل آيتين، وقد ذكر آيتين؛ لأنَّ معنى الكلام: جعلناهما عَلَمًا لنا وحجةً، فكلُّ واحدةٍ منهما في معنى الدلالة على

الله، وعلى عظيم قدرته، يقوم مقام الآخر إذا كان أمرهما في الدلالة على الله واحداً.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا

رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩١﴾

يقول تعالى ذكره: إِنَّ هَذِهِ مِلَّتُكُمْ مِلَّةً وَاحِدَةً، وَأَنَا رَبُّكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ فَاعْبُدُونِ دُونَ الْأَلْهَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَسَائِرِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِي.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلَّ إِلَانَا

رَجِعُونَ ﴿٩٢﴾

يقول تعالى ذكره: وَتَفَرَّقَ النَّاسُ فِي دِينِهِمُ الَّذِي أَمَرَهُمُ اللَّهُ بِهِ، وَدَعَاهُمْ إِلَيْهِ، فَصَارُوا فِيهِ أَحْزَاباً، فَتَهَوَّدَتِ الْيَهُودُ، وَتَنَصَّرَتِ النَّصَارَى، وَعَبَدَتِ الْأَوْثَانُ، ثُمَّ أَخْبَرَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ عَمَّا هُمْ إِلَيْهِ صَائِرُونَ، وَأَنَّ مَرْجِعَ جَمِيعِ أَهْلِ الْأَدْيَانِ إِلَيْهِ مَتَوَعِّدًا بِذَلِكَ أَهْلَ الزَّيْغِ مِنْهُمْ وَالضَّلَالِ، وَمَعْلَمُهُمْ أَنَّهُ لَهُمُ بِالْمَرْصَادِ، وَأَنَّهُ مُجَازٍ جَمِيعَهُمْ جَزَاءَ الْمُحْسِنِ بِإِحْسَانِهِ، وَالْمُسِيءِ بِإِسَاءَتِهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ

فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَشِيبُونَ ﴿٩٣﴾

يقول تعالى ذكره: فَمَنْ عَمِلَ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَفَرَّقُوا فِي دِينِهِمْ بِمَا أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَأَطَاعَهُ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَهُوَ مُقَرَّبٌ بِوَحْدَانِيَةِ اللَّهِ، مُصَدِّقٌ بِوَعْدِهِ وَوَعِيدُهُ، مُتَبَرِّئٌ مِنَ الْأَنْدَادِ وَالْأَلْهَةِ. «فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ»، يَقُولُ: فَإِنَّ اللَّهَ يَشْكُرُ عَمَلَهُ الَّذِي عَمِلَ لَهُ مُطِيعاً لَهُ، وَهُوَ بِهِ مُؤْمِنٌ، فَيُشِيبُهُ فِي الْآخِرَةِ

ثوابه الذي وعد أهل طاعته أن يُشبههموه، ولا يكفر ذلك له فيجحد، ويحرمه ثوابه على عمله الصالح. «وإننا له كاتبون»، يقول: ونحن نكتب أعماله الصالحة كلها، فلا نترك منها شيئاً لنجزيه على صغير ذلك وكبيره وقليله وكثيره.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَحَرَّمْ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾

تأويل الكلام: حرام على أهل قرية أهلكناهم بطعننا على قلوبهم، وختمنا على أسماعهم وأبصارهم، إذ صدوا عن سبيلنا، وكفروا بآياتنا أن يتوبوا، ويراجعوا الإيمان بنا، واتباع أمرنا والعمل بطاعتنا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: حَقَّ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٦﴾

يقول تعالى ذكره: حتى إذا فُتِحَ عن يَأْجُوجَ ومَأْجُوجَ، وهما أمتان من الأمم رُدْمُهُمَا.

وأما قوله: «وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ»، فإن أهل التأويل اختلفوا في المعنى به، فقال بعضهم: عني بذلك بنو آدم أنهم يخرجون من كل موضع كانوا دُفِنُوا فيه من الأرض، وإنما عني بذلك الحشر إلى موقف الناس يوم القيامة.

وقال آخرون: بل عني بذلك يَأْجُوجَ ومَأْجُوجَ، وقوله: «وَهُمْ» كناية أسمائهم.

والصواب من القول في ذلك ما قاله الذين قالوا: عني بذلك: يَأْجُوجَ

ومأجوج. وإن قوله: «وهم» كناية عن أسمائهم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا** يَوَلُّونَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٧﴾

يقول تعالى ذكره: حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج، اقترب الوعد الحق، وذلك وعد الله الذي وعد عباده أنه يبعثهم من قبورهم للجزاء والثواب والعقاب، وهو لا شك حق كما قال جل ثناؤه.

وقوله: «فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا»، يقول: فإذا الأبصار شاخصة، أبصار الذين كفروا.

وقوله: «يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا»، يقول تعالى ذكره: فإذا أبصار الذين كفروا قد شخصت عند مجيء الوعد الحق بأحواله، وقيام الساعة بحقائقها، وهم يقولون: يا ويلنا قد كنا قبل هذا الوقت في الدنيا في غفلة من هذا الذي نرى ونعاین، ونزل بنا من عظيم البلاء. وفي الكلام متروك ترك ذكره استغناءً بدلالة ما ذكر عليه عنه، وذلك يقولون من قوله: «فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا»، يقولون: يا ويلنا.

وقوله: «بل كنا ظالمين»، يقول مخبراً عن قيل الذين كفروا بالله يومئذ: ما كنا نعمل لهذا اليوم ما يُنجينا من شدائده، بل كنا ظالمين بمعصيتنا ربنا، وطاعتنا إبليس وجنوده في عبادة غير الله عز وجل.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **إِنَّكُمْ وَمَنْ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ ﴿١٨﴾**

يقول تعالى ذكره: إنكم أيها المشركون بالله، العابدون من دونه الأوثان والأصنام، وما تعبدون من دون الله من الآلهة «حَصَبُ جَهَنَّمَ»، يقول: يُرْمَى بهم فيها. وقد ذكر أن الحَصَبَ في لغة أهل اليمن: الحطب، فإن يكن ذلك كذلك، فهو أيضاً وجهٌ صحيح. وأما ما قلنا من أن معناه الرمي فإنه في لغة أهل نجد.

وأما قوله: «أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ»، فإن معناه: أنتم عليها أيها الناس أو إليها واردون، يقول: داخلون. وقد بَيَّنْتُ معنى ورود فيما مضى قَبْلُ بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَوْ كَانَتْ هَذِهِ آلهَةً مَا وَرَدُوهَا
وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٨﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ وَصَفَ صِفَتَهُمْ أَنَّهُمْ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٌ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ، وَهُمْ مُشْرِكُو قَرِيشٍ أَنْتُمْ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَارِدُوهَا جَهَنَّمَ، وَلَوْ كَانَ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ آلهَةً مَا وَرَدُوهَا، بَلْ كَانَتْ تَمْنَعُ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُورِدَكُمُوهَا إِذْ كُنْتُمْ لَهَا فِي الدُّنْيَا عَابِدِينَ، وَلَكِنَّهَا إِذْ كَانَتْ لَا نَفْعَ عِنْدَهَا لِنَفْسِهَا، وَلَا عِنْدَهَا دَفْعُ ضَرٍّ عَنْهَا، فَهِيَ مَنْ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ عِنْدَهَا لغيرها أَبَدًا، وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ كَانَ بَيِّنًا بُعْدُهُ مِنَ الْآلِهَةِ، وَإِنَّ الْإِلَهَ هُوَ الَّذِي يَقْدَرُ عَلَى مَا يَشَاءُ، وَلَا يَقْدَرُ عَلَيْهِ شَيْءٌ، فَأَمَّا مَنْ كَانَ مَقْدُورًا عَلَيْهِ، فَغَيْرُ جَائِزٍ أَنْ يَكُونَ إِلَهًا.

وقوله: «وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ»، يعني الآلهة، وَمَنْ عَبَدَهَا أَنَّهُمْ مَا كُنْتُمْ فِي النَّارِ أَبَدًا بِغَيْرِ نَهَايَةٍ، وَإِنَّمَا مَعْنَى الْكَلَامِ: كُلُّكُمْ فِيهَا خَالِدُونَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا
يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «لَهُمْ» المشركين وألهتهم، والهاء والميم في قوله: «لَهُمْ» من ذِكْرِ كُلِّ التي في قوله: «وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ»، يقول تعالى ذكره: لِكُلِّهِمْ في جهنم زفيرٌ. «وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ»، يقول: وهم في النار لا يسمعون.

وأما قوله: «إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ، أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ»، فإنَّ أهل التأويل اختلفوا في المعنى به، فقال بعضهم: عنى به كل مَنْ سَبَقَتْ له من الله السعادة من خَلَقَهُ أنه عن النارِ مُبْعَدٌ.

وقال آخرون: بل عنى: من عبد مِنْ دُونِ الله، وهو لله طائعٌ، ولعبادة من يعبد كاره.

وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب، قول من قال: عنى بقوله: «إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ» ما كان من معبود، كان المشركون يعبدونه والمعبود لله مطيعٌ وعابدهُ بعبادتهم إياه بالله كفارٌ، لأنَّ قوله تعالى ذكره: «إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ» ابتداء كلام محقق لأمر كان ينكره قومٌ، فكان المشركين قالوا لنبيِّ الله ﷺ، إِذْ قَالَ لَهُمْ: «إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ»، ما الأمرُ كما تقول، لأنَّا نعبد الملائكة، ويعبد آخرون المسيح وعزيراً، فقال عز وجل رداً عليهم قولهم، بل ذلك كذلك، وليس الذين سبقَتْ لهم مِنَّا الحسنى هم عنها مُبْعَدُونَ لأنهم غير معنيين بقولنا: «إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ».

الأنبياء: ١٠٢-١٠٤

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا
اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾

يقول تعالى ذكره: لا يسمع هؤلاء الذين سبقت لهم منا الحسنى حَسِيسَ النار، ويعني بالحسيس: الصوت والحس.

«وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ»، يقول: وهم فيما تشتهيهِ نَفْسُهُمْ من نعيمها وَلَذَاتِهَا ما كانوا فيها، لا يخافون زوالاً عنها، ولا انتقالاً عنها.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَا يَخْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَنُتِلَقَهُمُ
الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾

اختلف أهل التأويل في الفزعِ الأكبر: أي الفزع هو؟ فقال بعضهم: ذلك النار إذا أُطبقت على أهلها.

وقال آخرون: بل ذلك النفخة الآخرة.

وقال آخرون: بل ذلك حين يُؤمرُّ بالعبد إلى النار.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: ذلك عند النفخة الآخرة، وذلك أن مَنْ لم يحزنه ذلك الفزعُ الأكبر، وأَمِنَ منه، فهو مما بَعْدَهُ أُخْرَى أَنْ لَا يَفْزَعَ، وَأَنْ مَنْ أَفْزَعَهُ ذلك فغير مأمون عليه الفزعُ مما بعده.

وقوله: «وَتُتْلَقَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ»، يقول: وتستقبلهم الملائكة، يُهَيِّئُونَهُمْ يقولون: «هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ» فيه الكرامة من الله، والحِباء، والجزيل من الثواب على ما كنتم تَنْصِبُونَ في الدنيا لله في طاعته.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ

لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾

يقول تعالى ذكره: لا يحزنهم الفزع الأكبر، يومَ نطوي السماء، فيومَ صلة من يحزنهم.

واختلف أهل التأويل في معنى السجل الذي ذكره الله في هذا الموضع، فقال بعضهم: هو اسمُ ملكٍ من الملائكة.

وقال آخرون: السجل: رجلٌ كان يكتبُ لرسولِ الله ﷺ.

وقال آخرون: بل هو الصحيفةُ التي يكتب فيها.

وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب قول من قال: السجل في هذا الموضع: الصحيفة، لأن ذلك هو المعروف في كلام العرب، ولا يعرف لبنينا ﷺ كاتبٌ كان اسمه السجل، ولا في الملائكة ملكٌ ذلك اسمه.

فإن قال قائل: وكيف نطوي الصحيفة بالكتاب إن كان السجل صحيفة؟ قيل: ليس المعنى كذلك، وإنما معناه: يوم نطوي السماء كطَي السجل على ما فيه من الكتاب، ثم جعل نطوي مصدرًا، فقيل: «كَطَي السَّجِلَ لِلْكِتَابِ»، واللام في قوله للكتاب، بمعنى على.

واختلفت القراءة في قراءة «لِلْكِتَابِ»، فإن قراءة أهل المدينة وبعض أهل الكوفة والبصرة قرءوه بالتوحيد، كطَي السجل للكتاب، وقرأ ذلك عامة قراءة الكوفة «لِلْكِتَابِ» على الجماع.

وأولى القراءتين عندنا في ذلك بالصواب قراءة مَنْ قرأه على التوحيد للكتاب، لما ذكرنا من معناه، فإن المراد منه: كطَي السجل على ما فيه مكتوب، فلا وجه إذ كان ذلك معناه لجميع الكتب إلا وجه نتبعه من معروف كلام العرب، وعند قوله: «كَطَي السَّجِلَ» انقضاء الخبر عن صلة قوله: «لا

يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ»، ثم ابتدأ الخبر عَمَّا اللهُ فاعلٌ بخلقِهِ يومئذٍ فقال تعالى ذكره: «كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ» فالكاف التي في قوله: «كَمَا» من صلة «نُعِيدُهُ» تقدّمت قَبْلَهَا، ومعنى الكلام: نُعِيدُ الْخَلْقَ عُرَاةً حُفَاةً غُرْلًا يوم القيامة، كما بدأناهم أَوَّلَ مَرَّةٍ في حال خَلْقِنَاهُمْ في بطونِ أمهاتهم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ
أَنْ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾

(يعني): ولقد كتبنا في الكتب من بعد أم الكتاب الذي كتب الله كلُّ ماهو كائن فيه قَبْلَ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وذلك أن الزبور هو الكتاب، يقال منه: زبرتُ الكتابَ وَذَبَرْتَهُ^(١): إذا كتبه، وإن كلُّ كتابٍ أنزله اللهُ إلى نبيٍّ من أنبيائه فهو ذِكْرٌ. فإذا كان ذلك كذلك، فإن في إدخاله الألف واللام في الذكر، الدلالة البينة أنه معنيٌّ به ذِكْرٌ بعينه معلوم عند المخاطبين بالآية، ولو كان ذلك غير أم الكتاب التي ذكرنا لم تكن التوراة بأولى من أن تكون المعنية بذلك من صحف إبراهيم، فقد كان قبل زبور داود.

فتأويل الكلام إذن، إذ كان ذلك كما وصفنا: ولقد قضينا فأثبتنا قضاءنا في الكتب من بعد أم الكتاب أن الأرض يرثها عبادي الصالحون، يعني بذلك: أن أرض الجنة يرثها عبادي العاملون بطاعته، المنتهون إلى أمره ونهيهِ من عباده دون العاملين بمعصيته منهم، المؤثرين طاعة الشيطان على طاعته.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ
عَلِيدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾

(١) بالذال المعجمة، وهي لغة فيه، كما بيناه فيما سبق.

يقول تعالى ذكره: إِنَّ فِي هَذَا الْقُرْآنِ الَّذِي أَنْزَلْنَاهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ لِبَلَاغٍ لِمَنْ عَبْدَ اللَّهِ بِمَا فِيهِ مِنَ الْفَرَائِضِ الَّتِي فَرَضَهَا اللَّهُ إِلَى رِضْوَانِهِ، وَإِدْرَاكِ الطَّلِبَةِ عِنْدَهُ.

وقوله: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ»، يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ إِلَى خَلْقِنَا إِلَّا رَحْمَةً لِّمَنْ أَرْسَلْنَاكَ إِلَيْهِ مِنْ خَلْقِي.

ثم اختلف أهل التأويل في معنى هذه الآية، أجمع العالم الذي أرسل إليهم محمد أريد بها مؤمنهم وكافرهم؟ أم أريد بها أهل الإيمان خاصة دون أهل الكفر؟ فقال بعضهم: عني بها جميع العالم المؤمن والكافر.

وقال آخرون: بل أريد بها أهل الإيمان دون أهل الكفر.

وأولى القولين في ذلك بالصواب قول مَنْ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ أَرْسَلَ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ رَحْمَةً لِّجَمِيعِ الْعَالَمِ مُؤْمِنِهِمْ وَكَافِرِهِمْ. فَأَمَّا مُؤْمِنُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ هَدَاهُ بِهِ وَأَدْخَلَهُ بِالْإِيمَانِ بِهِ، وَبِالْعَمَلِ بِمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْجَنَّةَ. وَأَمَّا كَافِرُهُمْ فَإِنَّهُ دَفَعَ بِهِ عَنْهُ عَاجِلَ الْبَلَاءِ الَّذِي كَانَ يَنْزِلُ بِالْأَمَمِ الْمَكْذِبَةِ رُسُلَهَا مِنْ قَبْلِهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ
إِلَهُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ: مَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِلَّا أَنَّهُ لَا إِلَهَ لَكُمْ يَجُوزُ أَنْ يُعْبَدَ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ، لَا تَصْلَحُ الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ، وَلَا يَنْبَغِي ذَلِكَ لغيره. «فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ»، يقول: فهل أنتم مُدْعِنُونَ له أيها المشركون، العابدون الأوثان والأصنام بالخضوع لذلك، ومتبرئون من عبادة ما دونه من آلهتكم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ
وَلَنْ أَذْرِي أَقْرَبَ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعِدُونَ ﴿١٠٩﴾

يقول تعالى ذكره: فَإِنْ أَدْبَرَ هَؤُلَاءِ الْمَشْرُكُونَ يَا مُحَمَّدُ عَنِ الْإِقْرَارِ
بِالْإِيمَانِ، بَأَنَّ لَا إِلَهَ لَهُمْ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ، فَأَعْرَضُوا عَنْهُ، وَأَبَوْا الْإِجَابَةَ إِلَيْهِ، فَقُلْ
لَهُمْ: «قَدْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ»، يقول: أَعْلَمُهُمْ أَنَّكَ وَهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ مِنْ أَنَّ
بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ حَرْبٌ، لَا صَلَاحَ بَيْنَكُمْ وَلَا سِلْمَ.
وَلِنَّمَا عَنَىٰ بِذَلِكَ قَوْمَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ قُرَيْشٍ.

وقوله: «وَلَنْ أَذْرِي أَقْرَبَ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعِدُونَ»، يقول تعالى ذكره لِنَبِيِّهِ:
قُلْ وَمَا أَذْرِي مَتَى الْوَقْتُ الَّذِي يَحُلُّ بِكُمْ عِقَابُ اللَّهِ الَّذِي وَعَدَكُمْ، فَيَنْتَقِمَ بِهِ
مِنْكُمْ، أَقْرَبَ نَزْوِلُهُ بِكُمْ، أَمْ بَعِيدٌ؟..

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ
مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَلَنْ أَذْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتْنٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾

يقول تعالى ذكره لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: قُلْ لِهَؤُلَاءِ الْمَشْرُكِينَ، إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ
الْجَهْرَ الَّذِي تَجْهَرُونَ بِهِ مِنَ الْقَوْلِ، وَيَعْلَمُ مَا تُخْفَوْنَهُ، فَلَا تَجْهَرُونَ بِهِ، سَوَاءٌ
عِنْدَهُ خَفِيَّتُهُ وَظَاهِرُهُ، وَسِرُّهُ وَعَلَانِيَتُهُ، أَنَّهُ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنْ شَيْءٍ، فَإِنْ أَخْرَجَ
عَنْكُمْ عِقَابَهُ عَلَىٰ مَا تُخْفُونَ مِنَ الشَّرْكِ بِهِ، أَوْ تَجْهَرُونَ بِهِ، فَمَا أَذْرِي مَا السَّبَبُ
الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ يُؤَخَّرُ ذَلِكَ عَنْكُمْ، لَعَلَّ تَأْخِيرَهُ ذَلِكَ عَنْكُمْ مَعَ وَعْدِهِ إِيَّاكُمْ لِفِتْنَةٍ يَرِيدُهَا
بِكُمْ، وَلِتَتَمَتَّعُوا بِحَيَاتِكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ قَدْ جَعَلَهُ لَكُمْ تَبْلُغُونَهُ، ثُمَّ يَنْزِلُ بِكُمْ حِينُ
نَقْمَتِهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ

الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ: ياربُّ افصلُ بيني وبين من كَذَّبَنِي من مشركي قومي وكَفَرَ بِكَ، وعبدَ غيرَكَ، بإِحلالِ عذابِكَ ونَقَمَتِكَ بهم، وذلك هو الحقُّ الذي أمرَ اللهُ تعالى نبيه أن يسألَ ربه الحكمَ به وهو نظيرُ قوله جلَّ ثناؤه: «رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ».

وقوله: «وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ»، يقول جلَّ ثناؤه: وقل يا محمد: وربنا الذي يرحمُ عباده، وَيُعْمُهُم بنعمته الذي أَسْتَعِينُهُ عليكم فيما تقولونَ وتصفونَ من قولكم لي فيما أتيتكم به من عند الله «إِنْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ»، وقولكم: «بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ» وفي كَذِبِكُمْ على الله جلَّ ثناؤه وقيلكم: «اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا»، فإنه هينٌ عليه تغييرُ ذلك، وفصل ما بيني وبينكم بتعجيلِ العقوبةِ لكم على ما تَصِفُونَ من ذلك.

سُورَةُ الْحَجِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَأْتِيهَا النَّاسُ أَتْقُورَ بِكُمْ إِن زَلَزَلَتِ السَّاعَةُ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَاهُم بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: يا أيها الناس احذروا عقابَ رَبِّكم بطاعته، فأطيعوه ولا تعصوه، فإنَّ عقابه لمن عاقبه يومَ القيامةِ شديدٌ، ثم وصفَ جَلَّ ثَنَاهُ هَؤُلَاءِ أَشْرَاطِ ذلك اليومِ وبُذُوهُ، فقال: «إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ».

وقوله تعالى: «يَوْمَ تَرَوْنَهَا»، يقول جَلَّ ثَنَاهُ: يومَ تَرَوْنَ أيها الناس زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ تَذْهَلُ مِنْ عِظَمِهَا، كُلُّ مُرْضِعَةٍ مولودٍ عما أَرْضَعَتْ، ويعني بقوله: «تَذْهَلُ» تنسى وتترك من شِدَّةِ كَرْبِهَا، يقال: ذَهَلَتْ عن كذا أَذْهَلَ عَنْهُ ذُهُولاً وَذَهَلَتْ أَيضاً، وهي قليلة، والفصيحُ: الفتح في الهاء، فأما في المستقبل فالهاء مفتوحة في اللغتين، لم يسمع غير ذلك.

فتأويل الكلام: يومَ ترون أيها الناس زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ، تنسى وتترك كُلُّ والدَةٍ مولودَ تَرْضِعُ ولدها عَمَّا أَرْضَعَتْ.

«وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا»: يقول: وتسقط كُلُّ حاملٍ من شِدَّةِ كَرْبِ ذلك حَمْلَهَا.

وقوله: «وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى»، يقول: وترى الناس يا محمد، من عظيم ما نزل بهم من الكرب وشِدَّتِه سُكَارَى من الفزع، وما هم بِسُكَارَى من شرب الخمر.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٢﴾

ذَكَرَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي النُّضْرِ بْنِ الْحَارِثِ. وَيَعْنِي بِقَوْلِهِ: «مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ»، مَنْ يَخَاصِمُ فِي اللَّهِ، فَيَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ غَيْرُ قَادِرٍ عَلَى إِحْيَاءِ مَنْ قَدْ بَلَى وَصَارَ تَرَاباً، بِغَيْرِ عِلْمٍ يَعْلَمُهُ، بَلْ بِجَهْلٍ مِنْهُ بِمَا يَقُولُ، «وَيَتَّبِعُ» فِي قَبِيلِهِ ذَلِكَ وَجِدَالِهِ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ «كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ».

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: قُضِيَ عَلَى الشَّيْطَانِ: فَمَعْنَى «كُتِبَ» هَهُنَا قُضِيَ، وَالْهَاءُ الَّتِي فِي قَوْلِهِ: «عَلَيْهِ» مِنْ ذِكْرِ الشَّيْطَانِ.

وقوله: «فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ»، يَقُولُ: فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَضِلُّهُ، يَعْنِي: يَضِلُّ مَنْ تَوَلَّاهُ. وَتَأْوِيلُ الْكَلَامِ: قُضِيَ عَلَى الشَّيْطَانِ أَنَّهُ يُضِلُّ أَتْبَاعَهُ وَلَا يَهْدِيهِمْ إِلَى الْحَقِّ.

وقوله: «وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ»، يَقُولُ: وَيَسُوقُ مَنْ اتَّبَعَهُ إِلَى عَذَابِ جَهَنَّمَ الْمَوْقَدَةِ. وَسَيَاقُهُ إِيَاهُ إِلَيْهِ بِدَعَائِهِ إِيَاهُ إِلَى طَاعَتِهِ وَمَعْصِيَةِ الرَّحْمَنِ، فَذَلِكَ هِدَايَتُهُ مَنْ تَبِعَهُ إِلَى عَذَابِ جَهَنَّمَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : يَكَايْهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لَتَبَلِّغُوهُنَّ أَشَدَّكُمْ

وهذا احتجاج من الله على الذي أخبر عنه من الناس أنه يجادل في الله بغير علم ، اتباعاً منه للشيطان المريد ، وتنبية له على موضع خطأ قبليه ، وإنكاره ما أنكر من قدرة ربه ، قال : يا أيها الناس إن كنتم في شك من قدرتنا على بعثكم من قبوركم بعد مماتكم وبلائكم استعظاماً منكم لذلك ، فإن في ابتدائها خلق أبيكم آدم ﷺ من تراب ، ثم إنشائناكم من نطفة آدم ، ثم تصرفناكم أحوالاً حالاً بعد حال ، من نطفة إلى علقة ، ثم من علقة إلى مضغة ، لكم معتبراً ومُتَعَطِّاً تعتبرون به ، فتعلمون أن من قدر على ذلك فغير مُتَعَذِّرٍ عليه لإعادتكم بعد فنائكم ، كما كنتم أحياء قبل الفناء .

واختلف أهل التأويل في تأويل قوله : «مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ» ، فقال بعضهم : هي من صفة النطفة ، قال : ومعنى ذلك : فإننا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ، قالوا : فأما المخلقة : فما كان خلقاً سَوِيًّا . وأما غير مخلقة ، فما دفعته الأرحام من النطف ، وألقته قبل أن يكون خلقاً .

وقال آخرون : معنى ذلك : تامة وغير تامة .

وقال آخرون : معنى ذلك : المضغة مصورة إنساناً وغير مصورة ، فإذا صوّرت فهي مُخَلَّقَةٌ وإذا لم تُصَوَّرْ فهي غير مُخَلَّقَةٍ .

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال : المُخَلَّقَةُ : المصورة خلقاً تاماً ، وغير مُخَلَّقَةٍ : السقط قبل تمام خلقه ، لأنَّ المخلقة وغير المخلقة من

الحج: ٥

نعتِ المُضغَةِ والنطفة بعد مصيرها مضغَةً، لم يبقَ لها حتى تصيرَ خَلْقاً سوياً إلا التصوير. وذلك هو المراد بقوله: «مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ» خَلْقاً سوياً، وغير مُخَلَّقَةٍ بأن تلقيه الأمُ مضغَةً ولا تصوّر، ولا يُنفخ فيها الروح.

وقوله: «لِنُبَيِّنَ لَكُمْ»، يقول تعالى ذِكْرَهُ: جعلنا المضغَةَ منها المخلقة التامة، ومنها السقط غير التام لنُبَيِّنَ لكم قُدْرَتَنَا على ما نشاء، ونُعرفَكُم ابتداءنا خَلْقَكُم.

وقوله: «وَنُقَرِّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى»، يقول تعالى ذِكْرَهُ: مَنْ كُنَّا كَتَبْنَا له بقاءً وحياةً إلى أمدٍ وغاية، فإننا نُقرُّه في رحمِ أمِه إلى وقته الذي جعلنا له أن يمكثَ في رحمها فلا تسقطه، ولا يخرج منها حتى يبلغَ أجله، فإذا بلغَ وقت خروجه من رحمها أَذْنًا له بالخروجِ منها، فيخرج.

وقوله: «ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً»، يقول تعالى ذِكْرَهُ: ثم نخرجكم من أرحامِ أمهاتكم إذا بلغتُم الأجلَ الذي قَدَّرْتُهُ لخروجكم منها طفلاً صغيراً، ووَحَدَ الطفل، وهو صفةٌ للجميع، لأنه مصدرٌ مثل عدل وزور.

وقوله: «ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ»، يقول: ثم لتبلغوا كمالَ عقولكم ونهايةَ قواكم بعمركم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: ومنكم أيها الناس مَنْ يُتَوَفَّى قبل أن يبلغَ أَشُدَّهُ فيموت، ومنكم مَنْ يُنْسَأُ في أجله فَيُعَمَّرُ حتى يهرم، فَيَرُدُّ من بعد انتهاءِ شبابه،

الحج: ٧-٥

وبلوغه غاية أشده إلى أرذل عُمره، وذلك الهرم حتى يعود كهيئته في حال صباه، لا يعقل من بعد عَقْلِهِ الأوَّل شيئاً.

ومعنى الكلام: ومنكم من يُرَدُّ إلى أرذلِ العُمُر بعد بلوغه أشده. «لَكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ» كان يعلمه «شيئاً».

وقوله: «وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدةً»، يقول تعالى ذِكْرُه: وترى الأرض يا محمد، يابسة دارسة الآثار من النبات والزرع.

وقوله: «فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فإذا نحن أنزلنا على هذه الأرض الهامدة التي لا نبات فيها، المطر من السماء اهتزت، يقول: تَحَرَّكَتْ بالنبات. «وَرَبَّتْ»، يقول: وأضعفت النبات بمجيء الغيث.

وقوله: «وَأُنْبِتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ»، يقول جَلُّ ثناءه: وأنبتت هذه الأرض الهامدة بذلك الغيث، من كُلِّ نوعٍ بهيج، يعني بالبهيج: البهيج، وهو الحسن^(١).

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ذَلِكَ بَانَ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «ذلك» هذا الذي ذكرت لكم أيها الناس من بَدَأْنَا خَلْقَكُمْ في بطون أمهاتكم، ووصفنا أحوالكم قبل الميلاد وبعده، طفلاً، وكهلاً، وشيخاً هرمًا، وتنبهناكم على فعلنا بالأرض الهامدة بما نَزَّلُ عليها من الغيث لتؤمنوا وتصدّقوا بأن ذلك الذي فعل ذلك، الله الذي هو الحق لا شك

(١) انظر مفردات الراغب: ١٤٨، وهو حُسْن اللون.

فيه، وأن مَنْ سِوَاهُ مما تعبدونَ من الأوثانِ والأصنامِ باطلٌ لأنها لا تقدرُ على فعلِ شيءٍ من ذلك، وتعلموا أنَّ القدرةَ التي جعلَ بها هذه الأشياءَ العجيبة، لا يتعذرُ عليها أنْ يُحْيِيَ بها الموتى بعد فنائها ودروسها في التراب، وأنَّ فاعلَ ذلك على كلِّ ما أرادَ وشاءَ من شيءٍ قادرٌ، لا يمتنعُ عليه شيءٌ أرادَهُ، ولتوقنوا بذلك أنَّ الساعةَ التي وعدتكم أنْ أبعثَ فيها الموتى من قبورهم جاثية لا محالة. «لا رَيْبَ فِيهَا»، يقولُ: لاشك في مجيئها وحدثها، «وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ حِينَئِذٍ مَنْ فِيهَا مِنَ الْأَمْوَاتِ أَحْيَاءَ إِلَى مَوْقِفِ الْحِسَابِ، فَلَا تُشْكُوا فِي ذَلِكَ، وَلَا تَمْتَرُوا فِيهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٧﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُخَاصِمُ فِي تَوْحِيدِ اللَّهِ وإفراده بالألوهة بغير علمٍ منه بما يُخَاصِمُ به، «وَلَا هُدًى»، يقولُ: وبغير بيانٍ معه لما يقولُ ولا بُرْهَانٍ، «وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ»، يقولُ: وبغير كتابٍ من الله أتاه لصحة ما يقولُ. «مُنِيرٍ»، يقولُ: يُنِيرُ عن حُجَّتِهِ. وإنما يقول ما يقول من الجهلِ ظناً منه وحُساباً، وذَكَرَ أنه عُنِيَ بهذه الآية والتي بعدها النضر بن الحارث من بني عبدالدار.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿٨﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَنتَصِرُ بِظُلْمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٩﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: يجادلُ هذا الذي يجادلُ في الله بغير علم «ثَانِي عَطْفِهِ».

واختلف أهل التأويل في المعنى الذي من أجله وُصِفَ بأنه يثني عطفه،

وما المراد من وصفه إياه بذلك، فقال بعضهم: وصفه بذلك لتكبره وتبخره، وذكر عن العرب أنها تقول: جاءني فلان ثاني عطفه: إذا جاء متبخرًا من الكبر.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: لا رقبته.

وقال آخرون: معنى ذلك أنه يُعرض عما يُدعى إليه فلا يسمع له. وهذه الأقوال الثلاثة متقاربات المعنى، وذلك أن من كان ذا استكبار، فمن شأنه الإعراض عما هو مستكبر عنه ولبي عُنقه عنه والإعراض. والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله وصف هذا المخاصم في الله بغير علم أنه من كبره إذا دُعي إلى الله، أعرض عن داعيه، ولوى عنقه عنه، ولم يسمع ما يُقال له استكباراً.

وقوله: «لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ»، يقول تعالى ذكره: يجادل هذا المشرك في الله بغير علم مُعرضاً عن الحق استكباراً، ليصد المؤمنين بالله عن دينهم الذي هداهم له، ويستزلهم عنه. «لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ»، يقول جل ثناؤه: لهذا المجادل في الله بغير علم، في الدنيا خزي وهو القتل والذل والمهانة بأيدي المؤمنين، فقتله الله بأيديهم يوم بدر.

وقوله: «وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ»، يقول تعالى ذكره: ونحرقه يوم القيامة بالنار.

وقوله: «ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ»، يقول جل ثناؤه: ويقال له إذا أذيق عذاب النار يوم القيامة: هذا العذاب الذي نُذِيقُكَ اليوم بما قَدَّمْتَ يداك في الدنيا من الذنوب والآثام، واكتسبته فيها من الإجمام. «وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ»، يقول: وفعلنا ذلك، لأن الله ليس بظلام للعبيد، فيعاقب بعض عبده على جرم، وهو يغفر مثله من آخر غيره، أو يحمل ذنب مذنّب على غير مذنّب، فيعاقبه به، ويعفو عن صاحب الذنب، ولكنه لا يعاقب أحداً إلا على

الحج: ١٠-١٢

جُرْمِهِ، وَلَا يَعَذُّبُ أَحَدًا عَلَى ذَنْبٍ يَغْفِرُ مِثْلَهُ لِآخَرٍ إِلَّا بِسَبَبٍ اسْتَحَقَّ بِهِ مِنْهُ مَغْفِرَتُهُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ»

يعني جَلَّ ذِكْرُهُ بقوله: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ» أعراباً كانوا يُقَدِّمُونَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، مهاجرين من باديتهم، فَإِنْ نَالُوا رِخَاءً مِنْ عَيْشٍ بَعْدَ الْهَجْرَةِ وَالِدُخُولِ فِي الْإِسْلَامِ أَقَامُوا عَلَى الْإِسْلَامِ، وَإِلَّا ارْتَدُّوا عَلَى أَعْقَابِهِمْ، فَقَالَ اللَّهُ: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى شَكٍّ، فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ» وَهُوَ السَّعَةُ مِنَ الْعَيْشِ، وَمَا يَشْبَهُهُ مِنْ أَسْبَابِ الدُّنْيَا اطْمَأَنَّ بِهِ، يَقُولُ: اسْتَقَرَّ بِالْإِسْلَامِ وَثَبَّتَ عَلَيْهِ، «وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ» وَهُوَ الضِّيقُ بِالْعَيْشِ وَمَا يَشْبَهُهُ مِنْ أَسْبَابِ الدُّنْيَا «أُنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ»، يَقُولُ: ارْتَدَّ فَانْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ بِاللَّهِ.

وقوله: «خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ»، يَقُولُ: غَبِنَ هَذَا الَّذِي وَصَفَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ صِفَتَهُ دُنْيَاءً، لِأَنَّهُ لَمْ يَظْفَرْ بِحَاجَتِهِ مِنْهَا بِمَا كَانَ مِنْ عِبَادَتِهِ اللَّهَ عَلَى الشَّكِّ، وَوَضَعَ فِي تِجَارَتِهِ فَلَمْ يَرْبِحْ. «وَالْآخِرَةَ»، يَقُولُ: وَخَسِرَ الْآخِرَةَ، فَإِنَّهُ مُعَذَّبٌ فِيهَا بِنَارِ اللَّهِ الْمُوقَدَةِ.

وقوله: «ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ»، يَقُولُ: وَخَسَارَتِهِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ هِيَ الْخُسْرَانُ: يَعْنِي الْهَلَاكُ الْمُبِينُ، يَقُولُ: يَبِينُ لِمَنْ فَكَّرَ فِيهِ وَتَدَبَّرَهُ أَنَّهُ قَدْ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَمَا لَا

يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وَإِنْ أَصَابَتْ هَذَا الَّذِي يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فِتْنَةٌ، ارْتَدَّ عَنْ دِينِ اللَّهِ، يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَا تَضُرُّهُ إِنْ لَمْ يَعْبُدْهَا فِي الدُّنْيَا، وَلَا تَنْفَعُهُ فِي الْآخِرَةِ إِنْ عَبَدَهَا. «ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ»، يَقُولُ: ارْتِدَادُهُ ذَلِكَ دَاعِيًا مِنْ دُونِ اللَّهِ هَذِهِ الْآلِهَةُ هُوَ الْأَخْذُ عَلَى غَيْرِ اسْتِقَامَةٍ، وَالذَّهَابُ عَنْ دِينِ اللَّهِ ذَهَابًا بَعِيدًا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْئَسَ الْمَوْلَى وَلَيْئَسَ الْعَشِيرُ ﴿١٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: يَدْعُو هَذَا الْمُنْقَلِبُ عَلَى وَجْهِهِ، مَنْ إِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ، آلِهَةٌ لَضَرُّهَا فِي الْآخِرَةِ لَهُ، أَقْرَبُ وَأَسْرَعُ إِلَيْهِ مِنْ نَفْعِهَا. وَقَوْلُهُ: «لَيْئَسَ الْمَوْلَى»، يَقُولُ: لِبَشَرِ ابْنِ الْعَمِّ هَذَا الَّذِي يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ، «وَلَيْئَسَ الْعَشِيرُ»، يَقُولُ: وَلِبَشَرِ الْخَلِيطِ الْمَعَاشِرِ وَالصَّاحِبِ هُوَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنْ اللَّهُ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: إِنْ اللَّهُ يَدْخُلُ الَّذِينَ صَدَقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَعَمِلُوا بِمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا، وَانْتَهَوْا عَمَّا نَهَاكَ عَنْهُ فِيهَا جَنَّاتٍ: يَعْنِي بِسَاتِينَ. «تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ»، يَقُولُ: تَجْرِي الْأَنْهَارُ مِنْ تَحْتِ أَشْجَارِهَا، «إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ» فَيُعْطِي مَا شَاءَ مِنْ كَرَامَتِهِ أَهْلَ طَاعَتِهِ، وَمَا شَاءَ مِنَ الْهُوَانِ أَهْلَ مَعْصِيَتِهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ سَبَبًا إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ
﴿١٥﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِيَ مَنْ يُرِيدُ ﴿١٦﴾
اختلف أهل التأويل في المعنى بالهاء التي في قوله: «أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ
الله».

فقال بعضهم: عني بها نبي الله ﷺ، فتأويله على قول بعض قائله
ذلك: مَنْ كَانَ مِنَ النَّاسِ يَحْسُبُ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ مُحَمَّدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ،
فليمدد بحبل، وهو السبب إلى السماء: يعني سماء البيت، وهو سقفه، ثم
ليقطع السبب بعد الاختناق به، فلينظر هل يذهبن اختناقه ذلك، وقطعه السبب
بعد الاختناق ما يغيط: يقول: هل يذهبن في ذلك ما يجد في صدره من
الغيط.

وقال آخرون: ممن قال: الهاء في ينصره من ذكر اسم رسول الله ﷺ:
السماء التي ذُكِرَتْ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، هِيَ السَّمَاءُ الْمَعْرُوفَةُ، وَقَالُوا: مَعْنَى
الْكَلَامِ: مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ، وَيَكَابِدُ هَذَا الْأَمْرَ لِيَقْطَعَهُ عَنْهُ،
وَمِنْهُ: فَلْيَقْطَعْ ذَلِكَ مِنْ أَصْلِهِ مِنْ حَيْثُ يَأْتِيهِ، فَإِنَّ أَصْلَهُ فِي السَّمَاءِ، فَلْيَمْدُدْ
بَسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ، ثُمَّ لِيَقْطَعْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ الْوَحْيَ الَّذِي يَأْتِيهِ مِنَ اللَّهِ، فَإِنَّهُ
لَا يَكِيدُهُ حَتَّى يَقْطَعَ أَصْلَهُ عَنْهُ، فَكَيْدَ ذَلِكَ حَتَّى قَطَعَ أَصْلَهُ عَنْهُ. «فَلْيَنْظُرْ هَلْ
يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ» مَا دَخَلَهُمْ مِنْ ذَلِكَ، وَغَاظَهُمُ اللَّهُ بِهِ مِنْ نَصْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ
وَمَا يَنْزِلُ عَلَيْهِ.

وقال آخرون: ممن قال «الهاء» التي في قوله: «يَنْصُرُهُ» من ذكر محمد
ﷺ: مَعْنَى النَّصْرِ هَا هُنَا الرِّزْقُ، فَعَلَى قَوْلِ هَؤُلَاءِ تَأْوِيلُ الْكَلَامِ: مَنْ كَانَ يَظُنُّ
أَنْ لَنْ يَرْزُقَهُ اللَّهُ مُحَمَّدًا فِي الدُّنْيَا، وَلَنْ يُعْطِيَهُ. وَذَكَرُوا سَمَاعًا مِنَ الْعَرَبِ: مَنْ
يَنْصُرُنِي نَصْرَهُ اللَّهُ، بِمَعْنَى: مَنْ يُعْطِنِي أَعْطَاهُ اللَّهُ. وَحَكُّوا أَيْضًا سَمَاعًا مِنْهُمْ:

الحج: ١٦

نَصَرَ المَطَرُ أَرْضَ كَذَا: إِذَا جَادَهَا وَأَحْيَاهَا.

وقال آخرون: الهاء في ينصره من ذكر «مَنْ»، وقالوا: معنى الكلام: مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنَّ لَنْ يَرْزُقَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى سَمَاءِ الْبَيْتِ، ثُمَّ لِيَخْتَنُقْ، فَلْيَنْظُرْ هَلْ يَذْهَبُنْ فَعَلَهُ ذَلِكَ مَا يَغِيظُ، أَنَّهُ لَا يَرْزُقُ!

وأولى ذلك بالصواب عندي في تأويل ذلك قول مَنْ قَالَ: الهاء من ذَكَرَ نَبِيَّ اللهِ ﷺ وَدِينَهُ، وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى ذَكَرَهُ، ذَكَرَ قَوْمًا يَعْبُدُونَهُ عَلَى حَرْفٍ، وَأَنَّهُمْ يَطْمَئِنُّونَ بِالْدِّينِ إِنْ أَصَابُوا خَيْرًا فِي عِبَادَتِهِمْ إِيَّاهُ، وَأَنَّهُمْ يَرْتَدُّونَ عَنْ دِينِهِمْ لَشِدَّةِ تَصْيِيهِمْ فِيهَا، ثُمَّ أَتْبَعَ ذَلِكَ هَذِهِ الْآيَةَ، فَمَعْلُومٌ أَنَّهُ إِنَّمَا أَتْبَعَهُ إِيَّاهَا تَوْبِيخًا لَهُمْ عَلَى ارْتِدَادِهِمْ عَنِ الدِّينِ، أَوْ عَلَى شَكِّهِمْ فِيهِ وَنِفَاقِهِمْ، اسْتِبْطَاءً مِنْهُمْ السَّعَةِ فِي الْعَيْشِ، أَوْ السَّبْوِغِ فِي الرِّزْقِ. وَإِذَا كَانَ الْوَاجِبُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ عَقِيبَ الْخَبَرِ عَنْ نِفَاقِهِمْ، فَمَعْنَى الْكَلَامِ إِذَنْ، إِذْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ: مَنْ كَانَ يَحْسِبُ أَنَّ لَنْ يَرْزُقَهُ اللهُ مُحَمَّدًا ﷺ وَأُمَّتَهُ فِي الدُّنْيَا، فَيُوسِّعُ عَلَيْهِمْ مِنْ فَضْلِهِ فِيهَا، وَيَرْزُقُهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ سَنِيِّ عَطَايَاهُ وَكَرَامَتِهِ، اسْتِبْطَاءً مِنْهُ فِعْلُ اللهِ ذَلِكَ بِهِ وَبِهِمْ، فَلْيَمْدُدْ بِحَبْلِ إِلَى سَمَاءٍ فَوْقَهُ؛ إِمَّا سَقْفَ بَيْتٍ، أَوْ غَيْرَهُ مِمَّا يَلْقَى بِهِ السَّبَبُ مِنْ فَوْقِهِ، ثُمَّ يَخْتَنُقْ إِذَا اغْتَاظَ مِنْ بَعْضِ مَا قَضَى اللهُ، فَاسْتَعْجَلَ انْكِشَافَ ذَلِكَ عَنْهُ، فَلْيَنْظُرْ هَلْ يَذْهَبُنْ كَيْدُهُ اخْتِنَاقُهُ، كَذَلِكَ مَا يَغِيظُ، فَإِنْ لَمْ يُذْهِبْ ذَلِكَ غِيظَهُ، حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِالْفَرْجِ مِنْ عِنْدِهِ فَيَذْهَبَهُ، فَكَذَلِكَ اسْتَعْجَالُهُ نَصَرَ اللهُ مُحَمَّدًا ﷺ وَدِينَهُ لَنْ يُؤَخَّرَ مَا قَضَى اللهُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ عَنْ مِيقَاتِهِ، وَلَا يَعْجَلُ قَبْلَ حِينِهِ.

وقد ذَكَرَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي أَسَدٍ وَغُطْفَانٍ، تَبَاطَثَا عَنِ الْإِسْلَامِ، وَقَالُوا: نَخَافُ أَنْ لَا يُنْصَرَ مُحَمَّدٌ ﷺ، فَيَنْقَطِعَ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَ حَلْفَائِنَا مِنَ الْيَهُودِ فَلَا يَمِيرُونَنَا وَلَا يُرَوِّوُنَا، فَقَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُمْ: مَنْ اسْتَعْجَلَ مِنَ اللهِ نَصَرَ مُحَمَّدًا، فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ فَلْيَخْتَنُقْ فَلْيَنْظُرْ اسْتَعْجَالَهُ بِذَلِكَ فِي

نفسه، هل هو مُذهَّبٌ غيظُهُ؟ فكذلك استعجأه من الله نصرَ محمدٍ غير مقدَّم نصره قبل حينه.

وقوله: «وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وكما بَيَّنْتَ لكم حُجَجِي على مَنْ جحد قُدْرَتِي على إحياءِ مَنْ مات من الخَلْقِ بعد فناءه، فأَوْضَحْتُهَا أيها الناسُ، كذلك أنزلنا إلى نبينا محمدٍ ﷺ هذا القرآن آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ، يعني دِلالاتٍ واضحاتٍ، يَهْدِينَ مَنْ أَرَادَ اللَّهُ هِدَايَتَهُ إِلَى الْحَقِّ. «وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ»، يقول جَلَّ ثَنَاؤُه: ولأنَّ اللَّهَ يوفِّق للصوابِ ولِسبيلِ الْحَقِّ مَنْ أَرَادَ، أنزل هذا القرآن آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا
وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ
بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إِنَّ الْفَصْلَ بَيْنَ هَؤُلَاءِ الْمَنَافِقِينَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ، وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا بِاللَّهِ فَعْبَدُوا الْأَوْثَانَ وَالْأَصْنَامَ، وَالَّذِينَ هَادُوا، وَهَمُ الْيَهُودُ، وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ الَّذِينَ عَظَّمُوا النِّيرَانَ وَخَدَمُوهَا، وَبَيْنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ، إِلَى اللَّهِ^(١)، وَسَيَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَعْدَ مَنْ الْقَضَاءِ، وَفَصْلُهُ بَيْنَهُمْ إِدْخَالُهُ النَّارَ الْأَحْزَابَ كُلَّهُمْ وَالْجَنَّةَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ وَبِرُسُلِهِ، فَذَلِكَ هُوَ الْفَصْلُ مِنَ اللَّهِ بَيْنَهُمْ.

وقوله: «إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ»، يقول: إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مِنْ أَعْمَالِ هَؤُلَاءِ الْأَصْنَافِ الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُه، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا شَهِيدٌ لَا يَخْفَى عَنْهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ.

(١) سياق العبارة: إن الفصل بين هؤلاء... إلى الله.

الحج: ١٨-١٩

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ

يقول تعالى ذِكْرَهُ لِنبيه محمد ﷺ: أَلَمْ تَرَ يَا مُحَمَّدُ بِقَلْبِكَ، فتعلم أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْخَلْقِ مِنَ الْجِنِّ وَغَيْرِهِمْ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ فِي السَّمَاءِ، وَالْجِبَالُ، وَالشَّجَرُ، وَالدَّوَابُّ فِي الْأَرْضِ، وَسُجُودُ ذَلِكَ ظِلَالُهُ حِينَ تَطْلُعُ عَلَيْهِ الشَّمْسُ، وَحِينَ تَزُولُ، إِذَا تَحَوَّلَ ظِلُّ كُلِّ شَيْءٍ فَهُوَ سُجُودُهُ.

وقوله: «وَكثِيرٌ مِنَ النَّاسِ»، يقول: ويسجد كثير من بني آدم، وهم المؤمنون بالله.

وقوله: «وَكثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ»، يقول تعالى ذِكْرَهُ: وكثيرٌ من بني آدم حَقَّ عَلَيْهِ عَذَابُ اللَّهِ، فوجِبَ عَلَيْهِ بِكُفْرِهِ بِهِ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَسْجُدُ لِلَّهِ ظَلَهُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ

يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾ ﴿١٩﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: وَمَنْ يُهِنُهُ اللَّهُ مِنْ خَلْقِهِ فَيُشَقِّقْهُ «فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ» بالسعادة يسعده بها، لِأَنَّ الْأُمُورَ كُلَّهَا بِيَدِ اللَّهِ، يُوَفِّقُ مَنْ يَشَاءُ لَطَاعَتِهِ، وَيَخْذُلُ مَنْ يَشَاءُ، وَيُشَقِّقِي مَنْ أَرَادَ، وَيُسْعِدُ مَنْ أَحَبَّ.

وقوله: «إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ»، يقول تعالى ذِكْرَهُ: إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ فِي خَلْقِهِ مَا يَشَاءُ مِنْ إِهَانَةٍ مَنْ أَرَادَ إِهَانَتَهُ، وَإِكْرَامٍ مَنْ أَرَادَ كِرَامَتَهُ، لِأَنَّ الْخَلْقَ خَلَقَهُ، وَالْأَمْرَ أَمَرَهُ، «لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ».

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: هَذَا خِصْمَانِ اخْتَصِمُوا فِي رَيْبِهِمَا فَالَّذِينَ

كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾
يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُمْ مَقَمِعٌ مِّنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كَلَّمَا
أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾

اختلف أهل التأويل في المَعْنَى بهذين الخصمين اللذين ذكرهما الله، فقال بعضهم: أحد الفريقين: أهل الإيمان، والفريق الآخر: عبدة الأوثان من مشركي قريش الذين تبارزوا يوم بدر.

وقال آخرون: ممن قال أحد الفريقين فريق الإيمان: بل الفريق الآخر أهل الكتاب.

وقال آخرون منهم: بل الفريق الآخر الكفار كلهم من أي ملة كانوا.

وقال آخرون: الخصمان اللذان ذكرهما الله في هذه الآية: الجنة والنار.

وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب، وأشبهها بتأويل الآية قول مَنْ قال: عَنِ الْخَصْمَيْنِ جَمِيعِ الْكُفَّارِ مِنْ أَيٍّ أَصْنَافِ الْكُفْرِ كَانُوا، وَجَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ.

وإنما قلت ذلك أولى بالصواب، لأنه تعالى ذكره ذكر قبل ذلك صنفين من خلقه: أحدهما أهل طاعة له بالسجود له، والآخر: أهل معصية له، قد حَقَّ عليه العذاب، فقال: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ»، ثم قال: «وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ»، ثم أتبع ذلك صفة الصنفين كِلَيْهِمَا وما هو فاعلُ بهما، فقال: «فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ»، وقال الله: «إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» فكان بَيِّنًا بذلك أن ما بين ذلك خيرُ عنهما.

(١) في المطبوع: «أن» ولا يستقيم بها المعنى.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَمَا أَنْتَ قَائِلٌ فِيمَا رُوِيَ عَنْ أَبِي ذَرٍّ فِي قَوْلِهِ: «إِنْ ذَلِكَ» نَزَلَ فِي الَّذِينَ بَارَزُوا يَوْمَ بَدْرٍ^(١)؟ قِيلَ: ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ كَمَا رُوِيَ عَنْهُ، وَلَكِنَّ الْآيَةَ قَدْ تَنَزَّلَتْ بِسَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ، ثُمَّ تَكُونُ عَامَةً فِي كُلِّ مَا كَانَ نَظِيرَ ذَلِكَ السَّبَبِ، وَهَذِهِ مِنْ تِلْكَ، وَذَلِكَ أَنَّ الَّذِينَ تَبَارَزُوا إِنَّمَا كَانَ أَحَدُ الْفَرِيقَيْنِ أَهْلَ شُرْكَ وَكَفَرٍ بِاللَّهِ، وَالْآخَرُ أَهْلُ إِيْمَانٍ بِاللَّهِ وَطَاعَةٍ لَهُ، فَكُلُّ كَافِرٍ فِي حُكْمِ فَرِيقِ الشُّرْكِ مِنْهُمَا فِي أَنَّهُ لِأَهْلِ الْإِيْمَانِ خَصْمٌ، وَكَذَلِكَ كُلُّ مُؤْمِنٍ فِي حُكْمِ فَرِيقِ الْإِيْمَانِ مِنْهُمَا فِي أَنَّهُ لِأَهْلِ الشُّرْكِ خَصْمٌ.

فتأويل الكلام: هذان خصمان اختصموا في دين ربهم، واختصامهم في ذلك معادة كل فريق منهما الفريق الآخر، ومحاربتة إياه على دينه.

وقوله: «فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ»، يقول تعالى ذِكْرَهُ: فَأَمَّا الْكَافِرُ بِاللَّهِ فَإِنَّهُ يُقْطَعُ لَهُ قَمِيصٌ مِنْ نَحَاسٍ مِنْ نَارٍ.

وقوله: «يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ»، يقول: يُصَبُّ عَلَى رُؤُوسِهِمْ مَاءٌ مُغْلَى.

وقوله: «يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ»، يقول: يُذَابُ بِالْحَمِيمِ الَّذِي يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمْ مَا فِي بُطُونِهِمْ مِنَ الشُّحُومِ، وَتُشَوَّى جُلُودُهُمْ مِنْهُ فَتَسَاقُطُ، وَالصَّهْرُ: هُوَ الْإِذَابَةُ، يُقَالُ مِنْهُ: صَهَرْتُ الْأَلِيَّةَ بِالنَّارِ: إِذَا أَذْبَتَهَا أَصْهَرَهَا صَهْرًا.

وقوله: «وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ» تَضْرِبُ رُؤُوسَهُمْ بِهَا الْخِزْنَةُ إِذَا أَرَادُوا الْخُرُوجَ مِنَ النَّارِ حَتَّى تَرْجِعَهُمْ إِلَيْهَا.

(١) حديث متفق عليه: البخاري (٣٩٦٦) و(٣٩٦٨) و(٣٩٦٩) و(٤٧٤٣)، ومسلم (٣٠٣٣)، والذين بارزوا من المسلمين هم علي وحزمة وعبيدة بن الحارث، ومن المشركين: شيبة بن ربيعة وعقبة بن ربيعة والوليد بن عتبة.

وقوله: «كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا»، يقول: كلما أراد هؤلاء الكفار الذين وصف الله صِفَتَهُمُ الخروجَ من النار، مما نالهم من الغمِّ والكرب، رُدُّوا إليها.

وعَنَى بقوله: «ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ»، ويقال لهم: ذوقوا عذاب النار، وقيل: «عذاب الحريق» والمعْنَى: المَحْرِقُ، كما قيل: العذاب الأليم، بمعنى: المؤْلِمُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ اللَّهَ يَدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٢﴾ وَهُمْ فِيهَا شَرِبُوا مِنْ نَضْرٍ مُسْكًى مِنْ لَدُنْهُمْ لَا يَمُنُّ أَفَّاكٌ مِنْ أَهْلِهَا يُكَلِّمُهُمْ عَنْ عَرَسٍ حَرِيٍّ خَلْفَ سُرُجٍ مُنِيرٍ ﴿٢٣﴾ وَهُمْ فِيهَا سَاهُونَ ﴿٢٤﴾ وَالْقَوْلُ وَهُدُوءٌ إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴿٢٥﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: وأما الذين آمنوا بالله ورسوله فأطاعوهما بما أمرهم الله به من صالح الأعمال، فإنَّ الله يُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، فيَحْلِيهِمْ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا.

واختلفت الْقَرَأَةُ فِي قِرَاءَةِ قَوْلِهِ: «وَلُؤْلُؤًا» فَقَرَأَتْهُ عَامَّةُ قَرَاءَةِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَبَعْضُ أَهْلِ الْكُوفَةِ نَصْبًا مَعَ الَّتِي فِي الْمَلَائِكَةِ، بِمَعْنَى: يُحَلَّوْنَ فِيهَا أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا، عَطْفًا بِاللُّؤْلُؤِ عَلَى مَوْضِعِ الْأَسَاوِرِ، لِأَنَّ الْأَسَاوِرَ وَإِنْ كَانَتْ مَخْفُوضَةً مِنْ أَجْلِ دُخُولِ «مِنْ» فِيهَا، فَانْهَ بِمَعْنَى النَّصْبِ، قَالُوا: وَهِيَ تَعْدُ فِي خَطِّ الْمَصْحَفِ بِالْأَلْفِ، فَذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى صِحَّةِ الْقِرَاءَةِ بِالنَّصْبِ فِيهِ. وَقَرَأَتْ ذَلِكَ عَامَّةُ قَرَاءَةِ الْعِرَاقِ وَالْمِصْرَيْنِ «وَلُؤْلُؤًا» خَفْضًا عَطْفًا عَلَى إِعْرَابِ الْأَسَاوِرِ الظَّاهِرِ.

واختلف الذين قرأوا ذلك كذلك في وجه إثبات الألف فيه، فكان أبو عمرو بن العلاء فيما ذكر لي عنه يقول: أثبت فيه كما أثبت في قالوا، وكالوا. وكان الكسائي يقول: أثبتوها فيه للهمزة، لأن الهمزة حرف من الحروف.

والقول في ذلك عندي أنهما قراءتان مشهورتان، قد قرأ بكل واحدة منهما علماء من القراء، متفقتا المعنى، صحيحتا المخرج في العربية، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب.

وقوله: «وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ»، يقول: ولبوسهم التي تلي أبشارهم فيها ثياب حرير.

وقوله: «وَهْدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ»، يقول تعالى ذكره: وهداهم ربهم في الدنيا إلى شهادة أن لا إله إلا الله.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكْمِ يُظْلَمِ نُذُوقُهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾

يقول تعالى ذكره: إن الذين جحدوا توحيد الله، وكذبوا رسله، وأنكروا ما جاءهم به من عند ربهم، «وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ»، يقول: ويمنعون الناس عن دين الله أن يدخلوا فيه، وعن المسجد الحرام الذي جعله الله للناس الذين آمنوا به كافة لم يخصص منها بعضاً دون بعض «سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ»، يقول: معتدل في الواجب عليه - من تعظيم حرمة المسجد الحرام، وقضاء نسكه به، والنزول فيه، حيث شاء - العاكف فيه، وهو المقيم به؛ والباد: وهو المتناب إليه من غيره.

الحج : ٢٥-٢٦

وقوله : «وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ» ، يقول تعالى ذكره : ومن يُرِدْ فيه إلحاداً بظلمٍ نذقه من عذابٍ أليمٍ ، وهو أن يميلَ في البيتِ الحرامِ بظلمٍ .

واختلف أهل التأويل في معنى الظلم الذي مَنْ أراد الإلحادَ به في المسجد الحرام ، أذاقه الله من العذابِ الأليم ، فقال بعضهم : ذلك هو الشرك بالله وعبادة غيره به : أي بالبيت .

وقال آخرون : هو استحلالُ الحرامِ فيه أو ركوبه .

وقال آخرون : بل معنى ذلك الظلم : استحلالُ الحرمِ متعمداً .

وقال آخرون : بل ذلك احتكارُ الطعامِ بمكة .

وقال آخرون : بل ذلك كُلُّ ما كان منهياً عنه من الفعلِ ، حتى قول القائل : لا والله ، وبلى والله .

وأولى الأقوال التي ذكرناها في تأويل ذلك بالصواب قول مَنْ قال : إنه كُلُّ معصيةٍ لله ، وذلك أن الله عَمَّ بقوله : «وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ» ولم يخصص به ظلم دون ظلم في خبرٍ ولا عقلٍ ، فهو على عمومِهِ . فإذا كان ذلك كذلك ، فتأويلُ الكلام : وَمَنْ يُرِدْ في المسجدِ الحرامِ بأن يميلَ بظلمٍ ، فيعصي الله فيه ، نُذِقْهُ يومَ القيامة من عذابٍ موجعٍ له .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَلَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتِ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ ، مُعَلِّمُهُ عَظِيمٍ ما رَكِبَ قَوْمُهُ من قريش

الحج: ٢٦-٢٩

خاصةً دون غيرهم من سائر خَلْقِهِ عبادتهم في حرمه، والبيت الذي أمر إبراهيم خليله ﷺ ببنائه وتطهيره من الآفات والريِّب والشرك: واذكر يا محمدُ كيف ابتدأنا هذا البيت الذي يعبدُ قومك فيه غيري، إذ بوَّأنا لخليلنا إبراهيم، يعني بقوله: بوَّأنا: وطَّأنا له مكانَ البيت.

ويعني بالبيت: الكعبة. «أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئاً» في عبادتك إياي، «وَطَهَّرَ بَيْتِي» الذي بنيته من عبادة الأوثان.

وقوله: «لِلطَّائِفِينَ»، يعني للطائفين به. «والقائمين»، بمعنى: المصلين الذين هم قيامٌ في صلاتهم.

وقوله: «وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ»، يقول: والركع السجود في صلاتهم حول البيت.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَةٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْفَقِيرِ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُدُورَهُمْ وَلِيَطَوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: عَهْدْنَا إِلَيْهِ أَيْضاً أَنْ أَدِّنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ، يعني بقوله: «وَأَذِّنْ»: أعلم وناد في الناس أَنْ حُجُّوا أَيُّهَا النَّاسُ بَيْتَ اللَّهِ الْحَرَامِ. «يَأْتُوكَ رِجَالًا»، يقول: فَإِنَّ النَّاسَ يَأْتُونَ الْبَيْتَ الَّذِي تَأْمُرُهُمْ بِحُجَّتِهِ مُشَاءً عَلَى أَرْجُلِهِمْ، «وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ»، يقول: وَرِكْبَاناً عَلَى كُلِّ ضَامِرٍ، وَهِيَ الْإِبِلُ الْمَهَازِيلُ «يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ» يقول: تَأْتِي هَذِهِ الضَّوَامِرُ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ، يقول: مِنْ كُلِّ طَرِيقٍ وَمَكَانٍ وَمَسَلِكٍ بَعِيدٍ.

وَذَكَرَ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ لَمَّا أَمَرَهُ اللَّهُ بِالتَّائِذِينَ بِالحَجِّ، قَامَ عَلَى مَقَامِهِ فَنَادَى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الحَجَّ فَحُجُّوا بَيْتَهُ الْعَتِيقَ.

وقوله: «لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ»، اختلف أهل التأويل في معنى المنافع التي ذكرها الله في هذا الموضع فقال بعضهم: هي التجارة ومنافع الدنيا.

وقال آخرون: هي الأجر في الآخرة، والتجارة في الدنيا.

وقال آخرون: بل هي العفو والمغفرة.

وأولى الأقوال بالصواب قول من قال: عني بذلك: ليشهدوا منافع لهم من العمل الذي يرضي الله والتجارة، وذلك أن الله عَمَّ لهم منافع جميع ما يَشْهَدُ له الموسم، ويأتي له مكة أيام الموسم من منافع الدنيا والآخرة، ولم يخص من ذلك شيئاً من منافعهم بخبر ولا عقل، فذلك على العموم في المنافع التي وصفت.

وقوله: «وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ»، يقول تعالى ذكره: وكي يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنَ الْهَدَايَا وَالبُذْنِ التي أهدوها من الإبل والبقر والغنم، في أيام معلومات، وهُنَّ أَيَّامُ التَّشْرِيقِ فِي قول بعض أهل التأويل. وفي قول بعضهم أيام العشر. وفي قول بعضهم: يوم النحر وأيام التشريق.

وقد ذكرنا اختلاف أهل التأويل في ذلك، وبيننا الأولى بالصواب منها في سورة البقرة، فأغنى ذلك عن إعادته في هذا الموضع.

وقوله: «فَكُلُوا مِنْهَا»، يقول: كُلُوا مِنْ بَهَائِمِ الْأَنْعَامِ التي ذكرتم اسم الله عليها أيها الناس هنالك، وهذا الأمر من الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ أَمْرٌ بِإِباحَةٍ لَا أَمْرٌ بِإِجَابٍ، وذلك أنه لا خلاف بين جميع الحُجَّةِ أَنَّ ذَابِحَ هَدْيِهِ أَوْ بُذْنَتِهِ هُنَالِكَ، إِنْ لَمْ يَأْكُلْ مِنْ هَدْيِهِ أَوْ بَدْنَتِهِ، أنه لم يضيع له فرضاً كان واجباً عليه، فكان معلوماً

بذلك أنه غير واجب.

وقوله: «وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ»، يقول: وأطعموا ممّا تذبحون أو تنحرون هنالك من بهيمة الأنعام، من هَدْيِكُمْ وبُذْنِكُم البائس، وهو الذي به ضرّ الجوع والزمانة والحاجة، والفقير: الذي لا شيء له.

وقوله: «ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ»، يقول تعالى ذكره: ثم ليقضوا ما عليهم من مناسك حجّهم: من حلق شعير، وأخذ شارب، ورمي جمرة، وطواف بالبيت. وقوله: «وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ»، يقول: وليوفوا الله بما نذروا من هدي وبدنة وغير ذلك.

وقوله: «وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ»، يقول: وليطّوفوا ببيت الله الحرام. واختلف أهل التأويل في معنى قوله: «العتيق» في هذا الموضع، فقال بعضهم: قيل ذلك لبيت الله الحرام، لأن الله اعتقه من الجابرة أن يصلوا إلى تخريبه وهدمه.

وقال آخرون: قيل له عتيق، لأنه لم يملكه أحد من الناس.

وقال آخرون: سمي بذلك لقدمه، (وهو قول ابن زيد).

ولكل هذه الأقوال التي ذكرناها في قوله: «الْبَيْتِ الْعَتِيقِ» وجه صحيح، غير أن الذي قاله ابن زيد أغلب معانيه عليه في الظاهر، غير أن الذي روي عن عبدالله بن الزبير أولى بالصحة، قال: قال رسول الله ﷺ «إِنَّمَا سُمِّيَ الْبَيْتُ الْعَتِيقَ لِأَنَّ اللَّهَ اعْتَقَهُ مِنَ الْجَبَابَرَةِ فَلَمْ يَظْهَرْ عَلَيْهِ قَطُّ صَحِيحاً»^(١).

(١) أخرجه المؤلف، والترمذي (٣١٧٠)، وقال: حسن صحيح، وقد روي هذا الحديث عن الزهري عن النبي ﷺ، مرسلًا. قلنا: وساقه الطبري من رواية ابن جريج عن الزهري، وساقه الترمذي من رواية عَقِيل عن الزهري. وفي رواية الترمذي: لم يظهر عليه جبار.

وعنى بالطواف الذي أمر جَلَّ ثَنَاؤُهُ حَاجَّ بَيْتِهِ الْعَتِيقِ بِهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ طَوَافَ الْإِفَاضَةِ الَّذِي يُطَافُ بِهِ بَعْدَ التَّعْرِيفِ، إِمَّا يَوْمَ النَّحْرِ. وَإِمَّا بَعْدَهُ، لَا خِلَافَ بَيْنَ أَهْلِ التَّأْوِيلِ فِي ذَلِكَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ. وَأَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣١﴾

يعني تعالى ذَكَرَهُ بقوله: «ذلك»: هذا الذي أمر به من قضاء النَّفَثِ، والوفاء بالنذور، والطواف بالبيت العتيق هو الفرض الواجب عليكم يا أيها الناس في حجكم. «وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ»، يقول: ومن يجتنب ما أمره الله باجتنابه في حال إحرامه تعظيماً منه لحدود الله أَنْ يُوَاقِعَهَا وَحُرْمَهُ أَنْ يَسْتَحِلَّهَا، فهو خيرٌ له عند ربه في الآخرة.

وقوله: «وَأَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامَ»، يقول جَلَّ ثَنَاؤُهُ: وأحلَّ الله لكم أيها الناس الأنعام، أَنْ تَأْكُلُوهَا إِذَا ذَكَّيْتُمُوهَا، فلم يحرم عليكم منها بحيرة، ولا سائبة، ولا وصيلة، ولا حاماً، ولا ما جعلتموه منها لآلهتكم «إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ»، يقول: إلا ما يُتْلَى عليكم في كتاب الله، وذلك: الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أَهْلٌ لغير الله به، والمنخنقة، والموقوذة، والمرتدية، والنطيحة، وما أكل السبع، وما ذُبِحَ عَلَى النُّصَبِ، فَإِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ رِجْسٌ.

وقوله: «فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ»، يقول: فاتقوا عبادة الأوثان، وطاعة الشيطان في عبادتها فإنها رِجْسٌ.

وقوله: «وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ»، يقول تعالى ذَكَرَهُ: واتقوا قول الكذب والفرية على الله بقولكم في الآلهة «مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى»

الحج: ٣٠-٣٢

وقولكم للملائكة: هي بنات الله، ونحو ذلك من القول، فإن ذلك كذب وزور، وشرك بالله.

فإن قال قائل: وهل من الأوثان ما ليس برجس، حتى قيل: فاجتنبوا الرجس منها؟ قيل: كُلُّهَا رَجَسٌ، وليس المعنى ما ذهبت إليه في ذلك. وإنما معنى الكلام: فاجتنبوا الرجس الذي يكون من الأوثان أي عبادتها، فالذي أمر جَلَّ ثَنَاؤُهُ بقوله: «فاجتنبوا الرَجَسَ» منها اتقاء عبادتها، وتلك العبادة هي الرجس.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ



يقول تعالى ذِكْرُهُ: اجتنبوا أيها الناس عبادة الأوثان، وقول الشرك، مستقيمين لله على إخلاص التوحيد له، وإفراد الطاعة والعبادة له خالصاً دون الأوثان والأصنام، غير مشركين به شيئاً من دونه، فإنه مَنْ يُشْرِكْ بالله شيئاً من دونه، فمثله في بُعْدِهِ من الهدى وإصابة الحقِّ وهلاكه وذهابه عن ربه، مَثَلُ مَنْ خَرَّ من السماء، فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ، فهلك، أو هَوَتْ به الرِّيحُ في مكانٍ سَحِيقٍ، يعني من بعيد.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعْرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى

الْقُلُوبِ

يقول تعالى ذِكْرُهُ: هذا الذي ذكرتُ لكم أيها الناس، وأمرتكم به من اجتناب الرجس من الأوثان، واجتناب قول الزور، حنفاء لله، وتعظيم شعائر

الله، وهو استحسانُ البُذْنِ واستِسْمَانُها، وأداء مناسك الحجِّ على ما أمر الله جلَّ ثَناءُؤه، من تقوى قلوبكم.

وأولى الأقوال في معنى تقوى القلوب أن يقال: إن الله تعالى ذكَّره، أخبر أن تعظيم شعائره، وهي ما جعله أعلاماً لخلقه فيما تعبَّدُهم به من مناسك حجَّهم من الأماكن التي أمرهم بأداء ما افترض عليهم منها عندها والأعمال التي ألزمهم عملها في حجَّهم من تقوى قلوبهم، لم يخص من ذلك شيئاً، فتعظيم كل ذلك من تقوى القلوب، كما قال جلَّ ثَناءُؤه، وحقَّ على عباده المؤمنين به تعظيم جميع ذلك، وقال: «إنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ» وأنَّث، ولم يقل: فإنه، لأنه أريد بذلك: فإنَّ تلك التعظيمَ مع اجتناب الرجس من الأوثان من تقوى القلوب، كما قال جلَّ ثَناءُؤه: «إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ». وعنى بقوله «فإنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ» فإنها من وجَلِ القلوب من خشية الله وحقيقة معرفتها بعظمته وإخلاص توحيده.

القول في تأويل قوله تعالى: لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحْجَاهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾

اختلف أهل التأويل في معنى المنافع التي ذكر الله في هذه الآية، وأخبر عباده أنها إلى أجل مسمى، على نحو اختلافهم في معنى الشعائر التي ذكرها جلَّ ثَناءُؤه، في قوله: «وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ» فقال: الذين قالوا عنى بالشعائر: البُذْن، معنى ذلك: لكم أيها الناس في البُذْنِ منافع. ثم اختلف أيضاً الذين قالوا هذه المقالة في الحال التي لهم فيها منافع، وفي الأجل الذي قال عزَّ ذِكْرُه «إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى» فقال بعضهم: الحال التي أخبر الله جلَّ ثَناءُؤه أن لهم فيها منافع، هي الحال التي لم يوجبها صاحبها ولم يُسمَّها بُدنة ولم يقلدها. قالوا: ومنافعها في هذه الحال: شربُ ألبانها، وركوبُ

ظهورها، وما يرزقهم الله من نتاجها وأولادها. قالوا: والأجل المسمى الذي أخبر جَلَّ ثَنَاؤُهُ أَنَّ ذلك لعباده المؤمنين منها إليه، هو إلى إيجابهم إياها، فإذا أوجبوا بطل ذلك، ولم يكن لهم من ذلك شيء.

وقال آخرون ممن قال: الشعائر: البدن في قوله: «وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ» والهاء في قوله: «لَكُمْ فِيهَا» من ذِكْرِ الشعائر، ومعنى قوله: «لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ»: لكم في الشعائر التي تعظمونها لله منافع بعد اتخاذكموها لله بُدْنًا أو هدايا، بأن تركبوا ظهورها إذا احتجتم إلى ذلك، وتشربوا ألبانها إن اضطرتهم إليها. قالوا: والأجل المسمى الذي قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ «إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى» إلى أَنْ تُنَحَّرَ.

وأما الذين قالوا: معنى الشعائر في قوله: «وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ»: شعائر الحج، وهي الأماكن التي يُنْسَكُ عندها لله، فإنهم اختلفوا أيضاً في معنى المنافع التي قال الله: «لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ» فقال بعضهم: معنى ذلك: لكم في هذه الشعائر التي تُعْظَمُونَهَا مَنَافِعُ بتجارتكم عندها، ويبيعكم وشرائكم بحضرتها، وَتَسْوِقُكُمْ. والأجل المسمى: الخروج من الشعائر إلى غيرها، ومن المواضع التي يُنْسَكُ عندها إلى ما سواها في قول بعضهم.

وقال آخرون منهم: المنافع التي ذكرها الله في هذا الموضع: العمل لله بما أمر من مناسك الحج. قالوا: والأجل المسمى: هو انقضاء أيام الحج التي يُنْسَكُ لله فيهنَّ.

وقد دللنا قَبْلَ عَلَى أَنَّ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى ذِكْرَهُ: «وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ» معني به: كُلُّ مَا كَانَ مِنْ عَمَلٍ أَوْ مَكَانٍ جَعَلَهُ اللَّهُ عِلْمًا لِمَنَاسِكِ حَجِّ خَلْقِهِ، إذ لم يخصص من ذلك جَلَّ ثَنَاؤُهُ شيئاً في خبرٍ ولا عَقْلٍ. وإذا كان ذلك كذلك فمعلوم أن معنى قوله: «لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى»: في هذه الشعائر منافع إلى أجل مسمى، فما كان من هذه الشعائر بدناً وهدياً، فمنافعها لكم

الحج: ٣٣-٣٤

من حين تملكون، إلى أن أوجبتموها هدايا وبدناً وما كان منها أماكن يُنسك لله عندها، فمنافعها: التجارة لله عندها، والعمل بما أمر به إلى الشخصوس عنها، وما كان منها أوقاً بأن يُطاع الله فيها بعمل أعمال الحج وبطلب المعاش فيها بالتجارة، إلى أن يُطاف بالبيت في بعض، أو يوافي الحرم في بعض، ويخرج عن الحرم في بعض.

وقد اختلف الذين ذكرنا اختلافهم في تأويل قوله: «لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى» في تأويل قوله: «ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ» فقال الذين قالوا: عَنَى بالشعائر في هذا الموضع: البدن، معنى ذلك: ثم مَحِلُّ البدن إلى أن تبلغ مكة، وهي التي بها البيت العتيق.

وقال آخرون: معنى ذلك: ثم محلكم أيها الناس من مناسك حجكم إلى البيت العتيق أن تطوفوا به يوم النحر بعد قضائكم ما أوجب الله عليكم في حجكم.

وقال آخرون: معنى ذلك: ثم مَحِلُّ منافع أيام الحج إلى البيت العتيق بانقضائها.

وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب. قول من قال: معنى ذلك: ثم محل الشعائر التي لكم فيها منافع إلى أجل مسمى إلى البيت العتيق، فما كان من ذلك هدياً أو بدناً، فبموافاته الحرم في الحرم، وما كان من نسك، فالطواف بالبيت.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِّيَذْكُرُوا
اِسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَارَزَقِهِمْ مِّنْ بِهِيمَةٍ أَلتَّعِزُّ فَالْهَكْمُ إِلَهُ وَحْدٌ فَلَهُ اَسْلِمُوا
وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وَلِكُلِّ أُمَّةٍ»، ولكل جماعة سلف فيكم من أهل الإيمان بالله أيها الناس جعلنا ذبحاً يَهْرَقُونَ دَمَهُ. «لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ» بذلك لأن من البهائم ما ليس من الأنعام، كالخيل والبغال والحمير. وقيل: إنما قيل للبهائم بهائم، لأنها لا تتكلم.

وقوله: «فَالِهَكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: فاجتنبوا الرجس من الأوثان، واجتنبوا قول الزور، فالهكم إله واحد، لا شريك له، فإياه فاعبدوا، وله أخلصوا الألوهة.

وقوله: «فَلَهُ أَسْلِمُوا»، يقول: فَلِإِلَهِكُمْ فَاخْضَعُوا بالطاعة، وله فاذلوا بالإقرار بالعبودية.

وقوله: «وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وبشر يا محمد، الخاضعين لله بالطاعة، المذعنين له بالعبودية، المنيين إليه بالتوبة، وقد بينا معنى الإخبات فيما مضى من كتابنا هذا^(١).

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ٣٥

فهذا من نعتِ المخبتين، يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمد ﷺ: وَبَشِّرْ يَا مُحَمَّدُ الْمُخْبِتِينَ الَّذِينَ تَخْشَعُ قُلُوبُهُمْ لَذِكْرِ اللَّهِ، وتخضع من خشيته وجلاً من عقابه، وخوفاً من سخطه. «وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ» من شدة في أمر الله، ونالهم من مكروه في جنبه، «وَالْمُقِمِي الصَّلَاةِ» المفروضة، «وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ» من الأموال «يُنْفِقُونَ» في الواجب عليهم إنفاقها فيه في زكاة، ونفقة عيال، ومن وجبت عليه نفقته، وفي سبيل الله.

(١) انظر تفسير الآية ٢٣ من سورة هود.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَالْبَدَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ
 اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَأَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا
 وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وَالْبَدَنَ: وهي جمع بَدَنَةٍ، وقد يقال لواحدتها: بَدَن،
 وإذا قيل بَدَنَ احتمل أن يكون جمعاً وواحداً.

وَالْبَدَنُ: هو الضخمُ من كلِّ شيءٍ، ولذلك قيل لامرئ القيسِ بن
 النعمان صاحب الخورنق والسدير، الْبَدَنُ: لضخمه واسترخاء لحمه، فإنه
 يقال: قد بَدَنَ تَبْدِيناً. فمعنى الكلام: والإبل العظام الأجسام الضخام،
 جعلناها لكم أيها الناسُ من شعائر الله، يقول: من أعلامِ أمرِ الله الذي أمركم
 به في مناسك حجكم إذا قلدتموها وجللتموها وأشعرتُموها علم بذلك، وشعرَ
 أنكم فعلتم ذلك من الإبلِ والبقر.

وقوله: «لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ»، يقول: لكم في الْبَدَنِ خير، وذلك الخَيْرُ هو
 الأجرُ في الآخرةِ بنحرها والصدقةِ بها، وفي الدنيا: الركوب إذا احتاج إلى
 ركوبها.

وقوله: «فَأَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: فأذكروا اسمَ الله
 على الْبَدَنِ عند نحركم إياها صَوَافَّ، بمعنى مُصْطَفَّةً، واحدتها صافة، يقول:
 مصطفة بين أيديها، معقولة إحدى قوائمها.

وقوله: «فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا»، يقول: فإذا سقطت فوقعت جنوبُها إلى
 الأرضِ بعد النَّحْرِ، «فَكُلُوا مِنْهَا» وهو من قولهم: قد وجبت الشمس: إذا غابت
 فسقطت للتغيب.

وقوله : «فَكُلُّوا مِنْهَا» وهذا مخرجه مخرج الأمر، ومعناه : الإباحة، والإطلاق، يقول الله : فإذا نحرث فسقطت ميتة بعد النحر، فقد حلَّ لكم أكلها، وليس بأمرٍ إيجابٍ.

وقوله : «وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ»، يقول : فأطعموا منها القانع.

واختلف أهل التأويل في المعنيِّ بالقانع والمعتَّر، فقال بعضهم : القانع : الذي يقنع بما أُعْطِيَ أو بما عنده ولا يسأل، والمعتَّر : الذي يتعرَّضُ لك أن تطعمه من اللحم ولا يسأل.

وقال آخرون : القانع : الذي يقنع بما عنده، ولا يسأل؛ والمعتَّر : الذي يعتريك فيسألك.

وقال آخرون : القانع : هو السائل، والمعتَّر : هو الذي يعتريك ولا يسأل.

وقال آخرون : القانع : الجار، والمعتَّر : الذي يعتريك من الناس.

وقال آخرون : القانع : الطوافُ. والمعتَّر : الصديقُ الزائر.

وقال آخرون : القانع : هو المسكينُ، والمعتَّر : الذي يتعرَّضُ للحم.

وقال آخرون : القانع : الطامعُ، والمعتَّر : الذي يعتَرُّ بالبدن.

وقال آخرون : القانع : الذي يقنع، والمعتَّر : الذي يعتريك.

وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال : عَنِ الْقَانِعِ : السائل، لأنه

لو كان المعنيُّ بالقانع في هذا الموضع، المكتفي بما عنده، والمستغني به،

لقيل : وأطعموا القانع والسائل، ولم يقل : وأطعموا القانع والمعتَّر، وفي إتباع

ذلك قوله : والمعتَّر، الدليلُ الواضحُ على أنَّ القانع معنيٌّ به السائل من قولهم :

قنع فلان إلى فلان، بمعنى سأله وخضع إليه، فهو يقنع قنوعاً.

وأما القانع الذي هو بمعنى المكتفي، فإنه من قَنَعْتُ بكسر النون أقنَعُ

قنَاعَةً وَقِنَعاً وَقِنَعَاناً. وأما المعترّ: فإنه الذي يأتيك معترّاً بك لتعطيه وتطعمه.

وقوله: «كَذَلِكَ سَخَرْنَاهَا لَكُمْ»، يقول: هكذا سخرنا البدن لكم أيها الناس «لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ»، يقول: لتشكروني على تسخيرها لكم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ الْقَوِيُّ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَنَكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: لم يصل إلى الله لحوم بدنكم ولا دماؤها، ولكن يناله اتقاؤكم إياه إن اتقيتموه فيها فأردتم بها وجهه، وعلمتم فيها بما ندبكم إليه، وأمركم به في أمرها، وعظمتم بها حرماته.

وقوله: «كَذَلِكَ سَخَرَهَا لَكُمْ»، يقول: هكذا سخر لكم البدن «لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ»، يقول: كي تُعَظِّمُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ، يعني: على توفيقه إياكم لدينه، وللتسليك في حجاجكم. «وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ»، يقول: وبشّر يا محمد الذين أطاعوا الله فأحسنوا في طاعتهم إياه في الدنيا بالجنة في الآخرة.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ غَائِلَةَ الْمُشْرِكِينَ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وبرسوله، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ يَخُونُ اللَّهَ، فيخالف أمره ونهيه ويعصيه، ويطيع الشيطان «كَفُورٍ»، يقول: جَحُودٌ لِنِعْمِهِ عنده، لا يعرف لمنعمها حقّه، فيشكره عليها.

وقيل : إنه عَنِ بذلك : دفع الله كفار قريش عَمَّنْ كان بين أظهرهم من المؤمنين قبل هِجْرَتِهِمْ .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا**
وَلِإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ : أُذِنَ اللَّهُ للمؤمنين الذين يقاتلون المشركين في سبيله بأنَّ المشركين ظلموهم بقتالهم .

واختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك ، فقرأته عامة قَرَأَةِ المدينة «أُذِنَ» بضم الألف «يُقَاتِلُونَ» بفتح التاء بترك تسمية الفاعل ، في أُذِنَ وَيُقَاتِلُونَ جميعاً . وقرأ ذلك بعض الكوفيين وعامة قَرَأَةِ البصرة «أُذِنَ» بترك تسمية الفاعل و«يُقَاتِلُونَ» بكسر التاء ، بمعنى يقاتل المأذون لهم في القتال المشركين . وقرأ ذلك عامة قَرَأَةِ الكوفيين وبعض المكيين «أُذِنَ» بفتح الألف ، بمعنى : أُذِنَ اللَّهُ ، و«يُقَاتِلُونَ» بكسر التاء ، بمعنى : إن الذين أُذِنَ اللَّهُ لهم بالقتال ، يقاتلون المشركين .

وهذه القراءات الثلاث متقاربات المعنى ، لأنَّ الذين قرأوا أُذِنَ على وجه ما لم يُسَمَّ فاعله يرجع معناه في التأويل إلى معنى قراءة مَنْ قرأه على وجه ما سُمي فاعله - وإنَّ من قرأ يُقَاتِلُونَ ، وَيُقَاتِلُونَ بالكسر أو الفتح ، فقريب معنى أحدهما من معنى الآخر - وذلك أنَّ مَنْ قاتل إنساناً ، فالذي قاتله له مقاتِلٌ ، وكُلُّ واحدٍ منهما مقاتل . فإذا كان ذلك كذلك فبأية هذه القراءات قرأ القارىء فمصيبٌ الصواب .

غير أن أحبَّ ذلك إليَّ ، أن أقرأ به أُذِنَ بفتح الألف ، بمعنى : أُذِنَ اللَّهُ ، لِقُرْبِ ذلك من قوله «إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ» أُذِنَ اللَّهُ في الذين لا يحبهم للذين يقاتلونهم بقتالهم ، فیردَّ أُذِنَ على قوله : «إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ» ،

الحج: ٣٩-٤٠

وكذلك أَحَبُّ القراءاتِ إِلَيَّ فِي يُقَاتِلُونَ كسر التاء؛ بمعنى: الذين يُقَاتِلُونَ مَنْ قد أخبر الله عنهم أنه لا يحبهم، فيكون الكلام متصلاً معنى ببعضه ببعض.

وقوله: «وإنَّ اللهَ على نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ»، يقول جَلَّ ثَنَاهُ: وإنَّ اللهَ على نصرِ المؤمنينَ الذين يُقاتلون في سبيلِ اللهَ لقادرٌ، وقد نصرهم فأعزَّهُم ورفعهم، وأهلك عَدُوَّهُمْ، وأذلهم بأيديهم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: «الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ صَوَامِعُ وَبَيْعٌ وَصُلُوكٌ وَمَسْجِدٌ يُذَكِّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيْنُصِرْتُمُ اللَّهُ مِنْ نِصْرَتِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ»

يقول تعالى ذِكْرَهُ: أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ «الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ»، فالذين الثانية رَدُّ على الذين الأولى، وَعَنَى بِالْمُخْرِجِينَ مَنْ دُورِهِمْ: المؤمنينَ الذين أخرجهم كفارُ قريش من مكة، وكان إخراجهم إياهم من دُورِهِمْ وتعذيبهم بعضهم على الإيمانِ بالله ورسوله، وسَبَّهِم بعضهم بالسُّتْهم ووعيدهم إياهم، حتى اضطَرُّوهم إلى الخروجِ عنهم، وكان فِعْلُهُمْ ذلك بهم بِغَيْرِ حَقٍّ، لأنهم كانوا على باطلٍ، والمؤمنونَ على الحقِّ، فلذلك قال جَلَّ ثَنَاهُ: «الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ».

وقوله: «إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ»، يقول تعالى ذِكْرَهُ: لم يُخْرِجُوا مِنْ ديارهم إلا بقولهم: رَبُّنَا الله وحده لا شريك له، فأن في موضع خفض رَدًّا على الباء في قوله: «بِغَيْرِ حَقٍّ»، وقد يجوز أن تكون في موضع نصب على وجه الاستثناء.

وقوله: «وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ»، اختلف أهل التأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك: ولولا دفع الله المشركين بالمسلمين.

وقال آخرون: معنى ذلك: ولولا القتال والجهاد في سبيل الله.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ولولا دفع الله بأصحاب رسول الله ﷺ عمن بعدهم من التابعين.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: لولا أن الله يدفع بمن أوجب قبول شهادته في الحقوق، تكون لبعض الناس على بعض، عمن لا يجوز قبول شهادته وغيره، فأحيا بذلك مآل هذا، ويوقى بسبب هذا إراقة دم هذا، وتركوا المظالم من أجله لتظالم الناس، فهذه صوامع.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره، أخبر أنه لولا دفاعه الناس بعضهم ببعض، لهدم ما ذكر، من دفعه تعالى ذكره بعضهم ببعض، وكفه المشركين بالمسلمين عن ذلك؛ ومنه كفه ببعضهم التظالم، كالسلطان الذي كف به رعيته عن التظالم بينهم؛ ومنه كفه لمن أجاز شهادته بينهم ببعضهم عن الذهاب بحق من له قبله حق ونحو ذلك، وكل ذلك دفع منه الناس بعضهم عن بعض لولا ذلك لتظالموا، فهذه القاهرون صوامع المقهورين ويبيعهم، وما سمى جل ثناؤه، ولم يضع الله تعالى دلالة في عقل، على أنه عني من ذلك بعضاً دون بعض، ولا جاء بأن ذلك كذلك خبر يجب التسليم له، فذلك على الظاهر والعموم على ما قد بينه قبل لعموم ظاهر ذلك جميع ما ذكرنا.

وقوله: «لَهْدَمَتْ صَوَامِعُ»، اختلف أهل التأويل في المعنى بالصوامع، فقال بعضهم: عني بها صوامع الرهبان.

وقال آخرون: بل هي صوامع الصابئين.

الحج: ٤٠

وأما قوله: «وَبَيْعٌ»، فإنه يعني بها: بيع النصارى.

قوله: «وَصَلَوَاتُ»، اختلف أهل التأويل في معناه، فقال بعضهم: عنى بالصلوات: الكنائس.

وقال آخرون: عنى بالصلوات مساجد الصابئين.

وقال آخرون: هي مساجد للمسلمين ولأهل الكتاب بالطرق.

وقوله: «وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا»، اختلف في المساجد التي أريدت بهذا القول، فقال بعضهم: أريد بذلك مساجد المسلمين.

وقال آخرون: عنى بقوله: «وَمَسَاجِدُ»: الصوامع والبيع والصلوات.

وأولى هذه الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: معنى ذلك: لَهْدَمْتُ صوامع الرهبان: وبيع النصارى، وصلوات اليهود، وهي كنائسهم، ومساجد المسلمين التي يُذْكَرُ فيها اسمُ الله كثيراً.

وإنما قلنا هذا القول أولى بتأويل ذلك، لأن ذلك هو المعروف في كلام العرب المستفيض فيهم، وما خالفه من القول، وإن كان له وجهٌ فغير مستعمل فيما وَجَّهَهُ إِلَيْهِ مَنْ وَجَّهَهُ إِلَيْهِ.

وقوله: «وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وَلَيَعِينَنَّ اللَّهُ مَنْ يقاتلُ في سبيله، لتكون كلمته العليا على عدوِّه، فَنَصَرَ اللَّهُ عَبْدَهُ: معونته إياه، وَنَصَرَ الْعَبْدَ رَبَّهُ: جهاده في سبيله لتكون كلمته العليا.

وقوله: «إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَلَى نَصْرِ مَنْ جاهد في سبيله من أهل ولايته وطاعته، عزيز في مُلكه، يقول: منيع في سلطانه، لا يقهره قاهر، ولا يغلبه غالب.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ : يقول تعالى ذِكْرُهُ : «أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا»، «الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ»، «وَالَّذِينَ ههنا رُدُّ عَلَى الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ. ويعني بقوله: «إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ»: إِنْ وَطَّنَّا لَهُمْ فِي الْبِلَادِ. فقهرُوا الْمُشْرِكِينَ، وَغَلِبُوهُمْ عَلَيْهَا، وَهُمْ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: إِنْ نَصَرْنَاهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ، وَقَهَرُوا مُشْرِكِي مَكَّةَ، أَطَاعُوا اللَّهَ، فَأَقَامُوا الصَّلَاةَ بِحُدُودِهَا، وَآتَوُا الزَّكَاةَ: يَقُولُ: وَأَعْطَوُا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ مَنْ جَعَلَهَا اللَّهُ لَهُ، «وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ»، يَقُولُ: وَدَعَا النَّاسَ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ، وَالْعَمَلِ بِطَاعَتِهِ وَمَا يَعْرِفُهُ أَهْلُ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ، «وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ»، يَقُولُ: وَنَهَوْا عَنِ الشَّرِكِ بِاللَّهِ، وَالْعَمَلِ بِمَعَاصِيهِ، الَّذِي يَنْكَرُهُ أَهْلُ الْحَقِّ وَالْإِيمَانِ بِاللَّهِ. «وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ»، يَقُولُ: وَلِلَّهِ آخِرُ أُمُورِ الْخَلْقِ، يَعْنِي: أَنَّ إِلَيْهِ مُصِيرُهَا فِي الثَّوَابِ عَلَيْهَا، وَالْعِقَابِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْنَا لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْنَاهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرٌ ﴿٤٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ مُسَلِّيًا نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ عما يناله من أذى الْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ، وَحَاسِمًا لَهُ عَلَى الصَّبْرِ عَلَى مَا يَلْحَقُهُ مِنْهُمْ مِنَ السَّبِّ وَالتَّكْذِيبِ: وَإِنْ يُكَذِّبُكَ يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ الشُّرَكَاءُ بِاللَّهِ عَلَى مَا أُتَيْتُمْ بِهِ مِنَ الْحَقِّ وَالْبِرْهَانِ، وَمَا تَعِدُّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ عَلَى كُفْرِهِمْ بِاللَّهِ، فَذَلِكَ سُنَّةُ إِخْوَانِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ

المكذِّبة رُسُلَ الله، المشركِ بالله، ومنهاجهم من قبلهم، فلا يصدنك ذلك، فإنَّ العذابَ المهين من ورائهم، ونصري إياك، واتباعك عليهم آتيهم من وراء ذلك، كما أتى عذابي على أسلافهم من الأمم الذين من قبلهم بعد الإمهال إلى بلوغ الأجال، فقد كذبت قبلهم: يعني مشركي قريش، قوم نوح، وقوم عاد وثمود، وقوم إبراهيم، وقوم لوط، وأصحاب مدين، وهم قوم شعيب، يقول: كَذَّبَ كُلُّ هَؤُلَاءِ رُسُلَهُمْ، وكُذِّبَ موسى، فقيل: وكُذِّبَ موسى، ولم يقل: وقوم موسى، لأنَّ قومَ موسى بنو إسرائيل، وكانت قد استجابت له ولم تكذِّبه، وإنما كذَّبَهُ فرعونُ وقومه من القبط. وقد قيل: إنما قيل ذلك كذلك لأنه وُلِدَ فيهم، كما ولد في أهل مكة.

وقوله: «فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ»، يقول: فأمهلتُ لأهل الكُفْرِ بالله من هذه الأمم، فلم أعاجلهم بالنقمة والعذاب، «ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ»، يقول: ثم أحللتُ بهم العقابَ بعد الإملاء، «فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ»، يقول: فانظر يا محمدُ كيف كان تغييرِي ما كان بهم من نعمةٍ، وتنكري لهم عما كنتُ عليه من الإحسانِ إليهم، ألم أبدلهم بالكثرة قِلَّةً، وبالحياة موتاً وهلاكاً، وبالعمارَةَ خراباً؟ يقول: فكذلك فعلي بمكذِّبِك من قريش، وإنَّ أمليتُ لهم إلى آجالهم، فإني مُنَجِّزُكَ وَعُدي فيهم، كما أنجزتُ غيرَكَ من رُسُلي وعُدي في أممهم، فأهلكناهم، وأنجيتهم من بين أظهرهم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرِئُ مَعْطَلَةٍ وَقَصْرِ مَشِيدٍ ﴿٤٥﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: وكم يا محمدُ من قريةٍ أهلكْتُ أهلها وهم ظالمون، يقول: وهم يعبدون غيرَ من ينبغي أن يُعبدَ، ويعصون مَنْ لا ينبغي لهم أن يعصوه.

وقوله: «فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا»، يقول: فباد أهلها وخلت، وخوت من سكانها فخربت وتداعت، وتساقطت على عروشها، يعني على بنائها وسقوفها.

وقوله: «وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ»، يقول تعالى: فكأين من قرية أهلكناها، ومن بئر عطَّلناها بإفناء أهلها، وهلاك واديها، فاندفنت وتعطلت، فلا واردة لها ولا شاربة منها (و) من «قَصْرِ مَشِيدٍ» رفيع بالصخور والجص، قد خلا من سُكَّانِهِ، بما أذقنا أهلَهُ من عذابنا بسوءِ فعالهم، فبادوا، وبقي قصورهم المشيدة خالية منهم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾

يقول تعالى ذكره: أفلم يسيروا هؤلاء المكذبون بآيات الله، والجاحدون قُدْرَتَهُ فِي الْبِلَادِ، فينظروا إلى مصارع ضربائهم من مُكْذِبِي رُسُلِ اللَّهِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ، كعَادٍ وَثَمُودَ، وقوم لوط وشعيب، وأوطانهم ومساكنهم، فيتفكروا فيها ويعتبروا بها ويعلموا بتدبرهم أمرها وأمر أهلها، سُنَّةَ اللَّهِ فِيمَنْ كَفَرَ وَعَبَدَ غَيْرَهُ، وَكَذَّبَ رُسُلَهُ فَيَنْبِئُوا مِنْ عُتُوِّهِمْ وَكُفْرِهِمْ وَيَكُونُ لَهُمْ إِذَا تَدَبَّرُوا ذَلِكَ وَاعْتَبَرُوا بِهِ وَأَنَابُوا إِلَى الْحَقِّ «قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا» حُجَجَ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ وَقُدْرَتِهِ عَلَى مَا بَيْنَا، «أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا»، يقول: أو آذان تصغي لسماع الحق فتعي ذلك، وتميز بينه وبين الباطل.

وقوله: «فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ»، يقول: فإنها لا تعمي أبصارهم أن يبصروا بها الأشخاص ويروها، بل يبصرون ذلك بأبصارهم، ولكن تعمي

الحج: ٤٧

قلوبهم التي في صدورهم عن أنصار الحق ومعرفته.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ويستعجلونك يا محمد مشركو قومك بما تعدُّهم من عذاب الله على شركهم به، وتكذيبهم إياك فيما أُتيَتْهم به من عند الله في الدنيا، وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ الذي وعدك فيهم، من إحلال عذابه ونقمته بهم في عاجل الدنيا، ففعل ذلك، ووفى لهم بما وَعَدَهُمْ، فقتلهم يوم بدر.

واختلف أهل التأويل في اليوم الذي قال جَلَّ ثَنَاهُ: «وَأَنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ» أي يومٍ هُوَ؟ فقال بعضهم: هو من الأيام التي خلق الله فيها السموات والأرض.

وقال آخرون: بل هو من أيام الآخرة.

والقول الثاني عندي أشبه بالحق في ذلك؛ وذلك أن الله تعالى ذِكْرُهُ أخبر عن استعجال المشركين رسول الله ﷺ بالعذاب، ثم أخبر عن مبلغ قَدْرِ اليوم عنده، ثم اتبع ذلك قوله: «وَكَأَنَّ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ» فأخبر عن إِمْلَائِهِ أهل القرية الظالمة، وتركه مُعَاجِلَتَهُمْ بالعذاب، فَبَيَّنَ بذلك أنه عَنِ بقوله: «وَأَنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ» نَفْيَ الْعَجَلَةِ عن نفسه، وَوَصَفَهَا بِالْأَنَاءِ والانتظار. وإذ كان ذلك كذلك، كان تأويل الكلام: وَأَنَّ يَوْمًا من الأيام التي عند الله يوم القيامة، يوم واحد كألف سنة من عددكم، وليس ذلك عنده ببعيد، وهو عندكم بعيد، فلذلك لا يعجل بعقوبة مَنْ أَرَادَ عقوبته حتى يبلغ غاية مُدَّتِهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ ﴿٤٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وَكأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا»، يقول: أَمَلَيْتُهُمْ، وَأَخَّرْتُ عَذَابَهُمْ، وهم بالله مشركون، ولأمرِهِ مخالفون، وذلك كان ظلمهم الذي وصفَهُمُ اللهُ به جَلَّ ثَنَاؤُهُ، فلم أَعْجَلْ بعذابهم، ثُمَّ أَخَذْتُهَا، يقول: ثُمَّ أَخَذْتُهَا بِالْعَذَابِ، فَعَذَّبْتُهَا فِي الدُّنْيَا بِإِحْلَالِ عَقُوبَتِنَا بِهِمْ، «وَإِلَى الْمَصِيرِ»، يقول: وَإِلَى مَصِيرِهِمْ أَيْضاً بَعْدَ هَلَاكِهِمْ، فَيَلْقَوْنَ مِنَ الْعَذَابِ حِينَئِذٍ مَا لَا انْقِطَاعَ لَهُ؛ يقول تعالى ذِكْرُهُ: فَكَذَلِكَ حَالُ مُسْتَعْجِلِكَ بِالْعَذَابِ مِنْ مُشْرِكِي قَوْمِكَ، وَإِنْ أَمَلَيْتُ لَهُمْ إِلَى آجَالِهِمْ الَّتِي أَجَلْتُهَا لَهُمْ، فَإِنِّي آخِذُهُمْ بِالْعَذَابِ، فَقَاتِلُهُمْ بِالسَّيْفِ، ثُمَّ إِلَيَّ مَصِيرُهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فَمَوْجِعُهُمْ إِذَنْ عَقُوبَةٌ عَلَى مَا قَدَّمُوا مِنْ آثَامِهِمْ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ يَتَّبِعُوا النَّاسَ إِنَّمَا أَنَا كُنْزٌ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٤٩﴾
فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِمُشْرِكِي قَوْمِكَ الَّذِينَ يَجَادِلُونَكَ فِي اللَّهِ بَغِيرِ عِلْمٍ، اتِّبَاعاً مِنْهُمْ لِكُلِّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ، «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ» أَنْذِرْكُمْ عِقَابَ اللَّهِ أَنْ يَنْزَلَ بِكُمْ فِي الدُّنْيَا، وَعَذَابُهُ فِي الْآخِرَةِ أَنْ تَصْلَوْهُ، «مُبِينٌ»، يقول: أُبَيِّنُ لَكُمْ إِنْذَارِي ذَلِكَ وَأُظْهِرُهُ، لَتَنبِيؤِ مِنْ شُرُكِكُمْ، وَتَحَذَرُوا مَا أَنْذَرَكُمْ مِنْ ذَلِكَ، لَا أَمْلِكُ لَكُمْ غَيْرَ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَعْجِيلُ الْعِقَابِ وَتَأْخِيرُهُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَنِي بِهِ، فَإِلَى اللَّهِ لَيْسَ ذَلِكَ إِلَيَّ، وَلَا أَقْدِرُ عَلَيْهِ؛ ثُمَّ وَصَفَ نَذَارَتَهُ وَبِشَارَتَهُ، وَلَمْ يَجْرِ لِلْبِشَارَةِ ذِكْرٌ، وَلَمَّا ذُكِرَتِ النَّذَارَةُ عَلَى عَمَلٍ

عَلِمَ أَنَّ الْبَشَارَةَ عَلَى خِلَافِهِ، فَقَالَ: وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَمِنْ غَيْرِكُمْ «لَهُمْ مَغْفِرَةٌ»، يَقُولُ: لَهُمْ مِنْ اللَّهِ سِتْرٌ ذُنُوبِهِمُ الَّتِي سَلَفَتْ مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ، «وَرِزْقٌ كَرِيمٌ»، يَقُولُ: وَرِزْقٌ حَسَنٌ فِي الْجَنَّةِ.

وقوله: «وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ»، يَقُولُ: وَالَّذِينَ عَمِلُوا فِي حُجَجِنَا فَصَدُّوا عَنْ اتِّبَاعِ رَسُولِنَا، وَالْإِقْرَارِ بِكِتَابِنَا الَّذِي أَنْزَلْنَاهُ. واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: «مُعَاجِزِينَ» فقال بعضهم: معناه: مُشَاقِّقِينَ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أنهم ظنوا أنهم يُعْجِزُونَ اللَّهَ فَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهِمْ.

وهذان الوجهان من التأويل في ذلك على قراءة مَنْ قرأه «في آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ» بِالْأَلْفِ، وَهِيَ قِرَاءَةُ عَامَّةِ قِرَاءَةِ الْمَدِينَةِ وَالْكُوفَةِ. وَأَمَّا بَعْضُ قِرَاءَةِ أَهْلِ مَكَّةَ وَالْبَصْرَةِ، فَإِنَّهُ قَرَأَهُ «مُعْجِزِينَ» بِتَشْدِيدِ الْجِيمِ بِغَيْرِ أَلْفٍ، بِمَعْنَى أَنَّهُمْ عَجَزُوا النَّاسَ، وَتَبَطَّوْهُمْ عَنْ اتِّبَاعِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ.

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إنهما قراءتان مشهورتان، قد قرأ بكل واحدٍ منهما علماء من القُرْأَةِ مُتْقَارِبَتَا الْمَعْنَى، وَذَلِكَ أَنَّ مَنْ عَجَزَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ، فَقَدْ عَاجَزَ اللَّهَ، وَمَنْ مَعَاجَزَهُ اللَّهُ التَّعْجِيزُ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ، وَالْعَمَلُ بِمَعَاصِيهِ وَخِلَافَ أَمْرِهِ، وَكَانَ مِنْ صِفَةِ الْقَوْمِ الَّذِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَاتِ فِيهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا يُبْطِئُونَ النَّاسَ عَنِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ، وَاتِّبَاعِ رَسُولِهِ، وَيُغَالِبُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُعْجِزُونَهُ وَيُغْلِبُونَهُ، وَقَدْ ضَمِنَ اللَّهُ لَهُ نَصْرَهُ عَلَيْهِمْ، فَكَانَ ذَلِكَ مَعَاجِزَتَهُمْ اللَّهَ. فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ. فَبَآئِي الْقَرَاءَتَيْنِ قَرَأَ الْقَارِئُ فَمَصِيبُ الصَّوَابِ فِي ذَلِكَ.

الحج: ٥١-٥٢

وأما المعاجزة فإنها المفاعلة من العجز، ومعناه: مغالبة اثنين، أحدهما صاحبه أيهما يعجزه فيغلبه الآخر ويقهره.

وأما التعجيز: فإنه التضعيف وهو التفعيل من العجز.

وقوله: «أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ»، يقول: هؤلاء الذين هذه صفتهم هم سكان جهنم يوم القيامة، وأهلها الذين هم أهلها.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾

قيل: إنَّ السببَ الذي من أجله أنزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ، أنَّ الشيطانَ كان ألقى على لسانه في بعض ما يتلوهُ مما أنزل الله عليه من القرآن ما لم يُنزلهُ الله عليه، فاشتدَّ ذلك على رسول الله ﷺ، وأغتمَّ به، فسأله الله مما به من ذلك بهذه الآيات.

وتأويل الكلام: وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ ولا نبيٍّ إلا إذا تلا كتاب الله، وقرأ، أو حَدَّثَ وتكلم، ألقى الشيطانُ في كتابِ الله الذي تلاهُ وقرأه، أو في حديثه الذي حَدَّثَ وتكلم «فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ»، يقول تعالى: فَيَذْهَبُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ من ذلك على لسانِ نبيه ويُبْطِلُهُ.

وقوله: «ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ»، يقول: ثم يخلص الله آياتِ كتابه من الباطل الذي ألقى الشيطان على لسانِ نبيه، «وَاللَّهُ عَلِيمٌ» بما يحدث في خلقه من حدث لا يخفى عليه منه شيء «حَكِيمٌ» في تدبيره إياهم، وصرفه لهم فيما شاء وأحبَّ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ : فينسخُ الله ما يلقي الشيطان ، ثم يُحْكِمُ الله آيَاتِهِ ، كي يجعلَ ما يلقي الشيطانُ في أُمْنِيَةِ نَبِيِّهِ مِنَ الْبَاطِلِ ، يقولُ : اختِباراً يَخْتَبِرُ به الذين في قلوبهم مَرَضٌ مِنَ النِّفَاقِ ، وذلك الشكُّ في صِدْقِ رَسولِ اللَّهِ ﷺ وَحَقِيقَةٍ ما يُخْبِرُهُمْ به .

وقوله : «وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ» ، يقولُ : وللذين قَسَتْ قُلُوبُهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ فَلَا تَلِينَ وَلَا تَرْعَوِي وَهُمْ الْمُشْرِكُونَ بِاللَّهِ .

وقوله : «وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ» ، يقول تعالى ذِكْرُهُ : وَإِنَّ مُشْرِكِي قَوْمِكَ يَا مُحَمَّدُ لَفِي خِلَافٍ لِلَّهِ فِي أَمْرِ بَعِيدٍ مِنَ الْحَقِّ .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ : وكي يعلمَ أهلُ العلمِ بالله أن الذي أنزله الله من آيَاتِهِ الَّتِي أَحْكَمَهَا لِرَسُولِهِ ، وَنَسَخَ مَا أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِيهِ ، أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِ رَبِّكَ يَا مُحَمَّدُ ، فَيُؤْمِنُوا بِهِ ، يقولُ : فَيُصَدِّقُوا بِهِ ، «فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ» ، يقول تعالى ذِكْرُهُ : فَتُخَضِّعُ لِلْقُرْآنِ قُلُوبُهُمْ ، وَتُذَعِّنُ بِالتَّصْدِيقِ بِهِ وَالْإِقْرَارِ بِمَا فِيهِ . «وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» ، وَإِنَّ اللَّهَ لِمُرْشِدُ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الْحَقِّ الْقَاصِدِ ، وَالْحَقُّ الْوَاضِحُ بِنَسْخِ مَا أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَةِ رَسُولِهِ ، فَلَا يَضُرُّهُمْ كَيْدُ الشَّيْطَانِ ، وَالْقَاوَةُ الْبَاطِلَ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِمْ .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مَرِيَّةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ فِي شَكٍّ، والهَاءُ الَّتِي فِي قَوْلِهِ «مِنْهُ» مِنْ ذِكْرِ الْقُرْآنِ الَّذِي أَحْكَمَ اللَّهُ آيَاتِهِ.

وقوله: «حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ»، يَقُولُ: لَا يَزَالُ هَؤُلَاءِ الْكَافِرُ فِي شَكٍّ مِنْ أَمْرِ هَذَا الْقُرْآنِ إِلَى أَنْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ «بَغْتَةً» وَهِيَ سَاعَةٌ حَشَرَ النَّاسَ لِمَوْقِفِ الْحِسَابِ. بَغْتَةً، يَقُولُ: فَجَاءَةً، «أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ».

وَاخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي هَذَا الْيَوْمِ أَيَّ يَوْمٍ هُوَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ.

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ عَنَى بِهِ يَوْمَ بَدْرٍ، وَقَالُوا: إِنَّمَا قِيلَ لَهُ يَوْمٌ عَقِيمٌ، أَنَّهُمْ لَمْ يَنْظُرُوا إِلَى اللَّيْلِ، فَكَانَ لَهُمْ عَقِيمًا.

وَهَذَا الْقَوْلُ الثَّانِي أَوْلَى بِتَأْوِيلِ الْآيَةِ، لِأَنَّهُ لَا وَجْهَ لِأَنْ يَقَالَ: لَا يَزَالُونَ فِي مَرِيَّةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً، أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ؛ وَذَلِكَ أَنَّ السَّاعَةَ هِيَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، فَإِنْ كَانَ الْيَوْمُ الْعَقِيمُ أَيْضًا هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، فَإِنَّمَا مَعْنَاهُ مَا قُلْنَا مِنْ تَكْرِيرِ ذِكْرِ السَّاعَةِ مَرَّتَيْنِ بِاخْتِلَافِ الْأَلْفَاظِ، وَذَلِكَ مَا لَا مَعْنَى لَهُ. فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، فَأَوْلَى التَّأْوِيلَيْنِ بِهِ أَصْحَهُمَا مَعْنَى وَأَشْبَهُهُمَا بِالْمَعْرُوفِ فِي الْخَطَابِ وَهُوَ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ مَعْنَاهُ.

فَتَأْوِيلُ الْكَلَامِ إِذَنْ: وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مَرِيَّةٍ مِنْهُ، حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً، فَيَصِيرُوا إِلَى الْعَذَابِ الدَّائِمِ، أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ لَهُمْ، فَلَا يُنْظَرُ فِيهِ إِلَى اللَّيْلِ، وَلَا يُؤَخَّرُوا فِيهِ إِلَى الْمَسَاءِ، لَكِنَّهُمْ يُقْتَلُونَ قَبْلَ الْمَسَاءِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ يَخْكُمُ بَيْنَهُمْ**
فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا**
وَكَذَّبُوا بآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٥٧﴾

يقول تعالى ذكره: السُّلْطَانُ وَالْمَلِكُ إذا جاءت الساعةُ لله وحده لا شريك له ولا ينازعه يومئذٍ منازعٌ وقد كان في الدنيا ملوكٌ يُدْعَوْنَ بهذا الاسمِ ولا أحدٌ يومئذٍ يُدْعَى ملكاً سواه. «يُحْكُمُ بَيْنَهُمْ»، يقول: يفصل بين خلقه المشركين به والمؤمنين؛ فالذين آمنوا بهذا القرآن، وبِمَنْ أَنْزَلَهُ، وَمَنْ جَاءَ بِهِ، وعملوا بما فيه من حلاله وحرامه، وحدوده وفرائضه في جناتِ النعيمِ يومئذٍ، والذين كفروا بالله ورسوله، وكذبوا بآياتِ كتابه وتنزيله، وقالوا: ليس ذلك من عند الله، إنما هو إفكٌ افتراه محمدٌ، وأعانهُ عليه قوم آخرون، «فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ»، يقول: فالذين هذه صِفَتُهُمْ لهم عند الله يومَ القيامةِ عَذَابٌ مُهِينٌ، يعني عَذَابٌ مُذِلٌّ في جهنم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ**
قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ
الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾

يقول تعالى ذكره: والذين فارقوا أوطانهم وعشائرهم، فتركوا ذلك في رضا الله وطاعته، وجهاد أعدائه ثم قتلوا أو ماتوا وهم كذلك، ليرزقنَّهُمُ الله يومَ القيامةِ في جناتِهِ رِزْقًا حَسَنًا، يعني بالحسن: الكريم، وإنما يعني بالرزق الحسن: الثواب الجزيل. «وَأَنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ»، يقول: وإنَّ الله لهو خيرٌ مَنْ بَسَطَ فَضْلَهُ عَلَى أَهْلِ طَاعَتِهِ وأكرمهم.

وَذَكَرَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ اختلفوا في حُكْمِ مَنْ مَاتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فقال بعضهم: سواء المقتول منهم والميت.

الحج: ٥٨-٦١

وقال آخرون: المقتول أفضل، فأنزل الله هذه الآية على نبيه ﷺ، يعلمهم استواء أمر الميت في سبيله، والمقتول فيها في الثواب عنده.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لِيَدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٨﴾

يقول تعالى ذكره: ليدخلن الله المقتول في سبيله من المهاجرين والميت منهم «مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ»، وذلك المُدْخَلُ هو الجنة، «وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ» بمن يهاجر في سبيله ممن يخرج من داره طَلَبَ الْغَنِيمَةِ، أو عَرَضٍ من عروض الدنيا. «حَلِيمٌ» عن عَصَاةِ خَلْقِهِ، بتركه مُعَاجَلَتَهُم بِالْعُقُوبَةِ والعذاب.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ، ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ﴿٥٩﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «ذلك»: لهذا، لهؤلاء الذين هاجروا في سبيل الله، ثم قُتِلُوا أو ماتوا، ولهم مع ذلك أيضاً، أَنَّ اللَّهَ يَعِدُهُم النَّصْرَ على المشركين الذين بَغَوْا عليهم فأخرجوهم من ديارهم.

وقوله: «إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ»، يقول تعالى ذكره: إِنَّ اللَّهَ لَذُو عَفْوٍ وصفح لمن انتصر مِمَّنْ ظَلَمَهُ من بعد ما ظلمه الظالم بحقٍّ، غفور لما فعل بيادته بالظلم، مثل الذي فعل به غير مُعَاقِبِهِ عليه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ يُؤَلِّجُ الْيَلَّ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي الْيَلِّ، وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦٠﴾

يعني تعالى ذكّره بقوله: «ذلك»: هذا النصر الذي أنصره على مَنْ بغى عليه على الباغي، لأنني القادر على ما أشاء، فمن قُدْرَتِهِ أَنَّ الله يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ، يقول: يدخل ما ينقص من ساعات الليل في ساعات النهار، فما نقص من هذا زاد في هذا، «وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ» ويدخل ما انتقص من ساعات النهار في ساعات الليل، فما نقص من طول هذا، زاد في طول هذا، وبالقدرة التي تفعل ذلك ينصر محمداً ﷺ وأصحابه على الذين بغوا عليهم فأخرجوهم من ديارهم وأموالهم، «وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ» يقول: وفعل ذلك أيضاً بأنه ذو سمعٍ لما يقولون من قول: لا يَخْفَى عليه منه شيءٌ، بصير بما يعملون، لا يغيب عنه منه شيءٌ، كل ذلك منه بمرأى ومسمع، وهو الحافظ لكل ذلك، حتى يجازي جميعهم على ما قالوا وعملوا من قولٍ وعملٍ جزاءه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦١﴾

يعني تعالى ذكّره بقوله: «ذلك»، هذا الفعل الذي فعلت من إيلاجي الليل في النهار، وإيلاجي النهار في الليل، لأنني أنا الحق الذي لا مثل لي ولا شريك ولا ند، وأن الذي يدعوه هؤلاء المشركون إلهاً من دونه، هو الباطل الذي لا يقدر على صنعة شيء، بل هو المصنوع، يقول لهم تعالى ذكّره: أفتركون أيها الجُهَّالُ عِبَادَةَ مَنْ مِنْهُ النِّفْعُ وَبِيَدِهِ الضَّرُّ، وهو القادر على كل شيء، وكل شيءٍ دونه، وتعبدون الباطل الذي لا تنفعكم عبادته.

وقوله: «وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ»، يعني بقوله: «العلي»: ذو العلو على كل شيء، هو فوق كل شيء، وكل شيءٍ دون، «الْكَبِيرُ»، يعني: العظيم. الذي كُلُّ شيءٍ دونه، ولا شيء أعظم منه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «أَلَمْ تَرَ» يا محمد، «أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً»،
يعني مطراً «فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً» بما ينبت فيها من النبات، «إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ»
بإستخراج النبات من الأرض بذلك الماء وغير ذلك من ابتداع ما شاء أَنْ
يبتدعه «خَبِيرٌ» بما يحدث عن ذلك النبت من الحب.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ
اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: لَهُ مُلْكُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ
هُمْ عبيدُهُ وَمَمَالِيكُهُ وَخَلْقُهُ، لَا شَرِيكَ لَهُ فِي ذَلِكَ، وَلَا فِي شَيْءٍ مِنْهُ، وَإِنَّ اللَّهَ
هُوَ الْغَنِيُّ عَنْ كُلِّ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ خَلْقِهِ وَهُمْ الْمُحْتَاجُونَ
إِلَيْهِ، الْحَمِيدُ عِنْدَ عِبَادِهِ فِي إِفْضَالِهِ عَلَيْهِمْ وَأَيَادِيهِ عَنْدهُمْ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ
وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا
بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ مَا فِي الْأَرْضِ
مِنَ الدَّوَابِّ وَالْبَهَائِمِ، فَذَلِكَ كُلُّهُ لَكُمْ، تصرفونه فيما أردتم من حوائجكم
«وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ»، يقول: وسخر لكم السفن تجري في البحر
بأمره، يعني بقدرته، وتذليله إياها لكم كذلك.

«وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ»، يقول: ويمسك السماء بقدرته، كي لا تقع على الأرض إلا بإذنه. ومعنى قوله: «أَنْ تَقَعَ»: أن لا تقع. «إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّوُفٌ رَحِيمٌ»، بمعنى: إنه بهم لدورأفة ورحمة، فمن رأفته بهم ورحمته لهم أمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، وسخر لكم ما وصف في هذه الآية تفضلاً منه عليكم بذلك.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ وَاذْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾

يقول تعالى ذكره: والله الذي أنعم عليكم هذه النعم، هو الذي جعل لكم أجساماً أحياء بحياة أحدثها فيكم، ولم تكونوا شيئاً، ثم هو يُميتكم من بعد حياتكم، فيفنيكم عند مجيء آجالكم، ثم يحييكم بعد مماتكم عند بعثكم لقيام الساعة. «إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ»، يقول: إِنَّ ابْنَ آدَمَ لَجَحُودٌ لِنِعْمِ اللَّهِ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَيْهِ مِنْ حُسْنِ خَلْقِهِ إِيَّاهُ، وتسخير له ما سخر مما في الأرض والبر والبحر، وتركه إهلاكه بإمساكه السماء أن تقع على الأرض بعبادته غيره من الآلهة والأنداد، وتركه إفراذه بالعبادة، وإخلاص التوحيد له.

وقوله: «لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا»، يقول: لكل جماعة قوم هي خلقت من قبلك، جعلنا مألفاً يالْفُونَهُ، ومكاناً يعتادونه، لعبادتي فيه، وقضاء فرائضي، وعملاً يلزمونه، وأصل المنسك في كلام العرب الموضع المعتاد الذي يعتاده الرجل ويألفه، لخير أو شر؛ يقال: إِنَّ لِفُلَانٍ مَنْسَكًا يَعْتَادُهُ، يُرَادُ: مكاناً يغشاه ويألفه لخير أو شر. وإنما سُمِّيَتْ مناسك الحج بذلك، لتردد الناس إلى الأماكن التي تعمل فيها أعمال الحج والعمرة، وفيه لغتان: (مَنْسِك) بكسر

السين وفتح الميم، وذلك من لغة أهل الحجاز، و(مَسَك) بفتح الميم والسين جميعاً، وذلك من لغة أسد، وقد قرئ باللغتين جميعاً.

وقد اختلف أهل التأويل في المعنى بقوله: «لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا»: أي المناسك عني به؟ فقال بعضهم: عني به: عيدهم الذي يعتادونه.
وقال آخرون: عني به: ذبح يذبحونه، ودم يهريقونه.

والصواب من القول في ذلك أن يقال: عني بذلك إراقة الدم أيام النحر بمنى، لأن المناسك التي كان المشركون جادلوا فيها رسول الله ﷺ كانت إراقة الدم في هذه الأيام، على أنهم قد كانوا جادلوه في إراقة الدماء التي هي دماء ذبائح الأنعام بما قد أخبر الله عنهم في سورة الأنعام، غير أن تلك لم تكن مناسك، فأما التي هي مناسك، فإنما هي هدايا أو ضحايا. ولذلك قلنا: عني بالمنسك في هذا الموضع الذبح الذي هو بالصفة التي وصفنا.

وقوله: «فَلَا يُنَازِعَنَّكَ فِي الْأَمْرِ»، يقول تعالى ذكره: فلا ينازعنك هؤلاء المشركون بالله يا محمد، في ذبحك ومنسك بقولهم: أتناكلون ما قتلتم، ولا تأكلون الميتة التي قتلها الله؟ فإنك أولى بالحق منهم، لأنك مُحِقٌّ وهم مبطلون.

وقوله: «وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ»، يقول تعالى ذكره: وادع يا محمد، منازعك من المشركين بالله في نسكك وذبحك، إلى اتباع أمر ربك في ذلك بأن لا يأكلوا إلا ما ذبحوه بعد اتباعك، وبعد التصديق بما جئتهم به من عند الله، وتجنبوا الذبح للآلهة والأوثان، وتبرءوا منها، إنك لعلی طريق مستقيم غير زائل عن محجة الحق والصواب في نسكك الذي جعله لك ولأمتك ربك، وهم الضلال على قصد السبيل، لمخالفتهم أمر الله في ذبائحهم ومطاعهم وعبادتهم الآلهة.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ
 ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾

يقول تعالى ذكّره لنبهه محمد ﷺ: وَإِنْ جَادَلَكَ يَا مُحَمَّدُ، هَؤُلَاءِ
 الْمُشْرِكُونَ بِاللَّهِ فِي نَسْكَكَ، فَقُل: اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ وَنَعْمَلُ.

وقوله: «اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ»، يقول
 تعالى ذكّره: واللَّهُ يَقْضِي بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ مِنْ أَمْرِ دِينِكُمْ
 تَخْتَلِفُونَ، فتعلمون حينئذٍ أيها المشركون المُحَقَّقُ مِنَ الْمُبْطَلِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ
 وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾

يقول تعالى ذكّره: أَلَمْ تَعْلَمْ يَا مُحَمَّدُ، أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ كُلَّ مَا فِي السَّمَوَاتِ
 السَّعِ، وَالْأَرْضِينَ السَّعِ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ، وَهُوَ حَاكِمٌ بَيْنَ خَلْقِهِ
 يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى عِلْمٍ مِنْهُ بِجَمِيعِ مَا عَمَلُوهُ فِي الدُّنْيَا، فَمَجَازِي الْمُحْسِنِ مِنْهُمْ
 بِإِحْسَانِهِ، وَالْمَسِيءِ بِإِسَاءَتِهِ. «إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ»، يقول تعالى ذكّره: إِنَّ عِلْمَهُ
 بِذَلِكَ فِي كِتَابٍ وَهُوَ أُمُّ الْكِتَابِ الَّذِي كَتَبَ فِيهِ رَبُّنَا جُلَّ ثَنَاؤُهُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ
 خَلْقَهُ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، «إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ».

وقوله: «إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ»، اختلف في ذلك، فقال بعضهم:
 معناه: إِنَّ الْحُكْمَ بَيْنَ الْمُخْتَلِفِينَ فِي الدُّنْيَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى اللَّهِ يَسِيرُ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أَنَّ كِتَابَ الْقَلَمِ الَّذِي أَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ
 فِي اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ مَا هُوَ كَائِنٌ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ يَعْنِي هِينٌ. وهذا القول الثاني
 أَوْلَى بِتَأْوِيلِ ذَلِكَ وَذَلِكَ أَنَّ قَوْلَهُ: «إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ»... إِلَى قَوْلِهِ: «إِنَّ

ذَلِكَ فِي كِتَابٍ أَقْرَبَ وَهُوَ لَهُ مُجَاوِرٌ، وَمِنْ قَوْلِهِ : «اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» متباعد مع دخول قوله : «أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» بينهما، فإلحاقه بما هو أقرب أولى ما وُجِدَ للكلام، وهو كذلك مخرج في التأويل صحيح.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ : ويعبد هؤلاء المشركون بالله من دونه، ما لم يُنَزَّلْ به جَلٌّ ثَنَاءٌ لَهُمْ حُجَّةٌ مِنَ السَّمَاءِ فِي كِتَابٍ مِنْ كُتُبِهِ الَّتِي أَنْزَلَهَا إِلَى رُسُلِهِ بِأَنَّهَا آلِهَةٌ تَصْلُحُ عِبَادَتُهَا، فَيَعْبُدُونَهَا بِأَنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَهُمْ فِي عِبَادَتِهَا، وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ، أَنَّهَا آلِهَةٌ. «وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ»، يَقُولُ : وَمَا لِلْكَافِرِينَ بِاللَّهِ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ هَذِهِ الْأَوْثَانِ مِنْ نَاصِرٍ يَنْصُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَنْقُذُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَيُدْفَعُ عَنْهُمْ عِقَابَهُ إِذَا أَرَادَ عِقَابَهُمْ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ كَأَدْوَابٍ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتَلَوْنَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ بِشُرَرٍ مِنْ ذَلِكَُمْ أَلَا تَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَسَّرَ الْمَصِيرَ ﴿٧٢﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ : وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَى مُشْرِكِي قُرَيْشٍ الْعَابِدِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا «آيَاتُنَا» يَعْنِي : آيَاتِ الْقُرْآنِ «بَيِّنَاتٍ»، يَقُولُ : وَاضِحَاتٍ حُجَّجَهَا وَأَدْلَتُهَا فِيمَا أُنْزِلَتْ فِيهِ. «تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ»، يَقُولُ : تَبَيَّنَ فِي وَجُوهِهِمْ مَا يَنْكَرُهُ أَهْلُ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ مِنْ تَغْيِيرِهَا لِسَمَاعِهِمْ بِالْقُرْآنِ.

الحج: ٧٢-٧٤

وقوله: «يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا»، يقول: يكادون يسطشون بالذين يتلون عليهم آيات كتاب الله من أصحاب النبي ﷺ لشدة تكرههم أن يسمعوا القرآن يتلى عليهم.

وقوله: «قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَُمْ»، يقول: أفأنبئكم أيها المشركون بأكره إليكم من هؤلاء الذين تتكرهون قراءتهم القرآن عليكم، هي «النار» وعدّها الله الذين كفروا، وقد ذكر عن بعضهم أنه كان يقول: إن المشركين قالوا: والله إن محمداً وأصحابه لشر خلق الله، فقال الله لهم: قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ أَيُّهَا الْقَائِلُونَ هذا القول بشر، من محمد ﷺ، أنتم أيها المشركون الذين وعدهم الله النار.

وقوله: «وَبَشِّرِ الْمَصِيرُ»، يقول: وبش المكان الذي يصير إليه هؤلاء المشركون بالله يوم القيامة.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَتَأَيَّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ. وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾

يقول تعالى ذكره: يا أيها الناس جُعِلَ لله مَثَلٌ وَذِكْرٌ، ومعنى ضَرْبٌ فِي هذا الموضع: جَعَلَ، من قولهم: ضَرْبُ السُّلْطَانِ عَلَى النَّاسِ الْبَغْثُ، بمعنى: جَعَلَ عَلَيْهِمُ، وضَرْبُ الْجَزِيَّةِ عَلَى النَّصَارَى، بمعنى: جَعَلَ ذَلِكَ عَلَيْهِمُ؛ وَالْمَثَلُ: الشَّبَهُ، يقول جَلُّ ثَنَاؤُهُ: جُعِلَ لِي شَبَهٌ أَيُّهَا النَّاسُ، يعني بالشَّبهِ وَالْمَثَلُ: الْإِلَهَةِ، يقول: جَعَلَ لِي الْمَشْرُكُونَ الْأَصْنَامَ^(١) شَبَهًا، فعبدوها معي،

(١) فِي الْمَطْبُوعِ: «وَالْأَصْنَامُ» وَمَا أَثْبَتَهُ هُوَ الصَّوَابُ.

وأشركوها في عبادتي، فاستمعوا له، يقول: فاستمعوا حال ما مثّلوه، وجعلوه لي في عبادتهم إياه شبيهاً، وصفته: «إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً»، يقول: إن جميع ما تعبدون من دُونِ اللَّهِ من الآلهة والأصنام، لو جُمِعَتْ لم يخلقوا ذُبَاباً في صِغَرِهِ وَقِلَّتِهِ، لأنها لا تقدرُ على ذلك ولا تُطيقه، ولو اجتمع لخلقِه جميعها. والذبابُ واحد، وجمعه في القلة أذبة، وفي الكثير ذَبَابٌ نظير غُرَابٍ، يُجْمَعُ في القلة أغربة، وفي الكثرة غِرْبَانٌ.

وقوله: «وَأَنْ يَسْلُبَهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً»، يقول: وإن يسلب الآلهة والأوثان الذبابُ شيئاً مما عليها من طيبٍ وما أشبهه من شيءٍ لا يستنقذوه منه، يقول: لا تقدرُ الآلهة أن تستنقذ ذلك منه.

واختلفَ في معنى قوله: «ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ»، فقال بعضهم: عنى بالطالب: الآلهة، وبالمطلوب: الذباب.

وكان بعضهم يقول: معنى ذلك: «ضَعُفَ الطَّالِبُ» من بني آدم إلى الصنمِ حاجته «وَالْمَطْلُوبُ» إليه الصنمُ أن يعطي سائله من بني آدم ما سألَه يقول: ضعفَ عن ذلك وعجزَ.

والصواب من القول في ذلك عندنا أن معناه: وعجز الطالب وهو الآلهة أن تستنقذ من الذباب ما سلبها إياه، وهو الطيب وما أشبهه؛ والمطلوب: الذباب.

وإنما قلتُ هذا القولَ أولى بتأويل ذلك، لأن ذلك في سياق الخبر عن الآلهة والذباب، فإن يكون ذلك خبراً عما هو به متصل أشبه من أن يكون خبراً، عما هو عنه منقطع، وإنما أخبر جَلَّ ثَنَاؤُهُ عن الآلهة بما أخبر به عنها في هذه الآية من ضعفها ومهانتها، تقريباً منه بذلك عَبدتها من مشركي قريش، يقول تعالى ذِكْرُهُ: كَيْفَ يُجْعَلُ لِي مِثْلُ فِي الْعِبَادَةِ، وَيُشْرَكُ فِيهَا مَعِيَ مَا لَا

الحجج : ٧٤-٧٥

قدرة له على خلق ذباب، وإن أخذ له الذباب فسلبه شيئاً عليه لم يقدر أن يمتنع منه، ولا ينتصر، وأنا الخالق ما في السموات والأرض، ومالك جميع ذلك والمحيي من أردت، والمميت ما أردت ومن أردت، إن فاعل ذلك، لاشك أنه في غاية الجهل.

وقوله: «ما قدرُوا اللهَ حقَّ قدرِهِ»، يقول: ما عظم هؤلاء الذين جعلوا الآلهة لله شريكاً في العبادة حقَّ عظمتِهِ حين أشركوا به غيره. فلم يخلصوا له العبادة ولا عرفوه حقَّ معرفته من قولهم: ما عرفتُ لفلان قدره إذا خاطبوا بذلك من قصر بحقه، وهم يريدون تعظيمه.

وقوله: «إنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ»، يقول: إن الله لقويٌّ على خلق ما يشاء، من صغير ما يشاء من خلقه وكبيره «عزیز»، يقول: منيعٌ في ملكه لا يقدرُ شيءٌ دونه أن يسلبه من ملكه شيئاً، وليس كآلهتكم أيها المشركون الذين تدعون من دون الذين لا يقدرُونَ على خلق ذباب، ولا على الامتناع من الذباب، إذا استلبها شيئاً ضعفاً ومهانة.

القول في تأويل قوله تعالى: **اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ** ﴿٧٥﴾

يقول تعالى ذكره: الله يختار من الملائكة رُسُلًا كجبريل وميكائيل اللذين كانا يرسلهما إلى أنبيائه، ومن شاء من عباده ومن الناس، كأنبيائه اللذين أرسلهم إلى عباده من بني آدم. ومعنى الكلام: الله يصطفي من الملائكة رُسُلًا، ومن الناس أيضاً رُسُلًا: وقد قيل: إنما أنزلت هذه الآية لما قال المشركون: أنزل عليه الذكر من بيننا، فقال الله لهم: ذلك إليّ ويبيدي دون خلقي، اختار من شئت منهم للرسالة.

وقوله : «إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ»، يقول : إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ لما يقول المشركون في محمدٍ ﷺ ، وما جاء به من عند ربه ، بصيرٌ بمن يختاره لرسالته من خلقه .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ
وَالِإِلَهِ اللَّهُ تُرْجَعُ الْأُمُورُ

يقول تعالى ذِكْرُهُ : الله يعلم ما كان بين أيدي ملائكته ورسله ، من قبل أن يخلقهم وما خلفهم ، يقول : ويعلم ما هو كائنٌ بعد فنائهم . «وَالِإِلَهِ اللَّهُ تُرْجَعُ الْأُمُورُ»، يقول : إلى الله في الآخرة تصيرُ إليه أمورُ الدنيا ، وإليه تعودُ كما كان منه البدء .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا
وَأَسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

يقول تعالى ذِكْرُهُ : يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله «ارْكَعُوا» لله في صلاتكم «وَأَسْجُدُوا» له فيها ، «وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ» ، يقول : وذُلُّوا لربكم ، واخضعوا له بالطاعة ، «وَافْعَلُوا الْخَيْرَ» الذي أمركم ربكم بفعله ، «لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» ، يقول : لتفلحوا بذلك ، فتدركوا به طلباتكم عند ربكم .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ
أَحَبُّ إِلَيْكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَثَلَهُ أَيُّكُمْ أَنْزِلْنَاهُ هُوَ سَمَنُكُمْ
الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى
النَّاسِ

اختلف^(١) أهل التأويل في تأويل قوله: «وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ»، فقال بعضهم: معناه: وجاهدوا المشركين في سبيل الله حَقَّ جهاده.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: لا تخافوا في الله لومة لائم، قالوا: وذلك هو حَقُّ الجهاد.

وقال آخرون: معنى ذلك: اعملوا بالحق، حَقَّ عمله.

والصوابُ من القول في ذلك، قول مَنْ قال: غُني به الجهادُ في سبيل الله، لأنَّ المعروف من الجهاد ذلك، وهو الأغلبُ على قولِ القائل: جاهدتُ في الله. وحَقُّ الجهاد: هو استفراغُ الطاقةِ فيه.

وقوله: «هُوَ اجْتَبَاكُمْ»، يقول: هو اختاركم لدينه، واصطفاكم لحربِ أعدائه، والجهادِ في سبيله.

وقوله: «وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ»، يقول تعالى ذِكْرَهُ: وما جعل عليكم رَبُّكم في الدين الذي تَعَبَّدُكُمْ به من ضيقٍ، لا مخرجَ لكم مما ابتليتُم به فيه، بل وَسَّعَ عليكم، فجعلَ التوبةَ من بعضٍ مخرجاً، والكفارةَ من بعض، والقصاصَ من بعض، فلا ذنبَ يذنبُ المؤمنُ إلا وله منه في دينِ الإسلامِ مخرجٌ.

وقوله: «مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ» نَصَبَ ملةً بمعنى: وما جعلَ عليكم في الدين من حرج، بل وَسَّعَهُ، كمِلَّةِ أبيكم، فلما لم يجعلَ فيها الكاف اتصَلت بالفعل الذي قبلها فنصبت، وقد يحتمل نصبها أن تكونَ على وجهِ الأمرِ بها، لأنَّ الكلامَ قَبْلَهُ أمرٌ، فكانه قيل: اركعوا واسجدوا، وَالزَّمُوا مِلَّةَ أَبِيكم إِبْرَاهِيمَ.

وقوله: «هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا»، يقول تعالى ذِكْرَهُ: سماكم يا معشرَ مَنْ آمَنَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ المسلمينَ مِنْ قَبْلُ.

(١) في المطبوع: «واختلف» وحذف الواو أليق.

وأما قوله: «مِنْ قَبْلُ»، فإن معناه: من قبل نزول هذا القرآن في الكتب التي نزلت قبله، «وفي هذا»، يقول: وفي هذا الكتاب.

وقوله: «لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ، وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ»، يقول تعالى ذِكْرَهُ: اجتباكم الله وسَمَّاكم أيها المؤمنون بالله وآياته من أمة محمد ﷺ مسلمين، ليكون محمد رسول الله شهيداً عليكم يوم القيامة، بأنه قد بلغكم ما أرسل به إليكم، وتكونوا أنتم شهداء حينئذ على الرسل أجمعين، أنهم قد بلغوا أممهم ما أرسلوا به إليهم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَأَقِمُْوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ
وَأَعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

يعني تعالى ذِكْرَهُ بقوله: «فَأَقِمُْوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ»، يقول: فأدوا الصلاة المفروضة لله عليكم بحدودها، وآتوا الزكاة الواجبة عليكم في أموالكم. «وَأَعْتَصِمُوا بِاللَّهِ»، يقول: وثقوا بالله، وتوكلوا عليه في أموركم، «فَنِعْمَ الْمَوْلَى»، يقول: فنعم الوليُّ الله لمن فعل ذلكم منكم، فأقام الصلاة، وآتى الزكاة، وجاهد في سبيل الله حقَّ جهاده، واعتصم به، «وَنِعْمَ النَّصِيرُ»، يقول: ونعم الناصر هو له على من بغاه بسوء.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾

يعني جَلَّ ثَنَاؤُهُ بقوله: «قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ»: قد أدرك الذين صدَّقوا الله ورسوله محمداً ﷺ، وأقروا بما جاءهم به من عند الله، وعملوا بما دعاهم إليه مما سَمَّى في هذه الآياتِ الخلودَ في جنَّاتِ رَبِّهِمْ، وفازوا بطلبتهم لديه^(١).

وقوله: «الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: الذين هم في صلاتهم إذا قاموا فيها خاشعون، وخشوعهم فيها تَذَلُّلهم لله فيها بطاعته، وقيامهم فيها بما أمرهم بالقيام به فيها. وقيل: إنها نزلت من أجل أنَّ القوم كانوا يرفعون أبصارهم فيها إلى السماء قبل نزولها، فنُهِوا بهذه الآية عن ذلك.

واختلف أهل التأويل في الذي عني به في هذا الموضع من الخشوع، فقال بعضهم: عني به: سكون الأطراف في الصلاة.

وقال آخرون: عني به الخوف في هذا الموضع.

وقد بينا فيما مضى قَبْلُ من كتابنا، أنَّ الخشوع: التذلل والخضوع بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع^(٢). وإذ كان ذلك كذلك، ولم يكن الله تعالى

(١) قال الزجاج: أي قد نالوا البقاء الدائم في الخير (معاني القرآن: ٥/٤).

(٢) وانظر معاني القرآن للزجاج: ٦/٤

المؤمنون : ٣-٧

ذَكَرَهُ دَلَّ عَلَى أَنَّ مَرَادَهُ مِنْ ذَلِكَ مَعْنَى دُونَ مَعْنَى فِي عَقْلِ وَلَا خَبَرٍ، كَانَ مَعْلُومًا أَنَّ مَعْنَى مَرَادَهُ مِنْ ذَلِكَ الْعَمُومَ. وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، فَتَأْوِيلُ الْكَلَامِ مَا وَصَفْتُ مِنْ قَبْلُ، مِنْ أَنَّهُ: وَالَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ مُتَذَلِّلُونَ لِلَّهِ بِإِدَامَةٍ مَا أَلْزَمَهُمْ مِنْ فَرِيضَةٍ وَعِبَادَتِهِ، وَإِذَا تَذَلَّلَ اللَّهُ فِيهَا الْعَبْدُ رُئِيتَ ذُلُّهُ خُضُوعِهِ فِي سَكُونِ أَطْرَافِهِ، وَشُغْلِهِ بِفَرِيضِهِ، وَتَرْكِهِ مَا أَمَرَ بِتَرْكِهِ فِيهَا.

وقوله: «وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ»، يقول تعالى ذِكْرَهُ: وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ الْبَاطِلِ، وَمَا يَكْرَهُهُ اللَّهُ مِنْ خَلْقِهِ مُعْرِضُونَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٧﴾ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٨﴾ فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٩﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: وَالَّذِينَ هُمْ لَزَكَاةٍ أَمْوَالِهِمُ الَّتِي فَرَضَهَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِيهَا مُؤَدُّونَ، وَفِعْلُهُمُ الَّذِي وَصِفُوا بِهِ هُوَ أَدَاؤُهُمْوَهَا.

وقوله: «وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ. إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ»، يقول: وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِ أَنْفُسِهِمْ، وَعَنَى بِالْفُرُوجِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ: فُرُوجَ الرِّجَالِ، وَذَلِكَ أَقْبَالُهُمْ، حَافِظُونَ: يَحْفَظُونَهَا مِنْ أَعْمَالِهَا فِي شَيْءٍ مِنَ الْفُرُوجِ.

«إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ»، يقول: إِلَّا مِنْ أَزْوَاجِهِمُ اللَّاتِي أَحْلَاهُنَّ اللَّهُ لِلرِّجَالِ بِالنِّكَاحِ، «أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ»، يَعْنِي بِذَلِكَ: إِمَاءُهُمْ. وَ«مَا» الَّتِي فِي قَوْلِهِ: «أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ» فِي ^(١) مَحَلِّ خَفْضٍ ^(٢)، عَطْفًا عَلَى الْأَزْوَاجِ. «فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ»، يَقُولُ: فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَحْفَظْ فَرْجَهُ عَنْ زَوْجِهِ وَمِلْكِ يَمِينِهِ، وَحَفَظَهُ عَنْ

(١) ليست في المطبوعة.

(٢) أنظر معاني القرآن للفراء: ٢٣١/٢.

المؤمنون: ٧-١١

غيره من الخلق، فإنه غير مُؤَيَّخٍ على ذلك، ولا مذموم، ولا هو بفعله ذلك راکب ذنباً يُلامُّ عليه.

وقوله: «فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ»، يقول: فمن التمس لفرجه منكحاً سوى زوجته ومِلكِ يمينه، «فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ»، يقول: فهم العادون حدود الله، المجاوزون ما أحلَّ الله لهم إلى ما حَرَّمَ عليهم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿١٢﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَتِهِمْ» التي ائْتَمِنُوا عليها «وَعَهْدِهِمْ»، وهو عقودهم التي عاهدوا الناس «راعون»، يقول: حافظون لا يضيعون، ولكنهم يوفون بذلك كله.

وقوله: «وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ»، يقول: والذين هم على أوقاتِ صلاتهم يحافظون، فلا يضيعونها ولا يشتغلون عنها حتى تفوتهم، ولكنهم يراعونها حتى يُؤدُّوها فيها.

وقوله: «أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: هؤلاء الذين هذه صِفَتُهُمْ فِي الدُّنْيَا، هم الوارثون يَوْمَ الْقِيَامَةِ منازل أهلِ النَّارِ مِنَ الْجَنَّةِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «الَّذِينَ يَرِثُونَ» البُستانِ ذَا الْكَرَمِ، وهو الْفِرْدَوْسُ عند الْعَرَبِ.

وقوله: «هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ»، يعني ماكثونَ فيها، يقولُ: هؤلاء الذين يرثون الفردوسَ خالدونَ، يعني ماكثونَ فيها أبداً، لا يتحوّلونَ عنها.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ

طِينٍ ﴿١١﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ» أسلنناه منه، فالسّلالة هي المُستَلَّة من كلِّ تُربةٍ، ولذلك كان آدم خُلِقَ من تربةٍ أُخِذت من أديم الأرض.

وينحو الذي قلنا في ذلك، قال أهل التأويل على اختلافٍ منهم في المَعْنَى بِالْإِنْسَانِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، فقال بعضهم: عَنِيَ به آدم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ولقد خلقنا ولدَ آدم، وهو الإنسان الذي ذكر في هذا الموضع، من سلالة، وهي النطفة التي اسْتَلَّتْ من ظَهْرِ الفَحْلِ من طين، وهو آدم الذي خُلِقَ من طين.

وأولى القولين في ذلك بالصواب قول مَنْ قال معناه: ولقد خلقنا ابنَ آدم من سُلَالَةِ آدَمَ، وهي صَفَةُ مَائِهِ وَآدَمَ هُوَ الطِّينُ، لَأَنَّهُ خُلِقَ مِنْهُ.

وإنما قلنا ذلك أولى التأويلين بالآية لدلالة قوله: «ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ» على أَنَّ ذَلِكَ كَذَلِكَ، لَأَنَّهُ مَعْلُومٌ أَنَّهُ لَمْ يَصِرْ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ إِلَّا بَعْدَ خَلْقِهِ فِي صُلْبِ الْفَحْلِ، وَمِنْ بَعْدِ تَحَوُّلِهِ مِنْ صُلْبِهِ صَارَ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ، وَالْعَرَبُ تَسْمِي وَلَدَ الرَّجُلِ وَنُطْفَتَهُ: سَلِيلَهُ وَسُلَالَتَهُ، لِأَنَّهُمَا مَسْلُولَانِ مِنْهُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ

خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا
فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا ءَاخِرَ فِتْنَارِكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ»: ثم جعلنا الإنسان الذي جعلناه من سلالَةٍ من طين، نطفةً في قرارٍ مكين، وهو حيث استقرَّت فيه نطفةُ الرجل من رحم المرأة، ووصفه بأنه مكين، لأنه مُكَنَّ لذلك، وهُمَّى له ليستقرَّ فيه إلى بلوغِ أمره الذي جعله له قراراً.

وقوله: «ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً»، يقول: ثم صَيَّرْنَا النطفةَ التي جعلناها في قرارٍ مكين علقَةً، وهي القطعة من الدم، «فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً»، يقول: فجعلنا ذلك الدَّم مُضْغَةً، وهي القطعة من اللحم.

وقوله: «فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا»، يقول: فجعلنا تلك المضغَةَ من اللحم عظاماً.

وقوله: «فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا»، يقول: فألْبَسْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا.

وقوله: «ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ»، يقول: ثم أنشأنا هذا الإنسان خَلْقًا آخَرَ، وهذه الهاء التي في «أَنْشَأْنَاهُ» عائدةٌ على الإنسانِ في قوله: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ» وقد يجوز أن تكونَ من ذَكَرَ الْعِظَامَ وَالنُّطْفَةَ وَالْمُضْغَةَ، جعل ذلك كله كالشيء الواحد، فقل: ثم أنشأنا ذلك خَلْقًا آخَرَ.

واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: «ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ»، فقال بعضهم: إنشأوه إياه خَلْقًا آخَرَ: نفخه الروحَ فيه، فيصير حينئذٍ إنساناً، وكان قبل ذلك صورة.

وقال آخرون: إنشأوه خَلْقًا آخَرَ، تصريفه إياه في الأحوالِ بعد الولادة في الطفولة والكهولة، والاعتناء، ونباتِ الشعرِ والسنِّ، ونحو ذلك من أحوالِ

الأحياء في الدنيا.

وقال آخرون: بل عَنَى بانشائه خلقاً آخر: سَوَى شِبابه.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول مَنْ قال: عَنَى بذلك نفخ الروح فيه، وذلك أنه بنفخ الروح فيه يتحوّل خلقاً آخر إنساناً، وكان قبل ذلك بالأحوال التي وصفه الله أنه كان بها من نطفةٍ وعلقةٍ ومُضْغَةٍ وعظمٍ، وبنفخ الروح فيه يتحوّل عن تلك المعاني كُلِّها إلى معنى الإنسانية، كما تحوّل أبوه آدم بنفخ الروح في الطينة التي خلق منها إنساناً، وخلقاً آخر غير الطين الذي خُلِقَ منه.

وقوله: «فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ»، اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معناه: فتبارك الله أحسن الصانعين، وهو قول مجاهد.

وقال آخرون: إنما قيل: «فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ» لأن عيسى بن مريم كان يخلق، فأخبر جَلَّ ثَنَاهُ عن نفسه أنه يخلق أحسن مما كان يخلق، وهو قول ابن جُرَيْج.

وأولى القولين في ذلك بالصواب قول مجاهد، لأنَّ العرب تسمي كُلَّ صانعٍ خالقاً.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ
يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ثم إنكم أيها الناس من بَعْدِ إِنْشَائِكُمْ خلقاً آخرَ وَتَصْيِيرِنَاكُمْ إنساناً سِوَا مَيِّتُونَ وعائدونَ تراباً كما كنتم، ثم إنكم بعد موتكم وَعَوْدِكُمْ رفاتاً بَالِياً مَبْعُوثُونَ من الترابِ خلقاً جديداً، كما بدأناكم أَوَّلَ مَرَّةٍ. وإنما قيل: «ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ» لأنه خبر عن حالٍ لهم يحدث ولم يكن.

المؤمنون: ١٦-١٨

وكذلك تقول العربُ لمن لم يَمُتْ: هو مائتٌ وميتٌ عن قليلٍ ، ولا يقولون لمن قد مات مائت ، وكذلك هو طَمَعٌ فيما عندك إذا وصف بالطَّمَع ، فإذا أخبر عنه أنه سيفعل ولم يفعل قيل هو طامعٌ فيما عندك غداً ، وكذلك ذلك في كلِّ ما كان نظيراً لما ذكرناه^(١) .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولقد خلقنا فوقكم أيها الناس سبعَ سمواتٍ ، بعضهنَّ فوق بعضٍ ، والعربُ تسمي كلَّ شيءٍ فوقَ شيءٍ طريقة . وإنما قيل للسمواتِ السبعِ سبعِ طرائقٍ ، لأن بعضهنَّ فوق بعضٍ ، فكلُّ سماءٍ منهنَّ طريقة . وقوله : «وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ» ، يقولُ : وما كنا في خَلْقِنَا السمواتِ السبعِ فوقكم عن خلقنا الذي تحتها غافلين ، بل كنا لهم حافظين من أن تسقط عليهم فتهلكهم .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنْتَهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وأنزلنا من السماء ما في الأرض من ماءٍ فأسكناه فيها .

وقوله : «وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ» ، يقول جَلَّ ثَنَاهُ: وإنا على الماء الذي أسكناه في الأرض لقادرون أن نذهبَ به ، فتهلكوا أيها الناس عطشاً

(١) هذا كلام الفراء في معاني القرآن: ٢٣٢/٢ .

المؤمنون : ١٨-٢٠

وتخرب أَرْضُكُمْ، فلا تنبت زرعاً ولا غرساً، وتهلك مواشيكُم، يقول: فمن نعمتي عليكم تركي ذلك لكم في الأرضِ جارياً.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهِ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ** ﴿١٨﴾

يقول تعالى ذكره: فأحدثنا لكم بالماء الذي أنزلناه من السماء بساتين من نخيلٍ وأعنان «لَكُمْ فِيهَا»، يقول: لكم في الجنات «فَوَاكِهِ» كثيرة، «وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ»، يقول: ومن الفواكه تأكلون. وقد يجوز أن تكون الهاء والألف من ذكر الجنات، ويحتمل أن تكون من ذكر النخيل والأعنان.

وخصَّ جَلَّ ثَنَاهُ الجنات التي ذكرها في هذا الموضع، فوصفها بأنها من نخيلٍ وأعنان، دون وصفها بسائر ثمار الأرض، لأنَّ هذين النوعين من الثمار كانا هما أعظم ثمار الحجاز وما قَرَّبَ منها؛ فكانتِ النخيلُ لأهل المدينة. والأعنانُ لأهل الطائف، فذكرَ القومَ بما يعرفون من نعمة الله عليهم، بما أنعم به عليهم من ثمارها.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصَنِيعٍ لِلْأَكْلِينَ** ﴿١٩﴾

يقول تعالى ذكره: وأنشأنا لكم أيضاً شجرةً تخرجُ من طور سيناء، «وشجرة» منصوبة عطفاً على الجنات ويعني بها: شجرة الزيتون.

وقوله: «تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ»، يقول: تخرج من جبلٍ ينبتُ الأشجار.

وقد بيَّنتُ معنى الطور فيما مضى، واختلاف المختلفين بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

المؤمنون: ٢٠

وأما قوله: «سِينَاء» فَإِنَّ الْقَرَاءَةَ اختلفت في قراءته، فقرأته عامة قَرَأَةَ المدينة والبصرة «سِينَاء» بكسر السين. وقرأ ذلك عامة قَرَأَةَ الكوفة «سَيْنَاء» بفتح السين، وهما جميعاً مجمعون على مَدَّهَا.

والصوابُ من القولِ في ذلك، أنهما قراءتان معروفتان في قَرَأَةَ الأمصار، بمعنى واحد، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيبٌ.

واختلف أهل التأويل في تأويله، فقال بعضهم: معناه: المبارك، كأن معنى الكلام عنده: شجرةٌ تخرجُ من جبلٍ مبارك.

وقال آخرون: معناه: حَسَنٌ.

وقال آخرون: هو اسمُ جبلٍ معروف.

وقال آخرون: معناه: أنه جبلٌ ذو شجر.

والصوابُ من القولِ في ذلك أن يقال: إِنَّ سِينَاء اسمُ أُضْيِفَ إليه الطورُ يعرف به، كما قيل جَبَلًا طييء فأضيفا إلى طييء، ولو كان القولُ في ذلك كما قال مَنْ قال: معناه: جَبَلٌ مبارك، أو كما قال: من قال معناه حَسَن. لكان الطور مُنَوَّنًا، وكان قوله سِينَاء، من نعته، على أن سِينَاء بمعنى: مبارك وحسن، غير معروفٍ في كلام العرب، فيجعل ذلك من نعت الجبل، ولكن القول في ذلك إن شاء الله، كما قيل من أنه جبلٌ عُرِفَ بذلك، وأنه الجبلُ الذي نُودِيَ منه موسى ﷺ، وهو مع ذلك مبارك، لا أَنَّ معنى سِينَاء: معنى مبارك.

وقوله: «تَنْبُتُ بِالذُّهْنِ»، يقول: تَنْبُتُ هذه الشجرة بثمرِ الدهن.

وقوله: «وَصِبْغٌ لِلْأَكْلِينَ»، يقول: تَنْبُتُ بالدهن وَبِصِبْغٍ لِلْأَكْلِينَ يَصْطَبْغُ بالزيتِ الذين يَأْكُلُونَهُ^(١).

(١) يصطبغ: يَأْتَدُمُ، أي: الأكلون يَأْتَدُمُونَ بالزيت. وانظر معاني القرآن للفراء:

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾

يقول تعالى ذكره: «وإنَّ لَكُمْ» أيها الناس «في الأنعامِ لَعِبْرَةً» تعتبرون بها، فتعرفون بها أيادي الله عندكم، وقدرته على ما يشاء، وإنه الذي لا يمتنع عليه شيء أراد، ولا يعجزه شيء شاء. «نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا» من اللبن الخارج من بين الفَرْثِ والدم، «ولَكُمْ» مع ذلك «فيها»، يعني في الأنعام «مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ» وذلك كالإبل التي يُحْمَلُ عليها، ويُرْكَبُ ظهرها، ويُشْرَبُ دُرُّها، «ومِنْهَا تَأْكُلُونَ»، يعني: من لحومها تأكلون.

وقوله: «وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ»، يقول: وعلى الأنعام وعلى السفن تحملون على هذه في البر، وعلى هذه في البحر.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ آلِهَةٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾

يقول تعالى ذكره: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ» داعيهم إلى طاعتنا وتوحيدهنا، والبراءة من كل معبود سِوَانَا، «فَقَالَ» لهم نوح: «يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ»، يقول: قال لهم: ذَلُّوا يا قوم الله بالطاعة، «مَا لَكُمْ مِنْ آلِهَةٍ غَيْرُهُ»، يقول: ما لكم من معبودٍ يجوزُ لكم أَنْ تَعْبُدُوهُ غيره، «أَفَلَا تَتَّقُونَ»، يقول: أفلا تخشون عبادتِكُمْ غيره عقابه أَنْ يحلَّ بكم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَعَاهَذَا

إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فقالت جماعةُ أشرافِ قومِ نُوحٍ، الذين جحدوا توحيدَ الله، وكذبوه لقومهم: ما نوح أيها القومُ إلا بشرٌ مثلكم، إنما هو إنسانٌ مثلكم، وكبعضكم «يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ»، يقول: يريد أن يصيرَ له الفضلُ عليكم، فيكون متبوعاً وأنتم له تبع، «ولو شاءَ الله لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً»، يقول: ولو شاءَ الله أن لا نعبُدَ شيئاً سواه لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً، يقول: لأرسلَ بالدعاء إلى ما يدعُوكم إليه نوح مَلَائِكَةً تؤدِّي إليكم رسالته.

وقوله: «ما سَمِعْنَا بِهَذَا» الذي يدعوننا إليه نوح من أنه لا إلهَ لنا غير الله في القرونِ الماضية، وهي آبائهم الأولون.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فْتَرَبِّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَبُونَ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوْحَيْنَا فَلِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ مُخْبِراً عن قِبَلِ المَلَأِ الذين كفروا من قوم نوح: «إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ» ما نوح إلا رجلٌ به جنونٌ. وقد يقال أيضاً لِلجِنَّ جنة، فيتفق الاسمُ والمصدر، وهو من قوله: «إِنْ هُوَ» كناية اسم نوح.

وقوله: «فَتَرَبِّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ»، يقول: فَتَلَبَّسُوا بِهِ، وتَنظَرُوا به حتى حِينٍ: يقول إلى وقتٍ ما، ولم يَغْنُوا بذلك وقتاً معلوماً، إنما هو كقولِ القائلِ:

دَعَهُ إِلَى يَوْمٍ مَّآ، أَوْ إِلَى وَقْتٍ مَّآ.

وقوله: «قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ»، يقول: قال نوح داعياً ربه، مستنصراً به على قومه لما طال أمره وأمرهم، وتمادوا في غيهم «رَبِّ انصُرْنِي» على قَوْمِي «بِمَا كَذَّبُونِ»، يعني: بتكذيبهم إياي، فيما بلغتهم من رسالتك، ودعوتهم إليه من توحيدك.

وقوله: «فَاَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا»، يقول: فقلنا له حين استنصرنا على كُفْرَةِ قومه: اصنع الْفُلْكَ، وهي السفينة بأعيننا، يقول: بمرأى منا، ومنظرٍ، «وَوَحَيْنَا»: يقول: وبتعليمنا إياك صنعتها، «فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا»، يقول: فإذا جاء قضاؤنا في قومك بعذابهم وهلاكهم، «وَفَارَ التَّنُورُ».

وقد ذكرنا فيما مضى اختلافَ المختلفين في صفة قَوْرِ التَّنُور. والصواب عندنا من القولِ فيه، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

«فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ»، يقول: فادخل في الفلك واحمل، والهاء والألف في قوله: «فيها» من ذَكَرَ الْفُلْكَ «مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ»، يقال: سلكته في كذا وأسلكته فيه.

«وَأَهْلَكَ»، وهم وَلَدُهُ ونسأؤهم، «إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ» من الله بأنه هَالِكٌ فيمن يهلك من قومك فلا تَحْمِلْهُ معك، وهو يام الذي غرق. ويعني بقوله: «مِنْهُمْ» من أهلك، والهاء والميم في قوله: «منهم» من ذَكَرِ الْأَهْل. وقوله: «وَلَا تَخَاطَبَيْ»... الآية، يقول: ولا تسألني في الذين كفروا بالله أنْ أَنْجِيَهُمْ، «إِنَّهُمْ مُعْرَقُونَ»، يقول: فإني قد حتمتُ عليهم أنْ أُغْرِقَ جميعهم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَإِذَا أَسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ

فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾

يعني تعالى ذكّره بقوله : «فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ» : فإذا اعتدلت في السفينة أنتَ وَمَنْ مَعَكَ ممن حملته معكَ من أهلك راكباً فيها عالياً فوقها، «فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ»، يعني من المشركين .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٢٩﴾

يقول تعالى ذكّره لنبيه نوح عليه السلام : وَقُلْ إِذَا سَلَمَكَ اللَّهُ وَأَخْرَجَكَ مِنَ الْفُلِّ، فَنَزَلَتْ عَنْهَا : «رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً» من الأرضِ «مُبَارَكاً، وَأَنْتَ خَيْرُ مَنْ أَنْزَلَ عِبَادَهُ الْمَنَازِلَ» .

وقوله : «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ» يقول تعالى ذكّره : إن فيما فعلنا بقومِ نوحٍ يا محمدٌ من إهلاكِناهم إِذْ كَذَبُوا رُسُلَنَا، وجحدوا وحدانيتنا وعبدوا الآلهة والأصنامَ، لَعِبَرًا لقومك من مشركي قريش، وعظاظٍ وَحُجَجًا لَنَا، يستدلون بها على ستننا في أمثالهم، فينزجروا عن كفرهم، ويرتدعوا عن تكذيبك، حذراً أن يصيبهم مثل الذي أصابهم من العذاب .

وقوله : «وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ»، يقول تعالى ذكّره : وكنا مُخْتَبِرِيهِمْ بتذكيرنا إياهم بآياتنا، لننظرَ ما هُمْ عاملونَ قَبْلَ نزولِ عقوبتنا بهم .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣٠﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾

يقول تعالى ذكّره : ثم أحدثنا من بعد مهلك قومِ نوحٍ ، قرناً آخرين ،

فأوجدناهم «فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ» داعياً لهم «أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ» يا قوم، وأطيعوه دون الآلهة والأصنام، فإنَّ العبادة لا تنبغي إلا له «مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ»، يقول: ما لكم من معبودٍ يصلح أن تعبدوا سواه «أَفَلَا تَتَّقُونَ» أفلا تخافون عقابَ الله بعبادتكم شيئاً دونه، وهو الإله الذي لا إله لكم سواه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٢﴾

يقول تعالى ذكره: وقالت الأشراف من قوم الرسول الذي أرسلنا بعد نوح، وعنَى بالرسول في هذا الموضع: صالحاً، ويقوميه: ثمود «الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ»، يقول: الذين جحدوا توحيدَ الله؛ وكذَّبوا بلقاءِ الآخرة: يعني كَذَّبُوا بلقاءِ الله في الآخرة.

وقوله: «وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا»، يقول: ونعمناهم في حياتهم الدنيا بما وسعنا عليهم من المعاش، وبسطنا لهم من الرزق، حتى بطروا وعَتَوْا على ربِّهم، وكفروا.

وقوله: «مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ»، يقول: قالوا: بعثَ الله صالحاً إلينا رسولاً من بيننا، وخصَّه بالرسالة دوننا، وهو إنسانٌ مثلنا يأكلُ مما نأكلُ منه من الطعام، ويشربُ مما نشربُ، وكيف لم يرسل ملكاً من عنده يُبلِّغنا رسالته قال: «وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ»، معناه: مما تشربون منه، فحذف «من» الكلام «منه»، لأنَّ معنى الكلام: ويشربُ من شرابكم، وذلك أنَّ العربَ تقول: شربتُ من شرابك.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشْرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيْعِدْكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ مخبراً عن قِيلِ المَلَأَ من قومٍ صالحٍ لقومهم : «وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشْرًا مِّثْلَكُمْ» فاتبعتموه، وَقَبِلْتُمْ ما يَقُولُ وَصَدَّقْتُمُوهُ «إِنَّكُمْ» أيها القومُ «إِذَا لَخَسِرُونَ»، يقولُ : قالوا : إنكم إِذْ نَمُوتُمْ لَمُغْبُونُونَ حُطِّبَ عِظَامُكُمْ مِنَ الشَّرَفِ وَالرَّفْعَةِ فِي الدُّنْيَا بِاتِّبَاعِكُمْ إِيَّاهُ .

وقوله : «أَيْعِدْكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا» . . . الآية . يقول تعالى ذِكْرُهُ : قالوا لهم : أَيْعِدْكُمْ صَالِحُ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا فِي قُبُورِكُمْ ، وَعِظَامًا قَدْ ذَهَبَتْ لَحُومُ أَجْسَادِكُمْ ، وَبَقِيَتْ عِظَامُهَا أَنْكُمْ مُخْرَجُونَ مِنْ قُبُورِكُمْ أَحْيَاءُ ، كَمَا كُنْتُمْ قَبْلَ مَمَاتِكُمْ ؟ .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : هَيِّاتَ هَيِّاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾

وهذا خَبَرٌ مِنَ اللَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ عَنْ قَوْلِ المَلَأَ من ثمود أنهم قالوا : هَيِّاتَ هَيِّاتَ : أي بعيداً ما تُوعَدُونَ أيها القومُ ، من أَنْكُمْ بَعْدَ مَوْتِكُمْ وَمَصِيرِكُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا مُخْرَجُونَ أَحْيَاءُ مِنْ قُبُورِكُمْ ، يَقُولُونَ ذَلِكَ غَيْرَ كَائِنٍ .

وقوله : «إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا» ، يقولُ : ما حَيَاةُ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا الَّتِي نَحْنُ فِيهَا «نَمُوتُ وَنَحْيَا» يقولُ : تَمُوتُ الْأَحْيَاءُ مِنَّا فَلَا تَحْيَا ، وَيَحْدُثُ آخَرُونَ مِنَّا فَيُولَدُونَ أَحْيَاءُ . «وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ» ، يقولُ : قالوا : وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ بَعْدَ الْمَمَاتِ .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ : قالوا ما صالح إلا رجلٌ اختلقَ على الله كذباً في قوله : «ما لكم من إلهٍ غيرُهُ» ، وفي وَعْدِهِ إياكم أنكم إذا مِتُّم وَكُنْتُمْ تَرَاباً وَعِظَافاً أَنْكُمْ مُخْرَجُونَ . وقوله : «هُوَ» من ذِكْرِ الرسولِ وهو صالح «وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ» ، يقولُ : وما نحنُ له بِمُصَدِّقِينَ فيما يقولُ : إنه لا إلهَ لنا غيرَ الله ، وفيما يَعِدُنَا من البعثِ بعد المماتِ .

وقوله : «قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ» ، يقولُ : قال صالح لما أيسَ من إيمانِ قومه بالله ، ومن تصديقهم إياه بقولهم : «وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ» رَبِّ انصُرْنِي على هؤلاءِ بما كَذَّبُونِ ، يقولُ : بتكذيبهم إِيَّايَ فيما دَعَوْتُهُمْ إليه من الحقِّ ، فاستغاثَ صلواتُ الله عليه بربه من أذاهم إياه ، وتكذيبهم له ، فقال الله له مجيباً في مسأَلَتِهِ إِيَّاهُ ما سألَ : عن قليلٍ يا صالحُ ليصبحنَّ مُكْذِبُونَكَ من قومك على تكذيبهم إِيَّاكَ نادمينَ ، وذلك حينَ تَنَزَّلُ بهم فِتْنَتُنَا فلا ينفعهمُ الندمُ .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : فَآخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبَعْدَ اللَّقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ : فانتقمنا منهم ، فأرسلنا عليهم الصَّيْحَةَ ، فأخذتهم بالحقِّ ، وذلك أَنَّ الله عاقبهم باستحقاقهم العقابَ منه بكفرهم به ، وتكذيبهم رسوله . «فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً» ، يقولُ : فَصَيَّرْنَاهُمْ بِمَنْزِلَةِ الغُثَاءِ ، وهو ما ارتفعَ على السيلِ ونحوه ، كما لا يَنْتَفِعُ به في شيءٍ ، فإنما هذا مثل . والمعنى : فأهلكناهم فجعلناهم كالشيء الذي لا منفعةَ فيه .

وقوله: «فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ»، يقول: فأبعد الله القوم الكافرين بهلاكهم إذ كفروا بربهم، وعَصَوْا رُسُلَهُ، وظلموا أنفسهم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخِرِينَ ﴿٤١﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ ﴿٤٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ثم أحدثنا من بعد هلاكِ ثمود قومًا آخرين.
وقوله: «مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا»، يقول: ما يتقدم هلاكُ أمةٍ من تلك الأمم التي أنشأناها بعدَ ثمود، قبلَ الأجلِ الذي أَجَلْنَا لهلاكها، ولا يستأخِرُ هلاكُها عن الأجلِ الذي أَجَلْنَا لهلاكها، والوقت الذي وَقَّعْنَا لفنائها، ولكنها تهلكُ لمجيئه. وهذا وعيدٌ من الله لمشركي قومِ نبيِّنا محمدٍ ﷺ، وإعلامٌ منه لهم أن تأخيرهم في آجالهم مع كفرهم به وتكذيبهم رسوله، لِيَبْلُغُوا الأجلَ الذي أَجَلْ لهم، فيحلَّ بهم نقمته، كَسَّتِهِ فِيمَنْ قَبْلَهُمْ من الأممِ السالفة.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلًّا مَآجَاءَ أُمَّةٍ رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «ثُمَّ أَرْسَلْنَا» إلى الأمم التي أنشأنا بعد ثمود «رُسُلَنَا تَتْرًا» يعني: يتبع بعضها بعضاً، وبعضها في إثر بعض.
وقوله: «كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ»، يقول: كلما جاء أمةٌ من تلك الأمم التي أنشأناها بعدَ ثمود رسولها الذي نُرْسِلُهُ إليهم كَذَّبُوهُ فيما جاءهم به من الحقِّ من عندنا.

وقوله: «فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا»، يقول: فأتبعنا بعض تلك الأمم بعضاً بالهلاك، فأهلكنا بعضهم في إثر بعض.

وقوله: «وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ» للناس، ومثلاً يُتَحَدَّثُ بهم في الناس، والأحاديث في هذا الموضع جمع أحداثثة، لأنَّ المعنى ما وصفتُ من أنهم جُعِلُوا للناسِ مثلاً يتحدَّثُ بهم، وقد يجوز أن يكونَ جمع حديث، وإنما قيل: «وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ» لأنهم جُعِلُوا حديثاً، ومثلاً يتمثلُ بهم في الشرِّ، ولا يقالُ في الخير: جعلته حديثاً ولا أحداثثة.

وقوله: «فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ»، يقول: فأبعد الله قوماً لا يؤمنون بالله، ولا يصدقون برسوله.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۖ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۚ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٤﴾

يقول تعالى ذكره: ثم أرسلنا بعد الرسل الذين وصفَ صفتهم قبل هذه الآية موسى وأخاه هارونَ إلى فرعونَ وأشرافِ قومه من القبطِ «بآياتنا»، يقول: بحججنا «فاستكبروا» عن اتِّباعِها والإيمانِ بما جاءهم به من عند الله «وكانوا قوماً عَالِينَ»، يقول: وكانوا قوماً عالين على أهلِ ناحيتهم، ومن في بلادهم من بني إسرائيل وغيرهم بالظلم، قاهرين لهم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِكَ وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِدَدُونَ ﴿٤٥﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فقال فرعون وملؤه «أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا» فَتَّبِعَهُمَا «وَقَوْمُهُمَا» من بني إسرائيل «لَنَا عَابِدُونَ» يعنون أنهم لهم مُطِيعُونَ مُتَذَلِّلُونَ، يَأْتَمِرُونَ لأمرهم، وَيَدِينُونَ لهم، والعربُ تُسمي كُلَّ مَنْ دَانَ لِمَلِكٍ عَابِداً له. ومن ذلك قِيلَ لأهلِ الحيرة: العَبَادُ، لأنهم كانوا أهلَ طاعةٍ لملوكِ العجم. وقوله: «فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ»، يقول: فَكَذَّبَ فرعونُ وملؤه موسى وهارونَ فَكَانُوا مِمَّنْ أَهْلَكَهُمُ اللهُ، كما أَهْلَكَ مَنْ قَبْلَهُمْ من الأممِ بِتَكْذِيبِهَا رسلها.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولقد آتينا موسى التوراةَ ليهتدي بها قومه من بني إسرائيل، ويعملوا بما فيها، «وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ»، يقول: وجعلنا ابنَ مريمَ وأُمَّهُ حِجَّةً لَنَا عَلَى مَنْ كَانَ بَيْنَهُمْ، وعلى قدرتنا على إنشاءِ الأجسامِ من غيرِ أصلٍ، كما أنشأنا خَلْقَ عيسى من غيرِ أبٍ.

وقوله: «وَأَوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ»، يقول: وَضَمَمْنَاهُمَا وَصَيَّرْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ، يقال: أوى فلانٌ إلى موضعٍ كذا، فهو يأوي إليه: إذا صار إليه؛ وعلى مثال أفعَلْتَهُ فهو يُؤْوِيهِ.

وقوله: «إِلَى رَبْوَةٍ»، يعني: إلى مكانٍ مرتفعٍ من الأرضِ على ما حوله، ولذلك قِيلَ للرجلِ يَكُونُ فِي رِفْعَةٍ من قَوْمِهِ، وعِزٌّ وشرفٌ وعدد: هو في ربوةٍ من قومه.

وقوله: «ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ»، يقول تعالى ذِكْرَهُ: من صِفَةِ الرِّبْوَةِ التي آوينا إليها مريمَ وابْنَهَا عيسى، أنها أرضٌ منبَسَطَةٌ، وساحَةٌ، وذاتُ ماءٍ ظاهرٍ لغيرِ الباطنِ حارٍ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يٰٓأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: وقلنا لعيسى: يا أيها الرسلُ كُلُّوا من الحلالِ الذي طَيَّبَهُ اللهُ لكم دونَ الحرامِ، «وَاعْمَلُوا صَالِحًا»، تقول في الكلام للرجل الواحد: أيها القومُ كُفُّوا عَنَّا أذاكم، وكما قال: «الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ»، وهو رجلٌ واحد.

وقوله: «إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ»، يقول: إني بأعمالكم ذو علمٍ لا يخفى عليَّ منها شيءٌ، وأنا مُجَازِيكُمْ بجميعها، ومُوفِّيكُمْ أَجُورَكُمْ وثوابكم عليها، فَخُذُوا في صالحاتِ الأعمالِ واجتهدوا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَإِنَّ هَذِهِ أُمَّةُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥١﴾

معنى الكلام: وقلنا لعيسى يا أيها الرسلُ كُلُّوا من الطيباتِ. وقلنا: وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّةُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً. وقيل: إِنَّ الأُمَّةَ الذي في هذا الموضع: الدِّينُ والمِلَّةُ. وقوله: «وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ»، يقول: وأنا مولاكم فاتقونِ بطاعتي تَأْمَنُوا عِقَابِي.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ : فَتَفَرَّقَ الْقَوْمُ الَّذِينَ أَمَرَهُمُ اللَّهُ مِنْ أُمَّةِ الرَّسُولِ عِيسَى ، بِالاجْتِمَاعِ عَلَى الدِّينِ الْوَاحِدِ وَالْمِلَّةِ الْوَاحِدَةِ ، دِينَهُمُ الَّذِي أَمَرَهُمُ اللَّهُ بِلِزْوَمِهِ . «زُبُرًا» كُتِبَ ، فَدَانَ كُلُّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ بِكِتَابٍ غَيْرِ الْكِتَابِ الَّذِي دَانَ بِهِ الْفَرِيقُ الْآخَرُ ، كَالْيَهُودِ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُمْ دَانُوا بِحُكْمِ التَّوْرَةِ ، وَكَذَّبُوا بِحُكْمِ الْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ، وَكَالنَّصَارَى الَّذِينَ دَانُوا بِالْإِنْجِيلِ بِزَعْمِهِمْ ، وَكَذَّبُوا بِحُكْمِ الْفُرْقَانِ . وَقَوْلُهُ : «كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ» ، يَقُولُ : كُلُّ فَرِيقٍ مِنْ تِلْكَ الْأُمَمِ بِمَا اخْتَارَوْهُ لَأَنْفُسِهِمْ مِنَ الدِّينِ وَالْكِتَابِ فَرِحُونَ مُعْجِبُونَ بِهِ ، لَا يَرَوْنَ أَنَّ الْحَقَّ سِوَاهُ .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيْحَسِبُونَ أَنَّمَا نُمَدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، فَذَعَّ يَا مُحَمَّدُ ، هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا «فِي غَمَرَتِهِمْ» فِي ضَلَالَتِهِمْ وَغِيهِمْ ، «حَتَّى حِينٍ» ، يَعْنِي : إِلَى أَجَلٍ سَيَأْتِيهِمْ عِنْدَ مَجِيئِهِ عَذَابِي .

وَقَوْلُهُ : «أَيْحَسِبُونَ أَنَّمَا نُمَدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ» ، يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ : أَيْحَسِبُ هَؤُلَاءِ الْأَحْزَابُ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ زُبُرًا ، أَنَّ الَّذِي نُعْطِيهِمْ فِي عَاجِلِ الدُّنْيَا مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ «نُسَارِعُ لَهُمْ» ، يَقُولُ : نُسَابِقُ لَهُمْ فِي خَيْرَاتِ الْآخِرَةِ ، وَنُبَادِرُ لَهُمْ فِيهَا . وَ«مَا» مِنْ قَوْلِهِ : «أَنَّمَا نُمَدُّهُمْ بِهِ» نَصَبٌ لِأَنَّهَا بِمَعْنَى الَّذِي . «بَلْ لَا يَشْعُرُونَ» ، يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ تَكْذِيبًا لَهُمْ : مَا ذَلِكَ كَذَلِكَ ، بَلْ لَا يَعْلَمُونَ

أَنَّ إِمْدَادِي إِيَّاهُمْ بِمَا أَمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ إِمْلَاءٌ وَاسْتَدْرَاجٌ لَهُمْ .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ**
وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ٥٨ **وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ** ٥٩

يقول تعالى ذكره: «إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ» إن الذين هم من خشيتهم وخوفهم من عذاب الله مشفقون، فهم من خشيتهم من ذلك دائبون في طاعته، جادون في طلبِ مَرْضَاتِهِ. «وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ»، يقول: والذين هم بآياتِ كتابه وحججه مُصَدِّقُونَ. «وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ»، يقول: والذين يُخْلِصُونَ لربهم عبادتهم، فلا يجعلون له فيها لغيره شركاً لوثن، ولا لصنم، ولا يُراءون بها أحداً من خلقه، ولكنهم يجعلون أعمالهم لوجهه خالصاً، وإياه يقصدون بالطاعة والعبادة دون كل شيءٍ سواه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ** ٦٠ **أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ** ٦١

يقول تعالى ذكره بقوله: «وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا» والذين يُعْطُونَ أَهْلَ سُهْمَانِ الصَّدَقَةِ ما فرض الله لهم في أموالهم «ما آتَوْا» يعني: ما أعطوهم إياه من صدقة، ويؤدُّونَ حقوقَ الله عليهم في أموالهم إلى أهلها «وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ»، يقول: خائفةٌ من أنهم إلى رَبِّهِمْ راجعون، فلا يُنَجِّيهم ما فعلوا من ذلك من عذابِ الله، فهم خائفون من المرجعِ إلى الله.

وقوله: «أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ»، يقول تعالى ذكره: هؤلاء الذين هذه الصفاتُ صفاتهم، يبادرون في الأعمالِ الصالحة، ويطلبون الزلفَةَ عند الله بطاعته.

وقوله: «وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ» كان بعضهم يقول: معناه: سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ السَّعَادَةُ، فذلك سبقهم الخيرات التي يعملونها.

وكان بعضهم يتأوَّل ذلك بمعنى: وَهُمْ إِلَيْهَا سَابِقُونَ.

وتأوَّلَهُ آخَرُونَ: وَهُمْ مِنْ أَجْلِهَا سَابِقُونَ.

وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب، القول الذي قيلَ من أَنه سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ السَّعَادَةُ، قَبْلَ مَسَارَعَتِهِمْ فِي الْخَيْرَاتِ، وَلِمَا سَبَقَ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ سَارِعُوا فِيهَا.

وإنما قلتُ ذلك أُولَى التَّأْوِيلِينَ بِالْكَلَامِ، لِأَنَّ ذَلِكَ أَظْهَرَ مَعْنِيَّتِهِ، وَأَنَّهُ لَا حَاجَةَ بِنَا إِذَا وَجَّهْنَا تَأْوِيلَ الْكَلَامِ إِلَى ذَلِكَ إِلَى تَحْوِيلِ مَعْنَى اللَّامِ الَّتِي فِي قَوْلِهِ: «وَهُمْ لَهَا» إِلَى غَيْرِ مَعْنَاهَا الْأَغْلَبِ عَلَيْهَا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ

يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦١﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: وَلَا نَكُلِّفُ نَفْسًا إِلَّا مَا يَسْعُهَا، وَيَصْلَحُ لَهَا مِنَ الْعِبَادَةِ، وَلِذَلِكَ كَلَّفْنَاهَا مَا كَلَّفْنَاهَا مِنْ مَعْرِفَةِ وَحْدَانِيَةِ اللَّهِ، وَشَرَعْنَا لَهَا مَا شَرَعْنَا مِنَ الشَّرَائِعِ. «وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ»، يَقُولُ: وَعِنْدَنَا كِتَابُ أَعْمَالِ الْخَلْقِ بِمَا عَمِلُوا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ. «وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ»، يَقُولُ: يَبِينُ بِالصَّدَقِ عَمَّا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فِي الدُّنْيَا لَا زِيَادَةَ عَلَيْهِ وَلَا نَقْصَانَ، وَنَحْنُ مُؤَفُّو جَمِيعِهِمْ أَجْوَرُهُمْ، الْمُحْسِنُ مِنْهُمْ بِإِحْسَانِهِ، وَالْمُسِيءُ بِإِسَاءَتِهِ. «وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ»، يَقُولُ: وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ بِأَن يَزَادَ عَلَى سَيِّئَاتِ الْمُسِيءِ مِنْهُمْ مَا لَمْ يَعْمَلْهُ فَيُعَاقَبَ عَلَى غَيْرِ جُرْمِهِ، وَيَنْقُصَ الْمُحْسِنُ عَمَّا عَمِلَ مِنْ إِحْسَانِهِ، فَيَنْقُصَ عَمَّا لَهُ مِنَ الثَّوَابِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ** ٦٣

يقول تعالى ذكره: ما الأمر كما يحسب هؤلاء المشركون من أن إمدادناهم بما نمدُّهم به من مالٍ وبنينٍ بخيرٍ نسوقه بذلك إليهم والرضا منا عنهم، ولكن قلوبهم في غمرة عمى عن هذا القرآن. وعنَى بالغمرة ما غمر قلوبهم، فغطاها عن فهم ما أودع الله كتابه من المواعظ والعبر والحجج. وعنَى بقوله: «مِنْ هَٰذَا» من القرآن.

وقوله: «وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ»، يقول تعالى ذكره: ولهؤلاء الكفار أعمال لا يرضاها الله من المعاصي من دون ذلك، يقول: من دون أعمال أهل الإيمان بالله، وأهل التقوى والخشية له.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ ٦٤ لَا تَجْعَلُوا الْيَوْمَ لَنَا تُصْرُونَ ٦٥**

يقول تعالى ذكره: ولهؤلاء الكفار من قريش أعمال من دون ذلك هم لها عاملون، إلى أن يؤخذ أهل النعمة والبطر منهم بالعذاب.

«إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ»، يقول: فإذا أخذناهم به جأروا، يقول: ضجُّوا واستغاثوا مما حلَّ بهم من عذابنا، ولعلَّ الجوار: رفع الصوت، كما يجأر الثور.

وقوله: «لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ»، يقول: لا تضجُّوا وتستغيثوا اليوم وقد نزل بكم العذاب الذي لا يدفع عن الذين ظلموا أنفسهم، فإنَّ ضجيجكم غير نافعكم، ولا دافع عنكم شيئاً مما قد نزل بكم من سخط الله، «إِنَّكُمْ مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ»، يقول: إنكم من عذابنا الذي قد حلَّ بكم لا تستنقذون، ولا يخلصكم منه

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَذَكَاتُ آيَتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى

أَعْقَابِكُمْ بُنْكَصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِمِرَاتُ تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾

يقول تعالى ذكره لهؤلاء المشركين من قريش: لا تضجوا اليوم وقد نزل بكم سخط الله وعذابه، بما كسبت أيديكم، واستوجبتموه بكفركم بآيات ربكم «قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ» يعني: آيات كتاب الله، يقول: كانت آيات كتابي تُقرأ عليكم، فتكذبون بها وترجعون مؤلّين عنها إذا سمعتموها. كراهية منكم لسماعها. وكذلك يقال لكل من رجع من حيث جاء نكص فلان على عقبه.

وقوله: «مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ»، يقول: مستكبرين بحرم الله، يقولون: لا يظهر علينا فيه أحد، لأننا أهل الحرم.

وقوله: «سامراً»، يقول: تسمرون بالليل.

أما قوله: «تهجرون» فلها وجهان من المعنى: أحدهما أن يكون عنى أنه وصفهم بالإعراض عن القرآن أو البيت، أو رسول الله ﷺ ورفضه. والآخر أن يكون عنى أنهم يقولون شيئاً من القول كما يهجر الرجل في منامه، وذلك إذا هذى، فكأنه وصفهم بأنهم يقولون في القرآن ما لا معنى له من القول، وذلك أن يقولوا فيه باطلاً من القول الذي لا يضره.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَفَلَمْ يَذَرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ

ءَابَاءَهُمْ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ

حِجَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أَفَلَمْ يَتَذَبَّرْ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ تَنْزِيلَ اللَّهِ وَكَلَامَهُ، فَيَعْلَمُوا مَا فِيهِ مِنَ الْغَيْبِ، وَيَعْرِفُوا حُجَجَ اللَّهِ الَّتِي احْتَجَّ بِهَا عَلَيْهِمْ فِيهِ. «أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ»، يقول: أَمْ جَاءَهُمْ أَمْرٌ مَا لَمْ يَأْتِ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ أَسْلَافِهِمْ، فَاسْتَكْبَرُوا ذَلِكَ وَأَعْرَضُوا، فَقَدْ جَاءَتِ الرُّسُلُ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَأُنْزِلَتْ مَعَهُمُ الْكِتَابُ، وَقَدْ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ «أَمْ» فِي هَذَا الْمَوْضِعِ بِمَعْنَى: بَلْ، فَيَكُونُ تَأْوِيلُ الْكَلَامِ: أَفَلَمْ يَتَذَبَّرُوا الْقَوْلَ بَلْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ، فَتَرَكُوا لِذَلِكَ التَّذَبُّرَ، وَأَعْرَضُوا عَنْهُ، إِذْ لَمْ يَكُنْ فِيمَنْ سَلَفَ مِنْ آبَائِهِمْ ذَلِكَ.

وقوله: «أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: أَمْ لَمْ يَعْرِفْ هَؤُلَاءِ الْمَكْذُوبُونَ مُحَمَّدًا، وَأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقِ وَالْأَمَانَةِ، فَهَمْ لَهُ مُنْكَرُونَ، يَقُولُ: فَيُنْكِرُوا قَوْلَهُ، أَوْ لَمْ يَعْرِفُوهُ بِالصَّدَقِ، وَيَحْتَجُّوا بِأَنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَهُ، يَقُولُ جَلَّ ثَنَاهُ: فَكَيْفَ يُكْذِّبُونَهُ وَهُمْ يَعْرِفُونَهُ فِيهِمْ بِالصَّدَقِ وَالْأَمَانَةِ. «أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ»، يقول: أَيْقُولُونَ بِمُحَمَّدٍ جَنُونٌ، فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا لَا مَعْنَى لَهُ، وَلَا يَفْهَمُ وَلَا يَدْرِي مَا يَقُولُ «بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: فَإِنْ يَقُولُوا ذَلِكَ فَكَذِّبُهِمْ فِي قِيلِهِمْ ذَلِكَ وَاضِحٌ بَيِّنٌ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمَجْنُونَ يَهْذِي، فَيَأْتِي مِنَ الْكَلَامِ بِمَا لَا مَعْنَى لَهُ، وَلَا يَعْقِلُ، وَلَا يَفْهَمُ، وَالَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ مُحَمَّدٌ هُوَ الْحِكْمَةُ الَّتِي لَا أَحْكَمَ مِنْهَا، وَالْحَقُّ الَّذِي لَا تَخْفَى صِحَّتُهُ عَلَى ذِي فَطَرَةٍ صَحِيحَةٍ، فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يَقَالَ: هُوَ كَلَامَ مَجْنُونٍ.

وقوله: «وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: مَا بِهِؤُلَاءِ الْكَافِرَةُ أَنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا مُحَمَّدًا بِالصَّدَقِ، وَلَا أَنَّ مُحَمَّدًا عَنْدهُمْ مَجْنُونٌ، بَلْ قَدْ عَلِمُوهُ صَادِقًا مُحَقَّقًا فِيمَا يَقُولُ، وَفِيمَا يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ، وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لِلْإِذْعَانِ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ، وَلِاتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ سَاخِطُونَ، حَسَدًا مِنْهُمْ لَهُ، وَبَغْيًا عَلَيْهِ، وَاسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ
السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ
مُعْرِضُونَ ﴿٧١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ : ولو عَمِلَ الرُّبُّ تعالى ذِكْرَهُ بما يهوى هؤلاء
المشركون ، وأجرى التدبيرَ على مشيئتهم وإرادتهم ، وترك الحقَّ الذي هم له
كارهون ، لفسدتِ السمواتُ والأرضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وذلك أنهم لا يعرفون عواقبَ
الأمور ، والصحيحُ من التدبيرِ والفسادِ ؛ فلو كانت الأمورُ جاريةً على مشيئتهم
وأهوائهم مع إثارة أكثرهم الباطلَ على الحقِّ ، لم تقرَّ السمواتُ والأرضُ وَمَنْ
فيهنَّ من خلقِ الله ، لأنَّ ذلك قام بالحقِّ .

وقوله : « بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ » ، اختلف أهلُ
التأويلِ في تأويلِ الذِّكْرِ في هذا الموضع ، فقال بعضهم : هو بيانُ الحقِّ لهم
بما أنزلَ على رجلٍ منهم من هذا القرآن .

وقال آخرون : بل معنى ذلك : بل أَتَيْنَاهُمْ بِشَرْفِهِمْ ، وذلك أنَّ هذا القرآنَ
كان شرفاً لهم ، لأنه نزلَ على رجلٍ منهم ، فأعرضوا عنه وكفروا به ، وقالوا ذلك
نظيرَ قوله : « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ » .

وهذان القولان متقاربا المعنى ؛ وذلك أنَّ اللهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ أنزلَ هذا القرآنَ
بياناَ بَيِّنَ فيه ما لخلقِهِ إليه الحاجةُ من أمرِ دينهم ، وهو مع ذلك ذِكْرٌ لرسوله
ﷺ وقومه ، وشرفٌ لهم .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : أَمَّا سَأَلُهُمْ خِرَاجَ ضَرَجٍ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ
الزَّرْعَيْنِ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أَمْ تَسْأَلُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ يَا مُحَمَّدُ، مِنْ قَوْمِكَ خَرَجًا. يعني أَجْرًا عَلَى مَا جِئْتَهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مِنَ النَّصِيحَةِ وَالْحَقِّ «فَخَرَجَ رَبُّكَ خَيْرٌ»: فَأَجْرُ رَبِّكَ عَلَى نَفَاذِكَ لِأَمْرِهِ، وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ خَيْرٌ لَكَ مِنْ ذَلِكَ، وَلَمْ يَسْأَلْهُمْ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى مَا أَتَاهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ أَجْرًا، قَالَ لَهُمْ، كَمَا قَالَ اللَّهُ لَهُ، وَأَمْرُهُ بِقِيلِهِ لَهُمْ: «قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى»، وَإِنَّمَا مَعْنَى الْكَلَامِ: أَمْ تَسْأَلُهُمْ عَلَى مَا جِئْتَهُمْ بِهِ أَجْرًا، فَانْكَصُوا عَلَى أَعْقَابِهِمْ إِذَا تَلَوْتَهُ عَلَيْهِمْ مُسْتَكْبِرِينَ بِالْحَرَمِ، فَخَرَجَ رَبُّكَ خَيْرٌ.

وقوله: «وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ»، يَقُولُ: وَاللَّهُ خَيْرٌ مَنْ أَعْطَى عَوْضًا عَلَى عَمَلٍ، وَرَزَقَ رِزْقًا.

وقوله: «وَأِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»، يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَإِنَّكَ يَا مُحَمَّدُ، لَتَدْعُو هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَى دِينِ الْإِسْلَامِ، وَهُوَ الطَّرِيقُ الْقَاصِدُ، وَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، الَّذِي لَا اعْوْجَاجَ فِيهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَكَانُوا فِي الصِّرَاطِ لَنُكَيِّبُونَ** ﴿٧٤﴾ **وَلَوْ رَحَّمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلْجَوَانِ فِي طَغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ** ﴿٧٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وَالَّذِينَ لَا يُصَدِّقُونَ بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَمَاتِ، وَقِيَامِ السَّاعَةِ، وَمَجَازَةِ اللَّهِ عِبَادَهُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ «عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَيِّبُونَ»، يَقُولُ: عَنْ مَحَجَّةِ الْحَقِّ؛ وَقَصْدِ السَّبِيلِ وَذَلِكَ دِينُ اللَّهِ الَّذِي ارْتِضَاهُ لِعِبَادِهِ لِعَادِلُونَ، يُقَالُ مِنْهُ: قَدْ نَكَبَ فُلَانٌ عَنْ كَذَا: إِذَا عَدَلَ عَنْهُ وَنَكَبَ عَنْهُ: أَيِ عَدَلَ عَنْهُ.

وقوله: «وَلَوْ رَحَّمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ»، يَقُولُ تَعَالَى: وَلَوْ رَحَّمْنَا

هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة، ورفعنا عنهم ما بهم من القحط والجذب، وضراً الجوع والهزال «لَلْجُوعِ فِي طُعْيَانِهِمْ»، يعني: في عُتُوهِمْ، وَجُرْأَتِهِمْ عَلَى رَبِّهِمْ «يَعْمَهُونَ»، يعني: يترددون.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ
وَمَا يَنْضَرُّعُونَ ﴿٧٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولقد أخذنا هؤلاء المشركين بعدابنا، وأنزلنا بهم بأسنا وسخطنا، وضيّقنا عليهم معاشهم، وأجدبنا بلادهم، وقتلنا سرّاتهم بالسيف «فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ»، يقول: فما خَضَعُوا لربهم فينقادوا لأمره ونهيه، وَيُنِيبُوا إلى طاعته. «وَمَا يَنْضَرُّعُونَ»، يقول: وما يتذلّلون له.

وذكر أن هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ حين أخذ الله قريشاً بسني الجذب، إذ دعا عليهم رسول الله ﷺ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: حَقَّ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ
إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾

اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معناه: حتى إذا فتحنا عليهم باب القتال، فقتلوا يوم بدر.

وقال آخرون: معناه: حتى إذا فتحنا عليهم باب المجاعة والضرّ، وهو الباب ذو العذاب الشديد. وهذا القول أولى بتأويل الآية، لصحة الخبر عن ابن عباس، أن هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ، في قصة المجاعة التي

المؤمنون: ٧٧-٧٩

أصاب قريشاً بدعاء رسول الله ﷺ عليهم^(١) وأمر ثمامة بن أثال^(٢)، وذلك لاشك أنه كان بعد وقعة بدر.

وقوله: «إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ»، يقول: إذا هؤلاء المشركون فيما فتحنا عليهم من العذاب حزننى نادمون على ما سلف منهم في تكذيبهم بآيات الله، في حين لا ينفعهم الندم والحزن.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ
وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ

يقول تعالى ذكره: والله الذي أحدث لكم أيها المكذبون بالبعث بعد الممات، السمع الذي تسمعون به، والأبصار التي تبصرون بها، والأفئدة التي تفقهون بها، فكيف يتعذر على من أنشأ ذلك ابتداء عاداته بعد عدمه وفقده، وهو الذي يوجد ذلك كله إذا شاء، ويفنيه إذا أراد «قليلًا ما تشكرون»، يقول: تشكرون أيها المكذبون خبر الله من عطائكم السمع والأبصار والأفئدة قليلًا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ

(١) ساقه المؤلف من طريق عكرمة عن ابن عباس، وهو أن رسول الله ﷺ دعا على قريش حين استعصوا فقال: «اللهم أعني على قريش بسنين كسني يوسف» أو: «اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف» وأصله في الصحيحين.

(٢) أسر المسلمون ثمامة بن أثال وأتوا به النبي ﷺ، فخلّى سبيله، فلحق بمكة، فحال بين أهل مكة وبين الميرة من اليمامة حتى أكلت قريش العلهز، فجاء أبو سفيان إلى النبي ﷺ فقال: أليس بأنك بعثت رحمة للعالمين؟ فقال: بلى. فقال: قد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع، فأنزل الله: «ولقد أخذناهم بالعذاب». انظر: أسباب النزول للواحدي: ١٧٩، والدر المنثور: ١٢/٥.

يقول تعالى ذِكْرُهُ: والله الذي خلقكم في الأرض، وإليه تُحْشَرُونَ من بعد مماتِكُمْ ثم تُبْعَثُونَ من قبوركم إلى موقفِ الحساب.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: والله الذي يُحْيِي خَلْقَهُ يقول: يجعلهم أحياء بعد أن كانوا نطفاً أمواتاً، بنفخ الروح فيها بعد التارات التي تأتي عليها، «ويميتُ» يقول: ويميتهم بعد أن أحياهم. «ولَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ»، وهو الذي جعلَ الليلَ والنهارَ مختلفين، كما يقال في الكلام: لك المُنُّ والفضلُ، بمعنى: إنك تَمُنُّ وتفضلُ.

وقوله: «أَفَلَا تَعْقِلُونَ»، يقول: أفلا تعقلون أيها الناسُ أن الذي فعلَ هذه الأفعال ابتداءً من غير أصلٍ، لا يمتنعُ عليه إحياءُ الأمواتِ بعد فنائهم، وإنشاء ما شاء إعدامه بعد إنشائه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ما اعتبرَ هؤلاء المشركونَ بآياتِ الله، ولا تَدَبَّرُوا ما احتجَّ عليهم من الحججِ والدلالة على قدرته، على فعل كلِّ ما يشاء، ولكن قالوا مثل ما قال أسلافُهم من الأممِ المُكَذِّبَةِ رُسُلَهَا قَبْلَهُمْ. «قَالُوا إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا»، يقول: أنذا متنا، وعدنا تراباً، قد بليتْ أجسامنا، وبرأت عظامنا من لحومنا «إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ»، يقول: إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ من قبورنا أحياء كهيتنا قبل المماتِ؟ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ غَيْرُ كَائِنٍ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ : قالوا : لقد وَعَدْنَا هذا الوعد الذي تَعِدُّنَا يا محمدُ، وَوَعَدَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُنَا قَوْمٌ ذَكَرُوا أَنَّهُمْ لِلَّهِ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ، فلم نَرَهُ حَقِيقَةً أَنَّ هَذَا يَقُولُ : مَا هَذَا الَّذِي تَعِدُّنَا مِنَ الْبَعْثِ بَعْدَ الْمَمَاتِ «إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ»، يَقُولُ : مَا سَطَّرَهُ الْأَوَّلُونَ فِي كُتُبِهِمْ مِنَ الْأَحَادِيثِ وَالْأَخْبَارِ الَّتِي لَا صَحَّةَ لَهَا وَلَا حَقِيقَةَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ : قُلْ يَا مُحَمَّدُ، لَهُؤُلَاءِ الْمَكْذُبِينَ بِالْآخِرَةِ مِنْ قَوْمِكَ لِمَنْ مَلِكُ الْأَرْضِ وَمَنْ فِيهَا مِنَ الْخَلْقِ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ مَنْ مَالِكُهَا، ثُمَّ أَعْلَمَهُ أَنَّهُمْ سَيَقْرُونَ بِأَنَّهَا لِلَّهِ مَلِكاً دُونَ سَائِرِ الْأَشْيَاءِ غَيْرِهِ. «قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ»، يَقُولُ : فَقُلْ لَهُمْ إِذَا أَجَابُوكَ بِذَلِكَ كَذَلِكَ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ، فَتَعْلَمُونَ أَنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَى خَلْقِ ذَلِكَ ابْتِدَاءً، فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى إِحْيَائِهِمْ بَعْدَ مَمَاتِهِمْ، وَإِعَادَتِهِمْ خَلْقاً سَوِيّاً بَعْدَ فَنَائِهِمْ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَنْقُوبُونَ ﴿٨٧﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ : قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ، مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ، وَرَبُّ الْعَرْشِ الْمَحِيطِ بِذَلِكَ؟ سَيَقُولُونَ ذَلِكَ كُلُّهُ لِلَّهِ «وَهُوَ رَبُّهُ»، فَقُلْ لَهُمْ :

أَفَلَا تَتَّقُونَ عِقَابَهُ عَلَى كُفْرِكُمْ بِهِ ، وَتَكْذِيبِكُمْ خَبْرَهُ وَخَبَرَ رَسُولِهِ ؟

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ : قُلْ يَا مُحَمَّدُ ، مَنْ بِيَدِهِ خَزَائِنُ كُلِّ شَيْءٍ .

وقوله : « وَهُوَ يُجِيرُ » مَنْ أَرَادَ مِنْ قَصْدِهِ بَسْوَءٌ « وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ » ، يَقُولُ : وَلَا أَحَدٌ يَمْتَنِعُ مِنْ أَرَادِهِ هُوَ بَسْوَءٌ ، فَيُدْفَعُ عَنْهُ عَذَابُهُ وَعِقَابُهُ « إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » من ذلك صِفَتُهُ ، فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ : إِنْ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَالْقُدْرَةُ عَلَى الْأَشْيَاءِ ، كُلُّهَا لِلَّهِ ، فَقُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ « فَأَنَّى تُسْحَرُونَ » ، يَقُولُونَ : فَمَنْ أَيْ وَجْهِ تَصْرِفُونَ عَنِ التَّصْدِيقِ بآيَاتِ اللَّهِ ، وَالْإِقْرَارِ بِأَخْبَارِهِ وَأَخْبَارِ رَسُولِهِ ، وَالْإِيمَانِ بِأَنَّ اللَّهَ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ مَا يَشَاءُ ، وَعَلَى بَعْثِكُمْ أَحْيَاءَ بَعْدَ مَمَاتِكُمْ ، مَعَ عِلْمِكُمْ بِمَا تَقُولُونَ مِنْ عَظِيمِ سُلْطَانِهِ وَقُدْرَتِهِ .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يَشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾

يقول : مَا الْأَمْرُ كَمَا يَزْعُمُ الْمُشْرِكُونَ بِاللَّهِ مِنْ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ ، وَأَنَّ الْأَلْهَةَ وَالْأَصْنَامَ آلِهَةٌ دُونَ اللَّهِ . « بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ » الْيَقِينُ ، وَهُوَ الدِّينُ الَّذِي ابْتَعَثَ اللَّهُ بِهِ نَبِيَّهُ ﷺ ، وَذَلِكَ الْإِسْلَامُ ، وَلَا يُعْبَدُ شَيْءٌ سِوَى اللَّهِ ، لِأَنَّهُ لَا إِلَهَ

المؤمنون: ٩٢

غيره. «وإنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ»، يقول: وإنَّ المشركينَ لكاذبونَ فيما يُضيفونَ إلى الله، ويُحلُّونَهُ من الولدِ والشريكِ.

وقوله: «ما اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ما اللهُ مِنْ وَلَدٍ، ولا كانَ معه في القديم، ولا حينَ ابتدَعَ الأشياءَ مَنْ تصلحُ عبادتُهُ، ولو كانَ معه في القديم، أو عند خَلْقِهِ الأشياءَ مَنْ تصلحُ عبادتَهُ «مِنْ إلهٍ إِذَا لَذَهَبَ»، يقول: إِذْنٌ لا عتَزَلَ كُلُّ إلهٍ مِنْهُمْ «بِمَا خَلَقَ» من شيءٍ فانفردَ به، ولتغالَبوا، فَلَعَلَّا بعضهم على بعضٍ، وغَلَبَ القويُّ مِنْهُمْ الضعيفَ، لأنَّ القويَّ لا يرضى أنْ يعلوه ضعيفٌ، والضعيفُ لا يصلحُ أنْ يكونَ إلهًا، فسبحانَ الله ما أبلغها من حجة، وأوجزها لمن عقل وتدبر.

وقوله: «إِذَا لَذَهَبَ» جواب لمحذوف، وهو: لو كانَ معه إلهٌ، إِذْنٌ لذهبَ كُلُّ إلهٍ بما خلقَ، اجتزىءَ بدلالةِ ما ذكرَ عليه عنه.

«سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُصِفُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ تنزيهاً لله عما يصفه به هؤلاء المشركونَ، من أنْ له ولداً، وعَمَّا قالوه من أنْ له شريكاً، أو أنْ معه في القدم إلهاً يُعبد، تبارك وتعالى.

وقوله: «عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: هو عالمٌ ما غابَ عن خَلْقِهِ من الأشياءِ، فلم يَرَوْهُ ولم يشاهدوه، وما رأوه وشاهدوه، إنما هذا من الله خَبَرٌ عن هؤلاء الذين قالوا من المشركينَ: اتَّخَذَ اللهُ وَلِداً، وعبدوا من دونه آلهةً، أنهم فيما يقولون ويفعلون مُبْطِلُونَ مَخْطُؤُونَ، فإنهم يقولون ما يقولون من قولٍ في ذلك عن غيرِ علمٍ، بَلْ عن جهلٍ مِنْهُمْ به، وإنَّ العالمَ بقديمِ الأمورِ وبحديثها، وشاهدِها وغائبِها عنهم، اللهُ الذي لا يَخْفَى عليه شيءٌ، فَخَبَرُهُ هو الحقُّ دونَ خبرهم.

وقوله: «فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: فارتفع اللهُ وَعَلَا عن

شرك هؤلاء المشركين، ووصفهم إياه بما يصفون.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾
رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ
لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾

يقول تعالى ذكّره لنبيه محمد ﷺ : قُلْ يَا مُحَمَّدُ، رَبِّ إِنْ تُرِيدُنِي فِي هَؤُلَاءِ
المشركين مَا نَعِدُهُمْ مِنْ عَذَابِكَ، فَلَا تُهْلِكْنِي بِمَا تُهْلِكُهُمْ بِهِ، وَنَجِّنِي مِنْ
عَذَابِكَ وَسَخَطِكَ، فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الْمَشْرُكِينَ، وَلَكِنْ اجْعَلْنِي مِمَّنْ رَضِيتَ
عَنْهُ مِنْ أَوْلِيَائِكَ.

وقوله : «وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ»، يقول تعالى ذكّره : وَإِنَّا
يَا مُحَمَّدُ، عَلَى أَنْ نُرِيكَ فِي هَؤُلَاءِ الْمَشْرُكِينَ مَا نَعِدُهُمْ مِنْ تَعْجِيلِ الْعَذَابِ
لَهُمْ لِقَادِرُونَ فَلَا يَحْزُنُكَ تَكْذِيبُهُمْ إِيَّاكَ بِمَا نَعِدُهُمْ بِهِ، وَإِنَّمَا نُؤَخِّرُ ذَلِكَ لِيَبْلُغَ
الْكِتَابُ أَجْلَهُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ
بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ
رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونَ ﴿٩٨﴾

يقول تعالى ذكّره لنبيه : ادْفَعْ يَا مُحَمَّدُ بِالْخَلَّةِ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، وَذَلِكَ
الْإِغْضَاءُ وَالصَّفْحُ عَنْ جَهْلَةِ الْمَشْرُكِينَ، وَالصَّبْرُ عَلَى أَذَاهُمْ، وَذَلِكَ أَمْرُهُ إِيَّاهُ قَبْلَ
أَمْرِهِ بِحَرْبِهِمْ، وَعَنْهُ بِالسَّيِّئَةِ : أَذَى الْمَشْرُكِينَ إِيَّاهُ وَتَكْذِيبِهِمْ لَهُ فِيمَا أَتَاهُمْ بِهِ مِنْ
عِنْدِ اللَّهِ، يَقُولُ لَهُ تَعَالَى ذكّره : اصْبِرْ عَلَى مَا تَلْقَى مِنْهُمْ فِي ذَاتِ اللَّهِ.

وقوله: «نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: نحنُ أعلمُ بما يصفونَ اللهَ به، وينحلُّونَهُ من الأكاذيبِ والفِرَةِ عليه، وبما يقولونَ فيكَ من السوءِ، ونحنُ مُجازوهم على جميعِ ذلك، فلا يَحْزُنُكَ ما تسمعُ منهم من قبيحِ القولِ.

وقوله: «وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبية محمدٍ ﷺ: وَقُلْ يَا مُحَمَّدُ، رَبِّ أَسْتَجِيرُ بِكَ مِنْ خَنْقِ^(١) الشَّيَاطِينِ وهَمَزَاتِهَا، وَالْهَمْزُ: هو الغَمَزُ، من ذلك قيل للهمز في الكلام: هَمْزَةٌ، وَالْهَمَزَاتُ جمع هَمْزَةٍ.

وقوله: «وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ»، يقول: وَقُلْ أَسْتَجِيرُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ فِي أُمُورِي.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿١٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٢٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: حتى إذا جاءَ أَحَدٌ هؤلاءِ المشركينَ الموتُ، وعاینَ نزولَ أمرِ اللهِ به، قال لعظيمِ ما يُعاینُ مما يقدِّمُ عليه من عذابِ الله تَنَدُّماً على ما فاتَ، وتَلَهُّفاً على ما فرطَ فيه قبلَ ذلك من طاعةِ الله ومسألته للإقالة «رَبِّ ارْجِعُونِ» إلى الدنيا، فَرَدُّونِي إِلَيْهَا «لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً»، يقول: كي أعملَ صالحاً فيما تركتُ قبلَ اليومِ مِنَ الْعَمَلِ، فَضَيَّعْتُهُ، وَفَرَطْتُ فِيهِ.

وقوله: «كَلَّا»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ليس الأمرُ على ما قالَ هذا المشركُ،

(١) الهمز كالعصر، والخنق: هو عصر الرقبة وضغطها لينقطع النَّفْسُ، لذلك قال المؤلف: خنق الشيطان.

المؤمنون: ١٠٠-١٠٤

لن يُرْجَعَ إِلَى الدُّنْيَا، وَلَنْ يُعَادَ إِلَيْهَا «إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا»، يَقُولُ: هَذِهِ الْكَلِمَةُ، وَهُوَ قَوْلُهُ: «رَبِّ ارْجِعُونِ» كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا: يَقُولُ: هَذَا الْمَشْرِكُ هُوَ قَائِلُهَا.

وقوله: «وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ»، يَقُولُ: وَمِنْ أَمَامِهِمْ حَاجِزٌ يَحْجِزُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الرَّجُوعِ «إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ» مِنْ قُبُورِهِمْ، وَذَلِكَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ. وَالْبَرْزَخُ وَالْحَاجِزُ وَالْمُهْلَةُ مُتَقَارِبَاتٌ فِي الْمَعْنَى.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾

اختلف أهل التأويل في المعنى بقوله: «إِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ» من النفختين أيتهما عني بها، فقال بعضهم: عني بها النفخة الأولى.

فمعنى ذلك على هذا التأويل: إِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ، فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ، فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَتَوَاصَلُونَ بِهَا، وَلَا يَتَسَاءَلُونَ، وَلَا يَتَزَاوَرُونَ، فَيَتَسَاءَلُونَ عَنْ أَحْوَالِهِمْ، وَأَنْسَابِهِمْ. وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ عَنَى بِذَلِكَ النَفْخَةُ الثَّانِيَةُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ»: مَوَازِينُ حَسَنَاتِهِ وَخَفَّتْ مَوَازِينُ سَيِّئَاتِهِ «فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» يَعْنِي الْخَالِدُونَ فِي جَنَاتِ النِّعَمِ «وَمَنْ خَفَّتْ

المؤمنون: ١٠٤-١٠٨

مَوَازِينُهُ»، يقول: وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُ حَسَنَاتِهِ فَرَجَحَتْ بِهَا مَوَازِينُ سَيِّئَاتِهِ «فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ»، يقول: غَبَنُوا أَنْفُسَهُمْ حَظوظَهَا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ «فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ»، يقول: هم في نار جهنم.

وقوله: «تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ»، يقول: تَسْفَعُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ. «وَهُمْ فِيهَا كَالْحُوتِ» والكَلُوح: أَنْ تَتَقَلَّصَ الشُّفْتَانِ عَنِ الْأَسْنَانِ، حَتَّى تَبْدُو الْأَسْنَانِ. فتأويل الكلام: يَسْفَعُ وُجُوهَهُمْ لَهَبُ النَّارِ فَتُحْرِقُهَا، وَهُمْ فِيهَا مُتَقَلَّصُونَ الشِّفَاهِ عَنِ الْأَسْنَانِ مِنْ إِحْرَاقِ النَّارِ وَجُوهَهُمْ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: «أَلَمْ تَكُنْ أَتَىٰ عَلَيَّكُمْ فَاكْتُمِبُوا»
﴿١٠٤﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٥﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: يقال لهم: «أَلَمْ تَكُنْ أَتَىٰ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ» يعني آيات القرآن تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الدُّنْيَا «فَاكْتُمِبُوا».

وقوله: «رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا»، يقول: رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا مَا سَبَقَ لَنَا فِي سَابِقِ عِلْمِكَ وَخُطِّ لَنَا فِي أَمِّ الْكِتَابِ.

وقوله: «وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ»، يقول: كُنَّا قَوْمًا ضَلَلْنَا عَنْ سَبِيلِ الرَّشَادِ، وَقَصَدِ الْحَقَّ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٦﴾ قَالَ اخْسَرُوا فِيهَا وَلَا تَكَلِّمُونِ ﴿١٠٧﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ مُخْبِرًا عَنْ قَبْلِ الَّذِينَ خَفَّتْ مَوَازِينُ صَالِحِ أَعْمَالِهِمْ يَوْمَ

القيامة في جهنم: رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنَ النَّارِ، فَإِنْ عُدْنَا لِمَا تَكْرَهُ مِنَّا مِنْ عَمَلٍ، فَإِنَّا ظَالِمُونَ.

وقوله: «قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: قَالَ الرَّبُّ لَهُمْ جَلُّ ثَنَائُوهُ «اخْسَئُوا فِيهَا»: أَيِ اقْعُدُوا فِي النَّارِ، يُقَالُ مِنْهُ: خَسَأَتْ فَلَانًا أَخْسَوهُ خَسَاءً وَخُسُوءًا، وَخَسِيءٌ هُوَ يَخْسَسُ، وَمَا كَانَ خَاسِئًا، وَلَقَدْ خَسِيَءٌ «وَلَا تُكَلِّمُونِ» فعند ذلك أيسر المساكين من الفرج، ولقد كانوا طامعين فيه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «إِنَّهُ»، وهذه الهاء في قوله: «إِنَّهُ» هي الهاء التي يسميها أهل العربية المجهولة. وقد بَيَّنْتُ معناها فيما مضى قَبْلُ، ومعنى دخولها في الكلام بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع. «كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي»، يقول: كانت جماعة من عبادي، وَهُمْ أَهْلُ الْإِيمَانِ بالله يقولون في الدنيا «رَبَّنَا آمَنَّا بِكَ وَبِرِسْلِكَ، وَمَا جَاءُوا بِهِ مِنْ عِنْدِكَ «فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَارْحَمْنَا» وَأَنْتَ خَيْرُ مَنْ رَحِمَ أَهْلَ الْبَلَاءِ، فَلَا تُعَذِّبْنَا بِعَذَابِكَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا إِنَّهُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فاتخذتم أيها القائلون لرَبِّهم «رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ» في الدنيا، القائلين فيها «رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ» سَخِرِيًّا. والهاء والميم في قوله «فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ» من ذِكْرِ الْفَرِيقِ.

واختلفت القراءة في قوله «سُخْرِيًّا» فقرأه بعضُ قَرَأَةِ الْحِجَازِ وبعضُ أهلِ البصرة والكوفة «فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سُخْرِيًّا» بكسر السين، ويتأولون في كسرهما أن معنى ذلك الهزء، ويقولون: إنها إذا ضُمَّتْ، فمعنى الكلمة: السُّخْرَةُ والاستعبادُ، فمعنى الكلام على مذهب هؤلاء: فاتخذتم أهلَ الإيمانِ بي في الدنيا هُزْؤًا ولعبًا، تهزءونَ بهم حتى أنسوكم ذكري. وقرأ ذلك عامةُ قَرَأَةِ الْمَدِينَةِ والكوفة «فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سُخْرِيًّا» يضم السين، وقالوا: معنى الكلمة في الضمِّ والكسر واحد. وحكى بعضهم عن العربِ سماعاً لَجِّيٍّ وَلَجِيٍّ، ودريٍّ، ودُرِّيٍّ، منسوب إلى الدرِّ، وكذلك كِرْسِيٍّ وكُرْسِيٍّ؛ وقالوا ذلك من قيلهم كذلك، نظير قولهم في جمع العصا: العِصِيَّ بكسر العين، والعُصَيَّ بضمها؛ قالوا: وإنما اخترنا الضمَّ في السُّخْرِيٍّ لأنه أفصحُ اللغتين.

والصوابُ من القول في ذلك، أنهما قراءتان مشهورتان، ولغتان معروفتان بمعنى واحد، قد قرأ بكلٍّ واحدةٍ منهما علماء من القَرَأَةِ، فبأيتهما قرأ القاريُّ ذلك فمصيبٌ، وليس يُعْرِفُ من فرق بين معنى ذلك إذا كُسرت السينُ وإذا ضُمَّتْ، لما ذكرتُ من الروايةِ عَمَّنْ سَمِعَ من العربِ ما حَكَيْتُ عنه.

وقوله: «حتى أنسوكم ذكري»، يقول: لم يزل استهزاؤكم بهم أنساكم ذلك من فعلكم بهم ذكري، فألهاكم عنه «وَكُنْتُمْ مِنْهُ تَضَحِكُونَ».

وقوله: «إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إِنِّي أَتِيهَا الْمُشْرِكُونَ بالله الْمُخَلَّدُونَ في النارِ جَزَيْتُ الَّذِينَ اتَّخَذْتُمُوهُمْ فِي الدُّنْيَا سُخْرِيًّا مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ بِي، وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضَحِكُونَ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا عَلَى مَا كَانُوا يَلْقَوْنَ بَيْنَكُمْ مِنْ أَذَى سُخْرِيَّتِكُمْ وَضَحِكِكُمْ مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا. «إِنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ»، يقول: إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ الْجَنَّةَ بِمَا صَبَرُوا فِي الدُّنْيَا عَلَى أَذَاكُمْ بِهَا فِي أَنَّهُمْ الْيَوْمَ هُمُ الْفَائِزُونَ بِالنَّعِيمِ الدَّائِمِ، وَالْكَرَامَةِ الْبَاقِيَةِ أَبَدًا بِمَا عَمِلُوا مِنْ صَالِحَاتِ الْأَعْمَالِ فِي الدُّنْيَا، وَلَقُوا فِي طَلَبِ رِضَايَ مِنَ الْمَكَارِهِ فِيهَا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَلَّ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ
سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا الْبَيْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلِّ الْعَادِينَ ﴿١١٣﴾

تأويل الكلام: قال الله: كم لبثتم في الدنيا من عدد سنين؟ قالوا مُجِيبِينَ
له: لبثنا فيها يوماً أو بعضَ يومٍ، فاسألَ العَادِينَ، لأنَّا لا ندرى قد نسينا ذلك.
واختلف أهل التأويل في المَعْنَى بالعَادِينَ، فقال بعضهم: هُم الملائكة
الذين يحفظون أعمال بني آدم، ويُحْصُونَ عليهم ساعاتهم.
وقال آخرون: بل هم الحُسَابُ.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال كما قال الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ «فاسألَ
العَادِينَ» وهم الذين يَعُدُّونَ عَدَدَ الشهورِ والسنين وغير ذلك، وجائز أن يكونوا
الملائكة، وجائز أن يكونوا بني آدم وغيرهم، ولا حُجَّةَ بأيّ ذلك من أيّ ثبتت
صحتها، فغيرُ جائز توجيهُ معنى ذلك إلى بعض العَادِينَ دون بعضٍ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَلَّ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ
كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾
يعني: قال الله لهم: ما لبثتم في الأرضِ إِلَّا قَلِيلًا، يسيراً لو أنكم كنتم
تعلمونَ قَدْرَ لَبِثِكُمْ فيها.

وقوله: «أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا؟»، يقول تعالى ذِكْرُه: أفحسبتم أيها
الاشقياء أنا أنما خلقناكم لعباً وباطلاً، وأنكم إلى رَبِّكم بعد مماتكم
لا تصيرونَ أحياء، فَتُجْزَوْنَ بما كنتم في الدنيا تعملون؟

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فتعالى الله الملك الحقُّ عما يَصِفُهُ به هؤلاء المشركون من أن له شريكاً وعما يضيفون إليه من اتِّخَاذِ البنات. «لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ»، يقول: لا معبودَ تنبغي له العبادةُ إلا الله الملك الحقُّ «رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ» والرَّبُّ مرفوع بالرَّدِّ على الحقِّ، ومعنى الكلام: فتعالى الله الملك الحقُّ، رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ، لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وَمَنْ يَدْعُ مَعَ الْمَعْبُودِ الَّذِي لَا تَصْلُحُ الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ معبوداً آخر، لَا حُجَّةَ لَهُ بما يقول ويعمل من ذلك، وَلَا بَيِّنَةَ.

وقوله: «فإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ»، يقول: فإنما حسابُ عمله السَّيِّئِ عند رَبِّهِ وهو مُؤَفِّيهِ جزاءه إذا قَدِمَ عليه. «إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ»، يقول: إنه لا ينجح أهل الكفر بالله عنده، ولا يدركون الخلود والبقاء في النعيم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبیه محمد ﷺ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ، رَبِّ اسْتَغْرِ عَلَيَّ ذُنُوبِي بِغُفُوكَ عَنْهَا، وَارْحَمْنِي بِقَبُولِ تَوْبَتِكَ، وَتَرْكِكَ عِقَابِي عَلَى مَا اجْتَرَمْتُ. «وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ»، يقول: وَقُلْ أَنْتَ يَا رَبُّ خَيْرُ مَنْ رَحِمَ ذَا ذَنْبٍ، فقبل توبته، ولم يعاقبه على ذنبه.

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ
يَلْتَمِذُ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾

يعني بقوله تعالى ذِكْرُهُ : «سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا» : وهذه السورة أنزلناها .

وأما قوله : «وَفَرَضْنَاهَا» فإن الْقَرَأَةَ اختلفت في قراءته ، فقرأه بعض قَرَأَةَ
الحجاز والبصرة «وَفَرَضْنَاهَا» ويتأولونه : وفصلناها ونزلنا فيها فرائض مختلفة .
وكذلك كان مجاهد يقرؤه ويتأوله .

وقد يحتمل ذلك إذا قُرِئَ بالتشديد وجهاً غير الذي ذكرنا عن مجاهد ،
وهو أَنْ يُوجَّهَ إِلَى أَنْ معناه : وفرضناها عليكم وعلى مَنْ بعدكم من الناس إِلَى
قيام الساعة . وقرأ ذلك عامة قَرَأَةَ المدينة والكوفة والشَّامِ «وَفَرَضْنَاهَا» بتخفيفِ
الراء ، بمعنى : أَوْجَبْنَا ما فيها من الأحكامِ عليكم ، وَالزَّمَنَّاكُمْوهُ وَيُنَا ذلك
لكم .

والصوابُ من القولِ في ذلك أَنهما قراءتان مشهورتان قد قرأ بكلِّ واحدةٍ
منهما علماء من الْقَرَأَةِ ، فبِأَيْتِهِمَا قرأ القاريءُ فمصيبٌ . وذلك أَنَّ الله قد فَصَّلَهَا ،
وَأَنْزَلَ فِيهَا ضَرْباً من الأحكام ، وَأَمَرَ فِيهَا ونَهَى ، وفرض على عباده فيها فرائض .
ففيها المعنيان كِلَاهُمَا : التَّفْرِيضُ ، والفرض ، فلذلك قلنا بآية القراءتين قرأ
القاريءُ فمصيب الصواب .

النور: ١-٢

وقوله: «وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وأنزلنا في هذه السورة علاماتٍ ودلالاتٍ على الحقِّ بَيِّنَاتٍ، يعني واضحاتٍ لمن تأملها وفكَّرَ فيها بعقلٍ، أنها من عند الله، فإنها الحقُّ المبينُ، وإنها تهدي إلى الصراطِ المستقيم. «لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ»، يقول: لتذكروا بهذه الآياتِ البيناتِ التي أنزلناها.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةً جَلْدَةً وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَشَهِدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: مَنْ زَنِى مِنَ الرِّجَالِ، أَوْ زَنَتِ مِنَ النِّسَاءِ، وَهُوَ حُرٌّ بِكَرٍّ غَيْرِ مُحْصَنٍ بِزَوْجٍ، فَاجْلِدُوهُ ضَرْباً مِائَةً جَلْدَةً، عَقوبةً لما صنَعَ وأتى من معصية الله «وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: لَا تَأْخُذْكُمْ بِالزَّانِي وَالزَّانِيَةِ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ رَأْفَةً، وَهِيَ رِقَّةُ الرَّحْمَةِ فِي دِينِ اللَّهِ، يَعْنِي فِي طَاعَةِ اللَّهِ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ مِنْ إِقَامَةِ الْحَدِّ عَلَيْهِمَا عَلَى مَا أَلْزَمَكُمْ بِهِ.

واختلف أهل التأويل في المنهَى عنه المؤمنون من أخذِ الرأفةِ بهما، فقال بعضهم: هو تركُ إقامةِ حَدِّ اللَّهِ عليهما، فأما إذا أُقِيمَ عليهما الحدُّ، فَلَمْ تَأْخُذْهُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: «وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ» فَتُخَفَّفُوا الضَّرْبَ عَنْهُمَا، وَلَكِنْ أَوْجَعُوهُمَا ضَرْباً.

وأولى القولين في ذلك بالصواب قول مَنْ قَالَ: معنى ذلك: لَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي إِقَامَةِ حَدِّ اللَّهِ عَلَيْهِمَا الَّذِي افترض عليكم إقامته عليهما.

وإنما قلنا ذلك أُولَى التَّأْوِيلِينَ بالصَّوَابِ لدلالة قولِ اللَّهِ بعده «فِي دِينِ اللَّهِ» يعني فِي طَاعَةِ اللَّهِ الَّتِي أَمَرَكُم بِهَا، وَمَعْلُومٌ أَنَّ دِينَ اللَّهِ الَّذِي أَمَرَ بِهِ فِي الزَّانِنِينَ إِقَامَةَ الْحَدِّ عَلَيْهِمَا، عَلَى مَا أَمَرَ مِنْ جَلْدِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ، مَعَ أَنَّ الشَّدَّةَ فِي الضَّرْبِ لَا حَدَّ لَهَا يَوْقِفُ عَلَيْهِ، وَكُلُّ ضَرْبٍ أَوْجَعُ فَهُوَ شَدِيدٌ، وَلَيْسَ لِلَّذِي يَوْجَعُ فِي الشَّدَّةِ حَدٌّ لَا زِيَادَةَ فِيهِ فَيُؤْمَرُ بِهِ. وَغَيْرُ جَائِزٍ وَصْفُهُ جَلٌّ ثَنَائُهُ بِأَنَّهُ أَمَرَ بِمَا لَا سَبِيلَ لِلْمَأْمُورِ بِهِ إِلَى مَعْرِفَتِهِ. وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَالَّذِي لِلْمَأْمُورِينَ إِلَى مَعْرِفَتِهِ السَّبِيلُ هُوَ عَدَدُ الْجَلْدِ عَلَى مَا أَمَرَ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ إِقَامَةُ الْحَدِّ عَلَى مَا قُلْنَا. وَلِلْعَرَبِ فِي الرَّأْفَةِ لَعَتَانِ: الرَّأْفَةُ بِتَسْكِينِ الْهَمْزَةِ وَالرَّأْفَةُ بِمَدِّهَا كَالسَّامَةِ وَالسَّامَةُ وَالْكَأَبَةُ وَالْكَأَبَةُ. وَكَأَنَّ الرَّأْفَةَ الْمَرَّةَ الْوَاحِدَةَ، وَالرَّأْفَةَ الْمَصْدَرُ، كَمَا قِيلَ: ضُؤْلٌ ضَالَّةٌ، مِثْلُ فَعَلٍ فَعَالَةٌ، وَقَبَحٌ قَبَاحَةٌ.

وقوله: «إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ»، يَقُولُ: إِنْ كُنْتُمْ تُصَدِّقُونَ بِاللَّهِ رَبِّكُمْ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَأَنْتُمْ فِيهِ مَبْعُوثُونَ لِحَشْرِ الْقِيَامَةِ، وَلِلثَوَابِ وَالْعِقَابِ، فَإِنَّ مَنْ كَانَ بِذَلِكَ مُصَدِّقًا فَإِنَّهُ لَا يَخَالِفُ اللَّهَ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ خَوْفَ عِقَابِهِ عَلَى مَعَاصِيهِ.

وقوله: «وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ»، يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَلِيَحْضُرَ جَلْدَ الزَّانِنِينَ الْبَكْرِينَ وَحَدَّهُمَا إِذَا أُقِيمَ عَلَيْهِمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. وَالْعَرَبُ تَسْمِي الْوَاحِدَ فَمَا زَادَ: طَائِفَةٌ.

وقوله: «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ»، يَقُولُ: مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ. وَقَدْ اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي مَبْلَغِ عَدَدِ الطَّائِفَةِ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِشَهَادَةِ عَذَابِ الزَّانِنِينَ الْبَكْرِينَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَقْلُهُ وَاحِدٌ.

وَقَالَ آخَرُونَ: أَقْلُهُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ رَجُلَانِ.

وَقَالَ آخَرُونَ: أَقْلُ ذَلِكَ ثَلَاثَةُ فِصَاعِدًا.

وقال آخرون: بل أقل ذلك أربعة.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول مَنْ قال: أقل ما ينبغي حضور ذلك عدد من المسلمين الواحد فصاعداً، وذلك أَنَّ الله عَمَّ بقوله: «وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ» والطائفة: قد تقع عند العرب على الواحد فصاعداً. فإذا كان ذلك كذلك، ولم يكن الله تعالى ذَكَرَهُ وضع دلالة على أَنَّ مراده من ذلك خاص من العدد، كان معلوماً أَنَّ حضور ما وقع عليه أدنى اسم الطائفة ذلك المَحْضَر، مخرجٌ مقيم الحد، مما أمره الله به بقوله: «وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» غير أنني وإن كان الأمر على ما وصفتُ، أستحبُّ أن لا يقصر بعدد مَنْ يحضر ذلك الموضع عن أربعة أنفسٍ عدد مَنْ تقبل شهادته على الزنا، لأنَّ ذلك إذا كان كذلك، فلا خلاف بين الجميع أنه قد أدى المقيم الحد ما عليه في ذلك، وهُمْ فيما دون ذلك مختلفون.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٤﴾

اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: نزلت هذه الآية في بعض مَنْ استأذن رسول الله ﷺ في نكاح نسوة كُنَّ معروفاتٍ بالزنا من أهل الشرك، وكُنَّ أصحابَ راياتٍ يَكْرِينَ أَنْفُسَهُنَّ، فأنزل الله تحريمهنَّ على المؤمنين، فقال: الزاني من المؤمنين لا يتزوج إلا زانيةً أو مشركةً، لأنهنَّ كذلك؛ والزانية من أولئك البغايا لا ينكحها إلا زانٍ من المؤمنين أو المشركين، أو مشرك مثلها، لأنهنَّ كُنَّ مشركات. «وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ» فَحَرَّمَ الله نكاحهنَّ في قول أهل هذه المقالة بهذه الآية.

وقال آخرون: معنى ذلك: الزاني لا يزني إلا بزانيةً أو مشركةً، والزانية

لا يزني بها إلا زانٍ أو مشرك. قالوا: ومعنى النكاح في هذا الموضع: الجماع. وقال آخرون: كان هذا حكم الله في كُلِّ زانٍ وزانية حتى نَسَخَهُ بقوله: «وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ» فأحلَّ نكاحَ كُلِّ مسلمةٍ، وإنكاحَ كُلِّ مسلم.

وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قولُ مَنْ قال: عَنَى بالنكاح في هذا الموضع: الوطء، وأنَّ الآيةَ نزلتْ في البغايا المشركاتِ ذواتِ الراياتِ، وذلك لقيامِ الحجةِ على أنَّ الزانيةَ من المسلماتِ حرامٌ على كُلِّ مشرك، وأنَّ الزاني من المسلمين حرامٌ عليه كُلُّ مشرقةٍ من عبدةِ الأوثان. فمعلومٌ إذْ كان ذلك كذلك، أنه لم يُعَنَّ بالآيةِ أنَّ الزاني من المؤمنين لا يعقدُ عقدَ نكاحٍ على عفيفةٍ من المسلماتِ، ولا ينكح إلا بزانيةٍ أو مشرقةٍ. وإذْ كان ذلك كذلك، فَبَيَّنَ أنَّ معنى الآية: الزاني لا يزني إلا بزانيةٍ لا تستحلُّ الزنا، أو بمشركةٍ تستحله.

وقوله: «وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ»، يقول: وَحُرِّمَ الزنا على المؤمنين بالله ورسوله، وذلك هو النكاح الذي قال جَلَّ ثَنَاهُ: «الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً».

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ



يقول تعالى ذِكْرُهُ: والذين يَشْتُمُونَ العفافَ من حرائرِ المسلمين، فيرمونهنَّ بالزنا، ثم لم يأتوا على ما رَمَوْهُنَّ به من ذلك بأربعةِ شهداءِ عُدُولٍ يشهدونَ عليهنَّ أنهنَّ راوهُنَّ يفعلنَ ذلك، فاجلدوا الذين رَمَوْهُنَّ بذلك ثمانينَ جلدَةً، ولا تقبلوا لهم شهادةً أبداً، وأولئك هم الذين خالفوا أمرَ الله، وخرجوا من طاعته، ففسقوا عنها.

وذكر أن هذه الآية إنما نزلت في الذين رَمَوْا عائشة زوج النبي ﷺ بما رَمَوْهَا به من الإفك.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ»

اختلف أهل التأويل في الذي استثنى منه قوله: «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا» فقال بعضهم: استثنى من قوله «وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا، وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ» وقالوا: إذا تاب القاذف قُبِلَتْ شهادته، وزال عنه اسمُ الفسق، حُدِّ فيه أو لم يُحَدِّ.

وقال آخرون: الاستثناء في ذلك من قوله: «وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ»، وأما قوله: «وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا» فقد وصل بالأبد ولا يجوز قبولها أبدًا.

والصواب من القول في ذلك عندنا أن الاستثناء من المعنيين جميعاً، أعني من قوله: «وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا»، ومن قوله: «وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ»، وذلك أنه لا خلاف بين الجميع أن ذلك كذلك إذا لم يحد في القذف حتى تاب، إما بأن يرفع إلى السلطان بعضو المقدوفة عنه، وإما بأن مات قبل المطالبة بحدّها، ولم يكن لها طالبٌ بحدّها. فإذا كان ذلك كذلك، وحدثت منه توبة، صَحَّتْ له بها العدالة، فإذا كان من الجميع إجماعاً، ولم يكن الله تعالى ذِكْرُهُ شَرْطَ في كتابه أن لا تُقْبَلَ شهادته أبداً بعد الحدِّ في رَمِيهِ بل نهى عن قبول شهادته في الحال التي أوجب عليها فيها الحدّ، وسماه فيها فاسقاً، كان معلوماً بذلك أن إقامة الحدّ عليه في رميه لا تحدث في شهادته مع التوبة من ذنبه ما لم يكن حادثاً فيها، قبل إقامته عليه، بل توبته بعد إقامة الحدّ عليه من ذنبه أخرى أن تكون شهادته معها أجوز منها قبل إقامته عليه،

لأنَّ الحدَّ يزيدُ المحدود عليه تطهيراً من جُرْمِهِ الذي استحقَّ عليه الحدَّ.

فإنَّ قال قائل: فهل يجوز أن يكون الاستثناء من قوله: «فاجلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً» فتكون التوبة مُسْقِطَةً عنه الحدَّ، كما كانت لشهادته عندك قبل الحدَّ، وبعده مجيزة، ولاسمِ الفسقى عنه مُزيلة؟ قيل: ذلك غيرُ جائزٍ عندنا، وذلك أنَّ الحدَّ حقٌّ عندنا للمقذوفة كالقصاصِ الذي يجبُ لها من جنابةٍ يجنيها عليها مما فيه القصاصُ، ولا خلافَ بين الجميع أنَّ توبته من ذلك لا تَضَعُ عنه الواجبَ لها من القصاصِ منه، فكذلك توبته من القذفِ لا تَضَعُ عنه الواجبَ لها من الحدَّ، لأنَّ ذلك حقٌّ لها، إنَّ شاءت عفته، وإنَّ شاءت طالبتُ به، فتوبةُ العبدِ من ذنبه، إنما تَضَعُ عن العبدِ الأسماءَ الذميمةَ، والصفاتِ القبيحة، فأما حقوقُ الأدميين التي أوجبها الله لبعضهم على بعضٍ في كلِّ الأحوالِ، فلا تزولُ بها ولا تبطل.

واختلف أهلُ العلم في صفة توبةِ القاذفِ التي تُقْبَلُ معها شهادته، فقال بعضهم: هو إكذابهُ نفسه فيه.

وقال آخرون: توبته من ذلك صلاحُ حاله وَندَمُهُ على ما فرطَ منه من ذلك، والاستغفارُ منه، وتركه العودَ في مثل ذلك من الجرمِ، وذلك قولُ جماعةٍ من التابعين وغيرهم، وهو قولُ مالك بن أنس.

وهذا القولُ أولى القولين في ذلك بالصواب، لأنَّ الله تعالى ذكَّره جعلَ توبةَ كُلِّ ذَنْبٍ من أهلِ الإيمانِ تركه العودَ منه، والندمُ على ما سلفَ منه، واستغفارُ ربه منه فيما كان من ذَنْبٍ بَيْنَ العبدِ وبينه، دونَ ما كان من حقوقِ عباده ومظالمهم بينهم، والقاذفُ إذا أُقِيمَ عليه فيه الحدَّ، أو عُفِيَ عنه، فلم يبقَ عليه إلا توبته من جُرْمِهِ بينه وبين ربه، فسبيلُ توبته منه سبيلُ توبته من سائرِ أجرامه. فإذا كان الصحيحُ في ذلك من القولِ ما وصفنا، فتأويلُ الكلام: وأولئك هم الفاسقون، إلا الذين تابوا من جُرْمِهِم الذي اجترموا بقذفهم

المحصنات من بعد اجترامهموه «فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ»، يقول: سائر على ذنوبهم بعفوه لهم عنها، رحيمٌ بهم بعد التوبة أن يُعَذِّبَهُمْ عليها، فاقبلوا شهادتهم ولا تُسَمُّوهم فسقةً، بل سَمُّوهم بأسمائهم التي هي لهم في حال توبتهم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾»

يقول تعالى ذكره: «وَالَّذِينَ يَرْمُونَ» من الرجال «أَزْوَاجَهُمْ» بالفاحشة، فيقذفونهنَّ بالزنا، «وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ» يشهدون لهم بصحة ما رموهنَّ به من الفاحشة «فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ».

ومعنى الكلام: والذين يرمون أزواجهم، ولم يكن لهم شهود إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين، تقوم مقام الشهداء الأربعة في دفع الحد عنه، فترك ذكر تقوم مقام الشهداء الأربعة، اكتفاء بمعرفة السامعين بما ذكر من الكلام، فصار مرافع الشهادة ما وصفت. ويعني بقوله: «فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ» فحلف أحدهم أربع أيمان بالله من قول القائل: أشهد بالله إنه لمن الصادقين فيما رمى زوجته به من الفاحشة. «وَالْخَامِسَةُ»، يقول: والشهادة الخامسة «أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ»، يقول: أن لعنة الله له واجبة عليه وحالة إن كان فيما رماها به من الفاحشة من الكاذبين.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَيَذَرُوا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ

يعني جلَّ ذِكْرُهُ بقوله: «وَيَذَرُ عَنْهَا الْعَذَابَ» ويدفع عنها الحدَّ.

واختلف أهل العلم في العذاب الذي عنه الله في هذا الموضع أنه يدرؤه عنها شهادتها الأربع، فقال بعضهم بنحو الذي قلنا في ذلك من أن الحدَّ جلد مئة إن كانت بكرًا، أو الرجم إن كانت ثيبًا قد أحصنت.

وقال آخرون: بل ذلك الحبس، وقالوا: الذي يجبُ عليها أن هي لم تشهدِ الشهاداتِ الأربع بعد شهادتِ الزوج الأربع والتعانه: الحبس دونَ الحدَّ.

وإنما قلنا: الواجبُ عليها إذا هي امتنعت من الالتعانِ بعد التعانِ الزوجِ الحدَّ الذي وصفنا قياساً على إجماع الجميعِ على أن الحدَّ إذا زالَ عن الزوجِ بالشهاداتِ الأربع على تصديقه فيما رَمَاهَا به، أن الحدَّ عليها واجبٌ، فجعل الله أيمانه الأربع، والتعانه في الخامسة مُخْرَجاً له من الحدِّ الذي يجبُ لها برميهِ إياها، كما جعلَ الشهداءَ الأربعة مُخْرَجاً له منه في ذلك، وزائلاً به عنه الحدَّ، فكذلك الواجبُ أن يكون بزوالِ الحدِّ عنه بذلك واجباً عليها حدّها، كما كان بزواله عنه بالشهود واجباً عليها، لا فرق بين ذلك.

وقوله: «أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ»، يقول: ويدفع عنها العذاب أن تحلفَ بالله أربعَ أيمانٍ أن زوجها الذي رماها بما رماها به من الفاحشةِ لمن الكاذبين فيما رماها به من الزنا. وقوله: «وَالْخَامِسَةُ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا»... الآية، يقول: والشهادة الخامسة: أن غَضَبَ اللَّهِ عليها إن كان زوجها فيما رماها به من الزنا من الصادقين؛ ورفع قوله: «وَالْخَامِسَةُ» في كلتا الآيتين بأن التي تليها.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ

تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولولا فضل الله عليكم أيها الناس ورحمته بكم، وأنه عَوَّادٌ على خَلْفِهِ بِلُطْفِهِ وَطَوْلِهِ، حكيم في تدبيره إياهم، وسياسته لهم، لعاجلكم بالعقوبة على معاصيكم، وفَضَحَ أهل الذنوب منكم بذنوبهم، ولكنه سَتَرَ عليكم ذنوبكم، وترك فضيحتكم بها عاجلاً رحمةً منه بكم، وتَفَضُّلاً عليكم، فاشكروا نعمه، وانتهوا عن التقدُّم عما عنه نهاكم من معاصيه، وترك الجواب في ذلك إكتفاءً بمعرفة السامع المراد منه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا

تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْكَذِبِ والبهتان «عُصْبَةٌ مِنْكُمْ»، يقول: جماعة منكم أيها الناس. «لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ، بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ»، يقول: لا تظنوا ما جاءوا به من الإفك شراً لكم عند الله، وعند الناس، بَلْ ذلك خيرٌ لكم عنده وعند المؤمنين، وذلك أَنَّ الله يجعل ذلك كفارةً للمرمي به ويظهر براءته مما رُمِيَ به، ويجعل له منه مخرجاً. وقيل: إن الذي عَنِى الله بقوله: «إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ»: جماعة منهم حَسَّان بن ثابت، وَمِسْطَح بن أَنَاثَة، وَحَمْنَة بنت جَحْش.

وقوله: «لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ»، يقول: لكل امرئ من الذين جاءوا بالإفك جزاء ما اجترَمَ من الإثم، بمجيئه بما جاء به.

وقوله: «وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ»، يقول: والذي تَحَمَّلَ معظم ذلك الإثم والإفك منهم هو الذي بدأ بالخوض فيه، «له عذاب عظيم» يوم القيامة. وقد اختلف أهل التأويل في المعنى بقوله: «وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ»... الآية، فقال بعضهم: هو حسان بن ثابت.

وقال آخرون: هو عبدالله بن أبي بن سلول.

وأولى القولين في ذلك بالصواب قول مَنْ قال: الذي تَوَلَّى كِبْرَهُ من عصبية الإفك كان عبدالله بن أبي، وذلك أنه لا خلاف بين أهل العلم بالسير أن الذي بدأ بذكر الإفك وكان يجمع أهله ويحدثهم عبدالله بن أبي ابن سلول، وفعله ذلك كان توليه كِبَر ذلك الأمر.

وكان سبب مجيء أهل الإفك، ما حدثنا به ابن عبد الأعلى، قال: حدثنا محمد بن ثور، عن مَعْمَر، عن محمد بن مُسْلِم بن عُبيدالله بن عبدالله ابن شهاب، قال: حدثني عروة بن الزبير، وسعيد بن المُسيَّب، وعلقمة بن وقاص، وعُبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود، عن حديث عائشة زوج النبي ﷺ حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، فَبَرَّأها الله، وكُلُّهم حدثني طائفة من حديثها، وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض، وأثبت اقتصاصاً، وقد وَعِيَتْ عن كُلِّ رجلٍ منهم الحديث الذي حدثني عن عائشة، وبعض حديثهم يُصَدِّق بعضها^(١).

زعموا أن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها؛ قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزاة غزاها، فخرج سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ، وذلك بعد ما أنزل الحجاب، وأنا أحمل في هودجي، وأنزل فيه، فسرنا، حتى إذا فرغ رسول الله

(١) الحديث بطوله في الصحيحين: البخاري (٤٧٥٠)، ومسلم (٢٧٧٠).

ﷺ من غزوه وقفل إلى المدينة آذَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ فَقَمْتُ حِينَ آذَنُوا بِالرَّحِيلِ ، فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الْجَيْشَ ؛ فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي أَقْبَلْتُ إِلَى الرَّحْلِ ، فَلَمَسْتُ صَدْرِي ، فَإِذَا عِقْدٌ لِي مِنْ جَزَعٍ ظَفَّارٌ قَدْ انْقَطَعَ ، فَرَجَعْتُ فَالْتَمَسْتُ عَقْدِي ، فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ ، وَأَقْبَلَ الرَّهْطُ الَّذِينَ كَانُوا يَرْحَلُونَ لِي ^(١) ، فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي فَرَحَلُوهُ عَلَى بَعِيرِي الَّذِي كُنْتُ أُرْكَبُ ، وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فِيهِ ؛ قَالَتْ : وَكَانَ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافًا لَمْ يُهَبِّلْنَ ^(٢) وَلَمْ يَغْشَهُنَّ اللَّحْمُ ، إِنَّمَا يَأْكُلْنَ الْعُلُقَةَ مِنَ الطَّعَامِ ، فَلَمْ يَسْتَكِرِ الْقَوْمُ ثَقُلَ الْهُودَجُ حِينَ رَحَلُوهُ وَرَفَعُوهُ ، وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ ، فَبَعَثُوا الْجَمَلَ وَسَارُوا فَوَجَدْتُ عَقْدِي بَعْدَمَا اسْتَمَرَّ الْجَيْشُ فَجِئْتُ مَنَازِلَهُمْ وَلَيْسَ بِهَا دَاعٍ وَلَا مَجِيبٌ ، فَتَيَمَّمْتُ مَنَزْلِي الَّذِي كُنْتُ فِيهِ ، وَظَنَنْتُ أَنَّ الْقَوْمَ سَيَفْقِدُونِي وَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ ، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ فِي مَنَزْلِي ، غَلَبَتْنِي عَيْنِي ، فَنِمْتُ حَتَّى أَصْبَحْتُ ، وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ الْمُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ ، ثُمَّ الذَّكْوَانِيُّ قَدْ عَرَّسَ ^(٣) مِنْ وَرَاءِ الْجَيْشِ ، فَادَّلَجَ ^(٤) فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنَزْلِي ، فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ ، فَأَتَانِي فَعَرَفَنِي حِينَ رَأَانِي ، وَكَانَ يَرَانِي قَبْلَ أَنْ يُضْرَبَ الْحِجَابُ عَلَيَّ فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ حِينَ عَرَفَنِي ، فَخَمَرْتُ وَجْهِي بِجِلْبَانِي ، وَاللَّهُ مَا تَكَلَّمْتُ بِكَلِمَةٍ ، وَلَا سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً غَيْرَ اسْتِرْجَاعِهِ ، حَتَّى أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ ، فَوَطِئْتُ عَلَى يَدَيْهَا ، فَرَكِبْتُهَا ، فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ ، حَتَّى أَتَيْنَا الْجَيْشَ بَعْدَمَا نَزَلُوا مَوْغِرِينَ ^(٥) فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ ، فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ فِي شَأْنِي ، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي ابْنِ سَلُولٍ ، فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ ، فَاشْتَكَيْتُ شَهْرًا وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ فِي قَوْلِ أَهْلِ الْإِفْكِ ، وَلَا أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، وَهُوَ يُرِينِي فِي وَجْعِي أَنِّي لَا أَعْرِفُ مَنْ

(١) رحلت البعير: إذا شددت عليه الرحل.

(٢) أي: يثقلن باللحم والشحم.

(٣) عرَّس: نزل آخر الليل للراحة.

(٤) الادَّلَج: السير آخر الليل.

(٥) أي: النازل في وقت الوغرة، وهي شدة الحر.

رسول الله اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل فيسَلِّم ثم يقول: كيف تَيْكُم، فذلك يريني، ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعدما نَقِهْتُ، فخرجت مع أم مسطح قَبْلَ المناصع، وهو مُتَبَرِّزُنَا، ولا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قَبْلَ أَنْ نَتَّخِذَ الْكُفْ قَرِيباً من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في التنزه^(١)، وكنا نتأذى بالكُفْ أَنْ نَتَّخِذَهَا عند بيوتنا، فانطلقت أنا وأم مسطح، وهي ابنة أبي رُهم بن عبدالمطلب بن عبد مناف، وأمها ابنة صخر بن عامر، خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثانة بن عَبَاد بن المطلب؛ فأقبلت أنا وابنة أبي رُهم قَبْلَ بيتي حين فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح في مِرْطِهَا^(٢)، فقالت: تَعَسَّ مسطح، فقلتُ لها: بئس ما قلت! أتسيين رجلاً قد شهد بدرًا؟ فقالت أي هَتَّاهُ^(٣) أَوْ لَمْ تَسْمَعِي ما قال؟ قلتُ: وما قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضاً على مرضي؛ فلما رجعت إلى منزلي ودخل علي رسول الله ﷺ، ثم قال كَيْفَ تَيْكُم؟ فقلت: أتأذن لي أن آتي أبوي؟ قال: نعم، قالت: وأنا حينئذ أريد أن أستثبت الخبر من قبلهما، فأذن لي رسول الله ﷺ، فجلستُ أبوي فقلتُ لأمي: أي أُمَّاه ماذا يتحدث الناس؟ فقالت: أي بُنْيَة هَوْنِي عليك، فوالله لَقَلَّمَا كانت امرأة قَطُّ وضيئة عند رجلٍ يحبها ولها ضرائر إلا أَكْثَرْنَ عليها. قالت: قلت: سبحان الله، أَوْ قَدْ تَحَدَّثَ النَّاسُ بهذا وبلغ رسول الله ﷺ؟ قالت: نعم، فبكيتُ تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت فدخل علي أبو بكر وأنا أبكي، فقال لأمي: ما يُبْكِيها؟ قالت: لم تكن علمت ما قِيلَ لها، فأكبُّ يبكي، فبكى ساعة ثم قال: اسكتي يا بنية، فبكيتُ يومي ذلك لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، ثم بكيتُ

(١) هو الخروج إلى الصحراء للخلاء.

(٢) كساء من صوف.

(٣) معناها: يا هذه، وقيل: يا امرأة، وقيل: يا بلهاء.

ليلي المقبل لا يرقأ لي دمعٌ، ولا أكتحل بنومٍ، ثم بكيت ليلتي المقبلة، لا يرقأ لي دمعٌ، ولا أكتحل بنومٍ، حتى ظنَّ أبواي أنَّ البكاء سيفلق كبدي.

فدعا رسول الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب وأسامَةَ بن زيد حين استلبتُ الوحيُ يستشيرهما في فراقِ أهله. قالت: فأما أسامةُ فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلمُ من براءةِ أهله وبالذي في نفسه من الودِّ فقال: يا رسول الله هُمُ أهلك ولا نعلمُ إلا خيراً. وأما عليُّ فقال: لم يُضَيِّقِ اللهُ عليك والنساءُ سِواها كثيرٌ وإنَّ تسألَ الجاريةَ تصدُقُكَ، يعني بريرةَ، فدعا رسول الله ﷺ بريرةَ، فقال: هل رأيتِ مِنْ شَيْءٍ يَرِيْبُكَ مِنْ عَائِشَةَ؟ قالت له بريرة: والذي بعثك بالحق ما رأيتُ عليها أمراً قطَّ أَعْمِصُهُ^(١) عليها، أكثر من أنها حديثُة السن، تنام عن عجينِ أهلها، فتأتي الداجن^(٢) فتأكله.

فقام النبي ﷺ خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ قَدْ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِي، يعني عبدالله بن أبي ابن سلول، وقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر أيضاً: يا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِي، فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْراً، وَلَقَدْ ذَكَّرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْراً، وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي.

فقام سعدُ بن معاذ الأنصاري فقال: أنا أعذركَ منه يا رسول الله، إنَّ كان من الأوسِ ضربنا عُنُقَهُ، وإنَّ كان من إخواننا الخزرجِ أمرتنا ففعلنا أمرَكَ؛ فقام سعدُ بن عبادَةَ فقال، وهو سيدُ الخزرجِ، وكان رجلاً صالحاً، ولكن احتملته الحَمِيَّةُ، فقال: أي سعد بن معاذ، لَعَمْرُ اللهِ لا تقتله، ولا تقدرُ على قتله، فقام أسيدُ بن حضير وهو ابنُ عَمٍّ^(٣) سعدِ بن معاذ، فقال لسعد بن عبادَةَ: كذبت

(١) أي: أعيه.

(٢) الداجن: الشاة التي تألف البيت ولا تخرج للمرعى.

(٣) في المطبوع: ابن عمه، ولا يستقيم، وما أثبتناه من الصحيحين.

لَعَمْرُ اللَّهِ لَنَقُتِلَنَّهُ، فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ تَجَادَلُ عَنِ الْمُنَافِقِينَ، فَتَارَ الْحَيَّانِ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ، حَتَّى هُمَا أَنْ يَقْتَتِلُوا، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَائِمٌ عَلَى الْمَنْبَرِ، فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُخَفِّضُهُمْ حَتَّى سَكَتُوا.

ثم أتاني رسولُ الله ﷺ وأنا في بيت أبيي، فبينما هُما جالسانِ عندي وأنا أبكي، استأذنت عليَّ امرأةٌ من الأنصار، فأذنتُ لها، فجلستُ تبكي معي؛ قالت: فبينما نحنُ على ذلك، دخل علينا رسولُ الله ﷺ، ثم جلسَ عندي، ولم يجلسْ عندي منذَ قِلٍّ ما قِلَّ، وقد لبثَ شهراً لا يُوحَى إليه في شأني بشيءٍ؛ قالت: فَتَشْهَدُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حينَ جلسَ، ثم قال: أَمَا بَعْدُ يَا عَائِشَةُ فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكَ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتَ بَرِيئَةً فَسَيِّرُوكَ اللَّهُ، وَإِنْ كُنْتَ أَلَمَمْتَ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ ثُمَّ تَابَ، تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ. فلما قضى رسولُ الله ﷺ مقالته، قلص^(١) دمعي حتى ما أحسُّ منه دمعَةً؛ قلتُ لأبي: أَجِبْ عَنِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فيما قَالَ، قال: والله ما أدري ما أقولُ لرسولِ الله ﷺ، فقلتُ لأمي: أَجِيبِي عَنِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قالت: والله ما أدري ما أقولُ لرسولِ الله ﷺ، فقالت: فقلتُ وأنا جاريةٌ حديثةُ السنِّ لا أقرأ كثيراً من القرآن: إني والله قد عرفتُ أن قد سمعتم بهذا حتى استقرَّ في أنفسكم، حتى كِدْتُمْ أَنْ تُصَدِّقُوا بِهِ، فَإِنْ قُلْتُ لَكُمْ: إني بريئة، والله يعلمُ أنني بريئةٌ لا تصدَّقوني بذلك، ولئنِ اعترفتُ لكم بأمرٍ، والله يعلمُ أنني منه بريئةٌ لَتُصَدِّقُنِّي، وإني والله ما أجدُ لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف «فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ».

ثم تَوَلَّيْتُ واضطجعتُ على فراشي، وأنا والله أعلمُ أنني بريئة، وأن الله سيبرئني ببراءتي، ولكني والله ما كنتُ أَظُنُّ أَنْ يُنْزَلَ فِي شَأْنِي وَحْيٌ يُتْلَى، وَلَشَأْنِي كَانَ أَحَقَرُ فِي نَفْسِي مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللَّهُ فِيَّ بِأَمْرٍ يُتْلَى، ولكن كنتُ أرجو

(١) أي: ارتفع فاستمسك نزوله فانقطع.

أَنْ يَرَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَنَامِ رُؤْيَا يَبْرِئُنِي اللَّهُ بِهَا، قَالَتْ: وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَجْلِسَهُ، وَلَا خَرَجَ مِنَ الْبَيْتِ أَحَدٌ حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ، فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ الْبُرْحَاءِ^(١) عِنْدَ الْوَحْيِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِثْلُ الْجِمَانِ^(٢) مِنَ الْعَرَقِ فِي الْيَوْمِ الشَّاتِ، مِنْ ثِقَلِ الْقَوْلِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْهِ؛ قَالَتْ: فَلَمَّا سُرِّيَ عَن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَضْحَكُ، كَانَ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا أَنْ قَالَ: أَبْشِرِي يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَرَّأَكَ، فَقَالَتْ لِي أُمِّي: قَوْمِي إِلَيْهِ، فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَا أَقُومُ إِلَيْهِ، وَلَا أَحْمَدُ إِلَّا اللَّهَ، هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ بَرَاءَتِي، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: «إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ» عَشْرَ آيَاتٍ، فَأَنْزَلَ هَذِهِ الْآيَاتِ بَرَاءَةً لِي، قَالَتْ: فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَكَانَ يَنْفَقُ عَلَى مَسْطَحٍ لِقَرَابَتِهِ وَفَقْرِهِ: وَاللَّهِ لَا أَنْفَقُ عَلَيْهِ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ، قَالَتْ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ: «وَلَا يَأْتِلُ أَوْلُو الْفُضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ» حَتَّى بَلَغَ «عَفْوَرٌ رَحِيمٌ» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنِّي لِأَحِبُّ أَنْ يَغْفَرَ اللَّهُ لِي، فَرَجَعَ إِلَى مَسْطَحِ النِّفَقَةِ الَّتِي كَانَ يَنْفَقُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: لَا أَنْزِعْهَا مِنْهُ أَبَدًا.

قَالَتْ عَائِشَةُ: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، يَسْأَلُ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ عَنْ أَمْرِي، وَمَا رَأَيْتُ، وَمَا سَمِعْتُ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي، وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ إِلَّا خَيْرًا، قَالَتْ عَائِشَةُ: وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِنِي^(٣)، فَعَصَمَهَا اللَّهُ بِالْوَرَعِ، وَطَفَقَتْ أَخْتُهَا حَمْنَةُ تَحَارُبُ، فَهَلَكْتُ فِيمَنْ هَلَكَ.

قَالَ الزَّهْرِيُّ بْنُ شَهَابٍ: هَذَا الَّذِي انْتَهَى إِلَيْنَا مِنْ أَمْرِ هَؤُلَاءِ الرَّهْطِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ

(١) أَي: مَا فَارَقَ.

(٢) أَي الشدة عند الوحي.

(٣) الْجِمَانُ: الدُّرُّ، شُبَّهَتْ قَطْرَاتُ عَرَقِهِ ﷺ بِحَبَابِ اللَّوْلُؤِ فِي الصَّفَاءِ وَالْحُسْنِ.

(٤) تُسَامِنِي: تَفَاخَرَنِي وَتَضَاهَيْنِي بِجَمَالِهَا وَمَكَانِهَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ.

وَالْمُؤْمِنَاتُ بَأَنْفُسِهِنَّ خَيْرٌ مِّمَّا قَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾

وهذا عتابٌ من الله تعالى ذكَّره أهل الإيمان به فيما وقع في أنفسهم من إرجافٍ مَنْ أَرْجَفَ في أمرٍ عائشة بما أَرْجَفَ به، يقول لهم تعالى ذكَّره: هَلَّا أيها الناسُ إذ سمعتم ما قالَ أهلُ الإفكِ في عائشة ظَنُّ المؤمنونَ منكم والمؤمناتُ بأنفسهم خيراً: يقول: ظننتم بمن قرفَ بذلك منكم خيراً، ولم تَظُنُّوا به أنه أتى الفاحشة، وقال بأنفسهم، لأنَّ أهلَ الإسلامِ كُلَّهم بمنزلةِ نفسٍ واحدةٍ، لأنهم أهلُ ملةٍ واحدةٍ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَوْلَا جَاءَ وَعَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾

يقول تعالى ذكَّره: هَلَّا جاء هؤلاءِ العصبةُ الذين جاؤوا بالإفكِ، ورموا عائشة بالبهتانِ بأربعةِ شهداءِ يشهدونَ على مقاتلتهم فيها، وما رَمَوْهَا به، فإذا لم يأتوا بالشهداءِ الأربعةِ على حقيقةِ ما رَمَوْهَا به «فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ»، يقول: فَالْعُصْبَةُ الَّذِينَ رَمَوْهَا بذلك عند الله هم الكاذبونَ فيما جاؤوا به من الإفكِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾

يقول تعالى ذكَّره: «وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ» أيها الخائضون في أمر عائشة، المُشِيعُونَ فيها الكذبَ والإثمَ بِتَرْكِه تعجيلَ عقوبتِكُمْ «وَرَحْمَتُهُ» إياكم لعفوه عنكم «في الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ» بقبولِ توبتكم مما كان منكم في ذلك، «لَمَسَّكُمْ فِيهَا» خُضْتُمْ فِيهِ مِنْ أَمْرِهَا عاجلاً في الدنيا «عَذَابٌ عَظِيمٌ».

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ مِنْ شَأْنٍ عَائِشَةٌ عَذَابٌ عَظِيمٌ، حِينَ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ، و«إِذْ» مِنْ صِلَةٍ قَوْلِهِ لَمَسَّكُمْ. وَيَعْنِي بِقَوْلِهِ: «تَلَقَّوْنَهُ» تَتَلَقَّوْنَ الْإِفْكَ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الْعَصْبَةُ مِنْ أَهْلِ الْإِفْكَ فَتَقْبَلُونَهُ، وَيُرْوِيهِ بَعْضُكُمْ عَنْ بَعْضٍ، يُقَالُ: تَلَقَّيْتُ هَذَا الْكَلَامَ عَنْ فُلَانٍ، بِمَعْنَى أَخَذْتُهُ مِنْهُ؛ وَقِيلَ ذَلِكَ لِأَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ فِيمَا ذُكِرَ يَلْقَى آخَرَ، فَيَقُولُ: أَوْ مَا بَلَغَكَ كَذَا وَكَذَا عَنْ عَائِشَةٍ؟ لِيُشِيعَ عَلَيْهَا بِذَلِكَ الْفَاحِشَةِ.

قَوْلُهُ: «وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ»، يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ مِنَ الْأَمْرِ الَّذِي تَرَوْنَهُ فَتَقُولُونَ: سَمِعْنَا أَنَّ عَائِشَةَ فَعَلَتْ كَذَا وَكَذَا وَلَا تَعْلَمُونَ حَقِيقَةَ ذَلِكَ وَلَا صَحْتَهُ «وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا» وَتَظُنُّونَ أَنَّ قَوْلَكُمْ ذَلِكَ وَرَوَايَتُكُمْ هُوَ بِأَلْسِنَتِكُمْ، وَتَلَقِّيْكُمْ هُوَ بِبَعْضِكُمْ عَنْ بَعْضٍ هَيِّنٌ سَهْلٌ، لَا إِثْمَ عَلَيْكُمْ فِيهِ وَلَا حَرَجٌ «وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ»، يَقُولُ: وَتَلَقِّيْكُمْ ذَلِكَ كَذَلِكَ، وَقَوْلُكُمْ هُوَ بِأَفْوَاهِكُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ مِنَ الْأَمْرِ، لِأَنَّهُمْ كَتَمُوا تَوَدُّونَ بِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَحَلِيلَتَهُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وَلَوْلَا» أَيُّهَا الْخَائِضُونَ فِي الْإِفْكَ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ عَصْبَةُ مِنْكُمْ «إِذْ سَمِعْتُمُوهُ» مِمَّنْ جَاءَ بِهِ «قُلْتُمْ» مَا يَحِلُّ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا وَمَا يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَنْفُوهَ بِهِ «سُبْحَانَكَ» تَنْزِيهًا لَكَ يَا رَبِّ، وَبِرَاءَةً إِلَيْكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ هَؤُلَاءِ. «هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ»، يَقُولُ: هَذَا الْقَوْلُ بُهْتَانٌ عَظِيمٌ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَعْظُمُكُمْ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ

مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَبَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: يُذَكِّرُكُمْ اللَّهُ وَبِنَهَاكُمْ بِآيِ كِتَابِهِ، لئلا تَعُودُوا لِمِثْلِ فِعْلِكُمْ الَّذِي فَعَلْتُمُوهُ فِي أَمْرٍ عَاشَتْهُ مِنْ تَلَقُّيْكُمْ الْإِفْكَ الَّذِي رُويَ عَلَيْهَا بِالسُّتُكُمِ، وَقَوْلِكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فِيهَا أَبَدًا «إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ»، يَقُولُ: إِنْ كُنْتُمْ تَتَعَطَّلُونَ بِعِظَاتِ اللَّهِ، وَتَأْتَمِرُونَ لِأَمْرِهِ، وَتَسْتَهُونَ عَمَّا نَهَاكُمْ عَنْهُ.

وقوله: «وَبَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ»: وَيَفْصِّلُ اللَّهُ لَكُمْ حُجَجَهُ عَلَيْكُمْ بِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، لِيَتَبَيَّنَ الْمَطِيعُ لَهُ مِنْكُمْ مِنَ الْعَاصِي، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِكُمْ وَبِأَفْعَالِكُمْ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَهُوَ مُجَازٍ الْمُحْسِنَ مِنْكُمْ بِإِحْسَانِهِ، وَالْمُسِيءَ بِإِسَاءَتِهِ، حَكِيمٌ فِي تَدْبِيرِ خَلْقِهِ، وَتَكْلِيفِهِ مَا كَلَّفَهُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ، وَفَرَضَهُ مَا فَرَضَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْأَفْعَالِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي

الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٩﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ

﴿١٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ يَذِيعَ الزُّنَا فِي الَّذِينَ صَدَّقُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَيُظْهَرُ ذَلِكَ فِيهِمْ، «لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»، يَقُولُ: لَهُمْ عَذَابٌ وَجِيعٌ فِي الدُّنْيَا بِالْحَدِّ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ حَدًّا لِرَامِي الْمُحْصَنَاتِ وَالْمُحْصَنِينَ إِذَا رَمَوْهُم بِذَلِكَ، وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابُ جَهَنَّمَ إِنْ مَاتَ مُصِرًّا عَلَى ذَلِكَ غَيْرَ تَائِبٍ.

وقوله: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ»، يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَاللَّهُ يَعْلَمُ كَذِبَ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكَ مِنْ صَدَقِهِمْ، وَأَنْتُمْ أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَعْلَمُونَ ذَلِكَ، لِأَنَّكُمْ لَا

تعلمون الغيب، وإنما يعلم ذلك علام الغيوب. يقول: فلا تروا ما لا علم لكم به من الإفك على أهل الإيمان بالله، ولا سيما على حلائل رسول الله ﷺ فتهلكوا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ
وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾

يقول تعالى ذكره: ولولا أن الله تفضل عليكم أيها الناس ورحمكم، وأن الله ذو رافة، ذو رحمة بخلقه لهلكتم فيما أفضتم فيه، وعاجلتكم من الله العقوبة. وترك ذكر الجواب لمعرفة السامع بالمراد من الكلام بعده، وهو قوله: «يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان»... الآية.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ
الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوبَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ

يقول تعالى ذكره للمؤمنين به: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله، لا تسلكوا سبيل الشيطان وطرقه، ولا تقتفوا آثاره بإشاعتكم الفاحشة في الذين آمنوا، وإذا عنتكموها فيهم، وروايتكم ذلك عن جاء به، فإن الشيطان يأمر بالفحشاء، وهي الزنا، والمنكر من القول.

وقد بينا معنى الخطوات والفحشاء فيما مضى بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ
مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَرَحْمَتُهُ لَكُمْ، مَا تَطَهَّرَ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا مِنْ دَنَسٍ ذَنْبِهِ وَشِرْكِهِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَطْهَرُ مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ.

وقوله: «وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ»، يقول: والله سميع لما تقولون بأفواهكم، وتَلَقُّونَهُ بِالسُّتُكُم، وغير ذلك من كلامكم، عليمٌ بذلك كله وبغيره من أموركم، محيطٌ به مُحْصِيهِ عَلَيْكُمْ، لِيَجَازِيَكُمْ بِكُلِّ ذَلِكَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا تَحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وَلَا يَحْلِفُ بِاللَّهِ ذُوو الْفَضْلِ مِنْكُمْ، يَعْنِي ذُوِي التَّفَضُّلِ وَالسَّعَةِ: يَقُولُ: وَذُوو الْجِدَّةِ.

وإنما عُنِيَ بِذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي حَلْفِهِ بِاللَّهِ لَا يَنْفَقُ عَلَى مِسْطَحٍ، فَقَالَ جَلَّ ثَنَاهُ: وَلَا يَحْلِفُ مَنْ كَانَ ذَا فَضْلٍ مِنْ مَالٍ وَسَعَةٍ مِنْكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ، أَنْ لَا يُعْطُوا ذُوِي قَرَابَتِهِمْ، فَيَصِلُوا بِهِ أَرْحَامَهُمْ، كَمِسْطَحٍ، وَهُوَ ابْنُ خَالَةِ أَبِي بَكْرٍ «وَالْمَسَاكِينِ» يَقُولُ: وَذُوِي خَلَّةِ الْحَاجَةِ، وَكَانَ مِسْطَحٌ مِنْهُمْ، لِأَنَّهُ كَانَ فَقِيرًا مُحْتَاجًا «وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» وَهُمْ الَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ فِي جِهَادِ أَعْدَاءِ اللَّهِ وَكَانَ مِسْطَحٌ مِنْهُمْ لِأَنَّهُ كَانَ مِمَّنْ هَاجَرَ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَشَهِدَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِدْرًا. «وَلِيَعْفُوا»، يَقُولُ: وَلِيَعْفُوا عَمَّا كَانَ مِنْهُمْ إِلَيْهِمْ مِنْ جُرْمٍ وَذَلِكَ كَجُرْمِ مِسْطَحٍ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فِي إِشَاعَتِهِ عَلَى ابْنَتِهِ عَائِشَةَ مَا أَشَاعَ مِنَ الْإِفْكِ «وَلِيَصْفَحُوا»، يَقُولُ: وَلِيَتْرَكُوا عَقُوبَتَهُمْ عَلَى ذَلِكَ بِحَرَمَانِهِمْ مَا كَانُوا يُؤْتُونَهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ، وَلَكِنْ لِيَعُودُوا لَهُمْ إِلَى مِثْلِ الَّذِي

كانوا لهم عليه من الإفضالِ عليهم، «أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ»، يقول: أَلَا تحبون أن يستر الله عليكم ذنوبكم بإفضالِكُمْ عليهم، فيترك عقوبتكم عليها «وَاللَّهُ غَفُورٌ» لذنوب مَنْ أطاعه، وَاتَّبَعَ أَمْرَهُ، «رحيم» بهم أَنْ يُعَذِّبَهُمْ مع اتباعهم أمره، وطاعتهم إياه على ما كَانَ لهم من زَلَّةٍ وهفوةٍ قد استغفروه منها، وتابوا إليه من فعلها.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعْنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ» بالفاحشة «الْمُحْصَنَاتِ» يعني العفيفات «الغافلات» عن الفواحشِ «الْمُؤْمِنَاتِ» بالله ورسوله، وما جاء به من عندِ الله. «لُعْنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»، يقول: أَبْعِدُوا من رحمةِ الله في الدنيا والآخرة «وَلَهُمْ» في الآخرة «عَذَابٌ عَظِيمٌ» وذلك عذاب جهنم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولهم عذابٌ عظيم «يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ» فالיום الذي في قوله: «يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ» من صلة قوله: «وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ» وَعَنَى بقوله: «يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ» يوم القيامة، وذلك حين يجحدُ أَحَدُهُمْ ما أَكْتَسَبَ في الدنيا من الذنوبِ عن تقريرِ الله إياه بها فيختمُ الله على أفواههم، وتشهدُ عليهم أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون.

فإن قال قائل: وكيف تشهدُ عليهم ألسنتهم حين يختم على أفواههم، قيل: عَنَى بذلك أَنَّ ألسنةَ بعضهم تشهدُ على بعضٍ، لا أَنَّ ألسنتهم تنطقُ

وقد ختم على الأفواه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَوْمَ يُؤْفِكُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾

يقول تعالى ذكره: «يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» يوفيهم الله حسابَهُمْ وجزاءهم الحق على أعمالهم. والدين في هذا الموضع: الحساب والجزاء.

وقوله: «وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ»، يقول: ويعلمون يومئذ أن الله هو الحق الذي يبين لهم حقائق ما كان يعدُّهم في الدنيا من العذاب، ويزول حينئذ الشك فيه عن أهل النفاق الذين كانوا فيما كان يعدُّهم في الدنيا يمترون.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: الْخَيْثَاتُ لِلْخَيْثِثِ وَالْخَيْثُوثُ لِلْخَيْثِثِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾

اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معناه: الخيئات من القول للخيثين من الرجال، والخيثون من الرجال للخيثات من القول، والطيبات من القول للطيبين من الناس، والطيبون من الناس للطيبات من القول.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: الخيئات من النساء للخيثين من الرجال، والخيثون من الرجال للخيثات من النساء.

وأولى هذه الأقوال في تأويل الآية، قول مَنْ قال: عَنِ الْخَبِيثَاتِ: الخبيثات من القول، وذلك قبيحُه وَسَيِّئُه للخبيثين من الرجال والنساء، والخبيثون من الناس للخبيثات من القول، هُمْ بِهَا أَوْلَى، لأنهم أهلها، والطيبات من القول، وذلك حَسَنُه وجميلُه للطيبين من الناس، والطيبون من الناس للطيبات من القول لأنهم أهلها وأحقُّ بها.

وإنما قلنا هذا القول أولى بتأويل الآية، لأن الآيات قبل ذلك إنما جاءت بتوبيخ الله للقائلين في عائشة الإفك، والرامين المحصنات الغافلات المؤمنات، وإخبارهم ما خَصَّهُمْ به على إفكهم، فكان ختم الخبر عن أولى الفريقين بالإفك من الرامي والمرمي به، أشبه من الخبر عن غيرهم.

وقوله: «أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ»، يقول: الطيبون من الناس مُبَرَّءُونَ من خبيثات القول إن قالوها، فإن الله يصفحُ لهم عنها، ويغفرها لهم، وإن قيلت فيهم ضَرَّتْ قائلها ولم تضرَّهم، كما لو قال الطَّيِّب من القول الخبيث من الناس لم ينفعه الله به، لأن الله لا يَتَقَبَّلُهُ، ولو قيلت له لضرَّتْهُ، لأنه يلحقه عَارُهَا في الدنيا، وذُلُّهَا في الآخرة.

وقوله: «لَهُمْ مَغْفِرَةٌ»، يقول لهؤلاء الطيبين من الناس: مغفرة من الله لذنوبهم، والخبيث من القول إن كَانَ مِنْهُمْ «وَرَزَقُ كَرِيمٌ»، يقول: ولهم أيضاً مع المغفرة عطية من الله كريمة، وذلك الجنة، وما أعدَّ لهم فيها من الكرامة.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾

اختلف أهل التأويل في ذلك، فقال بعضهم: تأويله يا أيها الذين آمنوا

لا تَدْخُلُوا بَيْوتًا غَيْرَ بَيْوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا.

وقال آخرون: معنى ذلك حتى تُؤْنِسُوا أَهْلَ الْبَيْتِ بِالتَّنْخُحِ والتَّخْمِ وما أشبهه، حتى يعلموا أنكم تُريدون الدخول عليهم.

والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن الاستئناس: الاستفعال من الانس، وهو أن يستأذن أهل البيت في الدخول عليهم، مخبراً بذلك مَنْ فيه، وهل فيه أحد؟ وليؤذنبهم أنه داخل عليهم، فليأنس إلى إذنبهم له في ذلك، ويأنسوا إلى استئذانه إياهم. وقد حُكي عن العرب سماعاً: اذهب فاستأنس، هل ترى أحداً في الدار؟ بمعنى: أنظر هل ترى فيها أحداً؟.

فتأويل الكلام إذن إذا كان ذلك معناه: يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غيرَ بيوتكم حتى تُسَلِّمُوا وتستأذنوا، وذلك أن يقول أحدكم: السلام عليكم، أدخل؟ وهو من المُقَدِّم الذي معناه التأخير إنما هو حتى تسلموا وتستأذنوا.

وقوله: «ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ» يقول: استئناسكم وتسليمكم على أهل البيت الذي تريدون دخوله، فإن دُخُولَكُمُوهُ خَيْرٌ لَّكُمْ، لأنكم لا تدرون أنكم إذا دخلتموه بغير إذن، على ماذا تهجمون؟ على ما يسوءكم أو يسركم؟ وأنتم إذا دخلتم بإذن لم تَدْخُلُوا على ما تَكْرَهُونَ، وأديتم بذلك أيضاً حق الله عليكم في الاستئذان والسلام.

وقوله: «لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ»، يقول: لتذكروا بفعلكم ذلك أوامر الله عليكم، واللازم لكم من طاعته فتطيعوه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِي الْبُيُوتِ الَّتِي تَسْتَأْذِنُونَ فِيهَا أَحَدًا، يَأْذَنُ لَكُمْ بِالْدُخُولِ إِلَيْهَا، فَلَا تَدْخُلُوهَا لِأَنَّهَا لَيْسَتْ لَكُمْ، فَلَا يَحِلُّ لَكُمْ دُخُولُهَا إِلَّا بِإِذْنِ أَرْبَابِهَا، فَإِنْ أَذِنَ لَكُمْ أَرْبَابُهَا أَنْ تَدْخُلُوهَا، فَادْخُلُوهَا. «وَأِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا»، يَقُولُ: وَإِنْ قَالَ لَكُمْ أَهْلُ الْبُيُوتِ الَّتِي تَسْتَأْذِنُونَ فِيهَا: ارْجِعُوا، فَلَا تَدْخُلُوهَا وَارْجِعُوا عَنْهَا وَلَا تَدْخُلُوهَا. «هُوَ أَزْكَى لَكُمْ»، يَقُولُ: رَجُوعُكُمْ عَنْهَا إِذَا قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا، وَلَمْ يُؤْذَنَ لَكُمْ بِالْدُخُولِ فِيهَا أَطْهَرُ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ.

وقوله: «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ»، يقول جَلَّ ثَنَاهُ: وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ مِنْ رَجُوعِكُمْ بَعْدَ اسْتِئْذَانِكُمْ فِي بُيُوتِ غَيْرِكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا، وَتَرْكِ رَجُوعِكُمْ عَنْهَا وَطَاعَتِكُمْ لِلَّهِ فِيمَا أَمَرَكُمْ وَنَهَاكُمْ فِي ذَلِكَ وَغَيْرِهِ مِنْ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، ذُو عِلْمٍ مُحِيطٍ بِذَلِكَ كُلِّهِ، مُتَّخِصٍ جَمِيعِهِ عَلَيْكُمْ، حَتَّى يُجَازِيَكُمْ عَلَى جَمِيعِ ذَلِكَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: لَيْسَ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ إِثْمٌ وَخَرَجٌ، أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا لَا سَاكِنَ بِهَا بِغَيْرِ اسْتِئْذَانٍ.

ثُمَّ اخْتَلَفُوا فِي ذَلِكَ أَيُّ الْبُيُوتِ عَنَى، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: عَنَى بِهَا الْخَانَاتِ وَالْبُيُوتِ الْمَبْنِيَّةِ بِالطَّرِيقِ الَّتِي لَيْسَ بِهَا سَكَاةٌ مَعْرُوفُونَ، وَإِنَّمَا بُنِيَتْ لِمَارَّةِ الطَّرِيقِ وَالسَّابِلَةِ، لِيَأْوُوا إِلَيْهَا، وَيُؤْوُوا إِلَيْهَا أَمْتَعْتَهُمْ.

وَقَالَ آخَرُونَ: هِيَ بُيُوتُ مَكَّةَ.

وَقَالَ آخَرُونَ: هِيَ الْبُيُوتُ الْخَرِبَةُ وَالْمَتَاعُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ فِيهَا لَكُمْ قِضَاءُ الْحَاجَةِ، مِنَ الْخَلَاءِ وَالْبَوْلِ فِيهَا.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله عم بقوله: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ، فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ» كل بيت لا ساكن به لنا فيه متاع ندخله بغير إذن، لأن الإذن إنما يكون ليؤنس المأذون عليه قبل الدخول، أو ليأذن للداخل إن كان له مالكاً، أو كان فيه ساكناً. فأما إن كان لا مالك له فيحتاج إلى إذنه لدخوله ولا ساكن فيه، فيحتاج الداخل إلى إيناسه، والتسليم عليه، لئلا يهجم على ما لا يحب رؤيته منه، فلا معنى للاستئذان فيه. فإذا كان ذلك، فلا وجه لتخصيص بعض ذلك دون بعض، فكل بيت لا مالك له ولا ساكن من بيت مبني ببعض الطرق للمارة والسابلة ليأووا إليه، أو بيت خراب قد باد أهلُه ولا ساكن فيه، حيث كان ذلك، فإن لمن أراد دخوله أن يدخل بغير استئذان لمتاع له يؤويه إليه، أو للاستمتاع به لقضاء حقه من بول أو غائط أو غير ذلك. وأما بيوت التجار، فإنه ليس لأحد دخولها إلا بإذن أربابها وسكانها.

فإن ظن ظان أن التاجر إذا فتح دكانه وقعد للناس، فقد أذن لمن أراد الدخول عليه في دخوله، فإن الأمر في ذلك بخلاف ما ظن، وذلك أنه ليس لأحد دخول ملك غيره بغير ضرورة ألجأته إليه، أو بغير سبب أباح له دخوله في الدخول، فذلك بعد راجع إلى ما قلنا من أنه لم يدخله من دخله إلا بإذنه. وإذا كان ذلك كذلك، لم يكن من معنى قوله: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ» في شيء، وذلك أن التي وضع الله عنا الجناح في دخولها بغير إذن من البيوت، هي ما لم يكن مسكوناً، إذ حانوت التاجر لا سبيل إلى دخوله إلا بإذنه، وهو مع ذلك مسكون، فتبين أنه مما عني الله من هذه الآية بمعزل.

وقال جماعة من أهل التأويل: هذه الآية مستثناة من قوله: «لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا».

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَبِكَ يَا مُحَمَّدُ «يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ»، يقول: يَكْفُوا مِنْ نَظَرِهِمْ إِلَى مَا يَشْتَهُونَ النَّظَرَ إِلَيْهِ، مما قد نهاهم الله عن النظر إليه «وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ» أَنْ يَرَاهَا مَنْ لَا يَحِلُّ لَهُ رُؤْيَاهَا، بلبس ما يسترها عن أبصارهم، «ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ»، يقول: فَإِنَّ غَضَّهَا مِنَ النَّظَرِ عَمَّا لَا يَحِلُّ النَّظَرُ إِلَيْهِ، وحفظ الفرج عن أَنْ يَظْهَرَ لِأَبْصَارِ النَّاطِرِينَ أَطْهَرُ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَأَفْضَلُ. «إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ»، يقول: إِنَّ اللَّهَ ذُو خَبْرَةٍ بِمَا تَصْنَعُونَ أَيُّهَا النَّاسُ فِيمَا أَمَرَكُم بِهِ مِنْ غَضِّ أَبْصَارِكُمْ عَمَّا أَمَرَكُم بِالْغَضِّ عَنْهُ، وحفظ فروجكم عن إظهارها لِمَنْ نهاكم عن إظهارها له.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ خُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانَهُنَّ أَوْ إِخْوَانَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: «وَقُلْ»، يَا مُحَمَّدُ «لِلْمُؤْمِنَاتِ» مِنْ أُمَّتِكَ «يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ» عَمَّا يَكْرَهُ اللَّهُ النَّظَرَ إِلَيْهِ مِمَّا نَهَاكُمُ عَنِ النَّظَرِ إِلَيْهِ «وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ»، يقول: وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ عَنْ أَنْ يَرَاهَا مَنْ لَا يَحِلُّ لَهُ رُؤْيَاهَا، بلبس ما يسترها عن أبصارهم.

وقوله: «وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ»، يقول تعالى ذكره: وَلَا يُظْهِرْنَ لِلنَّاسِ الَّذِينَ

لِيسُوا لَهُنَّ بِمَحْرَمٍ زَيْتَهُنَّ، وهما زيتتان: إحداهما ما خفيَ وذلك كالخلخالِ والسوارينِ والقُرْطَيْنِ والقلائدِ الأخرى ما ظهرَ منها، وذلك مختلف في المعنى منه بهذه الآية، فكان بعضهم يقول: زينةُ الثيابِ الظاهرة.

وقال آخرون: الظاهرُ من الزينةِ التي أُبِيحَ لها أنْ تُبديه: الكحل، والخاتم، والسواران، والوجه.

وقال آخرون: عني به الوجه والثياب.

وقال آخرون: عني به الكفان والوجه.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قولُ مَنْ قَالَ: عُنِيَ بذلك: الوجه والكفان، يدخلُ في ذلك إذا كان كذلك: الكحل، والخاتم، والسوار، والخِضَابُ.

وإنما قلنا ذلك أولى الأقوال في ذلك بالتأويل لإجماع الجميع على أنَّ على كُلِّ مُصَلٍّ أَنْ يسترَ عورته في صلاته، وأنَّ للمرأة أَنْ تكشفَ وجهها وكفَّيها في صلاتها، وأنَّ عليها أَنْ تسترَ ما عدا ذلك من بدنِها، إلا ما روي عن النبي ﷺ أنه أباح لها أَنْ تُبديه من ذراعها إلى قَدْرِ النصف^(١). فإذا كان ذلك من جميعهم إجماعاً، كان معلوماً بذلك أنَّ لها أَنْ تبدي من بدنِها ما لم يكن عورةً كما ذلك للرجال، لأنَّ ما لم يكن عورة، فغيرُ حرامٍ إظهاره. وإذا كان لها إظهار ذلك، كان معلوماً أنه مما استثناهُ الله تعالى ذِكرُه، بقوله: «إلا ما ظهرَ مِنْهَا» لأنَّ كُلَّ ذلك ظاهر منها.

وقوله: «وَلْيَضْرِبَنَّ بِخُمْرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ» يقول تعالى ذِكرُه: وليلقين خُمُرهنَّ، وهي جمع خمار على جيوبهنَّ، ليسترنَ بذلك شعورهنَّ وأعناقهنَّ وقرطنَّهنَّ.

(١) أخرجه المؤلف مرسلًا من حديث قتادة، وهو في الدر المنثور: ٤١/٥.

وقوله: «وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ»، يقول تعالى ذِكْرَهُ: «وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ» التي هي غير ظاهرة، بل الخفية منها، وذلك الخلخال والقرط والدملج، وما أُمِرَتْ بتغطيته بخمارها من فوق الجيب، وما وراء ما أبيح لها كشفه وإبرازه في الصلاة وللأجنبيين من الناس والذراعين إلى فوق ذلك إلا لبعولتهن.

يقول الله تعالى ذِكْرَهُ: قُلْ للمؤمنات الحرائر لا يُظْهِرنَ هذه الزينة الخفية التي ليست بالظاهرة إلا لبعولتهن، وهم أزواجهن، واحداهم بعل، أو لأبائهن، أو لأبائهن، يقول: أو لأبائهن أزواجهن، أو لأبنائهن، أو لأبنائهن، أو لأخوانهن، أو لبني إخوانهن، ويعني بقوله: «أو لأخوانهن» أو لأخواتهن، أو لبني إخوانهن أو لبني أخواتهن، أو نساتهن، قيل: عني بذلك نساء المسلمين.

وقوله: «أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ» اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: أو مماليكهن، فإنه لا بأس عليها أن تُظْهِرَ لهم من زينتها ما تظهره لهؤلاء.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أو ما ملكت أيمانهن من إماء المشركين.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولَى الْإِرَبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضُرُّنَّ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

يقول تعالى ذِكْرَهُ: والذين يتبعونكم لطعام يأكلونه عندكم ممن لا أرب

النور: ٣١-٣٢

له في النساء من الرجال ، ولا حاجة به إليهن ، ولا يريدهن^(١) .

وقوله : «أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ» ، يقول تعالى ذكره : أو الطفل الذين لم يكشفوا عن عورات النساء بجماعهن ، فيظهروا عليهن لصغرهن .

وقوله : «وَلَا يَضْرِبْنَ بَأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ» ، يقول تعالى ذكره : ولا يجعلن في أرجلهن من الحلي ما إذا مشين أو حركنهن ، علم الناس الذين مشين بينهم ما يخفين من ذلك .

وقوله : «وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ» ، يقول تعالى ذكره : وارجعوا أيها المؤمنون إلى طاعة الله فيما أمركم ونهاكم من غص البصر ، وحفظ الفرج ، وترك دخول بيوت غير بيوتكم ، من غير استئذان ولا تسليم ، وغير ذلك من أمره ونهيه . «لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ» ، يقول : لتفلحوا وتدرِكوا طلباتكم لديه ، إذا أنتم أطعتموه فيما أمركم ونهاكم .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَأَنكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ^٢ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ



يقول تعالى ذكره : وزوجوا أيها المؤمنون من لا زوج له من أحرار رجالكم ونسائكم ومن أهل الصلاح من عبيدكم ومماليكم . والأيمى : جمع أيم ، وإنما جمع الأيم أياى لأنها فعيلة في المعنى ، فجمعت كذلك كما جمعت اليتيمة : يتامى .

(١) كان يكون أحماً أو أبلهاً أو مخنثاً أو شيخاً فانياً أو نحو ذلك مما لا حاجة به

إلى النساء (انظر: زاد المسير في علم التفسير: ٣٣/٦-٣٤).

«إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ»، يقول: إِنْ يَكُنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَنكَحُونَهُمْ مِنْ أَيْامِي رَجَالِكُمْ وَنِسَائِكُمْ وَعَبِيدِكُمْ وَإِمَائِكُمْ أَهْلَ فَاقَةٍ وَفَقْرٍ، فَإِنَّ اللَّهَ يُغْنِيهِمْ مِنْ فَضْلِهِ، فَلَا يَمْنَعَنَّكُمْ فَقْرُهُمْ مِنْ إِنْكَاحِهِمْ.

وقوله: «وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ»، يقول جَلَّ ثَنَاؤُهُ: وَاللَّهُ وَاسِعُ الْفَضْلِ، جَوَادٌ بَعْطَايَاهُ، فَزَوَّجُوا إِمَاءَكُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ يَوْسَعُ عَلَيْهِمْ مِنْ فَضْلِهِ، إِنْ كَانُوا فَقَرَاءَ. عليم: يقول: هُوَ ذُو عِلْمٍ بِالْفَقِيرِ مِنْهُمْ وَالْغَنِيِّ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ حَالُ خَلْقِهِ فِي شَيْءٍ وَتَدْبِيرِهِمْ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَيْسَتَّعْفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِّنْ مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ

يقول تعالى ذكره: وليستعفف الذين لا يجدون ما ينكحون به النساء عن إتيان ما حرم الله عليهم من الفواحش حتى يغنيهم الله من سعة فضله، ويوسع عليهم من رزقه.

وقوله: «وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ»، يقول جَلَّ ثَنَاؤُهُ: وَالَّذِينَ يَلْتَمِسُونَ الْمَكَاتِبَةَ مِنْكُمْ مِنْ مِّمَالِيكِكُمْ «فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا»، واختلف أهل العلم في وجه مكاتبة الرجل عبده الذي قد علم فيه خيراً، وهل قوله: «فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا» على وجه الفرض أم هو على وجه النَّدْب؟ فقال بعضهم: فرض على الرجل أن يكاتب عبده الذي قد علم فيه خيراً إذا سأله العبد ذلك.

وقال آخرون: ذلك غير واجب على السيد، وإنما قوله: «فَكَاتِبُوهُمْ» نَدْبٌ مِنَ اللَّهِ سَادَةَ الْعَبِيدِ إِلَى كِتَابَةِ مَنْ عُلِمَ فِيهِ مِنْهُمْ خَيْرٌ، لَا إِيْجَابَ.

النور: ٣٣

وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب قول مَنْ قال: واجبٌ على سيد العبد أن يكاتبه إذا علم فيه خيراً، وسأله العبد الكتابة، وذلك أن ظاهر قوله: «فَكَاتِبُوهُمْ» ظاهر أمر، وأمر الله فرض الانتهاء إليه ما لم يكن دليل من كتاب أو سنة، على أنه نذْبٌ لما قد بيَّننا من العلة في كتابنا المسمى «البيان عن أصول الأحكام».

وأما الخبر الذي أمر الله تعالى ذكره عباده بكتابة عبيدهم إذ علّموه فيهم، فهو القدرة على الاحتراف والكسب لأداء ما كُتِبُوا عليه.

وقوله: «وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ الَّذِي آتَاكُمْ»، يقول تعالى ذكره: وأعطوهم من مال الله الذي أعطاكم.

ثم اختلف أهل التأويل في المأمور بإعطائه من مال الله الذي أعطاه مَنْ هو؟ وفي المال أي الأموال هو؟ فقال بعضهم: الذي أمر الله بإعطاء المكاتب من مال الله: هو مولى العبد المكاتب، ومال الله الذي أمر بإعطائه منه هو مال الكتابة، والقدر الذي أمر أن يعطيه منه الربع.

وقال آخرون: بل ما شاء من ذلك المولى.

وقال آخرون: بل ذلك حصٌّ من الله أهل الأموال على أن يُعطوهم سهمهم الذي جعله لهم من الصدقات المفروضة لهم في أموالهم بقوله: «إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ»، قال: فالرقاب التي جعل فيها أحد سهمان الصدقة الثمانية هم المُكَاتَبُونَ، قال: وإياه عني جل ثناؤه بقوله: «وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ»: أي سهمهم من الصدقة.

وأولى القولين بالصواب في ذلك عندي القول الثاني، وهو قول مَنْ قال: عَنَى به إيتاءهم سهمهم من الصدقة المفروضة.

وإنما قلنا ذلك أولى القولين، لأنَّ قوله: «وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ» أمرٌ من الله تعالى ذِكْرُهُ بِإِيتَاءِ الْمُكَاتِبِينَ مِنْ مَالِهِ الَّذِي آتَى أَهْلَ الْأَمْوَالِ، وأمرُ الله فَرَضَ عَلَى عِبَادِهِ الْإِنْتِهَاءَ إِلَيْهِ مَا لَمْ يُخْبِرْهُمْ أَنَّ مُرَادَهُ النَّدْبَ، لِمَا قَدْ بَيَّنَّا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِنَا، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ وَلَمْ يَكُنْ أَخْبَرْنَا فِي كِتَابِهِ، وَلَا عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ، أَنَّهُ نَدْبٌ، فَفَرَضَ وَاجِبٌ. وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، وَكَانَتِ الْحُجَّةُ قَدْ قَامَتْ أَنْ لَا حَقَّ لِأَحَدٍ فِي مَالِ أَحَدٍ غَيْرِهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، إِلَّا مَا أَوْجَبَهُ اللَّهُ لِأَهْلِ سُهُمَانِ الصَّدَقَةِ فِي أَمْوَالِ الْأَغْنِيَاءِ مِنْهُمْ، وَكَانَتِ الْكِتَابَةُ الَّتِي يَقْتَضِيهَا سَيِّدُ الْمُكَاتِبِ مِنْ مُكَاتِبِهِ مَالاً مِنْ مَالِ سَيِّدِ الْمَكَاتِبِ، فَيَفَادُ أَنَّ الْحَقَّ الَّذِي أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُؤْتَوْهُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، هُوَ مَا فَرَضَ عَلَى الْأَغْنِيَاءِ فِي أَمْوَالِهِمْ لَهُ مِنَ الصَّدَقَةِ الْمَفْرُوضَةِ، إِذَا كَانَ لَا حَقَّ فِي أَمْوَالِهِمْ لِأَحَدٍ سِوَاهَا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدَنْ تَخَصُّصًا لِنَبِّغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: زَوَّجُوا الصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ، وَلَا تُكْرِهُوا إِمَاءَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ، وَهُوَ الزَّنا «إِنْ أَرَدَنْ تَخَصُّصًا»، يقول: إِنْ أَرَدَنْ تَعَفُّافاً عَنِ الزَّنا. «لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا»، يقول: لَتَلْتَمِسُوا بَاكِرَاهُكُمْ إِيَّاهُنَّ عَلَى الزَّنا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَذَلِكَ مَا تَعَرَّضَ لَهُمْ إِلَيْهِ الْحَاجَةُ مِنْ رِيَاشِهَا وَزِينَتِهَا وَأَمْوَالِهَا، «وَمَنْ يُكْرِهْهُمْ»، يقول: وَمَنْ يُكْرِهْ فَتِيَّاتَهُ عَلَى الْبِغَاءِ، فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِ إِيَّاهُنَّ عَلَى ذَلِكَ لَهُمْ «غَفُورٌ رَحِيمٌ»، وَوَزُرَ مَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ دُونَهُنَّ ..

وذكر أن هذه الآية أنزلت في عبدالله بن أبي ابن سلول حين أكره أمته مسيكة على الزنا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا
مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾

يقول تعالى ذكره: ولقد أنزلنا إليكم أيها الناس دلالات وعلامات مبينات: يقول: مفصلات الحق من الباطل، وموضحات ذلك.

واختلفت القراءة في قراءة ذلك، فقرأته عامة قراءة المدينة وبعض الكوفيين والبصريين «مُبيِّنَاتٍ» بفتح الياء بمعنى: مُفَصَّلَاتٍ، وأن الله فصلهن وبينهن لعباده، فهن مُفَصَّلَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ. وقرأ ذلك عامة قراءة الكوفة «مُبيِّنَاتٍ» بكسر الياء، بمعنى أن الآيات هن تبين الحق والصواب للناس، وتهديهم إلى الحق.

والصواب من القول في ذلك عندنا أنهما قراءتان معروفتان، وقد قرأ بكل واحدة منهما علماء من القراءة، متقاربتا المعنى، وذلك أن الله إذا فصلها وبينها صارت مبينة بنفسها الحق لمن التمسهُ من قبلها، وإذا بينت ذلك لمن التمسهُ من قبلها، فيبين الله ذلك فيها، فبأي القراءتين قرأ القارئ، فمصيب في قراءته الصواب.

وقوله: «وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ» من الأمم، وموعظة لمن اتقى الله، فخاف عقابه وخشي عذابه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِ
كَمَشْكُوفٍ فِيهَا مَصْبَاحٌ الْمَصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن
شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ
٤٢٥

نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُّورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ
بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾

يعني تعالى ذكّره بقوله: «اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» هادي مَنْ في
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، فهم بنوره إلى الحقّ يهتدون، وبِهْدَاهُ من حيرة الضلالة
يعتصمون.

وهذا مَثَلٌ ضرب به الله للقرآن في قلب أهل الإيمان به. فقال: مَثَلُ نورِ
الله الذي أثار به لعباده سبيلَ الرشاد، الذي أنزله إليهم فآمنوا به وصدقوا بما
فيه في قلوب المؤمنين، مثل مشكاة، وهي عمود القنديل الذي فيه الفتيلة،
وذلك هو نظير الكوة التي تكون في الحيطان التي لا منفذ لها، وإنما جعل
ذلك العمود مشكاة، لأنه غير نافذ، وهو أجوف مفتوح الأعلى، فهو كالكوة التي
في الحائط التي لا تنفذ، ثم قال: «فِيهَا مِصْبَاحٌ» وهو السَّراج، وجعل السراج
وهو المصباح مَثَلًا لِمَا في قلب المؤمن من القرآن والآيات المبينات، ثم قال:
«المِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ»، يعني: أن السراج الذي في المشكاة: في القنديل،
وهو الزجاج، وذلك مثل للقرآن، يقول: القرآن الذي في قلب المؤمن الذي
أثار الله قلبه في صدره، ثم مَثَلُ الصدر في خلوصه من الكفر بالله والشك فيه،
واستنارته بنور القرآن، واستضاءته بآيات ربه المبينات، ومواعظه فيها بالكوكب
الدُرِّيِّ فقال: الزجاج، وذلك صدر المؤمن الذي فيه قلبه كأنها كوكب دُرِّيٌّ،
وإنما يَصِفُ صدره بالنقاء من كل ريب وشك في أسباب الإيمان بالله وبُعْده
من دَنَسِ المعاصي، كالكوكب الذي يُشبه الدُرَّ في الصفاء والضياء والحسن.

واختلفوا في قراءة قوله: «يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ» فقرأ ذلك بعض
المكيين والمدنيين وبعض البصريين «تَوَقَّدَ مِنْ شَجَرَةٍ» بالتاء وفتحها وتشديد
القاف وفتح الدال، وكأنهم وجَّهوا معنى ذلك إلى تَوَقَّدَ المصباح من شجرة
مباركة. وقرأه بعض عامة قُرأة المدنيين «يُوقَدُ» بالياء وتخفيف القاف ورفع

الدال، بمعنى: يوقد المصباح موقده من شجرة. وقرأ ذلك عامة قَرَأَ الكوفة «تَوَقَّدَ» بضم التاء وتخفيف القاف ورفع الدال، بمعنى: يوقد الزجاجة مُوقِدُهَا من شجرة مباركة. وقرأه بعض أهل مكة «تَوَقَّدَ» بفتح التاء وتشديد القاف وضم الدال، بمعنى تَتَوَقَّدُ الزجاجة من شجرة، ثم أسقطت إحدى التائين اكتفاءً بالباقية من الداهية.

وهذه القراءات متقاربات المعاني وإن اختلفت الألفاظ بها، وذلك أن الزجاجة إذا وصفت بالتوقد، أو بأنها تَوَقَّدَ، فمعلوم معنى ذلك، فإن المراد به تَوَقَّدَ فيها المصباح، أو يُوقَدُ فيها المصباح، ولكن وجَّهوا الخبر إلى أن وصفها بذلك أقرب في الكلام منها، وفهم السامعين معناه. والمراد منه، فإذا كان ذلك كذلك، فبأي القراءات قرأ القارئ فمصيب، غير أن أعجب القراءات إلي أن أقرأ بها في ذلك «تَوَقَّدَ» بفتح التاء وتشديد القاف وفتح الدال بمعنى: وصف المصباح بالتوقد، لأن التَوَقَّدَ والاتَّقَادَ لاشك أنهما من صفته دون الزجاجة، فمعنى الكلام إذن: كمشكاة فيها مصباح، المصباح من دهن شجرة مباركة زيتونة، لا شرقية ولا غربية.

وإنما قيل لهذه الشجرة: لا شرقية ولا غربية: أي ليست شرقية وحدها حتى لا تُصَيِّبَهَا الشمس إذا غربت، وإنما لها نصيبها من الشمس بالغداة ما دامت بالجانب الذي يلي الشرق، ثم لا يكون لها نصيب منها إذا مالت إلى جانب الغرب، ولا هي غربية وحدها، فتصيبها الشمس بالعشي إذا مالت إلى جانب الغرب، ولا تصيبها بالغداة، ولكنها شرقية غربية، تطلع عليها الشمس بالغداة، وتغرب عليها، فيصيبها حر الشمس بالغداة والعشي، قالوا: وإذا كانت كذلك كان أجود لزيته.

وقوله: «يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: يَكَادُ زَيْتُ هَذِهِ الزَيْتُونَةِ

يُضيءُ من صفائه، وحُسْنِ ضيائه. «وَلَوْ لَمْ تَمَسَّهُ نَارٌ»، يقول: فكيف إذا مَسَّتْهُ النَّارُ.

ولإنما أريد بقوله: «يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ» أنَّ هذا القرآن من عند الله، وأنه كلامه، فجعل مثله ومثَل كونه من عنده، مثل المصباح الذي يُوقَدُ من الشجرة المباركة، التي وصفها جَلَّ ثَنَاؤُهُ في هذه الآية. وعَنَى بقوله: «يَكَادُ رَيْتُهَا يُضِيءُ» أنَّ حججَ الله تعالى ذَكَرَهُ على خَلْقِهِ تكادُ من بيانها ووضوحها تُضِيءُ لمن فَكَّرَ فيها ونظرَ، أو أَعْرَضَ عنها ولها^(١). «وَلَوْ لَمْ تَمَسَّهُ نَارٌ»، يقول: ولو لم يزدها الله بياناً ووضوحاً بإنزاله هذا القرآن إليهم مُبَيَّناً لهم على توحيدِهِ، فكيف إذا نَبَّهَهُم به وذَكَرَهُم بآيَاتِهِ، فزادهم به حجةً إلى حُجَجِهِ عليهم قبل ذلك، فذلك بيانٌ من الله، ونورٌ على البيان، والنور الذي كان قد وضعه لهم ونصبه قبل نزوله.

وقوله: «نُورٌ عَلَى نُورٍ»، يعني النار على هذا الزيت الذي كاد يُضِيءُ ولو لم تَمَسَّهُ النَّارُ.

وهو عندي كما ذكرتُ مثل القرآن، ويعني بقوله: «نُورٌ عَلَى نُورٍ» هذا القرآن نورٌ من عند الله أنزله إلى خَلْقِهِ يستضيئون به «على نور» على الحجج والبيان الذي قد نَصَبَهُ لهم قبل مجيء القرآن وإنزاله إياه، مما يدلُّ على حقيقة وحدانيته، فذلك، بيانٌ من الله، ونورٌ على البيان، والنور الذي كان وضعه لهم، ونصبه قبل نزوله.

وقوله: «يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ»، يقول تعالى ذِكْرَهُ: يُوقِّقُ اللَّهُ لَاتِّبَاعِ نوره، وهو هذا القرآن مَنْ يَشَاءُ من عباده.

وقوله: «وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ»، يقول: وَيُمَثِّلُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ وَالْأَشْبَاهَ

(١) من اللهو واللعب مُعْرِضاً عنها.

للناس ، كما مثل لهم مثل هذا القرآن في قلب المؤمن بالمصباح في المشكاة وسائر ما في هذه الآية من الأمثال .

«وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» ، يقول : والله يضرب الأمثال ، وغيرها من الأشياء كلها ، ذو علم .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ ﴿٣٧﴾ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٨﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾

يعني تعالى ذكره بقوله : «فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ» الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح في بيوت الله أَنْ تُرْفَعَ . وقوله : «وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ» ، يقول : وأذن لعباده أَنْ يذكروا اسمه فيها .

وقوله : «يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ» ، اختلفت القراءة في قراءة قوله : «يُسَبِّحُ لَهُ» فقرأ ذلك عامة قراءة الأمصار «يُسَبِّحُ لَهُ» بضم الياء وكسر الباء ، بمعنى : يُصَلِّي له فيها رجال ، ويجعل يسبح فعلاً للرجال ، وخبراً عنهم ، وترفع به الرجال ، سوى عاصم وابن عامر فإنهما قرأا ذلك «يُسَبِّحُ لَهُ» بضم الياء وفتح الباء على ما لم يسم فاعله ، ثم يرفعان الرجال بخبر ثان مضمّر كأنهما أرادا : يُسَبِّحُ اللَّهُ في البيوت التي أَذِنَ اللَّهُ أَنْ ترفع ، فسبح له رجال فرفعوا الرجال ، بفعل مضمّر .

والقراءة التي هي أولاهما بالصواب ، قراءة مَنْ كسر الباء ، وجعله خبراً

للرجال وفعلاً لهم. وإنما كان الاختيارُ رفع الرجالِ بمضميرٍ من الفعل لو كان الخبر عن البيوتِ، لا يتمُّ إلا بقوله: «يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا». فأما والخبر عنها دون ذلك تأمُّ فلا وجه لتوجه قوله: يسبح له إلى غيره.

وعنَى بقوله: «يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ» يصلي له في هذه البيوتِ بِالْغُدُوَاتِ وَالْعَشِيَّاتِ رجالٌ.

وقوله: «رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: لا يشغَلُ هؤلاء الرجال الذين يصلون في هذه المساجد التي أذن الله أن ترفع عن ذِكْرِ اللَّهِ فيها، وإقامِ الصلاةِ تجارةً ولا بيع.

وقوله: «وَأَقَامِ الصَّلَاةَ»، يقول: ولا يشغَلْهم ذلك أيضاً عن إقامِ الصلاةِ بحدودها في أوقاتها.

وقوله: «وَإِيتَاءِ الزَّكَاةَ»، قيل: معناه: وإخلاصِ الطاعةِ لله.

وقوله: «يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ»، يقول: يخافون يوماً تتقلبُ فيه القلوبُ من هَوَلِهِ بين طمعٍ بالنجاةِ وحذرٍ بالهلاكِ، والأبصار: أي ناحيةٌ يؤخذُ بهم أذات اليمينِ أم ذات الشمالِ، ومن أين يَوْتُونَ كُتُبَهُمْ، أَمِنْ قَبْلِ الْإِيمَانِ، أم من قَبْلِ الشَّمَالِ، وذلك يوم القيامة.

وقوله: «لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا»، يقول: فعلوا ذلك، يعني أنهم لم تُلْهِهِمْ تجارةً ولا بيعٌ عن ذِكْرِ اللَّهِ، وأقاموا الصلاةَ، وآتوا الزكاةَ، وأطاعوا رَبَّهُمْ مخافةً عذابه يومَ القيامةِ، كي يُثَبِّتَهُمُ اللَّهُ يومَ القيامةِ بأحسنِ أعمالِهِم التي عملوها في الدنيا، ويزِيدَهُمْ على ثوابِهِ إياهم على أحسنِ أعمالِهِم التي عملوها في الدنيا من فضله، فَيُفْضِلُ عليهم من عنده بما أحبُّ من كرامته لهم. وقوله: «وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: يتفضل على مَنْ شاء وأراد من طَوَلِهِ وكرامته، مما لم يستحقه بعمله ولم يبلغه بطاعته بغيرِ حسابٍ،

يقول: بغير محاسبة على ما بذل له وأعطاه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فُوفًا لَهُ
حِسَابُهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾

وهذا مثلُ ضربه الله لأعمالِ أهلِ الكفر به . فقال : والذين جحدوا توحيد ربهم ، وكذبوا بهذا القرآن وبمن جاء به مثلُ أعمالهم التي عملوها «كسراب» ، يقول : مثل سرابٍ ، والسراب : ما لصقَ بالأرض ، وذلك يكون نصف النهار ، وحين يشتدُّ الحرُّ والأل ما كان كالماء بين السماء والأرض ، وذلك يكون أوَّل النهار يرفع كلُّ شيءٍ ضحىً .

وقوله : «بِقِيعَةٍ» وهي جمع قاع ، كالجيرة جمع جارٍ ، والقاع : ما انبسط من الأرض واتسع وفيه يكون السراب .

وقوله : «يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً» ، يقول : يظن العطشان من الناس السراب ماءً «حتى إذا جاءه» والهاء من ذكر السراب ، والمعنى : حتى إذا جاء الظمآن السراب ملتمساً ماءً يستغيث به من عطشه «لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا» ، يقول : لم يجد السراب شيئاً ، فكَذلك الكافرون بالله من أعمالهم التي عملوها في غرور ، يحسبون أنها مُنجيتهم عند الله من عذابه ، كما حَسِبَ الظمآن الذي رأى السراب فظنه ماءً يُرويه من ظمئه ، حتى إذا هَلَكَ وصارَ إلى الحاجة إلى عمله الذي كان يرى أنه نافعُه عند الله ، لم يجده ، ينفعُه شيئاً ، لأنه كان عمله على كفرٍ بالله ووجد الله هذا الكافر عند هلاكه بالمرصاد ، فوفاه يومَ القيامة حساب أعماله التي عملها في الدنيا ، وجازاهُ بها جزاءه الذي يستحقه عليها منه .

فإن قال قائل : وكيف قيل : «حتى إذا جاءه لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا» فإن لم يكن

السرابُ شيئاً، فَعَلَامَ أَدخَلتِ الهاءَ في قوله: «حَتَّى إِذَا جَاءَهُ»، قيل: إنه شيءٌ يُرى من بعيدٍ كالضبابِ الذي يُرى كثيفاً من بعيدٍ، والهباءُ، فإذا قرب منه المرءُ، رَقَّ وصارَ كالهواءِ. وقد يحتملُ أن يكونَ معناه: حتى إذا جاء موضعَ السرابِ لم يجدِ السرابَ شيئاً، فاكْتَفَى بذكرِ السرابِ من ذِكرِ موضِعِهِ. «واللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ»، يقولُ: واللهُ سريعُ حسابِهِ، لأنه تعالى ذِكرُهُ لا يحتاجُ إلى عقدِ أصابعٍ، ولا حفظِ بقلبٍ، ولكنه عالمٌ بذلك كله قبل أن يعملهُ العبدُ، ومن بعدُ ما عمله.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدَهُ لَمْ يَكْدِرْهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٣٩﴾

وهذا مَثَلٌ آخرُ ضربه الله لأعمالِ الكفارِ، يقول تعالى ذِكرُهُ: وَمَثَلُ أَعْمَالٍ هَؤُلَاءِ الْكَافِرِ فِي أَنهَا عُمِلَتْ عَلَى خَطَأٍ وَفَسَادٍ وَضَلَالَةٍ وَحَيْرَةٍ مِنْ عَمَالِهَا فِيهَا، وَعَلَى غَيْرِ هُدًى، مَثَلُ ظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ. ونسب البحر إلى اللجة وصفاً له بأنه عميقٌ كثيرُ الماءِ، ولجةُ البحرِ معظُمُهُ. «يَغْشَاهُ مَوْجٌ» يقولُ: يغشى البحرَ مَوْجٌ «مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ»، يقولُ: من فوقِ الموجِ مَوْجٌ آخرُ يغشاهُ «مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ»، يقولُ: من فوقِ الموجِ الثاني الذي يغشى الموجَ الأولَ سَحَابٌ، فجعل الظلمات مثلاً لأعمالهم، والبحر اللجِّيُّ مثلاً لقلبِ الكافرِ. يقولُ: عمل بنية قلبٍ قد عَمَرَهُ الجهلُ، وَتَغَشَّتْهُ الضلالةُ والحيرةُ، كما يغشى هذا البحر اللجِّيُّ مَوْجٌ من فوقه مَوْجٌ، من فوقه سَحَابٌ، فكذلك قلبُ هذا الكافرِ الذي مثل عمله مثل هذه الظلماتِ، يغشاهُ الجهلُ بالله بأن الله ختم عليه، فلا يعقلُ

عن الله، وعلى سمعه، فلا يسمعُ مواعظَ الله، وجعل على بصره غشاوةً فلا يبصرُ به حججَ الله، فتلك ظلماتٌ بعضها فوق بعضٍ^(١)

وقوله: «إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْذُ يَرَاهَا»، يقول: إذا أخرجَ الناظرُ يَدَهُ في هذه الظلمات لم يَكْذُ يراها.

فإن قال لنا قائل: وكيف قيل: لم يَكْذُ يراها مع شِدَّةِ هذه الظلمة التي وصف، وقد علمتَ أنَّ قولَ القائل: لم أكد أرى فلاناً، إنما هو إثباتٌ منه لنفسه رؤيته بعد جَهْدٍ وشِدَّةٍ، ومن دونِ الظلماتِ التي وصف في هذه الآية ما لا يرى الناظرُ يده إذا أخرجها فيه، فكيف فيها؟

قيل في ذلك أقوالٌ نذكرها، ثم نخبر بالصوابِ من ذلك.

أحدها: أن يكون معنى الكلام: إذا أخرج يده راثياً لها لم يكذ يراها: أي لم يعرف من أين يراها، فيكون من المُقَدَّمِ الذي معناه التأخير، ويكون تأويلُ الكلام على ذلك: إذا أخرج يده لم يقرب أن يراها.

والثاني: أن يكون معناه: إذا أخرج يده لم يرها، ويكون قوله: «لَمْ يَكْذُ» في دخوله في الكلام نظير دخول الظنِّ فيما هو يقينٌ من الكلام كقوله: «وَضَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِيصٍ» ونحو ذلك.

والثالث: أن يكون قد رآها بعد بُطْءٍ وجَهْدٍ، كما يقول القائل لآخر: ما كدتُ أراك من الظلمة، وقد رآه، ولكن بعد إياسٍ وشِدَّةٍ، وهذا القول الثالثُ أظهرُ معاني الكلمة من جهة ما تستعمل العرب أكاد في كلامها، والقول الآخر الذي قلنا إنه يتوجه إلى أنه بمعنى لم يَرَهَا قولٌ أوضحٌ من جهة التفسير، وهو

(١) قال ابن الجوزي: «فكلامه ظُلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره إلى الظلمات يوم القيامة»، (زاد المسير: ٥١/٦)، وهو كلام منسوب إلى أبي ابن كعب رضي الله عنه.

أخفى معانيه. وإنما حَسَنَ ذلك في هذا الموضع، أعني أن يقول: لم يكدرهاها مع شدة الظلمة التي ذكر، لأن ذلك مَثَلٌ لا خَبْرٌ عن كائِنٍ كان. «وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا»، يقول: من لم يرزقه الله إيماناً وهدى من الضلالة، ومعرفة بكتابه، «فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ»: يقول فما له من إيمانٍ وهدى ومعرفة بكتابه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْخَرُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَقَتْ كُلُّ قَدِّ عِلْمِ صَلَاتِهِ وَتَسْبِيحِهِ، وَاللَّهُ عِلْمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٠﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤١﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ لِنبيه محمد ﷺ: أَلَمْ تَنْظُرْ يَا مُحَمَّدُ، بعين قلبك، فتعلم أن الله يصلي له من في السموات والأرض من ملكٍ وإنسٍ وجنٍّ «وَالطَّيْرِ صَفَقَاتٍ» في الهواء أيضاً تسبح له «كُلُّ قَدِّ عِلْمِ صَلَاتِهِ وَتَسْبِيحِهِ».

ويتوجه قوله: «كُلُّ قَدِّ عِلْمِ صَلَاتِهِ وَتَسْبِيحِهِ» لوجه: أحدها: أن تكون الهاء التي في قوله «صَلَاتِهِ وَتَسْبِيحِهِ» من ذِكْرِ كُلِّ، فيكون تأويل الكلام: كُلُّ مُصَلٍّ وَمُسَبِّحٍ مِنْهُمْ قَدْ عِلِمَ اللَّهُ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ، ويكون الكل حينئذٍ مرتفعاً بالعائد من ذكره في قوله: «كُلُّ قَدِّ عِلْمِ صَلَاتِهِ وَتَسْبِيحِهِ» وهو الهاء التي في الصلاة.

والوجه الآخر: أن تكون الهاء في الصلاة والتسبيح أيضاً للكل، ويكون الكل مرتفعاً بالعائد من ذكره عليه في «عِلِمَ»، ويكون «عِلِمَ» فعلاً للكل، فيكون تأويل الكلام حينئذٍ: قد علم كل مُصَلٍّ وَمُسَبِّحٍ مِنْهُمْ صلاة نفسه وتسبيحه، الذي كُلِّفَهُ وَأُلْزِمَهُ.

والوجه الآخر: أن تكون الهاء في الصلاة والتسبيح من ذِكْرِ اللَّهِ، وَالْعِلْمُ

للكل، فيكون تأويل الكلام حينئذ: قد علم كل مسيحٍ ومصلٍّ صلاةَ الله التي كَلَّفَهُ إياها وتسبيحه، وأظهر هذه المعاني الثلاثة على هذا الكلام. المعنى الأول، وهو أن يكون المعنى: كلُّ مصلٍّ منهم ومسيح، قد عَلِمَ اللهُ صَلَاتَهُ وتسبيحه.

وقوله: «وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: والله ذو علم بما يفعل كلُّ مصلٍّ ومسيحٍ منهم، لا يخفى عليه شيءٌ من أفعالهم، طاعتها ومعصيتها، محيطٌ بذلك كله، وهو مُجَازِيهِم على ذلك كله.

وقوله: «وَاللهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»، يقول جَلَّ ثَنَاؤُه: والله سلطان السموات والأرض وملكها دون كلِّ مَنْ هو دُونُهُ من سلطانٍ وملكٍ، فإياه فارهبوا أيها الناس، وإليه فارغبوا لا إلى غيره، فإنَّ بيده خزائن السموات والأرض، لا يخشى بعباياكم منها فقراً. «وإلى الله المَصِيرُ»، يقول: وأنتم إليه بعد وفاتكم، مَصِيرُكُمْ ومعادُكُمْ، فَيُوقِيكُمْ أجورَ أعمالِكُم التي عملتموها في الدنيا، فأحسنوا عبادَتَه، واجتهدوا في طاعته، وقَدِّمُوا لأنفسكم الصالحات من الأعمال.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلْفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِزَابًا فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سُنَّابُ رِقْدِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴿٤٣﴾**
يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «أَلَمْ تَرَ» يا محمدُ «أَنَّ الله يُزْجِي»، يعني يسوق «سحاباً» حيث يريدُ «ثُمَّ يُؤَلْفُ بَيْنَهُ»، يقول: ثم يؤلف بين السحاب.

وقوله: «ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا» يقول: ثم يجعل السحاب الذي يُزجيه، ويؤلف بعضه إلى بعضٍ رُكَامًا، يعني متراكماً بعضه على بعض.

وقوله: «فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ»، يقول: فترى المطر يخرج من بين السحاب، وهو الودق.

وقوله: «وَيُنَزَّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ»، قيل في ذلك قولان: أحدهما: أن معناه: أن الله ينزل من السماء من جبالٍ في السماء من بَرَدٍ مخلوقة هنالك خلقة، كأن الجبال على هذا القول، هي من برد، كما يقال: جبال من طين. والقول الآخر: أن الله ينزل من السماء قَدَرٌ جبالٍ، وأمثال جبالٍ من برد إلى الأرض، كما يقال: عندي بيتان تبنًا، والمعنى: قدر بيتين من التبن، والبيتان ليسا من التبن.

وقوله: «فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ»، يقول: فيعذب بذلك الذي ينزل من السماء من جبالٍ فيها من برد، من يشاء فيهلكه، أو يهلك به زروعه وماله «وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ» من خلقه، يعني عن زروعهم وأموالهم.

وقوله: «يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ»، يقول: يكاد شِدَّةُ ضوء بَرْقِ هذا السحاب يذهب بأبصارٍ مَنْ لاقى بصره، والسَّنا مقصورٌ، وهو ضوء البرق.

وقوله: «يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ»، يقول: يعقب الله بين الليل والنهار ويصرفهما، إذا أذهب هذا جاء هذا، وإذا أذهب هذا جاء هذا. «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ»، يقول: إن في إنشاء الله السحاب، وإنزاله منه الودق، ومن السماء البرد، وفي تقلبيه الليل والنهار لعبرة لمن اعتبر به، وعِظَةً لمن اتَّعَظَ به، مِمَّنْ له فَهْمٌ وعقل، لأنَّ ذلك يُنبِئُ ويدلُّ على أنَّ له مدبراً ومصرفاً ومقلباً لا يشبهه شيء.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» ﴿٤٥﴾

قوله: «خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ»، يعني: من نطفة، «فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ» كالحيات وما أشبهها، وقيل إنما قيل «فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ» والمشي لا يكون على البطن، لأنَّ المشي إنما يكون لما له قوائم على التشبيه وأنه لما خالط ما له قوائم ما لا قوائم له جاز، كما قال: «وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ» كالطير «وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ» كالبهائم.

فإن قال قائل: فكيف قيل: فمنهم من يمشي، ومن للناس، وكلُّ هذه الأجناس أو أكثرها لغيرهم؟ قيل: لأنه تفريق ما هو داخل في قوله: «وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ» وكان داخلاً في ذلك الناس وغيرهم، ثم قال: فمنهم، لاجتماع الناس والبهائم وغيرهم في ذلك واختلاطهم، فكفى عن جميعهم كناية عن بني آدم، ثم فسَّره بمن، إذ كان قد كنى عنهم كناية بني آدم خاصة. «يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ»، يقول: يحدث الله ما يشاء من الخلق. «إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»، يقول: إن الله على إحداث ذلك وخلقها، وخلق ما يشاء من الأشياء غيره، ذو قدرة لا يتعذر عليه شيء أراد.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: «لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مُبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» ﴿٤٦﴾

يقول تعالى ذكره: لقد أنزلنا أيها الناس علامات واضحات دالات على طريق الحق وسبيل الرشاد. «وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»، يقول: والله يرشد من يشاء من خلقه بتوفيقه، فيهديه إلى دين الإسلام، وهو الصراط

المستقيم، والطريق القاصد الذي لا اعوجاج فيه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا، ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾

يقول تعالى ذكره: ويقول المنافقون: صدقنا بالله وبالرسول، وأطعنا الله وأطعنا الرسول «ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ»، ثم تُدْبِرُ كُلُّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا قَالُوا هذا القول عن رسول الله ﷺ، وتدعو إلى المحاكمة إلى غيره خَصْمَهَا. «وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ»، يقول: وليس قائلو هذه المقالة يعني قوله: «آمنا بالله وبالرسول وأطعنا» بالمؤمنين لتركهم الإحتكام إلى رسول الله ﷺ وإعراضهم عنه إذا دُعوا إليه.

وقوله: «وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ»، يقول: وإذا دُعِيَ هؤلاء المنافقون إلى كتاب الله وإلى رسول الله ﷺ «لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ» فيما اختصموا فيه بحكم الله «إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ» عن قبول الحق، والرضا بحكم رسول الله ﷺ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾

يقول تعالى ذكره: وَإِنْ يَكُنِ الْحَقُّ لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُدْعَوْنَ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ فَيَأْبُونَ وَيُعْرِضُونَ عن الإجابة إلى ذلك، قَبْلَ الَّذِينَ يُدْعَوْنَهُمْ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ يَأْتُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ مُذْعِنِينَ، يقول: مذعنين مُتَقَادِينَ لحكمه، مُقَرِّينَ به طائعينَ غير مكرهين، يقال منه: قد أذعن فلان بحقه إذا أقر به طائعا

غير مستكره، وانقاد له وسلم.

وقوله: «أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: أَفِي قُلُوبِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَعْزُضُونَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ شَكٌّ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَنَّهُ اللَّهُ رَسُولٌ، فَهُمْ يَمْتَنِعُونَ مِنَ الْإِجَابَةِ إِلَى حُكْمِهِ وَالرَّضَا بِهِ «أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ» إِذَا احْتَكَمُوا إِلَى حَكْمِ كِتَابِ اللَّهِ وَحَكْمِ رَسُولِهِ وَقَالَ: «أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ» وَالْمَعْنَى: أَنْ يَحِيفَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، فَبَدَأَ بِاللَّهِ تَعَالَى ذِكْرَهُ تَعْظِيماً لِلَّهِ كَمَا يُقَالُ: مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شَتَّ، بِمَعْنَى: مَا شَتَّ. وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَعْنَى ذَلِكَ كَذَلِكَ قَوْلُهُ: «وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ» فَأَفْرَدَ الرَّسُولَ بِالْحَكْمِ وَلَمْ يَقُلْ: لِيَحْكَمَا.

وقوله: «بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ»، يَقُولُ: مَا خَافَ هَؤُلَاءِ الْمُعْرِضُونَ عَنْ حُكْمِ اللَّهِ وَحَكْمِ رَسُولِهِ، إِذْ أَعْرَضُوا عَنِ الْإِجَابَةِ إِلَى ذَلِكَ مِمَّا دُعُوا إِلَيْهِ، أَنْ يَحِيفَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ، فَيَجُورَ فِي حُكْمِهِ عَلَيْهِمْ، وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ أَهْلُ ظُلْمٍ لَأَنْفُسِهِمْ بِخِلَافِهِمْ أَمْرَ رَبِّهِمْ، وَمَعْصِيَتِهِمْ اللَّهُ فِيمَا أَمَرَهُمْ مِنَ الرِّضَا بِحَكْمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيمَا أَحَبُّوا وَكَرَهُوا، وَالتَّسْلِيمَ لَهُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: إِنَّمَا كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ قَوْلُ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى حَكْمِ اللَّهِ وَإِلَى حَكْمِ رَسُولِهِ، «لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ» وَبَيْنَ خُصُومِهِمْ «أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا» مَا قِيلَ لَنَا «وَأَطَعْنَا» مَنْ دَعَانَا إِلَى ذَلِكَ. وَلَمْ يُعْنَ بِكَانَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ الْخَبَرُ عَنْ أَمْرِ قَدْ مَضَى فَيَقْضَى، وَلَكِنَّهُ تَأْنِيْبٌ مِنَ اللَّهِ الَّذِينَ أَنْزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةَ بِسَبَبِهِمْ، وَتَأْدِيبٌ مِنْهُ آخَرِينَ غَيْرِهِمْ.

وقوله: «وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: والذين إذا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ خُصُومِهِمْ أَنْ يَقُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا الْمُفْلِحُونَ، يقول: هُمُ الْمُنْجِحُونَ الْمُذَرِّكَونَ طَلِبَاتِهِمْ بِفِعْلِهِمْ ذَلِكَ، الْمُخْلِدُونَ فِي جَنَاتِ اللَّهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾

يقول جَلَّ ثَنَاهُ: «وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» فيما أمره ونهاه، وَيُسَلِّمَ لِحُكْمِهَا لَهُ وَعَلَيْهِ، وَيَخْشَى عَاقِبَةَ مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَيَحْذَرُهَا، وَيَتَّقَى عَذَابَ اللَّهِ بِطَاعَتِهِ إِيَّاهُ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ «فَأُولَئِكَ»، يقول: فالذين يفعلون ذلك «هُمُ الْفَائِزُونَ» برضا الله عنهم يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَمْنِهِمْ مِنْ عَذَابِهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وَخَلَفَ هَؤُلَاءِ الْمَعْرُضُونَ عَنْ حُكْمِ اللَّهِ وَحُكْمِ رَسُولِهِ، إِذْ دُعُوا إِلَيْهِ، «بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ»، يقول: أَغْلَظَ أَيْمَانَهُمْ وَأَشَدَّهَا «لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ» يَا مُحَمَّدُ، بِالْخُرُوجِ إِلَى جِهَادِ عَدُوِّكَ وَعَدُوِّ الْمُؤْمِنِينَ «لَيَخْرُجُنَّ، قُلْ لَا تُقْسِمُوا» لَا تَحْلِفُوا، فَإِنَّ هَذِهِ «طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ» مِنْكُمْ فِيهَا التَّكْذِيبُ. «إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ»، يقول: إِنَّ اللَّهَ ذُو خَبَرَةٍ بِمَا تَعْمَلُونَ مِنْ طَاعَتِكُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، أَوْ خِلَافَتِكُمْ أَمْرَهُمَا. أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أُمُورِكُمْ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ، وَهُوَ مُجَازِيكُمْ بِكُلِّ ذَلِكَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا

فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا
الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ «قُلْ»، يا محمد، لهؤلاء المقسمين بالله جهد أيمانهم
لئن أمرتهم ليخرجنَّ، وَغَيْرُهُمْ من أمتك «أَطِيعُوا اللَّهَ» أيها القوم، فيما أمركم
به، ونهاكم عنه «وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ» فإن طاعته لله طاعة. «فَإِنْ تَوَلَّوْا»، يقول:
فإن تُعْرِضُوا وتُذَبِّروا عما أمركم به رسول الله ﷺ، أو نهاكم عنه، وتأبوا أن
تُدْعُوا لحكمه لكم وعليكم. «فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ»، يقول: فإنما عليه فعل ما
أَمَرَ بفعله من تبليغ رسالة الله إليكم على ما كَلَّفَهُ من التبليغ «وَعَلَيْكُمْ مَا
حُمِّلْتُمْ»، يقول: وعليكم أيها الناس أن تفعلوا ما ألزَمكم، وأَوْجَبَ عليكم من
اتباع رسوله ﷺ، والانتهاى إلى طاعته فيما أمركم ونهاكم.

وقوله: «وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا»، يقول تعالى ذِكْرَهُ: وَإِنْ تُطِيعُوا أيها الناس
رسول الله فيما يأمركم وينهاكم، تَرْشُدُوا وتُصِيبُوا الحقَّ في أموركم «وَمَا عَلَى
الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ»، يقول: وغير واجب على مَنْ أرسله الله إلى قومٍ
برسالةٍ إلا أن يبلغهم رسالته بلاغاً يبين لهم ذلك البلاغ عما أَرَادَ الله به، يقول:
فليس على محمدٍ أيها الناس إلا أداء رسالة الله إليكم وعليكم الطاعة وإن
أطعتموه لحظوظ أنفسكم تُصِيبُونَ، وإن عصيتموه بأنفسكم فتوبقون^(١).

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي

(١) توبقون: أي تهلكون أنفسكم. والموبقات: الكبائر من المعاصي لأنهن مهلكات.

لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا» بالله ورسوله «مِنْكُمْ» أيها الناس «وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ»، يقول: وأطاعوا الله ورسوله فيما أمراه ونهياه «لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ»، يقول: ليورثنهم الله أرضَ المشركين من العرب والعجم، فيجعلهم ملوكها وساستها «كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ»، يقول: كما فعل من قبلهم ذلك بني إسرائيل، إذ أهلكَ الجبابرةَ بالشَّام، وجعلهم ملوكها وسكانها. «وَلَيَمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ»، يقول: وليوطئنَّ لهم دينهم، يعني ملتهم التي ارتضاها لهم، فأمرهم بها. وقيل: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا، ثم تَلَقَّى ذلك بجوابِ اليمينِ بقوله: «لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ» لأنَّ الوعدَ قولٌ يصلحُ فيه «أن»، وجوابُ اليمينِ كقوله: وعدتُك أن أكرمك، ووعدتُك لأكرمك.

وقوله: «وَلَيَبْذُلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا»، يقول: وليغيرنَّ حالَهُمْ عَمَّا هِيَ عليه من الخوفِ إلى الأمنِ، والعربُ تقول: قد بَدَّلَ فلان إذا غيرت حاله، ولم يأت مكان فلان غيره، وكذلك كُلُّ مغيرٍ عن حاله، فهو عندهم مُبَدِّلٌ بالتشديد.

وقوله: «يَعْبُدُونَنِي»، يقول: يخضعون لي بالطاعة، ويتذللون لأمرِي ونهيي. «لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا»، يقول: لا يشركون في عبادتهم إِيَّايَ الأوثانَ والأصنامَ ولا شيئاً غيرها، بل يخلصون لي العبادةَ فَيَقْرُدُونَهَا إِلَيَّ دونَ كُلِّ ما عبد من شيءٍ غيري.

وذكر أنَّ هذه الآية نزلت على رسولِ الله ﷺ من أجل شكايَةِ بعض أصحابِهِ إليه في بعضِ الأوقاتِ التي كانوا فيها من العدوِّ في خوفٍ شديدٍ مما هُم فيه من الرعبِ والخوفِ، وما يلقونَ بسببِ ذلك من الأذى والمكروه.

ومعنى الكُفر الذي ذكره الله في قوله: «وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ» هو قول مَنْ قال: إنه كُفِّرَ بالنعمةِ لا كُفِّرَ بالله؛ وذلك أنَّ الله وعدَ الإنعامَ على هذه الأمةِ

بما أخبر في هذه الآية، أنه منعمٌ به عليهم؛ ثم قال عقيب ذلك: فَمَنْ كَفَرَ
هذه النعمة بعد ذلك «فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ».

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا
الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴿٥٨﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ
وَمَا لَهُمْ النَّارُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وأقيموا» أيها الناس «الصَّلَاةَ» بحدودها، فلا تُضَيِّعُوهَا
«وآتوا الزَّكَاةَ» التي فرضها الله عليكم أهلها، وأطيعوا رسولَ رَبِّكم فيما أمركم
ونهاكم. «لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ»، يقول: كي يرحمكم ربُّكم، فينجيكم من عذابه.

وقوله: «لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ»، يقول تعالى
ذِكْرُهُ: لا تحسبنَّ يا محمدُ، الذين كفروا بالله مُعْجِزِيهِ فِي الْأَرْضِ إذا أراد
إهلاكَهُمْ «وَمَاوَاهُمْ» بعد هلاكِهِمْ «النَّارَ، وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ» الذي يصيرون إليه
ذلك المأوى.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ
مَّا أَتَيْتُمُ مِنَ الْغُلَامِ أَنْ تَزَوَّجُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ
تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ
عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَ هُنَّ طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ
يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴿٥٨﴾

اختلف أهل التأويل في المعنى بقوله: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ مَّا أَتَيْتُمُ مِنَ الْغُلَامِ»

أَيْمَانُكُمْ»، فقال بعضهم: عنى بذلك: الرجال دون النساء، ونُهِوا عن أَنْ يَدْخُلُوا عليهن في هذه الأوقاتِ الثلاثة، هؤلاء الذين سُمُّوا في هذه الآيةِ إلا بإذنٍ.

وقال آخرون: بل عنى به: الرجال والنساء.

وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب قول مَنْ قال: عنى به الذكور والإناث، لأن الله عَمَّ بقوله «الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» جميع أملاكِ أيماننا، ولم يخص منهم ذكراً ولا أنثى، فذلك على جميع من عَمَّهُ ظاهرُ التنزيل.

فتأويلُ الكلام: يا أيها الذين صدَّقُوا الله ورسوله، ليستأذنكم في الدخول عليكم عبيدُكم وإماءكم، فلا يدخلوا عليكم إلا بإذنٍ منكم لهم.

«وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ»، يقول: والذين لم يحتلموا من أحراركم «ثَلَاثَ مَرَّاتٍ»، يعني ثلاث مرات في ثلاثة أوقاتٍ من ساعاتِ ليلكم ونهاركم.

وقوله: «ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ»، اختلفتِ القُرْأَةُ في قراءة ذلك، فقرأته عامة قُرْأَةَ المدينة والبصرة «ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ» برفع الثلاث، بمعنى الخبر عن هذه الأوقاتِ التي ذكرت كانه عندهم، قيل: هذه الأوقاتِ الثلاثة التي أمرناكم بأن لا يدخل عليكم فيها مَنْ ذكرنا إلا بإذنٍ، ثلاث عورات لكم، لأنكم تَضَعُونَ فِيهَا ثِيَابَكُمْ، وَتَخْلُونَ بِأَهْلِيكُمْ، وقرأ ذلك عامة قُرْأَةُ الكوفة «ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ» بنصب الثلاث على الردِّ على الثلاثِ الأولى، وكأن معنى الكلام عندهم: ليستأذنكم الذين مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ، والذين لم يبلغوا الحُلُمَ منكم ثلاث عوراتٍ لكم.

والصوابُ من القول في ذلك أنهما قراءتان متقاربتا المعنى، وقد قرأ بكل واحدةٍ منهما علماء من القُرْأَةِ، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيب.

وقوله: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ»، يقول

تعالى ذِكْرُهُ: «ليس عليكم» معشر أرباب البيوت والمساكن «ولا عليهم»، يعني: ولا على الذين مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ من الرجال والنساء، والذين لم يبلغوا الحُلُمَ من أولادكم الصغار، حَرَجٌ ولا إثمٌ بعدهنَّ، يعني بعد العورات الثلاث، والهَاء والنون في قوله: «بَعْدَهُنَّ» عائدتان على الثلاث من قوله: «ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ»، وإنما يعني بذلك أنه لا حَرَجٌ ولا جناحٌ على الناس أن يدخلَ عليهم مَمَالِيكُهُم البالغون، وصبيانهم الصغارُ بغيرِ إذنٍ بعد هذه الأوقاتِ الثلاثِ اللاتي ذكرهنَّ في قوله: «مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ، وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ، وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ».

وقوله: «طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ»، يقول: هؤلاء المماليكُ والصبيانُ الصغارُ هم طَوَّافُونَ عليكم أيها الناس، ويعني بالطَوَّافِينَ: أنهم يدخلون ويخرجون على مواليتهم وأقربائهم في منازلهم غدوةً وعشيةً بغيرِ إذنٍ يطوفون عليهم، بعضهم على بعض في غير الأوقاتِ الثلاثِ التي أمرهم أن لا يدخلوا على ساداتهم وأقربائهم فيها إلا بإذن. «كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ»، يقول جَلَّ ثَنَاؤُهُ: كما بينتُ لكم أيها الناس أحكامَ الاستئذانِ في هذه الآية، كذلك يُبَيِّنُ اللَّهُ لكم جميعَ أعلامِهِ وأدِلَّتِهِ وشرائعِ دينِهِ. «وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ»، يقول: والله ذُو عِلْمٍ بما يصلحُ عبادةً، حَكِيمٌ في تدبيرِهِ إياهم، وغير ذلك من أموره.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمْ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وإذا بلغَ الصغارُ من أولادكم وأقربائكم، ويعني بقوله: «مِنْكُمْ» من أحراركم «الحُلُمَ» يعني الاحتلامَ واحتلموا. «فَلْيَسْتَأْذِنُوا»، يقول:

فلا يدخلوا عليكم في وقتٍ من الأوقاتِ إلا بإذنٍ، لا في أوقاتِ العوراتِ الثلاثِ ولا في غيرها.

وقوله: «كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ»، يقول: كما استأذنَ الكبارُ من ولد الرجلِ وأقربائه الأحرار، وَخَصَّ اللهُ تعالى ذِكْرَهُ في هذه الآيةِ الأطفالِ بالذكرِ، وتعريفِ حُكْمِهِمْ عبادةً في الاستئذانِ دُونَ ذِكْرِ ما ملكَتْ أيمانُنا، وقد تقدَّمتِ الآيةُ التي قبلها بتعريفهم حُكْمَ الأطفالِ الأحرارِ والمماليك، لأنَّ حكمَ ما ملكَتْ أيمانُكم من ذلك، حُكْمٌ واحد، سواء فيه حُكْمُ كبارهم وصغارهم في أنَّ الإِذْنَ عليهم في الساعاتِ الثلاثِ التي ذكرها اللهُ في الآيةِ التي قَبْلُ.

«كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ»، يقول: هكذا يبينُ اللهُ لكم آياته، أحكامَهُ وشرائعَ دينه، كما بيَّنَ لكم أمرَ هؤلاءِ الأطفالِ في الاستئذانِ بعد البلوغِ. «وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ»، يقول: والله عليمٌ بما يصلحُ خَلْقَهُ وغير ذلك من الأشياءِ، حَكِيمٌ في تدبيره خلقه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: واللواتي قد قَعَدْنَ عن الولدِ من الكبرِ من النساءِ، فلا يَحْضُنَ ولا يِلْدُنَ، واحدهنَّ قاعدٌ. «اللاتي لا يَرْجُونَ نِكَاحًا»، يقول: اللاتي قد يَتَسَنَّ من البعولةِ، فلا يطمعن في الأزواج. «فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ»، يقول: فليس عليهنَّ حَرَجٌ ولا إِثْمٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ، يعني جلابيبهنَّ، وهي القنَاعُ الذي يكونُ فوقَ الخمارِ، والرداءُ الذي يكونُ فوقَ الثيابِ، لا حَرَجَ عليهنَّ أَنْ يَضَعْنَ ذلك عند المحارمِ من الرجالِ، وغيرِ المحارمِ من الغرباءِ، غيرِ متبرجاتٍ بزينةٍ.

وقوله: «غَيْرَ مُتَّبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ»، يقول: ليس عليهنَّ جناحٌ في وضع أرديتهنَّ إذا لم يُرَدَّنَ بوضع ذلك عنهنَّ أن يُبَدِّينَ ما عليهنَّ من الزينة للرجال. والتبرُّجُ: هو أن تُظهِرَ المرأة من محاسنها ما ينبغي لها أن تستره.

وقوله: «وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ»، يقول: وإنَّ تَعَفَّفْنَ عن وضع جلابيبهنَّ وأرديتهنَّ، فَيَلْبَسْنَها خَيْرٌ لَهُنَّ من أن يَضَعْنَها.

«وَاللَّهُ سَمِيعٌ» ما تنطقون بالستكم «عَلِيمٌ» بما تُضْمِرُهُ صدورُكم، فاتقوه أن تَنْطِقُوا بالستكم ما قد نهاكم عن أن تنطقوا بها، أو تُضمروا في صدوركم ما قد كَرِهَهُ لكم، فتستوجبوا بذلك منه عقوبةً.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْهُم مَفَاتِحُهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً وَأَشْتَاتاً فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾

اختلف أهل التأويل في هذه الآية في المعنى الذي أنزلت فيه، فقال بعضهم: أنزلت هذه الآية ترخيصاً للمسلمين في الأكل مع العميان والعرجان والمرضى وأهل الزمانة من طعامهم، من أجل أنهم كانوا قد امتنعوا من أن يأكلوا معهم من طعامهم، خشية أن يكونوا قد أتوا بأكلهم معهم من طعامهم

شيئاً مما نَهَاَهُمُ اللهُ عَنْهُ بِقَوْلِهِ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ».

وقال آخرون: بل نزلت هذه الآية ترخيصاً لأهل الزمانة في الأكل من بيوت مَنْ سَمَّى اللهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، لِأَنَّ قَوْمًا كَانُوا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذَا لَمْ يَكُنْ عَنْدهُمْ فِي بَيْوتِهِمْ مَا يَطْعَمُونَهُمْ ذَهَبُوا بِهِمْ إِلَى بَيْوتِ آبَائِهِمْ وَأُمَهَاتِهِمْ، أَوْ بَعْضُ مَنْ سَمَّى اللهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، فَكَانَ أَهْلُ الزَّمَانَةِ يَتَخَوَّفُونَ مِنْ أَنْ يُطْعَمُوا ذَلِكَ الطَّعَامَ، لِأَنَّهُ أَطْعَمَهُمْ غَيْرَ مُلْكِهِ.

وقال آخرون: بل نزلت ترخيصاً لأهل الزمانة الذين وصفهم الله في هذه الآية أَنْ يَأْكُلُوا مِنْ بَيْوتِ مَنْ خَلَفَهُمْ فِي بَيْتِهِ مِنَ الْغَزَاةِ.

وقال آخرون: بل عَنَى بِقَوْلِهِ: «لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ، وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ، وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ» فِي التَّخَلُّفِ عَنِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ، قَالُوا: وَقَوْلُهُ: «وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ» كَلَامٌ مَنْقُطٌ عَمَّا قَبْلَهُ.

وقال آخرون: بل نزلت هذه الآية ترخيصاً للمسلمين الذين كانوا يتقون مَوَاكِلَةَ أَهْلِ الزَّمَانَةِ فِي مَوَاكِلَتِهِمْ إِذَا شَاؤُوا ذَلِكَ.

واختلفوا أيضاً فِي مَعْنَى قَوْلِهِ: «أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ»، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: عَنَى بِذَلِكَ: وَكَيْلَ الرَّجُلِ وَقِيَمَهُ، أَنَّهُ لَا بَأْسَ عَلَيْهِ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ ثَمَرِ ضَيْعَتِهِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وقال آخرون: بل عَنَى بِذَلِكَ: مَنْزِلَ الرَّجُلِ نَفْسَهُ أَنَّهُ لَا بَأْسَ عَلَيْهِ أَنْ يَأْكُلَ.

وَأَشْبَهُ الْأَقْوَالَ بِالصَّوَابِ قَوْلُ مَنْ قَالَ: إِنَّهَا نَزَلَتْ تَرْخِيصاً لِأَهْلِ الزَّمَانَةِ الَّذِينَ وَصَفَهُمُ اللهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنْ يَأْكُلُوا مِنْ بَيْوتِ مَنْ خَلَفَهُمْ فِي بَيْتِهِ مِنْ

الغزاة، وذلك أَنَّ أظهرَ معاني قوله: «لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ، وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ»، أنه لا حَرْجَ على هؤلاء الذين سموا في هذه الآية أَنْ يأكلوا من بيوت مَنْ ذَكَرَهُ اللهُ فيها على ما أَبَاحَ لهم من الأكلِ منها فإذا كان ذلك أظهرَ معانيه، فتوجيه معناه إلى الأغلبِ الأعرَجِ من معانيه أولى من توجيهه إلى الأنكرِ منها. فإذا كان ذلك كذلك، كان ما خالفَ من التأويلِ قولُ مَنْ قال: معناه: ليس في الأعمى والأعرجِ حرجٌ أولى بالصواب. وكذلك أيضاً الأغلبُ من تأويلِ قوله: «وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ» أنه بمعنى: ولا عليكم أيها الناسُ، ثم جمع هؤلاءِ والرُّمْنَى الذين ذكروهم قَبْلُ في الخطاب، فقال: أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِ أَنْفُسِكُمْ، وكذلك تفعلُ العربُ إذا جمعت بين خبرِ الغائب والمخاطبِ، غَلَبَتِ الْمُخَاطَبَ، فقالت: أَنْتَ وأخوك قمتما، وَأَنْتَ وزيدُ جلستما، ولا تقول: أَنْتَ وأخوك جلسا، وكذلك قوله: «وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ» والخبر عن الأعمى والأعرجِ والمريض غَلَبَ المخاطب، فقال: أَنْ تَأْكُلُوا، ولم يقل: أَنْ يَأْكُلُوا.

فإن قال قائل: فهذا الأكلُ من بيوتهم قد علمناه، كان لهم حلالاً، إِذْ كَانَ ملكاً لهم، أو كَانَ أيضاً حلالاً لهم الأكلُ من مالٍ غيرهم؟ قيل له: ليس الأمرُ في ذلك على ما تَوَهَّمْتَ، ولكنه أنهم كانوا إذا غابوا في مغازيهم، وَتَخَلَّفَ أَهْلُ الزمَانَةِ منهم، دفع الغازي مفتاحَ مسكنه إلى المتخلفِ منهم، فأطلق له في الأكلِ مما يخلف في منزله من الطعام، فكان المتخلفون يتخوَّفُونَ الأكلَ من ذلك ورَبُّهُ غائبٌ، فأعلمه الله أنه لا حَرْجَ عليه في الأكلِ منه، وَإِذَنْ لهم في أكله فإذا كان ذلك كذلك تَبَيَّنَ أَنَّ لا معنى لقولِ مَنْ قال: إنما أنزلت هذه الآية من أجلِ كراهة المستبِيعِ أَكَلَ طعامٍ غير المستبِيعِ، لأن ذلك لو كان كما قَالَ مَنْ قال ذلك، لقليل: ليس عليكم حرجٌ أَنْ تَأْكُلُوا من طعامٍ غيرِ مَنْ أَضَافَكُمْ، أو من طعامِ آبَاءِ مَنْ دعاكم، ولم يقل: أَنْ تَأْكُلُوا من بيوتكم أو بيوتِ آبائكم، وكذلك لا وجهَ لقولِ مَنْ قال: معنى ذلك: ليس على الأعمى

حَرَجٌ فِي التَّخْلَفِ عَنِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، لِأَنَّ قَوْلَهُ: «أَنْ تَأْكُلُوا» خَبَرٌ لَيْسَ، وَأَنْ فِي مَوْضِعٍ نَصَبَ عَلَى أَنَّهَا خَبَرٌ لَهَا، فَهِيَ مُتَعَلِّقَةٌ بَلَيْسَ، فَمَعْلُومٌ بِذَلِكَ أَنَّ مَعْنَى الْكَلَامِ: لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ بَيْتِهِ، لَا مَا قَالَهُ الَّذِينَ ذَكَرْنَا مِنْ أَنَّهُ لَا حَرَجَ عَلَيْهِ فِي التَّخْلَفِ عَنِ الْجِهَادِ.

فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ فِي ذَلِكَ عَلَى مَا وَصَفْنَا، تَبَيَّنَ أَنَّ مَعْنَى الْكَلَامِ: لَا ضَيْقَ عَلَى الْأَعْمَى، وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ، وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ، وَلَا عَلَيْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بَيْوتِ أَنْفُسِكُمْ، أَوْ مِنْ بَيْوتِ آبَائِكُمْ، أَوْ مِنْ بَيْوتِ أُمَّهَاتِكُمْ، أَوْ مِنْ بَيْوتِ إِخْوَانِكُمْ، أَوْ مِنْ بَيْوتِ أَخَوَاتِكُمْ، أَوْ مِنْ بَيْوتِ أَعْمَامِكُمْ، أَوْ مِنْ بَيْوتِ عِمَاتِكُمْ، أَوْ مِنْ بَيْوتِ أَخَوَالِكُمْ، أَوْ مِنْ بَيْوتِ خَالَاتِكُمْ، أَوْ مِنْ الْبَيْوتِ الَّتِي مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهَا، أَوْ مِنْ بَيْوتِ صَدِيقِكُمْ إِذَا أَذِنُوا لَكُمْ فِي ذَلِكَ عِنْدَ مَغِيبِهِمْ وَمَشْهَدِهِمْ. وَالْمَفَاتِيحُ: الْخَزَائِنُ، وَاحِدُهَا: مِفْتَاحٌ، إِذَا أُرِيدَ بِهِ الْمَصْدَرُ، وَإِذَا كَانَ مِنَ الْمَفَاتِيحِ الَّتِي يَفْتَحُ بِهَا، فَهِيَ مِفْتَاحٌ وَمِفْتَاحٌ، وَهِيَ هُنَا عَلَى التَّأْوِيلِ الَّذِي اخْتَرْنَاهُ جَمْعُ مِفْتَاحٍ الَّذِي يَفْتَحُ بِهِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً» فَإِنَّ أَهْلَ التَّأْوِيلِ اخْتَلَفُوا فِي تَأْوِيلِهِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: كَانَ الْغَنِيُّ مِنَ النَّاسِ يَتَخَوَّفُ أَنْ يَأْكُلَ مَعَ الْفَقِيرِ، فَرَخَّصَ لَهُمْ فِي الْأَكْلِ مَعَهُمْ.

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ غَنِيَ بِذَلِكَ حَيٌّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ، كَانُوا لَا يَأْكُلُ أَحَدُهُمْ وَحْدَهُ، وَلَا يَأْكُلُ إِلَّا مَعَ غَيْرِهِ، فَأَذِنَ اللَّهُ لَهُمْ أَنْ يَأْكُلَ مَنْ شَاءَ مِنْهُمْ وَحْدَهُ، وَمَنْ شَاءَ مِنْهُمْ مَعَ غَيْرِهِ.

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ غَنِيَ بِذَلِكَ قَوْمٌ كَانُوا لَا يَأْكُلُونَ إِذَا نَزَلَ بِهِمْ ضَيْفٌ إِلَّا مَعَ ضَيْفِهِمْ، فَرَخَّصَ لَهُمْ فِي أَنْ يَأْكُلُوا كَيْفَ شَاءُوا.

وَأُولَى الْأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ، أَنْ يَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ الْحَرَجَ عَنِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَأْكُلُوا جَمِيعاً مَعاً إِذَا شَاءُوا، أَوْ أَشْتَاتاً مُتَفَرِّقِينَ إِذَا أَرَادُوا، وَجَائِزٌ

أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ نَزَلَ بِسَبَبٍ مَنْ كَانَ يَتَخَوَّفُ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ الْأَكْلَ مَعَ الْفَقِيرِ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ نَزَلَ بِسَبَبِ الْقَوْمِ الَّذِينَ ذَكَرَ أَنَّهُمْ كَانُوا لَا يَطْعَمُونَ وَحِدَانًا، وَبِسَبَبِ غَيْرِ ذَلِكَ، وَلَا خَبَرَ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ يَقْطَعُ الْعُذْرَ، وَلَا دَلَالَةً فِي ظَاهِرِ التَّنْزِيلِ عَلَى حَقِيقَةِ شَيْءٍ مِنْهُ، وَالصَّوَابُ التَّسْلِيمُ لِمَا دَلَّ عَلَيْهِ ظَاهِرُ التَّنْزِيلِ، وَالتَّوَقُّفُ فِيمَا لَمْ يَكُنْ عَلَى صَحْتِهِ دَلِيلٌ.

وقوله: «فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ»، اختلف أهل التأويل في ذلك، فقال بعضهم: معناه: فإذا دخلتم أيها الناس بيوت أنفسكم، فَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِكُمْ وَعِيَالِكُمْ.

وقال آخرون: بل معناه: فإذا دخلتم المساجد فسلموا على أهلها.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: إذا دخلتم بيوتاً من بيوت المسلمين فيها ناسٌ منكم، فليسلم بعضهم على بعض.

وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب، لأنَّ الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ قَالَ: «فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا» وَلَمْ يَخْصُصْ مِنْ ذَلِكَ بَيْتاً دُونَ بَيْتٍ، وَقَالَ: «فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ»، يَعْنِي: بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ: فَكَانَ مَعْلُوماً إِذْ لَمْ يَخْصُصْ ذَلِكَ عَلَى بَعْضِ الْبُيُوتِ دُونَ بَعْضٍ، أَنَّهُ مَعْنَى بِهِ جَمِيعُهَا، مَسَاجِدُهَا وَغَيْرَ مَسَاجِدِهَا. وَمَعْنَى قَوْلِهِ: «فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ» نَظِيرُ قَوْلِهِ: «وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ».

وقوله: «كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ»، يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: هَكَذَا يَفْصَلُ اللَّهُ لَكُمْ مَعَالِمَ دِينِكُمْ، فَيُبَيِّنُهَا لَكُمْ، كَمَا فَصَّلَ لَكُمْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَا أَحَلَّ لَكُمْ فِيهَا، وَعَرَّفَكُمْ سَبِيلَ الدَّخُولِ عَلَى مَنْ تَدْخُلُونَ عَلَيْهِ، «لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ»، يَقُولُ: لِكِي تَفْقَهُوا عَنْ اللَّهِ أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ وَأَدْبَهُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ

وَرَسُولِهِ إِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَم يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ما المؤمنون حق الإيمان، إلا الذين صدّقوا الله ورسوله. «وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ»، يقول: وإذا كانوا مع رسول الله ﷺ «عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ»، يقول: على أمر يجمع جميعهم من حربٍ حضرت، أو صلاةٍ اجتمع لها، أو تشاورٍ في أمرٍ نَزَلَ «لَمْ يَذْهَبُوا»، يقول: لم ينصرفوا عما اجتمعوا له من الأمر، حتى يستأذنوا رسول الله ﷺ.

وقوله: «إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إِنَّ الذين لا ينصرفون يا محمد إذا كانوا معك في أمرٍ جامعٍ عنك إلا بإذنك لهم طاعةً منهم لله ولك، وتصديقاً بما أتيتهم به من عندي، أولئك الذين يصدقون الله ورسوله حقاً، لا مَنْ يخالِفُ أمر الله وأمر رسوله، فينصرف عنك بغير إذنٍ منك له، بعد تقدّمك إليه أن لا ينصرف عنك إلا بإذنك.

وقوله: «فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: فإذا استأذنك يا محمد الذين لا يذهبون عنك إلا بإذنك في هذه المواطن لبعضِ شأنهم، يعني: لبعضِ حاجاتهم التي تعرض لهم، فأذن لمن شئت منهم في الإنصرافِ عنك لقضائِها. «وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ» يقول: وادعُ الله لهم بأن يتفضّل عليهم بالعفو عن تبعاتٍ ما بينه وبينهم «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ» لذنوب عباده التائبين «رَحِيمٌ» بهم أن يعاقبهم عليها بعد توبتهم منها.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرُّسُلِ يَتَنَكَّبُكُمْ كَدُّعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذٍ أَلَيْحَ حَذَرِ الَّذِينَ

يَخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ لأصحاب نبيه محمد ﷺ: «لا تَجْعَلُوا» أيها المؤمنون «دُعَاءَ الرُّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا».

واختلف أهل التأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم: نهى الله بهذه الآية المؤمنين أَنْ يَتَعَرَّضُوا لدُعَاءِ الرسولِ عليهم، وقال لهم: اتقوا دعاءه عليكم بأنْ تفعلوا ما يسخطه، فيدعو لذلك عليكم فتهلكوا، فلا تجعلوا دعاءه كدعاء غيره من الناس، فإنْ دعاءه موجبة، وهو قول ابن عباس.

وقال آخرون: بل ذلك نهى من الله أَنْ يَدْعُوا رسولَ الله ﷺ بغلظٍ وجفاءٍ، وأمر لهم أَنْ يدعوه بلينٍ وتواضعٍ، وهو قول مجاهد، وقتادة.

وأولى التأويلين في ذلك بالصواب عندي، التأويل الذي قاله ابن عباس، وذلك أَنَّ الذي قبل قوله: «لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرُّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا» نهى من الله المؤمنين أَنْ يَأْتُوا من الانصرافِ عنه في الأمر الذي يجمعُ جميعَهُمْ ما يكرهه، والذي بعده وعيدٌ للمنصرفينَ بغيرِ إذنه عنه، فالذي بينهما بأنْ يكون تحذيراً لهم سخطه أَنْ يضطرَّه إلى الدعاء عليهم، أشبه من أَنْ يكونَ أمراً لهم بما لم يجزِ له ذِكْرُ من تعظيمه وتوقيره بالقول والدعاء.

وقوله: «قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا»، يقول تعالى ذِكْرَهُ: إنكم أيها المنصرفون عن نبيكم بغيرِ إذنه، تسترأ وخفيةً منه، وإنْ خفي أمرُ مَنْ يفعل ذلك منكم، على رسولِ الله ﷺ، فإنَّ الله يعلمُ ذلك، ولا يخفى عليه، فليتَّقِ مَنْ يفعل ذلك منكم، الذين يخالفون أمرَ الله في الانصرافِ عن رسولِ الله ﷺ إلا بإذنه، أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ من الله، أو يصيبهم عذابٌ أليم، فيطبع على قلوبهم، فيكفروا بالله،

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **الْآيَاتِ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴿٦٤﴾

يقول تعالى ذكره: ألا إنَّ الله مُلْكُ جميعِ السمواتِ والأرضِ: يقول: فلا ينبغي لمملوكٍ أن يخالِفَ أمرَ مالِكه فيعصيه، فيستوجبُ بذلك عقوبته، يقول: فكذلك أنتم أيها الناسُ لا يصلحُ لكم خلافُ رَبِّكم الذي هو مالِكُكم فأطيعوه، وأُتَمِرُوا لأمره، ولا تنصرفوا عن رسوله إذا كنتم معه على أمرٍ جامعٍ إلا بإذنه.

وقوله: «قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ» من طاعتكم إياه فيما أمركم ونهاكم من ذلك.

«وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ»، يقول: ويوم يرجعُ إلى الله الذين يخالفون عن أمره. «فَيُنَبِّئُهُمْ»، يقول: فيخبرهم حينئذٍ «بِمَا عَمِلُوا» في الدنيا، ثم يجازيهم على ما أسلفوا فيها من خلافهم على رَبِّهم «وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ»، يقول: والله ذو عِلْمٍ بكلِّ شيءٍ عملتموه أنتم وغيركم وغير ذلك من الأمور، لا يخفى عليه شيءٌ، بل هو محيطٌ بذلك كُلِّه، وهو موفِّ كلَّ عاملٍ منكم أجرَ عمله يومَ تُرْجَعُونَ إليه.

سُورَةُ الْفُرْقَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾

تَبَارَكَ: تفاعل من البركة، فقوله: «تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ»، يقول: تبارك الذي نَزَّلَ الفصل بين الحقِّ والباطلِ فصلاً بعد فصلٍ وسورةً بعد سورةٍ، على عبده محمدٍ ﷺ، ليكونَ محمدٌ لجميعِ الجنِّ والإنسِ، الذين بعثه الله إليهم داعياً إليه، «نذيراً»، يعني: منذراً ينذرهم عقابه، ويخوفهم عذابه، إن لم يؤخِّدوه ولم يُخلِّصُوا له العبادة، ويخلعوا كلَّ ما دونه من الآلهة والأوثان.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ بَقَدِيرٍ ﴿٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: تبارك الذي نَزَّلَ الفرقانَ «الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»، يعني: الذي له سلطانُ السمواتِ والأرضِ يُنفِذُ في جميعها أمره وقضاه، ويُمِضِي في كُلِّها أحكامه، يقول: فحقُّ على مَنْ كان كذلك أن يطيعه أهلُ مملكته، ومَنْ في سلطانه، ولا يعصوه، يقول: فلا تعصوا نذيري إليكم أيها الناسُ واتبعوه، واعملوا بما جاءكم به من الحقِّ. «وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا»، يقول:

الفرقان: ٣-٢

تكذيباً لمن أضافَ إليه الولد، وقال: الملائكة بنات الله، ما اتَّخَذَ الذي نَزَلَ
الفرقانَ على عبده ولداً، فمن أضافَ إليه ولداً فقد كذب وافتري على ربه.
«وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ»، يقولُ تكذيباً لمن كان يضيفُ الألوهةَ إلى
الأصنام ويعبدها من دونِ الله من مشركي العرب، ويقول في تلبيته: لَبَّيْكَ لَا
شَرِيكَ لَكَ، إلا شريكاً هو لك تملكُه وما مَلَكَ، كَذَبَ قائلو هذا القولِ، ما
كان لله من شريكٍ في مُلكه وسلطانه، فيصلح أن يعبد من دونه.

يقول تعالى ذِكْرُه: فأفردوا أيها الناسُ لربكم الذي نَزَلَ الفرقانَ على عبده
محمدٍ نبيه ﷺ الألوهةَ، وأخلصوا له العبادةَ دونَ كُلِّ ما تعبدون من دونه من
الآلهةِ والأصنامِ والملائكةِ والجنِّ والإنسِ، فإنَّ كُلَّ ذلك خلقه وفي ملكه، فلا
تصلحُ العبادةُ إلا لله الذي هو مالك جميع ذلك.

وقوله: «وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وخلق الذي نَزَلَ على
محمدٍ الفرقانَ كل شيءٍ، فالأشياء كلها خَلَقَه وملكه، على المماليكِ طاعةُ
مالكهم، وخدمةُ سيِّدهم دونَ غيره، يقول: وأنا خالقكم ومالككم، فأخلصوا
لي العبادةَ دونَ غيري.

وقوله: «فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا»، يقول: فَسَوَّى كُلَّ ما خلق، وهَيَّأَهُ لما يصلح له،
فلا خَلَلٌ فيه ولا تفاوت.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ
شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا
وَلَا حَيَاةً وَلَا شُورًا ﴿٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: مُقَرَّعاً مشركي العرب بعبادتهم ما دونه من الآلهةِ،
وَمُعْجَباً أولي النهى منهم، ومُنَبِّههم على موضعِ خطأ فِعْلِهِم، وذهابهم عن

منهج الحق، وركوبهم من سبل الضلالة ما لا يركبه إلا كل مدخول الرأي، مسلوب العقل، واتخذ هؤلاء المشركون بالله من دون الذي له ملك السموات والأرض وحده، من غير شريك، الذي خلق كل شيء فقدره، آلهة: يعني أصناماً بأيديهم يعبدونها، لا تخلق شيئاً وهي تخلق، ولا تملك لأنفسها نفعاً تجرّه إليها، ولا ضرراً تدفعه عنها ممن أرادها بضر، ولا تملك إماتة حي، ولا إحياء ميت، ولا نشره من بعد مماته، وتركوا عبادة خالق كل شيء، وخالق آلهتهم، ومالك الضر والنفع، والذي بيده الموت والحياة والنشور. والنشور: مصدر نُشر الميت نشوراً، وهو أن يبعث ويحيا بعد الموت.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٣﴾

يقول تعالى ذكره: وقال هؤلاء الكافرون بالله، الذين اتَّخذُوا من دونه آلهة: ما هذا القرآن الذي جاءنا به محمد «إلا إفك»، يعني: إلا كذب وبهتان «افتراه» اختلقه وتخرَّصه بقوله: «وأعانه عليه قوم آخرون» ذكر أنهم كانوا يقولون: إنما يعلم محمدًا هذا الذي يجيئنا به اليهود، فذلك قوله: «وأعانه عليه قوم آخرون»، يقول: وأعان محمدًا على هذا الإفك الذي افتراه يهود.

وقوله: «فقد جاؤوا ظُلْمًا وَزُورًا»، يقول تعالى ذكره: فقد أتى قائلو هذه المقالة، يعني الذين قالوا: «إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون» ظُلْمًا، يعني بالظلم نسبتهم كلام الله وتنزيله إلى أنه إفك افتراه محمد ﷺ. وقد بينا فيما مضى أن معنى الظلم: وضع الشيء في غير موضعه، فكان ظلم قائلِي هذه المقالة القرآن ب قيلهم هذا وصفهم إياه بغير صِفَتِهِ. والزور: أصله تحسين الباطل. فتأويل الكلام: فقد أتى هؤلاء القوم في قيلهم «إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون» كذباً محضاً.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَقَالُوا أَأَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكُتِّبَتْهَا
فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٦﴾

ذكر أن هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث، وأنه المعني بقوله : «وقالوا أساطير الأولين».

وتأويل الكلام : وقال هؤلاء المشركون بالله، الذين قالوا لهذا القرآن : إن هذا إلا إفك افتراه محمد ﷺ، هذا الذي جاءنا به محمد، أساطير الأولين، يعنون أحاديثهم التي كانوا يسطرونها في كتبهم، اكتتبها محمد ﷺ من يهود، «فهي تملأ عليه» يعنون بقوله : «فهي تملأ عليه»، فهذه الأساطير تقرأ عليه من قولهم : أملت عليك الكتاب. وأملت «بكرة وأصيلًا»، يقول : وتملى عليه غدوة وعشيا.

وقوله : «قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»، يقول تعالى ذكره : «قُلْ»، يا محمد، لهؤلاء المكذبين بآيات الله من مشركي قومك : ما الأمر كما تقولون من أن هذا القرآن أساطير الأولين، وأن محمدًا ﷺ افتراه وأعانه عليه قوم آخرون، بل هو الحق أنزله الرب الذي يعلم سر من في السموات ومن في الأرض، ولا يخفى عليه شيء، ومُحصي ذلك على خلقه، ومُجازيهم بما عزم عليه قلوبهم، وأضمره في نفوسهم. «إنه كان غفوراً رحيمًا»، يقول : إنه لم يزل يصفح عن خلقه ويرحمهم، فيفضل عليهم بعفو، يقول : فلأن ذلك من عادته في خلقه، يمهلككم أيها القائلون ما قلتم من الإفك، والفاعلون ما فعلتم من الكفر.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَقَالُوا مَا هَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ

وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ الْمَلَكُ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ
إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ
تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٨﴾

ذكر أن هاتين الآيتين نزلتا على رسول الله ﷺ فيما كان مشركو قومه قالوا
له ليلة اجتماع أشرافهم، بظهر الكعبة، وعرضوا عليه أشياء، وسألوه الآيات.
فتأويل الكلام: وقال المشركون: ما لهذا الرسول: يعنون محمداً ﷺ،
الذي يزعم أن الله بعثه إلينا يأكل الطعام كما نأكل، ويمشي في أسواقنا كما
نمشي، لولا أنزل إليه: يقول: هلاً أنزل إليه ملك إن كان صادقاً من السماء،
فيكون معه منذراً للناس، مصداقاً له على ما يقول، أو يُلقى إليه كنز من فضة
أو ذهب، فلا يحتاج معه إلى التصرف في طلب المعاش. «أو تكون له جنة»:
يقول: أو يكون له بستان «يأكل منها».

وقوله: «وَقَالَ الظَّالِمُونَ»، يقول: وقال المشركون للمؤمنين بالله ورسوله
«إِنَّ تَتَّبِعُونَ» أيها القوم باتباعكم محمداً إلا رجلاً به سحر.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلَ
فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ
ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ فُصُورًا ﴿١٠﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: انظر يا محمد، إلى هؤلاء المشركين
الذين شبهوا لك الأشباه بقولهم لك: هو مسحور، «فضلوا» بذلك عن قصد
السبيل، وأخطؤوا طريق الهدى والرشاد، «فلا يستطيعون»، يقول: فلا يجدون
«سبيلاً» إلى الحق، إلا فيما بعثتك به، ومن الوجه الذي ضلوا عنه.

وقوله: «تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: تَقْدَسَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ.

واختلف أهل التأويل في المعنى بذلك التي في قوله: «جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ»، فقال بعضهم: معنى ذلك: خيراً مما قال هؤلاء المشركون لك يا محمد، هَلَّا أُوتِيَتْهُ وَأَنْتَ لَهِ رَسُولٌ، ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى ذِكْرُهُ عَنْ ذَلِكَ الَّذِي لَوْ شَاءَ جَعَلَ لَهُ مِنْ خَيْرٍ مِمَّا قَالُوا، فَقَالَ: «جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ»، وهو قول مجاهد.

وقال آخرون: عني بذلك المشي في الأسواق. والتماس المعاش، وهو قول ابن عباس.

وقال آخرون: بل عني بذلك بيوت التجار التي فيها أمتعة الناس. والقول الذي ذكرناه عن مجاهد في ذلك، أشبه بتأويل الآية، لأنَّ المشركين إنما استعظموا أن لا تكونَ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا، وَأَنْ لَا يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ، واستنكروا أن يمشي في الأسواق، وهو لله رسولٌ، فالذي هو أولى بوعده الله إياه أن يكون وعداً بما هو خير مما كان عند المشركين عظيماً، لا مما كان منكراً عندهم.

وعني بقوله: «جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ»: بساتين تجري في أصول أشجارها الأنهار.

وقوله: «وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا»، يعني بالقصور: البيوت المبنية.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَوْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْطًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: مَا كَذَبَ هَؤُلَاءِ الْمَشْرُكُونَ بِاللَّهِ، وَأَنْكَرُوا مَا جِئْتَهُمْ بِهِ يَا مُحَمَّدٌ مِنَ الْحَقِّ مِنْ أَجْلِ أَنْكَ تَأْكُلُ الطَّعَامَ، وَتَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَكِنْ مِنْ أَجْلِ أَنْهُمْ لَا يُوقِنُونَ بِالْمَعَادِ، وَلَا يَصْدُقُونَ بِالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ تَكْذِيباً مِنْهُمْ بِالْقِيَامَةِ، وَبِعَثِ اللَّهِ الْأَمْوَاتِ أَحْيَاءَ لِحَشْرِ الْقِيَامَةِ. «وَأَعْتَدْنَا»، يَقُولُ: وَأَعْدَدْنَا لِمَنْ كَذَبَ بِيَعِثِ اللَّهُ الْأَمْوَاتَ أَحْيَاءَ بَعْدَ فَنَائِهِمْ لِقِيَامِ السَّاعَةِ، نَاراً تُسْعَرُ عَلَيْهِمْ، وَتَقْدُ إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ، يَقُولُ: إِذَا رَأَتْ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي أَعْتَدْنَاهَا لَهُؤُلَاءِ الْمَكْذِبِينَ أَشْخَاصَهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ، تَغَيِّظَتْ عَلَيْهِمْ، وَذَلِكَ أَنْ تَغْلِي وَتَفُورَ، يُقَالُ: فَلَانٌ تَغَيِّظَ عَلَى فَلَانٍ، وَذَلِكَ إِذَا غَضِبَ عَلَيْهِ، فَغَلَى صَدْرُهُ مِنَ الْغَضَبِ عَلَيْهِ، وَتَبَيَّنَ فِي كَلَامِهِ، وَزَفِيرًا، وَهُوَ صَوْتُهَا.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: وَكَيْفَ قِيلَ: «سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا»، وَالتَّغَيُّظُ: لَا يَسْمَعُ، قِيلَ: مَعْنَى ذَلِكَ: سَمِعُوا لَهَا صَوْتَ التَّغَيُّظِ مِنَ التَّلْهَبِ وَالتَّوَقُّدِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذَا الْقَوَاِمُنَّهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مَقَرَيْنِ دَعَوْهُنَّ لِكَ ثُبُورًا ﴿١٢﴾ لَا نَدْعُو الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وَإِذَا الْقَوَاِمُنَّهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مَقَرَيْنِ دَعَوْهُنَّ لِكَ ثُبُورًا ﴿١٢﴾ لَا نَدْعُو الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٣﴾ يقول تعالى ذِكْرُهُ: وَإِذَا الْقَوَاِمُنَّهَا مَكَانًا ضَيِّقًا، قَدْ قَرَنْتَ أَيْدِيَهُمْ إِلَى أَعْنَاقِهِمْ فِي الْأَغْلَالِ «دَعَوْهُنَّ لِكَ ثُبُورًا»، وَالثُّبُورُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ دَعَاءُ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ بِالنَّدَمِ عَلَى انْصِرَافِهِمْ، عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا، وَالْإِيمَانِ بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ، حَتَّى اسْتَوْجَبُوا الْعُقُوبَةَ مِنْهُ، كَمَا يَقُولُ الْقَائِلُ: وَانْدَامَتَاهُ، وَاحْسَرَتَاهُ عَلَى مَا فَرَطْتَ فِي جَنْبِ اللَّهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءٌ وَمَصِيرًا ﴿١٤﴾ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَتْ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولا ﴿١٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَهُؤْلَاءِ الْمَكْذِبِينَ بِالسَّاعَةِ: أَهْذِهِ النَّارُ الَّتِي وَصَفَ لَكُمْ رَبُّكُمْ صِفَتَهَا وَصِفَةَ أَهْلِهَا خَيْرٌ؟ أَمْ بَسْتَانُ الْخُلْدِ الَّذِي يَدُومُ نَعِيمُهُ وَلَا يَبِيدُ، الَّذِي وَعَدَ مَنْ اتَّقَاهُ فِي الدُّنْيَا بِطَاعَتِهِ فِيمَا أَمَرَهُ وَنَهَاهُ؟

وقوله: «كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا»، يقول: كَانَتْ جَنَّةُ الْخُلْدِ لِلْمُتَّقِينَ جَزَاءً أَعْمَالِهِمْ لِلَّهِ فِي الدُّنْيَا بِطَاعَتِهِ، وَثَوَابُ تَقْوَاهُمْ إِيَّاهُ، وَمَصِيرًا لَهُمْ، يَقُولُ: وَمَصِيرًا لِلْمُتَّقِينَ يَصِيرُونَ إِلَيْهَا فِي الْآخِرَةِ.

وقوله: «لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ»، يقول: لَهُؤْلَاءِ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ الَّتِي وَعَدَهُمُوهَا اللَّهُ مَا يَشَاءُونَ مِمَّا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ، وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ «خَالِدِينَ فِيهَا»، يَقُولُ: لَا بَتَيْنَ فِيهَا مَآكِثِينَ أَبَدًا، لَا يَزُولُونَ عَنْهَا، وَلَا يَزُولُ عَنْهُمْ نَعِيمُهَا.

وقوله: «كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا» وذلك أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ سَأَلُوا رَبَّهُمْ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا حِينَ قَالُوا: «آتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ»، يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: وَكَانَ إِعْطَاءُ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ جَنَّةَ الْخُلْدِ الَّتِي وَصَفَ صِفَتَهَا فِي الْآخِرَةِ وَعَدًا وَعَدَهُمُ اللَّهُ عَلَى طَاعَتِهِمْ إِيَّاهُ فِي الدُّنْيَا، وَمَسْأَلَتِهِمْ إِيَّاهُ ذَلِكَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ: أَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وَيَوْمَ نَحْشُرُ هَؤُلَاءِ الْمَكْذِبِينَ بِالسَّاعَةِ، الْعَابِدِينَ الْأَوْثَانَ، وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْإِنْسِ وَالْجِنِّ.

وقوله: «فَيَقُولُ أَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ»، يقول: فَيَقُولُ اللَّهُ لِلَّذِينَ كَانَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ يَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ: أَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ: يَقُولُ: أَنْتُمْ أَزَلْتُمُوهُمْ عَنْ طَرِيقِ الْهُدَى، وَدَعَوْتُمُوهُمْ إِلَى الْغَيِّ وَالضَّلَالَةِ، حَتَّى تَاهُوا وَهَلَكُوا، أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ، يَقُولُ: أَمْ عِبَادِي هُمُ الَّذِينَ ضَلُّوا سَبِيلَ الرُّشْدِ

والحق، وسلوكوا العطب.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالُوا سُبْحَنَكَ مَا كَانَ يُبْغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَاؤَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قالت الملائكة الذين كان هؤلاء المشركون يعبدونهم من دون الله وعيسى تنزيهاً لك يا رَبَّنَا، وتبرئة مما أضاف إليك هؤلاء المشركون، ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء نواليهم، أنت وَلِيُّنا من دونهم ولكن متعتهم بالمال يا رَبَّنَا في الدنيا والصحة، حتى نسوا الذكر، وكانوا قوماً هلكى، قد غلب عليهم الشقاء والخذلان.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمَ مِنْكُمْ نَذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ مخبراً عما هو قائل للمشركين عند تبري مَنْ كانوا يعبدون في الدنيا من دون الله منهم، قد كذبكم أيها الكافرون، مَنْ زعمتم أنهم أضلُّوكم، ودعوكم إلى عبادتهم بما تقولون، يعني بقولكم، يقول: كذبكم بكذبكم.

وقوله جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا»، يقول: فما يستطيع هؤلاء الكفار صَرْفَ عذاب الله حين نزل بهم عن أنفسهم، ولا نصرها من الله حين عَذَّبَهَا وعاقبها.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَنْ يَظْلِمَ مِنْكُمْ نَذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا

يقول تعالى ذِكْرَهُ لِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ : «وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ» أيها المؤمنون ، يعني بقوله : «وَمَنْ يَظْلِمْ» وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللّهِ فَيَظْلِمْ نَفْسَهُ ، فذلك نُذِقُهُ عَذَاباً كَبِيراً كَالَّذِي ذَكَرْنَا أَنَا نُذِيقُهُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالسَّاعَةِ .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿١٩﴾ ﴿٢٠﴾

وهذا احتجاج من الله تعالى ذِكْرَهُ لِنبيه على مشركي قومه الذين قالوا : «ما لهذا الرسول يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ» وجواب لهم عنه . يقول لهم جَلَّ ثَنَاهُ : وما أنكر يا محمد هؤلاء القائلون : ما لهذا الرسول يَأْكُلُ الطَّعَامَ ، ويمشي في الأسواق ، من أكلك الطعام ، ومشيك في الأسواق ، وأنت لله رسول ، فقد عَلِمُوا أَنَا ما أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ، كالذي تَأْكُلُ أَنْتَ وتمشي ، فليس لهم عليك بما قالوا من ذلك حجة .

فإن قال قائل : فإن «مَنْ» ليست في التلاوة ، فكيف قلت : معنى الكلام : إِلَّا مَنْ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ؟ قيل : قلنا في ذلك : معناه : أَنْ الهَاءَ وَالْمِيمَ فِي قَوْلِهِ : إِنَّهُمْ ، كناية أسماء لم تُذكر ، ولا بد لها من أَنْ تعودَ على مَنْ كُنِيَ عَنْهُ بِهَا ، وإنما ترك ذكر «مَنْ» وإظهاره في الكلام ، اكتفاء بدلالة قوله : «مِنْ الْمُرْسَلِينَ» عليه ، كما اكتفى في قوله : «وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ» من إظهار «مَنْ» ، ولاشك أن معنى ذلك : وما منا إِلَّا مَنْ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ، كما قيل : «وَلَا مِنْكُمْ إِلَّا وَاِرِدْهَا» ومعناه : وإن منكم إِلَّا مَنْ هو وَاِرِدْهَا ، فقوله : «إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ» صلة لمن المتروك ، كما يقال في الكلام : ما أُرْسِلْتُ إِلَيْكَ مِنَ النَّاسِ إِلَّا مَنْ إِنَّهُ لَيَبْلُغُكَ الرِّسَالَةَ ، فإنه ليلغك الرسالة صلة لمن .

وقوله : «وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ : وَاُمْتَحَنَّا أَيُّهَا النَّاسُ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ، جعلنا هذا نبياً وخصصناه بالرسالة ، وهذا ملكاً وخصصناه بالدنيا ، وهذا فقيراً وحرمانه الدنيا لِنُخْتَبِرَ الْفَقِيرَ بِصَبْرِهِ على ما حرم مما أُعْطِيَ الْغَنِيُّ ، وَالْمَلِكُ بِصَبْرِهِ على ما أُعْطِيَ الرَّسُولُ مِنَ الْكِرَامَةِ ، وَكَيْفَ رَضِيَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ بِمَا أُعْطِيَ ، وَقَسَمَ لَهُ ، وَطَاعَتُهُ رَبِّهِ مَعَ مَا حُرِّمَ مِمَّا أُعْطِيَ غَيْرَهُ ، يَقُولُ : فَمَنْ أَجَلَ ذَلِكَ لَمْ أُعْطِ مُحَمَّدًا الدُّنْيَا ، وَجَعَلْتَهُ يَطْلُبُ الْمَعَاشَ فِي الْأَسْوَاقِ ، وَلِأَبْتَلِيَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ ، وَأَخْتَبِرَ طَاعَتَكُمْ رَبُّكُمْ وَإِجَابَتَكُمْ رَسُولَهُ إِلَى مَا دَعَاكُمْ إِلَيْهِ ، بِغَيْرِ عَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا تَرْجُوهُ مِنْ مُحَمَّدٍ أَنْ يُعْطِيَكُمْ عَلَى اتِّبَاعِكُمْ إِيَّاهُ ، لِأَنِّي لَوْ أُعْطِيْتَهُ الدُّنْيَا لَسَارَعَ كَثِيرٌ مِنْكُمْ إِلَى اتِّبَاعِهِ طَمَعًا فِي دُنْيَاهُ أَنْ يَنَالَ مِنْهَا .

وقوله : «وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا» ، يَقُولُ : وَرَبِّكَ يَا مُحَمَّدُ بَصِيرٌ بِمَنْ يَجْزَعُ وَمَنْ يَصْبِرُ عَلَى مَا أُمْتَحَنَ بِهِ مِنَ الْمُحَنِّ .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا



يقول تعالى ذِكْرُهُ : وَقَالَ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ لَا يَخَافُونَ لِقَاءَنَا ، وَلَا يَخْشَوْنَ عِقَابَنَا ، هَلَّا أُنْزِلَ اللَّهُ عَلَيْنَا مَلَائِكَةً ، فَتُخْبِرُنَا أَنَّ مُحَمَّدًا مُحَقَّقٌ فِيمَا يَقُولُ ، وَأَنَّ مَا جَاءَنَا بِهِ صَدَقٌ ، أَوْ نَرَى رَبَّنَا فَيُخْبِرُنَا بِذَلِكَ ، كَمَا قَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ مُخْبِرًا عَنْهُمْ : «وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا» ، ثُمَّ قَالَ بَعْدُ : «أَوْ تَأْتِيَنَا بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا» ، يَقُولُ اللَّهُ : لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا قَائِلُوا هَذِهِ الْمَقَالَةُ فِي أَنْفُسِهِمْ ، وَتَعْظَمُوا ، «وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا» ، يَقُولُ : وَتَجَاوَزُوا فِي الْاسْتِكْبَارِ بِقِيلِهِمْ ذَلِكَ حَدَّهُ .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُجْرِمِينَ يَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾

يقول تعالى ذكره : يوم يرى هؤلاء الذين قالوا : «لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ
أَوْ نَرَى رَبَّنَا» بتصديق محمد الملائكة ، فلا بُشْرَى لهم يومئذٍ بخير . «يَقُولُونَ
حِجْرًا مَّحْجُورًا» ، يعني أن الملائكة يقولون للمجرمين حِجْرًا محجوراً ، حراماً
محرمّاً عليكم اليوم البُشْرَى أن تكون لكم من الله .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَقَدْ مَنَّآ إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ
هَبَاءً مَّنْشُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾

يقول تعالى ذكره : «وَقَدْ مَنَّآ» وعمدنا إلى ما عَمِلَ هؤلاء المجرمون «مِنْ
عَمَلٍ» .

وقوله : «فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْشُورًا» ، يقول : فجعلناه باطلاً ، لأنهم لم يعملوه
لله وإنما عملوه للشيطان . والهباء : هو الذي يُرى كهيئة الغبار إذا دخل ضوء
الشمس من كُوَّةٍ يحسبه الناظر غباراً ليس بشيء تقبض عليه الأيدي ولا تمسه ،
ولا يرى ذلك في الظل .

وقوله جَلَّ ثَنَاؤُهُ : «أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا» ،
يقول تعالى ذكره : أهل الجنة يوم القيامة خيرٌ مستقراً ، وهو الموضع الذي
يستقرون فيه من منازلهم في الجنة من مستقر هؤلاء المشركين الذين يفتخرون
بأموالهم ، وما أُوتوا من عَرَضِ هذه الدنيا في الدنيا ، وأحسن منهم فيها مَقِيلًا .

فإن قال قائل : وهل في الجنة قائلة؟ فيقال : «وَأَحْسَنُ مَقِيلًا» فيها؟ قيل :
معنى ذلك : وأحسن فيها قراراً في أوقات قائلتهم في الدنيا وذلك أنه ذكر أن

أهل الجنة لا يمر فيهم في الآخرة إلا قَدَر مِقاتِ النهار من أوله إلى وقت القائلة، حتى يسكنوا مساكنهم في الجنة، فذلك معنى قوله : «وأحسن مقيلاً».

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ وَيُنَزَّلُ الْمَلَكُ
تَنْزِيلًا ﴿٢٥﴾ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا



تأويل الكلام : ويوم تُشق السماء عن الغمام ، وقيل : إن ذلك غمام أبيض مثل الغمام الذي ظلَّ على بني إسرائيل، وجعلت الباء، في قوله : «بالغمام» مكان «عن» كما تقول : رميت عن القوس وبالقوس، وعلى القوس بمعنى واحد.

وقوله : «وَنَزَلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا»، يقول : ونُزِلَ الملائكة إلى الأرض تنزيلاً. «الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ»، يقول : الملك الحق يومئذ خالص للرحمن دون كل من سواه، وبطلت الممالك يومئذ سوى ملكه. وقد كان في الدنيا ملوك، فبطل الملك يومئذ سوى ملك الجبار «وكانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا»، يقول : وكان يومٌ تُشق السماء بالغمام يوماً على أهل الكفر بالله عسيراً، يعني صعباً شديداً.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ
يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا ﴿٢٦﴾ يُنَوَّلُ لِي لَيْتَنِي لَمْ أَخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٧﴾
لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ
خَذُولًا ﴿٢٨﴾

الفرقان: ٢٩-٣١

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وَيَوْمَ يَعِضُ الظَّالِمُ نَفْسَهُ الْمَشْرُكُ بِرَبِّهِ عَلَى يَدَيْهِ نِدْمًا
وَأَسْفًا عَلَى مَا فَرَّطَ فِي جَنْبِ اللَّهِ، وَأَوْبَقَ نَفْسَهُ بِالْكَفْرِ بِهِ فِي طَاعَةِ خَلِيلِهِ الَّذِي
صَدَّهُ عَنْ سَبِيلِ رَبِّهِ، يَقُولُ: يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ فِي الدُّنْيَا مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا،
يعني طريقاً إلى النجاة من عذاب الله.

وقوله: «يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا».

وقوله: «لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي»، يقول جَلُّ ثَنَائِهِ مخبراً عن
هذا النادم على ما سَلَفَ منه في الدنيا، من معصية رَبِّهِ فِي طَاعَةِ خَلِيلِهِ، لَقَدْ
أَضَلَّنِي عَنِ الْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ، وَهُوَ الذِّكْرُ، بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَصَدَّنِي
عَنْهُ، يَقُولُ اللَّهُ: «وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا»، يَقُولُ: مُسْلِمًا لَمَّا يَنْزِلُ بِهِ
مِنَ الْبَلَاءِ غَيْرَ مُنْقِذِهِ وَلَا مُنْجِيهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَالَ الرَّسُولُ يَذَرُ ابْنُ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا
الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ۖ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ
هَادِيًا وَنَصِيرًا ۝

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وَقَالَ الرَّسُولُ يَوْمَ يَعِضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ: يَا رَبُّ إِنَّ
قَوْمِي الَّذِينَ بَعَثَنِي إِلَيْهِمْ لِأَدْعُوهُمْ إِلَى تَوْحِيدِكَ اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا.
واختلف أهل التأويل في معنى اتخاذهم القرآن مهجوراً، فقال بعضهم:
كان اتخاذهم ذلك هُجْراً، قولهم فيه السيء من القول، وَزَعَمَهُمْ أَنَّهُ سَحَرٌ،
وَأَنَّهُ شِعْرٌ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: الخبر عن المشركين أنهم هجروا القرآن
وأعرضوا عنه ولم يسمعوا له.

وهذا القول أولى بتأويل ذلك، وذلك أن الله أخبر عنهم أنهم قالوا: لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه، وذلك هجرهم إياه.

وقوله: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ»، يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وكما جعلنا لك يا محمد أعداء من مشركي قومك، كذلك جعلنا لكل من نبأناه من قبلك عدوًّا من مشركي قومه، فلم تُخصَّصْ بذلك من بينهم، يقول: فاصبر لما نالك منهم كما صبر من قبلك أولو العزم من رسلنا.

وقوله: «وَكَفَىٰ بَرِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا»، يقول تعالى ذكره لنبيه: وكفاك يا محمد بربك هادياً يهديك إلى الحق، ويُبصِّرُكَ الرُّشْدَ، ونصيراً: يقول: ناصرًا لك على أعدائك، يقول: فلا يَهْوِلُنَّكَ أعداؤُكَ من المشركين، فإني ناصرُكَ عليهم، فاصبر لأمري، وامض لتبليغ رسالتي إليهم.

القول في تأويل قوله تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾

يقول تعالى ذكره: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا» بالله «لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ»، يقول: هَلَّا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ الْقُرْآنُ «جُمْلَةً وَاحِدَةً» كما أنزلت التوراة على موسى جملة واحدة؟ قال الله «كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ» تنزيله عليك الآية بعد الآية، والشيء بعد الشيء، لنثبت به فؤادك نزلناه. ويعني بقوله: «لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ» لنصح به عزيمة قلبك ويقين نفسك، ونشجعك به.

وقوله: «وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا»، يقول: وشيئاً بعد شيء علمناكه حتى تحفظه، والترتيل في القراءة: الترسل والتثبُّت.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾

يقول تعالى ذكره: ولا يأتيك يا محمد هؤلاء المشركون بمثل يضربونه إلا جئناك من الحق، بما نبطل به ما جاؤوا به، وأحسن منه تفسيراً.

وقوله: «الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا»، يقول تعالى ذكره لنبية: هؤلاء المشركون يا محمد، القائلون لك: «لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً» وَمَنْ كَانَ عَلَىٰ مِثْلِ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ بِاللَّهِ، الَّذِي يُحْشَرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ، فَيُسَاقُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ شَرٌّ مَّسْتَقَرًّا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ، وَأَضَلُّ مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا طَرِيقًا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾

يقول تعالى ذكره لنبية محمد ﷺ يَتَوَعَّدُ مُشْرِكِي قَوْمِهِ عَلَى كُفْرِهِمْ بِاللَّهِ، وَتَكْذِيبِهِمْ رَسُولَهُ وَيَخَوْفُهُمْ مِنْ حُلُولِ نَقْمَتِهِ بِهِمْ، نَظِيرَ الَّذِي يَحُلُّ بِمَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمَكْذُوبَةِ رُسُلَهَا. «وَلَقَدْ آتَيْنَا» يَا مُحَمَّدُ «مُوسَى الْكِتَابَ» يَعْنِي التَّوْرَةَ، كَالَّذِي آتَيْنَاكَ مِنَ الْفُرْقَانِ «وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا» يَعْنِي مُعِينًا وَظَهِيرًا «فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا»، يَقُولُ: فَقُلْنَا لَهُمَا: أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِإِعْلَامِنَا وَأَدْلَتِنَا، فَدَمَرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا. وَفِي الْكَلَامِ مَتْرُوكٌ اسْتَغْنَىٰ بِدَلَالَةِ مَا ذَكَرَ مِنْ ذِكْرِهِ وَهُوَ: فَذْهَبَا فَكْذِبُوهُمَا، فَدَمَرْنَاهُمْ حِينَئِذٍ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا رُسُلَنَا، وَرَدُّوا عَلَيْهِمْ مَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنَ الْحَقِّ، أَغْرَقْنَاهُمْ بِالطُّوفَانِ. «وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً»، يقول: وجعلنا تغريقنا إياهم وإهلاكنا عِظَةً وَعِبْرَةً لِلنَّاسِ يَعْتَبِرُونَ بِهَا. «وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا»، يقول: وأعدنا لهم من الكافرين بالله في الآخرة عَذَابًا أَلِيمًا، سَوْى الَّذِي حَلَّ بِهِمْ مِنْ عَاجِلِ الْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَعَادَ وَثُمُودَ وَأَصْحَابَ الرِّسِّ وَقُرُونَابِينَ ذَلِكَ كَبِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَلَ وَكُلًّا تَبَرْنَا نَبِيرًا ﴿٣٩﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: وَدَمَّرْنَا أَيْضًا عَادًا وَثُمُودَ وَأَصْحَابَ الرِّسِّ. واختلف أهل التأويل في أصحابِ الرِّسِّ، فقال بعضهم: أصحاب الرِّسِّ من ثمود.

وقال آخرون: بل هي قرية من اليمامة يقال لها الفلج.

وقال آخرون: هم قوم رَسُّوا نبيَّهُمْ في بئر.

وقال آخرون: هي بئر كانت تسمى الرِّسِّ.

والصواب من القول في ذلك، قول من قال: هم قوم كانوا على بئر، وذلك أن الرِّسَّ في كلام العرب كلٌّ محفورٍ مثل البئر والقبر ونحو ذلك، ولا أعلم قومًا لهم قصة بسبب حفرة، ذكرهم الله في كتابه إلا أصحاب الأخدود، وإن يكونوا غيرهم فلا نعرف لهم خبرًا إلا ما جاء من جملة الخبر عنهم أنهم قوم رَسُّوا نبيَّهُمْ في حفرة.

وقوله: «وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وكل هذه الأمم التي أهلكناها التي سميناهما لكم أو لم نُسَمِّها ضربنا له الأمثال، يقول: مثَّلنا له الأمثال وَبَيَّهْنَاهَا عَلَى حَجَجِنَا عَلَيْهَا، وَأَعْذَرْنَا إِلَيْهَا بِالْعَبْرِ وَالْمَوَاعِظِ، فلم نهلك منهم أمة إلا بعد الإِبلَاغِ إليهم في المعذرة.

وقوله: «وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وكل هؤلاء الذين ذكرنا لكم أَمْرَهُمْ استأصلناهم، فدمرناهم بالعذابِ إِيَادَةً، وأهلكناهم جَمِيعًا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَقَدْ آتَيْنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا
السَّوْءَ أَفْكَمَ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولقد أتى هؤلاء الذين اتخذوا القرآن مهجوراً على القرية التي أمطرها الله مَطَرًا السَّوْءَ وهي سَدُومُ، قرية قوم لوط، ومطر السوء: هو الحجارة التي أمطرها الله عليهم فأهلكهم بها.

وقوله: «أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا»، يقول جَلَّ ثَنَاؤُهُ: أو لم يَكُنْ هؤلاء المشركون الذين قد آتوا على القرية التي أَمْطَرْنَا مَطَرًا السَّوْءَ يرون تلك القرية، وما نزل بها من عذابِ الله بتكذيب أهلها رُسُلَهُمْ، فيعتبروا ويتذكروا، فيراجعوا التوبة من كُفْرِهِمْ وتكذيبهم محمداً ﷺ. «بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: مَا كَذَّبُوا مُحَمَّدًا فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، لأنهم لم يكونوا رأوا ما حلَّ بالقرية التي وصفتُ، ولكنهم كَذَّبُوهُ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَخَافُونَ نُشُورًا بعد المماتِ، يعني أنهم لا يوقنون بالعقابِ والثوابِ، ولا يؤمنون بقيام الساعة، فيردُّعُهُمْ ذَلِكَ عَمَّا يَأْتُونَ مِنْ مَعَاصِي اللَّهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذْ أَرَأَوْتُكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا
أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: وَإِذَا رَأَىٰ هَؤُلَاءِ الْمَشْرُكُونَ الَّذِينَ قَصَصْتُ عَلَيْكَ قِصَصَهُمْ. «إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا»، يقول: ما يتخذونك إلا سخريةً يسخرون منك، يقولون: «أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ» إلينا «رَسُولًا» مِنْ بَيْنِ خَلْقِهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلَّ سَبِيلًا ﴿٤١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ مخبراً عن هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ كانوا يهزؤون برسولِ اللَّهِ ﷺ إنهم يقولون إذا رَأَوْهُ: قَدْ كَادَ هَذَا يُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا الَّتِي نَعْبُدُهَا، فَيَصُدُّنَا عَنْ عِبَادَتِهَا لَوْلَا صَبْرُنَا عَلَيْهَا، وَثُبُوتُنَا عَلَى عِبَادَتِهَا. «وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ»، يَقُولُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: سَيَبِينُ لَهُمْ حِينَ يَعَانِيُونَ عَذَابَ اللَّهِ قَدْ حَلَّ بِهِمْ عَلَى عِبَادَتِهِمُ الْآلِهَةَ «مَنْ أَضَلَّ سَبِيلًا»، يَقُولُ: مَنْ الرَّاكِبُ غَيْرَ طَرِيقِ الْهُدَى، وَالسَّالِكُ سَبِيلَ الرَّدَى أَنْتَ أَوْ هُمْ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٢﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «أَرَأَيْتَ» يَا مُحَمَّدُ، «مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ» شَهْوَتَهُ الَّتِي يَهْوَاهَا، وَذَلِكَ أَنَّ الرَّجُلَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ كَانَ يَعْبُدُ الْحَجَرَ. فَإِذَا رَأَى أَحْسَنَ مِنْهُ رَمَى بِهِ، وَأَخَذَ الْآخَرَ يَعْبُدُهُ، فَكَانَ مَعْبُودُهُ وَإِلَهُهُ مَا يَتَخَيَّرُهُ لِنَفْسِهِ، فَلِذَلِكَ قَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ، أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا»، يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: أَفَأَنْتَ تَكُونُ يَا مُحَمَّدُ عَلَى هَذَا حَفِيفًا فِي أَعْمَالِهِ مَعَ عَظِيمِ جَهْلِهِ؟ «أَمْ

تَحْسَبُ يا محمدُ أَنَّ أَكْثَرَ هَؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ «يَسْمَعُونَ» مَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ، فَيَعُونُ «أَوْ يَعْقِلُونَ» مَا يُعَايِنُونَ مِنْ حَجَجِ اللَّهِ، فَيَفْهَمُونَ. «إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ»، يقول: مَا هُمْ إِلَّا كَالْبَهَائِمِ الَّتِي لَا تَعْقِلُ مَا يُقَالُ لَهَا، وَلَا تَفْقَهُ، بَلْ هُمْ مِنَ الْبَهَائِمِ أَضَلُّ سَبِيلًا لِأَنَّ الْبَهَائِمَ تَهْتَدِي لِمُرَاعِيهَا، وَتَنْقَاضُ لِأَرْبَابِهَا، وَهَؤُلَاءِ الْكَفَرَةُ لَا يَطِيعُونَ رَبَّهُمْ، وَلَا يَشْكُرُونَ نِعْمَةً مِّنْ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ، بَلْ يَكْفُرُونَهَا، وَيَعْصُونَ مَن خَلَقَهُمْ وَبَرَأَهُمْ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: «أَلَمْ تَرَ» يا محمدُ «كَيْفَ مَدَّ رَبُّكَ «الظِّلَّ»، وهو ما بين طلوعِ الفجرِ إلى طلوعِ الشمسِ.

قوله: «وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا»، يقول: ولو شاء لجعله دائماً لا يزول، ممدوداً لا تَذْهَبُهُ الشَّمْسُ، ولا تنقصه.

وقوله: «ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا»، يقول جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ثُمَّ دَلَّلْنَاكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ بِنَسْخِ الشَّمْسِ إِيَّاهُ عِنْدَ طُلُوعِهَا عَلَيْهِ، أَنَّهُ خَلَقَ مِنْ خَلْقِ رَبِّكُمْ، يُوجَدُهُ إِذَا شَاءَ، وَيُفْنِيهِ إِذَا أَرَادَ؛ وَالْهَاءُ فِي قَوْلِهِ: «عَلَيْهِ» مِنْ ذِكْرِ الظِّلِّ. وَمَعْنَاهُ: ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَى الظِّلِّ دَلِيلًا. قِيلَ: مَعْنَى دَلَّلْنَاهَا عَلَيْهِ أَنَّهُ لَوْ لَمْ تَكُنِ الشَّمْسُ الَّتِي تَنْسُخُهُ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُ شَيْءٌ إِذَا كَانَتْ الْأَشْيَاءُ إِنَّمَا تَعْرِفُ بِأَصْدَادِهَا نَظِيرِ الْحُلُوفِ الَّتِي إِنَّمَا يُعْرِفُ بِالْحَامِضِ وَالْبَارِدِ بِالْحَارِّ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

وقوله: «ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا»، يقول تعالى ذِكْرَهُ: ثُمَّ قَبَضْنَا ذَلِكَ

الدليل من الشمس على الظل إلينا قبضاً خفيفاً سريعاً بالفيء الذي نأتي به بالعشي.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: الذي مَدَّ الظلَّ ثم جعل الشمس عليه دليلاً، هو الذي جعل لكم أيها الناس الليل لباساً. وإنما قال جَلَّ ثَنَاءُ: «جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا» لأنه جعله لخلقِهِ جُنَّةً يجتنون فيها ويسكنون، فصار لهم سترا يستترون به، كما يستترون بالثياب التي يَكْسُونُهَا.

وقوله: «وَالنَّوْمَ سُبَاتًا»، يقول: وجعل لكم النوم راحةً تستريح به أبدانكم، وتهدأ به جوارحكم.

وقوله: «وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وجعل النهار يقظةً وحياةً من قولهم: نَشَرَ المَيِّتَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُخْشِيَ بِهِ بَلَدَهُ مَيِّتًا وَنُشْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْاسٍ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: والله الذي أرسل الرياح الملقحة «بُشْرًا»: حياةً أو من الحيا والغيث الذي هو مُنْزِلُهُ على عباده. «وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا»، يقول: وأنزلنا من السحاب الذي أنشأناه بالرياح من فوقكم أيها الناس ماءً طهوراً. «لِنُخْشِيَ بِهِ بَلَدَهُ مَيِّتًا»، يعني أرضاً قَحِطَةً عذبة لا تُنْبِتُ. وقال «بَلَدَهُ مَيِّتًا» ولم يقل مَيِّتَةً، لأنه أريد بذلك لنخشي به موضعاً ومكاناً مَيِّتاً. «وَنُشْقِيَهُ»

من خَلَقْنَا «أنعاماً» من البهائم «وَأَناسِيَّ كَثِيرًا»، يعني الأناسيَّ : جمع إنسان وجمع أناسي .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَلَقَدْ صَرَّفَنَاهُ بَيْنَهُمْ لِئَذْكُرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ : ولقد قسمنا هذا الماء الذي أنزلناه من السماء طهوراً لنحييَ به الميتَ من الأرضِ بين عبادي ، ليتذكروا نِعْمِي عليهم ، ويشكروا أيايَ عندهم وإحساني إليهم ، «فأبى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا»، يقول : إلا جُحوداً لِنِعْمِي عليهم ، وأيايَ عليهم .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ : ولو شئنا يا محمدُ لأرسلنا في كلِّ مِصْرٍ ومدينةٍ نَذِيرًا ينذرهم بأسنا على كفرهم بنا ، فَيَخِفُّ عَنْكَ كَثِيرٌ من أعباءِ ما حَمَلْنَاكَ منه ، ويسقط عَنْكَ بذلك مَوْنَةٌ عظيمة ، ولكننا حملناكَ ثِقَلَ نَذَارَةٍ لجميعِ القرى ، لتستوجبَ بصركَ عليه إن صبرتَ ما أعدَّ اللهُ لَكَ من الكرامةِ عنده ، والمنازلِ الرفيعةِ قَبْلَهُ ، فلا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ فيما يدعونكَ إليه من أن تعبدَ آلَهم ، فنذيقكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وضِعْفَ الْمَمَاتِ ، ولكن جاهدْهم بهذا القرآنِ جهاداً كبيراً ، حتى ينقادوا للإِقْرَارِ بما فيه من فرائضِ الله ، ويدينوا به ويدعونا للعملِ بجميعه طوعاً وكرهاً .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذَبٌ فَرَاتٌ ﴿٥٣﴾

وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلْ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: والله الذي خلطَ البحرين، فأمرَجَ أحدهما في الآخر، وأفاضَهُ فيه، وأصلُ المَرَجِ الخلط، ثم يقال للتخلية مَرَج، لأنَّ الرجلَ إذا خلى الشيء حتى اختلطَ بغيره، فكأنه قد مَرَجَهُ، ومنه الخبرُ عن النبي ﷺ، وقوله لعبدالله بن عمرو: «كَيْفَ بَكَ يَا عَبْدَ اللَّهِ إِذَا كُنْتَ فِي حُثَالَةٍ مِنَ النَّاسِ، قَدْ مَرَجَتْ عُهودُهُمْ وأماناتُهُمْ، وَصَارُوا هَكَذَا وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ»^(١)؟ يعني بقوله: قد مرجت: اختلطت، ومنه قول الله: «فِي أَمْرِ مَرْيَمَ»: أي مُختلط.

وقوله: «هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ» الفرات: شديد العذوبة، يقال: هذا ماء فُرَات: أي شديد العذوبة.

وقوله: «وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ»، يقول: وهذا ملح مرٌّ، يعني بالعذبِ الفرات: مياه الأنهار والأمطار، وبالمِلْحِ الأجاج: مياه البحار.

وإنما عني بذلك أنه من نعمته على خَلْقِهِ، وعظيم سلطانه، يخلطُ ماء البحرِ العذب بماء البحرِ المِلْحِ الأجاج، ثم يمنع المِلْحَ من تغييرِ العذبِ عن عذوبته، وإفساده إياه بقضائِهِ وَقُدْرَتِهِ، لئلا يضرَّ إفساده إياه بركبان المِلْحِ منهما، فلا يجدوا ماءً يشربونه عند حاجتهم إلى الماء، فقال جَلُّ ثَنَاؤُهُ: «وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا»، يعني حاجزاً يمنعُ كُلَّ واحدٍ منهما من إفسادِ الآخر. «وَحِجْرًا مَّحْجُورًا»، يقول: وجعل كُلَّ واحدٍ منهما حراماً محرماً على صاحبه أَنْ يُغَيِّرَهُ ويفسده.

وإنما اخترنا القولَ الذي اخترناه في معنى قوله: «وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا»، دونَ القولِ الذي قاله مَنْ قال معناه: إنه جعل بينهما حاجزاً

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٤٢) وابن ماجه (٣٩٥٧)، والحاكم: ٤٣٥/٤ وصححه، ووافقه

من الأرضِ أو من اليبس، لأنَّ الله تعالى ذكَّره أخبرَ في أوَّلِ الآيةِ أنه مرجُّ البحرين، والمرجُّ: هو الخلطُ في كلامِ العربِ على ما بيَّنتُ قبلَ، فلو كان البرزخُ الذي بين العذبِ الفراتِ من البحرين، والملحِ الأجاجِ أرضاً أو ييساً لم يكن هناك مرجُّ للبحرين، وقد أخبرَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ أنه مرجهما، وإنما عرفنا قدرته بحجزه هذا الملحَ الأجاجَ عن إفسادِ هذا العذبِ الفراتِ، مع اختلاطِ كُلِّ واحدٍ منهما بصاحبه. فأما إذا كان كُلُّ واحدٍ منهما في حَيِّزٍ عن حَيِّزِ صاحبه، فليس هناك مرجُّ، ولا هناك من الأعجوبةِ ما يُنبه عليه أهلُ الجهلِ به من الناسِ، ويذكرون به وإنَّ كان كُلُّ ما ابتدعه رَبُّنا عجبياً، وفيه أعظمُ العبرِ والموعظِ والحججِ البوالغِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ

نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾

يقول تعالى ذكَّره: والله الذي خلق من النطفِ بشراً إنساناً فجعله نسباً، وذلك سبعةً، وصهراً، وهو خمسة، كما حدَّثت عن الضحاك أنه قال في قوله: «فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا» النسب: سبع، قوله: «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ»... إلى قوله: «وَبَنَاتُ الْأَخْتِ». والصهرُ خمس، قوله: «وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ»... إلى قوله: «وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَضْلَابِكُمْ»^(١).

وقوله: «وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا»، يقول: وربك يا محمد ذو قدرةٍ على خلقِ ما يشاء من الخلق، وتصريفهم فيما شاء وأراد.

(١) وذكر الماوردي أن المناكح سميت صهراً لاختلاط الناس بها كما يختلط الشيء إذا صهر (زاد المسير: ٩٧/٦).

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وَيَعْبُدُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ بِاللَّهِ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا تَنْفَعُهُمْ، فَتَجْلِبُ إِلَيْهِمْ نَفْعًا إِذَا هُمْ عَبْدُوهَا، وَلَا تَضُرُّهُمْ إِنْ تَرَكُوا عِبَادَتَهَا، وَيَتْرَكُونَ عِبَادَةَ مَنْ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ هَذِهِ النِّعَمُ الَّتِي لَا كِفَاءَ لَادْنَاهَا، وَهِيَ مَا عَدَّدَ عَلَيْنَا جَلَّ جَلَالُهُ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ مِنْ قَوْلِهِ: «أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ» إِلَى قَوْلِهِ: «قَدِيرًا»، وَمِنْ قُدْرَتِهِ الْقُدْرَةُ الَّتِي لَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ مَعَهَا شَيْءٌ أَرَادَهُ، وَلَا يَتَعَذَّرُ عَلَيْهِ فِعْلُ شَيْءٍ أَرَادَ فِعْلَهُ، وَمَنْ إِذَا أَرَادَ عِقَابَ بَعْضِ مَنْ عَصَاهُ مِنْ عِبَادِهِ أَحَلَّ بِهِ مَا أَحَلَّ بِالَّذِينَ وَصَفَ صِفَتَهُمْ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَأَصْحَابِ الرُّسِّ، وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا، فَلَمْ يَكُنْ لِمَنْ غَضِبَ عَلَيْهِ مِنْهُ نَاصِرٌ، وَلَا لَهُ عَنْهُ دَافِعٌ «وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا»، يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَكَانَ الْكَافِرُ مَعِينًا لِلشَّيْطَانِ عَلَى رَبِّهِ، مُظَاهِرًا لَهُ عَلَى مَعْصِيَتِهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ» يَا مُحَمَّدُ إِلَى مَنْ أَرْسَلْنَاكَ إِلَيْهِ «إِلَّا مُبَشِّرًا» بِالثَّوَابِ الْجَزِيلِ، مَنْ آمَنَ بِكَ وَصَدَّقَكَ، وَآمَنَ بِالَّذِي جِئْتَهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِي، وَعَمِلُوا بِهِ، «وَنَذِيرًا» مَنْ كَذَّبَكَ وَكَذَّبَ مَا جِئْتَهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِي، فَلَمْ يُصَدِّقُوا بِهِ، وَلَمْ يَعْمَلُوا «قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ»، يَقُولُ لَهُ: قُلْ لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَرْسَلْتُكَ إِلَيْهِمْ، مَا أَسْأَلُكُمْ يَا قَوْمَ عَلَى مَا جِئْتُكُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّي أَجْرًا، فَتَقُولُونَ: إِنَّمَا يَطْلُبُ مُحَمَّدٌ أَمْوَالَنَا بِمَا يَدْعُونَا إِلَيْهِ، فَلَا نَتَّبِعُهُ فِيهِ، وَلَا نَعْطِيهِ مِنْ أَمْوَالِنَا شَيْئًا، «إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا»، يَقُولُ: لَكِنْ

مَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَتَّخِذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا، طريقاً بإنفاقه من ماله في سبيله، وفيما يُقَرِّبُهُ إِلَيْهِ مِنَ الصَّدَقَةِ وَالنَّفَقَةِ فِي جِهَادِ عَدُوِّهِ، وغير ذلك من سُبُلِ الْخَيْرِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ

وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ ذُنُوبًا عِيبًا ﴿٥٨﴾

يقول تعالى ذكره: وتوكل يا محمد على الذي له الحياة الدائمة التي لا موت معها، فثق به في أمر ربك، وفوض إليه، واستسلم له، واصبر على ما نابك فيه.

قوله: «وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ»، يقول: واعبده شكراً منك له على ما أنعم به عليك.

قوله: «وَكَفَىٰ بِهِ ذُنُوبًا عِيبًا خَيْرًا»، يقول: وحسبك بالحي الذي لا يموت خيراً بذنوب خلقه، فإنه لا يخفى عليه شيء منها وهو مُحْصٍ جميعها عليهم حتى يجازيهم بها يوم القيامة.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا

فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَلِّ بِهِ خَيْرًا ﴿٥٩﴾

يقول تعالى ذكره: «وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ - الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ» فقال: «وَمَا بَيْنَهُمَا»، وقد ذكر السموات والأرض، والسموات جماع، لأنه وجه ذلك إلى الصنفين والشئيين.

وقوله: «فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ»، قيل: كان ابتداء ذلك يوم الأحد، والفراغ يوم الجمعة. «ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ»، يقول: ثم استوى على العرش الرحمن وعلاً عليه، وذلك يوم السبت فيما قيل. وقوله: «فَاسْأَلْ بِهِ خَيْرًا»،

يقول: فاسأل يا محمدُ خبيراً بالرحمن، خبيراً بخلقه، فإنه خالقُ كلِّ شيءٍ، ولا يخفى عليه ما خلق.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٥٩﴾

يقول تعالى ذكره: وإذا قيل لهؤلاء الذين يعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم: «اسجدوا للرحمن»: أي اجعلوا سجودكم لله خالصاً دون الآلهة والأوثان، قالوا: «أنسجد لما تأمرنا».

واختلفت القراءة في قراءة ذلك، فقراة عامة قراءة المدينة والبصرة: «لما تأمرنا» بمعنى: أنسجد نحن يا محمد لما تأمرنا أنت أن نسجد له. وقراة عامة قراءة الكوفة: «لما يأمرنا» بالياء، بمعنى: أنسجد لما يأمر الرحمن، وذكر بعضهم أن مسيلمة كان يدعى الرحمن، فلما قال لهم النبي ﷺ: اسجدوا للرحمن، قالوا: أنسجد لما يأمرنا نحن الإمامة؟ يعنون مسيلمة بالسجود له^(١).

والصواب من القول في ذلك، أنهما قراءتان مستفيضتان مشهورتان، قد قرأ بكل واحدة منهما علماء من القراة، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب.

وقوله: «وَزَادَهُمْ نُفُورًا»، يقول: وزاد هؤلاء المشركين قول القائل لهم: اسجدوا للرحمن من إخلاص السجود لله، وإفراد الله بالعبادة بعداً مما دُعوا إليه من ذلك فراراً.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا

(١) هذا بعيد، وإنما أمروا بالسجود للرحمن رب العالمين، وهو استفهام إنكار، ومعناه: لا نسجد للرحمن الذي تأمرنا بالسجود له.

وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿٦١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: تَقَدَّسَ الرَّبُّ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا، ويعني بالبروج: القصور في قول بعضهم، وهو الأولى بالصواب، لأن ذلك في كلام العرب، ولقوله تعالى: «ولو كنتم في بروج مشيدة».

وقرأته عامة قَرَأَةُ الكوفيين «وَجَعَلَ فِيهَا سُرْجًا» على الجماع، كأنهم وَجَّهُوا تأويلَهُ: وجعلَ فيها نجومًا «وَقَمَرًا مُنِيرًا» وجعلوا النجوم سرجاً إذ كان يُهْتَدَى بها. والصوابُ من القولِ في ذلك عندي أن يقال: إنهما قراءتان مشهورتان في قَرَأَةِ الأمصار، لكل واحدةٍ منهما وجهٌ مفهوم، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب. وقوله: «وَقَمَرًا مُنِيرًا»، يعني بالمنير: المضيء.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ

أَرَادَ أَنْ يَذْكُرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾

اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: «جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً»، فقال بعضهم: معناه: أن الله جعل كُلَّ واحدٍ منهما خلفاً من الآخر، في أن ما فات أحدهما من عملٍ يعمل فيه الله، أدرك قضاؤه في الآخر.

قوله: «وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا»، اختلف القَرَأَةُ في قراءة ذلك، فقرأته عامة قَرَأَةُ المدينة والبصرة: «وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا» على التوحيد، ووجَّهوا تأويل ذلك إلى أنه جعل فيها الشمس، وهي السراج التي عني عندهم بقوله: «وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا».

وقال آخرون: بل معناه: أنه جعل كُلَّ واحدٍ منهما مخالفاً صاحبه، فجعلَ هذا أسود وهذا أبيض.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أن كل واحدٍ منهما يخلفُ صاحبه إذا ذهبَ هذا جاءَ هذا، وإذا جاءَ هذا ذهبَ هذا.

والعرب تقول: خلف هذا من كذا خلفه، وذلك إذا جاء شيءٌ مكانَ شيءٍ ذهبَ قبله^(١).

وقوله: «لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكُرَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: جعلَ الليلَ والنهارَ، وخلفَ كل واحدٍ منهما الآخرَ حجةً وآيةً لمن أَرَادَ أَنْ يَذْكُرَ أمرَ الله، فِينِيبَ إلى الحقِّ، «أَوْ أَرَادَ سُكُورًا» أو أَرَادَ شُكْرَ نعمةِ الله التي أنعمها عليه في اختلافِ الليل والنهار.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا» بالحلمِ والسكينةِ والوقارِ غيرَ مستكبرين، ولا متجبرين، ولا ساعينَ فيها بالفسادِ ومعاصيِ الله.

وقوله: «وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا»، يقول: وإذا خاطبهم الجاهلون بالله بما يكرهونه من القولِ أجابوهم بالمعروفِ من القولِ، والسدادِ من الخطاب.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾

(١) هذا هو اختيار المؤلف، كما سيأتي النص عليه بعد قليل.

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ يُصَلُّونَ اللَّهُ، يراوَحُونَ بين سجودٍ في صلاتهم وقيام.

وقوله: «وَقِيَامًا» جمع قائم، كما الصيام جمع صائم «وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وَالَّذِينَ يَدْعُونَ اللَّهَ أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُمْ عِقَابَهُ وَعَذَابَهُ حَذَرًا مِنْهُ وَوَجَلًا.

وقوله: «إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا»، يقول: إِنَّ عَذَابَ جَهَنَّمَ كَانَ غَرَامًا ملحقاً دائماً لازماً غير مفارقٍ مَنْ عُدِّبَ بِهِ مِنَ الْكُفَّارِ، وَمُهْلِكاً لَهُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: رَجُلٌ مُغْرَمٌ، مِنَ الْغُرْمِ وَالَّذِينَ. وَمِنْهُ قِيلَ لِلْغَرِيمِ غَرِيمٌ لَطْلَبَهُ حَقُّهُ، وَالْحَاحَةُ عَلَى صَاحِبِهِ فِيهِ. وَمِنْهُ قِيلَ لِلرَّجُلِ الْمَوْلَعِ لِلنِّسَاءِ: إِنَّهُ لِمُغْرَمٌ بِالنِّسَاءِ، وَفُلَانٌ مُغْرَمٌ بِفُلَانٍ: إِذَا لَمْ يَصْبِرْ عَنْهُ.

«إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا»، يقول: إِنَّ جَهَنَّمَ سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا، يعني بالمستقر: القرار، وبالمقام: الإقامة؛ كَأَنَّ مَعْنَى الْكَلَامِ: سَاءَتْ جَهَنَّمُ مَنْزَلاً وَمُقَامًا، وَإِذَا ضُمَّتِ الْمِيمُ مِنَ الْمَقَامِ فَهُوَ مِنَ الْإِقَامَةِ، وَإِذَا فَتَحَتْ فَهُوَ مِنْ قَمَتٍ، وَيُقَالُ: الْمَقَامُ إِذَا فَتَحَتْ الْمِيمُ أَيْضًا هُوَ الْمَجْلِسُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا أَمْوَالَهُمْ لَمْ يُسْرِفُوا فِي إِتْفَاقِهَا. ثم اختلف أهل التأويل في النفقة التي عنها الله في هذا الموضع، وما الإسراف فيها والإقتار، فقال بعضهم: الإسراف: ما كان من نفقة في معصية الله، وَإِنْ قَلَّتْ، قَالَ: وَإِيَّاهَا عَنَى اللَّهُ، وَسَمَّاها إِسْرَافًا. قالوا: والإقتار: المنع من حق الله.

وقال آخرون : الإسرافُ هو أن تأكلَ مالَ غيرِكَ بغيرِ حقٍّ .

وقال آخرون : السرف : المجاوزةُ في النفقةِ الحدِّ ؛ والإقتار : التقصير عن الذي لابدُّ منه .

والصواب من القول في ذلك ، قولُ مَنْ قال : الإسرافُ في النفقة الذي عَنَاهُ اللهُ في هذا الموضع : ما جاوزَ الحدَّ الذي أباحهُ اللهُ لعباده إلى ما فوقه ، والإقتار : ما قصر عما أمرَ اللهُ به ، والقوام : بين ذلك .

وإنما قلنا : إنَّ ذلِكَ كذلك ، لأنَّ المسرفَ والمقتِرَ كذلك ، ولو كان الإسرافُ والإقتار في النفقة مرخصاً فيهما ما كانا مذمومين ، ولا كَانَ المسرفُ ولا المقتِرَ مذموماً ، لأنَّ ما أذن الله في فعله فغيرُ مستحقٍّ فاعله الذمُّ .

فإن قال قائل : فهل لذلك من حَدٍّ معروف تبينه لنا؟ قيل : نعم ذلك مفهومٌ في كُلِّ شيء من المطاعم والمشارب والملابس والصدقة وأعمال البرِّ وغير ذلك نكره تطويلَ الكتابِ بذكرِ كُلِّ نوعٍ من ذلك مفصلاً ، غير أنَّ جملة ذلك هو ما بيَّننا ، وذلك نحو أكلِ آكلٍ من الطعامِ فوقَ الشبعِ ما يضعفُ بدنُهُ ، ويُنْهَكَ قُواه ، وَيَشْغَلُهُ عن طاعةِ رَبِّه ، وأداءِ فرائضه ، فذلك من السرف ، وأنَّ يتركَ الأكلَ وله إليه سبيلٌ حتى يضعفَ ذلك جسمه ، وَيُنْهَكَ قُواه ويضعفه عن أداءِ فرائضِ ربه ، فذلك من الإقتارِ وبين ذلك القوام على هذا النحو كُلِّ ما جانس ما ذكرنا . فأما اتخاذُ الثوبِ للجمالِ يلبسه عند اجتماعه مع الناس ، وحضوره المحافلِ والجُمُوعِ والأعيادِ دونَ ثوبِ مهنته ، أو أكله من الطعامِ ما قَوَّاهُ على عبادةِ رَبِّه ، مما ارتفع عما قد يسدُّ الجوعَ مما هو دونه من الأغذية ، غير أنه لا يعينُ البدنَ على القيامِ لله بالواجبِ معونته ، فذلك خارجٌ عن معنى الإسرافِ ، بل ذلك من القوام ، لأنَّ النبي ﷺ قد أمرَ ببعضِ ذلك ، وحضُّ على

الفرقان: ٦٧-٧١

بعضه كقوله: «ما على أحدكم لو اتخذ ثوبين: ثوباً لمهنته، وثوباً لجمعه وعيده؟»^(١).

وكقوله: «إذا أنعم الله على عبد نعمة أحب أن يرى أثرها عليه»^(٢)، وما أشبه ذلك.

وأما قوله: «وكان بين ذلك قواماً»، فإنه النفقة بالعدل والمعروف على ما قد بينا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۖ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ۖ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۖ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ۖ

يقول تعالى ذكره: والذين لا يعبدون مع الله إلهاً آخر، فيشركون في عبادتهم إياه، ولكنهم يخلصون له العبادة ويفردونه بالطاعة. «وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ» قتلها «إِلَّا بِالْحَقِّ» إما بكفر بالله بعد إسلامها، أو زنا بعد

(١) حديث صحيح بشاهده من حديث عائشة رضي الله عنها، أخرجه ابن خزيمة (١٧٦٥)، وابن ماجه (١٠٩٦)، وابن حبان (٢٧٧٧)، وشاهده عن أبي داود (١٠٧٨)، وابن ماجه (١٠٩٥).

(٢) صحيح بشواهده من حديث عمران بن حصين: أخرجه أحمد ٢٣٨/٤، وابن سعد ٢٩١/٤، وابن أبي الدنيا في «الشكر» (٥٠)، والطحاوي في «مشكل الآثار» ١٥١/٤، وشاهده في كتاب الشكر.

الفرقان: ٧١

إحصانها، أو قتل نفس؛ فتقتل بها «وَلَا يَزْنُونَ» فيأتون ما حَرَّمَ الله عليهم إتيانه من الفروج. «وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ»، يقول: وَمَنْ يَأْتِ هذه الأفعال، فدعا مع الله إلهاً آخر، وقتل النفس التي حَرَّمَ الله بغير الحق، وزنى. «يَلْقَ أَثَامًا»، يقول: يَلْقَى من عقاب الله عقوبةً ونكالاً، كما وصفه ربُّنا جَلَّ ثَنَاؤُهُ، وهو أنه «يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا».

وقد ذَكَرَ أَنَّ هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ من أجل قومٍ من المشركين أرادوا الدخول في الإسلام، ممن كان منه في شركه هذه الذنوب، فخافوا أَنْ لا ينفعهم مع ما سَلَفَ منهم من ذلك إسلام، فاستفتوا رسول الله ﷺ في ذلك، فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية، يُعَلِّمُهُمْ أَنَّ الله قَابِلُ تَوْبَةٍ مَنْ تَابَ مِنْهُمْ.

وقوله: «وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا»، ويبقى فيه إلى ما لا نهاية في هوان.

وقوله: «إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وَمَنْ يَفْعَلْ هذه الأفعال التي ذكرها جَلَّ ثَنَاؤُهُ يلقَ أَثَامًا. «إِلَّا مَنْ تَابَ»، يقول: إِلَّا مَنْ رَاجَعَ طَاعَةَ الله تبارك وتعالى بتركه ذلك، وإنابته إلى ما يرضاه الله. «وَأَمَنَ»، يقول: وَصَدَّقَ بما جاء به محمدٌ نبيُّ الله. «وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا»، يقول: وعمل بما أمره الله من الأعمال، وانتهى عما نهأه الله عنه.

قوله: «فَأُولَئِكَ يَبْدُلُ الله سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ» اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معناه: فأولئك يبدل الله بقبائح أعمالهم في الشرك محاسن الأعمال في الإسلام، فيبدله بالشرك إيماناً. وبقيِلَ أهل الشرك بالله قِيلَ أهل الإيمان به، وبالزنا عفة وإحصاناً.

وقال آخرون: بل معنى ذلك، فأولئك يبدل الله سيئاتهم في الدنيا حسنات لهم يوم القيامة.

وأولى التأويلين بالصواب في ذلك، تأويل مَنْ تَأَوَّلَهُ: فأولئك يبدل الله سيئاتهم: أعمالهم في الشُّركِ حسنات في الإسلام، بنقلهم عما يسخطه الله من الأعمال إلى ما يرضى.

وإنما قلنا ذلك أولى بتأويل الآية، لأن الأعمال السيئة قد كانت مَضَتْ على ما كانت عليه من القُبْح، وغير جائز تحويل عين قد مضت بصفة إلى خلاف ما كانت عليه إلا بتغييرها عما كانت عليه من صفتها في حال أخرى، فيجب إن فعل ذلك كذلك أن يصيرَ شرك الكافر الذي كان شركاً في الكفر بعينه إيماناً يوم القيامة بالإسلام ومعاصيه كلها بأعيانها طاعةً، وذلك ما لا يقوله ذو حجا.

وقوله: «وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وكان الله ذا عفوٍ عن ذنوب مَنْ تابَ من عباده وراجع طاعته، وذا رحمةٍ به أن يعاقبه على ذنوبه بعد توبته منها.

قوله: «وَمَنْ تَابَ»، يقول: ومن تاب من المشركين، فآمنَ بالله ورسوله. «وَعَمِلَ صَالِحًا»، يقول: وعملَ بما أمره الله فآطاعه، فإنَّ الله فاعلٌ به من إبداله سيئ أعماله في الشرك بحسنها في الإسلام، مثل الذي فعَلَ من ذلك بمن تاب وآمن وعمل صالحاً قبل نزول هذه الآية من أصحابِ رسولِ الله ﷺ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾

اختلف أهل التأويل في معنى الزور الذي وصف الله هؤلاء القوم بأنهم لا يشهدونه، فقال بعضهم: معناه الشرك بالله.

وقال آخرون: بل عَنَى به الغناء.

وقال آخرون: هو قول الكذب.

وأصل الزور تحسین الشيء ووصفه بخلاف صفته، حتى يخيل إلى من يسمعه أو يراه أنه خلاف ما هو به، والشرك قد يدخل في ذلك لأنه مُحَسَّن لأهله، حتى قد ظنوا أنه حق، وهو باطل، ويدخل فيه الغناء، لأنه أيضاً مما يحسنه ترجيع الصوت، حتى يستحلي سامعه سماعه، والكذب أيضاً قد يدخل فيه لتحسين صاحبه إياه، حتى يظن صاحبه أنه حق، فكل ذلك مما يدخل في معنى الزور.

فإذا كان ذلك كذلك، فأولى الأقوال بالصواب في تأويله أن يقال: والذين لا يشهدون شيئاً من الباطل لا شركاً، ولا غناءً، ولا كذباً ولا غيره، وكل ما لزمه اسم الزور، لأن الله عم في وصفه إياهم أنهم لا يشهدون الزور، فلا ينبغي أن يخص من ذلك شيء إلا بحجة يجب التسليم لها من خبر أو عقل.

وقوله: «وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا» اختلف أهل التأويل في معنى اللغو الذي ذكر في هذا الموضع، فقال بعضهم: معناه: ما كان المشركون يقولونه للمؤمنين، ويكلمونهم به من الأذى، ومرورهم به كراماً: إعراضهم عنهم وصفحهم.

وقال آخرون: بل معناه: وإذا مرُّوا بذكر النكاح، كفوا عنه.

وقال آخرون: إذا مرُّوا بما كان المشركون فيه من الباطل مرُّوا مُنْكَرِينَ له.

وقال آخرون: عني باللغو ههنا: المعاصي كلها.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي، أن يقال: إن الله أخبر عن هؤلاء المؤمنين الذين مدحهم بأنهم إذا مرُّوا باللغو مرُّوا كراماً، واللغو في كلام العرب هو كل كلام أو فعل باطل لا حقيقة له ولا أصل، أو ما يستقبح،

فَسَبُّ الْإِنْسَانِ الْإِنْسَانَ بِالْبَاطِلِ الَّذِي لَا حَقِيقَةَ لَهُ مِنَ اللَّغْوِ، وَذِكْرُ النِّكَاحِ بِصُرِيحِ اسْمِهِ مِمَّا يُسْتَقْبَحُ فِي بَعْضِ الْأَمَاكِنِ، فَهُوَ مِنَ اللَّغْوِ، وَكَذَلِكَ تَعْظِيمُ الْمُشْرِكِينَ آلِهَتَهُمْ مِنَ الْبَاطِلِ الَّذِي لَا حَقِيقَةَ لِمَا عَظَّمُوهُ عَلَى نَحْوِ مَا عَظَّمُوهُ، وَسَمَاعُ الْغِنَاءِ مِمَّا هُوَ مُسْتَقْبَحٌ فِي أَهْلِ الدِّينِ، فَكُلُّ ذَلِكَ يَدْخُلُ فِي مَعْنَى اللَّغْوِ، فَلَا وَجْهَ إِذْ كَانَ كُلُّ ذَلِكَ يُلْزَمُهُ اسْمُ اللَّغْوِ، أَنْ يَقَالَ: عَنِى بِهِ بَعْضُ ذَلِكَ دُونَ بَعْضٍ، إِذْ لَمْ يَكُنْ لَخُصُوصِ ذَلِكَ دَلَالَةٌ مِنْ خَبَرٍ أَوْ عَقْلِ. فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، فَتَأْوِيلُ الْكَلَامِ: وَإِذَا مَرُّوا بِالْبَاطِلِ فَسَمِعُوهُ أَوْ رَأَوْهُ، مَرُّوا كِرَامًا، مَرُورَهُمْ كِرَامًا فِي بَعْضِ ذَلِكَ بِأَنْ لَا يَسْمَعُوهُ، وَذَلِكَ كَالْغِنَاءِ. وَفِي بَعْضِ ذَلِكَ: بِأَنْ يَعْضُوا عَنْهُ وَيَصْفَحُوا، وَذَلِكَ إِذَا أُذُوا بِإِسْمَاعِ الْقَبِيحِ مِنَ الْقَوْلِ، وَفِي بَعْضِهِ: بِأَنْ يَنْهَوْا عَنْ ذَلِكَ وَذَلِكَ بِأَنْ يَرَوْا مِنَ الْمُنْكَرِ مَا يَغَيِّرُ بِالْقَوْلِ فِيغَيِّرُوهُ بِالْقَوْلِ. وَفِي بَعْضِهِ بِأَنْ يُضَارَبُوا عَلَيْهِ بِالسَّيْفِ، وَذَلِكَ بِأَنْ يَرَوْا قَوْمًا يَقْطَعُونَ الطَّرِيقَ عَلَى قَوْمٍ، فَيَسْتَصْرِخُهُمُ الْمَرَادُ ذَلِكَ مِنْهُمْ، فَيَصْرُخُونَهُمْ، وَكُلُّ ذَلِكَ مَرُورَهُمْ كِرَامًا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ

لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا مُذَكَّرٌ بِحُجَجِ اللَّهِ، لَمْ يَكُونُوا صُمًّا لَا يَسْمَعُونَ، وَعُمْيًّا لَا يَبْصُرُونَهَا وَلَكِنْهُمْ يَقَاطُ الْقُلُوبِ، فَهُمَاءُ الْعُقُولِ، يَفْهَمُونَ عَنْ اللَّهِ مَا يُذَكِّرُهُمْ بِهِ، وَيَفْهَمُونَ عَنْهُ مَا يُنَبِّهُهُمْ عَلَيْهِ، فَيُوعُونَ مُوَاعِظَهُ آذَانًا سَمِعَتْهُ، وَقُلُوبًا وَعَتَهُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: وَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ: «لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا» أَوْ يَخِرُّ الْكَافِرُونَ صُمًّا وَعُمْيَانًا إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ، فَيَنْفَى عَنْ هَؤُلَاءِ مَا هُوَ صِفَةُ لِلْكَافِرِ؟ قِيلَ: نَعَمْ، الْكَافِرُ إِذَا تَلَيْتَ عَلَيْهِ آيَاتُ اللَّهِ خَرَّ عَلَيْهَا أَصَمًّا وَأَعْمَى،

وَحَرُّهُ عَلَيْهَا كَذَلِكَ: إقامته على الكفر، وذلك نظير قول العرب: سببت فلاناً، فقام ييكى، بمعنى فَظَلَ ييكى، ولا قيام هنالك، ولعلّه أن يكون بكى قاعداً، وكما يقال: نهيت فلاناً عن كذا، فقعد يشتمني: ومعنى ذلك: فجعل يشتمني، وظلَّ يشتمني، ولا قعود هنالك، ولكن ذلك قد جرى على ألسن العرب، حتى قد فهموا معناه، وذكر الفراء^(١) أنه سمع العرب تقول: قعد يشتمني، كقولك: قام يشتمني، وأقبل يشتمني.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾

يقول تعالى ذكره: والذين يرغبون إلى الله في دعائهم ومسألتهم بأن يقولوا: ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا ما تقرُّ به أعيننا من أن تُريناهم يعملون بطاعتك.

وقوله: «وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا» اختلف أهل التأويل في تأويله، فقال بعضهم: معناه: اجعلنا أئمةً يقتدي بنا من بعدنا. وقال آخرون: بل معناه: واجعلنا للمتقين إماماً ناتماً بهم، ويأتى بنا من بعدنا.

وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: معناه: واجعلنا للمتقين الذين يتقون معاصيك، ويخافون عقابك؟ إماماً يأتون بنا في الخيرات، لأنهم إنما سألوا ربهم أن يجعلهم للمتقين أئمةً ولم يسألوه أن يجعل المتقين لهم إماماً.

(١) معاني القرآن: ٢/٢٧٤.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا** ﴿٧٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: هؤلاء الذين وصفت صفتهم من عبادي، وذلك من ابتداء قوله: «وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا»... إلى قوله: «وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا...» الآية «يُجْزَوْنَ»، يقول: يُثَابُونَ على أفعالهم هذه التي فعلوها في الدنيا «الغُرْفَةَ» وهي منزلة من منازل الجنة رفيعة «بِمَا صَبَرُوا»، يقول: بصبرهم على هذه الأفعال، ومقاساة شدتها.

وقوله: «وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا»، اختلفت القراءة في قراءته، فقرأته عامة قُرَاءَةِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَالْبَصْرَةِ «وَيُلَقَّوْنَ» مضمومة الياء مشددة القاف، بمعنى: وَتَلْقَاهُمْ الْمَلَائِكَةُ فِيهَا بِالتَّحِيَّةِ، وقرأ ذلك عامة قُرَاءَةُ الْكُوفَةِ: «وَيُلَقَّوْنَ» بفتح الياء وتخفيف القاف.

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إنهما قراءتان مشهورتان في قُرَاءَةِ الْأَمْصَارِ بِمَعْنَى وَاحِدٍ، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب، غير أن أعجب القراءتين إِلَيَّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا «وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا» بفتح الياء وتخفيف القاف، لأنَّ الْعَرَبَ إِذَا قَالَتْ ذَلِكَ بِالتَّشْدِيدِ قَالَتْ: فَلَانِ يُتَلَقَّى بِالسَّلَامِ وبِالْخَيْرِ وَنَحْنُ نَتَلَقَاهُمْ بِالسَّلَامِ قَرْنَتَهُ بِالْيَاءِ وَقَلَمًا تَقُولُ: فَلَانِ يُلَقَّى السَّلَامُ، فَكَانَ وَجْهُ الْكَلَامِ لَوْ كَانَ بِالتَّشْدِيدِ أَنْ يَقَالَ: وَيُتَلَقَّوْنَ فِيهَا بِالتَّحِيَّةِ وَالسَّلَامِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسَقَّرًا وَمَقَامًا** ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْزُبُ عَنْكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: أولئك يُجْزَوْنَ الغرفةَ بما صبروا، خالدينَ في الغرفة، يعني أنهم ماكثونَ فيها، لا بثونَ إلى غيرِ أمدٍ، حَسُنَتْ تلكَ الغرفةُ قراراً لهم ومقاماً يقولُ: وإقامةً.

وقوله: «قُلْ مَا يَعْجَبُ بِكُمْ رَبِّي» يقول جَلُّ ثناءه لنبيه: قُلْ يا محمدُ، لهؤلاء الذين أرسلت إليهم: أي شيء يُعَذِّبُكم، وأي شيء يصنع بكم ربي، يقال منه: عبأت به أعبأ عبأً، وعبأت الطيب أعبؤه: إذا هيأته.

وقوله: «لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ»، يقول: لولا عبادة مَنْ يَعْبُدُهُ منكم، وطاعة مَنْ يطيعه منكم.

وقوله: «فَقَدْ كَذَّبْتُمْ»، يقول تعالى ذِكْرَهُ لمشركي قريش قومِ رسولِ الله ﷺ: فقد كَذَّبْتُمْ أيها القومُ رسولَكُمْ الذي أرسلَ إليكم وخالفتم أمرَ رَبِّكم الذي أمرَ بالتمسكِ به لو تمسكتم به، كان يعبأ بكم ربي، فسوف يكون تكذيبكم رسولَ رَبِّكم، وخلافكم أمرَ بارئِكُمْ، عذاباً لكم ملازماً، قتلاً بالسيوفِ وهلاكاً لكم مُفْنِياً يَلْحَقُ بعضكم بعضاً. ففعل الله ذلك بهم، وَصَدَقَهُمْ وَعَدَهُ، وقتلهم يومَ بدرٍ بأيدي أوليائه، وَالْحَقَّ بعضهم ببعضٍ، فكان ذلك العذابُ اللزام.

سُورَةُ الشُّجَرَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : طَسَمَ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ

﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾

وقد ذكرنا اختلاف المختلفين في ابتداء فواتح سور القرآن من حروف الهجاء، وبيننا الذي هو أولى بالصواب من القول فيه فيما مضى من كتابنا هذا بما أغنى عن إعادته^(١)، وقد ذكر عنهم من الاختلاف في قوله: طسم وطس، نظير الذي ذكر عنهم في: ألم والممر والمص.

فتأويل الكلام على قول ابن عباس والجميع: إِنَّ هَذِهِ آيَاتُ الَّتِي أَنْزَلْنَاهَا عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ فِي هَذِهِ السُّورَةِ لآيَاتِ الْكِتَابِ الَّتِي أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْهِ مِنْ قَبْلِهَا الَّتِي بَيَّنَّ لِمَنْ تَدَبَّرَهُ بِفَهْمٍ، وَفَكَّرَ فِيهِ بِعَقْلِ، أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، لَمْ يَتَخَرَّضْهُ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَلَمْ يَتَقَوَّلْهُ مِنْ عِنْدِهِ، بَلْ أَوْحَاهُ إِلَيْهِ رَبُّهُ.

وقوله: «لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَنْ لَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ»، يقول تعالى ذكره: لعلك يا محمد قاتل نفسك ومهلكها إن لم يؤمن قومك بك، ويصدقوك على ما جئتهم به، والبخع: هو القتل والإهلاك في كلام العرب.

(١) انظر أول تفسير سورة البقرة.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : إِنْ نَّشَأْنُ نَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ

أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾

اختلف أهل التأويل في تأويل قوله : «فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ» . . . الآية ، فقال بعضهم : معناه : فظلَّ القَوْمُ الذين أنزل عليهم من السماء آية خاضعة أعناقهم لها من الذلَّة .

وقال آخرون : بل معنى ذلك : فظلت سادَّتْهم وكبراءُهم للآية خاضعين ، ويقولُ : الأَعْنَاقُ : هم الكُبراءُ من الناس .

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب وأشبهها بما قال أهل التأويل في ذلك أن تكون الأعناقُ هي أعناقُ الرجال ، وأن يكون معنى الكلام : فظلت أعناقُهم ذليلةً للآية التي ينزلها الله عليهم من السماء .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٌ إِلَّا كَانُوا

عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾

يقول تعالى ذِكرُهُ : وما يجيء هؤلاء المشركين الذين يكذبونك ويحجدون ما أتيتهم به يا محمدٌ من عند رَبِّكَ من تذكيرٍ وتنبيه على مواضعٍ حُججِ الله عليهم على صِدْقِكَ ، وحقيقة ما تدعوهم إليه مما يُحدِّثُ الله إليك ويوحيه إليك ، لتذكرهم به ، إلا أعرضوا عن استماعه ، وتركوا إعمال الفكر فيه وتدبره .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ

يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فَقَدْ كَذَّبَ يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ الْمَشْرُكُونَ بِالذِّكْرِ الَّذِي أَنَاهُمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَأَعْرَضُوا عَنْهُ. «فَسَيَاتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ»، يَقُولُ: فَسَيَاتِيهِمْ أَخْبَارُ الْأَمْرِ الَّذِي كَانُوا يَسْخَرُونَ مِنْهُ وَذَلِكَ وَعِيدٌ مِنَ اللَّهِ لَهُمْ أَنَّهُ مُحِلٌّ بِهِمْ عِقَابَهُ عَلَى تَمَادِيهِمْ فِي كُفْرِهِمْ، وَتَمَرُّدِهِمْ عَلَى رَبِّهِمْ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمَا أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ

كَرِيمٍ ﴿٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أَوَلَمْ يَرَ هَؤُلَاءِ الْمَشْرُكُونَ الْمَكْذُبُونَ بِالْبَعْثِ وَالنَّشْرِ إِلَى الْأَرْضِ، كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا بَعْدَ أَنْ كَانَتْ مَيْتَةً لَا نَبَاتَ فِيهَا «مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ» يَعْنِي بِالكَرِيمِ: الْحَسَنَ، كَمَا يُقَالُ لِلنَّخْلَةِ الطَّيِّبَةِ الْحَمَلِ: كَرِيمَةٌ، وَكَمَا يُقَالُ لِلشَّاةِ أَوْ النَّاقَةِ إِذَا غَزَرَتَا، فَكَثُرَتْ أَلْبَانُهُمَا: نَاقَةٌ كَرِيمَةٌ، وَشَاةٌ كَرِيمَةٌ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ

﴿٦﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: إِنَّ فِي إنباتنا في الأرض من كلِّ زوجٍ كريمٍ آيَةً: يَقُولُ: لِدَلَالَةِ لَهْوَائِ الْمَشْرُكِينَ الْمَكْذُبِينَ بِالْبَعْثِ، عَلَى حَقِيقَتِهِ، وَأَنَّ الْقُدْرَةَ الَّتِي بِهَا أَنْبَتَ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ ذَلِكَ النَّبَاتَ بَعْدَ جُدُوبَتِهَا، لَنْ يُعْجِزَهُ أَنْ يُنْشِرَ بِهَا الْأَمْوَاتَ بَعْدَ مَمَاتِهِمْ أَحْيَاءً مِنْ قُبُورِهِمْ.

وقوله: «وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ»، يَقُولُ: وَمَا كَانَ أَكْثَرُ هَؤُلَاءِ الْمَكْذُبِينَ بِالْبَعْثِ، الْجَاهِلِينَ نُبُوتِكَ يَا مُحَمَّدُ بِمُصَدِّقِكَ عَلَى مَا تَأْتِيهِمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مِنَ الذِّكْرِ، يَقُولُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: وَقَدْ سَبَقَ فِي عِلْمِي أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، فَلَا يُؤْمِنُ بِكَ أَكْثَرُهُمْ لِلْسَّابِقِ مِنْ عِلْمِي فِيهِمْ.

وقوله : «وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ» ، يقول : وَإِنَّ رَبَّكَ يَا مُحَمَّدُ لَهُوَ الْعَزِيزُ فِي نَقْمَتِهِ ، لَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ أَحَدٌ أَرَادَ الْإِنْتِقَامَ مِنْهُ ، يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ : وَإِنِّي إِنِّ أَهْلَلْتُ بِهَؤُلَاءِ الْمَكْذِبِينَ بِكَ يَا مُحَمَّدُ ، الْمُعْرِضِينَ عَمَّا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مَنْ عِنْدِي ، عَقُوبَتِي بِتَكْذِيبِهِمْ إِيَّاكَ ، فَلَنْ يَمْنَعَهُمْ مِنِّي مَانِعٌ ، لِأَنِّي أَنَا الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ، يَعْنِي أَنَّهُ ذُو الرَّحْمَةِ بِمَنْ تَابَ مِنْ خَلْقِهِ مَنْ كَفَرَهُ وَمَعْصِيَتُهُ أَنْ يَعَاقِبَهُ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْ جُرْمِهِ بَعْدَ تَوْبَتِهِ .

وإنما اخترنا القول الذي اخترناه في ذلك في هذا الموضع ، لأنَّ قوله : «وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ» عَقِيبَ وَعِيدِ اللَّهِ قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الشَّرِكِ وَالتَّكْذِيبِ بِالْبَعْثِ ، لَمْ يَكُونُوا أَهْلَكُوا ، فَيُوجِهْ إِلَى أَنَّهُ خَبَّرَ مِنَ اللَّهِ عَنْ فِعْلِهِ بِهِمْ وَإِهْلَاكِهِ .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ أَتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ : وَادْكُرْ يَا مُحَمَّدُ إِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ «أَنْ أَتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» ، يَعْنِي الْكَافِرِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ .
وقوله : «أَلَا يَتَّقُونَ» ، يَقُولُ : أَلَا يَتَّقُونَ عِقَابَ اللَّهِ عَلَى كُفْرِهِمْ بِهِ .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٣﴾ وَيَضْحِكُوا صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ ﴿١٤﴾ وَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ : «قَالَ» مُوسَى لِرَبِّهِ «رَبِّ إِنِّي أَخَافُ» مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ الَّذِينَ أَمَرْتَنِي أَنْ أَتِيَهُمْ «أَنْ يُكَذِّبُونِ» بِقِيلِي لَهُمْ : إِنَّكَ أَرْسَلْتَنِي إِلَيْهِمْ «وَيَضْحِكُوا صَدْرِي» مِنْ تَكْذِيبِهِمْ إِيَّايَ إِنْ كَذَّبُونِي ، وَرَفَعَ قَوْلَهُ «وَيَضْحِكُوا صَدْرِي» عَطْفًا بِهِ

على أخاف، ومعناه: وإني يضيق صدري.

وقوله: «وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي» يقول: ولا ينطلقُ بالعِبارَةِ عما ترسلني به إليهم للعلّة التي كانت بلسانه.

وقوله: «فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ»، يعني هارون أخاه، ولم يقل: فَأَرْسِلْ إِلَيَّ هَارُونَ لِيُوَازِرَنِي وَلِيُعِينَنِي، إذ كان مفهوماً معنى الكلام، وذلك كقول القائل: لو نزلت بنا نازلةً لفزعنا إليك، بمعنى: لفزعنا إليك لِتُعِينَنَا.

وقوله: «وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ»، يقول: ولقومِ فرعونَ عليّ دعوى ذنبٍ أذنبت إليهم، وذلك قتله النفس التي قتلها منهم.

وقوله: «فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ»، يقول: فأخافُ أن يقتلوني قوداً بالنفس التي قتلتُ منهم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا يَا ابْنَتَا آدَمَ مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأَتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٧﴾

يقول تعالى ذكره: «كَلَّا»: أي لن يقتلك قومُ فرعون «فاذهبا بآياتنا»، يقول: فاذهب أنت وأخوك بآياتنا، يعني بأعلامنا وحُجَجِنَا التي أعطيناك عليهم. وقوله: «إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ» من قومِ فرعونَ ما يقولونَ لكم، ويجيبونكم به.

وقوله: «فَأَتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا»... الآية، يقول: فأت أنت يا موسى وأخوك هارونَ فرعونَ «فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ» إليك بـ«أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ».

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : قَالَ أَلَمْ نُنْزِلْكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ

عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ : وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ

﴿١٩﴾

وفي هذا الكلام محذوف استُغْنِي بدلالة ما ظهر عليه منه، وهو: فَأْتِيَا فرعونَ فَأَبْلِغَاهُ رسالَةَ رَبِّهِمَا إليه، فقال فرعونُ: أَلَمْ نُنْزِلْكَ فِينَا يَا موسى وليدًا، ولَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ، وذلك مُكْتَبٌ عنده قبل قَتْلِهِ الْقَتِيلَ الذي قتله من القبطِ، وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ التي فعلتَ: يعني قَتْلَهُ النَّفْسَ التي قتل من القبطِ.

وقوله: «وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ»، اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك: وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ بالله على ديننا، وهو قول السدي.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ نِعْمَتَنَا عَلَيْكَ، وهو قول

ابن زيد.

وهذا القول الذي قاله ابن زيد أشبه بتأويل الآية، لأن فرعونَ لم يكن مُقَرَّرًا لله بالربوبية وإنما كان يزعمُ أنه هو الربُّ، فغير جائز أن يقول لموسى: إِنْ كَانَ موسى كان عنده على دينه يوم قتل القتيل على ما قاله السدي: فعلت الفعلَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ، الإيمان عنده: هو دينه الذي كان عليه موسى عنده، إلا أن يقول قائل: إنما أراد: وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ يَوْمئِذٍ يَا موسى، على قولك اليومَ، فيكون ذلك وجهًا يتوجه.

فتأويل الكلام إذن: وَقَتَلْتَ الذي قَتَلْتَ مِنَّا وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ نِعْمَتَنَا عَلَيْكَ، وإحساننا إليك في قَتْلِكَ إِيَّاهُ. وقد قيل: معنى ذلك: وَأَنْتَ الْآنَ مِنَ الْكَافِرِينَ لنعمتي عليك، وتريتي إياك.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذْ وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ : قال موسى لفرعون : فعلتَ تلكَ الفعلَةَ التي فعلتَ : أي قتلْتُ تلكَ النفسَ التي قتلْتُ إِذْ وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ : يقولُ : وأنا من الجاهِلينَ قَبْلَ أَنْ يَأْتِنِي مِنَ اللَّهِ وَحْيٌ بِتَحْرِيمِ قِتْلِهِ عَلَيَّ . والعربُ تضعُ الضلالَ موضعَ الجهلِ ، والجهلَ موضعَ الضلالِ ، فتقولُ : قد جهلَ فلانُ الطريقَ وضلَّ الطريقَ ، بمعنى واحد .

وقوله : «فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ» . . . الآية ، يقول تعالى ذِكْرُهُ مخبراً عن قيلِ موسى لفرعونَ : «فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ» معشرَ الملأ من قومِ فرعونَ «لَمَّا خِفْتُكُمْ» أَنْ تَقْتُلُونِي بِقَتْلِي الْقَتِيلِ مِنْكُمْ «فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا» ، يقولُ : فَوَهَبَ لِي ربي نُبُوَّةً وهي الحكم .

وقوله : «وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ» ، يقولُ : وألحقتني بعدادٍ مَنْ أَرْسَلَهُ إِلَى خَلْقِهِ ، مُبَلِّغاً عَنْهُ رِسَالَتَهُ إِلَيْهِمْ بِإِيسَاءِهِ إِيَّايَ إِلَيْكَ يَا فرعون .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴿٢٤﴾ إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ مخبراً عن قيلِ نبيه موسى ﷺ لفرعونَ «وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ» ، يعني بقوله : وتلكَ تربيةُ فرعونِ إياه ، يقولُ : وتربيتكَ إِيَّايَ ، وتركتكَ استعبادي ، كما استعبدتُ بني إسرائيلَ نعمةً منك تمنها عليَّ بحقٍّ ، وفي

الكلام محذوف استغني بدلالة ما ذكر عليه عنه، وهو: وتلك نعمة تمنها عليّ أن عبدت بني إسرائيل وتركنتي، فلم تستعبدني، فترك ذكرك: وتركنتي، لدلالة قوله: أن عبدت بني إسرائيل عليه.

وقوله: «قال فرعون وما رب العالمين»، يقول: وأي شيء رب العالمين؟ «قال» موسى: هو «رب السموات والأرض» ومالكها، «وما بينهما»، يقول: ومالك ما بين السموات والأرض من شيء. «إن كنتم موقنين»، يقول: إن كنتم موقنين أن ما تعابونه كما تعابونه، فذلك فأيقنوا أن ربنا هو رب السموات والأرض وما بينهما.

القول في تأويل قوله تعالى: «قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ ۝٢٥ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۝٢٦ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ۝٢٧ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢٨ قَالَ لَنْ اتَّخَذَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُودِينَ ۝٢٩»

يعني تعالى ذكره بقوله: «قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ» قال فرعون لمن حوله من قوله: أَلَا تَسْمَعُونَ لما يقول موسى، فأخبر موسى عليه السلام القوم بالجواب عن مسألة فرعون إياه وقيله له: «وما رب العالمين؟» ليفهم بذلك قوم فرعون مقالته لفرعون، وجوابه إياه عما سأل، إذ قال لهم فرعون «أَلَا تَسْمَعُونَ» إلى قول موسى، فقال لهم: الذي دعوته إليه وإلى عبادته «رَبُّكُمْ» الذي خلقكم «وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ» فقال فرعون لما قال لهم موسى ذلك، وأخبرهم عما يدعو إليه فرعون وقومه: «إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ»، يقول: إن رسولكم هذا الذي يزعم أنه أرسل إليكم لمغلوب على عقله، لأنه يقول قولاً لا نعرفه ولا نفهمه، وإنما قال ذلك ونسب موسى عدو الله إلى الجنة، لأنه كان عنده وعند قومه أنه لا رب غيره يُعبد، وأن الذي يدعوه إليه موسى باطل ليست

له حقيقة، فقال موسى عند ذلك محتجاً عليهم، وَمُعَرِّفُهُمْ رَبَّهُمْ بِصِفَتِهِ وَأَدِلَّتِهِ، إِذْ كَانَ عِنْدَ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَنَّ الَّذِي يَعْرِفُونَهُ رَبًّا لَهُمْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ هُوَ فِرْعَوْنُ، وَأَنَّ الَّذِي يَعْرِفُونَهُ لِأَبَائِهِمْ أَرْبَابًا مَلُوكًا آخَرَ، كَانُوا قَبْلَ فِرْعَوْنَ، قَدْ مَضَوْا فَلَمْ يَكُنْ عَنْدهُمْ أَنَّ مُوسَى أَخْبَرَهُمْ بِشَيْءٍ لَهُ مَعْنَى يَفْهَمُونَهُ وَلَا يَعْقِلُونَهُ، وَلِذَلِكَ قَالَ لَهُمْ فِرْعَوْنُ: إِنَّهُ مَجْنُونٌ، لِأَنَّ كَلَامَهُ كَانَ عَنْدهُمْ كَلَامًا لَا يَعْقِلُونَ مَعْنَاهُ: الَّذِي أَدْعُوكُمْ، وَفِرْعَوْنَ إِلَى عِبَادَتِهِ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا، يَعْنِي مَلِكُ مَشْرِقِ الشَّمْسِ وَمَغْرِبِهَا، وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ شَيْءٍ، لَا إِلَى عِبَادَةِ مَلِكٍ مِثْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا مَلُوكَهَا قَبْلَ فِرْعَوْنَ لِأَبَائِهِمْ فَمَضَوْا، وَلَا إِلَى عِبَادَةِ فِرْعَوْنَ الَّذِي هُوَ مَلِكُهَا «إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ»، يَقُولُ: إِنْ كَانَ لَكُمْ عَقْلٌ تَعْقِلُونَ بِهَا مَا يَقَالُ لَكُمْ، وَتَفْهَمُونَ بِهَا مَا تَسْمَعُونَ مِمَّا يَعْينُ لَكُمْ؛ فَلَمَّا أَخْبَرَهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْأَمْرِ الَّذِي عَلِمُوا أَنَّهُ الْحَقُّ الْوَاضِعُ، إِذْ كَانَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ مِنْ مَلُوكِ مِصْرَ لَمْ يَجَاوِزْ مُلْكُهُمْ عَرِيشَ مِصْرَ، وَتَبَيَّنَ لِفِرْعَوْنَ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنْ قَوْمِهِ أَنَّ الَّذِي يَدْعُوهُمْ مُوسَى إِلَى عِبَادَتِهِ، هُوَ الْمَلِكُ الَّذِي يَمْلِكُ الْمُلُوكُ قَالَ فِرْعَوْنُ حِينَئِذٍ اسْتِكْبَارًا عَنْ الْحَقِّ، وَتَمَادِيًا فِي الْغِيِّ لِمُوسَى: «لَئِنْ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي»، يَقُولُ: لَئِنْ أَقَرَرْتُ بِمَعْبُودٍ سِوَايَ «لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ»، يَقُولُ: لَأَسْجُنَنَّكَ مَعَ مَنْ فِي السِّجْنِ مِنْ أَهْلِهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ أُولُو حِشْتِكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأَتَتْ بِهِ إِيَّانَ كُنْتُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعِيدهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٣﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: قَالَ مُوسَى لِفِرْعَوْنَ لَمَّا عَرَفَهُ رَبَّهُ، وَأَنَّهُ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَدَعَاهُ إِلَى عِبَادَتِهِ وَإِخْلَاصِ الْأَلُوهَةِ لَهُ، وَأَجَابَهُ فِرْعَوْنُ بِقَوْلِهِ:

«لَيْسَ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ» أتجعلني من المسجونين «وَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ» يبين لك صدق ما أقول يا فرعون وحقيقة ما أدعوك إليه. وإنما قال ذلك له، لأن من أخلاق الناس السكون للإنصاف، والإجابة إلى الحق بعد البيان؛ فلما قال موسى له ما قال من ذلك قال له فرعون: فأب بالشيء المبين حقيقة ما تقول، فإننا لن نسجنك حينئذٍ إن اتخذت إلهاً غيري إن كنت من الصادقين، يقول: إن كنت محققاً فيما تقول، وصادقاً فيما تصف وتخير، «فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ»، يقول جل ثناؤه: فألقى موسى عصاه فتحوّلت ثعباناً، وهي الحية الذكّر كما قد بينت فيما مضى قبل من صفته.

وقوله: «مُبِينٌ»، يقول: يبين لفرعون والملا من قومه أنه ثعبان. وقوله: «وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ»، يقول: وأخرج موسى يده من جيبه فإذا هي بيضاء تلمع «لِلنَّاطِرِينَ» لمن ينظر إليها ويراهها.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَا أَيُّكَ بِكُلِّ شَحَاةٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾

يقول تعالى ذكره: قال فرعون لما أراه موسى من عظيم قدرة الله وسلطانه حجةً عليه لموسى بحقيقة ما دعاه إليه، وصدق ما أتاه به من عند ربه «لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ» يعني لأشراف قومه الذين كانوا حوله «إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ»، يقول: إن موسى سحر عصاه حتى أراكموها ثعباناً. «عَلِيمٌ»، يقول: ذو علم بالسحر وبصر به. «يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ»، يقول: يريد أن يخرج بني إسرائيل من أرضكم إلى الشام بقهره إياكم بالسحر. وإنما قال: يريد أن

يخرجكم فجعل الخطاب للملأ حوله من القبط، والمعني به بنو إسرائيل، لأن القبط كانوا قد استعبدوا بني إسرائيل، واتخذوهم خدماً لأنفسهم ومهناً، فلذلك قال لهم: «يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُم» وهو يريد أن يخرج خدَمَكُم وعبيدَكُم من أرض مصر إلى الشام.

وإنما قلت معنى ذلك كذلك، لأن الله إنما أرسل موسى إلى فرعون يأمره بإرسال بني إسرائيل معه، فقال له ولأخيه: «فَاتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ».

وقوله: «فَمَاذَا تَأْمُرُونَ»، يقول: فأي شيء تأمرون في أمر موسى وما به تشيرون من الرأي فيه، «قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ، وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ»، يقول تعالى ذكره: فأجاب فرعون الملأ حوله بأن قالوا له: أخر موسى وأخاه وأنظره، وأبعث في بلادك وأمصار مصر حاشرين يحشرون إليك كل سحار عليم بالسحر.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَجَمَعَ السَّحَرَةَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعَ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾

يقول تعالى ذكره: فجمع الحاشرون الذين بعثهم فرعون بحشر السحرة لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ، يقول: لوقتٍ واعد فرعون لموسى الاجتماع معه فيه من يومٍ معلوم، وذلك يوم الزينة. «وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضَحَى»، وقيل للناس: هل أنتم مجتمعون لتظنوا إلى ما يفعل الفريقان، ولمن تكون الغلبة، لموسى أو للسحرة؟ فَلَعَلَّنَا نَتَّبِعَ السَّحَرَةَ، ومعنى لعل هنا كي، يقول: كي نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين موسى. وإنما قلت ذلك معناها، لأن قوم فرعون كانوا على

دينِ فرعون، فغيرُ معقولٍ أن يقول: مَنْ كان على دينٍ أنظر إلى حجة من هو على خلافي لعلني أتبع ديني، وإنما يقال: أنظر إليها كي أزداد بصيرةً بديني، فأقيم عليه، وكذلك قال قوم فرعون، فإياها عَنوا بِقِيلِهِمْ: لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين. وقيل: إِنَّ اجتماعَهُم للمِيقَاتِ الذي اتَّعَدَ للاجتماعِ فيه فرعون وموسى كان بالإسكندرية.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ» فرعون لوعده لموسى وموعده فرعون قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَأَجْرًا سِحْرُنَا قَبْلَكَ «إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ» موسى، «قَالَ» فرعون لَهُمْ «نَعَمْ» لَكُمْ الْأَجْرُ عَلَى ذَلِكَ «وإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ» مِنَّا، فقالوا عند ذلك لموسى: إما أَنْ تُلْقِيَ، وإما أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُتْلِقِينَ، وترك ذكر قِيلِهِمْ ذلك لدلالة خبر الله عنهم أنهم قال لهم موسى: أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ، على أَنَّ ذلك معناه «قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ» من حِبَالِكُمْ وَعِصِيَّتِكُمْ، «فَالْقُوا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ» من أيديهم. «وقالوا بعزة فرعون»، يقول: أقسموا بقوة فرعون وشدة سلطانه، ومنعة مملكته «إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ» موسى.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَ بَنَاتِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٤٧﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٤٩﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ» حين أَلْقَتِ السَّحَرَةُ حبالهم وعَصِيَّهْمُ، «فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ»، يقول: فإذا عصا موسى تَزْدَرِدُ ما يأتون به من الفِرْيَةِ والسحر الذي لا حقيقة له، وإنما هو مخايل وخدعة «فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ»، يقول: فلما تَبَيَّنَ السَّحَرَةُ أَنَّ الذي جاءهم به موسى حق لا سحر، وأنه مما لا يقدر عليه غيرُ الله الذي فَطَرَ السموات والأرض من غير أصل، خَرُّوا لوجوههم سُجَّدًا لله، مُذْعِنِينَ له بالطاعة، مُقِرِّينَ لموسى بالذي أتاهم به من عند الله أنه هو الحق، وأن ما كانوا يعملونه من السحر باطل، قائلين «آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ» الذي دعانا موسى إلى عبادته دون فرعون، وملكه «رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ». قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ»، يقول جَلَّ ثَنَاهُ: قال فرعون للذين كانوا سَحَرَتُهُ: فآمنوا: آمَنْتُمْ لموسى بأن ما جاء به حق قبل أن آذن لكم في الإيمان به «إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحَرَ»، يقول: إن موسى لرئيسكم في السحر، وهو الذي عَلَّمَكُمُوهُ، ولذلك آمَنْتُمْ به، «فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ» عند عقابي إياكم وَبَالَ ما فعلتم، وخطأ ما صنعتُم من الإيمان به.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَا قُطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ

وَلَا صَلْبَتْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ لَنَا إِلَى رَبِّنَا مَنَقِلِبُون ﴿٥﴾

يقول: «لَا قُطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ» مخالفاً في قَطْعِ ذلك منكم بين قطع الأيدي والأرجل، وذلك أن أقطعَ اليَدَ اليمنى والرَّجْلَ اليسرى، ثم اليَدَ اليسرى والرَّجْلَ اليمنى، ونحو ذلك من قطع اليد من جانب، ثم الرَّجْلَ من الجانب الآخر، وذلك هو القطع من خلاف. «وَلَا صَلْبَتْكُمْ أَجْمَعِينَ» فَوَكَّدَ ذلك بأجمعين إعلاماً منه أنه غير مُسْتَبَقٍ منهم أحداً. «قَالُوا لَا ضَيْرَ»، يقول تعالى

ذِكْرُهُ: قَالَتِ السَّحَرَةُ: لَا ضَيْرَ عَلَيْنَا وَهُوَ مُصَدِّرٌ مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ: قَدْ ضَارَ فَلَانًا فَلَانًا فَهُوَ يَضِيرُ ضَيْرًا، وَمَعْنَاهُ: لَا ضَرَرَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٠﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴿٥١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ مخبراً عن قِيلِ السَّحَرَةِ: إِنَّا نَطْمَعُ: إِنَّا نَرْجُو أَنْ يَصْفَحَ لَنَا رَبُّنَا عَنْ خَطَايَانَا الَّتِي سَلَفَتْ مِنَّا قَبْلَ إِيمَانِنَا بِهِ، فَلَا يَعَاقِبُنَا بِهَا. «أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ»، يَقُولُ: لِأَنَّ كُنَّا أَوَّلَ مَنْ آمَنَ بِمُوسَى وَصَدَّقَهُ بِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ وَتَكْذِيبِ فِرْعَوْنَ فِي ادِّعَائِهِ الرَّبُّوبِيَّةِ فِي دَهْرِنَا هَذَا وَزَمَانِنَا.

وقوله: «وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي»، يَقُولُ: وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذْ تَمَادَى فِرْعَوْنُ فِي غِيِّهِ وَأَبَى إِلَّا الثَّبَاتَ عَلَى طُغْيَانِهِ بَعْدَمَا أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا، أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي: يَقُولُ: أَنْ سِرَّ بِنِي إِسْرَائِيلَ لَيْلًا مِنْ أَرْضِ مِصْرَ. «إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ» إِنَّ فِرْعَوْنَ وَجُنْدَهُ مُتَّبِعُونَ وَقَوْمُكَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، لِيُحَوِّلُوا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْخُرُوجِ مِنْ أَرْضِهِمْ، أَرْضِ مِصْرَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٢﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ يَحْشُرُ لَهُ جُنْدَهُ وَقَوْمَهُ، وَيَقُولُ لَهُمْ: «إِنَّ هَؤُلَاءِ» يَعْنِي بِهِؤُلَاءِ: بَنِي إِسْرَائِيلَ «لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ» يَعْنِي بِالشَّرْذِمَةِ: الطَّائِفَةُ وَالْعَصْبَةُ الْبَاقِيَةُ مِنْ عَصَبِ جَبِيرَةٍ، وَشِرْذِمَةُ كُلِّ شَيْءٍ: بَقِيَّتُهُ الْقَلِيلَةُ.

وقوله: «وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ»، يَقُولُ: وَإِنَّ هَؤُلَاءِ الشَّرْذِمَةُ لَنَا لَغَائِظُونَ، فَذَكَرَ أَنْ غِيْظَهُمْ إِيَّاهُمْ كَانَ قَتْلَ الْمَلَائِكَةِ مَنْ قَتَلَتْ مِنْ أَبْكَارِهِمْ.

وقوله: «وَأَنَا لَجَمِيعٌ حَاضِرُونَ»؛ اختلفت القراءة في قراءة ذلك، فقرأته عامة قراءة الكوفة «وإنا لجميع حاضرون» بمعنى: أنهم مُؤَدُّونَ دُورِ أَدَاةٍ وَقَوَّةٍ وسلاح، وقرأ ذلك عامة قَرَاءَةُ المَدِينَةِ والبصرة «وَأَنَا لَجَمِيعٌ حَاضِرُونَ» بغير ألفٍ. وكان القراء يقول: كَأَنَّ الحَاضِرَ الذي يحذرك الآن، وكأن الحَذِرَ المخلوق حذراً لا تلقاهُ إلا حذراً^(١).

والصوابُ من القولِ في ذلك أنهما قراءتان مستفيضتان في قَرَاءَةِ الأَمْصَارِ متقاربتا المعنى، فبأَيِّهِمَا قرأ القارىءُ، فمصيبُ الصوابِ فيه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾

يقول تعالى ذكره: فأخرجنا فرعونَ وقومَه من بساتين وعيونِ ماء، وكنوزِ ذهبٍ وفضة، ومقامٍ كريم. قيل: إنَّ ذلك المقامَ الكريم: المنابر.

وقوله: «كَذَلِكَ»، يقول: هكذا أخرجناهم من ذلك كما وصفتُ لكم في هذه الآية والتي قبلها. «وَأَوْرَثْنَاهَا»، يقول: وأورثنا تلك الجنات التي أخرجناهم منها والعيون والكنوز والمقام الكريم عنهم بهلاكهم بني إسرائيل.

وقوله: «فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ»، فاتبع فرعون وأصحابه بني إسرائيل، «مُشْرِقِينَ» حين أشرقَتِ الشمسُ، وقيل حين أصبحوا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُونٌ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ

(١) انظر معاني القرآن للفراء: ٢/٢٨٠.

بِعَصَاكَ الْبَحْرُ فَاَنْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فلما تناظرَ الجمعانِ: جَمَعَ موسى وهم بنو إسرائيل، وجمعُ فرعون وهم القبطُ «قال أصحابُ موسى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ» أي إِنَّا لَمُلْحَقُونَ، الآنَ يلحقنا فرعونُ وجنوده فيقتلوننا، وَذَكَرَ أَنَّهُمْ قالوا ذلك لموسى، تشاؤماً بموسى.

وقوله: «كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ»، قال موسى لقومه: ليس الأمرُ كما ذكرتُم، كلا لن تُدْرِكُوا إِن مَعِيَ رَبِّي سيهدين، يقولُ: سيهدين لطريقِ أنجوي فيه من فرعونَ وقومه.

وقوله: «فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَاَنْفَلَقَ» ذَكَرَ أَنَّ الله كان قد أمرَ البحرَ أَنْ لا ينفلقَ حتى يضربه موسى بعصاه.

وقوله: «فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: فكان كل طائفةٍ من البحرِ لَمَّا ضربه موسى كالجبلِ العظيمِ، وَذَكَرَ أَنَّهُ انْفَلَقَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ فَلَقَةً عَلَى عِدَدِ الْأَسْبَاطِ، لِكُلِّ سِبْطٍ مِنْهُمْ فِرْقٌ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾

يعني بقوله تعالى ذِكْرُهُ: «وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ»: وَقَرَّبْنَا هُنَاكَ آلَ فرعونَ من البحرِ، وَقَدَّمْنَاهُمْ إِلَيْهِ، ومنه قوله: «وَأَزْلَفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ» بمعنى: قُرِبَتْ وَأُذْنِبَتْ.

وقوله: «وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وأنجينا

موسى مما أتبعنا به فرعون وقومه من الغرق في البحر وَمَنْ مع موسى من بني إسرائيل أجمعين.

وقوله: «ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ»، يقول: ثم أغرقنا فرعون وقومه من القبط في البحر بعد أن أنجينا موسى منه وَمَنْ معه.

وقوله: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إِنَّ فيما فعلت بفرعون وَمَنْ معه من تغريقي إياهم في البحر إِذْ كَذَّبُوا رَسُولِي موسى، وخالفوا أمري بعد الإعذار إليهم، والإنذار لدلالة بَيِّنَةٍ يا محمد لقومك من قريش على أَنَّ ذلك سستي فيمن سلك سبيلَهُمْ من تكذيب رسلي، وعِظَةُ لهم وعبرة أَنْ اذْكُرُوا واعتبرُوا أَنْ يفعلوا مِثْلَ فعلهم من تكذيبك مع البرهان والآيات التي قد أتيتهم، فيحلّ بهم من العقوبة نظير ما حلّ بهم، ولك آية في فعلي بموسى، وتنجيتي إياه بعد طول علاجه فرعون وقومه منه، وإظهار إياه وتوريثه وقومه دُورَهُمْ وأَرْضَهُمْ وأموالهم، على أنني سالك فيك سبيله، إِنَّ أَنْتَ صَبَرْتَ صبره، وقمت من تبليغ الرسالة إلى مَنْ أرسلتك إليه قيامه، ومُظْهِرَكَ على مُكَذِّبِكَ ومُعْلِيكَ عليهم، «وما كان أكثرهم مؤمنين»، يقول: وما كان أكثر قومك يا محمد مؤمنين بما آتاك الله من الحق المبين، فسابق في علمي أنهم لا يؤمنون. «وإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ» في انتقامه مِمَّنْ كفر به وكذَّب رُسُلَهُ من أعدائه، «الرَّحِيمُ» بمن أنجى من رُسُلِهِ، وأتباعهم من الغرق والعذاب الذي عَذَّبَ به الكفَّرة.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَآتَلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٨﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: واقصص على قومك من المشركين يا محمد خبر إبراهيم حين قال لأبيه وقومه: أي شيء تعبدون؟ «قالوا» له: «نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ» يقول: فنظل لها خدماً مُقِيمِينَ على عبادتها وخدمتها.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ٧٢ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ٧٣ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ٧٤

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال إبراهيمُ لهم: هل تسمعُ دعاءكم هؤلاءِ الآلهةُ إِذْ تَدْعُونَهُمْ؟

وقوله: «أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ»، يقول: أَوْ تَنْفَعُكُمْ هذه الأصنامُ، فيرزقونكم شيئاً على عبادتِكُمُها، أَوْ يَضُرُّونَكم فيعاقبونكم على تَرْكِكُمْ عبادَتِها بأنْ يسلبوكم أموالكم، أَوْ يهلكوكم إذا هلكتم وأولادكم. «قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ»، وفي الكلام متروكٌ استغني بدلالة ما ذكر عما ترك، وذلك جوابهم إبراهيمَ عن مسأَلَتِهِ إياهم: «هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ، أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ»، فكان جوابهم إياه، لا، ما يسمعوننا إذا دَعَوْنَاهُمْ، ولا ينفعوننا ولا يضرُّون يدُلُّ على أنهم بذلك أجابوه.

قولهم: «بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ» وذلك أَنَّ بَلْ رجوعٌ عن مجحودٍ، كقولِ القائل: ما كان كذا بل كذا وكذا، ومعنى قولهم: «وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ» وجدنا مَنْ قَبْلَنَا من آبائنا يعبدونها ويعكفون عليها لخدمتها وعبادتها، فنحن نفعل ذلك اقتداءً بهم، واتباعاً لمنهاجهم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ٧٥ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ٧٦ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِلَّهِ الرَّبِّ الْعَلِيمِ ٧٧

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال إبراهيمُ لقومه: أفَرَأَيْتُمْ أيها القومُ ما كنتم تعبدون من هذه الأصنامِ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ، يعني بالأقدمين: الأقدمين من الذين كان إبراهيمُ يخاطبهم، وهم الأوَّلون قَبْلَهُمْ ممن كان على مِثْلِ ما كان عليه

الذين كُلَّمَهُمْ إِبْرَاهِيمُ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ ، فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ :
يقول قائل: وكيف يُوصَفُ الخشبُ والحديد والنحاس بعداوةِ ابنِ آدمَ ، فإنَّ
معنى ذلك: فإنهم عَدُوٌّ لِي لو عبدتهم يومَ القيامة ، كما قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ :
«وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ، كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ
عَلَيْهِمْ ضِدًّا» [مريم: ٨١] .

وقوله: «إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ» نصباً على الاستثناء ، والعدوُّ بمعنى الجمع ،
وَوَحَّدَ لَأنه أخرج مخرجَ المصدرِ، مثل القعود والجلوس ، ومعنى الكلام: أفرأيتم
كُلَّ معبودٍ لكم ولأبائكم..، فإنني منه بريء لا أعبدُه ، إلا رَبَّ الْعَالَمِينَ .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ
يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾

يقول: فإنهم عَدُوٌّ لِي إلا رَبَّ الْعَالَمِينَ الذي خلقني فهو يهدين للصواب
من القول والعمل ، وَيُسَدِّدُنِي للرشاد. «وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ»، يقول:
والذي يَغْدُونِي بالطعام والشراب ، ويرزقني الأرزاق «وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ»،
يقول: وإذا سقم جسمي واعتلَّ فهو يُبْرِئُهُ ويعافيه .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَالَّذِي يُمَيِّتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي
أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾

يقول: والذي يُمَيِّتُنِي إذا شاء ثم يُحْيِينِي إذا أَرَادَ بعد مماتي «وَالَّذِي
أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ» فربي هذا الذي بيده نفعي وضرِّي ،
وله القدرة والسلطان ، وله الدنيا والآخرة ، لا الذي لا يسمع إذا دُعِيَ ، ولا ينفع
ولا يضر .

ولأنما كان هذا الكلام من إبراهيم احتجاجاً على قومه، في أنه لا تصلح الألوهة، ولا ينبغي أن تكون العبودة إلا لمن يفعل هذه الأفعال، لا لمن لا يطيق نفعاً ولا ضرراً.

وبعني بقوله: «يَوْمَ الدِّينِ» يوم الحساب، يوم المجازاة، وقد بينا ذلك فيما مضى.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَالْحَقِيقِي
بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٢﴾ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾

يقول تعالى ذكره مخبراً عن مسألة خليله إبراهيم إياه «رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً»، يقول: رَبِّ هَبْ لِي نَبْؤَةً «وَالْحَقِيقِي بِالصَّالِحِينَ»، يقول: واجعلني رسولاً إلى خَلْقِكَ حتى تُلْحِقَنِي بِذَلِكَ بعدادِ مَنْ أَرْسَلْتَهُ مِنْ رُسُلِكَ إِلَى خَلْقِكَ، وَاثْمَنْتَهُ عَلَى وَحْيِكَ، وَاصْطَفَيْتَهُ لِنَفْسِكَ.

وقوله: «وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ»، يقول: واجعل لي في الناسِ ذِكْراً جميلاً، وثناءً حسناً باقياً فيمن يجيء من القرون بعدي.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَأَغْفِرْ
لَأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾
إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾

يعني إبراهيم صلوات الله عليه بقوله: «وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ» أورشني يا رب من منازل من هلك من أعدائك المشركين بك من الجنة، وأسكنني ذلك. «وَأَغْفِرْ لِأَبِي»، يقول: واصفح لأبي عن شركه بك، ولا تعاقبه

عليه، «إِنَّهٗ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ»، يقولُ: إنه كان ممن ضلَّ عن سبيلِ الهدى فكفرَ بك.

وقد بيَّنا المعنى الذي من أجله استغفرَ إبراهيمُ لأبيه صلوات الله عليه، واختلاف أهلِ العلم في ذلك، والصواب عندنا من القولِ فيه فيما مضى بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

وقوله: «وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ»، يقولُ: وَلَا تُدَلِّنِي بعقابك إياي يومَ تبعثُ عبادك من قبورهم لموقفِ القيامة. «يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ»، يقولُ: لَا تُخْزِنِي يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَنْ كَفَرَ بك وعصاك في الدنيا مَالٌ كَانَ له في الدنيا، وَلَا بَنُوهُ الَّذِينَ كَانُوا له فيها، فيدفع ذلك عنه عقابُ الله إذا عاقبه، وَلَا يَنْجِيهِ منه.

وقوله: «إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ»، يقولُ: وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، يومَ لَا يَنْفَعُ إِلَّا القلبُ السليم.

والذي عنى به من سلامة القلب في هذا الموضع: هو سلامة القلب من الشكِّ في توحيدِ الله، والبعثِ بعدَ المماتِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٠﴾ وَبُرَزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿١١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ آيِنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿١٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ ﴿١٣﴾ فَكَبَّوْا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿١٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿١٥﴾

يعني جَلَّ شَأْؤُهُ بقوله: «وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ» وأدْنيتِ الجنةُ وقُرِبَتْ للمتقين، الذين اتقوا عقابَ الله في الآخرة بطاعتهم إياه في الدنيا «وَبُرَزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ»، يقولُ: وَأُظْهِرَتِ النَّارُ لِلَّذِينَ غَوَوْا فَضَلُّوا عن سواءِ السبيلِ «وَقِيلَ لِلْغَاوِينَ «آيِنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ» من الأنداد «هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ»

الشعراء: ٩٥-١٠٢

اليوم من الله، فينقذونكم من عذابه، «أَوْ يَنْتَصِرُونَ» لأنفسهم، فينجونها مما يראؤ بها؟

وقوله: «فَكُبِّبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ»، يقول: فرمى ببعضهم في الجحيم على بعض، وطرح بعضهم على بعض مُكْبِّينَ على وجوههم. وأصل كُبِّبُوا، كُبِّسُوا ولكن الكاف كررت كما قيل: «بَرِيحٌ صَرَصِرٌ»، يعني به صرٌّ، ونهني يَنْهَنِي، يعني به: نهني.

وقوله: «وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ»، يقول: وكُبِّبَ فيها مع الأنداد والغاوين جنود إبليس أجمعون، وجنوده: كُلُّ مَنْ كَانَ مِنْ تَبَاعِهِ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ كَانَ أَوْ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿١٦﴾ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٧﴾ إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨﴾

يقول تعالى ذكره: قال هؤلاء الغاوون والأنداد التي كانوا يعبدونها من دون الله وجنود إبليس، وهم في الجحيم يختصمون «تالله إن كنا لفي ضلال مبين»، يقول: تالله لقد كنا في ذهاب عن الحق، إن كنا لفي ضلال مبين، يُبَيِّنُ ذهابنا ذلك عنه عن نفسه، لِمَنْ تَأْمَلُهُ وَتَدَبَّرُهُ، أنه ضلالٌ وباطل.

وقوله: «إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ»، يقول: الغاوون للذين يعبدونهم من دون الله: تالله إن كنا لفي ذهابٍ عن الحق حين نَعْدِلُكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ فنعبدكم من دونه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿١٩﴾ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿٢٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿٢١﴾ فَلَوْلَا نَاكَرَةٌ فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢﴾

الشعراء: ١٠٢-١٠٧

يقول تعالى ذِكْرُهُ مُخْبِرًا عَنْ قِيلِ هَؤُلَاءِ الْغَاوِينَ فِي الْجَحِيمِ: «وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ، يعني بالمجرمين إبليس، وابن آدم الذي سَنَّ الْقَتْلَ.

وقوله: «فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ»، يقول: فليس لنا شافع فيشفع لنا عند الله من الأبعد، فيعفو عنا، وينجيننا من عقابه، «وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ» من الأقارب.

واختلف أهل التأويل في الذين عُنُوا بالشافعين، وبالصديق الحميم، فقال بعضهم: عنى بالشافعين: الملائكة، وبالصديق الحميم: النسيب.

وقال آخرون: كل هَؤُلَاءِ من بني آدم.

وقوله: «فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ»، يقول: فلو أَنَّ لَنَا رَجْعَةً إِلَى الدُّنْيَا فَنُؤْمِنُ بِاللَّهِ فَنَكُونُ يُؤْمِنَانَا بِهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ

﴿١٠٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: إِنَّ فِيهَا احْتِجٌّ بِهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْحُجَجِ الَّتِي ذَكَرْنَا لَهُ لِلدَّلَالَةِ بَيِّنَةٌ وَاضِحَةٌ لِمَنْ اعْتَبَرَ، عَلَى أَنَّ سَنَةَ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ الَّذِينَ يَسْتَنُونَ بِسَنَةِ قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَالْأَلْهَةِ، وَيَقْتَدُونَ بِهِمْ فِي ذَلِكَ مَا سَنَّ فِيهِمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، مِنْ كَبْكَبَتِهِمْ وَمَا عَبَدُوا مِنْ دُونِهِ مَعَ جُنُودِ إِبْلِيسَ فِي الْجَحِيمِ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ فِي سَابِقِ عِلْمِهِ مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّ رَبَّكَ يَا مُحَمَّدُ لَهُوَ الشَّدِيدُ الْإِنْتِقَامِ مِمَّنْ عَبَدَ دُونَهُ، ثُمَّ لَمْ يَتَّبِعْ مِنْ كُفْرِهِ حَتَّى هَلَكَ، الرَّحِيمُ بِمَنْ تَابَ مِنْهُمْ أَنَّ يَعَاقِبَهُ عَلَى مَا كَانَ سَلَفَ مِنْ قَبْلِ تَوْبَتِهِ مِنْ إِثْمٍ وَجَرَمٍ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٤﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ

أَخُوهُمْ نُوحُ أَلَا تَنْقُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ رُسُلَ اللَّهِ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمْ إِلَيْهِمْ لَمَّا قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ» فتحذروا عقابه على كُفْرِكُمْ به، وتكذيبكم رُسُلَهُ «إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ» من الله «أَمِينٌ» على وَحْيِهِ إِلَيَّ، برسالته إياي إليكم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ١٠٨ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رِبِّ الْعَالَمِينَ ١٠٩ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ١١٠

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فاتقوا عقابَ الله أيها القوم على كفركم به، وأطيعوني في نصيحتي لكم، وأمرني إياكم باتقائه. «وما أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ»، يقول: وما أطلبُ منكم على نصيحتي لكم وأمرني إياكم باتقاء عقابِ الله بطاعته فيما أمركم ونهاكم، من ثوابٍ ولا جزاء «إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ» دونكم ودونَ جميعِ خَلْقِ الله، فاتقوا عقابَ الله على كفركم به، وخافوا حُلُولَ سَخَطِهِ بكم على تكذيبكم رُسُلَهُ، «وأطيعوني»، يقول: وأطيعوني في نصيحتي لكم، وأمرني إياكم بإخلاص العبادَةِ لخالقكم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ١١١ قَالَ وَمَا عَلَّمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ١١٢ إِنْ حَسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَو تَشْعُرُونَ ١١٣

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال قومُ نوحٍ له مُجِيبُهُ عن قِيلِهِ لهم: «إني لكم رسولٌ أمين، فاتقوا الله وأطيعوني» قالوا: أَنْتُمْ لَكُمْ يا نوح، ونُقِرُّ بتصديقك فيما تَدْعُونَا إِلَيْهِ، وإنما اتَّبَعَكَ مِنَ الْأَرْذَلُونَ دونَ ذوي الشرفِ وأهلِ البيوتات. «قال وَمَا عَلَّمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» قال نوح لقومه: وما علمي بما كان أتباعي يعملون، إنما لي منهم ظاهراً أمرهم دونَ باطنه، ولم أكلّف عِلْمَ باطنهم، وإنما كلفت الظاهر، فَمَنْ أَظْهَرَ حسناً ظننتُ به حسناً، وَمَنْ أَظْهَرَ سيئاً ظننتُ به سيئاً.

الشعراء: ١١٣-١٢٠

«إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ» يقول: إن حساب باطن أمرهم الذي خفي عني إلا على ربي لو تشعرون، فإنه يعلم سر أمرهم وعلايته.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ

﴿١١٥﴾ قَالُوا لَيْنَ لَمْ تَنْتَهِ يَلْنُوحْ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾

يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيل نوح لقومه: وما أنا بطارِدٍ مَنْ آمَنَ باللهِ واتبعني على التصديق بما جئتُ به من عند الله. «إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ»، يقول: ما أنا إلا نذيرٌ لكم من عند ربكم أنذركم بأسه، وسطوته على كفركم به مبين: يقول: نذيرٌ قد أبان لكم إنذاره، ولم يكتمكم نصيحته. «قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ»، يقول: قال لنوح قومه: لئن لم تنته يا نوح عما تقول، وتدعو إليه، وتعيبُ به آلهتنا، لتكوننَّ من المشتومين، يقول: لنشتمك.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَأَفْتَحَ بَيْنِي

وَبَيْنَهُمْ فَتَحَاوَجَجَنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِ

الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾

يقول تعالى ذكره: قال نوح: «رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ» فيما أتيتهم به من الحق من عندك، وردوا عليَّ نصيحتي لهم. «فَأَفْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَحًا»، يقول: فاحكم بيني وبينهم حكماً من عندك تُهلك به المُبْطِلَ، وتنتقم به ممن كفر بك وجحد توحيدك، وكذب رسولك. «وَنَجَّيْنِي»، يقول: ونجني من ذلك العذاب الذي تأتي به حكماً بيني وبينهم. «وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ»، يقول: والذين معي من أهل الإيمان بك والتصديق لي.

وقوله: «فَانَجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ»، يقول: فانجينا نوحاً وَمَنْ مَعَهُ من المؤمنين حين فتحنا بينهم وبين قومهم، وأنزلنا بأسنا بالقوم الكافرين في الفلك المشحون، يعني في السفينة الموقرة المملوءة.
وقوله: «ثُمَّ أَعْرَفْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ» من قومه الذين كذبوه، وردوا عليه النصيحة.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾

يقول تعالى ذكره: إِنْ فِيمَا فَعَلْنَا يَا مُحَمَّدُ بِنُوحٍ وَمَنْ مَعَهُ من المؤمنين في الفلك المشحون، حين أنزلنا بأسنا وسَطُونَا، بقومه الذين كذبوه، آيَةٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ الْمُصَدِّقُكَ مِنْهُمْ وَالْمَكْذُوبُكَ، فِي أَنْ سَتْنَا نَجِيَّةً رَسَلْنَا وَأَتْبَاعَهُمْ، إِذَا نَزَلَتْ نَقْمَتُنَا بِالْمَكْذِبِينَ بِهِمْ مِنْ قَوْمِهِمْ، وَإِهْلَاكَ الْمَكْذِبِينَ بِاللَّهِ، وَكَذَلِكَ سَتِّي فِيكَ وَفِي قَوْمِكَ. «وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ»، يَقُولُ: وَلَمْ يَكُنْ أَكْثَرُ قَوْمِكَ بِالَّذِينَ يَصَدِّقُونَكَ مِمَّا سَبَقَ فِي قَضَائِهِ اللَّهُ أَنَّهُمْ لَنْ يُؤْمِنُوا «وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ» فِي انتقامه مِمَّنْ كَفَرُوا بِهِ، وَخَالَفَ أَمْرَهُ. «الرَّحِيمُ» بِالتَّائِبِينَ مِنْهُمْ، أَنْ يَعَاقِبَهُ بَعْدَ تَوْبَتِهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَانْقُوا لِلَّهِ وَأَطِيعُوا ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾

يقول تعالى ذكره: «كَذَّبَتْ عَادُ» رُسُلَ اللَّهِ إِلَيْهِمْ «إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ عِقَابَ اللَّهِ عَلَى كُفْرِكُمْ بِهِ. «إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ» مِنْ رَبِّي بِأَمْرِكُمْ بِطَاعَتِهِ،

الشعراء: ١٢٧-١٣٠

وَيَحْذَرُكُمْ عَلَى كُفْرِكُمْ بِأَسْءُ، «أَمِينَ» عَلَى وَحْيِهِ وَرِسَالَتِهِ «فَاتَّقُوا اللَّهَ» بِطَاعَتِهِ وَالْإِنْتِهَاءِ إِلَى مَا يَأْمُرُكُمْ وَيَنْهَاكُمْ «وَأَطِيعُوا» فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ مِنْ اتِّقَاءِ اللَّهِ وَتَحْذِيرِكُمْ سَطَوْتِهِ. «وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ»، يَقُولُ: وَمَا أَطْلُبُ مِنْكُمْ عَلَى أَمْرِي إِيَّاكُمْ بِاتِّقَاءِ اللَّهِ جِزَاءً وَلَا ثَوَاباً. «إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ»، يَقُولُ: مَا جَزَائِي وَثَوَابِي عَلَى نَصِيحَتِي إِيَّاكُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَتَّبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ مَخْبِراً عَنْ قِيلِ هُودٍ لِقَوْمِهِ: «أَتَّبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ»، والرِّيعُ: كُلُّ مَكَانٍ مُشْرِفٍ مِنَ الْأَرْضِ مُرْتَفِعٍ، وَيَعْنِي بِقَوْلِهِ «آيَةً» بِنْيَاناً، عَلَماً. وَقَدْ بَيَّنَّا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِنَا هَذَا، أَنَّ الْآيَةَ هِيَ الدَّلَالَةُ وَالْعَلَامَةُ بِمَا أَغْنَى مِنْ إِعَادَتِهِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ.

وقوله: «تَعْبَثُونَ»، قال: تلعبون.

وقوله: «وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ» اختلف أهل التأويل في معنى المصانع، فقال بعضهم: هي قصور مُشِيدَةٌ.

وقال آخرون: بل هي مآخذُ للماء.

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إِنَّ المصانعَ جمعُ مصنعة، والعربُ تسمي كل بناء مصنعة، وجائزُ أن يكون ذلك البناءُ كان قصوراً وحصوناً مشيدة، وجائزُ أن يكون كان مآخذَ للماء، ولا خبرَ يقطعُ العُدْرَ بأيُّ ذلك كان، ولا هو مما يُدْرِكُ مِنْ جِهَةِ الْعَقْلِ، فالصواب أن يقال فيه، ما قال الله: إِنَّهُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ.

وقوله: «لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ»، يقولُ: كأنكم تخلدون، فتبقون في الأرض.

وقوله: «وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ»، يقول: وإذا سطوتم سطوتم قتلاً بالسيوف، وضرباً بالسياط.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ١٣١ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ١٣٢ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَمِ وَبَيْنَ ١٣٣ وَحَنَّتِ وَعَيُونَ ١٣٤ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ١٣٥

يقول تعالى ذكره مجبراً عن قِيلِ هُوَ لِقَوْمِهِ مِنْ عَادٍ: اتقوا عقابَ الله أيها القوم بطاعتكم إياه فيما أَمَرَكُم ونهاكم، وانتهوا عن اللهو واللعب، وظلم الناس، وقهرهم بالغلبة والفساد في الأرض، واحذروا سخطَ الذي أعطاكم من عنده ما تعلمون، وأعانكم به من بين المواشي والبنين والبساتين والأنهار. «إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ» من الله «عَظِيمٍ».

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ أَسْوَءُ عَلَيْنَا أَوْ عَظُتْ أَمَلَتْ تَكُنْ مِنَ الْوَعِظِينَ ١٣٦ إِنَّ هَذَا الْأَخْلُقُ الْأَوَّلِينَ ١٣٧ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ١٣٨

يقول تعالى ذكره: قالت عادُ لنبیهم هودٌ عليه السلام: معتدلٌ عندنا وعظُّك إيانا، وترْكُك الوعظَ، فلن نؤمنَ لك ولن نصدَّقَكَ على ما جئتنا به.

وقوله: «إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ»، اختلفت القراءةُ في قراءة ذلك؛ فقرأته عامة قُرأة المدينة سوى أبي جعفر؛ وعامة قُرأة الكوفة المتأخرين منهم «إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ» من قَبْلَنَا. وقرأ ذلك أبو جعفر، وأبو عمرو بن العلاء «إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ» بفتح الخاء وتسكين اللام بمعنى: ما هذا الذي جئنا به إلا كذب الأولين وأحاديثهم.

واختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، نحو اختلاف القراء في قراءته،

فقال بعضهم: معناه: ما هذا إلا دين الأولين وعاداتهم وأخلاقهم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك، ما هذا إلا كذب الأولين وأساطيرهم.

وأولى القراءتين في ذلك بالصواب قراءة من قرأ: «إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ» بضم الخاء واللام بمعنى: إن هذا إلا عادة الأولين ودينهم، كما قال ابن عباس، لأنهم إنما عُوتِبُوا على البنيان الذي كانوا يتخذونه، وبطشهم بالناس بطش الجبابة، وقلة شكرهم ربهم فيما أنعم عليهم، فأجابوا نبيهم بأنهم يفعلون ما يفعلون من ذلك، احتذاءً منهم سنة من قبلهم من الأمم، واقتفاء منهم آثارهم، فقالوا: ما هذا الذي نفعله إلا خُلُقُ الأولين، يعنون بالخلق: عادة الأولين. ويزيد ذلك بياناً وتصحيحاً لما اخترنا من القراءة والتأويل قولهم: «وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ» لأنهم لو كانوا لا يُقَرُّون بأن لهم رباً يقدر على تعذيبهم، ما قالوا: «وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ» بل كانوا يقولون: إن هذا الذي جئنا به يا هود إلا خُلُقُ الأولين، وما لنا من معذبٍ يعذبنا، ولكنهم كانوا مُقَرِّين بالصانع، ويعبدون الآلهة، على نحو ما كان مشركو العرب يعبدونها. ويقولون: إنها تُقَرِّبُنَا إلى الله رُفْقَى، فلذلك قالوا لهود وهم منكرون نبوته «سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ»، ثم قالوا له: ما هذا الذي نفعله إلا عادة من قبلنا وأخلاقهم، وما الله مُعَذِّبنا عليه. كما أخبرنا تعالى ذكره عن الأمم الخالية قبلنا، أنهم كانوا يقولون لرسولهم: «إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ» [الزخرف: ٢٣].

القول في تأويل قوله تعالى: فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا

كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾

يقول تعالى ذكره: فكذبت عاد رسول ربهم هوداً، والهاء في قوله: «فَكَذَّبُوهُ» من ذكر هود «فَأَهْلَكْنَاهُمْ»، يقول: فأهلكنا عاداً بتكذيبهم رسولنا «إِنَّ

فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ، يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: إِنَّ فِي إِهْلَاكِنَا عَادًا بِتَكْذِيبِهَا رَسُولَهَا، لَعِبْرَةً وَمَوْعِظَةً لِقَوْمِكَ يَا مُحَمَّدُ، الْمُكَذِّبِيكَ فِيمَا أُتِيَتْهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّكَ. «وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ»، يَقُولُ: وَمَا كَانَ أَكْثَرَ مَنْ أَهْلَكْنَا بِالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ فِي سَابِقِ عِلْمِ اللَّهِ «وَأَنَّ رَبَّكَ لَهْوُ الْعَزِيزِ» فِي انتِقَامِهِ مِنْ أَعْدَائِهِ، الرَّحِيمِ بِالْمُؤْمِنِينَ بِهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: كَذَبْتَ ثُمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: كَذَبْتَ ثُمُودُ رُسُلِ اللَّهِ، إِذْ دَعَاهُمْ صَالِحٌ أَخُوهُمْ إِلَى اللَّهِ، فَقَالَ لَهُمْ: أَلَا تَتَّقُونَ عِقَابَ اللَّهِ يَا قَوْمَ عَلَى مَعْصِيَتِكُمْ إِيَّاهُ، وَخِلَافِكُمْ أَمْرَهُ، بِطَاعَتِكُمْ أَمْرَ الْمَافْسِدِينَ فِي أَرْضِ اللَّهِ، «إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ» مِنْ اللَّهِ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ بِتَحْذِيرِكُمْ عَقُوبَتَهُ عَلَى خِلَافِكُمْ أَمْرَهُ «أَمِينٌ» عَلَى رِسَالَتِهِ الَّتِي أَرْسَلَهَا مَعِيَ إِلَيْكُمْ «فَاتَّقُوا اللَّهَ» أَيُّهَا الْقَوْمُ، وَاحْذَرُوا عِقَابَهُ «وَأَطِيعُوا» فِي تَحْذِيرِي إِيَّاكُمْ، وَأَمْرِي بِكُمْ بِاتِّبَاعِ طَاعَتِهِ. «وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ»، يَقُولُ: وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَى نُصْحِي إِيَّاكُمْ، وَإِنْ ذَارَكُمْ مِنْ جَزَاءٍ وَلَا ثَوَابٍ «إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ»، يَقُولُ: إِنْ جَزَائِي وَثَوَابِي إِلَّا عَلَى رَبِّ جَمِيعِ مَا فِي السَّمَوَاتِ، وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ خَلْقٍ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَلَنْتُمْ أَمِينٌ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلَعَتْ هَاضِمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٥٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ مخبراً عن قِيلِ صالحٍ لقومه من ثمود: أيتركم يا قوم رَبُّكُمْ في هذه الدنيا آمين، لا تخافون شيئاً. «في جَنَاتٍ وَعُيُونٍ»، يقول: في بساتين وعيونٍ ماءٍ «وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ».

واختلف أهل التأويل في معنى قوله: «هَضِيمٌ»، فقال بعضهم: معناه اليناع النضيج.

وقال آخرون: بل هو الْمُتَهَشَّمُ المتفتت.

وقال آخرون: هو الرطب اللين.

وقال آخرون: هو الراكب بعضه بعضاً.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: الهضيم: هو الْمُتَكَسِّرُ من لينه ورطوبته، وذلك من قولهم: هضم فلان حقه: إذا انتقصه وتَحَفَّفه، فكَذلك الهضم في الطلع، إنما هو التَّقْصُصُ منه من رطوبته ولينه إما بمسِّ الأيدي، وإما بركوب بعضه بعضاً، وأصله مفعول صرف إلى فاعل.

وقوله: «وَتَنَحُّونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وتتخذون من الجبال بيوتاً، فاختلقت القَرَاءَةُ في قراءة قوله: «فَارِهِينَ» فقرأته عامة قَرَاءَةُ أهل الكوفة «فَارِهِينَ» بمعنى: حاذقين بنحتها. وقراءته عامة قَرَاءَةُ أهل المدينة والبصرة «فَرِهِينَ» بغير ألف، بمعنى أَشْرِينَ بِطَرِينَ.

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن قراءة مَنْ قرأها «فَارِهِينَ» وقراءة من قرأ «فَرِهِينَ» قراءتان معروفتان، مستفيضَةُ القراءة بكلِّ واحدةٍ منهما في علماء القَرَاءَةِ، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب. ومعنى قراءة من قرأ «فَارِهِينَ»: حاذقين بنحتها، مُتَخَيِّرِينَ لمواضعِ نحتها، كَيْسِينَ، من الفراهة. ومعنى قراءة من قرأ «فَرِهِينَ»: مَرَحِينَ أَشْرِينَ. وقد يجوز أن يكون معنى فارهِ وفَرهِ واحداً، فيكون فارهِ مبنياً على بنائه، وأصله من فعل يفعل، ويكون فَرهِ صفةً، كما

يقال: فلانٌ حاذقٌ بهذا الأمرِ وحَذَقَ.

وقوله: «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا»، يقول تعالى ذِكْرُه: فاتقوا عقابَ الله أيها القومُ على معصيتكم رَبِّكم، وخلافِكُمْ أمره، وأطيعون في نصيحتي لكم، وإنذارِي إياكم عقابَ الله ترشدوا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلٍ صالحٍ لقومه من ثمود: لا تطيعوا أيها القومُ أمرَ المفسرينَ على أنفسهم في تماديهم في معصية الله، واجترائهم على سخطه، وهم الرهطُ التسعةُ الذين كانوا يفسدون في الأرض، ولا يصلحون من ثمود الذين وَصَفَهُمُ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ بقوله: «وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ» [النمل: ٤٨]، يقول: الذين يسعون في أرضِ الله بمعاصيه، ولا يصلحون، يقول: ولا يصلحون أنفسهم بالعملِ بطاعة الله.

وقوله: «إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ»، اختلف أهلُ التأويل في تأويله، فقال بعضهم: معناه: إنما أَنْتَ من المسحورين، وهو قول مجاهد.

وقال آخرون: معناه: من المخلوقين، وهو قول ابن عباس.

والصواب من القول في ذلك عندي القول الذي ذكرته عن ابن عباس، أَنَّ معناه: إنما أَنْتَ من المخلوقين الذين يعملون بالطعام والشراب مثلنا، ولستَ رباً ولا ملكاً فنطيعك، ونعلم أنك صادقٌ فيما تقول، والمسحَرُ: المفعول من السحرة، وهو الذي له سحرة.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بَآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا

تَمَسُّوْهَا بِسَوْءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ مخبراً عن قِيلِ ثمود لنبیها صالح «ما أَنْتَ» يا صالح «إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا» من بني آدم تَأْكُلُ ما نَأْكُلُ، وتشْرِبُ ما نشْرِبُ، ولست بربِّ ولا ملكٍ، فَعَلَّامٌ نَتَّبِعُكَ، فَإِنْ كُنْتَ صادقاً في قِيلِكَ، وَأَنْ الله أَرْسَلَكَ إلینَا «فَأْتِ بآیةٍ»، یعنی: بدلالةٍ وحجةٍ على أَنَّكَ محقٌّ فيما تقولُ، إِنْ كُنْتَ ممن صدقنا في دعواه أَنَّ الله أَرْسَلَهُ إلینَا.

وقوله: «قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال صالح لثمود لما سألوهُ آیةً يعلمون بها صِدْقَهُ، فَأَتَاهُم بَنَاقَةٍ أَخْرَجَهَا مِنْ صَخْرَةٍ أَوْ هَضْبَةٍ: هذه ناقة يا قوم، لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ مِثْلُهُ شِرْبُ يَوْمٍ آخِرٍ. معلومٌ ما لكم من الشرب، ليس لكم في يومٍ وَزِدْهَا أَنْ تشربوا من شِرْبِها شيئاً، ولا لَهَا أَنْ تشربَ في يومكم ممَّا لكم شيئاً. ويعني بالشرب: الحظُّ والنصيب من الماء، يقول: لَهَا حظٌّ من الماء، ولكم مِثْلُهُ، والشُّرْبُ والشُّرْبُ مصادر كلها بالضم والفتح والكسر.

وقوله: «وَلَا تَمَسُّوْهَا بِسَوْءٍ»، يقول: لَا تَمَسُّوْهَا بما يؤذيها من عَفْرِ وقَتْلِ ونحو ذلك.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾
فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فخالفت ثمود أمرَ نَبِيِّها صالح ﷺ، فعقروا الناقة التي قال لهم صالح: لَا تَمَسُّوْهَا بِسَوْءٍ، فأصبحوا نادمين على عقرها، فلم ينفعهم

ندمهم، وأخذهم عذابُ الله الذي كان صالحَ تَوَعَّدُهُمْ به فأهلكهم «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً»، يقول: إِنَّ فِي إِهْلَاكِ ثَمُودَ بما فعلتُ من عقرها ناقةَ الله وخلافها أمرَ نبيِّ الله صالحٍ لعبرةٍ لمن اعتبرَ به يا محمدُ من قومك. «وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ»، يقول: وَلَنْ يُؤْمِنَ أَكْثَرُهُمْ فِي سَابِقِ عِلْمِ اللَّهِ «وَإِنَّ رَبَّكَ» يا محمدُ «لَهُوَ الْعَزِيزُ» فِي انتقامه من أعدائه «الرَّحِيمُ» بِمَنْ آمَنَ به من خَلْقِهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: «كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ» مَنْ أَرْسَلَهُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ مِنَ الرُّسُلِ حِينَ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ: «أَلَا تَتَّقُونَ» اللَّهُ أَيُّهَا الْقَوْمُ «إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ» مِنْ رَبِّكُمْ «أَمِينٌ» عَلَى وَحْيِهِ، وَتَبْلِيغِ رِسَالَتِهِ «فَاتَّقُوا اللَّهَ» فِي أَنْفُسِكُمْ، أَنْ يَحْلُ بِكُمْ عِقَابُهُ عَلَى تَكْذِيبِكُمْ رَسُولَهُ «وَأَطِيعُوا» فِيمَا دَعَاكُمْ إِلَيْهِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرِّشَادِ: «وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ»، يَقُولُ: وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَى نَصِيحَتِي لَكُمْ وَدَعَايَتِكُمْ إِلَى رَبِّي جَزَاءٌ وَلَا ثَوَابًا. «إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ»، يَقُولُ: مَا جَزَائِي عَلَى دَعَايَتِكُمْ إِلَى اللَّهِ، وَعَلَى نَصِيحِي لَكُمْ وَتَبْلِيغِ رِسَالَاتِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ، إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾

يعني بقوله: «أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ»: أَتُنْكَحُونَ الذُّكْرَانَ مِنْ بَنِي

آدمَ في أدبارهم.

وقوله: «وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ»، يقول: وتَدْعُونَ الذي خلق لكم رَبُّكُمْ من أَرْوَاجِكُمْ من فروجهنَّ، فأحلَّهُ لكم.
وقوله: «بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ»، يقول: بل أنتم قومٌ تتجاوزون ما أباح لكم رَبُّكُمْ، وأحلَّهُ لكم من الفروجِ إلى ما حَرَّمَ عليكم منها.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالُوا لَيْنَ لَمْ تَنْتَهَ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ

الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: قال قوم لوط: «لَيْنَ لَمْ تَنْتَهَ يَا لُوطُ» عن نَهْيِنَا عن إتيانِ الذِّكْرَانِ «لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ» من بين أَظْهَرِنَا وَبَلَدِنَا «قال إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ»، يقول لهم لوط: إِنِّي لِعَمَلِكُمْ الذي تعملونه من إتيانِ الذِّكْرَانِ في أدبارهم من القالين، يعني من المُبْغِضِينَ، المُنْكَرِينَ فعله.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَجَنَّبْنَاهُ

وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: فاستغاثَ لوطُ حينَ تَوَعَّدَهُ قَوْمُهُ بالإخراجِ من بلدهم إِنْ هُوَ لَمْ يَنْتَهَ عن نهيهم عن ركوبِ الفاحشة، فقال: «رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي» من عقوبتك إياهم على ما يعملون من إتيانِ الذِّكْرَانِ «فَجَنَّبْنَاهُ وَأَهْلَهُ» من عقوبتنا التي عاقبنا بها قومَ لوطِ «أَجْمَعِينَ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ»، يعني في الباقيين، لطولِ مرورِ السنين عليها، فصارتِ هَرَمَةً، فإنها أَهْلَكَتْ من بينِ أَهْلِ لوطِ، لأنها كانت تدلُّ قومَها على الأضيافِ. وقد قيل: إنما قيل من الغابرينَ لأنها لم تهلك مع قومها في قريتهم، وإنما إنما أصابها الحجرُ بعدما خرجتُ عن قريتهم مع

لوطٍ وابنتيه، فكانت من الغابرين بعد قومها، ثم أهلكها الله بما أمطرَ على بقايا قومِ لوطٍ من الحجارة، وقد بيَّنا ذلك فيما مضى بما أغنى عن إعادته.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧١﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ثم أهلكنا الآخرين من قومِ لوطٍ بالتدمير «وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا» وذلك إرسال الله عليهم حجارةً من سِجِّيلٍ من السماء «فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ»، يقول: فبشَسَ ذلك المطرُ مَطَرُ القومِ الذين أُنذِرهم نَبِيُّهم فكذَّبُوهُ. «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً»، يقول تعالى ذِكْرُه: إِنَّ فِي إِهْلَاكِنَا قَوْمَ لوطٍ الهلاك الذي وَصَفْنَا بتكذيبهم رسولَنَا، لعبرةً وموعظةً لقومِكَ يا محمد، يَتَعَطُّونَ بها في تكذيبهم إِيَّاكَ، وَرَدَّهم عَلَيْكَ ما جِئْتهم به من عِنْدِ رَبِّكَ من الحقِّ «وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ» في سابقِ عِلْمِ الله «وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ» بمن آمنَ به.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَنْقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا

يقول تعالى ذِكْرُه: «كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ»، والأَيْكَةُ: الشجرُ الْمُتَلْتَفُ، وهي واحدة الأيكة.

وأصحاب الأيكة: هم أهلُ مَدْيَنَ فيما ذُكِر.

وقوله: «إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ»، يقول تعالى ذكره: قال لهم شعيب: ألا تتقون عقاب الله على معصيتكم ربكم «إِنِّي لَكُمْ» من الله «رَسُولٌ أَمِينٌ» على وحيه «فَاتَّقُوا» عقاب الله على خلافكم أمره «وَأَطِيعُوا» ترشدوا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾

يقول: «وَمَا أَسْأَلُكُمْ» على نُضحي لكم من جزاء وثواب، ما جزائي وثوابي على ذلك «إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ». أَوْفُوا الْكَيْلَ، يقول: أوفوا الناس حقوقهم من الكيل. «وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ»، يقول: ولا تكونوا ممن نقصهم حقوقهم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾

يعني بقوله: «وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ» وزنوا بالميزان «الْمُسْتَقِيمِ» الذي لا يخس فيه على من وزنتم له «وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ»، يقول: ولا تنقصوا الناس حقوقهم في الكيل والوزن «وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ»، يقول: ولا تكثرُوا في الأرض الفساد.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِيلَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَذِبِيِّينَ ﴿١٨٦﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ

الصَّادِقِينَ ١٨٧

يقول تعالى ذِكْرَهُ: «وَاتَّقُوا أَيُّهَا الْقَوْمُ عِقَابَ رَبِّكُمْ «الَّذِي خَلَقَكُمْ، وَ» خَلَقَ «الْجِبِلَّةَ الْأُولِينَ» يعني بِالْجِبِلَّةِ: الْخَلْقُ الْأَوَّلِينَ.

وقوله: «قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ»، يقول: قالوا: إِنَّمَا أَنْتَ يَا شُعَيْبٌ مَعْلَلٌ تَعْلَلُ بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، كَمَا نَعْلَلُ بِهِمَا، وَلَسْتَ مَلَكًا «وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا» تَأْكُلُ وَتَشْرَبُ «وَأَنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ»، يقول: وَمَا نَحْسِبُكَ فِيمَا تُخْبِرُنَا وَتَدْعُونَا إِلَيْهِ، إِلَّا مِمَّنْ يَكْذِبُ فِيمَا يَقُولُ، فَإِنْ كُنْتَ صَادِقًا فِيمَا تَقُولُ بِأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ كَمَا تَزْعُمُ. «فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ»، يعني قِطْعًا مِنَ السَّمَاءِ، وَهِيَ جَمْعُ كِسْفَةٍ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: قَالَ شُعَيْبٌ لِقَوْمِهِ: «رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ»، يقول: بِأَعْمَالِهِمْ هُوَ بِهَا مُحِيطٌ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهَا شَيْءٌ، وَهُوَ مُجَازِيكُم بِهَا جَزَاءَكُمْ. «فَكَذَّبُوهُ»، يقول: فَكَذَّبَهُ قَوْمُهُ «فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ»، يعني بِالظُّلَّةِ: سَحَابَةٌ ظَلَّلَتْهُمْ، فَلَمَّا تَنَاقَرُوا تَحْتَهَا تَهَبَّتْ عَلَيْهِمْ نَارًا وَأَحْرَقَتْهُمْ.

وقوله: «إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ»، يقول تعالى ذِكْرَهُ: إِنَّ عَذَابَ يَوْمِ الظُّلَّةِ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ لِقَوْمٍ شُعَيْبٍ عَظِيمٍ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ

﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْعِظٌ رَحِيمٌ ﴿١٩١﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: إِنَّ فِي تَعْدِينَا قَوْمَ شُعَيْبٍ عَذَابَ يَوْمِ الظُّلَّةِ بِتَكْذِيبِهِمْ

الشعراء: ١٩١-١٩٥

نبيهم شعبياً لآية لقومك يا محمد، وعبرة لمن اعتبر، إن اعتبروا أن ستننا فيهم بتكذيبهم إياك ستننا في أصحاب الأيكة. «وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ» في سابقِ عِلْمِنَا فِيهِمْ «وَأَنَّ رَبَّكَ» يا محمد «لَهُوَ الْعَزِيزُ» في نَقْمَتِهِ مِمَّنْ انتَقَمَ مِنْهُ مِنْ أَعْدَائِهِ «الرَّحِيمُ» بِمَنْ تَابَ مِنْ خَلْقِهِ، وَأَنَابَ إِلَى طَاعَتِهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **وَلَنَنزِلُنَّ نَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٩٤ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ١٩٥ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ١٩٦ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ١٩٥**

يقول تعالى ذِكْرَهُ: وَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، والهاء في قوله: «وَلَنَنزِلُنَّ» كنايةُ الذِّكْرِ الذي في قوله: «وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ» [الشعراء: ٥].

واختلفت القِرَاءَةُ في قراءة قوله: «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ» فقراءته عامة قِرَاءَةُ الحجاز والبصرة «نَزَلَ بِهِ» مخففة «الرُّوحُ الْأَمِينُ» رفعاً بمعنى: أَنَّ الرُّوحَ الْأَمِينَ هو الذي نزل بالقرآن على محمد، وهو جبريل، وقرأ ذلك عامة قِرَاءَةُ أهل الكوفة «نَزَلَ» مشددة الزاي «الرُّوحُ الْأَمِينُ» نصباً، بمعنى: أَنَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِالْقُرْآنِ الرُّوحَ الْأَمِينَ، وهو جبريل عليه السلام.

والصوابُ من القول في ذلك عندنا أَنَّ يُقَالُ: إِنَهُمَا قِرَاءَتَانِ مُسْتَفِضَتَانِ فِي قِرَاءَةِ الْأَمْصَارِ، مُتَقَارِبَتَا الْمَعْنَى، فبَأَيْتَهُمَا قَرَأَ الْقَارِئُ فَمُصِيبٌ، وَذَلِكَ أَنَّ الرُّوحَ الْأَمِينَ إِذَا نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ بِالْقُرْآنِ، لَمْ يَنْزَلْ بِهِ إِلَّا بِأَمْرِ اللَّهِ إِيَّاهُ بِالنَّزُولِ، وَلَنْ يَجْهَلَ أَنَّ ذَلِكَ كَذَلِكَ دُوَ إِيْمَانٍ بِاللَّهِ، وَأَنَّ اللَّهَ إِذَا أَنْزَلَهُ بِهِ نَزَلَ.

وقوله: «عَلَى قَلْبِكَ»، يقول: نزل به الرُّوحُ الْأَمِينُ فتلاه عليك يا محمد، حتى وَعَيْتَهُ بِقَلْبِكَ.

وقوله: «لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ»، يقول: لتكون من رُسُلِ اللَّهِ الَّذِينَ كَانُوا

ينذرونَ مَنْ أُرْسِلُوا إِلَيْهِ مِنْ قَوْمِهِمْ، فتَنذَرُ بهذا التنزيلِ قَوْمَكَ الْمَكْذِبِينَ بآياتِ الله .

وقوله: «بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ»، يقول: لتنذر قَوْمَكَ بلسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ، يبين لمن سمعه أنه عَرَبِيٌّ، وبلسانٍ العرب نزل، والباء من قوله: «بِلِسَانٍ» من صِلَةٍ قوله: «نَزَلَ»، وإنما ذكر تعالى ذِكْرَهُ أنه نزل هذا القرآن بلسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ في هذا الموضع، إعلاماً منه مشرقي قريش أنه أنزله كذلك، لئلا يقولوا إنه نزل بغير لساننا، فنحن إنما نعرض عنه ولا نسمعه، لأننا لا نفهمه، وإنما هذا تقرير لهم، وذلك أنه تعالى ذِكْرَهُ قال: «مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ» [الشعراء: ٥]، ثم قال: لم يُعْرَضُوا عنه لأنهم لا يفهمون معانيه، بل يفهمونها، لأنه تنزيلُ ربِّ العالمين نزل به الروحُ الأمينُ بلسانهم العَرَبِيَّ، ولكنهم أعرضوا عنه تكديماً به واستكباراً «فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيَهُمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ» [الشعراء: ٦] كما أتى هذه الأمم التي قَصَصْنَا نَبَأَهَا في هذه السورة حين كَذَّبَتْ رُسُلَهَا أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يُكْذِبُونَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَئِنَّهُ لَفِي زُبْرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوْ لَرَبُّكَ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: وإن هذا القرآن لفي زُبْرِ الْأَوَّلِينَ: يعني في كُتُبِ الْأَوَّلِينَ، وخرج مَخْرَجَ العموم ومعناه الخصوص، وإنما هو: وإن هذا القرآن لفي بعضِ زبرِ الْأَوَّلِينَ، يعني: أن ذِكْرَهُ وَخَبْرَهُ في بعضِ ما نزل من الكتبِ على بعضِ رسله.

وقوله: «أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: أو لم يكن لهؤلاء المُعْرِضِينَ عما يَأْتِيكَ يا مُحَمَّدٌ من ذكر ربك، دلالةً على أنك رسولُ ربِّ العالمين، أن يعلم حقيقة ذلك وصِحَّتُهُ علماء بني إسرائيل. وقيل: عَنَى بعلماء بني إسرائيل في هذا الموضع: عبدالله بن سلام وَمَنْ أَشَبَّهُهُ مِمَّنْ كَانَ قَدْ آمَنَ برسولِ الله ﷺ من بني إسرائيل في عصره.

وقوله: «وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولو نَزَّلْنَاهُ هذا القرآنَ على بعضِ البهائمِ التي لا تنطق، وإنما قيل على بعض الأعجمين، ولم يقل على بعض الأعجميين، لأنَّ العربَ تقول إذا نَعَتَتِ الرجلَ بالعُجْمَةِ وأنه لا يفصح بالعربية: هذا رجل أعجم، وللمرأة: هذه امرأة عجماء، وللجماعة: هؤلاء قوم عُجْمٌ وأعجمون، وإذا أريد هذا المعنى وصف به العربي والأعجمي، لأنه إنما يعني أنه غير فصيح اللسان، وقد يكون كذلك، وهو من العرب. فأما إذا أُريدَ به نسبة الرجل إلى أصله من العجم، لا وصفه بأنه غير فصيح اللسان، فإنه يقال: هذا رجل عجمي، وهذان رجلان عجميان، وهؤلاء قوم عُجْمٌ، كما يقال: عربي، وعربيان، وقوم عرب. وإذا قيل: هذا رجل أعجمي، فإنما نسب إلى نفسه كما يقال للأحمر: هذا أحمر ضخم. وقوله: «فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ»، يقول: فقرأ هذا القرآنَ على كفارِ قومك يا مُحَمَّدُ الذين حتمتُ عليهم أن لا يؤمنوا ذلك الأعجمُ ما كانوا به مؤمنين: يقول: لم يكونوا ليؤمنوا به، لما قد جرى لهم في سابقِ عِلْمِي من الشقاء.

وهذا تسليّة من الله نبيه محمداً ﷺ عن قومه، لثلا يشتدَّ وَجَدُهُ بإدبارهم عنه، وإعراضهم عن الاستماع لهذا القرآن، لأنه كان ﷺ شديداً حَرِصُهُ على قبولهم منه، والدخول فيما دعاهم إليه، حتى عاتبه رَبُّهُ على شِدَّةِ حَرِصِهِ على ذلك منهم، فقال له: «لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ» [الشعراء: ٣]، ثم قال مُؤَيِّسُهُ من إيمانهم وأنهم هالكونَ ببعضِ مثلاته، كما هلك بعضُ الأمم

الذين قصّ عليهم قصصهم في هذه السورة، ولو نزلناه على بعض الأعجمين يا محمد لا عليك، فإنك رجل منهم، ويقولون لك: ما أنت إلا بشر مثلنا، وهلاً نزل به ملك، فقرأ ذلك الأعجم عليهم هذا القرآن، ولم يكن لهم علة يدفعون بها أنه حق، وأنه تنزيل من عندي، ما كانوا به مُصدّقين، فحَفُض من حِرْصِكَ على إيمانهم به، ثم وكَّد تعالى ذِكْرَهُ الخبر عما قد حَتَمَ على هؤلاء المشركين، الذين آيسَ نبيه محمداً ﷺ من إيمانهم من الشقاء والبلاء، فقال: كما حتمنا على هؤلاء أنهم لا يؤمنون بهذا القرآن «وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ» فقرأه عليهم «كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ» التَّكْذِيبَ والكُفْرَ «فِي قُلُوبِ الْمَجْرِمِينَ». ويعني بقوله: سلكننا: أدخلنا، والهاء في قوله «سَلَكْنَاهُ» كناية من ذكر قوله: «ما كانوا به مُؤْمِنِينَ»، كأنه قال: كذلك أدخلنا في قلوب المجرمين ترك الإيمان بهذا القرآن.

وقوله: «لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ»، يقول: فعلنا ذلك بهم لئلا يُصدِّقوا بهذا القرآن، حتى يروا العذابَ الأليمَ في عاجل الدنيا، كما رأت ذلك الأمم الذين قصّ الله قصصهم في هذه السورة.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ** ﴿٢٠٢﴾
فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ **أَفِيعَادِئِنَا يَسْتَعْجِلُونَ** ﴿٢٠٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فَيَأْتِي هَؤُلَاءِ الْمَكْذِبِينَ بهذا القرآن، العذابُ الأليمُ بَغْتَةً، يعني فجأة. «وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ»، يقول: لا يعلمون قبل ذلك بمجيئه حتى يفجأهم بَغْتَةً «فَيَقُولُوا» حين يَأْتِيهِمْ بَغْتَةً «هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ»: أي هل نحن مؤخَّرُنا العذاب، ومُنْسَأً في آجالنا لِثُوبٍ، وَنُيَّبَ إلى الله من شِرْكنا وَكُفْرنا بالله، فنراجع الإيمان به، ونُيَّب إلى طاعته.

وقوله: «أَفَعَذَابُنَا يَسْتَعْجِلُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: أفعذابنا هؤلاء المشركون يستعجلون بقولهم: لن نؤمن لك حتى تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ ﴿٢٠٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ثم جاءهم العذاب الذي كانوا يُوعَدُونَ على كُفْرِهِم بآياتنا، وتكذيبهم رسولنا، «ما أَغْنَىٰ عَنْهُمْ»، يقول: أي شيء أغنى عنهم التأخير الذي أخرنا في آجالهم، والمتاع الذي مَتَّعْنَاهُمْ به من الحياة، إذ لم يتوبوا من شركهم، هل زادهم تمتيعنا إياهم ذلك إلا خبالاً، وهل نفعهم شيئاً، بل ضَرَّهُمْ بازديادهم من الآثام، واكتسابهم من الإجمام ما لو لم يُمْتَعُوا لم يكتسبوه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا نَنْزِلُ بِهِ الشَّيْطَانُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ ﴿٢١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ» من هذه القرى التي وصفت في هذه السور «إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ»، يقول: إلا بعد إرسالنا إليهم رسلاً يندرونهم بأسنا على كفرهم وسخطنا عليهم. «ذِكْرَىٰ»، يقول: إلا لها منذرون يندرونهم، تذكرة لهم وتنبيهاً لهم على ما فيه النجاة لهم من عذابنا.

قوله: «وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ»، يقول: وما كنا ظالمينهم في تعذيبناهم وإهلاكهم، لأننا إنما أهلكناهم، إذ عَتَوْا علينا، وكفروا نِعْمَتَنَا، وعبدوا غيرنا بعد

الإعذار عليهم والإنذار، ومتابعة الحجج عليهم بأن ذلك لا ينبغي أن يفعلوه، فأبوا إلا التماذي في الغي.

وقوله: «وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ»، يقول تعالى ذكره: وما تنزلت بهذا القرآن الشياطين على محمد، ولكنه ينزل به الروح الأمين «وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ»، يقول: وما ينبغي للشياطين أن ينزلوا به عليه، ولا يصلح لهم ذلك «وَمَا يَسْتَطِيعُونَ»، يقول: وما يستطيعون أن يتنزلوا به، لأنهم لا يصلون إلى استماعه في المكان الذي هو به من السماء «إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعَزُولُونَ»، يقول: إن الشياطين عن سماع القرآن من المكان الذي هو به من السماء لمعزولون، فكيف يستطيعون أن يتنزلوا به.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونُ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾

يقول تعالى ذكره لنبية محمد ﷺ «فَلَا تَدْعُ» يا محمد، «مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ»: أي لا تعبد معه معبوداً غيره «فَتَكُونُ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ» فينزل بك من العذاب ما نزل بهؤلاء الذين خالفوا أمرنا وعبدوا غيرنا.

وقوله: «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ»، يقول جل ثناؤه لنبية محمد ﷺ: وأنذر عشيرتك من قومك الأقربين إليك قرابةً، وحذرهم من عذابنا أن ينزل بهم بكفرهم.

وذكر أن هذه الآية لما نزلت، بدأ ببني جدّه عبدالمطلب وولده، فحذرهم وأنذرهم.

وقوله: «وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ»، يقول: وَالْأَنْ جَانِبَكَ وَكَلَامَكَ «لِمَنْ أَتَّبَعَكَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ».

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾

يقول تعالى ذكره: فَإِنْ عَصَيْتَكَ يَا مُحَمَّدُ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبُونَ الَّذِينَ أَمَرْتُكَ بِإِذَارِهِمْ، وَأَبَوْا إِلَّا الْإِقَامَةَ عَلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَالْإِشْرَاقَ بِالرَّحْمَنِ، فَقُلْ لَهُمْ: «إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ» مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَمَعْصِيَةِ بَارِي الْأَنَامِ «وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ» فِي نَقْمَتِهِ مِنْ أَعْدَائِهِ «الرَّحِيمِ» بِمَنْ أَنَابَ إِلَيْهِ وَتَابَ مِنْ مَعَاصِيهِ، «الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ»، يَقُولُ: الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ إِلَى صَلَاتِكَ.

«وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدِينَ»، اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي تَأْوِيلِ ذَلِكَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَى ذَلِكَ: وَيَرَى تَقْلُبُكَ فِي صَلَاتِكَ حِينَ تَقُومُ، ثُمَّ تَرْكِعُ، وَحِينَ تَسْجُدُ.

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ مَعْنَى ذَلِكَ: وَيَرَى تَقْلُبُكَ فِي الْمَصْلِينَ، وَإِبْصَارَكَ مِنْهُمْ مَنْ هُوَ خَلْفَكَ، كَمَا تَبْصُرُ مَنْ هُوَ بَيْنَ يَدَيْكَ مِنْهُمْ.

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ مَعْنَى ذَلِكَ: وَتَقْلُبُكَ مَعَ السَّاجِدِينَ: أَيِ تَصَرُّفَكَ مَعَهُمْ فِي الْجُلُوسِ وَالْقِيَامِ وَالْقُعُودِ.

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ مَعْنَى ذَلِكَ: وَيَرَى تَصَرُّفَكَ فِي النَّاسِ.

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ مَعْنَى ذَلِكَ: وَتَصَرُّفَكَ فِي أَحْوَالِكَ كَمَا كَانَتْ الْأَنْبِيَاءُ مِنْ قَبْلِكَ تَفْعَلُهُ، وَالسَّاجِدُونَ فِي قَوْلِ قَاتِلِ هَذَا الْقَوْلِ: الْأَنْبِيَاءُ.

الشعراء: ٢٢٠-٢٢٣

وأولى الأقوال في ذلك بتأويله قول مَنْ قال تأويله: ويرى تقلبك مع الساجدين في صلاتهم معك، حين تقوم معهم وتركع وتسجد، لأن ذلك هو الظاهر من معناه. فأما قول مَنْ وجهه إلى أن معناه: وتقلبك في الناس، فإنه قولٌ بعيد من المفهوم بظاهر التلاوة، وإن كان له وجه، لأنه وإن كان لا شيء إلا وظلّه يسجد لله، فإنه ليس المفهوم من قول القائل: فلان مع الساجدين، أو في الساجدين، أنه مع الناس أو فيهم، بل المفهوم بذلك أنه مع قوم سُجود، السجود المعروف، وتوجيه معاني كلام الله إلى الأغلب أولى من توجيهه إلى الأنكر، وكذلك أيضاً في قول مَنْ قال: معناه: تتقلب في أبصار الساجدين، وإن كان له وجه، فليس ذلك الظاهر من معانيه.

فتأويل الكلام إذن: وتوكل على العزيز الرحيم، الذي يراك حين تقوم إلى صلاتك، ويرى تقلبك في المؤمنين بك فيها بين قيامٍ وركوعٍ وسجودٍ وجلوسٍ.

وقوله: «إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ»، يقول تعالى ذكره: إن ربك هو السميع تلاتك يا محمد، وذكرك في صلاتك ما تتلو وتذكر، العليم بما تعمل فيها ويعمل فيها من يتقلب فيها معك مؤتماً بك، يقول: فرتل فيها القرآن، وأقم حدودها، فإنك بمرأى من ربك ومسمع.

القول في تأويل قوله تعالى: هَلْ أَنْبَيْتُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ
﴿١﴾ تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ آفَاقٍ شِيمٍ ﴿٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْتُرُهُمْ كَذِبًا ﴿٣﴾

يقول تعالى ذكره: «هَلْ أَنْبَيْتُكُمْ أيها الناس «على مَنْ تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ» من الناس؟ «تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ آفَاقٍ» يعني كذاب بهات «أشيم» يعني: آثم. وقوله: «يُلْقُونَ السَّمْعَ»، يقول تعالى ذكره: يلقي الشياطين السمع، وهو

الشعراء: ٢٢٣-٢٢٧

ما يسمعون مما استرقوا سمعهُ من حين حَدَثَ من السماء إلى «كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ» من أوليائِهِم من بني آدم.

وقوله: «وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ»، يقول: وأكثر من تَنَزَّلَ عليه الشياطين كاذبون فيما يقولون ويخبرون.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: والشعراء يتبعهم أهل الغي لا أهل الرشاد والهدى.

واختلف أهل التأويل في الذين وصفوا بالغي في هذا الموضع فقال بعضهم: رُؤَاةُ الشعر.

وقال آخرون: هم الشياطين.

وقال آخرون: هم السفهاء، وقالوا: نَزَلَ ذلك في رجلين تهاجيا على عهدِ رسولِ الله ﷺ.

وقال آخرون: هم ضلال الجن والإنس.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال فيه ما قال الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ: إن شعراء المشركين يتبعهم غواة الناس، وَمَرَدَةُ الشياطين، وَعُصَاةُ الْجِنِّ، وذلك أن الله عَمَّ بقوله: «وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ» فلم يخص بذلك بعض الغواة دون بعض، فذلك على جميع أصناف الغواة التي دخلت في عموم الآية.

قوله: «أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: أَلَمْ تَرِ يَا مُحَمَّدُ أَنَّهُمْ، يعني الشعراء في كُلِّ وَادٍ يذهبون، كالهائم على وجهه على غير قصدٍ، بل جائراً على الحقِّ، وطريق الرشاد، وقصد السبيل.

ولأنما هذا مَثَلٌ ضربه الله لهم في افتنانهم في الوجوه التي يفتنون فيها بغير حقٍّ، فيمدحون بالباطل قومًا ويهجون آخرين كذلك بالكذب والزور.

وقوله: «وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ»، يقول: وَأَنَّ أَكْثَرَ قِيلِهِمْ باطلٌ وكَذِبٌ.

وقوله: «إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» وهذا استثناء من قوله: «وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ - إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ». وَذَكَرَ أَنَّ هَذَا الاستثناء نزل في شعراء رسول الله ﷺ، كحسان بن ثابت، وكعب بن مالك، ثم هو لكل مَنْ كَانَ بِالصِّفَةِ الَّتِي وَصَفَهُ اللَّهُ بِهَا.

وقوله: «وَذَكِّرُوا اللَّهَ كَثِيرًا»، اختلف أهل التأويل في حال الذكر الذي وصف الله به هؤلاء المستثنين من الشعراء، فقال بعضهم: هي حال منطقتهم ومحاورتهم الناس، قالوا: معنى الكلام: وذكروا الله كثيراً في كلامهم. وقال آخرون: بل ذلك شِعْرُهُمْ.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إِنَّ اللَّهَ وَصَفَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اسْتَنَاهُمْ مِنْ شُعْرَاءِ الْمُؤْمِنِينَ بِذِكْرِ اللَّهِ كَثِيرًا، وَلَمْ يَخْصْ ذِكْرَهُمُ اللَّهُ عَلَى حَالٍ دُونَ حَالٍ فِي كِتَابِهِ، وَلَا عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ فَصِفَتُهُمْ أَنَّهُمْ يَذْكُرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا فِي كُلِّ أَحْوَالِهِمْ.

وقوله: «وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا»، يقول: وانتصروا مِنْ هَجَاؤِهِمْ مِنْ شُعْرَاءِ الْمُشْرِكِينَ ظُلْمًا بِشِعْرِهِمْ وَهَجَاؤِهِمْ إِيَّاهُمْ، وَإِجَابَتِهِمْ عَمَّا هَجَوْهُمْ بِهِ.

وقوله: «وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وسيعلم الذين ظلموا
أنفسهم بشركهم بالله من أهل مكة «أَيُّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ»، يقول: أي مرجع
يرجعون إليه، وأي معاد يعودون إليه بعد مماتهم، فإنهم يصيرون إلى نارٍ لا
يُطفأ سعيُّها، ولا يسكنُ لها بها.

سُورَةُ التَّوْبَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : طَسَّ يَلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابِ
مُبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ
وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾

وقد بينا القول فيما مضى من كتابنا هذا فيما كان من حروف المعجم في فواتح السور، فقوله: «طس» من ذلك^(١). وقد روي عن ابن عباس أن قوله: «طس»: قَسَمَ أَقْسَمَهُ اللَّهُ، هو من أسماء الله.

وقال بعضهم: «الطاء من اللطيف والسين من السميع»^(٢)، فالواجب على هذا القول أن يكون معناه: والسميع اللطيف، إن هذه الآيات التي أنزلتها إليك يا محمد لآيات القرآن، وآيات كتاب مبين. يقول: يبين لمن تدبره، وفكر فيه بفهم أنه من عند الله، أنزله إليك، لم تتخرصه أنت ولم تتقوله، ولا أحد سواك من خلق الله، لأنه لا يقدر أحد من الخلق أن يأتي بمثله، ولو تظاهر عليه الجن والإنس. وخفض قوله: «وكتاب مبين» عطفاً به على القرآن.

(١) انظر أول تفسير سورة البقرة.

(٢) وقع هنا سقط في المطبوعات والمخطوط، فاستدركنا ما بين الحاصرتين من (زاد

المسئ) لابن الجوزي ١٥٤/٦ ليتسق المعنى.

وقوله: «هُدًى» من صِفَةِ الْقُرْآنِ، يقول: هذه آياتُ الْقُرْآنِ بيانٌ من الله بَيِّنٌ به طريقَ الْحَقِّ وسبيلَ السَّلامِ. «وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ»، يقول: وبشارة لمن آمَنَ به، وصدَّقَ بما أنزل فيه بالفوز العظيم في المعاد.

وقوله: «وَالَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ»، يقول: هو هُدى وبُشْرَى لمن آمَنَ بها، وأقامَ الصَّلَاةَ المفروضةَ بحدودها.

وقوله: «وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ»، يقول: وَيُؤَدُّونَ الزَّكَاةَ المفروضة. وقيل: معناه: وَيُطَهِّرُونَ أجسادهم من دَنَسِ المعاصي. «وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ»، يقول: وهم مع إقامتهم الصَّلَاةَ، وإيتائهم الزَّكَاةَ الواجبةَ بالمعادِ إلى الله بعد المماتِ يُوقِنُونَ، فيذلون في طاعةِ الله، رجاءَ جَزِيلِ ثوابه، وخوفِ عَظِيمِ عقابه، وليسوا كالذين يَكْذِبُونَ بِالْبَعْثِ، ولا يبالون، أَحَسَّنُوا أَمْ أسَاؤُوا وأطاعوا، أَمْ عصوا، لأنهم إِنْ أَحَسَّنُوا لم يرجوا ثواباً، وَإِنْ أسَاؤُوا لم يخافوا عقاباً.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنْ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿١﴾ أَوَّلِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: إِنْ الَّذِينَ لَا يَصُدَّقُونَ بِالدارِ الْآخِرَةِ، وقيامِ السَّاعةِ، وبالمعادِ إلى الله بعد المماتِ والثوابِ، والعقابِ «زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ»، يقول: حَبَّبْنَا إِلَيْهِمْ قَبِيحَ أَعْمَالِهِمْ، وَسَهَّلْنَا ذَلِكَ عَلَيْهِمْ «فَهُمْ يَعْمَهُونَ»، يقول: فهم في ضلالِ أَعْمَالِهِم القبيحة التي زَيَّنَّاها لَهُمْ يتردَّدُونَ حيارى، يحسبون أنهم يحسنون.

وقوله: «أَوَّلِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: هؤلاء الذين لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا، وهم الذين قتلوا ببدر من مشركي

قريش. «وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ»، يقول: وهم يوم القيامة هم الأوضعون تجارةً والأكسوها باشرائهم الضلالة بالهدى. «فَمَا رِبَحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ» [البقرة: ١٦].

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِنَّكَ لَلْأَلْفَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَائِئِيكُمْ مِنْهَا خَبِيرٌ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَاءَ هَانُودِي أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: وَإِنَّكَ يَا مُحَمَّدُ لَتَحْفَظُ الْقُرْآنَ وتعلمه «مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ»، يقول: من عند حكيمٍ بتدبير خلقه، عليمٍ بأنباء خلقه ومصالحهم، والكائن من أمورهم، والماضي من أخبارهم، والحادث منها «إِذْ قَالَ مُوسَى وَإِذْ مِنْ صِلَةٍ عَلِيمٍ، ومعنى الكلام: عليم حين قال موسى «لَأَهْلِهِ» وهو في مسيره من مدينَ إلى مصرَ، وقد آذاهم بردٌ ليلهم لما أَصْلَدَ زَنْدُهُ»^(١) «إِنِّي آنَسْتُ نَارًا»: أي أبصرتُ نَارًا أو أَحَسَسْتُهَا، فامكثوا مكانكم «سَائِئِيكُمْ مِنْهَا خَبِيرٌ»، يعني من النار، والهاء والألف من ذكر النار، «أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ».

واختلفت القُرْأَةُ في قراءة ذلك، فقرأته عامة قُرْأَةُ المدينة والبصرة «بِشِهَابٍ قَبَسٍ» بإضافة الشهابِ إلى القبس، وترك التنوين، بمعنى: أَوْ آتِيكُمْ بِشِعْلَةٍ نَارٍ أَقْبَسَهَا مِنْهَا. وقرأ ذلك عامة قُرْأَةُ أهل الكوفة: «بِشِهَابٍ قَبَسٍ» بتنوين الشهاب وترك إضافته إلى القبس، يعني: أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ مُقْبَسٍ.

والصوابُ من القول في ذلك أنهما قراءتان معروفتان في قُرْأَةِ الأمصار، متقاربتا المعنى، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيب.

(١) أَصْلَدَ الزَّيْنُدُ: صَوَّتَ وَلَمْ يُورِ، أَي صَوَّتَ وَلَمْ يُخْرِجْ نَارًا.

وقوله: «لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ»، يقول: كي تصطلوا بها من البرد.

وقوله: «فَلَمَّا جَاءَهَا»، يقول: فلما جاء موسى النار التي آنسها «نُودِي أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا».

واختلف أهل التأويل في المعنى بقوله: «مَنْ فِي النَّارِ»، فقال بعضهم: عَنَى جُلَّ جلاله بذلك نفسه، وهو الذي كان في النار، وكانت النار نوره تعالى ذكره في قول جماعة من أهل التأويل.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: بُورِكَ النَّارُ.

واختلف أهل التأويل في معنى النار في هذا الموضع، فقال بعضهم: معناه: النور كما ذكرت عن ذكر ذلك عنه.

وقال آخرون: معناه النار لا النور.

وقوله: «وَمَنْ حَوْلَهَا»، يقول: وَمَنْ حَوْلَ النَّارِ. وقيل: عَنَى بمن حولها: الملائكة.

وقال آخرون: هو موسى والملائكة.

وقوله: «وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» يقول: وتنزيهاً لله رب العالمين، مما يصفه به الظالمون.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَمْوَسِي إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ وَالْقَوْلُ عَصَاكَ فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَرَىٰ عِيقَبٌ يَمْوَسِي لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمَرْسُولِ ﴿٢﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣﴾

يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيله لموسى: «إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ» في نقمته من أعدائه «الْحَكِيمُ» في تدبيره في خلقه، والهاء التي في قوله: «إِنَّهُ» هاء

عماد، وهم اسمٌ لا يظهرُ في قولِ بعضِ أهلِ العربية، وقال بعض نحوي الكوفة: يقول هي الهاء المجهولة، ومعناها: أن الأمر والشأن: أنا الله.

وقوله: «وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ» في الكلام محذوف ترك ذكره، استغناءً بما ذكر عما حذف، وهو: فألقاها فصارت حية تهتز «فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ» كأنها جان، يقول: كأنها حية عظيمة، والجان: جنس من الحيات معروف.

وقوله: «وَلَيْ مُذِبِرًا»، يقول تعالى ذكره: ولئى موسى هارباً خوفاً منها. «وَلَمْ يُعَقِّبْ»، يقول: ولم يرجع، من قولهم: عقب فلان: إذا رجع على عقبه إلى حيث بدأ.

وقوله: «يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ»، يقول تعالى ذكره: فناداه ربُّه: يا موسى لَا تَخَفْ من هذه الحية، إني لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ: يقول: إني لَا يَخَافُ عِنْدِي رُسُلِي وَأَنْبِيَائِي الَّذِينَ اخْتَصَّاهُمْ بِالنَّبُوءَةِ، إِلَّا مَنْ ظَلَمَ مِنْهُمْ، فَعَمَلٌ بِغَيْرِ الَّذِي أُذِنَ لَهُ فِي الْعَمَلِ بِهِ.

وقوله: «ثُمَّ بَدَّلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ»، يقول تعالى ذكره: فمن أتى ظلماً من خَلَقَ اللهُ، وَرَكِبَ مَأْتِماً، ثُمَّ بَدَّلْ حُسْنًا، يقول: ثُمَّ تَابَ مِنْ ظُلْمِهِ ذَلِكَ، وَرَكِبَهُ الْمَأْتِمُ، «فَإِنِّي غَفُورٌ»، يقول: فَإِنِّي سَاتِرٌ عَلَى ذَنْبِهِ وَظَلَمِهِ ذَلِكَ بِعَفْوِي عَنْهُ، وَتَرَكِ عَقُوبَتَهُ عَلَيْهِ «رَحِيمٌ» بِهِ أَنْ أَعَاقِبَهُ بَعْدَ تَبْدِيلِهِ الْحَسَنَ بِضَدِّهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ يَدٌ مِّنْ غَيْرِ

سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١١﴾

يقول تعالى ذكره مخبراً عن قِله لنبيه موسى: «وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ» ذَكَرَ أَنَّهُ تَعَالَى ذِكْرُهُ أَمْرُهُ أَنْ يُدْخِلَ كَفَّهُ فِي جَيْبِهِ، وَإِنَّمَا أَمْرُهُ بِإِدْخَالِهِ فِي جَيْبِهِ، لِأَنَّ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ يَوْمئِذٍ مِدْرَعَةٌ مِنْ صُوفٍ. قَالَ بَعْضُهُمْ: لَمْ يَكُنْ لَهَا كُمٌ.

وقال بعضهم: كان كُفْمُهَا إلى بعض يده.

وقوله: «تَخْرُجُ بَيِّضَاءً»، يقول: تخرج اليدُ بيضاءَ بغير لونِ موسى «من غير سوءٍ»، يقول: من غير برصٍ في تسعِ آياتٍ، يقول تعالى ذِكْرُهُ: أَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيِّضَاءً مِنْ غَيْرِ سُوءٍ، فهي آية في تسعِ آياتٍ مُرْسَلٌ أَنْتَ بِهِنَّ إِلَى فِرْعَوْنَ، وَتَرَكِ ذِكْرَ مُرْسَلٍ لِدَلَالَةِ قَوْلِهِ: «إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ» عَلَى أَنَّ ذَلِكَ مَعْنَاهُ.

وَالْآيَاتُ التَّسْعُ: هُنَّ: الْعَصَا، وَالْيَدُ، وَالْجِرَادُ، وَالْقَمَلُ، وَالضَّفَادِعُ، وَالطُّوفَانُ، وَالْدَّمُ، وَالْحَجَرُ، وَالطَّمَسُ الَّذِي أَصَابَ آلَ فِرْعَوْنَ فِي أَمْوَالِهِمْ. وقوله: «إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ»، يقول: إِنَّ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ مِنَ الْقَبِطِ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ، يَعْنِي كَافِرِينَ بِاللَّهِ، وَقَدْ بَيَّنَّا مَعْنَى الْفَسْقِ فِيمَا مَضَى.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فَلَمَّا جَاءَتْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ آيَاتُنَا، يَعْنِي أَدَلَّتْنَا وَحَجَجْنَا، عَلَى حَقِيقَةِ مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ مُوسَى وَصَحْتَهُ وَهِيَ الْآيَاتُ التَّسْعُ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا قَبْلُ. وقوله: «مُبْصِرَةً»، يقول: يُبْصِرُ بِهَا مَنْ نَظَرَ إِلَيْهَا وَرَأَاهَا حَقِيقَةً مَا ذَلَّتْ عَلَيْهِ.

[قَالُوا: هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ]، يقول: قَالَ: فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ: هَذَا الَّذِي جَاءَنَا بِهِ مُوسَى سِحْرٌ مُبِينٌ، يَقُولُ: يَبِينُ لِلنَّاظِرِينَ لَهُ أَنَّهُ سِحْرٌ.

وقوله: «وَجَحَدُوا بِهَا»، يقول: وَكَذَّبُوا بِالْآيَاتِ التَّسْعِ أَنْ تَكُونَ مِنْ عِنْدِ

وقوله: «وَأَسْتَيْقَنَتَهَا أَنْفُسُهُمْ»، يقول: وأيقنتها قلوبهم، وعلموا يقيناً أنها من عند الله، فعاندوا بعد تبيينهم الحق، ومعرفتهم به.

وقوله: «ظُلُمًا وَعُلُوءًا»، يعني بالظلم: الاعتداء، والعلو، الكبر، كأنه قيل: اعتداء وتكبراً.

وقوله: «فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ»، يقول تعالى ذكره لنبهه محمد ﷺ: فانظر يا محمد بعين قلبك كيف كان عاقبة تكذيب هؤلاء الذين جحدوا آياتنا حين جاءتهم مُبْصِرَةً، وماذا حلَّ بهم من إفسادهم في الأرض ومعصيتهم فيها ربهم، وأعقبوا ما فعلوا، فإن ذلك أخرجهم من جناتٍ وعيونٍ، وزروعٍ ومقامٍ كريمٍ، إلى هلاكٍ في العاجل بالغرق، وفي الآجل إلى عذابٍ دائمٍ، لا يفترونهم، وهم فيه مبلسون. يقول: وكذلك يا محمد سنتي في الذين كذبوا بما جئتهم به من الآيات على حقيقة ما تدعوهم إليه من الحق من قومك.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾

يقول تعالى ذكره: «وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا»، وذلك علم كلام الطير والدواب، وغير ذلك مما خَصَّهُمُ اللهُ بعلمه. «وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ»، يقول جل ثناؤه: وقال داود وسليمان: الحمد لله الذي فَضَّلَنَا بما خَصَّنَا به من العلم الذي آتانا دون سائر خلقه من بني آدم في زماننا هذا على كثير من عبادِهِ الْمُؤْمِنِينَ به في دهرنا هذا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ

عَلِمْنَا مَنَاطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾

النمل : ١٦-١٧

يقول تعالى ذِكْرَهُ: «وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ» أباه «دَاوُدَ» العلم الذي كَانَ آتَاهُ اللهُ فِي حَيَاتِهِ، وَالْمُلْكُ الذي كَانَ خَصَّهُ بِهِ عَلَى سَائِرِ قَوْمِهِ، فَجَعَلَهُ لَهُ بَعْدَ أَبِيهِ دُونَ سَائِرِ وَلَدِ أَبِيهِ. «وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ»، يَقُولُ: وَقَالَ سُلَيْمَانُ لِقَوْمِهِ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ، يَعْنِي: فَهَمْنَا كَلَامَهَا، وَجَعَلْ ذَلِكَ مِنَ الطَّيْرِ كَمَنْطِقِ الرَّجُلِ مِنْ بَنِي آدَمَ إِذْ فَهَمَهُ عَنْهَا.

وقوله: «وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ»، يَقُولُ: وَأَعْطَيْنَا وَوَهَبَ لَنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مِنَ الْخَيْرَاتِ. «إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ»، يَقُولُ: إِنَّ هَذَا الذي أُوتِينَا مِنَ الْخَيْرَاتِ لَهُوَ الْفَضْلُ عَلَى جَمْعِ أَهْلِ دَهْرِنَا الْمُبِينِ، يَقُولُ: الذي يَبِينُ لِمَنْ تَأَمَّلُهُ وَتَدَبَّرُهُ أَنَّهُ فَضْلٌ أُعْطِينَاهُ عَلَى مَنْ سِوَانَا مِنَ النَّاسِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَحِشَرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنِّ

وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: وَجُمِعَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فِي مَسِيرِ لَهُمْ فَهُمْ يُوزَعُونَ.

وَاخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ: «فَهُمْ يُوزَعُونَ»، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَى ذَلِكَ: فَهُمْ يُخَبَسُ أَوَّلُهُمْ عَلَى آخِرِهِمْ حَتَّى يَجْتَمِعُوا.

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ مَعْنَاهُ: فَهُمْ يَتَقَدَّمُونَ.

وَقَالَ آخَرُونَ: مَعْنَى ذَلِكَ: فَهُمْ يُسَاقُونَ.

وَأَوَّلَى هَذِهِ الْأَقْوَالِ بِالصَّوَابِ قَوْلُ مَنْ قَالَ: مَعْنَاهُ: يُرَدُّ أَوَّلُهُمْ عَلَى آخِرِهِمْ، وَذَلِكَ أَنَّ الْوَازِعَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ هُوَ الْكَافُ، يَقَالُ مِنْهُ: وَزَعَ فُلَانٌ فُلَانًا عَنِ الظُّلْمِ: إِذَا كَفَّهُ عَنْهُ. وَإِنَّمَا قِيلَ لِلَّذِينَ يَدْفَعُونَ النَّاسَ عَنِ الْوَلَاةِ وَالْأَمْرَاءِ وَزَعَةً: لِكَيْفِهِمْ إِيَّاهُمْ عَنْهُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ
يَأَيُّهَا النَّملُ ادْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا
يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «حتى إذا أتوا على وادي النمل» حتى إذا أتى
سليمان وجنوده على وادي النمل. «قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم
لا يحطمنكم سليمان وجنوده»، يقول: لا يكسرنكم ويقتلنكم سليمان وجنوده.
«وهم لا يشعرون»، يقول: وهم لا يعلمون أنهم يحطمونكم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي
أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ
وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فتبسّم سليمان ضاحكاً من قول النملة التي قالت ما
قالت، وقال: «رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ»، يعني بقوله:
«أوزعني» ألهمني.

وقوله: «وأن أعمل صالحاً ترضاه»، يقول: وأوزعني أن أعمل بطاعتك
ما ترضاه «وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين»، يقول: وأدخلني برحمتك
مع عبادك الصالحين، الذين اخترتهم لرسالتك وانتخبهم لوحيدك، يقول:
أدخلني من الجنة مداخلهم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَىٰ

الْهٰذِهْدَ اَمْ كَانَ مِنَ الْفٰكِيْن ۚ لَاَعٰذِبْتُهُ عَذَابًا شَدِيْدًا اَوْ
لَا اَذْبَحْتُهُ اَوْ لِيَاْتِيَنِيْ سُلْطٰنٌ مُّبِيْنٌ ۝

يقول تعالى ذكره: «وَتَفَقَّدَ» سليمان «الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهٰذِهْدَ»
وكان سبب تفقده الطير وسؤاله عن الهدهد خاصة من بين الطير. أن سليمان
نزل منزلة في مسير له، فلم يدر ما بعد الماء، فقال: مَنْ يعلم بُعد الماء؟
قالوا: الهدهد، فذاك حين تفقده.

وقوله: «فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهٰذِهْدَ» أخطاه بصري فلا أراه وقد حضر
أم هو غائب فيما غاب من سائر أجناس الخلق فلم يحضر.

وقوله: «لَاَعٰذِبْتُهُ عَذَابًا شَدِيْدًا»، يقول: فلما أخبر سليمان عن الهدهد
أنه لم يحضر وأنه غائب غير شاهد، أقسم «لَاَعٰذِبْتُهُ عَذَابًا شَدِيْدًا» وكان تعذيبه
الطير فيما ذكر عنه إذا عذبها أن يتنف ريشها.

وقوله: «اَوْ لَاَذْبَحْتُهُ»، يقول: أو لأقتله.

وقوله: «اَوْ لِيَاْتِيَنِيْ سُلْطٰنٌ مُّبِيْنٌ»، يقول: أو ليأتيني بحجة تبين لسامعها
صحتها وحقيقتها.

الْقَوْلُ فِي تَاْوِيْلِ قَوْلِهِ تَعَالٰى: فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيْدٍ فَقَالَ اَحَطْتُ بِمَا لَمْ
تُحِطْ بِهٖ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِيْنٌ ۝

يعني تعالى ذكره بقوله: «فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيْدٍ» فمكث سليمان غير طويل
من حين سأل عن الهدهد، حتى جاء الهدهد.

واختلف القراء في قراءة قوله: «فَمَكَثَ» فقرأت ذلك عامة قراءة الأمصار
سوى عاصم «فَمَكَثَ» بضم الكاف، وقراه عاصم بفتحها، وكلتا القراءتين عندنا

صواب، لأنهما لغتان مشهورتان، وإن كان الضم فيها أعجب إليّ، لأنها أشهر اللغتين وأفصحهما.

وقوله: «فَقَالَ أَحْطُتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ»، يقول: فقال الهدد حين سأله سليمان عن تخلفه وغيبته: أحطتُ بعلم ما لم تُحِطْ به أنت يا سليمان.
وقوله: «وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَا يُقِينِ»، يقول: وجئتُك من سبأ بخبر يقين.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾

يقول تعالى مخبراً عن قيل الهدد لسليمان مخبراً بعذره في مغيبه عنه «إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ»، يعني تملك سبأ، وإنما صار هذا الخبر للهدد عذراً وحجة عند سليمان، دراً به عنه ما كان أوعده به، لأن سليمان كان لا يرى أن في الأرض أحداً له مملكة معه، وكان مع ذلك ﷺ رجلاً حُبب إليه الجهاد والغزو، فلما ذلَّ الهدد على مُلكٍ بموضعٍ من الأرض هو لغيره، وقوم كفرة يعبدون غير الله، له بجهادهم وغزوهم الأجرُ الجزيل، والثواب العظيم في الأجل، وضمَّ مملكة لغيره إلى ملكه، حَقَّتْ للهددِ المعذرة، وصَحَّتْ له الحجة في مغيبه عن سليمان.

وقوله: «وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ»، يقول: وأوتيت من كل شيء يؤتاه الملك في عاجل الدنيا مما يكون عندهم من العتاد والآلة.

وقوله: «وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ»، يقول: ولها كرسي عظيم. وعنى بالعظيم

في هذا الموضع: العظيم في قَدْرِهِ، وَعِظَمِ خَطَرِهِ، لا عِظَمَهُ في الكبر والسعة.

وقوله: «وَجَدْتُنَّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ»، يقول: وجدت هذه المرأة ملكة سبأ، وقومها من سبأ، يسجدون للشمس فيعبدونها من دون الله.

وقوله: «وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ»، يقول: وحسن لهم إبليس عبادتهم الشمس، وسجودهم لها من دون الله، وحَبَّبَ ذلك إليهم «فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ»، يقول: فمنعهم بتزيينه ذلك لهم أن يتبعوا الطريق المستقيم، وهو دين الله الذي بعث به أنبياءه، ومعناه: فَصَدَّهُمْ عَنِ سَبِيلِ الْحَقِّ «فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ»، يقول: فهم لما قد زين لهم الشيطان ما زين من السجود للشمس من دون الله والكفر به لا يهتدون لسبيل الحق ولا يسلكونه، ولكنهم في ضلالهم الذي هم فيه يترددون.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾

قوله: «أَلَا يَسْجُدُوا»، بمعنى: وزين لهم الشيطان أعمالهم لئلا يسجدوا لله.

وعني بقوله: «يُخْرِجُ الْخَبَاءَ» يخرج المخبوء في السموات والأرض من غيب في السماء، ونبات في الأرض ونحو ذلك.

«وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ»، يقول: ويعلم السر من أمور خلقه، هؤلاء الذين زين لهم الشيطان أعمالهم والعلانية منها.

وقوله: «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: الله الذي لا تصلحُ العبادةُ إلا له، لا إله إلا هو، لا معبودَ سواه تصلحُ له العبادة، فأخلصوا له العبادة، وأفردوه بالطاعة، ولا تشركوا به شيئاً «رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ»، يعني بذلك: مالكُ العرشِ العظيم الذي كُلُّ عرشٍ وإنْ عَظُمَ فدونه، لا يُشبهه عرشٌ ملكةٍ سبأ ولا غيره.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «قَالَ» سليمان للهدد «سَنَنْظُرُ» فيما اعتذرت به من العذر، واحتججت به من الحجة لغيتك عنا، وفيما جئتنا به من الخبر «أَصَدَقْتَ» في ذلك كله «أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ» فيه «أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ».

فاختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معناه: اذهب بكتابي هذا؛ فألقه إليهم؛ فانظر ماذا يرجعون؛ ثم تَوَلَّى عَنْهُمْ منصرفاً إليّ، فقال: هو من المؤخر الذي معناه التقديم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم، ثم تَوَلَّى عَنْهُمْ فَكُنْ قَرِيباً مِنْهُمْ، وانظر ماذا يرجعون؛ قالوا: وفعل الهددُ وسمعَ مراجعةَ المرأةِ أهلَ مملكتها، وقولها لهم: «إِنِّي أُلْقِي إِلَيْكَ كِتَابَ كَرِيمٍ»، إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وما بعد ذلك من مراجعة بعضهم بعضاً. وهذا القول أشبه بتأويل الآية، لأنَّ مراجعة المرأة قومها، كانت بعد أن أُلْقِيَ إِلَيْهَا الْكِتَابُ، ولم يكن الهدد لينصرف وقد أُمِرَ بِأَنْ يَنْظُرَ إِلَى مِرْجَعَةِ الْقَوْمِ بَيْنَهُمْ

ما يتراجعونه قبل أن يفعل ما أمره به سليمان.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَتْ يَتَأْتِيَهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٨﴾
إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢٩﴾ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ
﴿٣١﴾

يقول تعالى ذكره: فذهب الهدهد بكتاب سليمان إليها، فالتقاء إليها؛ فلما قرأته قالت لقومها: «يا أيها الملأ! إنني أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ»، والملأ: أشراف قومها.

واختلف أهل العلم في سبب وصفها الكتاب بالكريم، فقال بعضهم: وَصَفَتْهُ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ كَانَ مَخْتُومًا.

وقال آخرون: وصفته بذلك لأنه كان من ملك فوصفته بالكرم لكرم صاحبه.

وقوله: «إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» كُسِرَتْ إِنْ الْأُولَى وَالثَّانِيَةُ عَلَى الرَّدِّ عَلَى إِمْنِي مِنْ قَوْلِهِ: «إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ». ومعنى الكلام: قالت: يا أيها الملأ! إنني أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ، وإنه من سليمان.

وقوله: «أَنْ لَا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ»، يقول: أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ.

وعنى بقوله: «أَنْ لَا تَعْلَمُوا عَلَيَّ»: أَنْ لَا تَتَكَبَّرُوا وَلَا تَتَعَاطَمُوا عَمَّا دَعَوْتُكُمْ إِلَيْهِ.

وقوله: «وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ»، يقول: وأقبلوا إليّ مُذْعِنِينَ لله بالوحدانية والطاعة.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قالت ملكة سبأ لأشراف قومها: «يا أيُّها الملأُ أفتوني في أمري»، تقول: أشيروا عليّ في أمري الذي قد حَضَرَنِي من أمرٍ صاحبِ هذا الكتابِ الذي أُلْقِيَ إِلَيَّ، فجعلت المشورة فتياً. وقوله: «ما كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ»، تقول: ما كُنْتُ قاضيةً أَمْرًا في ذلك حتى تشهدون، فأشاوركم فيه.

وقوله: «قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال الملأُ من قومِ ملكة سبأ إذ شاورتهم في أمرها وأمر سليمان: نحن ذوو القُوَّةِ على القتال، والبأسِ الشديدِ في الحرب، والأمر أيتها الملكة إليك في القتال وفي تركه، فانظري من الرأي ما ترين، فَمُرِينَا نَأْتِمِرْ لَأَمْرِكَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قالت صاحبة سبأ للملأ من قومها إذ عرضوا عليها أنفسهم لقتالِ سليمان إن أمرتهم بذلك: «إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً» عُنُوَّةٌ وَعَلَبَةٌ «أَفْسَدُوهَا»، يقول: خَرَّبُوهَا «وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً» وذلك باستعبادهم الأحرارَ، واسترقاقهم إياهم، وتناهى الخبرُ منها عن الملوكِ في هذا الموضع فقال الله: «وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وكما قالت صاحبة سبأ تفعلُ الملوكُ إذا دخلوا قريةً عتوةً.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَظَرْتُ بِمِ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانُ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَاءَ آتِنَنَّهُ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَانُكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأَيِّبَنَّهُمْ بِمِجُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾

ذكر أنها قالت: إني مرسلَةٌ إلى سليمان، لتختبرهُ بذلك وتعرفهُ به، أملكُ هو، أم نبي؟ وقالت: إن يكن نبياً لم يقبل الهدية، ولم يرْضهُ منا، إلا أن نتبعه على دينه، وإن يكن ملكاً قَبِلَ الهدية وانصرف.

وقوله: «فَنَظَرْتُ بِمِ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ»، تقول: فأنظر بآي شيء من خبره وفعله في هديتي التي أرسلها إليه ترجع رسلي، أقبول وانصرافٍ عنا، أم برد الهدية والثبات على مطالبتنا باتباعه على دينه؟ وقالت: «وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ» وإنما أرسلت إلى سليمان وحده على النحو الذي بيّنا في قوله: «عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ»، وقوله: «فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانُ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ».

إن قال قائل: وكيف قيل «فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانُ» فجعل الخبر في مجيء سليمان عن واحد، وقد قال قبل ذلك: «فَنَظَرْتُ بِمِ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ» فإن كان الرسولُ كان واحداً، فكيف قيل: «بِمِ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ» وإن كانوا جماعة فكيف قيل: «فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانُ»؟

قيل هذا نظير ما قد بيّنا قَبْلُ من إظهار العربِ الخبرِ في أمرٍ كان من واحدٍ على وجه الخبر عن جماعة إذا لم يقصد الخبر عن شخص واحد بعينه، يُشار إليه بعينه، فسمى في الخبر، وقد قيل: إن الرسول الذي وجهته ملكة سبأ إلى سليمان كان امرأً واحداً، فلذلك قال: «فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانُ» يُراد به: فلما جاء الرسولُ سليمان، واستدلَّ قائلو ذلك على صحة ما قالوا من ذلك بقول سليمان للرسول «أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ».

وقوله: «قال أتمدونن بمالٍ»، يقول: قال سليمان لما جاء الرسول من قبل المرأة بهداياها: أتمدونن بمال.

وقوله: «فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ»، يقول: فما آتاني الله من المال والدنيا أكثر مما أعطاكم منها وأفضل. «بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ»، يقول: ما أفرح بهديتكم التي أهديتم إليّ، بل أنتم تفرحون بالهدية التي تُهدى إليكم، لأنكم أهل مفاخرة بالدنيا، ومكاثرة بها، وليست الدنيا وأموالها من حاجتي، لأنَّ الله تعالى ذكَّره قد مكَّنني منها وملَّكني فيها ما لم يملِّك أحداً «ارْجِعْ إِلَيْهِمْ»، وهذا قول سليمان لرسول المرأة «ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا» لا طاقة لهم بها ولا قدرة لهم على دفعهم عما أرادوا منهم.

وقوله: «وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ»، يقول: ولنخرجنَّ مَنْ أَرْسَلَكُمْ مِنْ أَرْضِهِمْ أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ إِنْ لَمْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ يَكْتُمُونَ إِلَيْكُمْ بَعْثَ رَسُولٍ قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا أَنَا إِلَيْكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا أَنَا إِلَيْكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾

اختلف أهل العلم في الحين الذي قال فيه سليمان: «يا أيها الملأ أئكم يأتيني بعثها»، فقال بعضهم: قال ذلك حين أتاه الهدد بنبا صاحبة سبا، وقال له: «جئتكَ مِنْ سَبَا بِنِإٍ يَقِينٍ»، وأخبره أنَّ لها عرشاً عظيماً، فقال له سليمان ﷺ: «سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ» فكان اختبارُه صدقَه من

النمل: ٤٠

كذبه وأن قال لهؤلاء: أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِ هَذِهِ الْمَرْأَةِ قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ. وقالوا: إِنَّمَا كَتَبَ سُلَيْمَانُ الْكِتَابَ مَعَ الْهَدَّهِدِ إِلَى الْمَرْأَةِ بَعْدَمَا صَحَّ عَنْهُ صِدْقُ الْهَدَّهِدِ بِمَجِيءِ الْعَالَمِ بِعَرْشِهَا إِلَيْهِ عَلَى مَا وَصَفَهُ بِهِ الْهَدَّهُدُ، قَالُوا: وَلَوْلَا ذَلِكَ كَانَ مُحَالًا أَنْ يَكْتُبَ مَعَهُ كِتَابًا إِلَى مَنْ لَا يَدْرِي، هَلْ هُوَ فِي الدُّنْيَا أَمْ لَا؟ قَالُوا: وَأُخْرَى أَنَّهُ لَوْ كَانَ كَتَبَ مَعَ الْهَدَّهِدِ كِتَابًا إِلَى الْمَرْأَةِ قَبْلَ مَجِيءِ عَرْشِهَا إِلَيْهِ، وَقَبْلَ عِلْمِهِ صِدْقُ الْهَدَّهِدِ بِذَلِكَ، لَمْ يَكُنْ لِقَوْلِهِ لَهُ: «سَنَنْظُرُ أَصْدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ»، مَعْنَى، لِأَنَّهُ لَا يُلِمُّ بِخَبْرِهِ الثَّانِي مِنْ إِبْلَاغِهِ إِيَّاهَا الْكِتَابَ، أَوْ تَرْكِ إِبْلَاغِهِ إِيَّاهَا ذَلِكَ، إِلَّا نَحْوَ الَّذِي عِلِمَ بِخَبْرِهِ الْأَوَّلِ حِينَ قَالَ لَهُ «جِئْتُكَ مِنْ سَبِيلٍ بَنِيًّا يَقِينٍ»، قَالُوا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي الْكِتَابِ مَعَهُمْ امْتِحَانُ صِدْقِهِ مِنْ كَذِبِهِ، وَكَانَ مُحَالًا أَنْ يَقُولَ نَبِيُّ اللَّهِ قَوْلًا لَا مَعْنَى لَهُ وَقَدْ قَالَ: «سَنَنْظُرُ أَصْدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ» عِلْمُ أَنَّ الَّذِي امْتَحَنَ بِهِ صِدْقَ الْهَدَّهِدِ مِنْ كَذِبِهِ هُوَ مُصِيرُ عَرْشِ الْمَرْأَةِ إِلَيْهِ، عَلَى مَا أَخْبَرَهُ بِهِ الْهَدَّهُدُ الشَّاهِدُ عَلَى صِدْقِهِ، ثُمَّ كَانَ الْكِتَابُ مَعَهُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَيْهَا.

وقال آخرون: بَلْ إِنَّمَا اخْتَبَرَ صِدْقَ الْهَدَّهِدِ سُلَيْمَانُ بِالْكِتَابِ، وَإِنَّمَا سَأَلَ مِنْ عِنْدِهِ إِحْضَارَهُ عَرْشِ الْمَرْأَةِ بَعْدَمَا خَرَجَتْ رُسُلُهَا مِنْ عِنْدِهِ، وَبَعْدَ أَنْ أَقْبَلَتِ الْمَرْأَةُ إِلَيْهِ.

وَاخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي السَّبَبِ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ خَصَّ سُلَيْمَانُ مَسْأَلَةَ الْمَلَأِ مِنْ جَنْدِهِ إِحْضَارَ عَرْشِ هَذِهِ الْمَرْأَةِ مِنْ بَيْنِ أَمْلَاكِهَا قَبْلَ إِسْلَامِهَا، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ أَعْجَبَهُ حِينَ وَصَفَ لَهُ الْهَدَّهِدُ صِفَتَهُ، وَخَشِيَ أَنْ تُسَلِّمَ فَيَحْرُمَ عَلَيْهِ مَالُهَا، فَأَرَادَ أَنْ يَأْخُذَ سَرِيرَهَا ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَحْرُمَ عَلَيْهِ أَخْذُهَا بِإِسْلَامِهَا.

وقال آخرون: بَلْ فَعَلَ ذَلِكَ سُلَيْمَانُ لِيَعَاتِبَهَا بِهِ، وَيَخْتَبِرَ بِهِ عَقْلَهَا، هَلْ تَشَبَّهَتْ إِذَا رَأَتْهُ، أَمْ تَنْكِرُهُ؟

واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: «قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ»، فقال بعضهم: معناه: قبل أن يأتوني مستسلمين طوعاً.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: قبل أن يأتوني مسلمين الإسلام الذي هو دينُ الله .

وأولى الأقوال بالصواب في السبب الذي من أجله خصَّ سليمان بسؤاله الملائ من جنده بإحضاره عرشَ هذه المرأة دونَ سائرِ مُلْكِهَا عندنا، ليجعل ذلك حجةً عليها في نبوته، ويُعرِّفَهَا بذلك قُدْرَةَ اللَّهِ وعَظِيمَ شأنه، أنها خلَّفته في بيتٍ في جوفِ أبيات، بعضها في جوف بعض، مغلق مقفل عليها، فأخرجه الله من ذلك كله، بغير فتحٍ أغلاقٍ وأقفال، حتى أوصله إلى وَلِيِّهِ من خَلْقِهِ، وَسَلَّمَهُ إِلَيْهِ، فكان لها في ذلك أعظم حجة، على حقيقة ما دعاها إليه سليمان، وعلى صِدْقِ سليمانَ فيما أعلمها من نبوته .

فأما الذي هو أولى التأويلين في قوله: «قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ» بتأويله، فقول مَنْ قال: إن معناه طائعين، لأن المرأة لم تأتِ سليمانَ إِذْ أْتَتْهُ مسلمةً، وإنما أسلمتُ بعد مقدمها عليه وبعد محاورَةٍ جرتَ بينهما ومساءلة .

وقوله: «قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنَّ»، يقول تعالى ذِكْرَهُ: قال رئيسُ من الجنِّ ماردٌ قويٌّ .

وقوله: «أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ»، يقول: أنا آتيك بعرشها قبل أن تقومَ من مقعدك هذا، وكان فيما ذكر قاعداً للقضاء بين الناس، فقال: أنا آتيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَجْلِسِكَ هذا الذي جلستَ فيه للحكم بين الناس . وذكر أنه كان يقعدُ إلى انتصافِ النهار .

وقوله: «وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ» على ما فيه من الجواهر، ولا أخونُ فيه .
قوله: «قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ»، يقول جَلُّ ثَنَائِهِ: قال الذي

عنده علمٌ من كتابِ الله وكان رجلاً فيما ذكر من بني آدم .

وقوله : «أنا آتيك به قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ» ، اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك ، فقال بعضهم : معناه : أنا آتيك به قبل أن يصلَ إليك مَنْ كان منك على مَدِّ البصر .

وقال آخرون : بل معنى ذلك : من قبل أن يبلغ طَرْفُكَ مَدَّهُ وغايته .

وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال : قبل أن يرجع إليك طرفك من أقصى أثره ، وذلك أن معنى قوله : «يَرْتَدُّ إِلَيْكَ» يرجع إليك البصر ، إذا فتحت العين غير راجع ، بل إنما يمتدُّ ماضياً إلى أن يتناهى ما امتدَّ نوره . فإذا كان ذلك كذلك ، وكان الله إنما أخبرنا عن قائل ذلك : «أنا آتيك به قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ» لم يكن لنا أن نقول : أنا آتيك به قبل أن يرتدُّ راجعاً «إِلَيْكَ طَرْفُكَ» من عند منتهاه .

وقوله : «فَلَمَّا رآه مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ» ، يقول : فلما رأى سليمانُ عرشَ ملكةِ سبأ مستقراً عنده . وفي الكلام متروك استغني بدلالة ما ظهر عما ترك ، وهو : فدعا الله ، فأتى به ؛ فلما رآه سليمانُ مستقراً عنده .

وذكر أن العالم دعا الله ، فغار العرش في المكان الذي كان به ، ثم نبغ من تحت الأرض بين يدي سليمان .

وقوله : «قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي» ، يقول : هذا البصرُ والتمكُّنُ والمُلْكُ والسلطانُ الذي أنا فيه حتى حُمِلَ إليَّ عرشُ هذه في قَدَرِ ارتدادِ الطرفِ من مأربَ إلى الشام ، من فضلِ ربي الذي أفضَّله عليَّ وعطائه الذي جادَ به عليَّ «ليبلُوني» ، يقول : ليخبرني ويمتحنني ، أشكركُ ذلك من فعله عليَّ ، أم أكفرُ نعمته عليَّ بتركِ الشكرِ له .

وقد قيل : إن معناه : أشكركُ على عرشِ هذه المرأةِ إذ أُتيتُ به ، أم أكفرُ

النمل: ٤٠ - ٤٢

إِذْ رَأَيْتَ مَنْ هُوَ دُونِي فِي الدُّنْيَا أَعْلَمَ مِنِّي .

وقوله: «وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ»، يقول: وَمَنْ شَكَرَ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَفَضْلَهُ عَلَيْهِ، فَإِنَّمَا يَشْكُرُ طَلَبَ نَفْعٍ نَفْسِهِ، لِأَنَّهُ لَيْسَ يَنْفَعُ بِذَلِكَ غَيْرَ نَفْسِهِ، لِأَنَّهُ لَا حَاجَةَ لِلَّهِ إِلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، وَإِنَّمَا دَعَاهُمْ إِلَى شُكْرِهِ تَعْرِيفاً مِنْهُمْ لَهُمْ لِلنَّفْعِ، لَا لِاجْتِلَابٍ مِنْهُمْ بِشُكْرِهِمْ إِيَّاهُ نَفْعاً إِلَى نَفْسِهِ، وَلَا دَفْعَ ضَرٍّ عَنْهَا، «وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ»، يقول: وَمَنْ كَفَرَ نِعْمَهُ وَإِحْسَانَهُ إِلَيْهِ، وَفَضْلَهُ عَلَيْهِ لِنَفْسِهِ ظَلَمَ وَحَظَّهَا بِخَسٍّ، وَاللَّهُ غَنِيٌّ عَنْ شُكْرِهِ، لَا حَاجَةَ بِهِ إِلَيْهِ، لَا يَضُرُّهُ كُفْرُ مَنْ كَفَرَ بِهِ مِنْ خَلْقِهِ. كَرِيمٌ، وَمَنْ كَرَّمَهُ إِفْضَالُهُ عَلَى مَنْ يَكْفُرُ نِعْمَهُ، وَيَجْعَلُهَا وَصَلَةً يَتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى مَعَاصِيهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ

تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قَالَ سُلَيْمَانُ لَمَّا أَتَى عَرْشَ بَلْقِيسَ صَاحِبَةَ سَبَأَ، وَقَدِمَتْ هِيَ عَلَيْهِ لَجَنَدِهِ: غَيَّرُوا لِهَذِهِ الْمَرْأَةِ سَرِيرَهَا.

وقوله: «نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي»، يقول: نَنْظُرُ أَتَعْقِلُ فَتَثْبُتُ عَرْشَهَا أَنَّهُ هُوَ الَّذِي لَهَا «أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ»، يقول: مِنَ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ فَلَا تَثْبُتُ عَرْشَهَا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشِي قَالَتْ

كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: لَمَّا جَاءَتْ صَاحِبَةَ سَبَأَ سُلَيْمَانُ، أَخْرَجَ لَهَا عَرْشَهَا،

فقال لها: «أَهَكَذَا عَرْشُكَ؟» قالت وشبهته به: «كَأَنَّهُ هُوَ».

وقوله: «وَأَوْتَيْنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا»، يقول تعالى ذِكْرُهُ مخبراً عن قيل سليمان، وقال سليمان: «وَأَوْتَيْنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا» أي هذه المرأة، بالله وبقدرته على ما يشاء، «وَكُنَّا مُسْلِمِينَ» لله من قَبْلِهَا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ

مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وَمَنْعَ هذه المرأة صاحبة سبأ «مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ»، وذلك عبادتها الشمس أن تعبد الله.

وقوله: «إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ»، يقول: إِنَّ هذه المرأة كانت كافرة من قوم كافرين.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾

ذَكَرَ أَنَّ سليمانَ لما أقبلت صاحبة سبأ تريده، أمر الشياطين فَبَنُوا له صرحاً، وهو كهيئة السطح من قوارير، وأجرى من تحته الماء ليختبر عقلها بذلك، وفهمها على نحو الذي كانت تفعل هي من توجيهها إليه الوصائف والوصفاء ليميز بين الذكور منهم والإناث معاتبة بذلك كذلك. وجائز عندي أن يكون سليمان أمر باتخاذ الصرح للأميرين، ليختبر عقلها، وينظر إلى ساقها وقدمها، ليعرف صحة ما قيل له فيها.

وقوله: «فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً»، يقول: فلما رأت المرأة الصرْحَ حَسِبَتْهُ لِبْيَاضِهِ واضطرابِ دوابِ الماءِ تحته لُجَّةً بحرٍ كَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا لِتَخُوضَهُ إِلَى سُلَيْمَانَ.

وقوله: «إِنَّهُ صَرَخُ مُمَرَّدٍ مِنْ قَوَارِيرَ»، يقول جَلُّ ثَنَائِهِ: قَالَ سُلَيْمَانُ لَهَا: إِنَّ هَذَا لَيْسَ بِبَحْرِ، إِنَّهُ صَرَخُ مُمَرَّدٍ مِنْ قَوَارِيرَ، يَقُولُ: إِنَّمَا هُوَ بِنَاءُ مَبْنًى مُشِيدٍ مِنْ قَوَارِيرَ.

وقوله: «قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ... الآية»، يقول تعالى ذِكْرَهُ قَالَتِ الْمَرْأَةُ صَاحِبَةُ سَبَأَ: رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فِي عِبَادَتِي الشَّمْسِ، وَسَجُودِي لِمَا دُونَكَ «وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ»، تقول: وَأَنْقَذْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ مُدْعِنَةَ اللَّهِ بِالتَّوْحِيدِ، مُفْرَدَةً لَهُ بِالْأُلُوهَةِ وَالرَّبُوبِيَةِ دُونَ كُلِّ مَنْ سِوَاهُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٥٥﴾ قَالَ يَتَقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ» وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَا تَجْعَلُوا مَعَهُ إِلَهًا غَيْرَهُ. «فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ»، يقول: فَلَمَّا أَتَاهُمْ صَالِحٌ دَاعِيًا لَهُمْ إِلَى اللَّهِ صَارَ قَوْمُهُ مِنْ ثَمُودَ فِيمَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ فَرِيقَيْنِ يَخْتَصِمُونَ، فَرِيقٌ مُصَدِّقٌ صَالِحًا مُؤْمِنٌ بِهِ، وَفَرِيقٌ مَكْذِبٌ بِهِ كَافِرٌ بِمَا جَاءَ بِهِ.

وقوله: قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ، يقول تعالى ذِكْرَهُ: قَالَ صَالِحٌ لِقَوْمِهِ: يَا قَوْمِ لِأَيِّ شَيْءٍ تَسْتَعْجِلُونَ بِعَذَابِ اللَّهِ قَبْلَ الرَّحْمَةِ.

وقوله: «لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ»، يقول: هلا تتوبون إلى الله من كفركم، فيغفر لكم ربكم عظيم جُرمكم، يصفح لكم عن عقوبته إياكم على ما قد أنيتم من عظيم الخطيئة.

وقوله: «لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ»، يقول: ليرحمكم ربكم باستغفاركم إياه من كفركم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالُوا أَطِيرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: قالت ثمود لرسولها صالح «أَطِيرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ» أي تشاء منا بك وبمن معك من أتباعنا، وزجرنا الطير بأننا سيصينا بك وبهم المكاره والمصائب، فأجابهم صالح فقال لهم: «طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ» أي ما زجرتم من الطير لما يُصيبكم من المكاره عند الله عِلْمُهُ، لا يدري أي ذلك كائن، أما تظنون من المصائب أو المكاره، أم لا تَرْجُونَهُ من العافية والرجاء والمحاب. وقوله: «بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ»، يقول: بل أنتم قوم تُخْتَبَرُونَ، يختبركم ربكم إذ أرسلني إليكم، أطيعونه، فتعملون بما أمركم به، فيجزيكم الجزيل من ثوابه، أم تَعْصُونَهُ، فتعملون بخلافه، فيحل بكم عقابه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ سَعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: وكان في مدينة صالح، وهي حجر ثمود، سعة أنفسٍ

يفسدون في الأرض ولا يصلحون، وكان إفسادهم في الأرض: كُفَرُهُمْ بِاللَّهِ، ومعصيتهم إياه، وإنما خصَّ الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ هؤلاء التسعة الرهط بالخبر عنهم أنهم كانوا يفسدون في الأرض، ولا يصلحون، وإن كان أهل الكفر كُلُّهم في الأرض مفسدين، لأنَّ هؤلاء التسعة هم الذين سعوا فيما بلغنا في عقر الناقة، وتعاونوا عليه، وتحالفوا على قتل صالح من بين قومِ ثمود. وقد ذكرنا قصصهم وأخبارهم فيما مضى من كتابنا هذا.

وقوله: «قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال هؤلاء التسعة الرهط الذين يُفسدون في أرضِ حِجْرِ ثمود، ولا يصلحون، تقاسموا بالله: تحالفوا أيها القوم، ليحلف بعضكم لبعض: لَنُبَيِّتَنَّ صالحاً وأهله، فلنقتلنه. «ثم لنقولن لوليه: ما شهدنا مهلك أهله».

وقوله: «وَأِنَّا لَصَادِقُونَ»، نقول لوليه: وإنا لصادقون، أنا ما شهدنا مهلك أهله.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وَغَدَرَ هؤلاء التسعة الرهط الذين يفسدون في الأرض بصالحٍ بمصيرهم إليه ليلاً ليقتلوه وأهله، وصالحٌ لا يشعر بذلك. «وَمَكْرُنَا مَكْرًا»، يقول: فأخذناهم بعقوبتنا إياهم، وتعجيلنا العذاب لهم «وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» بمكرنا.

وقد بيَّنا فيما مضى معنى: مكر الله بمن مكر به، وما وجه ذلك، وأنه أَخَذَهُ مَنْ أَخَذَهُ مِنْهُمْ عَلَى غُرَّةٍ، أو استدراجهم منهم مَنْ استدرج على كفره به،

النمل: ٥١-٥٣

ومعصيته إياه، ثم إحلاله العقوبة به على غرة وغفلة.

وقوله: «فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: فانظر يا محمدُ بعين قلبك إلى عاقبةِ غدرِ ثمودَ بنبيهم صالح كيف كانت، وما الذي أورشها اعتدأؤهم وطغيانهم وتكذيبهم، فإن ذلك ستتنا فيمن كَذَبَ رسلنا، وطغى علينا من سائر الخلق، فَحَذَّرْ قومَكَ من قريش أن ينالهم بتكذيبهم إياكَ ما نالَ ثمود بتكذيبهم صالحاً من المثلّات.

وقوله: «أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ»، يقول: إنا دمرنا التسعة الرهط الذين يفسدون في الأرض من قوم صالح وقومهم من ثمود أجمعين، فلم نُبْقِ منهم أحداً.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا
وَكُنَّا يُتَّقُونَ ﴿٥٣﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ» فتلك مساكنهم خاوية خالية منهم، ليس فيها منهم أحدٌ، قد أهلكهم الله فآبادهم «بِمَا ظَلَمُوا»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: بظلمهم أنفسهم بِشِرْكِهِم بالله، وتكذيبهم رسولهم. «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إن في فعلنا بشمود ما قَصَصْنَا عَلَيْكَ يا محمدُ من القصة، لِعِظَةً لِمَن يَعْلَمُ فَعِلْنَا بِهِمْ ما فعلنا من قومكَ الذين يَكْذِبُونَكَ فيما جِئْتَهُمْ بِهِ من عِنْدِ رَبِّكَ وَعِبْرَةً. «وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا»، يقول: وأنجينَا من نَقَمْتَنَا وَعَذَابِنَا الَّذِي أَحْلَلْنَاهُ بِشُؤْمِ رَسُولِنَا صَالِحاً وَالْمُؤْمِنِينَ بِهِ. «وَكُنَّا يُتَّقُونَ»، يقول: وكانوا يتقون بإيمانهم، ويتصدقهم صالحاً الَّذِي حَلَّ

النمل: ٥٣-٥٦

بقومهم من ثمود ما حلَّ بهم من عذاب الله، فكذلك ننجيك يا محمد وأتباعك، عند إحلالنا عقوبتنا بمشركي قومك من بين أظهرهم.

وذكر أن صالحاً لما أحلَّ الله بقومه ما أحلَّ، خرج هو والمؤمنون به إلى الشام، فنزل رملة فلسطين.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ
الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ
بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾

يقول تعالى ذكره: وأرسلنا لوطاً إلى قومه، إذ قال لهم: يا قوم «أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون» أنها فاحشة، لعلكم بأنه لم يسبقكم إلى ما تفعلون من ذلك أحد.

وقوله: «أئنكم لتأتون الرجال شهوةً منكم بذلك من دون فروج النساء التي أباحها الله لكم بالنكاح».

وقوله: «بل أنتم قوم تجهلون»، يقول: ما ذلك منكم إلا أنكم قوم سفهاء جهلةٌ بعظيم حق الله عليكم، فخالفتهم لذلك أمره، وعصيتهم رسوله.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ

قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَنْطَهُرُونَ ﴿٥٦﴾

يقول تعالى ذكره: فلم يكن لقوم لوط جواب له، إذ نهاهم عما أمره الله بنهيهم عنه من إتيان الرجال، إلا قيل بعضهم لبعض «أخرجوا آل لوط من قريبتكم إنهم أناسٌ ينطهرون» عما نفعله نحن من إتيان الذكران في أدبارهم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ فَقَدَرْنَاهَا
مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ ﴿٥٨﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: فَأَنْجَيْنَا لوطاً وأهله سِوَى امْرَأَتِهِ من عَذَابِنَا حينَ أُخْلِلْنَاهُ
بِهِمْ، ثُمَّ «قَدَرْنَاهَا»، يَقُولُ: فَإِنَّ امْرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا: جَعَلْنَاهَا بِتَقْدِيرِنَا «مِنَ الْغَابِرِينَ»
مِنَ الْبَاقِينَ «وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا» وَهُوَ إِمْطَارُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ حِجَارَةً مِنْ
سِجِّيلٍ، «فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ»، يَقُولُ: فَسَاءَ ذَلِكَ الْمَطَرُ مَطَرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ
أَنْذَرَهُمُ اللَّهُ عِقَابَهُ عَلَى مَعْصِيَتِهِمْ إِيَّاهُ، وَخَوْفَهُمْ بِأَسْئَةِ بِإِرْسَالِ الرَّسُولِ إِلَيْهِمْ
بِذَلِكَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ
أَصْطَفَيْنَا اللَّهُ خَيْرًا مَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ «قُلْ»، يَا مُحَمَّدُ «الْحَمْدُ لِلَّهِ» عَلَى نِعَمِهِ
عَلَيْنَا، وَتَوْفِيقِهِ إِيَّانَا لَمَّا وَقَفْنَا مِنَ الْهَدَايَةِ. «وَسَلَامٌ»، يَقُولُ: وَأَمَنَةٌ مِنْهُ مِنْ عِقَابِهِ
الَّذِي عَاقَبَ بِهِ قَوْمَ لُوطٍ، وَقَوْمَ صَالِحٍ، عَلَى الَّذِينَ أَصْطَفَاهُمْ، يَقُولُ: الَّذِينَ
اجْتَبَاهُمْ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَجَعَلَهُمْ أَصْحَابَهُ وَوُزَرَءَهُ عَلَى الدِّينِ الَّذِي بَعَثَهُ
بِالدَّعَاءِ إِلَيْهِ دُونَ الْمُشْرِكِينَ بِهِ، الْجَاهِدِينَ نُبُوَّةَ نَبِيِّهِ.

وقوله: «ءَ اللَّهُ خَيْرٌ مَّا يُشْرِكُونَ»، يقول تعالى ذِكْرَهُ: «قُلْ»، يَا مُحَمَّدُ،
لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ زَيْنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ مِنْ قَوْمِكَ فَهُمْ يَعْمَهُونَ: اللَّهُ الَّذِي أَنْعَمَ عَلَى
أَوْلِيَائِهِ هَذِهِ النِّعَمَ الَّتِي قَصَّاهَا عَلَيْكُمْ فِي هَذِهِ السُّورَةِ، وَأَهْلَكَ أَعْدَاءَهُ بِالَّذِي
أَهْلَكَهُمْ بِهِ مِنْ صُنُوفِ الْعَذَابِ الَّتِي ذَكَرَهَا لَكُمْ، فِيهَا خَيْرٌ، مَّا تُشْرِكُونَ مِنْ
أَوْثَانِكُمْ الَّتِي لَا تَنْفَعُكُمْ وَلَا تَضُرُّكُمْ، وَلَا تَدْفَعُ عَنْ أَنْفُسِهَا وَلَا عَنْ أَوْلِيَائِهَا سُوءَ،

ولا تجلب إليها ولا إليهم نفعاً، يقول: إن هذا الأمر لا يُشكّل على مَنْ له عقل، فكيف تستجيزون أن تُشركوا عبادة مَنْ لا نفعَ عندهُ لكم، ولا دفعَ ضرٍّ عنكم في عبادة مَنْ بيدهِ النفعُ والضرُّ، وله كلُّ شيء. ثم ابتداءً تعالى ذكّره تعديداً نِعَمه عليهم، وأياديه عندهم، وتعريفهم بقلة شكرهم إياه على ما أولاهم من ذلك، فقال: «أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ».

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ؕ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٥٩﴾

يقول تعالى ذكّره للمشرّكين به من قُريش: أعبادة ما تعبدون من أوثانكم التي لا تضرُّ ولا تنفعُ خيرٌ، أم عبادة مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ؟ «وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً»، يعني مطراً، وقد يجوز أن يكون مريداً به العيون التي فجّرها في الأرض، لأنَّ كل ذلك من خَلْقِهِ «فَأَنْبَتْنَا بِهِ»، يعني بالماء الذي أنزل من السماء «حَدَائِقَ» وهي جمع حديقة، والحديقة: البستان عليه حائط محوَّط، وإن لم يكن عليه حائط لم يكن حديقة.

وقوله: «ذَاتَ بَهْجَةٍ»، يقول: ذاتَ منظرٍ حَسَنٍ.

وقوله: «مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا»، يقول تعالى ذكّره: أنبتنا بالماء الذي أنزلناه من السماء لكم هذه الحدائق إذ لم يكن لكم، لولا أنه أنزل عليكم الماء من السماء، طاقة أن تُنْبِتُوا شَجَرَ هذه الحدائق، ولم تكونوا قادرين على ذهاب ذلك، لأنه لا يصلح ذلك إلا بالماء.

وقوله: «أَءَلَهُ مَعَ اللَّهِ»، يقول تعالى ذكّره: أمعبودُ مع الله أيها الجَهْلَةُ خلق

النمل: ٦٠-٦١

ذلك، وأنزل من السماء الماء، فأنبَت به لكم الحقائق، فقلوه: أءلّه مردودٌ على تأويل: أَمَعَ اللهُ إِلَهُ. «بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ»، يقول جَلُّ ثَنَائِهِ: بل هؤلاء المشركون قوم ضلال، يعدلون عن الحق، ويجورون عليه، على عمْدٍ منهم لذلك، مع عِلْمِهِم بأنهم على خطأ وضلالٍ ولم يعدلوا عن جهلٍ منهم، بأن من لا يقدرُ على نفعٍ ولا ضررٍ، خيرٌ مِمَّنْ خلقَ السمواتِ والأرض، وفعل هذه الأفعال، ولكنهم عدلوا على عِلْمٍ منهم ومعرفة، اقتفاءً منهم سُنَّةَ مَنْ مضى قبلهم من آبائهم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْسَ اللَّهُ بِذِي عِلْمٍ أَكْثَرُ هُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٠﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: أعبادة ما تُشركون أيها الناس بربكم خيرٌ وهو لا يضرُّ ولا ينفع، أم الذي جعل الأرض لكم قراراً تستقرون عليها لا تמידُ بكم «وَجَعَلَ» لكم «خِلَالَهَا أَنْهَارًا»، يقول: بينها أنهاراً «وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ» وهي ثوابت الجبال، «وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا» بين العذب والملح، أَنْ يُفْسِدَ أَحَدُهُمَا صاحِبُهُ «أَلَيْسَ اللَّهُ بِذِي عِلْمٍ أَكْثَرُ هُمْ لَا يَعْلَمُونَ»؟

وقوله: «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»، يقول تعالى ذِكْرَهُ: بل أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون قَدْرَ عِظَمَةِ اللهِ، وما عليهم من الضرِّ في إشراكهم في عبادة الله غيره، وما لهم من النفعِ في إفرادهم الله بالألوهة، وإخلاصهم له العبادة، وبراءتهم من كلِّ معبودٍ سواه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ

وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَأَلَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا
تَذْكُرُونَ ﴿٦٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أم ما تُشركون بالله خيراً، أم الذي يجيب المضطر إذا
دَعَا، ويكشف السوء النازل به عنه؟

وقوله: «وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ»، يقول: ويستخلف بعد أمرائكم في
الأرض، منكم خلفاء أحياء يخلفونهم.

وقوله: «أَلَهُ مَعَ اللَّهِ»، يقول: أَلَهُ مَعَ اللَّهِ سواء يفعل هذه الأشياء بكم،
وينعم عليكم هذه النعم؟

وقوله: «قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ»، يقول: تَذْكُرًا قليلاً، من عظمة الله وأياديه
عندكم، تَذْكُرُونَ وتعتبرون حجج الله عليكم يسيراً، فلذلك أشركتم بالله غيره
في عبادته.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ
وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَأَلَهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا
يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أم ما تُشركون بالله خيراً، أم الذي يهديكم في ظلمات
البر والبحر إذا ضللتُم فيهما الطريق، فأظلمت عليكم السُّبُلُ فيهما.

قوله: «وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ»، يقول: والذي يرسل

(١) في المطبوعات والمخطوط ومفردات الراغب ولسان العرب: نُشْرًا - بضم النون
وسكون الشين المعجمة - وهي قراءة ابن عامر الشامي هنا وكذلك فعلنا في الآية
٥٧ من سورة الأعراف، وأثبتنا قراءة المصحف عند ورودها في التفسير.

النمل: ٦٣-٦٦

الرياح بُشراً لموتان الأرض بين يدي رحمته، يعني قدام الغيث الذي يحيي موت الأرض.

وقوله: «أَءَلَهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ»، يقول تعالى ذكره: أَلَهُ مع الله سوى الله يفعل بكم شيئاً من ذلك فتعبده من دونه، أو تشركوه في عبادتكم إياه. «تَعَالَى اللَّهُ»، يقول: لله العلو والرفعة عن شرككم الذي تشركون به، وعبادتكم معه ما تعبدون.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَمَّنْ يَبْدُوَ الْخَلْقَ ثُمَّ يَعْبُدُهِ، وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَءَلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾

يقول تعالى ذكره: أم ما تشركون أيها القوم خير، أم الذي يبدأ الخلق ثم يعبد، فينشئه من غير أصل، وابتدعه ثم يفنيه إذا شاء، ثم يعيده إذا أراد كهيته قبل أن يفنيه، والذي يرزقكم من السماء والأرض فينزل من هذه الغيث، وينبت من هذه النبات لأقواتكم، وأقوات أنعامكم «أَلَهُ مَعَ اللَّهِ» سوى الله يفعل ذلك؟ وإن زعموا أن إلهاً غير الله يفعل ذلك أو شيئاً منه فـ «قُلْ» لهم يا محمد، «هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ»: أي حجتكم على أن شيئاً سوى الله يفعل ذلك «إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» في دعوكم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلْ أَدْرَكَ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: «قُلْ»، يا محمد لسائلك من

المشركين عن الساعة متى هي قائمة «لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ» الذي قد استأثر الله بعلمه، وحجب عنه خلقه غيره، والساعة^(١) من ذلك. «وَمَا يَشْعُرُونَ»، يقول: وما يدري مَنْ في السموات والأرض من خلقه متى هُمْ مبعوثون من قبورهم لقيام الساعة.

وقوله: «بَلْ أَدَارِكْ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ»، اختلفت القراءة في قراءة ذلك، فقرأته عامة قراءة أهل المدينة سوى أبي جعفر وعامة قراءة أهل الكوفة «بَلْ أَدَارِكْ» بكسر اللام من بل وتشديد الدال من أَدَارِكْ، بمعنى: بل تدارك عِلْمُهُمْ أي تتابع علمهم بالآخرة هل هي كائنة أم لا.

وقرأته عامة قراءة أهل مكة: «بَلْ أَدْرِكْ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ» بسكون الدال وفتح الألف، بمعنى هل أدرك علمهم عِلْمَ الآخرة.

والصواب من القول في ذلك عندي أنهما قراءتان معروفتان في قراءة الأمصار، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيبٌ عندنا.

وقوله: «بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا»، يقول: بل هؤلاء المشركون الذين يسألونك عن الساعة في شكٍّ من قيامها لا يوقنون بها ولا يصدقون بأنهم مبعوثون من بعد الموت، «بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ»، يقول: بل هم من العلم بقيامها عَمُونَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاءُنَا
إِنَّا الْمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاءُنَا مِنْ قَبْلُ إِن هَٰذَا إِلَّا
أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾

(١) يعني: علم الساعة، وهو يوم القيامة.

يقول تعالى ذِكْرَهُ: قال الذين كفروا بالله إِنَّا لَمُخْرَجُونَ مِنْ قُبُورِنَا أَحْيَاءُ، كَهَيْئَتِنَا مِنْ بَعْدِ مَمَاتِنَا بَعْدَ أَنْ كُنَّا فِيهَا تَرَابًا قَدْ بَلَيْنَا. «لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ»، يقول: لقد وَعَدْنَا هَذَا مِنْ قَبْلِ مُحَمَّدٍ وَاعِدُونَ وَعَدُوا ذَلِكَ آبَاءُنَا، فلم نَرِ لَذَلِكَ حَقِيقَةً، ولم نَتَّبِعْ لَهُ صِحَّةً. «إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ»، يقول: قالوا: ما هذا الوعدُ إِلَّا ما سَطَّرَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْأَكَاذِبِ فِي كُتُبِهِمْ، فَأَثْبَتُوهُ فِيهَا وَتَحَدَّثُوا بِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لَهُ صِحَّةٌ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٦٩﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ «قُلْ»، يَا مُحَمَّدُ، لَهُؤُلَاءِ الْمَكْذِبِينَ مَا جِئْتُهُمْ بِهِ مِنَ الْأَنْبَاءِ مِنْ عِنْدِ رَبِّكَ: «سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا» إِلَى دِيَارِ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنَ الْمَكْذِبِينَ رُسُلَ اللَّهِ وَمَسَاكِنَهُمْ كَيْفَ هِيَ، أَلَمْ يُخَرِّبَهَا اللَّهُ، وَيَهْلِكْ أَهْلَهَا بِتَكْذِيبِهِمْ رُسُلَهُمْ، وَرَدَّهُمْ عَلَيْهِمْ نَصَائِحَهُمْ فَخَلَّتْ مِنْهُمْ الدِّيَارُ وَتَعَفَّتْ مِنْهُمْ الرُّسُومُ وَالْآثَارُ، فَإِنَّ ذَلِكَ كَانَ عَاقِبَةً لِجِرَامِهِمْ، وَذَلِكَ سُنَّةُ رَبِّكُمْ فِي كُلِّ مَنْ سَلَكَ سَبِيلَهُمْ فِي تَكْذِيبِ رُسُلِ رَبِّهِمْ، وَاللَّهُ فَاعِلٌ ذَلِكَ بِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَبَادَرُوا الْإِنَابَةَ مِنْ كُفْرِكُمْ وَتَكْذِيبِكُمْ رَسُولَ رَبِّكُمْ.

وقوله: «وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ»، يقول تعالى ذِكْرَهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: وَلَا تَحْزَنْ عَلَى إِدْبَارِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ عَنْكَ وَتَكْذِيبِهِمْ لَكَ «وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ»، يقول: وَلَا يَضِيقُ صَدْرُكَ مِنْ مَكْرِهِمْ بِكَ، فَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرُكَ عَلَيْهِمْ، وَمَهْلِكُهُمْ قِتْلًا بِالسَّيْفِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وَيَقُولُ مُشْرِكُو قَوْمِكَ يَا مُحَمَّدُ، الْمَكْذُوبُكَ فِيمَا أُتِيَتْهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّكَ «مَتَى» يَكُونُ «هَذَا الْوَعْدُ» الَّذِي تَعِدُّنَاهُ مِنَ الْعَذَابِ، الَّذِي هُوَ بِنَا فِيمَا تَقُولُ حَالٌ «إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» فِيمَا تَعِدُّونَنَا بِهِ. «قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفٌ لَكُمْ»، يَقُولُ جَلُّ جَلَالِهِ: «قُلْ» لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ: عَسَى أَنْ يَكُونَ اقْتَرَبَ لَكُمْ وَدَنَا «بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ» مِنْ عَذَابِ اللَّهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ «وَإِنَّ رَبَّكَ» يَا مُحَمَّدُ «لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ» بِتَرْكِهِ مُعَاجَلَتَهُمْ بِالْعُقُوبَةِ عَلَى مَعْصِيَتِهِمْ إِيَّاهُ، وَكُفْرِهِمْ بِهِ، وَذُو إِحْسَانٍ إِلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ وَفِي غَيْرِهِ مِنْ نِعَمِهِ عِنْدَهُمْ «وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ» عُلَى ذَلِكَ مِنْ إِحْسَانِهِ وَفَضْلِهِ عَلَيْهِمْ، فَيُخْلِصُوا لَهُ الْعِبَادَةَ، وَلَكِنَّهُمْ يَشْرَكُونَ مَعَهُ فِي الْعِبَادَةِ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَمَنْ لَا فَضْلَ لَهُ عِنْدَهُمْ وَلَا إِحْسَانَ.

وقوله: «وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ»، يَقُولُ: وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ ضَمَائِرَ صُدُورِ خَلْقِهِ، وَمَكْنُونَ أَنْفُسِهِمْ، وَخَفِيِّ أَسْرَارِهِمْ، وَعِلَانِيَةِ أُمُورِهِمُ الظَّاهِرَةِ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ مُخْصِيهَا عَلَيْهِمْ حَتَّى يَجَازِيَ جَمِيعَهُمْ بِالْإِحْسَانِ إِحْسَانًا وَبِالْإِسَاءَةِ جَزَاءَهَا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: «وَمَا مِنْ» مكتومٍ سرٍّ وخفيٍّ أمرٍ يغيبُ عن أبصارِ الناظرينَ «فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ» وهو أُمُّ الْكِتَابِ الَّذِي أَثْبَتَ رَبُّنَا فِيهِ كُلَّ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنْ لَدُنْ أَبَدًا خَلَقَ خَلْقَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. ويعني بقوله: «مُبِينٌ» أَنَّهُ يَبِينُ لِمَنْ نَظَرَ إِلَيْهِ، وَقَرَأَ مَا فِيهِ مِمَّا أَثْبَتَ فِيهِ رَبُّنَا جَلَّ ثَنَاؤُهُ.

وقوله: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقْصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ»، يقول تعالى ذِكْرَهُ: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي أَنْزَلْتَهُ إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ، يَقْصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ الْحَقَّ فِي أَكْثَرِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي اخْتَلَفُوا فِيهَا، وَذَلِكَ كَالَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ أَمْرِ عِيسَى، فَقَالَتِ الْيَهُودُ فِيهِ مَا قَالَتْ، وَقَالَتِ النَّصَارَى فِيهِ مَا قَالَتْ. وَتَبَرُّاً لِاخْتِلَافِهِمْ فِيهِ هَؤُلَاءِ مِنْ هَؤُلَاءِ، وَهَؤُلَاءِ مِنْ هَؤُلَاءِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي اخْتَلَفُوا فِيهَا، فَقَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ لَهُمْ: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقْصُّ عَلَيْكُمْ الْحَقَّ فِيمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ فَاتَّبِعُوهُ، وَأَقْرَأُوا لِمَا فِيهِ، فَإِنَّهُ يَقْصُّ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ، وَيَهْدِيكُمْ إِلَى سَبِيلِ الرِّشَادِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِنَّهُ لَهْدَى وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ

رَبِّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ لَهْدَى، يَقُولُ: لِبَيَانِ مِنَ اللَّهِ، بَيِّنَ بِهِ الْحَقَّ فِيمَا اخْتَلَفَ فِيهِ خَلْقُهُ مِنْ أُمُورِ دِينِهِمْ «وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ»، يَقُولُ: وَرَحْمَةً لِمَنْ صَدَّقَ بِهِ وَعَمَلَ بِمَا فِيهِ «إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ»، يَقُولُ: إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَ الْمُخْتَلِفِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِحُكْمِهِ فِيهِمْ، فَيَنْتَقِمُ مِنَ الْمُبْطِلِ مِنْهُمْ، وَيَجَازِي الْمُحْسِنَ مِنْهُمْ بِالْمَحَقِّ بِجَزَائِهِ «وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ»، يَقُولُ: وَرَبُّكَ الْعَزِيزُ فِي انتِقَامِهِ مِنَ الْمُبْطِلِ مِنْهُمْ وَمِنْ غَيْرِهِمْ، لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى مَنَعِهِ مِنَ الْإِنْتِقَامِ مِنْهُ إِذَا انتَقَمَ الْعَلِيمُ بِالْمَحَقِّ الْمُحْسِنَ مِنَ هَؤُلَاءِ الْمُخْتَلِفِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ، وَمِنْ غَيْرِهِمْ مِنَ الْمُبْطِلِ الضَّالِّ عَنِ الْهَدَى.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٨٠﴾ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨١﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ففوض إلى الله يا محمد أمورك، وثق به فيها، فإنه كافيك «إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ» لمن تأمله، وفكر ما فيه بعقل، وتدبره بفهم، أنه الحق، دون ما عليه اليهود والنصارى المختلفون من بني إسرائيل، ودون ما عليه أهل الأوثان المكذوبك فيما أتيتهم به من الحق، يقول: فلا يحزنك تكذيب مَنْ كَذَبَكَ، وخلاف من خالفك، وامض لأمر ربك الذي بعثك به، وقوله: «إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى»، يقول: إنك يا محمد لا تقدر أن تفهم الحق مَنْ طبع الله على قلبه فأماته، لأن الله قد ختم عليه أن لا يفهمه. «وَلَا تَسْمَعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ»، يقول: ولا تقدر أن تسمع ذلك مَنْ أَصَمَّ اللَّهُ عَنْ سَمَاعِهِ سَمْعَهُ. «إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ»، يقول: إذا هم أدبروا معرضين عنه، لا يسمعون له لغلبة دين الكفر على قلوبهم، ولا يصغون للحق، ولا يتدبرونه، ولا ينصتون لقائله، ولكنهم يعرضون عنه، وينكرون القول به، والاستماع له.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾

تأويل الكلام ما وصفت «وَمَا أَنْتَ» يا محمد «بِهَادِي» مَنْ أَعْمَاهُ اللَّهُ عَنْ الهدى والرشاد فجعل على بصره غشاوة عن أن يتبين سبيل الرشاد عن ضلالتة التي هو فيها إلى طريق الرشاد وسبيل الرشاد.

وقوله: «إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا»، يقول: ما تقدر أن تفهم الحق

النمل: ٨٢ - ٨٣

وَتَوْعِيهِ سَمِعَ أَحَدٌ إِلَّا سَمِعَ مَنْ يَصْدُقُ بَيَاتِنَا يَعْنِي بِأَدْلَتِهِ وَحُجَّتِهِ وَآيٍ تَنْزِيلِهِ «فَهُمْ مُسْلِمُونَ» فَإِنْ أَوْلَيْتَكَ يَسْمَعُونَ مِنْكَ مَا تَقُولُ وَيَتَذَكَّرُونَ، وَيَفَكِّرُونَ فِيهِ، وَيَعْمَلُونَ بِهِ، فَهُمْ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ.

(وقوله: «وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ»، يقول: إذا وجب الغضب عليهم أخرجنا لهم دابة^(١)).

وقال جماعة من أهل العلم: خروج هذه الدابة التي ذكرها حين لا يأمرُ الناسُ بمعروفٍ ولا ينهون عن منكر. وَذَكَرَ أَنَّ الْأَرْضَ الَّتِي تَخْرُجُ مِنْهَا الدَّابَّةُ مَكَّةَ.

وقوله: «تَكَلَّمْهُمْ»، يقول: تخبرهم وتحديثهم.

وقوله: «أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ» اختلفت القراءة في قراءة ذلك، فقرأته عامة قراءة الحجاز والبصرة والشام «إِنَّ النَّاسَ» بكسر الألف من «إِنْ» على وجه الابتداء بالخبر عن الناس أنهم كانوا بآيات الله لا يوقنون، وهي وإن كسرت في قراءة هؤلاء فإن الكلام لها متناول، وقرأ ذلك عامة قراءة الكوفة وبعض أهل البصرة «أَنَّ النَّاسَ كَانُوا» بفتح أن بمعنى: تكلمهم بأن الناس، فيكون حينئذ نصباً بوقوع الكلام عليها.

والصواب من القول في ذلك أنهما قراءتان متقاربتا المعنى مستفيضتان في قراءة الأمصار، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَيَوْمَ نَخْشِئُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ قَوَّامًا مَن يَكْذِبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٢﴾ حَقٌّ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ

(١) وقع في هذا الموضع سقط في المطبوعات والمخطوط، واستدركنا ما بين الحاصرتين من الآثار التي ساقها المؤلف تثبيتاً لتفسيره، ليتصل الكلام.

تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّا ذَاكُنَّكُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وَيَوْمَ نَجْمَعُ مِنْ كُلِّ قَرْنٍ وَمِلَّةٍ فَوْجًا، يعني جماعةً منهم، وزمرة «مِمَّنْ يُكَذِّبُ بآيَاتِنَا»، يقول: ممن يكذبُ بأدلتنا وحججنا، فهو يحبسُ أولَهُمْ على آخرِهِمْ، ليجتمعَ جميعُهُمْ، ثم يُسَاقُونَ إلى النار.

وقوله: «حتى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكْذَبْتُمْ بآيَاتِي»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: حتى إِذَا جاءَ من كُلِّ أمةٍ فَوْجٌ ممن يكذبُ بآياتنا فاجتمعوا قال الله: «أَكْذَبْتُمْ بآيَاتِي»: أي بحججي وأدلي. «وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا»، يقول ولم تعرفوها حقَّ معرفتها؟ «أَمْ مَّا ذَاكُنَّكُمْ تَعْمَلُونَ» فيها من تكذيبٍ أو تصديق.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وَوَجَبَ السَّخَطُ وَالْغَضَبُ من الله على المكذِبِينَ بآيَاتِهِ «بِمَا ظَلَمُوا» يعني بتكذيبهم بآياتِ الله، يوم يُحْشَرُونَ. «فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ»، يقول: فهم لا ينطقون بحجةٍ يدفعون بها عن أنفسهم عظيمَ ما حلَّ بهم ووقعَ عليهم من القول.

وقوله: «أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: أَلَمْ يَرَوْا هَؤُلَاءِ الْمَكْذِبُونَ بآياتنا تصريفنا الليل والنهار، ومخالفتنا بينهما بتصويرنا هذا سكناً لهم يسكنون فيه، ويهدؤون راحةً أبدانهم من تعبِ التصرفِ والتقلبِ نهاراً، وهذا مضيئاً يُبْصِرُونَ فيه الأشياءَ ويعاينونها فيقبلون فيه لمعايشهم، فيتفكروا في ذلك، ويتدبروا، ويعلموا أَنَّ مُصْرَفَ ذَلِكَ كَذَلِكَ هو الإله الذي

لا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، ولا يَتَعَذَّرُ عَلَيْهِ إِمَاتَةُ الْأَحْيَاءِ، وإِحْيَاءُ الْأَمْوَاتِ بَعْدَ الْمَمَاتِ، كما لم يَتَعَذَّرْ عَلَيْهِ الذَّهَابُ بِالنَّهَارِ وَالْمَجِيءُ بِاللَّيْلِ، وَالْمَجِيءُ بِالنَّهَارِ وَالذَّهَابُ بِاللَّيْلِ مَعَ اخْتِلَافِ أَحْوَالِهِمَا. «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إِنَّ فِي تَصْيِيرِنَا اللَّيْلِ سَكَنًا، وَالنَّهَارِ مُبْصَرًا لِدَلَالَةِ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ عَلَى قُدْرَتِهِ عَلَى مَا آمَنُوا بِهِ مِنَ الْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَحُجَّةَ لَهُمْ عَلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوُهُ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾

اختلف أهل التأويل في تأويل قوله تعالى: «وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ»، وقد ذكرنا اختلافهم فيما مضى، وبيننا الصواب من القول في ذلك عندنا.

قوله: «فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ»، يقول: ففزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالشَّيَاطِينِ، مَنْ هَوَّلَ مَا يَعَانُونَ ذَلِكَ الْيَوْمَ.

وقوله: «إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ»، قيل: إِنَّ الَّذِينَ اسْتِثْنَاهُمْ اللَّهُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ مَنْ أَنْ يَنَالَهُمُ الْفَزَعُ يَوْمَئِذٍ الشَّهَادَةُ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ، وَإِنْ كَانُوا فِي عِدَادِ الْمَوْتَى عِنْدَ أَهْلِ الدُّنْيَا.

وقوله: «وَكُلُّ أَتَوُهُ دَاخِرِينَ»، يقول: وَكُلُّ أَتَوُهُ صَاغِرِينَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَضَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وَتَرَى الْجِبَالَ» يَا مُحَمَّدُ «تَحْسَبُهَا» قَائِمَةً «وَهِيَ تَمُرُّ

مَرَّ السَّحَابُ»، يقول: ثم تسير، فيحسب رائيها لكثرتها أنها واقفة، وهي تسير سيراً حثيثاً.

قوله: «صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ» وأوثق خَلْقَهُ، «إنه خبير بما يفعلون»، يقول تعالى ذِكْرَهُ: إِنَّ اللَّهَ ذُو عِلْمٍ وَخَبْرَةٍ بما يفعلُ عباده من خَيْرٍ وشرٍّ وطاعة له ومعصية، وهو مجازي جميعهم على جميع ذلك على الخيرِ الخير، وعلى الشرِّ الشرِّ نظيره.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِمَّا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٩﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: «مَنْ جَاءَ» الله بتوحيده والإيمان به، وقول لا إله إلا الله مُوقِناً به قلبه، «فَلَهُ» من هذه الحسنَةِ عندَ الله «خَيْرٌ» يومَ القيامة، وذلك الخيرُ أَنْ يُثَبِّتَهُ اللهُ «مِنْهَا» الجنةَ، ويؤمِّنُهُ «مِنْ فَزَعٍ» الصيحةِ الكبرى وهي النفخ في الصور «وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ»، يقول: وَمَنْ جَاءَ بالشرك به يومَ يَلْقَاهُ، وجحود وحدانيته «فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ» في نار جهنم.

واختلفت القراءة في قراءة قوله: «وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ» فقرأ ذلك بعض قراءة البصرة «وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ» بإضافة فزع إلى اليوم. وقرأ ذلك جماعة قراءة أهل الكوفة «مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ» بتنوين فزع.

والصواب من القول في ذلك عندي أنهما قراءتان مشهورتان في قراءة الأمصار متقاربتا المعنى، فبأيهما قرأ القارئ فمصيب، غير أن الإضافة أعجب إليّ، لأنه فزع معلوم. وإذا كان ذلك كذلك كان معرفة على أن ذلك في سياق قوله: «وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ

إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ»، فإذا كان ذلك كذلك، فمعلوم أنه عني بقوله: «وَهُمْ مِنْ فَرْعِ يَوْمِئِذٍ آمِنُونَ» من الفرع الذي قد جرى ذِكْرُهُ قَبْلَهُ. وإذا كان ذلك كذلك، كان لاشك أنه معرفة، وأن الإضافة إذا كان معرفة به أولى من ترك الإضافة؛ وأخرى أن ذلك إذا أضيف فهو أبين أنه خبرٌ عن أمانه من كل أهوال ذلك اليوم منه إذا لم يُضَفْ ذلك، وذلك أنه إذا لم يُضَفْ كان الأغلب عليه أنه جعل الأمان من فرع بعض أهواله.

وقوله: «هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ»، يقول تعالى ذِكْرَهُ: يقال لهم: هل تُجْزَوْنَ أيها المشركون إلا ما كنتم تعملون، إذ كَبَّكُمُ اللَّهُ لوجوهكم في النار، وإلا جزاء ما كنتم تعملون في الدنيا بما يسخطُ رَبَّكُمْ، وترك: يقال لهم اكتفاء بدلالة الكلام عليه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّمَا أَمَرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ
الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ لنبه محمد ﷺ: يا محمد «قُلْ إِنَّمَا أَمَرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ» وهي مكة «الَّذِي حَرَّمَهَا» على خَلْقِهِ أَنْ يَسْفِكُوا فِيهَا دَمًا حَرَامًا، أَوْ يَظْلِمُوا فِيهَا أَحَدًا، أَوْ يُضَادَّ صَيْدَهَا، أَوْ يُخْتَلَى خِلَافَهَا دُونَ الْأَوْثَانِ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا أَيُّهَا الْمَشْرِكُونَ.

وقوله: «وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ»، يقول: ولربُّ هذه البلدة الأشياء كلها ملكاً، فإياه أَمَرْتُ أَنْ أَعْبُدَ، لا من لا يملك شيئاً. وإنما قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «رَبِّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ» الَّذِي حَرَّمَهَا، فَخَصَّهَا بِالذِّكْرِ دُونَ سَائِرِ الْبِلَادِ، وهو ربُّ البلاد كلها، لأنه أراد تعريف المشركين من قوم رسول الله ﷺ، الَّذِينَ هُمْ أَهْلُ مَكَّةَ بِذَلِكَ نِعْمَتِهِ عَلَيْهِمْ، وإحسانه إليهم، وأن الذي ينبغي لهم أَنْ يَعْبُدُوهُ هو الذي حَرَّمَ بِلَدَهُمْ، فَمَنَعَ النَّاسَ مِنْهُمْ، وهم في سائر البلاد يأكل بعضهم بعضاً، ويقتل بعضهم

النمل: ٩٣

بعضاً، لا مَنْ لَمْ تَجِرْ لَهُ عَلَيْهِمْ نِعْمَةٌ، ولا يَقْدِرُ لَهُمْ عَلَى نَفْعٍ وَلَا ضَرٍّ.
وقوله: «وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ»، يقول: وأمرني ربي أَنْ أُسَلِّمَ
وجهي له حنيفاً، فأكون من المسلمين الذين دانوا بدين خليله إبراهيمَ وَجَدَّكُمْ
أيها المشركون، لا مَنْ خَالَفَ دِينَ جَدِّهِ الْمُحَقِّ، ودانَ دِينَ إِبْلِيسَ عَدُوِّ اللَّهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ أَهْتَدَى فَأَتَمَّا يَهْتَدِي
لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿٩٣﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: «قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ» وَأَنْ أَكُونَ
مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ، فَمَنْ أَهْتَدَى، يقول: فمن تبعني وآمن بي وبما
جئتُ به، فسلِّكَ طريقَ الرشاد. «فَأِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ»، يقول: فإِنَّمَا يَسْلُكُ
سَبِيلَ الصَّوَابِ بِاتِّبَاعِهِ إِيَّايَ، وإيمانه بي، وبما جئتُ به لنفسه، لأنه بإيمانه
بي، وبما جئتُ به يَأْمَنُ نِقْمَتَهُ فِي الدُّنْيَا وَعَذَابَهُ فِي الْآخِرَةِ.

وقوله: «وَمَنْ ضَلَّ»، يقول: وَمَنْ جَارَ عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ بِتَكْذِيبِهِ بِي
وبما جئتُ به من عند الله «فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ»، يقول تعالى ذِكْرَهُ:
فَقُلْ يَا مُحَمَّدُ، لِمَنْ ضَلَّ عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ، وَكَذَّبَكَ، وَلَمْ يُصَدِّقْ بِمَا
جئتُ به من عندي، إِنَّمَا أَنَا مِمَّنْ يَنْذِرُ قَوْمَهُ عَذَابَ اللَّهِ وَسَخَطَهُ عَلَى
مَعْصِيَتِهِمْ إِيَّاهُ، وَقَدْ أَنْذَرْتُكُمْ ذَلِكَ مَعْشَرَ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، فَإِنْ قَبِلْتُمْ وَانْتَهَيْتُمْ عَمَّا
يَكْرَهُهُ اللَّهُ مِنْكُمْ مِنَ الشَّرِكِ بِهِ، فَحُظُوظُ أَنْفُسِكُمْ تُصَيِّبُونَ، وَإِنْ رَدَّدْتُمْ وَكَذَّبْتُمْ
فَعَلَى أَنْفُسِكُمْ جَنَّتُمْ، وَقَدْ بَلَّغْتُكُمْ مَا أُمِرْتُ بِإِبْلَاغِهِ إِيَّاكُمْ، وَنَصَحْتُ لَكُمْ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيَرِيكُمْ أَيُّهَا النَّبِيُّ فَتَعْرِفُونَهَا
وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾

النمل : ٩٣

يقول تعالى ذِكْرُهُ لَنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ : «قُلْ»، يا محمد، لهؤلاء القائلين لك من مشركي قومك «مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ - الْحَمْدُ لِلَّهِ» على نعمته علينا بتوفيقه إِيَّانَا لِلْحَقِّ الَّذِي أَنْتُمْ عَنْهُ عَمُونَ، سَيُرِيكُمْ رَبُّكُمْ آيَاتِ عَذَابِهِ وَسَخَطِهِ، فَتَعْرِفُونَ بِهَا حَقِيقَةَ نُصْحِي كَانَ لَكُمْ، وَيَتَبَيَّنُ صِدْقُ مَا دَعَوْتُكُمْ إِلَيْهِ مِنْ الرِّشَادِ.

وقوله : «وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ : وَمَا رَبُّكَ يَا مُحَمَّدُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ، وَلَكِنْ لَهُمْ أَجَلٌ هُمْ بِالْغُوهِ. فإِذَا بَلَغُوهُ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ، يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ لَنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ : فَلَا يَخْزُنَكَ تَكْذِيبُهُمْ إِيَّاكَ، فَإِنِّي مِنْ وَرَاءِ إِهْلَاكِهِمْ، وَإِنِّي لَهُمْ بِالْمُرْصَادِ، فَأَيُّقِنُ لِنَفْسِكَ بِالنَّصْرِ، وَلَعْدُوكَ بِالذَّلِّ وَالْخِزْيِ.

المجلد الخامس

فهرس المحتويات

٥	تفسير سورة الإسراء
٧٧	تفسير سورة الكهف
١٤١	تفسير سورة مريم
١٨٣	تفسير سورة طه
٢٣٧	تفسير سورة الأنبياء
٢٩١	تفسير سورة الحج
٣٤٩	تفسير سورة المؤمنون
٣٩١	تفسير سورة النور
٤٥٥	تفسير سورة الفرقان
٤٩٥	تفسير سورة الشعراء
٥٤٥	تفسير سورة النمل
٥٨٩	المحتويات

